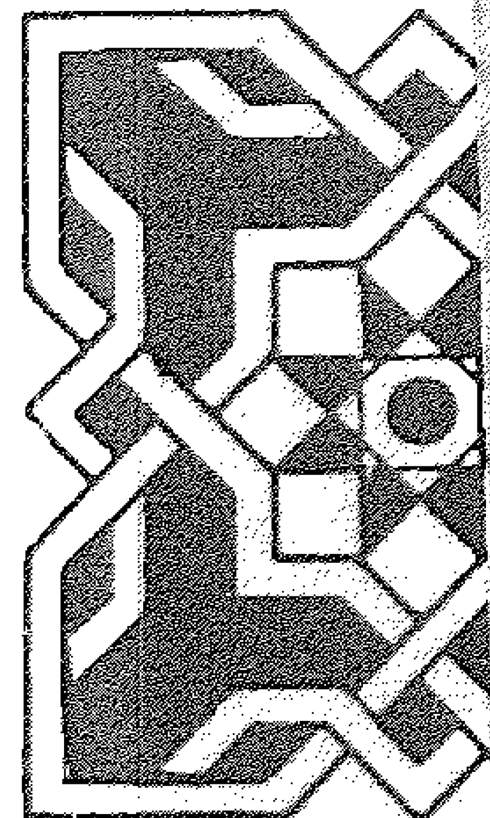
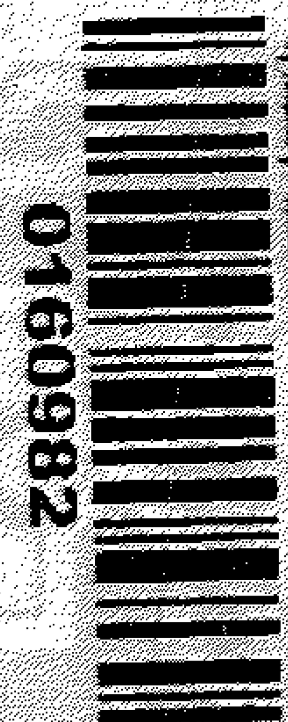
الدكتور محمد البهي

الدين والدولة

(من توجيه القرآن الكريم)

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠





الدكتور محمد البهي

الدين والدولة

(من توجيه القرآن الكريم)

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين
تليفون : ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثـانية

شعبان سنة ١٤٠٠ هـ ــ يونية سنة ١٩٨٠ م

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة

ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« ظهر الفساد فى البر والبحر بمـا كسبت ايدى النـاس ليذيقهم بعض الذى عملوا ، لعلهم يرجعون ·

قل :

سيروا فى الأرض (أى راجعوا التـاريخ) **فانظروا : كيف كان عاقبـة الذين من قبل ، كان اكثرهم مشركين** (أى ماديين ، ملحدين) ·

فاقم وجهك للدين القيم ، من قبل أن ياتى يوم لا مرد له من الله ، يومئذ يصدعون ·

من كفر فعليه كفره ،

ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ·

ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ،

انه لا يحب الكافرين · » (الروم : ٤١ ــ ٤٥)

قرآن كريم

مقـــــدمة

ان كتاب : « الدين والدولة » ــ من توجيه القرآن الكريم ــ يقدم للقارىء المسلم الخطوط الرئيسية لرسالة الاسلام فى حياة المجتمع الانسانى ، التى ترسم له طريقا عمليا فى العلاقات بين الأفراد فى نظام حكم انسانى ، يسمو فوق الحزبية والغرض والهوى ، وفى ظل دولة طابعها الالتزام ، دون القهر والالزام وتبنى ولا تهدم ، وتدفع العدوان ولا تعتدى ٠ وفى بنائها : تشارك فى الحضارة الانسانية بالقسط الأوفر ، وفى دفعها للعدوان : تحافظ على الروحية الانسانية وحدها ٠

ولكى يبرز هذه الخطوط الرئيسية فى فاعليتهـا وفى أثرها فى قيـــام المجتمع الانسانى ، وبقـائه قويا متماسكا ــ ان فى اعـداده ، أو فى عدته ــ تعرض الكتاب للخصومة الطبيعية بين : « المادية » التى يصورها الشرك فى الاعتقاد ، و « الروحية الانسانية » التى يمثلها الايمـان بالله ٠ كمـا تعرض للوسيلة المثلى التى ترسب الايمـــان بالله فى نفس الانســـان وتجعله حقيقة نفسية ؛ بعـــد أن يكون قولا تردده الشفاه ، أو بعـــد أن يكون موضوعا من موضوعات المنطق الانسانى يعالج بالحجة وحـدها ٠ وهى وسيلة العبـادة العملية فى صورها العديدة ٠

وفى عرضه للمادية ، أو الشرك بالله ، عرض لمظاهرها فى الايمان بالله ، وفى اتجاه الحياة ، كمـا عرض لآثارها فى ارتكاب الجرائم الاجتمـاعية من سرقة ، وزنا ، وقتل ، وفى ضرورة سقوط المجتمع المادى ، طال أمده أو قصر ٠

وفى تناوله للروحية الانسانية ــ أو روحية الاسلام ــ تناول تحديد هذه الروحية ، وبين أنها : ليست العزلة عن متع الحياة ، وليست التواكل وعدم السعى والعمل فى سبيل اقتناء هـذه المتع ٠ وانمـا هى العمل والسعى من أجلها ، والاستمتاع بهـا ، ولكن فقط دون أن يطغى المقتنى عن طريقهـا ، أو يعتـدى على حقوق الآخرين عند تحصيلها ٠ وهنـا أشـار الى ملكية المـال ومنفعته ، ووضح : أن الاسلام يرى الملكية الخاصة للمال مع المنفعة العـامة له ، مخالفا بذلك نظم الحضارة الأوروبية ، الراسمالية ، والماركسية معا ٠ كما أشار الى الطرق التى تضمن تحقيق منفعته العامة ٠ والى الأخرى التى تحول دون الانحراف فى استثماره ٠

وفى تصويره لنظام الحكم فى المجتمع الاسلامى أبان المبادىء العامة للسياسة الداخلية ، والأخرى للسياسة الخارجية فى علاقة الأمة الاسلامية بمن عداها ٠

وعند تحديد « الدولة » فى الاسلام عنى بتوضيح طابعها الانسانى والعالمى ، وبمبدأ : « الالتزام » ـ دون الالزام ـ للدولة الاسلامية ، وبضرورة كفالتها للشورى المتكافئة ، وحرية الرأى فى نقد سياسة الحكم الخارجية والداخلية ، على السواء فى المجتمع الاسلامى ٠ وأنها من أجل ذلك دولة أخلاقية ٠ وليست دولة بوليسية ارهابية ٠ ولا فردية استبدادية ٠ كما أن حكومتها ليست حكومة الهية ٠ وانما هى انسانية : تخطىء وتصيب ، فى تطبيقها لكتاب الله ٠ وعصمة كتاب الله ـ لهذا ـ لا تمتد اليها عند فهمه أو تطبيقه ٠

وان أنهى الكتاب ابوابه بالحديث عن الدعوة الاسلامية ، وطريقها ، والقائم بأمرها ، فانما ليدل على أن تكوين المجتمع الاسلامى قام ـ ويقوم ـ على أساس من الحرية والمشيئة الفردية فى الايمان بالله ـ دون الاكراه والالزام ـ ومن هنا كان المؤمن ملتزما عن مشيئة حرة خالصة بتحقيق مبادىء الرسالة التى آمن بها وما جاء فيها من واجبات وحقوق ٠٠٠ فانه مهد لأبوابه كلها بكلمة عن حركة التاريخ ، وأخرى عن مفهوم الحضارة أو التطور البشرى ، دفعا للبس قد يعترض القارىء عند ذكر النتائج المترقبة لأسباب قائمة ولها شبيه فى أحداث التاريخ التى مضت ، أو عند التعرض للتقدم العلمى والتيكنولوجى وأنه يتصل بوسائل الحياة البشرية ، أكثر مما يتصل بتغيير القيم الانسانية ذاتها ٠

والكتاب بأبوابه الستة يعطى صورة متكاملة لمنهج تخطيطى لمجتمع انسانى يبغى أن يقوم على مبادىء الاسلام ، ولمجتمع اسلامى قائم وله ماض وتاريخ . يريد أن ينفك الآن عن التبعية الفكرية فى نظام حكمه عن الغرب والشرق ، ويعيش فى يومه وغده ، فى مأمن من خوف « التخلف » وفى حرية حقيقية وتحرر من كل مصدر للاذلال ٠

انه يقدم الحجة على الاتباع للأجنبى عنهم ، ممن صارت اليهم قيادة المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، بأن الاسلام كما هو دعوة للسلام هو أيضا نظام حكم ، وطريق دولة ٠٠ نظام حكم انسانى تتجلى فيه خصائص الانسانية فى مستواها الرفيع ٠ وطريق دولة : الفرد فيها يمثل الأمة كلها ، والأمة هى علاقات المودة والمحبة والتضامن والتعاون بين الأفراد جميعا ٠

هو نظام حكم ينفر من التخلف والجهـل والأمية ، ويسعى للتخلص من الجرائم الاجتماعية ، ويدعو الى الاحسان ، بعد العدل ٠ وهو طريق دولـة يبتعد فيها الارهاب ، وتتوطد فيها الحرية الفردية ، ويلتزم الأفراد من أنفسهم بالواجبات المتبادلة ، وتنتهى فيها الوثنية الانسانية المعاصرة ، ويسود فيها الاعتبار الانســانى وحده ، دون الانتمــاء الى طبقة ، أو قبيلة ، أو طائفة ، أو مذهب ٠

والله وحده أرجو منه الثواب ٠

مصر الجديدة فى ٢٦ من رجب سنة ١٣٩٠ هـ ٠

٢٧ من سبتمبر سنة ١٩٧٠ م ٠

محمد البهى

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

التاريخ فى حركته :

ان حركة التـاريخ ليست أفقية تسير فى خط طويل لا نهـائى ·· انهـا حركة دائرية وهى لابد أن تكون دائرية ، لأن كل شىء فى الوجود ينطوى على نقيضه أو مقابله ؛ فالحياة تنطوى على نقيضهـا أو مقابلهـا وهو الموت · والضعف ينطوى على نقيضه أو مقابله وهو القوة · والصـحة تنطوى على مقابلها وهو المرض · والثراء ينطوى على مقـابله وهو الفقـر · والوحدة تنطوى على نقيضها أو مقابلها وهى الكثرة ·· وهكذا ·

ومعنى انطواء الشىء على نقيضه أو مقـابله أنه يمكن : أن يتحول هذا النقيض أو المقـابل · ان تحققت الظروف أو العوامـل التى تدفـع الى هذا التحول · أى أن كل شىء فى الوجود يمكن أن يتغير ، والى النقيض منه تماما · وهو اذ يتحول أو يتغير يمر بمراحل تشير الى تحوله وتغيره · وهذه المراحل هى التى تحدد سير حركة التاريخ · فحركته من الشىء الى نقيضه ، ثم مـن هذا النقيض الى الشىء أولا ، لأنه كان نقيضا ·

وهى مراحل متشابهة ، فأمارات الضعف واحدة ، وأمارات القوة واحدة كذلك وأمارات الاعتداء واحدة ، وأمارات العدل والاستقامة واحدة أيضا ·· وهلم جرا ·

فان وقع هناك اختلاف فى الأمارات بين الأمس واليوم فليس فى ذواتها ، وانما فى عوارضها أو وسائلها · فاذا وقع بالأمس مثلا اعتداء بالرمح فانه يقع اليوم بالصـــاروخ المختلف الأنواع · وان وقع بالأمس ظلم للانســان باستعباده وبجعله سلعة تباع وتشترى فى أسواق النخاسة ، فانه يقع اليوم بالحيلولة بينه وبين مباشرة حريته الفردية فى صورة أو فى أخـرى · وان

وقع بالأمس غصب للمال بالاكراه فانه يقع اليوم باسم القانون وباسم نظام الحكم ··· وهكذا ·

بالأمس كان عصر التخلف فى الصناعة ـ ولكن ربما ليس فى الانسانية ـ واليوم عصر التقدم فى العلم التيكنولوجى · والفــرق عندئذ بين الأمس واليوم هو فى المهارة والدقة فى الوسائل من جانب ، أو فى عدم المهارة وعدم الدقة من جانب آخر ، وليس فى الهدف والغاية ·

الهدف لم يتغير · والغاية لم تتغير · فاذا كان الهــدف هو الاستيلاء على ما للغير ، واذا كانت الغاية هى التوسع فى جانب لمصلحته على حساب جانب آخر ، فالهدف باق والغاية باقية . مع التغير فى الوسيلة أو فى الصورة التى يتم فيها الاستيلاء ويتحقق بها التوسع ·

الأنانية هى الأنانية ، برزت فى صورة بدائية أو فى أخرى فلسفية ··· فأنانية القــراصنة فى القــرون الوسطى لا تختلف عن أنانية الانتهازيين من « المكيافيلين » ولا أنانية المصلحين من « البراجماتيين » فى القرن العشرين · واللا أنانيــــة هى اللا أنانية : بدت لــدى الزاهد المنقطع ، أو الفيلســـوف المتصوف ·



والاستغلال للمال هو الاســـتغلال للمال ، لا يختلف فى الموضـــوع والجوهر ظهر فى مجتمع « مدين » قبل الاسلام ، أو فى مجتمع العالم الحــر فى أوروبا وأمريكا اليوم ·

هو مذموم يدل على جشع وأنانية ·· ومصير الذين يستغلون النـــاس بسبب ملكيتهم للمال هو الخسران الواضح ، ســـواء أكان بالأمس أو يكون اليوم ·

شاع فى مجتمع «مدين» بالأمس قبل الاسلام استغلال رأس المال فى الكيل والميزان أى استغلال حاجة الناس الى ما يكال أو يوزن ، فكان نقص الكيـل والميزان وسيلة لزيادة الأرباح على حساب قوت الناس وضروريات معيشتهم ، وان كان فى صورة مصغرة مما عليه الوضع اليوم فى النظام الراسمالى فى العالم الحر ·

وكان حتما : أن الذين يملكون المال ويستغلونه على هذا النحو لايؤمنون بالله وانما يؤمنون فقط بما يعتقدون أنه يدفع ضررا أو يجلب اليهم نفعا ، ولو

كان المال نفسه ولو كان ما يشبه المال فى حياتهم من انسان حى أو ميت ٠ كانوا « وثنيين » يعبدون ما لا ينبغى أن يعبد فى منطق الانسان السليم ، مادام يتوهم العابدون فيه نفعا أو ضرا ٠

وكان حتما أن يندد مثل هؤلاء بمن يقدم لهم النصح الخالص والمشورة التى تقيهم السوء اليوم وغدا ٠ بل ربما يتابعونه بالاضطهاد والايذاء ٠ وربما أيضا يحاولون التخلص منه بقتله ثم باخفاء أثر مشورته ونصحه ٠

كان حتما أن يكون هؤلاء وثنيين ماديين ، وكان حتما أيضا أن ينددوا أو يتعقبوا من ينصحهم بالعدول عن الظلم ثم مباشرة العدل فى المعاملة ، لأن أنانيتهم التى تتمثل فى أستغلال ملكيتهم للمال لحاجة الناس وضرورات معايشهم لا يمكن أن تستقيم مع قيم انسانية وفى مقدمتها العدل ، ولا أن تحملهم على أن يقبلوا على حب من يوجههم الى تلك القيم ٠

وحقيقة « الوثنية » هى المضادة للقيم الانسانية ، وليست عبادة الأصنام وحدها ، كما جرى عليه العرف التقليدى ٠ ولا تختلف نتائج الوثنية عن نتائج الأنانية ، اذ الأخيرة هى الدافعة الى قبول تلك ٠ فاذا تمثلت بالأمس فى عبادة حجر أو صنم ، واليوم فى عبادة انسان أو نظام معين ، فمرجعها بالأمس واليوم وغدا الى تسلط روح الأنانية على الوثنى فى ما يقدسه ويحترمه ٠٠

ويقص القرآن الكريم هذه الظواهر التى عرف بها مجتمع « مدين » فى استغلاله المال والانحراف به فيما تقوله الآيات الكريمة :

« والى مدين أخاهم شعيبا

قال يا قوم :

١ ـ اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ،

٢ ـ ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ٠

ويا قوم :

أوفوا المكيال والميزان بالقسط ٠ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ،

ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ٠ بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ،

وما أنا عليكم بحفيظ ٠

قالوا : يا شعيب

اصلاتك تامرك :

أن نترك ما يعبد اباؤنا ،

او ان نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟

انك لأنت الحليم الرشيد ؟

قال يا قوم :

ارايتم ان كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان اريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت واليه انيب •

ويا قـــوم :

لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما اصاب :

قوم نوح ،

أو قوم هود ،

أو قوم صالح ،

وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ، ثم توبوا اليه ، ان ربى رحيم ودود •

قالــوا يا شعيب :

ما نفقه كثيرا مما تقول ،

وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما انت علينا بعزيز •

قال يا قـــوم :

أرهطى اعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهـريا ، ان ربى بما تعملون محيط •

ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل ،

سوف تعلمون : من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب ؟ وارتقبوا انى معكم رقيب •

ولما جاء أمرنا : نجينا شعيبا والذين آمنوا معه ، برحمة منا ،

واخذت الذين ظلموا الصيحة ، فاصبحوا فى ديارهم جاثمين · كأن لم يغنوا فيها ،

الا بعدا لمدين ، كما بعدت ثمود » (١) ·

··· فالظلم الذى بدا فى مجتمع « مدين » كان ظلم المال ، مع العنت والتحدى لقبول أى نصح يحول دون ايقاف هذا الظلم ·

··· والعاقبة كانت الدمار والخراب لهذا المجتمع ، بعد أن استمر فى غواية المال والفتنة ·

··· والقرآن يربط فى النصح الذى قدم لهذا المجتمع ـ عن طريق رسالة شعيب ـ بين ثلاثة أشياء كأنها متلازمة فى الوقوع ، وكأن وقوعها أمر لا مفر منـه :

★ يربط بين :

١ ـ عبادة الأوثان ،

٢ ـ واستغلال المال فيما يضر الناس ،

٣ ـ والعبث والفساد فى المجتمع ·

ولأن عبادة الأوثان كـانت قدرا شائعا فى مجتمعات قديمة فاستغـلال المـال ـ مع ما يصاحبه من العبث والفساد ـ كـان الظاهرة المسيطرة على المجتمع فى « مدين » والتى من أجلها كانت رسالة شعيب عليه السلام · ويكاد يكون استغلال المال فيما يضر حياة الآخرين هو العامل الرئيسى الذى يدفع الى انحرافات كثيرة فى تقييم الحياة والسلوك فيها ·

والمحاورة التى جاءت على لسان شعيب وقومه تنبىء عن مدى الخطورة التى تترتب على الانحراف بالمـال فى استثماره من جانب ، ثم أيضـا مدى العناد والصلف فى الاصرار على الاستمتاع بـ « الحرية » فى مباشرة المال ، دون نظر الى عواقب هذه الحرية فى المباشرة وآثارها على مستقبل المجتمع نفسه من جانب آخر ·

فما ينبىء عن هذه الخطورة التى تترتب على الانحراف بالمال :

---

(١) هود : ٨٤ ـ ٩٥ ·

أولا : اقتران طلب العدل فى المكيال والميزان بطلب عبادة الله وحده فى قولــه : « **يــاقوم اعبدوا الله مــا لكم مــن الــه غيــره ، ولا تنقصوا المكيــال والميزان** » (١) ٠ ورســالة الدين توجه عنايتها الأولى الى « التوحيــد » فى العبادة ٠ فــاذا قرنت بالنهى عن الشرك ، النهى عن انقــاص الكيل والميزان فمعنى ذلك : أن النهى عن هذا الأخير يأخذ مكانة ـ نظرا لأهميته ، فى دعوة الرسول ـ لا تقل عن مكانة النداء الى عبادة الله وحده ٠

ثانيا : تكرار طلب العــدل فى الكيل والميزان هنــا فى تعبيرات ثلاثة : « **ولا تنقصوا المكيال والميزان** » ٠ « **أوفوا المكيال والميزان** » ٠ « **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** » ٠ وهذا التكرار فى صــورة النهى الخــاص أولا ، ثم فى صورة الأمر الخاص ثانيا ، ثم فى صورة نهى عام ٠٠٠

يوحى من غير شك بالخطورة والاهمية لما نهى عنه ، وأمر بفعل ضده ٠

وما ينبىء عن مدى العناد والصلف والتشبث بالمباشرة الحرة فى المال من غير قيد وفى غير رعاية الآخرين :

أولا : تنديد القوم بوصية شعيب لهم فيما يقولونه : « **ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنــا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشــاء ؟ انك لأنت الحليم الرشيد ؟** » (٢) ٠

وهو تنــديد فى صورة استنكــار وتوبيخ له ٠ اذ كيف يجــرؤ على أن يأمرهم بترك عبادة ما كان عليه آباؤهم ـ وهى عبادة الأوثان ـ ثم كيف يجرؤ كذلك على أن يقيد حريتهم فى التجارة وشئون المال ويطلب عدم نقص الكيل والميزان ؟ ٠ انها لكبيرة أن يجرؤ شعيب على ذلك ! ٠

وكيف يستقيم مــا يطلب مع مــا قيل او عرف عنــه : بأن تفكيره تفكير الانسان السليم ؟ ان هذين الأمرين لا يتفق احدهما مع الآخر ٠

وثانيا : بعد أن أعــاد شعيب الكرة فى النصــح عليهم متوعدا ايــاهم فيما قاله :

« **ان اريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت**

---

(١) هود : ٨٤ ٠ (٢) هود : ٨٧ ٠

واليه انيب · ويا قوم : لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد » (١) ·

··· كان ردهم : انهم لا يفقهون قوله هــذا ، واتبعوا هــذا الرد بتهديدهم اياه ، اذ قالوا : يا شعيب : « **مانفقــه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما انت علينا بعزيز** » (٢) · ··· مما يشعر بالتخلى تماما عن نصحه ، وبالتحدى لدعوته ، وبالاصرار على التزام الوضع القائم بينهم : وهو حرية المباشرة فى استثمار المال بدون قيد ، ولــو على حســاب الضعفاء أصحاب الحاجة ، والاســتمرار فى الشرك وعبادة الاوثان ، كما كان الآباء يفعلون من قبل ·

أما عاقبة هؤلاء المستغلين المكابرين الذين طغوا بمالهم ، وبعبادتهم ، فتحكيها هذه الآية الأخيرة : « **ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، واخـذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين · كأن لم يغنوا فيها** ··· » (٣)

··· كانت العاقبة هى الزلزال المدمر الذى لم يترك شيئا مما كان لهم ، كانهم لم يوجدوا اصلا ، وكأنه لم تكن لهم حياة فى مجتمهم · ولا يرى المار بمكانهم آنذاك سوى جثثهم ، هامدة وملصقة بالأرض ·

واستغلال رأس المال فى القرن التاسع عشر أو فى القرن العشرين ــ أو فى أى قرن بعد مجتمع « مدين » ــ لا يختلف فى أسبابه ونتائجه عن استغلال أصحاب الأموال فى المجتمع القديم الذى حكى القرآن الكريم قصته فى الآيات الســابقة · قد يختلف الأمر فى الاسلوب ، أو فى الصورة التى يكون عليهــا الاستغلال · ولكن معنى الاستغلال : قائم ، ودوافعه : لا تتغير ، ونتائجه حتما : ستقع ·

··· استغلال رأس المال فيما يسمى اليوم بالعالم الحر يعود حتما الى الأنانية ، وقد كانت الانانية ذاتها هى السبب فى رفض قوم شعيب فى مجتمع « مدين » لنصحه بالتخلى عن الاستغلال واتباع العدل فى المعاملة المالية ·

وأنانية الرأسماليين فى العالم الحر تؤكد وجودها بالتأثير على التوجيه السياسى والاقتصادى ، والاجتماعى ، كما كانت انانية المجتمع فى « مدين »

---

(١) هود : ٨٨ ، ٨٩ ·
(٢) هود : ٩١ ·
(٣) هود : ٩٤ ، ٩٥ ·

تؤكد وجودها فى الرفض والتحدى لما جاء به شعيب من نصح ، وفى الاصرار على الوضع المستغل كيفما كانت العواقب ·

والفرق بين الوضعين فيما مضى واليوم ، بجانب الانانية وتاكيدها ، هو فى الأسلوب فحسب :

فأسلوب الوضع المعاصر هو الأسلوب الذى ينفذ الى المؤسسات والنظم العامة فى المجتمع لتقوم بتبرير « أنانيته » عن طريق نشاطها الخاص بها ·· وهكذا تختفى وراء غايات تلك المؤسسات والنظم · وهذا يتيح لها الاستمرار فى النشاط الانسانى فى دائرة المال واستثماره دون أن تظهر بمظهر المتحدى للقيم الانسانية وللأسلوب الانسانى فى المعاملة · بينما أسلوب المجتمع القديم ليس هذا الأسلوب فى اللف والدوران ، بل كان أسلوبا صريحـا فى التحـدى والمعارضة لتغيير المعاملة المالية ··· كان اسلوبا بدائيا ·

وهناك فرق طبعا ـ وفرق شاسع ـ بين العمليات المالية بالأمس واليوم : فى سعة دائرة التعامل ، وضيقها ، وفى كثرة الارباح ، وقلتها فى الأرقام · ولكنـه فرق لايتصـل من قريب أو بعيـد بمعنى : الاستغـلال والانحراف فى مباشرة المال ·

ونتائج الانحراف فى مباشرة المال ـ أو نتائج ما يسمى بنظام الرأسمالية لاتختلف فى أى عصر بعد عصر « مدين » عنه فيه · وهى القلق ، والاضطراب والتنافر ، ثم الدمار والسقوط ·

و « الثورة الماركسية » كمصدر تهديد للنظـام الرأسمـالى وللمجتمع الحر الرأسمالى اكثر تأثيرا عليه فى عصرنا الحاضر من الزلزال الذى أطاح بمجتمع « مدين » ·

ثورة تستخدم التخريب ، واللا أخلاقية فى الحرب الباردة والساخنة على السواء ، وتشحن اكثرية العالم من العمال والجماهير بالحقد والكراهية ضد المجتمع الرأسمالى ، دون هوادة وفى غير ملل ·· كفيلة بالنيل من هذا المجتمع وبالقضـاء عليه ان أصر المـاليون المستغلون على بقـاء الفجوة فى الرعاية الاجتماعية بين اصحاب رؤوس الاموال من جانب وعمال المصانع من جانب آخر ، أو بين أصحاب الاقطاع من ناحية ، والفلاحين من ناحية اخرى ، على ما هى عليه ·

الزلزال الذى أصاب مجتمع « مدين » قضى عليه فى وقت قصير ، ولكن الثورة المـاركسية العمـالية العـالمية ستزيد من آلام المجتمع الرأسمـالى ،

ومتاعبه ، وقلقه واضطرابه ، قبل القضاء عليه وتحويله الى مجتمع لا طبقى ، وتحـويل الدولة فيــه الى ديكتــاتورية عمــالية · وبذلك ينوء هذا المجتمــع الرأسمالى تحت اثقال من الأنات ، والآلام ، والمآسى ، اقلها : الاحساس العميق بالتتبع والاضطهاد ، وتلك نتيجة أكثر قسوة وأشد عنفا من زلزال « مدين » :

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض الا قليلا ممن انجينا منهم ،

واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين ،

وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (١) ·



وسلب حرية الانسان ، واعتباره البشرى فى موضوعه : واحد لايتغير ، بين الأمس ، واليوم · وان اختلفت صورته أو أسلوبه ، تبعا للتخلف والبدائية من جانب ، وللتقدم الصناعى التيكنولوجى والعلمى من جانب آخر ·

··· سلب حرية الانســان بالأمس كــان عن طريق « الرق » وتمليكــه لانسان آخر يشتريه ويبيعه ، ويقومه بما يساويه فى سوق النخاسة من مال ، لا بملكاته ولا بطاقاته البشرية ·

ولا يعتد برأى الذكر من الأرقاء ، ولا بشهادته فى مجال القضاء ، ولا يعتبر حساب للمرأة من الرقيقات بين الزوجات ، وليست لها القيمة الانسانية الكاملة فى المعاملة ان تزوج بها حر ·

وعصر الرقيق المملوك فى التاريخ البشرى يرمز الى الهمجية والتخلف ، كما يرمز الى الطغيان بسبب القوة المادية ، أو بسبب المال ، أو بسبب الشرف فى الأسرة :

١ ـ انسان تقل قيمته عن انسان آخر ، فالعبد فى درجة ، وسيده فى أخرى مفضلة ·

٢ ـ انسان تقيد تصرفاته ، وتشل حريته ·

٣ ـ انسان كل ما له من حقوق على سيده : أن يأكل ، ويشرب ، ويلبس ·

---

(١) هود : ١١٦ ، ١١٧ ·

٤ ـ انســان عليه واجبات لا تنتهى : الطاعة فى العمــل ، والاستئذان فى الزواج ، فضلا عن عدم المعارضة ، أو مباشرة النقد ٠

٥ ـ انسان كل ما ينحدر منه يبقى فى ظروفه ووضعه ، ويقيم كسلعة ، وليس كفرد من الناس ٠

٠٠٠ ذلك هو الانسان الذى سلبت حريته بالأمس ، وكــان سلب حريته عنوانــا على همجيــة المجتمــع الذى يعيش فيه ، وعلى تخلفــه فى المجــال الانسانى ٠

والانسان فى عصرنــا الراهن اذا سلبت حريته من غير عنوان الرق ، وتحت عنوان براق خــادع ، واصبحت له مظاهر الرقيق الســابقة ٠٠٠ فهو « رقيق » رغم : ما يقــال عنه : انه « حر » ٠ ثم ان مجتمعه همجى متخلف ، رغم : انه يوصف بالتقدمية ٠

يصور القرآن الكريم صاحب الحرية الفردية ، ومن فقدها ، أدق تصوير فيما ضربه من مثل للرجلين فى قوله :

« وضرب الله مثلا رجلين :

١ ـ أحدهما أبكم ، لايقدر على شىء ،

وهو كل على مولاه ،

أينما يوجهه لا يات بخير ،

هل يستوى :

هو ،

٢ ـ ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم » (١) ٠

٠٠٠ فالذى فقد حريته الفردية كما يصوره القرآن هنا :

(أ) أبكم ، لا يستطيع الكلام ولا ابداء الرأى بالنقد أو المعارضة ، ولكنه ليس أصم ، لأنه فرض عليه ان يسمع كل ما يراد له أن يسمعه ، سواء كان هذا الفرض من سيده كشخص ، أو كنظام حكم ٠

---

(١) النحل : ٧٦ ٠

(ب) وهو فى رزقه وسعيه مرتبط بسيده ارتباطا وثيقا : سواء كان السيد فرداً فى نظام الرق فيما مضى ، أو الدولة فى نظام حكم معاصر يوصف بأنه « تقدمى » · فهو ليس له مجال عمل آخر غير ما يقدم له · وبذلك هو كل على مولاه ، وعالة عليه · وهو الخادم ، ومولاه الشخصى ، أو النظام ـ مخدوم · وهو المطيع ، ومولاه : الشخصى ، أو النظام مطاع · وهو الفانى فى سيده ، وسيده : الشخصى ، أو النظام ، موجود باق ·

(ج) انه لا يقدر على الحركة ـ فهو مشلول خارج الدائرة التى يعمل فيها من قبل السيد : الشخصى ، أو نظام الحكم ·

وهو فى سعيه المقيد ، وحركته الأسيرة ، لا يأت بخير · لأنه لا يتميز فى عمل ، ولا فى سعى ·· اذ فاقد الحرية والاختيار لا يعطى أصلا ، ولا ينتج الا بمقدار ما يدفعه الخوف وتحيط به الرهبة ·

··· أما الذى له حريته الفردية فهو :

يأمر بالعدل ، بعد أن يباشره فى تصرفاته ، وفى قوله ، وفى حكمه ·

ويسير على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ، بعد أن يتحرر من فتنة الغرائز ، واغراء الشهوات ويتخلص من تأثير المتع المادية · فهو يختار ويشاء، لاضغط عليه من داخل ذاته ولا من خارجها ·

وليست مباشرة الانسان للعدل فى قوله ، وحكمه ، وتصرفاته ـ فضلا على أمره به ـ وليست استقامته فى السلوك العملى نحو ذاته ونحو غيره فى مجتمعه ، بالشىء الهين اليسير ·

ان العدل ـ مباشرة وأمرا ـ يصور مرحلة فى حياة الانسان ، لم يصل اليها الا بعد تجارب شاقة فى صراعه مع ذاته · ان هذه المرحلة تمثل : التنازل عن حدة الأنانية ، الى الاعتدال فيها ، بحيث لم تعد تطغى على القول ، أو الحكم ، أو التصرف للانسان العادل ·

··· ان الاستقامة فى السلوك تصور من جانبها عزل الاغراء المادى عزلا كافيا عن ان يكون ذا شأن فى علاقة الانسان بالآخرين معه · وهذا معناه تهيؤ الانسان الآن للمعاونة وللتواد مع غيره فى المجتمع ·

وهاتان الظاهرتان فى حياة الانسان تنبئان عن : « الحرية الفردية » فى أجلى صورها ·

وشتان اذن بين الرجل الأول ، والرجل الثانى · والفرق بينهما فـرق شاسع ، ويكاد يكون هو الفرق بين الانسان ، والحيوان ·

والانسان المسلوب الحرية اذن لا يختلف جوهر سلب حريته فى جيل ما أو فى عصر ، عنه فى جيل أو فى عصر آخـر · والـذى يختلف فقط هـو : الاسلوب الذى تسلب به هذه الحرية الفردية ·

قد يكون الأختـلاف فى « الاسم » هو الاختلاف فى الأسـلوب · فاسم الرقيق فى نظام الرق الماضى يختلف عن اسم الرقيق فى نظام الحكم الماركسى فى المجتمع المعاصر · ولكن المعنى أو المسمى فى كلا النظامين هو : شخص قهر على ترك حريته الفردية ، وسلط عليه عامل الخوف والارهاب ، بحيث لا يفتح فمه الا : لتناول لقمة العيش ، ان أراد البقاء على قيد الحياة فى شبح انسان وصورته الجسمية ·

وما وقع فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ فى المجـر على يد الجيش الأحمـر السوفييتى من موجات القتل والتعذيب والارهاب لأولئك الذين رفعوا صوتهم من المجريين مطالبين بالحرية فى الرأى والتعبير ، وقع مثله فى ٢٠ أغسطس ١٩٦٨ ــ أى بعد ذلك باثنتى عشر سنة ــ فى تشيكوسلوفاكيا ، وشارك الجيش الأحمر السوفييتى فى ذلك جيوش : حلف وارسو من ألمانيا الشرقية ، وبلغاريا وبولاندا ، والمجر ، مما يدل على اصرار نظام الحـكم الماركسى لا على سلب الحرية الفردية والجماعية فى النقد والتعبير فقط ، بل على أن حركة التاريخ دورية وليست امتدادية · فعنـدما تجـد ظـروف معينة ، تتبعها حتما : تلك النتيجة التى تبعتها فيما مضى ·

ففى حوادث المجر سنة ١٩٥٦ وجـدت ظـروف التحـرر من الحـكم الاستالينى فى تطبيق الماركسية اللينينية وبالأخص فى مطالبة المثقفين والكتاب التى اعتبرها الاتحاد السوفييتى ظواهر : ما يسميه بـ « الثورة المضـادة » للثورة الماركسية · وكان لابد من أجل ذلك أن ينتقل الوضع من ضده القائم ، الى ضده الأول · وقد كان القصد هو سلب الحرية الفردية فى أبشع صورها ·

وفى حوادث تشيكوسلوفاكيا فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٦٨ كانت ظروف الوضع هى ظروف وضع المجر فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ قبل قيام الجيش الأحمر بعملية الانتقام والكبت والارهاب لثورته التحررية التى حكم عليها بانها ثورة مضادة اذ ذاك ·

فحـركة الاصـلاح السـياسى والاقتصـادى التى نادى بها زعمـاء تشيكوسلوفاكيا الجدد منذ يناير سنة ١٩٦٨ اعتبرها الروس ثورة مضـادة

للثورة الماركســية ، لأن تلك الحــركة وضعت حجــر الزاوية فى الاصــلاح السياسى : حرية الاجتماع وحرية النقد والتعبير ، وحرية الصحافة ، وحرية الانتخاب عن طــريق الاقتراع السرى ـ وليس عن طــريق الديماجوجية بأن يعلن معلن ما ـ « ســاعة الانتخاب فى مكان الاجتمــاع ـ بأن فلانا قد رشح نفســه ، أو أن بعض المواطنين قد رشحوا فلانا للرياسة ، وفلان هــذا هو صــاحب الشأن الأول فى النظــام أو تابع له فى علاقة واضحة ، قصــدا الى الحيلولة دون ترشيح آخر سواه · ثم أخيرا فى هذه الحــركة الاصــلاحية : فصل الحزب الشيوعى عن السلطة التنفيذية ، على معنى : أن مهمة الحزب يجب أن تكون المراقبة وتوجيه النصح والمشورة ، وليس القيام بالتنفيذ ·

والذين طالبوا أو قاموا بالحركة الاصلاحية فى تشيكوسلوفاكيا كانوا من العمال ، ورجال الفكر والثقافة ، أى كانوا من أصحاب المصلحة فى الثورة الماركسية · ومع ذلك نعتت حركتهم بأنها « ثورة مضادة » يدعمها الرجعيون والامبرياليون ·

وهذا الادعاء أو الاتهام هو السبيل الذى يسلكه النظام الماركسى فى كل مجتمع غلب على أمره فى خضوعه له ، عندما تظهر بادرة من بوادر المعارضة له فى وقت ما ·

ونظام الحكم الماركسى الالحادى يعتبر تقييد الصحافة ، وتوجيه وسائل الاعلام ، والرقابة على النشر عامة ، وامتــلاك أجهزتهــا وأدواتها ، هى : الضمان لبقاء النظام · ومن أجل ذلك هو شديد الحساسية بالكلمة الحــرة التى تقال فى المجالس والمجتمعات ، أو تكتب فى الكتب والسجلات والنشرات ·

والضمان الوحيد لحرية الانسان الفردية اذن هو الايمان بالله وحده ، لأنه سيحول بينه وبين الايمان بسيادة الانسان على الانسان ، أو بســـيادة النظام فى الحكم على الانسان ، أو بسيادة « الحزب » أو أى موجود آخــر عدا الله ، على الانسان ·

وهذا هو البداية فى الانطلاق فى سبيل الحرية الفردية نحو « التقييم » ووزن العلاقات والحــكم عليها بما يقــربها من واقعها · كما هو البداية فى ابعاد شبح التجسيم والتضخيم فى التخيل أو فى التصور ، لأمور هى أتفه من أن تكون فى عــداد الموجــودات ·· هو البداية فى ابعاد الوثنية فى جميع صورها · فالوثنية عدو الحريــة الفردية ، أو سجنها الحصين ·

★★★

والتاريخ بعد ذلك اذن لا يسير فى اتجاه امتدادى طولى لا نهائى ، بل تتحرك أحداثه فى دائرة النقيض • وتغير المجتمع من وصف الى وصف ، أو من نظام الى نظام ، أو من دين الى دين ، أو من ايديولوجية الى أخرى ••• هو تغيير من وضع الى آخر مختلف عنه تماما • وانتقاله من الوضع السابق الى الوضع اللاحق ليس بالضرورة ولا بالأمر الحتمى فى الوقوع ، الا اذا بدت أمارات الوضع الثانى ، فاذا تكاملت هذه الأمارات يكون تغيير المجتمع ، أو يكون انتقاله قد تم • ولكن التغيير فى ذاته كمبدأ ، أمر محتمل فحسب •

وعندما يذكر القرآن الكريم بقوله : « ••• **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » (١) فانه يشير الى استكمال مقومات المجتمع الاسلامى الاول فى « يثرب » والى انه أصبح حقيقة لا شك فيها ، وهو مجتمع يختلف تماما عن مجتمع الجاهلية قبله ، وهو ذلك المجتمع الذى كان يحتكم الى الهوى دون كتاب الله ، ويسير وفق ما تمليه الشهوات ، دون ما يرجع فى العقل :

« **وان احكم بينهم بما أنزل الله**

ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ،

فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيرا من الناس لفاسقون • أفحكم الجاهلية يبغون ؟

ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون ! » (٢) •

والنظرية التى تقول بالتغيير الحتمى للمجتمع الرأسمالى الى نقيضه ، الذى هو مجتمع ديكتاتورية (البروليتاريات) (Proletariat) (٣) ثم بوقوف التغيير حتميا كذلك ، بدلا من أن يكون محتملا فحسب ••• هى نظرية خاطئة • اذ التغيير فى ذاته ممكن ، ولكن حتميته عندما تزحف أمارات الوضع الآخر ، بينما تأخذ أمارات الوضع القائم فى الاختفاء • فالنقيض يمكن أن يصير الى نقيضه ، أى انه قابل للتحول والتغير الى هذا النقيض • ولكن صيرورته بالفعل الى النقيض ، عندما يتخلى النقيض الاول عن خصائصه •

---

(١) المائدة : ٣ (٢) المائدة : ٤٩ ــ ٥٠

(٣) رمز الطبقة الدنيا فى المجتمع الذى كانت تلى طبقة العبيد والارقاء فى المجتمعات السابقة •

فقابلية المجتمع الراسمالى الى التحـــول الى مجتمع ديكتـــاتورية البروليتاريات فى ظل الفجوات الواسعة فى الرعاية والخدمات الاجتمـاعية بين أصحاب المصانع من جهة ، والعمال فيها من جهـة أخرى ، هى قابليـة احتمال فى القبول · ولكن اذا ضاقت هذه الفجوات وأصـبح العمـــال فى المصانع يشعرون بآدميتهم وبكرامتهم ، وباستمتاعهم بما ينتجون تحت اشراف أصحابها ، فان احتمال التحـول يكون أقل فى دائرة الامكانيـــة ، أى يبقى ممكنا ، ولكن ليس حتميا ، كما تدعى النظرية السابقة ، لأن الحتمية هى الأمر المفروغ من وقوعه اليوم أو غدا ، ولا مفر اذن من هذا الوقوع على أية حال·· وفرق بين امكان الوقوع ، والوقوع على أية حال ·

وتخطىء هذه النظـرية ثانيا بالالتـزام بوقف التغير للمجتمع عنـدما يتحول : عند ديكتاتورية البروليتاريات · وتحول بذلك دون امكان التغير من جديد ، من ديكتاتورية البروليتاريات الى وضع آخر هو على النقيض له · مع أن انتقال النقيض الى نقيضه من الأمور الممكنة العامة ، أى التى لا تقف عن الحركة فى الانتقال والتغير · فالنظرية بالتزامها الوقوف بالتغيير عند مجتمع البروليتاريات تسلب اذن ذاتية هـذا المبـــدأ من خصيصتها ، وهى الامكان والاحتمال الدائم · وهذا يجعلها ـ بالاضافة الى الخطأ السابق ـ تنظر الى الاوضاع نظرة المغرض والمتحيز ، ولا تنظر اليها النظرة التجريدية التى يوحى بها الفكر الفلسفى ·

ويتضح الآن :

أولا : أن حـــركة التاريخ فى الأحـداث وربط الأســباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، لا تسير أفقية الى ما لا نهاية ، وانما الأحـــداث تتكرر والأوضاع تتشابه ، وما وقع بالأمس يمكن أن يقع غدا ، ان وجدت الظروف والملابسات المتماثلة فى موضوعا وجوهرها · ولذا فالحركة التاريخية حركة دائرية ، وليست امتدادية ·

ثانيا : ان الدائرة التى تسير فيها أحداث التاريخ هى دائرة النقائض : تبتـــدىء من نقيض الى نقيضه ، وهى عود على بدء : « **يخـــرج الحى من الميت ويخـــرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعـــد موتها** » (١) « **واليه النشور** » (٢) ·

---

(١) الروم : ١٩

(٢) الملك : ١٥

ثالثا : ان انتقال النقيض فى حركته الى نقيضه ، أو انتقال النقيض فى صيرورته الى نقيضه ، هو : أمر ممكن فى ذاته · ولا يتعين الانتقال ويتحتم ، الا اذا ظهرت عوامل النقيض الثانى ·

فالحى يمكن أن يموت ـ ولكنه لا يتحتم موته الا اذا ظهرت عوامل الموت ، وكادت تختفى عوامل الحياة ·

والمجتمع يمكن أن يتغير · فالمجتمع العادل يمكن ان يتغير الى مجتمع ظالم ، والعكس بالعكس ·· ·· ولكنه لا يتحتم تغييره الى أيهما ، الا اذا سيطرت عوامل الظلم ، أو سيطرت عوامل النقيض المقابل ، وهى عوامل العدل ، واختفت أو كادت تختفى ، العوامل المقابلة السابقة ·

واذا كانت حركة التاريخ دائرية ، ووقوع الأحداث والتغييرات فى المجتمعات هو من الأمور الممكنة ، وتغيرها هو : الى نقائضها ، فمهما امتد زمن التاريخ البشرى ، فمجتمعات الانسانية لا تخرج عن أحد وصفين ، توصف به حتما فى آن واحد : لأن النقيض ليس له الا نقيض واحد ، وأن الوجود كله لا يحتوى الا على النقيض ونقيضه ·



الحضارة ، او التطور :

والتطور الذى يمر بالمجتمعات الانسانية ، يمر بالوسائل التى يحيا ويعيش بها الانسان ، وليس بمبدأ التغيير وامكان وقوعه ، ولا بالمعانى والقيم الانسانية التى هى أصول لما يعرف : بالحضارة الانسانية ·

فالحضارة الانسانية التى كونها الانسان فى تاريخه الطويل ـ منذ أن عرف له تاريخ حتى الآن ـ لا تخرج عن ممارسة الانسان لخصائصه فى التفكير ، والوجدان ، والسلوك العملى : فالفلسفة والقانون ، والأدب والفن ، والمقاييس الاخلاقية : فى مقدمة الانتاج الحضارى للانسان ، وجميعها ترجع الى أصول ومبادىء · فان وجدت هذه الأصول كان الانتاج البشرى حضاريا وانسانيا ·

١ ـ فالحرية الفردية أصل مقرر فى التفكير الانسانى ، فان وجدت كان التفكير انسانيا ، وان فقدت كان لا انسانيا · والمقصود بالحرية الفردية فى التفكير ارتفاع الفرد فوق الاكراه ، أو هى : تحرره من الاكراه الداخلى فى ذاته ، والخارجى عنه ، على السواء · والاكراه

الداخلى هو اكـراه الشهوات النفسـية ، بينما الاكراه الخـارجى هو اكراه انسان ، له سيطرة بسبب ما ، أو هو اكراه نظام حكم يتعـذر الخلاص من ضغطه وتتبعه ٠

وهذه الحرية على هذا النحو اما ان توجد أو لا توجد ٠ وتطورها هو فى التعبير عنها ، وليس فى ذاتها وموضوعها ٠ اذ ذاتها وموضوعها لا يقبـلان تطورا ، على معنى : ان « عدم الحرية » الفـردية فى التفكير يمكن أن يكون مدلولا « للحرية » فى التفكير ٠ ومن أجل ذلك لا يصح بحال ـ كما هو فى التفكير الماركسى ـ « أن تكون الحرية الاجتماعية » عوضا وبديلا عن « الحرية الفردية » ٠

فالحـــرية الاجتمــاعية ـ كما تعنى الماركســـية ـ هى التخلص من الانحرافات فى استغلال رأس المال ، بتمليك مصادر الانتاج والثروة القومية جميعها للدولة ٠

اذ الدولة الآن هى المالكة ، وهى المستغلة لرأس المال ، فهى رب المال ، والعمل معا ٠ وفى الوقت نفسه هى : الخصم ، والحـكم معا كذلك ، اذا ما افترض نزاع بين صـاحب العمـل ، والعامل ٠ فهى المعطية للعمـل ، وهى الآمرة به ٠ ومن السهل : أن تقوم على شئون الدولة عصابة تستغل ، بملكية المال ، حريات الأفراد ، أشنع من استغلال أصحاب العمل السابقين فى المجتمع الرأسمالى لحرياتهم ٠

على أن الحرية الاجتماعية فى حقيقة أمرها معادلة تساوى : « مجموع » حريات الأفراد ٠ فالمجتمع كله لا حقيقة له فى واقعه الا بوجـود أفـراده ٠ وخصائص الأفراد هى اذن التى تكون خصائص المجتمع الذى يعيشون فيه ٠ وبناء على ذلك : المجتمع الحر هو : ما كان أفراده أحرارا ، فوق الاكـراه والضغط ٠ كالمجتمع المؤمن بالله ، وهو : ما كان أفراده « يؤمنون بالله وبرسالة رسوله » ٠٠٠ وهكذا ٠٠٠

فالحرية الاجتماعية متأخرة عن الحرية الفردية فى التصور الانسانى ، على الأقل ٠ فاذا ادعى : أن الحرية الفردية تنبثق عن الحرية الاجتماعية ، كان ذلك عكس التصور السليم ٠

٢ ـ والجمال أصل مقرر فى الوجـدان الانســانى ، فان وجـد الجمال فى الوجدان ، كان وجدانا انسانيا ٠ وان فقد كان لا انسانيا ، والمقصود بالجمال هو : ادراك الحسن فى تصرفات الانسان وسلوكه ، وتمييزه عن ضده ، مما هو قبيح أو شائن ٠

والادراك السليم للجمال هو ما تحرر فيه الإنسان ، كذلك من الاكــراه الداخلى للشهوات ومصادرها من الغرائز ، وكـذلك من الضغط الخـارجى بسبب نظام الحكم والأسلوب الذى يفرضه على الحياة الانسانية ·

والوجدان بما له من ادراك سليم للجمــال يعتبر : مصــدر القوانين ، والمقاييس الاخلاقية ·

فالعطف ومعاونة أصحاب الحاجة ، والمشاركة فى سراء الغير وضرائهم ، والبعد عن الايذاء ،وتجنب ما يجرح الغير فى احساسه وبشريته ، وأمثالها ·· يقرها الوجدان على أنها : من المعانى الجميلة · وهى فى الوقت نفسه تعد من السلوك الحسن للانسان ، وهو سلوك أخلاقى ·

والقتل والاعتداء ، والتخريب ، والارهاب ، والتعذيب ، وما شاكل ذلك مما يؤذى الانسان ويهدد حريته وكرامته كانسان ، يستنكرها الوجدان على أنها تصدر من الانسان · وهى فى الوقت نفسه من السلوك المنحرف والسىء ان صدرت على انسان ، وهو سلوك لا أخلاقى ·

والنظرة السوفسطائية عند الاغريق القدامى ، كالنظـرة الوجودية ، والنظرة المادية فى الوقت المعاصر ، التى تجعل المعيار الاخلاقى أمرا اعتباريا ونسبيا ، أو شخصيا ، ومن أجل ذلك : يتغير المقياس تبعا للأجيال ، والبيئات ، والاشخاص ، هى : نظرة تؤمن بالفوضى كأسلوب لحياة الانسان ، وهى كذلك تخضع لمؤثرات نفسية ، أو سياسية ، ولم تتحرر بعد ، وترتفع فوق الاغراء أو الاكراه ·

٣ ـ والارادة الحرة هى أصل العمل الخلقى · فلا يوصف عمل وجـــدانى سليم الخلقية الا اذا باشرته ارادة حــرة ، لم تشبها شائبة اكــراه أو اغراء ، فالسكران ، والناسى ، والعفوى ، والمكره ، ان صدر عن أى منهم عمل له طابع الخلقية لا يعتبر فى الواقع ذا خلقية · لأنه لم يصدر عن ارادة حرة ·

والقانون لا يتسم بالخلقية ، الا اذا صدر عن ارادة حرة فى تشريعه ·

والارادة الحرة هى الارادة المتحررة من الوقوع تحت تاثير اغـــراء الشهوات ومصادرها ، وكذلك من الوقوع تحت النفوذ السياسى لنظام الحكم القائم فى المجتمع · ونظام الحكم الفردى فى أى مجتمع من شأنه أن يحـول دون وجود الارادة الحرة · حتى الفرد المستبد بالحكم نفسه ، ليست له ارادة

حرة ، لأنه يخضع فيها لشهوة الحكم ، وجاه السلطة ، على الأقل ، ان لم يتأثر باغراءات أخرى وراء ذلك ٠

وتفرد الحزب السياسى بالسلطة فى نظام الحكم هو كذلك عامل يمنع نمو أية ارادة حرة فى المجتمع ٠ لأن تفرده هو : مصدر الاغـراء الذى يقع تحت تأثيره ٠ فليست له هو نفسه ارادة حرة ، كما لا يترك مجالا لأية ارادة تتجرد عن الضغط والاكراه ٠

واذن : الحرية الفردية التى تتمثل فى التفكير الحر ، والوجدان الحر ، هى : مصدر الانتاج الحضارى ، أو مصدر الحضارة الانسانية ، أى مصدر الانتاج الذى ينبغى أن يتسم بالانسانية ٠ ففيه خلقية الانسان ، وفيه القيمـة الانسانية والهدف الانسانى ٠

وعندئذ تكون الحضـارة الانسانية مرآة تعكس خصائص الانسان فى تفكيره ، ووجدانه وارادته ، صافية مميزة له ٠



وهذه المصادر الثلاثة من : التفكير الحر ، والوجدان الحر ، والارادة الحرة ، تكون جميعها قوام الحضارة الانسـانية ٠ على معنى : أن كـل عمل يوصف بأنه حضارى لابد أن يعكس هذه المصادر الثلاثة ٠

فاذا عكس هذا العمل التفكير الانسانى وحده ، ولم يعكس الوجدان ، ولم تتمثـل فيه أيضا الارادة الحـــرة ، لا يصح اطـلاقا أن يوصف : بأنه حضارى ٠ فآلات التخريب ووسـائل التدميـر والابادة للبشرية ، وحـروب القرصـنة والاستعمار ، وارهاب الفـرد ٠ وسلب حـــريته فى : القول ، أو القراءة ، أو الاعتقاد ، أو الاجتماع ، أو فى الحركة والتنقل ، أو فى الملكية والاقتناء ٠٠ كلها أعمال لا توصف بأنها : حضارية ، مهما كانت درجة الابداع والتقدم العلمى أو التيكنولوجى فيها ٠ ذلك لأنها ليست أخلاقية ٠ وما ليس أخلاقيا لا يستحسنه جمال الوجدان ، ولا تباشره ارادة حرة ٠ واذن لا يمثل جميع جوانب الحرية الانسانية ٠

والآن ليس هنـاك تلازم بين التقـــدم العلمى والتيكنولوجى فى انتاج الانسان من جانب ، ومسمى الحضارة الانسانية من جانب آخر ٠ والمجتمع الحضـارى بناء على ذلك ليس هو : المجتمع المتقـــدم فى البحـوث العلمية والتطبيق الصناعى ٠ وانما هو : المجتمع الحر الذى يعبر انتاجه العقـلى ، والوجدانى ، والارادى ، عن حرية الفرد فى ذلك ٠

قد يكون المجتمع المتقدم فى البحوث العلمية والتيكنولوجية مجتمعا حضاريا ، اذا كان انتاجه فى مجالات التقدم انئذ ذا طابع اخلاقى · أى لا ينطوى على اساءة للبشرية ، وباشرته ارادة حرة ، وهى الارادة الخلقية ·

وهذا التحديد للمجتمع الحضارى ـ وللحضارة الانسانية قبله ـ لم تدفع اليه رغبة او تحيز لايديولوجية خاصة ، وانما واقع الانسان نفسه هو الذى يقضى بهذا التحديد ·

فالانسان فى تميزه عن الحيوان لابد أن يتجنب العنف والقوة العضلية فى حل مشاكله بادىء ذى بدء ·

قد يكون ذلك بالحد من الأنانية ، وهو الطريق الأسلم والأدوم ·

وقد يكون بالصبر والاحتمال ·

وقد يكون بالتفاهم وبتبادل الرأى ·

وقد يكون بالمشاركة والتعاون ·

·· وقد يكون بكل ذلك ، وما هو على شاكلتها ، مما يصور الانسان بانه صاحب عقل · أى ليس بآله من جهة ، ولا صاحب غرائز فقط من جهة ثانيـــة ·

ومعنى اتباع هذه الحلول فى تسوية ما يعترض الانسان من مشاكل : انه لا يفعل الايذاء ، ولا ينتويه بانسان آخر معه ، مهما اتسع محيط الناس ، ومهما اختلفت الوانهم ، وانسابهم ، وأماكنهم وأجيالهم ·

ومن هنا كانت حصيلة الانسان من الانسانية هى : عدم الايذاء ، وعدم الاضرار بالغير ، كقدر اساسى لا محيص عنه فى معـادلة الانسانيـة · فان تضمنت هـذه الحصـيلة زيادة على ذلك معنى ، تقديم الخير ، والمعـاونة ، والمودة ، الى الآخرين أصبح المستوى الانسانى مثلا ونموذجا ، يذكر ويقتدى به ·

وقد يعبر عن هذه الحصيلة الأساسية ، بالعدل ·

كما قد يعبر عن الزيادة الطارئة على الأساس فيها ، بالاحسان ·

وهما معنيان ضروريان فى وجود الانسانية وفى تطبيقها ·

والانتاج الانسانى بهـذا الوصف هو ما صـدر عن الانسان صـاحب الانسانية ، أى صاحب العدل ، وصاحب العدل والاحسان معا · وليس هو

ما صدر عن موجود ، له شكل الانسان ، وهو فى حقيقة أمره : آله تتبع فى حركتها تحريك غيرها لها ، أو هو حيوان تطغى عليه شهوات غرائزه فلا يفيق من طغيانه ليحسن تحكيم عقله فى القيادة ، وفى حلول المشاكل ٠

واذن تقييد الحضارة بالانتاج الانسانى الناشىء عن تفكير حر ، وارادة حرة هو : تقييد من واقع الانسان فى انسانيته كذلك ، وليس من محيط آخر خارج عن ذاته ٠

والمجتمع الحضارى هو المجتمع الانسانى ٠

والمجتمع اللا انســانى هو : المجتمع غير الحضــارى ، أو هو المجتمع الجــاهلى ٠ وليس وصف المجتمع الجــاهلى لأنه كان ومضى : اذ أنه يكون ويقوم فى أى وقت ، طالما يتجرد انتاجه من الحرية الفردية ، وهى حـــرية التفكير والارادة ، أى طالما يتجرد من الخلقية بالخصوص ٠ لأن الخلقية هى السمة المميزة فى ظواهر المجتمع بين الحضارى ، أو الجاهلى منه ٠

فقد يوصف المجتمع بأنه جاهلى ، وهو متقدم علميا وتيكنولوجيا ، لأنه فقد الارادة الحرة فى العمل والانتاج ، فلم يخل عمله وانتاجه مما يسىء الى الانسان ايذاء بدنيا ، أو ماديا ، أو معنويا (١) ٠

وقد يوصف المجتمع ايضا بأنه حضــارى ، مع أنه متخلف فى البحث العلمى والهندسة التطبيقية ، لأن انتاجه يقوم على الارادة الحرة وله طابع أخلاقى خال من الاضرار والايذاء بالانسان ٠

ومجتمع الانسان بالأمس ، واليوم ، وغدا ، هو : اما مجتمع حضارى ، أو جاهلى ٠ ولا يغير من هذه الحقيقة اطلاقا ما قد تصف به بعض الثــورات فى المجتمعات أو بعض الانقلابات فى نظم الحكم مجتمعاتها التى تقيمها بأنها : مجتمعات ثورية تقدمية ، وما تعلنه من شعارات لها بأنها ديمقراطية تحررية

---

(١) فى التعقيب على غزو الاتحاد السوفييتى لتشيكوسلوفاكيا فى ٢٠ أغسطس ١٩٦٨ رغبة فى القضاء على الاصلاح السياسى والاقتصادى الذى تزعمه رئيس الحزب الشيوعى Dubcik ذكرت جريدة The Evening Standard فى وصف السوفييت : « فجأة يتضح اننا نتعامل مع شعب الاتحاد السوفييتى واحد قدميه على الفجــر ، والاخــرى لم تزل فى العصر المظلم » نقلا عن صحيفة : Herald Tribun ص ٦ ، الثلاثاء ١٩٦٨/٨/٢٢

··· ونحو ذلك من الشعارات والأوصاف التى تنتزعها من تصورات وهمية وافتراضات ، لعب فيها التخيل الشخصى الدور الأول ، لأن مثل هذه الشعارات والأوصاف هى للترويج ، وليست للتعبير عن واقع هذه المجتمعات ·

والا : كيف يكون المجتمع تقدميا ـ فى وصف بعض الثوار أو الانقلابيين ـ وهو « لا انسانى » : يلغى وجود الفرد ، ويهدد حريته وكرامته ، ويقهره على العمل والطاعة ، ويحدد له ما يقرأ ، وما يرى ، وما يسمع ، ويحول بينه وبين الملك والاقتناء ، ويتتبعه بالتجسس والارهاب ، وهو مع ذلك ليس مجتمع علم ولا صناعة ·

ان الزمن اذن ليس الفيصل فى وصف المجتمع ، انما الفيصل فيه يرجع الى مضمون الانسانية ذاتها · ومن أجل ذلك لا يقال : مجتمع الأمس ، والغد · وانما يقال : مجتمع انسانى أو حضارى ، ومجتمع لا انسانى أو جاهلى ·

والذى يبشر بمجتمع الغد ، ان لم يكن مجتمع الحضارة والانسانية ، فليس بمجتمع ذى أفضلية على غيره بالأمس ·

والقرآن كتاب الله ـ اذ يحدد مجتمع الحضارة ، ومجتمع الجاهلية ، يحدد هذا وذاك من خصائص « الانسانية » نفسها ، دون اعتبار للزمن : ان كان اليوم ، أو غدا ، ودون اعتبار للمكان : ان كان هنا أو هناك ، ودون اعتبار للجيل : ان كان هذا أو ذاك ، ودون اعتبار للشعب : ان كان أبيض أو أسود ، أو أصفر : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » (١) ·

وصلاحية هذا التحديد للمجتمع الحضارى هى صلاحية مستمرة ، وليست مؤقتة · والقيمة الذاتية لحضارة المجتمع تختبىء ضمن اطار الانسانية وخصائصها ، وليست ضمن اطار الرغبة الشخصية ، ولا داخل الاحتراف بالقيم أو الاتجار بسياسة الحكم ·

---

(١) الحجرات : ١٣ ·

الباب الأول

المادية : في مظاهرها ، وآثارها

- مظاهرها في الايمان بالله ·
- مظاهرها في اتجاه الحياة
- آثارها في جرائم المجتمع ·
- آثارها في سقوط المجتمع ·

الفصل الأول

مظاهرها فى الايمان بالله

« مادية » الاتجاه فى الايمان بالله صورة من صور « المادية » فى اتجاه الحياة والنظرة اليها · و « المادية » فى اتجاه الحياة والنظرة اليها هى : قصر الايمان على ما يحس ويشاهد : يحس بلمس اليد ، ويشاهد برؤية العين ، ثم نفى كل ما وراء لمس اليـد أو رؤية البصر ، وانكـاره انكارا شديدا ، لا يقبل المناقشة والمراجعة ·

وليس الماديون الذين ينكرون ما وراء لمس اليد أو رؤية العين بعيـدين عن « الخرافة » وتصديق « الوهم » و « الخداع » · بل طالما كان الأمر ماديا يلمس أو يشاهد بالبصر فهو موجود لديهم ، وفى وجوده قد يكون غير عادى ، كما قد يكون موضوع ايمان يتجاوز به حقيقته الى ما يصبح أن يكون وهما أو خداعا ·· أو خرافة تجسد ·

و « الوثنية » فى قديمها ، وحاضرها ، تعبر عن أمرين :

١ ـ عن مادية الايمان ،

٢ ـ ثم عن الايمان بالخرافة فيما هو مادى ·

·· فليست الوثنية الا « الاعتقاد » فيما ينفع ، بغية الحصول على نفع منه ، أو فيما يضر اتقاء ضرره · والوثنية المصرية القديمة ـ وكذا الوثنية الفارسية ، أو الزرادشية ، ثم الوثنية الاغريقية ـ كل منها تنبىء عن الاعتقاد فى موجود مادى يحج اليه أو يتقرب منه ، واليه ، وله قداسة المعبود · لأنه موضع الرجاء والأمل ، أو موضع الخشية والخوف ، لدى من يعبده ويقدسه· وهو ذلك الانسان صاحب الاتجاه المادى فى الايمان ·

والأحجـار والأصـنام ، وأنواع الحيوانات ، والنار ، والأنهـار ، والصحراء ، وغيرها من معالم الوجود الطبيعى المادى ، كانت تعبد وتقدس ، للأمل والرجاء فيها مرة ، أو للخوف والخشية منها مرة أخرى ·

وآلهة قدماء المصريين ·· وفي مقدمتهم : ازيس وأوزريس ـ كانوا من موجودات الانسان العادى فى طبيعته وخصائصه · ولكن الملك ، والسلطان ، والسيطرة جعلتهم موضع رجاء أو خشية ، وأصحاب نفع يرتقب أو خوف يتقى ، حتى أضفى عليهم جـاههم وبأسهم وارتفـاع منزلتهم فى التخيـل : « خرافة » الألوهية · ثم أوحت هذه الخرافة بالايمان والاعتقاد ، بأنم : فوق البشر ، وموضع العبادة ·

والكنيسة الرومانية ، يوم غلب عليها الاتجاه المادى ، فجسمت الألوهية فيها وجعلت نفسهـا جسمـا « حلت فيه » « روح الاله » ومنحت لتصرفاتهـا « العصمة » وحق سماع « الاعتراف » واعطاء صكوك الغفران ·· نقلت الى « ألوهية المسـيحية » مادية الوثنية الرومانيـة والاغريقيـة قبلها ـ وأنزلت « السماء » الى « الأرض » وحولت الانسان عليها الى « اله » أو شبه « اله » فى قداسته واحترامه ، والطاعة له · وبذلك أصبحت صاحبة اتجاه مادى فى الايمان ·

«« وغلاة الشيعة » يوم جعلوا « للامام » عصمة فى قوله وفعله . وقالوا : « بحلول الله » فيه ، وأعطوه « حق الشفاعة » قربوا الاسلام الى مادية الاتجاه فى الايمان فى الكنيسة وأنزلوه الى « وثنية الانسان » ·

وبعض النظم السياسية المعاصرة ، يوم تجعل « للحزب » عصمة : تطاع ارادته ولا يناقش فى تصرفاته ، ويوم تجسم الشعب فى الحزب ، ثم « الحزب » فى « زعيمه » فلا ترد كلمته ، ويجب أن تتوفر له مظاهر الاحترام والقداسة ، ولا تتأثر بالكنيسة فحسب . عندما جعلت نفسها جسما لروح الاله ، وجعلت لقول رئيسها عصمة وطاعة ، بل تعيد « الوثنية » بخصائصها . وتنقلها من مجال الاعتقاد فى الألوهية الى مجال السياسة · وبذلك تحول السياسة الى عقيدة أو شبه عقيدة ، وتصبح السياسة دينا : محرابها : الحزب ، وكتابها المقدس : ما تدعو اليه من أقوال ماركس ، والهها : زعيم الحزب المعصوم ·

ومظاهر المادية فى الايمان بالله على عهد الرسالات تعود جميعهـا الى مطلوبات تلمس وتشاهد ، يطلبها المعارضون الماديون ، كوسيلة فى رأيهم الى الاقتناع باتباع الدين ، وبالرسالة السماوية ؛ فهؤلاء المعارضون يطلبون :

(أ) رؤية الله جهرة ،

(ب) أو الحديث مع الله مشافهة ،

(جـ) أو انزال الملائكة الى الأرض

(د) أو تفجير المياه فى الصحراء ،

(هـ) أو انشاء حدائق فى الفيافى القفر ، تتخللها القنوات والأنهار ،

(ز) أو استبدال الذى هو أدنى من الطعام بالذى هو خير منه ،

(ح) أو الصعود الى السماء ، وتوثيق هذا الصعود فى كتاب يقرأ ٠

(ط) أو تنفيذ الوعيد باسقاط السماء كسفا وقطعا على المعارضين ٠

والقرآن الكريم يقص فى قصص الرسل ما تعرضـوا له من أصحاب الاتجاه المادى فى الايمـان من انكار وتعنت ، ومن تحـد فيمـا طلبوه ٠ وما طلبوه : يرجع بخصائصه الوجودية الى الحس والعيان وحده ٠

وقصة ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى قومه تصور « الوثنية » القـديمة فى الايمان ، كمـا تصور دوافعهـا لدى الوثنيين ٠ وهى دوافع : الحصول على منفعة ، أو اتقاء مضرة ٠ وأخيرا تتشكك هذه القصة فى أن يكون أصحاب هذا الاتجاه ممن يعقلون ، أنهم أولئك الذين يقيمون الحقائق بما لهـا من : خصائص ذاتية وحدها :

يقول القرآن الكريم فى التعبير عن هذه القصة فى سورة الأنبياء :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ٠

١ ـ اذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟٠ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ٠

قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ٠ قالوا : أجئتنـا بالحق ، أم أنت من اللاعبين ؟٠

قال : بل ربكم رب السموات والأرض ، الذى فطرهن ، وانا على ذلكم من الشاهدين ٠ وتالله لأكيدن أصنامكم ؛ بعد أن تولوا مدبرين ٠

فجعلهم جذاذا ، الا كبيرا لهم ، لعلهم اليه يرجعون ٠

قالوا : من فعل هـذا بآلهتنا ، انه لمن الظـالمين ٠ قالوا : سـمعنا فتى يذكرهم ، يقال له : ابراهيم ٠ قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ٠ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟

قال : بل فعله كبيرهم هذا ؛ فاسألوهم ، ان كانوا ينطقون ٠ فرجعوا الى أنفسهم ، فقالوا : انكم أنتم الظالمون ٠ ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ٠

٢ ـ **قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟**

٣ ـ **اف لكم ، ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون** » (١) ٠

٠٠٠ فالقصة تحكى : أن قوم ابراهيم كانوا يعبدون الأصنام من دون الله : « **ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** » ٠ وانهم كانوا يرجون من عبادتها : اما النفع ، أو خشية الضرر : « **أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم** » ٠

فاذ يؤكد هنا ابراهيم أن هذه الأصنام التى يعبدونها هى فى واقع الأمر : لا تنفع ولا تضر ، يقرر الحقيقة فى ذاتها ٠ ولكنه فى الوقت نفسه يصور اعتقادهم فى نفعها ، وضرها على السواء ٠ وأخيرا تحكى هذه القصة التنديد بالوثنية فى عبادة الأصنام ، وتجعل عباد الأصنام فى مستوى أدنى من مستوى العقلاء من البشر : « **اف لكم ، ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟** » ٠

وفى سور أخرى عديدة : يذكر القرآن الكريم تحديات المعارضين والكافرين فيما يطلبونه من أدلة مادية ، حتى تكون وسيلة للاقتناع بدعوة الرسول المرسل اليهم ! : فيذكر فى سورة البقرة ، قول الله تعالى ، على لسان المعارضة لموسى عليه الصلاة والسلام :

« **واذ قلتم : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** » (٢) (أى حتى نراه عيانا ومشاهدة) ٠

وعلى لسانهم أيضا يقول القرآن الكريم :

« **واذ قلتم : يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من : بقلها ، وقثائها ، وفومها وعدسها ، وبصلها** ٠

قال : أتستبدلون الذى هو أدنى ، بالذى هو خير » (٣) ٠

٠٠٠ فقد طلب معارضو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الماديين الذين عبدوا العجل أثناء عودتهم من مصر وهم فى سيناء متحدين لرسالته : أن يريهم الله جهرة وعلنا ، مرة ، وأن يغير طعامهم من المن والسلوى بالبقول ،

---

(١) الأنبياء : ٥١ ـ ٦٧ ٠ **(٢) البقرة : ٥٥ ٠**

(٣) البقرة : ٦١ ٠

والقثاء والثوم ، والعدس ، مرة أخرى . وقد سجل القرآن غضب الله عليهم ومذلتهم فى الحياة الدنيا : « **ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين** » (١) .

ويذكر القرآن أيضا : فى سورة المائدة : ما طلبه الحواريون من عيسى عليه السلام تطمينا لقلوبهم فى علاقتهم به ، واستكمالا لتصديقهم برسالته ، من انزال مائدة من السماء :

« اذ قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم :

هل يستطيع ربك : أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟

قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين .

قالوا : نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم : أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين » (٢) .

وفى سورة الاسراء يجمل القرآن أنواع التحديات المادية التى واجه بها المشركون الماديون رسول الله محمدا ، عليه الصلاة والسلام ، فى قول الله تعالى :

« **ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ،**

فأبى أكثر الناس الا كفورا (أى انكارا لرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام) . **وقالوا : لن نؤمن لك ، حتى :**

١ ـ **تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا .**

٢ ـ **أو تسقط السماء ـ كما زعمت ـ علينا كسفا ،**

٣ ـ **أو تأتى بالله ،**

٤ ـ **والملائكة قبيلا .**

٥ ـ **أو يكون لك بيت من زخرف ،**

---

(١) الأعراف : ١٥٢ .   (٢) المائدة : ١١٢ ، ١١٣ .

٦ ـ **أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » (١)**٠

وكرر القرآن بعض هذه التحديات ، فى آيات أخرى ٠ فى مثل قوله :

« **وقال الذين لا يرجــون لقــاءنا** (وهم المشركون الوثنيون والمــاديون الملحدون) :

١ ـ **لولا أنزل علينا الملائكة** ،

٢ ـ **أو نرى ربنا !** » (٢) ٠

٠٠٠ وفى قوله :

« **وقال الذين لا يعلمون** (وهم أيضا المشركون الوثنيون) :

١ـ **لولا يكلمنا الله !** ،

٢ ـ **أو تأتينا آية !** (أى معجزة مادية مما طلبوها من قبل) ،

كذلك ، قال الذين من قبلهم ، مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، قــد بينــا الآيات لقوم يوقنون » (٣) ٠

٠٠٠ فالمعارضون لرسول الله ، عليه الصلاة والسلام ـ من المشركين ، وهم الوثنيون الماديون ، وهم بحكم اتجاههم المــادى لا يؤمنون بالآخــرة : « **وقال الذين لا يرجون لقــاءنا** » ، كمــا لا يعلمون الحقائق فى واقع أمرها : « **وقال الذين لا يعلمون** » ـ تحدوه عليه الصلاة والسلام بطلب :

اخراج الماء من صحراء ،

أو بتحويل بعض الأرض القاحلة الى حدائق تتكاثف فيها أشجار الفاكهة من نخيل وعنب ، كما تتخللها القنوات والأنهار ،

أو بتحقيق وعيد الله للمعارضين باسقاط السماء عليهم قطعا قطعا ، على نحو ما جــاء فى سورة ســبأ : « **أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟** ،

---

(١) الاسراء : ٨٩ ـ ٩٣ ٠ (٢) الفرقان : ٢١ ٠
(٣) البقرة : ١١٨ ٠

ان نشأ نخسف بهم الأرض ، أو نسقط عليهم كسفا من السماء ، ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب » (١) ٠

أو برؤية الله جهارا وعيانا ،

أو بقدوم الملائكة أفواجا الى الأرض ، ومشاهدة الناس اياهم ،

أو باقامة منزل من ذهب ،

أو بالصعود الى السماء والنزول منها ، وتوثيق هذه الرحلة بما يؤكدها ٠

٠٠٠ وهى طلبات كلها مادية ، وركزوا عليها لأن وسيلة الاقناع لديهم لا تخرج عن الحس والشاهد ٠

★ ★

والعقلية المادية تحكى عقلية الطفولة البشرية فى الادراك ، وهى عقلية تقف عند : الحس والشاهد ، وتتأثر فى الحكم بهما وحدهما ٠

والطفولة البشرية فى الادراك توجد أينما توجد « الأنانية » ٠ والطفل الصغير أنانى بحكم مراحل تطوره ، والانسان البالغ صاحب الطفولة البشرية فى الادراك ، هو أنانى أيضا ، بحكم وقوف تطوره عند مرحلة الحس وحده ٠

والمجتمع الانسانى لا يخلو من طفل صغير وكبير ، ولا يخلو من أنانى ٠ ولذا فهو لا يخلو من مادى فى الايمان ، ولا يخلو من مشرك أو وثنى ، ولا يخلو من ملحد ومتحد ، ولا يخلو من كافر ومعارض : « **ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه ، حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم** » (٢) ٠

٠٠٠ فيقرر القرآن الكريم أن الشك فى القرآن – وهو آخر صورة للاسلام فى رسالة الله – لا يزال باقيا الى قيام الساعة ، يباشره الكافرون والمعارضون٠

ومعنى ذلك : أن الكفر موجود وسيظل موجودا ٠ وتبعا لذلك سيبقى الشك فى قيمة القرآن : اليوم ، وغدا ، كما كان بالأمس ٠

ومن ينتظر زوال الطفولة البشرية فى الادراك من المجتمع الانسانى ، هو أشبه بمن ينتظر زوال المرض منه كلية ، أو زوال الفقر والحاجة الى غير

---

(١) سبأ : ٩ ٠ (٢) الحج : ٥٥ ٠

عودة ، أو زوال الأنانية والانتهازية والنفاق والجبن ٠٠ الى غير ذلك ، من الصفات التى يدل زوالها على السلامة التامة والكمال فى الانسانية ٠

ان الطفولة البشرية فى الادراك مرض فى تطور الانسان ، وشأنها شأن أى مرض آخر ، يعجز الانسان عن حركة البدن أو اللسان ، أو يعجز أى عضو من أعضاء الجسم ، ويمنع مباشرته لمهمته الخاصة ٠

هو ظاهرة « جمود » فى التطور العقلى ٠ بدليل : أن الذى يقف بتفكيره عند الحس أو عند الأمر المادى قد يعتقد فى الوهم والخداع ، على أن أيا منهما : حقيقة واقعة ٠

والوثنى القديم ، وكذلك الوثنى المعاصر ، كلاهما لا يتحرك فى ادراكه الى ما وراء الحس ، ومع ذلك يؤمن بأن انسانا ما : معصوم فى قوله ، وصاحب نفع وضر ، وله قداسة ترفعه فوق المستوى العادى للانسان ٠ والاعتقاد فى الوهم أو الخداع على أن أيا منهما حقيقة واقعة ، ظاهرة تشير الى : « التأخر ، والتخلف » أو الى « الجمود » فى التطور العقلى ، وبالتالى الى وجود الطفولة البشرية فى الادراك ٠

وفيما تقوله الآية الكريمة :

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ،

افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟٠

وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ،

ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » (١) ٠

٠٠٠ فتذكر : أن محيط المشيئة الالهيـــة أوسع من الواقع فى حيـــاة البشرية ٠٠ وفيما تقوله هنا : يشير الى أن الواقع تحكمه خصائص الطبائع ٠ ومن بين هذه الخصائص فى المجتمعات الانسانية ، تفاوت الناس فى درجات الادراك ، وفى مستويات السلوك ٠ ولذا لا يكون الناس جميعهم مؤمنين بالله ، كما لا يكونون جميعا كافرين به ، ولا كلهم كذلك أصحاب روح جماعية فى سلوكهم ، ولا أيضا أنانيين فى السلوك ٠

ولذا : فالرسول الداعى الى الحق ، عليه الصلاة والسلام : لا يستطيع ــ وليس من حقه كذلك أن ينتظر ــ أن يحمل جميع الناس على الايمان بالله ولا

---

(١) يونس : ٩٩ ، ١٠٠ ٠

أن يراهم يوما ما مؤمنين ، لم يتخلف منهم احد : « **افأنت تكره النـاس حتى يكونوا مؤمنين ؟** » ·

والايمان بالله هو من نصيب البعض منهم ،

كما أن الكفر به من نصيب البعض الآخر ·

والكفر لا يكون الا من نصيب المتخلف فى ادراكه ، أو لا يكون الا من المادى فى تفكيره ، أو الأنانى فى سلوكه : « **وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله** » · وهى تلك النفس التى تطورت فى ادراكها ، ولم تقف به عند حد الادراك الحسى ، وتجاوزت مرحلة الطفولة البشرية : ان فى التفكير أو فى السلوك · « **ويجعل الرجس** (أى العذاب) **على الـذين لا يعقلون** » · وهو رجس الكفـر وعذابه · وهو من نصيب الذين « لا يعقلون » أى الذين لم يسيروا فى تطور للتفكير الى مرحلة « العقل » و « الرشد » الانسانى · وانما بقوا فى حـدود المرحلة السـابقة على مرحلة العقل والرشد ، وهى مرحـلة الطفولة البشرية والتخلف فى التفكير ، ومرحلة الأنانية فى السلوك ، ومظهـر هذا التخلف ، هو : الميـل الى الاتجـاه المـادى ، والارتبـاط بالمحسـوس : فى الادراك ، والسلوك معا ·

وكذلك فيما يؤخذ من هذه الآية :

« **ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة ،**

ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ،

والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير » (١) ·

··· من استحالة جمع الناس جميعا فى أمة واحدة ـ هى أمة الايمان ، أو أمة الكفر ـ يعود أيضا الى خصائص الطبائع للأفراد التى هى متنوعة ومختلفة ، بل وقد تكون متنافرة ·

واذا كانت هذه الآية بمنطوقها تقرر : أن الذين ينتمون الى « أمة الايمان » هم : ممن شملهم الله برحمته ، بينما الآخرون ليس لهم من ولى ، ولا نصير ـ لأنهم ظلموا أنفسهم ، والكفر بالله كان عملية ظلم ارتكبوه ضد أنفسهم هم ـ فواقع هؤلاء وهؤلاء : أن لكل منهم عملا يسند اليه ، وهو عمل ارادى ·· هو الرغبة ، أو عدم الرغبة فى تخطى الحواجز والمواقع التى تقف بالانسان فى دائرة الطفولة البشرية · وهى عوامل : « الالف » والعادة ، والاستقراء ، أو

---

(١) الشورى : ٨ ·

الركون الى « عقيدة » ما ، يحول التشبث بها دون الوقوف موقف « التجرد » فى النظر والحكم ·

وشمول الله سبحانه وتعالى برحمته فريقا من الناس ، لا يعنى سلب ارادتهم فيما يتصفون به من صفات مميزة لهم ، كصفة الايمان هنا · فهم فى ايمانهم لهم ارادة ، وعمل ، كما لأولئكم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، لهم عمل ، وارادة فى كفرهم ·

والاتجاه المادى ــ وهو الايمان بالمحسوس وحده ــ اذا كان يعبر عن طفولة بشرية فى التفكير ، وعن تأثر بعوامل تبعد عن : « التجرد » فى النظر والحكم ، واذا كان ينم كذلك عن : « أنانية » فى السلوك ، فان هذا الاتجاه لا يتخلى عن هذه الظواهر ، عندما يصبح ذا طابع فلسفى أو يصبح « مدرسة » من مدارس الفلسفة فى عصر ما ، من عصور الفكر البشرى :

فالمادية كمذهب فلسفى ، اذ تضع هدف الحياة : فى المتعة الحسية الحاضرة ، وتجعل الأمر الذى يجب أن يسعى اليه الانسان : هو المتع المادية أو الحسية ــ دون القيم المثالية ــ التى يجب أن لا تستهدف ·· اذ توصى أو تطلب ذلك ، فانها تستهدف اشباع « الأنانية » وحب الذات ، دون شىء آخر ·

ولذا تسخر من الدين ، عندما يبشر بوجود آخر وراء هذا الوجود المادى صاحب المتع الحسية ، وهو وجود « الآخرة » · وتعتبر الدين من أجل تبشيره بالآخرة خداعا ، اذ ترى : أنه يصرف الناس عندئذ عن السعى لتحصيل المتع المادية أو الحسية فى الحياة الحاضرة ، أملا فى متع أخرى غير محسة وغير مشاهدة ، ولا ترى فى عالم المرئيات اليوم ·

ان المادية كمذهب فلسفى ــ يستهدف المتع المادية وحدها ــ لا تجعل من أهداف الانسان فى حياته مثلا : معاملة الوالدين معاملة مهذبة كريمة ، ولا « الحسنى » فى العلاقات بين الأفراد : بعضهم مع بعض · لأن هذا ، وذاك ، لا يصور متعة حسية أو مادية· فالمتعة الحسية أو المادية هى : ما تتصل بالمعدة أو الفرج ·

« والأنانية » ليست لها معنى سوى : أن تكون « الذات » مركز التفكير ، ومركز السعى ، وما يحصله الفرد فى حياته · فما يجر على الذات وحدها منفعة مادية ، أو يدفع عنها ضررا ماديا ، يعد من مستلزمات الأنانية ونتائجها · واذن اتجاه الأنانية ، لا يعرف القيم المثالية · لأن القيم المثالية تتصل بالمجتمع ، وبحياة الأفراد كافة ، كما تتصل بحياة الفرد والذات التى تؤمن بها · فالمحبة والمودة ــ أى محبة الغير كمحبة النفس ، ومودة الغير كمودة النفس ــ مثلا :

من القيم المثالية • وتقف « الأنانية » فى طريق تحقيقها • لأنها هى لا تملى الا محبة « الذات » وحدها ، والا مودة « الذات » لا غيرها •

وعلى « الذات » التى تتجه اتجاه « الأنانية » أن تسعى فقط الى ما يمتعها امتاعا حسيا أو ماديا • وهذا هو مطلوب المادية ، كمذهب فلسفى •

ومن أجل ما تنطوى عليه المادية كمذهب فلسفى من حب الذات وتشجيع « الأنــانية » لا تصلح أن تكون قاعدة لمذهب اجتماعى اصلاحى • يستهـدف تقوية العلاقات ، كما لا تصلح أن تكون حلا لمشكلة اجتماعية ، من شأنها أن تعيد « الصفــاء » فيما بين الأفراد فى المجتمع • لأنهــا اذ تشجع الأنــانية • وتركز مطلوبهــا فى المتع الحسية وحدها ، تشجع الفردية من ناحية ، وتقف بالنشــاط الفردى عند المتعة الحسية فقط • وكلا الأمرين ، يحول دون قيــام علاقات «انسانية» بين الأفراد فى المجتمع ، وبالتالى يحول دون وجود مجتمع يعتمد على مقومات الترابط الانسانى بين أعضائه • والأمر الذى يحول دون قيام المجتمع فى بدايته ، يحول بالتــالى دون اصلاحه ، واعادة الصفاء بين أفــراده •

بل على العكس : تشجيع الهدف الانانى ، وتركيز هذا الهدف فى المتعــة الحسية يثير الاحقاد والضغائن بين الافراد الانانيين • واثارة الاحقاد والضغائن تؤدى الى تنافس على المتــع الحسية والمــادية ، وينتهى أمر هذا التنافس الى تمزق وتفرق فى علاقات الأفــراد ، ثم الى خصــومة قاتلة • فالمتــع الحســية محدودة ، والطاقة على التنافس عليها مختلفة فى القوة والضعف • ومن هنا لا يفتر التنافس ولا يضعف ، ثم لا تنتهى كذلك الخصومة القاتلة ، ولا تزول •

والمــادية اذن ــ كمذهب فلســفى ــ تشــعلها حربا بين الأفراد ، ان هى حاولت أن تأخذ لنفســها دور المصــلح الاجتماعى ، أو دور صاحب الخلقيــة الاجتمــاعية •

ومن الســخرية بمكان : أن تطلب « المــادية التاريخية » فى أهدافهــا ، تنظيما عالميا ، واجتماعيا واقتصاديا ، تزول فيه : الطبقية ، وسلطة الدولة ، ومبدأ الالزام • اذ بحكم الاتجاه المادى لا يلتئم مجتمع على أساس منه ، وبحكم هذا الاتجــاه أيضا لا ينتهى صراع الأفراد فيه ان وجــد ، وبحكم هذا الاتجاه أخيرا ، لا تكون خلقية فضــلا عــن أن تكون : خلقية اجتمــاعية ، تقــوم على الالتزام ، دون الالزام •

كيف تزول الطبقية ، والفردية قائمة ؟

وكيف لا توجد سلطة دوله ، والخصومة بين الأفراد مشتعلة ؟

وكيف لا يكون هناك الزام ولكراه ، والمتع الحسية هدف رئيسى للأفراد فى السعى والتحصيل ؟

ان الطبقية ستقوى وتبتلع الأفراد ، بحيث تصبح هى وحدها ولا شيء غيرها هى المسيطر ٠

وان الالزام لا يكون اكراها فحسب بحكم القانون ، أو بحكم السلطة التنفيذية ، وانما سيكون ارهابا بفعل التعذيب ، والأساليب غير الانسانية ٠٠٠ عندما تضع « المادية التاريخية » اهدافها موضع التنفيذ ، فى مجتمع ما ، من المجتمعات البشرية ٠ وأى مذهب فلسفى يشجع الفردية والأنانية لا يخرج فى تفكيره عن نطاق الطفولة البشرية التى تقف عند حد : « الذات » وعند حد المحسوس وحده ٠

واذا ساعدت « المادية التاريخية » مظاهر المجتمع الانسانى المتخلف فى خضوع الحياة البشرية للافراد فيه الى عامل « الاقتصاد » والثروة الموجودة فيه ، فان المجتمع نفسه لابد أن ينبثق عن « مبادىء » و « مثل » ولابد أن يخضع فى مصيره الى هذه المبادىء والمثل العليا وعندئذ ينفك مجرى الحياة فيه عن الجانب الاقتصادى وتأثيره ٠

كيف يدفع المجتمع الى حرب ، لا يؤمن بها ؟ ان الفرد يحارب دفاعا عن « ذاته » بحكم غريزة المقاتلة فيه ، وهى غريزة تتفرع عن غريزة « حب البقاء » ٠ ولكن المجتمع يحارب ان كان هناك ايمان بفكرة أو بمصلحة عامة ٠ والفكرة أو المصلحة العامة هى من القيم المثالية ، وليست من المتع الحسية ٠

ويوم تدعو المادية التاريخية مجتمعها الى حرب دفاعية ، يومها تفشل فيما تدعو اليه ، ان بقيت فى نطاق الدعوة ولم تتجاوزها الى « الالزام » والاكراه ، أو الى الارهاب والتعذيب ٠ لكنها تستطيع أن تدعو الأفراد الى حرب بعضهم ضد بعض فى مجتمع ما ، من أجل لقمة العيش والحصول على متع مادية وحسية ٠ لأنها بذلك تدعوهم الى تحقيق هدف « الأنانية » وحدها ٠

واذن : المادية التاريخية ان وجدت سندا لفلسفتها فى مظاهر المجتمع المتخلف البدائى ، فانها لا تستطيع أن تكون قوام حركة اجتماعية تطور المجتمع فى مجال الانسانية ٠

الانسانية والأنانية على طرفى نقيض ، كالمادية ، والمثالية ، والأنانية والفردية متآخيتان ، كالانسانية والاجتماعية سواء بسواء .

وكذلك مظاهر المادية فى الايمان بالله فى الوقت الحاضر ترجع الى مطلوبات تحس ، وتشاهد . ومن المناقشة التى اجرتها احدى المجلات الألمانية (١) مع شباب بعض الجامعات ، وشابات بعض المدارس الثانوية للبنات ، بمناسبة المظاهرات الصاخبة التى يقوم بها شباب الجيل الحاضر فى المانيا ، وفى أوروبا ، وأمريكا ، يتضح : ان الشباب اليوم فى جملته يرفض الايمان بالله . والسبب فى هذا الرفض كما يذكر : سوء الأوضاع فى العلاقات الانسانية : كالحرب فى فيتنام ، والجوع فى بيافرا ، والتفرقة العنصرية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والكبت للحريات فى أوروبا الشرقية ، وكذلك سوء استغلال المال فى أوروبا الغربية .

ومن اجابة احد الموظفين الشباب فى قوله : « أنا لست ملحدا ، ولكن وجود الشقاء فى كل مكان للعالم يوحى بأن الله اله سىء ! . ولم أصل بعد الى رأى نهائى ، ولكن أعتقد : أنه لا توجد ــ طبيعة عليا ــ فى الكون » .. يمكن أن يصور مطلوب الشباب فى سبيل الايمان بالله : « بتحسن الأوضاع المادية والعلاقات بين الناس جميعا » . وهو مطلوب يتحدى به شباب الجيل الحاضر وجود الله .

ومن اجابة البعض الآخر بقوله « فأنا لا أجد فى الله « حماية » ولا أجد فى « العبادة » ما يمنحنى « الثقة » .. يعيد هدف الوثنية القديمة فى الحصول على النفع المادى ، أو اتقاء الضرر المادى .

وكاتب التقرير يجمله فى : النقاط الآتية : ــ

أولا : « ان الشباب لا يريد أن يثق ثقة عمياء بتوجيه الآباء وسلطتهم . ويشك شكا تاما فى كل سلطة ، سواء : أكانت للدولة ، أم لبيت الابوين ، أم للكنيسة .

ثانيا : « منذ أمد لا يصدق بشىء ولا يحس ، أو يمكن : أن يدرك بالحس . وليس على استعداد لان يصدق الآن بوجود الله .

---

(١) مجلة Quick فى عدد ٣٠ يوليه سنة ١٩٦٩ التى تصدر بمدينة ميونيخ ، بألمانيا الغربية ومن عمل : Harvey Rowe .

ثالثــا : « من اجابات شابات الجامعة :

« ــ انما استمد القوة التى احتاجها من « العقل » وليس من « العبادة » ٠ (طالبــة) ٠

« ــ أنا لست ملحدا ، ولكن وجود « الشقاء » فى كل مكان بالعــالم يوحى بأن الله اله سىء ! ٠ ولم أصل بعد الى رأى نهائى ٠ ولكن اعتقد أنه لا توجد : « طبيعة عليا » فىالكون ٠ (موظف) ٠

« ــ بناء عــلى تجاربى الشخصــية لا يوجد اله ٠ فأنا لا أجــد فى الله « حماية » ولا أجد فى « العبادة » ما يمنحنى الثقــة ٠ (طالبة موسيقى) ٠

رابعا : « اذا وجدت الجنة فيجب أن توجد على الأرض التى نعيش عليها ، لنسعد بها ، ان الجنة لا توهب ٠ انها تقتنص ٠ ولا توجد جنة على الأرض طالما هناك حرب فى فيتنــام ، وجــوع فى بيــافرا ، وطالما هناك تفرقة عنصرية فى الولايات المتحدة الامريكية ، وكبت للحريات فى أوروبا الشرقية ، وسوء استغلال للمال فى أوروبا الغربية » ٠

خامسا : « ونسبة ٤٤ ٪ من الذين سئلوا من طلاب وطالبات الجامعات لا يصدقون بالله ٠

« ونسبة ٧٪ على الأقل يشكون فى وجوده ٠

« ونسبة ٢٣٪ يرون أنه من الممكن التصديق « بنظام أعلى » فى الكون أو « بطبيعة عليا » فيه ٠

« وواحد فقط من أربعة على استعداد للاعتراف بوجود الله ٠ ولكنه ليس اله الكنيسة أو اله الانجيل ٠

« و ٨٪ من الطالبات بالمدرسة الثانوية يصدقن بوجود « طبيعة عليا » ٠

« و ٩٪ لا يصدقن بشىء ٠

« و ١٪ تصدق بالله ٠

« وتجيب بعض الطالبات بالعبارات الآتية :

« ــ لماذا يجب أن يؤمن الانســان بشىء ما ؟

« ــ أنا أومن بالانسان ، وبالعالم ؛ وبنفسى ٠ ولكن لا أومن بطبيعــة عليــا » ٠

« ـ انا أومن بالله على انه الذى يسند اليه البالغون ما لا يمكنهم أن يوضحوه ، فيقولون : هذا من الله » ٠

٠٠٠ ولا شك أن هذه الاتجاهات المدونة لايمان الشباب الأوروبى اليوم تشير وترجع الى جو « المادية » الطاغية فى العالم المتقدم صناعيا وعلميا اليوم ، سواء بسبب ازدهار الحياة المادية وزيادة الترف فيها ، أو بسبب طلب المزيد من هذا الترف ٠

ومما يزيد فى ترف هذه الحياة أن الشباب لا يرغب فى أن يسمع عن الحرب فى مكان ما ، ولا عن شقاء فى بقعة من بقاع العالم ٠ لانه يخاف الحرب ، ويخشى أن يجر الشقاء ، أو الكبت ، أو التفرقة العنصرية الى حرب يتورط هو فيها فى النهاية ٠

يريد أن يعيش آمنا ، فى سلام واسترخاء ، مستمتعا بمتعه الحسية التى يقدمها له فى يسر : التطور التكنولوجى والعلمى للنصف الثانى من القرن العشرين ٠

والشباب اذ ينكر الله ، لأن الله لا يساعده ـ كما يدعى ـ على هذا السلام والاسترخاء والاستمتاع بالمتع الحسية ، فى غير قلق ولا خوف من القلق ٠٠ فى غير حرب وفى غير خشية من الحرب ٠

انه سئم الحرب ، ويتذكر نتائجها التى مرت بالجيل السابق عليه ٠ وهى نتائج تدمير وتخريب ، وفقر واذلال ٠ ولا يريد أن يعيش فى مثل هذه النتائج مرة أخرى ٠ ولذا يريد « السلام » ٠ وهو سلام المتراخى ، وسلام المترف ، وسلام الآمن ٠

انه قد يسارع الى الايمان بالله لو وفر له الله هذا « السلام » على الأرض : سلام التراخى ، وسلام الأمن ، ولكن طالما هناك ما يقلقه على هذه الأرض ، وطالما هناك عليها ما يخشى منه على هذا السلام فى اية بقعة من بقاعها ، فالله غير موجود فى اعتقاده ٠ « فليس فى وجوده حماية ، وليس فى عبادته اياه ما يمنحه الثقة فى هذا السلام » !

والعالم كله اليوم وطن واحد ومجتمع واحد ، رغم وجود فواصل فى الاوطان ورغم وجود تعدد فى الأجناس والقوميات ٠ ولكن الأحداث ان وقعت فى أى مكان منه تتعداه حتما الى مكان آخر وأمكنة أخرى فيه ٠ فالابعاد فى الزمن والمكان ، قد انتهت بتقدم العلم والتطبيق الهندسى المعاصر ٠

واذن ايمان الشباب الاوروبى اليوم بالله مرهون بتلك التحديات · وهى : ابعاد الخوف والقلق ، وابعاد مصدرهما من الحرب · وهى تحديات مادية ·

ولكنه هذا الشباب لم يقتنع بعد ـ تحت تاثير المادية ـ بأن طبيعة الحياة الانسانية على الارض منذ وجود الانسان : الحرب والسلام ، والخوف والأمان ، والموت والحياة والفقر والازدهار ، والتدمير والبناء ···

وهل لابد اذن ـ لكى يقتنع الشباب الأوروبى اليوم بوجود الله ـ من أن ينهى الله الحياة الانسانية على الارض ، أو يغير نمطها الجارى منذ الآن ، فترتفع منها تلك المتناقضات حتى يرجع عن كفره ويعود الى الايمان بعد الحاده ؟ · أم أنها « المادية » التى سدت منافذ التفكير السليم ، وهو تفكير الرشيد ، وليس تفكير الطفل المتمركز حول ذاته ؟

★ ★ ★

الفصل الثـانى

مظاهرها فى اتجاه الحياة

(أ) الشرك بالله

(ب) النفرة من سماع الدعوة لوحدة الألوهية

(جـ) الاعتزاز بالقوة المادية فى المال والأولاد

(د) تقييم الناس على أساس الثراء والجاه والعصبية

(هـ) السخرية من المؤمنين والضعفاء

(و) انكار البعث

(ز) انكار الحياة الأخروية

★ من غير شك أن يكون الشرك بالله ـ فى صورة ما ـ أهم مظاهر المادية فى اتجاه الحياة للانسان · فعن طريق الشرك وحده يصل الانسان المادى الى هدفه من المتع الحسية والوقوف عندها وحدها · لأنه لا يطالب عندئذ بالروحية ، ولا بالمثالية ، ولا بالانسانية ·

فاقتناص المتع الحسية يحتاج الى الممالأة ، والنفاق · وأمر هذا ، وتلك : مضمون بالتقلب نحو مصادر النفع والضرر · وليس الشرك الا هذا التقلب فى عبادة من تؤمل فيه المنفعة أو الحماية من الضرر ·

★ وترتبط بظاهرة الشرك هذه فى اتجاه المادى فى الحياة : ظاهرة النفرة من سماع دعوة الوحدة فى الألوهية · اذ هذه دعوة تحول دون التقلب فى العبادة ، وفى سبيل السعى نحو جلب المنفعة أو دفع الضرر · وحدة الألوهية دعوة الى القيم المثالية ، التى ترتفع فوق المتع الحسية ، والتى لا يتجه اليها سوى من تخلص من سيطرة « الأنانية » عليه ·

والقرآن ، اذ يقول فى وصف أصحاب هذا الاتجـــاه المادى فى الحياة :

« **واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون » (١)**

٠٠٠ والقرآن اذ يقول هذا : يحدد يقينا هذه الظاهرة المشتركة فى حيـاة المادى ، وهى ظاهرة الشرك ، والكفر بالله وحده ٠ فعدم الايمان بالآخرة الذى ذكر هنا فى قوله : « **الذين لا يؤمنون بالآخرة** » يرمز الى الشرك ٠ اذ هو ظاهرة أخرى من ظواهر الاتجاه المادى فى الحياة ، نتيجة للشرك والكفر بالله وحده ٠ والتعبير ـ كذلك هنا ـ بقوله ، « **واذا ذكر الذين من دونه** » يراد به ما دون الله من الاصنام والاوثان ، وكما تكون هذه الاصنام والاوثان أحجارا ، تكون من الناس ، والاموال ، والأولاد ، والمتع الحسية ، والجاه الدنيوى ٠ وهى الشركاء المساعدون الذين يتجه اليهم المادى فى حياته هاشا وفرحا ٠

فاذا ذكرت الدعوة الى وحدة الله فى ألوهيته وذكرت صفاته ـ وهى تعبير عن القيم المثالية العليا ـ سد طريق الشرك أو طريق التقلب والنفاق ٠ أى طريق الوصول الى المتع الحسية ٠

فدعوة التوحيد لمن يؤمن بها أن يقف فى عبادته عند الله وحده ، ويتمثل فى نفسه صفاته جـل جلاله ، كى يقترب بهـذه العبادة منـه ٠ والمؤمن بالله لا يقترب مـن الله ، عـن طريق العبـادة ، الا اذا حـاول أن يحـاكى هـذه الصفات فى تصرفاته وسلوكه : فيحاكى العـلم ، والخلق ، والقدرة ، والحياة ، والارادة ، والغنى ، والرحمة ، والشدة ، ٠٠ الى غير تلك الصفات التى تعرف لله سبحانه وتعـالى ٠

والمؤمن بالله اذ يحاكى هذه الصفات فى التصرفات والسلوك لا يحتـاج الى وسيلة أو وسـائط ، كما لا يحتـاج الى شريك أو شركاء لله جل شأنه ، فى تحقيق منفعة مادية ، أو دفع ضرر مادى ٠ لأنه نفسه لا يقف عند حـد المتـع الحسية الدنيوية كهدف أخير فى حياته ٠ وانما يتطلع الى متع أخرى فى مرحلة ثانيـة فى وجـود الانسـان ، أكثر خيرا وأبقى نفعـا ٠ ثم مع ذلك يرى : أنـه بتحصيل العلم واتقانه العمل والابداع فيه ، وبترفعه فوق الشهوات والأهواء ، وبقناعته فى الاستمتاع بما يملك ٠٠ وغير ذلك عن طريق عبـادته ، يحس بمتعة أكثر من تلك المتع المادية ٠ بل ربما يرى انه فى تنازله عما يملك أو عما يقتنى

---

(١) الزمر : ٤٥ ٠

من متع ، الى غيره من أصحاب الحاجة ، يزيد فى متعة ذاته وفى الاحساس بهذه المتعة ·

فالنفرة من سماع دعوة الوحدة فى الألوهية أمارة المادية فى اتجاه الحياة للانسان · لأنها تنطوى على حرمان جزئى على الاقل من المتع المادية · وهو ذلك الحرمان الذى يفرضه المؤمن بالله وحده على نفسه ، ان تعين الحرمان سبيلا الى الاقتراب من الله فى صفاته ·

والاستبشار عند سماع ما دون الله من شركاء متمثلين فى انسان ، أو فى مال ، أو فى أولاد ، أو فى حجر ، هو صنم ، أمارة المادية فى اتجاه الحياة للانسان · لأنها هى الهدف الذى يسعى اليه المادى ، ولأن تحصيله ـ لهذا الهدف ـ يثير المتعة الحسية لديه · فالتقرب من انسان ذى جاه أو سلطان ، وتحصيل المال ، ووجود عصبية من الأولاد ، من شأنها : أن تثير الفخر والزهو ، كما من شأنها أيضا : أن تزيد فيما يستمتع به الانسان المتقرب الى أى منها ·

★ وبالاضافة الى هذه الظاهرة المزدوجة فى حياة المادى ـ عدم الايمان بالله ، وعدم التصديق باليوم الآخر ـ توجد ظاهرة أخرى تكاد تكون تعبيرا عما تنطوى عليه نفس صاحب هذا الاتجاه · وهى الاعتزاز بالقوة المادية فى المال ، والاولاد ، والاعداد · نقرأ قول الله تعالى ،

« **وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها** (وهم ، أصحاب الاتجاه المادى) ،

١ ـ انا بما أرسلتم به كافرون ·

٢ ـ وقالوا ، نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بمعذبين ·

قل : ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ·

وما أموالكم ، ولا أولادكم ، بالتى تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحا ،

فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون » (١) ·

---

(١) سبأ : ٣٤ ـ ٣٧ ·

٠٠٠ فبينما من وجهت اليهم دعوة التوحيد فى الألوهية ، وأنذروا من رسولهم ــ ان هم عارضوها ــ يعلنون كفرهم بها ، وهم من أصحاب الترف واليسار ؛ « ٠٠ **الا قال مترفوها : انا بما ارسلتم به كافرون** » ٠٠ اذا هم فى الوقت نفسه ؛ يرفضون الانذار والتهديد من رسولهم ، معتزين ؛ بأنهم أكثر أموالا ، وأولادا من غيرهم ، وبالأخص من المؤمنين ؛

« **وقالوا : نحن اكثر اموالا ، واولادا** » ٠ ومن اجل انهم اكثر اموالا وأولادا ، يتصورون انهم لا يعذبون ، أى لا ينال منهم وعيد ولا تهديد ، وكذلك لا ينال منهم عقاب وعذاب ، ان وقع عليهم بالفعل ؛ « **وما نحن بمعذبين** » ٠

فمن يتجه اتجاه المادى فى الحياة يغتر بما يحصل من أموال وثروات ، ويطغى بما تكون له من عصبية فى الأولاد والأسرة ٠ ويعتقد بما له من قوة الثراء ، والأولاد : أن السوء لا يقترب منه ، وأنه بأمواله ، وأولاده يتصور : انه يستطيع أن يفعل ما يريد ٠

يتصور انه يستطيع ان يكون ذا جاه ونفوذ اكثر ممن يمارس الجاه والنفوذ بالفعل : « **كلا ان الانسان ليطغى ٠ أن رآه استغنى** » (١) ٠

يتصور انه يستطيع أن يشارك الله فى تدبير الكون وتوجيه حياة المجتمع والأمة ٠

بل يتصور أنه يستطيع أن يكفر بربه وبنعمه ، بسبب ما لهذه النعم الكثيرة من تاثير عليه فى الغرور والطغيان : « **واذا انعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه** » (٢) ٠ « **ان الانسان لربه لكنود ٠ وانه على ذلك لشهيد** » (٣) ٠

وحتى لو نزعت منه قوة المال والأولاد فترة يتذوق فيها الحرمان ، فانه لو عادت له هذه القوة مرة أخرى سيعود الى سيرته الأولى فى الاعتزاز والغرور ، طالما يتمكن منه الاتجاه المادى : « **ولئن اذقناه (أى الانسان) نعماء ، بعد ضراء مسته ، ليقولن : ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور** » (٤)،

---

(١) العلق : ٦ ، ٧ (٢) الاسراء : ٨٣ ، فصلت : ٥١

(٣) العاديات : ٦ ، ٧ (٤) هود : ١٠

انه اتجاه المادية يجعل الانسان يغتر بما يملك من قوة ، حتى تجعله يجترىء على ربه ، فيكفر به : « **يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ؟** » (١) رغم أنه هو : « **الذى خلقك فسواك فعدلك · فى أى صورة ما شاء ركبك !** » (٢) · رغم أنه الخالق له فى أحسن صورة ، ورغم أنه المنعم عليه بأسباب القوة المادية التى يغتر بها الآن · ولكنها المادية تعمى ولا تبصر ، وتضل ولا تهدى ·

ولكى لا يترك القرآن الكريم حجة صاحب الاتجاه المادى فى الحياة فى الاعتزاز بالأموال ، والأولاد ، تأخذ الطريق الى نهايته فى الحجية ــ كسبب للاعتزاز والغرور ــ وقف ليقرر ، حقيقتين :

الأولى : أن المال فى كثرته وقلته هبة من الله للانسان ، ولا شأن له بالايمان والكفر ·· لا شأن له بالاتجاه الصحيح فى الحياة ، أو الخاطىء فيها : « **قل : ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » (٣) فهم لا يعلمون بسبب الغرور بالمال وقوة تأثيره فى الحياة على الادراك والحكم ·

الثانية : أنه لا صلة للأموال ، والأولاد ، برضاء الله عمن تكون له أموال وأولاد · فالأموال والأولاد بمعزل تماما عن مقياس الرضاء عند الله · ومقياسه الحقيقى يتمثل فقط فى الايمان ، والعمل الصالح المستقيم : « **وما أموالكم ، ولا أولادكم ، بالتى تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحا ، فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون** » (٤) ·

وبتقرير هاتين الحقيقتين أصبح صاحب الاتجاه المادى لا يستند فى الحياة فى غروره واعتزازه بالأموال ، والأولاد ، الى حجة واقعية · فما عنده اليوم من أموال قد ينتقل الى غيره غدا · وما له من أولاد الآن قد ينتقل الى غيره غدا · وما له من أولاد الآن قد يسيئون اليه بعد وقت من الزمن ، ويصبحون عليه نقمة بعد أن تصورهم نعمة · والأموال ، والأولاد اذن : ليست من الأمور الذاتية التى تلازم ذات الانسان فى غده ، كما هى له فى يومه · ومبعث سرور الانسان يجب أن يكون فيما هو أبقى ، وليس فيما هو متغير ومتقلب ·

★ وعن الاعتزاز بالقوة المادية فى المال والأولاد لدى صاحب الاتجاه المادى فى الحياة ، يتكون عنده مقياس التقييم للآخريين عداه ، على أساس من :

---

(١) الانفطار : ٦ — (٢) الانفطار : ٧ ، ٨

(٣) سبأ : ٣٦ — (٤) سبأ : ٣٧

الثراء ، والجاه ، والقوة المادية ، ان فى الأولاد والقبيلة ، أو فى السلطة ٠٠ ويبعد كل ما له علاقة بانسانية الانسان فى تقييمه وتقديره ٠

وما جاء فى سورة الزخرف ، من قصة فرعون مع موسى عليه الصلاة والسلام ، يعطى ما للمتع الحسية ، والقوة المادية ــ لدى صاحب الاتجاه المادى ــ من أثر فى تقييم الناس ، ووضعهم فى درجات التقييم المختلفة ٠ نقرأ قوله تعالى فى هذه السورة :

١ ــ « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فقال : انى رسول رب ، العالمين ٠

فلما جاءهم بآياتنا (أى بمعجزاتنا) اذا هم منها يضحكون ٠

وما نريهم من آية الا هى أكبر من أختها ،

٢ ــ **وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون**

وقالوا : يا أيها الساحر ! ؛ ادع لنا ربك ، بما عهد عندك ، اننا لمهتدون ٠

٣ ــ **فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون ٠**

ونادى فرعون فى قومه ، قال : يا قوم ٠٠ أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟

٤ ــ **أم أنا خير من هذا الذى هو مهين** (يقصد موسى) **ولا يكاد يبين ٠**

٥ ــ **فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مقترنين ٠**

فاستخف قومه فأطاعوه ، انهم كانوا قوما فاسقين » (١) ٠

٠٠٠ فهذه الآيات تجمل خمس مراحل فى تطور علاقة موسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ كرسول أرسل من قبل ربه الى فرعون مصر وملئه كمجموعة تمكن من نفوسهم حب المتع الدنيوية ، وأعطيت من أسباب القوة المادية : المال ، والرجال ، والجاه ، والملك ، والسلطة ٠ وبذلك لا ترى فى التقييم للبشر سوى ما تملك هى من مصادر القوة والاعتزاز ٠

---

(١) الزخرف : ٤٦ ــ ٥٤

المرحلة الأولى : وصول موسى عليه الصلاة والسلام الى فرعون وملئه بما يؤيد دعوته الى الوحـــدة فى الألوهيــة من معجــزات ، وعرضه هــذه المعجزات : معجزة ، بعد أخرى · وهى تتفاوت فى التفوق ، بعضها على بعض ومع ذلك كان الرد على دعوته بالضحك ، وبالكفر بها : « **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فقال : انى رسول رب العالمين · فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون · وما نريهم من آية الا هى اكبر من اختها** » ·

المرحلة الثانيــة : مجازاة فرعون وملئه على هــذا الرفض والكفــر ، بالقحط فى انتاج الحقول ، والنقص فى ثمار الحدائق سنين عديدة ، لعلهم يرجعون ، فيكشـــفون غطاء المادية فى اتجاههم فى الحيـــاة عن عيونهم ، ويعودون الى الايمان بالله وحده : « **وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون** » ·

والعذاب الذى أخذوا به هو ما تحكيه الآية الاخرى فى سورة الاعراف : « **ولقد أخــذنا آل فرعون بالسنين** (أى بقحط المحــاصيل ـ والتعبير عنهــا بالسنين لانها تقع كل سنة) **ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون** » (١) ·

وعندما تضرروا بالقحط ، ونقص الثمرات سنين عديدة ناشدوا موسى عليه الصلاة والسلام أن يدعو ربه بما عهد اليه من الرسالة ، وبما اختاره لأدائها ، أن يكشف عنهم هذا العذاب ، وهو عذاب القحط ونقص الثمرات · وكان عذابا فى حقيقة أمره ، لأن معيشة سكان وادى النيل تقوم على الفلاحة والزراعة · فاذا أصيب الزرع والثمــر بتلف أو ضرر كان الجوع ، وكانت مآسى الفقر والضيق ·

··· ناشدوا موسى أن يدعو ربه ، على أن يؤمنوا برسالته ، اذا ذهب عنهم هذا الضنك ، أو هذا العــذاب : « **وقالوا : يا أيها الســـاحر : ادع لنا ربك . بما عهد عندك ، اننا لمهتدون** » ·

المرحلة الثالثة : أنه بعد أن كشف عنهم العذاب ، الذى تمثل فى القحط والضيق سنين عــديدة ، عادوا فنكثوا بما عاهــدوا عليه ، من : اهتـــداء وايمان · وغلب عليهم الاتجاه المادى فى حياتهم ، وخــدعوا من جــديد بما لديهم من قوة ، ومتع حسية ، وأعلن فرعون الزهو بملكه ، وتملكه الغــرور الذى سد عليه منافذ العقل والحكمة : « **فلما كشفنا عنهم العـــذاب اذا هم ينكثون · ونادى فرعون فى قومه ، قال : يا قوم : أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟** » ·

---

(١) الأعراف : ١٣٠ ·

المرحلة الرابعة : ان فرعون فى موجة الزهو والفخر بملكه ، وبقوته ، وبما لديه من أموال وثراء ، عبر عن احتقاره لموسى عليه الصلاة والسلام ، وقاس منزلته بمقياس المادة وحـدها تتمثل : فى المظهر ، وفى القـدرة على الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا : « **أم انا خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين ؟** » .

المرحلة الخامسة : انه تبعا لمقياس المادة وحدها ، كان يمكن لفـرعون وملئه أن يصدقوه ، لو قدم اليهم فى صورة ثرى ألقيت عليه أسورة من ذهب : « **فلولا القى عليه اسورة من ذهب** » . لأنه عنـدئذ يكون ذا منزلة اجتمـاعية تعطيه الحق فى النقاش ، كما تعطى لقوله امكانية القبول والتصديق . فهو عندئذ ليس بذى حاجة ، لا يسمع قوله ، ولا تقبل دعوته .

فاذا لم يكن على صورة الثرى عديم الحاجة الى الغير ، فلا أقل من أن تصحبه بعض الملائكة للتدليـل عـلى شأنه واحـداث فرصـة لقبـول دعوته : « ... **أو جاء معه الملائكة مقترنين** » .

وفرعون كان ماديا ، أى يغلب عليه الاتجاه المادى فى الحيـاة ، وله خصائص أصحاب هـذا الاتجاه . وهو اذ ينكر على موسى ـ عليه الصـلاة والسلام ـ رسالته ، ويرفض الايمان بها ، ويتخذ من الآيات والمعجزات التى عـرضها مـادة للضحك ، كل ذلك بسبب أن موسى من الضعفاء الأذلاء فى مظهـرهم ، الـذين لا يستطيعون أن يتزينوا بما يتزين به الأثرياء وأصحاب الجاه . ويترك قيمته الذاتية ، وقيمة رسالته الموضوعية التى هى لصـالح المجتمع فى علاقات بعضه ببعض ، وراء المظهر الخارجى له ، أى أن مقياس القبول أو الرفض ، عند فرعون وملائه ، ليس موضوع الرسالة ، ولاخصائص الذات وقيمتها التى لموسى عليه السلام ، وانما هو مظهر موسى ، من : الفقر أو الثراء .

والذى يقدر الناس على أساس من فقرهم ، أو غناهم ، أو على أساس ضعفهم ، وقوتهم المادية ، أو على أسـاس مدى استمتاعهم بمتع الحيـاة أو مدى حـرمانهم منها .. لا شك أنه يسخـر من الفقيـر ، أو الضعيف ، أو المحروم ، مهما كانت استقامته فى السلوك ، ومهما كانت حكمته فى التصرفات وانسانيته فى معاملة الآخرين ، فى الوقت الذى يوفر فيه الاحترام للثرى ، أو القوى ، أو المستمتع بالحيـاة المادية ، ولو كان ظالما لنفسه ولغيره ، أو معتديا على الآخرين فى حرماتهم ، وأنفسهم ، وأموالهم ، ومساكنهم .. ولو كان أنانيا ومتقلبا فى احترامه وخضـوعه ، ومنافقا فيما يقـدم من مظاهر الاحترام للغير ، والولاء له .

هذه الظاهرة ـ ظاهرة السخرية من الفقراء والضعفاء ، مهما كان شأنهم وكانت قيمتهم فى ذواتهم ـ هى أمر طبيعى لمن يسيطر عليـه الاتجاه المادى فى حياته · يقدر زينة الدنيا ويقدر من يتزين بها ، ويحتقر القيم المثالية ومـن يسعى اليها ، ان حرم من الدنيا ، وما لها من زينة ، ومتعة :

١ ـ « زين للذين كفروا الحياة الدنيا ،

٢ ـ ويسخرون من الذين آمنوا ،

٣ ـ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ،

٤ ـ والله يرزق من يشاء بغير حساب » (١) ·

··· فالآية هنا تعطى : ما يتصوره الماديون بالنسبة للقيم فى الحيـاة ، وتعطى كذلك : ما هو عند الله فى حقيقة الأمر وواقعـه · تعطى :

أن الذين يكفرون بالله ، يخدعون بالحيـاة الدنيـا ، وتبـدو لهم على غير حقيقتها ، تبدو لهم : أنها الأمل والهدف ، ولا شىء آخر وراءها · وسواء أكان كفرهم هم سبب خداعهم بالدنيا ، أو أن خداعهم بالدنيـا هو سبب كفرهم ·· فالأمران ظاهرتان لا تنفك احداهما عن الأخرى فى السلوك لصاحب الاتجـاه المـادى ·

ولأنهم يقعون تحت تأثير الخداع بزينة الحياة الدنيا ، لا يرون فى غير هذه الزينة شيئا يستحق التقدير ، وتمنح له القيمة · ولذا : الذين لا يملكونها ليس لهم وزن فى التقدير والتقييم ، وهم لذلك موضوع سخرية واستخفاف ممن يملكونها ·

والمؤمنون ـ لأنهم عادة لا يتشبثون بمتع هذه الحيـاة الدنيـا ، فى سبيل هدف أسمى بعدها ، وهو هدف الرسالة والجهـاد فى سبيلها ـ ليسوا مـن اصحاب : الزينة الدنيوية ، وبالتالى هم : محل سخرية واستخفاف فى نظـر من يضع القيمة كل القيمة على المتع الدنيـوية وحـدها : « **ويسخرون مـن الذين آمنـوا** » ·

ولكن حقيقة الأمر وواقعـه :

··· أن المؤمنين لهم الدرجة العليا عند الله فى آخرته ، وأنهم متفوقون فى منزلتهم على أولئكم الماديين : « **والذين اتقـوا فوقهم يوم القيامة** » ···

---

(١) البقـرة : ٢١٢ ·

وأن متع الدنيا اذا أعطيت لانسان ما لا تعطى له بسبب ايمانه أو كفره ، فهى من الله · وكما يعطيها الله لمن يشاء ، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدر لمن يشاء · وفى بسطه للرزق قد يبسطه بغير حدود : « **والله يرزق من يشاء بغير حساب** » · فالرزق ومتع الحياة الدنيا كلها ، عطاء وحرمانا ، وسعة وضيقا ، لا تتبع الايمان والكفر ، وليست بالتالى عنوانا على القيمة والمنزلة الذاتية لمن يعطاها أو يحرم منها · بل أساس القيمة : فى التقوى والايمان ، وليس فى المال والثراء ، وجاه الدنيا ·

ولكنها ظاهرة المادية فى اتجاه الحياة تأخذ طريقها فى السخرية والاستخفاف بمن لا يملك من الدنيا زينة أو متعة ، كما تأخذ الطريق الى صورة أخرى تعبر عنها ·

★ ومن المظاهر الضرورية لأصحاب الاتجاه المادى فى الحياة : انكار « البعث » وانكار « الآخرة » كلية بما فيها من جزاء ·· بما فيها من جنة ، ونار ·

أما انكار البعث فلأن البعث ضرورة تترتب على النظرة الى الدنيا على أنها : مرحلة أولى فى حياة الانسان ، هى مرحلة « الاختبار » فى العمل والسلوك ، وأن ما فيها من متع حسية من : زينة ، ومال ، وولد ، لا يمثل المتع النهائية فى حياة الانسان عامة ، وأنها أدنى بكثير من تلك المتع التى هى خالصة للمؤمنين فى الحياة الثانية ، وهى حياة الآخرة · والبعث اذن بناء على هذه النظرة هو بداية المرحلة الثانية التى ستقرر : اما الى جنة ، أو الى نار فى الدار الآخرة ، تبعا لنوعية العمل الذى قام به الانسان فى الدنيا ·

ولكن من يرى متع الحياة الدنيا متعا نهائية ، وأن الدعوة الى الانصراف عن تحصيلها ، هى دعوة خادعة ومضللة لابد أن ينكر متعا أخرى وراءها · وبالتالى ليست هناك فى نظره : حاجة الى « بعث » ولا الى دار أخرى ، يستمتع أو يشقى فيها الانسان · وليس هناك تقييم آخر لعمله فى الدنيا ·· ليس هناك حساب ، ولا وزن لما عمل من قبل · ويرى أن : المقاييس التى تستخف بمتع الدنيا أو تقنن السلوك والأعمال فيها هى مقاييس وضعت لهدف واحد ، وهو الحيلولة دون الاستمتاع بزينة هذه الحياة لأكبر عدد ممكن من الناس ، كى تتوفر هذه الزينة لقلة قليلة منهم فقط ، وهم الذين يستطيعون اقتناصها بطاقاتهم وقوتهم المادية الممثلة فى الشرف ، والجاه ، أو المال ، والأولاد · فالبعث فى نظر أصحاب الاتجاه المادى جزء من « مركب » ـ هو الجزاء الأخروى ، والدار الآخرة ، والجنة والنار فيها ـ يستهدف الظلم فى

توزيع متع الدنيا ، بحرمان من يستطيع السعى الى تحصـيلها ، عن طريق اغرائه ببريق هذا « المركب » ٠

والقرآن الكريم يصور النظرتين وأصحابهما ، فيما تقصه هذه الآيات :

١ ـ « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء : محياهم ، ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ٠

٢ ـ وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون ٠

٣ ـ أفرأيت من اتخـذ الهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم عـلى سـمعه وقلبه ، وجعـل على بصره غشـاوة ، فمـن يهديه مـن بعـد الله ؟ افلا تذكـرون ! ٠

٤ ـ وقالوا : ما هى الا حياتنا الدنيـا ، نمـوت ونحيـا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون » (١) ٠

٠٠٠ فالذين اجترحوا السيئات وارتكبوا الجرائم ـ وفى مقدمتها الشرك والكفر بالله ـ فريق له نظرته فى الحياة ، وهى نظرة صاحب الاتجاه المادى ٠ ومن أجـل ذلك لا يـرى الا أن الوجـود الحاضر مستمر ، فى استمرار الموت والحياة فيـه ، وليس لهذا الاسـتمرار نهـاية ٠ والموت طبيعى ، والحيـاة طبيعية ، أى أن ما يجرى فى هذا الوجود المشاهد هو أمر طبيعى ، لا دخـل لأجنبى عن الطبيعة ، والدهر فيه : « **ما هى الا حياتنا الدنيا** (أى الحاضرة والمشاهدة) **نموت ، ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر** (أى ما يميتنا الا الدهر ، وما ينشئنا أيضا الا الدهر والطبيعة) » ٠

والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم فريق ثان له نظرته فى الحياة ، وهى نظـرة المؤمن بالآخـرة ، وبالبعث والحساب فيها ٠ ويـرى : أن الموت والحياة بيد الله ، وأن استمرار الوجود الانسانى ليس على هذه الأرض ، وانما فى دار أخرى ، وله طابع آخر يختلف عن طابع الوجود الأرضى ٠

وبينما الفريق الأول أعمته الطبيعة واتجاه المادية فضل على علم منه ، وشعور تام بوضعه ، وسدت عليه منافذ الادراك الصحيح ـ وهى منافذ السمع

---

(١) الجاثية : ٢١ ـ ٢٤ ٠

والبصر والفؤاد ـ وأصبح لا يتجه ولا ينظر الا من خلال ظلال المادية وحدها ٠٠ اذا بالفريق الثانى على هداية من ربه ٠ وشتان ما بين الفريقين ، فى محياهم ، ومماتهم ٠

وهذا الاتجاه المادى ليس وقفا على جيل معين من البشر ٠ انما هـو ظاهرة انسانية تتجلى فى كل جيل من أجيال البشرية ، ويعتبر أصلا من أصـول الحياة الانسانية ، كالايمان بالله سواء بسواء ٠ أى أن كلا منهما من ظواهر التفكير الانسانى التى تصاحبه بحكم طبيعته : فى تطوره ، وفى مدى اختلاف الأفراد فى هذا التطور ٠

ودعوة الايمان بالله فى أى زمن ، سيواجهها حتما هذا الاتجـاه المادى ، الذى ينكر عليها دعوتها فى أصلها الذى تقـوم عليه ، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى وجوده ، أو فى صفاته الأخرى بالنسبة للانسان والكون ٠

والقرآن ذاته يقص هذه المواجهة الحتمية التى واجهتها دعوة الايمـان بالله فيما مضى ـ وتواجهها كذلك فى الحاضر والمستقبل ـ وأنها لم تكن قاصرة على رسول أو داع بعينه :

« **ثم انشأنا من بعدهم قرنا آخرين** (أى من بعـد نوح ، ومن آمن به) ، **فارسلنا فيهم رسولا منهم** (قيل : هود ، أو صالح ، أو شعيب) :

أن اعبدوا الله ، ما لكم من اله غيره ، أفلا تتقون ؟ ٠

١ ـ وقال الملأ من قومه الذين كفروا ، وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا :

ما هذا الا بشر مثلكم ، يأكل مما تاكلون منـه ، ويشرب مما تشربون ٠ ولئن أطعتم بشرا مثلكم ، انكم اذن لخاسرون ! ٠

ايعـدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون ٠ هيهـات هيهات لما توعدون ٠

٢ ـ ان هى الا حياتنا الدنيا : نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين ٠

٣ ـ ان هو الا رجل افترى على الله كذبا ، وما نحن له بمؤمنين » (١) ٠

---

(١) المؤمنون : ٣١ ـ ٣٨ ٠

فأصحاب الاتجاه المادى الذين ذكرت الآيات السابقة فى سورة الجاثية ، وهم مشركو مكة ، انكارهم للبعث فى مواجهة دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم يكونوا وحيدين فى تاريخ البشرية فى هذا الاتجاه · بل تذكر هذه الآيات الأخرى التى وردت فى سورة المؤمنين وتتحدث عن أصحاب هذا الاتجاه المادى فى خصائصهم الأساسية ، وهى : الكفر بالله ، والتكذيب بلقاء الآخرة ، والترف فى الحياة الدنيا ، بأنهم انكروا « البعث » فى مواجهة دعوة : هود ، أو صالح ، أو شعيب اياهم : « **أن اعبدوا الله ما لكم من اله غيره افلا تتقون ؟** » · وهذا انكار سابق على انكار مشركى مكة للبعث ، فى مواجهة دعوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ·

وسيظل انكار « البعث » فى الآخرة ظاهرة للاتجاه المادى فى الحياة بعد الدعوة المحمدية الى يوم : أن تقوم الساعة ·

★ أما انكار « الآخرة » فهو لا يقل وضوحا فى نتائج الاتجاه المادى فى الحياة عن أى مظهر آخر من مظاهره · فطالما الدنيا وحدها هى مجال الحياة لصاحب هذا الاتجاه ، وطالما ما فيها من زينة ، ومتع مادية ، هى التى ينبغى أن يسعى اليها وحدها ، وطالما الطبيعة هى كذلك بقوانينها التى لا تتخلف ، ذات التأثير وحدها فى مجريات الحياة والوجود على الأرض ، وطالما المقاييس التى تخفف من وزن المتع المحسوسة من أموال ، وأولاد ، وغيرها هى : مقاييس قصد بها نفع القلة على حساب الكثرة ·· طالما كل ذلك ، فلأى سبب ، أو لأى هدف آخر : تكون الدار الآخرة ؟ · انها عندئذ تكون زائدة على الوجود الانسانى ، ولا تشغل فيه فراغا ، الا فى وهم من يتجاوز فى نظرته ، وفى حياته ، هذا الوجود الدنيوى الحاضر ! ·

وهذا منطق الماديين · انهم يعيشون لوقتهم ، ولوجودهم الحاضر فحسب : « **ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم ، فهم يعمهون** (أى يترددون فى ضلال) » (١) · فهم واقعون تحت خداع ما فى الدنيا من زينة ، ولا يرون شيئا آخر وراءها يستحق أن يصرفهم عنها ·

ويربط القرآن الكريم بين عدم الايمان بالله وحده ، وعدم الايمان بالآخرة · ويكاد يجعل عدم الايمان بالله وحده نتيجة لازمة لعدم الايمان بالآخرة ، فيما يقوله : « **الهكم اله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون** » (٢) ·

---

(١) النمل : ٤ ·

(٢) النحل : ٢٢ ·

... فاذ تبعو الرسالة الالهية الى الايمان بالله وحده ، عندما تقرر : « **الهكم اله واحـد** » .. تذكر : أن الذين لا يؤمنون بالآخرة من شأنهم ، أن تنكر قلوبهم الايمان بالله وحده ، ومن شأنهم أيضا أن يترفعوا من سماع الدعوة الى هذا الايمان ، فضلا عن النظر فى هذه الدعوة وما تنطوى عليه من حق : « .. **فالذين لا يؤمنون بالآخرة : قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون** » .

والأمر من مظاهر الاتجاه المادى فى الحياة لا يحتاج الى تفتيش فى أى واحد منها يستلزم الآخرة . لأنها جميعها متفرعة عن أصل واحد ، هو عدم مفارقة المحسوس الى ما وراءه : سواء فى ادراكه وتأمله ، أو فى الايمان به . وطالما وجد مظهر منها فى تصرفات انسان ما ، فالمظاهر الأخرى لابد أن تكون مصاحبة له فى الوجود ، وان اختلفت درجة وجوده وظهوره للعيان .

وفى تصوير القرآن للذين لا يؤمنون بالآخرة فى قوله : « **واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون ! . للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم** » (١) بأنهم المثل السىء بين الناس .

وفى تصويره لهم كذلك فى قوله : « **وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم . وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون . ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون** » (٢) .. بأنهم منحرفون عن الصراطالسوى ، رغم انهم يدعون اليه ، وبأنهم سرعان ما يعودون الى الطغيان والتردى فيه ، ان زالت عنهم المصائب بعد وقوعها بهم . هذا التصوير ، وذاك ، هو : تصوير لصاحب الاتجاه المادى فى الحياة ، وان جاء هنا فى شأن من لا يؤمن بالآخرة . ولذا يمكن أن يوصف أى انسان بدت فى سلوكه اية ظاهرة من ظواهر الاتجاه المادى بكل الخصائص التى يستلزمها هذا الاتجاه . هذا من جهة . ومن جهة أخرى يمكن : ما قيل بخصوص ظاهرة ، أن ينال فى ظاهرة أخرى :

(أ) فالشرك ،

(ب) والنفرة من سماع الدعوة لوحدة الألوهية ،

(ج) والاعتزاز بالقوة المادية فى المال والأولاد ،

---

(١) النحل : ٥٨ ـ ٦٠ . (٢) المؤمنون : ٧٣ ـ ٧٥ .

(د) وتقييم الانسان على أساس الثراء والجاه والعصبية ،

(هـ) والسخرية من المؤمنين ، والضعفاء الفقراء ،

(و) وانكار البعث ،

(ز) وانكار الآخرة ٠٠ كلها ظواهر أو مظاهر للاتجاه المادى فى تصرف الانسان ٠ فاذا تقلب الانسان فى عبادته وولائه ، وصداقته ، واحترامه ، ودأب على النفاق ، واتخذ من الجبن ستارا لحسن المعاملة ٠٠ فهو مادى فى اتجاهه ٠ ويمكن أن تلاحظ عليه بقية الظواهر الأخرى ٠

وكذلك اذ يعتز بالقوة المادية وحدها ، ينفر من الدعوة الى الألوهية والوحدة فيها ،

واذ يقيم الآخرين على أساس القوة المادية ، يسخر من الضعفاء والفقراء ، كما يسخر من المؤمنين الذين حرموا زينة الحياة الدنيا ،

واذ ينكر البعث أو اليوم الآخر ، يستند الى أصحاب القوة فى الحياة وحدهم ويذل لهم ، يستهزىء فى الوقت نفسه بكل قيمة عليا لا يجسدها حس ٠

يستحيل على المادى فى اتجاهه فى الحياة : أن يؤمن بقول الله تعالى : « **يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون** » (١) ٠٠ أو يؤمن بقوله جل وعلا : « **وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب ، وان الدار الآخرة لهى الحيوان** (الحياة) **لو كانوا يعلمون** » (٢) ٠٠ ويستحيل عليه أن يؤمن بهذه ، أو بتلك ٠ لأنه لا يؤمن بأن معرفته بالوجود الدنيوى هى معرفة سطحية ٠ والا لما تهالك على الدنيا وزينتها ومتعها ٠٠ والا لما تركها تسد عليه منافذ الادراك دون غيرها ٠ ولأنه لا يؤمن أيضا بأن ما فى الحياة الدنيا : ان هو الا لهو ولعب ٠٠ ان هو الا قليل الأهمية بالنسبة لما فى الآخرة ٠ وأنه لا يمثل الحياة الحقيقية ، وانما تمثلها الدار الآخرة تمثيلا صحيحا ٠

٠٠٠ هو على النقيض : يؤمن بأن معرفته معرفة دقيقة ويقينية ، اذ قصرها على الوجود الحاضر المحسوس وحده ، ولم يتجاوزه الى ما هو مغيب وغير مشاهد ٠ ويؤمن مع ذلك ــ أو بناء على ذلك ــ بأن تركيزه فى هذه

---

(١) الروم : ٧ ٠ (٢) العنكبوت : ٦٤ ٠

الحياة الدنيا والاستمتاع بما فيها من متــع ، وزينة : انما يحيى حياة واقعية ، ويمارس نشاط الأحياء اليقظين ، وليس نشاط الأحيــاء فى صورة الأموات ، الذين لفظتهم الحياة بعد أن قللوا من شأنها ٠

★ والصراع بين المادى واللامادى ، أو بين الواقعى والمثالى ، أو بين الوجودى والروحى هو صراع منبثق من طبيعة الانسان ، وليس هو مفروضا على الانسان ٠ ومعنى ذلك : أنه سيظل على هذه الأرض ، طالما يوجد عليها الانســان ٠

ومن اجل ذلك فان مهمة « الروحية » أو « المثالية » أو « الدين » لم تنتــه بعد ، مهما طغت « المادية » فى اتجاهها ، وتأثيرها ، واجتذاب الأتبــاع اليها ، سيظل للدين دوره ، كما للمادية عنادها وجماحها ، ولو ترك « الدين » مكانه ، لنادته « المادية » من جديد الى الصراع معــه ٠ اذ يستحيل أن يكون النــاس أمة واحدة فى الايمان ، أو فى الكفر ٠٠ فى الروحية ، أو فى المادية ٠

ولو بدا فى لحظة ما : أن الناس جميعا ماديون ، لتحول فى نفس اللحظة فريق منهم يزهد فى المادية ويقاومها ، وان لم يكن باسم دين ، أو باسم روحية خاصة ٠ كذلك لا تــزول « المادية » من عــلى هذه الأرض ٠ وفيما تذكــره الآية الكريمة : « **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيهــا ، وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون** » (١) ٠٠ يدل دلالة قطعية على : أن « المادية » ٠ وبعض من يتأثــرون بتوجيهها موجــودة فى كل مجتمع بشرى ، ولا تزول اطلاقا ، ليباشر من يتبعها الانحراف والاجرام ٠ وهم لا يســيئون الا لأنفسهم ، رغم أنهم ليسوا على ادراك بهذه الاساءة ٠

ولو بدا أن الناس جميعا أصبحوا أصحاب روحية لوقع فى ذات اللحظة : أن فريقا منهم ينصرف عن الروحية الى المادية ويسعى الى اشباع الشهوة ، واشباع الهوى ، ويبدأ فى الصراع من أجل « ماديته » أو من أجــل انفصاله واعتزاله بقية الناس فى اتجاه وحده :

« ولو شاء ربك لجعــل الناس أمة واحدة ،
ولا يزالون مختلفين ٠٠
الا من رحم ربك ،
ولذلك خلقهم ،
وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين » (٢) ٠

---

(١) الأنعــام : ١٢٣ ٠ (٢) هــود : ١١٨ ، ١١٩ ٠

والأمر الــذى يزيد أو ينحسر هو عــدد المؤمنين بالروحية ، والكافرين بها ٠٠ هو عدد الذين لا يتقاتلون على متع هذه الحياة ، أو عــدد من يقــاتل بسببها ، ويخــرب ويدمر ، وينتهــك الحرمات ، ويرتكب أســاليب القرصــنة والغدر والخيانة فى سبيل هذه المتــع المادية ٠

والمادية ، والدين اذن ، عــلى طـرفى نقيض ٠ ولن تكون المادية دينــا وعقيدة ، كما لا يكون الدين مادية وتقربا الى عبادة المتع المحسة ٠ والخصومة بين الطرفين لا تحتاج الى اعــلان ٠ والمنافق هو الذى يظهر قرب المادية مــن الروحيــة ، أو العكس ٠

ويعاب على المادية طغيانها ، كما يعاب على الروحية عزلتها ، ان اتجهت الى العزلة والانفصال عن الحياة الدنيوية وما فيها ٠

وطغيان المادية لا يبقى ولا يذر على هذه الأرض ما يستحق الحياة أو الوجــود ٠

وعزلة الروحية توقف حركة السعى فى هذه الحياة ، وتجمد نشــاط البنــاء فى عمارة الكون وكشفه ٠

ولذا : كان الاسلام ــ الذى هو رسالة الله على لسان أى رســول ــ يدعو الى الحيلولة دون الطغيان عن طريق المال ، والأولاد ، والقوة المادية ، كمــا يدعو الى عدم العــزلة وعدم الانفصالية عن الحياة الدنيا وما فيها من متع ، على نحو ما تنشد « الروحية » فى غلوها ومبالغتها :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة .

ولا تنس نصيبك من الدنيا

وأحسن كما أحسن الله اليك ،

ولا تبــغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » (١) ٠٠ تلك دعوة قوم قارون اليه ٠ وعندما لم يتبعها كان جزاؤه : « فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » (٢) ٠

---

(١) القصص : ٧٧ ٠ (٢) القصص : ٨١ ٠

ان مستقبل الدين ليس الى الزوال ، وان كان الى الاضمحلال ·

وان مستقبل « المادية » ليس الى الاكتساح وان كان الى الطغيان ·

والحرب العالمية الثالثة هى التى ستعبد الطريق من جديد الى الايمان بالله والى القيم الانسانية فى عالم الانسان ·

★ ★ ★

الفصل الثالث

آثارها فى جرائم المجتمع

ان الجرائم الاجتماعية هى ما يعبر عنها القرآن الكريم : بالفحشاء ، أو الفاحشة ، والمنكر ، أو كبائر الاثم · هى تلك التى تصور اعتداء على العرض ، والمال ، والنفس ، وتتعدى من تقع عليه الى المجتمع ككل ·

أما الجريمة التى تتصل بالعقيدة فهى جريمة الشرك فى العبادة ، أو التقول على الله بغير حق ، وعلم ·

وهناك اذن أربع دوائر فى حياة الانسان والمجتمع ، يجب أن تصان من الاعتداء عليها ، وهى دوائر ، العرض ، والمال ، والنفس ، والاعتقاد · والاعتداء على أية واحدة منها هو اعتداء فى الواقع على المجتمع ككل ، وليس اعتداء على فرد ، وان اتصل الاعتداء فى وقوعه بفرد ، أو بأفراد · فالمجتمع لا يكون مجتمعا ، والأمة لا تصير أمة بعدد الأفراد ، أو بمكان سكناهم واقامتهم ، وانما بالروابط بينهم ، وهى روابط تحفظ عليهم : أعراضهم ، وأموالهم ، ودماءهم ، وعقيدتهم وايمانهم · ومن هنا : كان الأعتداء على أى من هذه الجوانب هو اعتداء على مقومات المجتمع والأمة · ولذا كان أى اعتداء منها فى نظر القرآن الكريم جريمة اجتماعية ، وليس جريمة فردية ·

ولخطورة هذه الجرائم جاء القرآن بتحديد عقوبات لها ، ولم يدع الجزاء عليها محلا لتقدير الانسان فى أى وقت ، أو فى أى عصر :

فهناك نص على حد الزنا ، وهو الاعتداء على العرض ·

وهناك نص آخر على حد السرقة ، وهو الاعتداء على المال ·

وهناك نص على حد القتل ، وهو الاعتداء على النفس ·

وهناك نص على ما يتخذ ضد الشرك ، وهو الاعتداء على العقيدة والايمان ·

ولعناية الاسلام بصيانة هذه الجوانب فى حياة الانسان ـ وهى عنـاية ملحوظة منذ بدء الرسالة الألهية حتى ختمها ـ أصبحت لهذه الجوانب حرمة يطلب لها ان لا تمس · وهى حرمة فى حقيقة الأمر تعـود الى قيمة الفـرد · اذ قيمة الفرد فى استقلال ذاته · وهذا الاستقلال يتميز بحـق عـدم المسـاس بالعرض ، وحـق الاحتفاظ بالمال ، وحـق صيانة النفس ، وحـق حـرية الاعتقـاد ·

ولا تستحل هذه الحقوق اطلاقا الا فى ظل مجتمع انسانى لا يحرص على القيم الانسانية فى العلاقات والسلوك بين أفراده ·

وقد سلك القـرآن الكريم ازاء هذه الجـرائم للحيلولة دونها ، مسالك متنـوعة :

★ فهو ينبه اليهـا ويطلب تجنبهـا ، بعـد أن يصفها فى وقوعها بما يدل على خطرها وشناعتها فيقول :

« **ولا تقربوا الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن** » (١) · ثم يقول : « **قل : انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن** » (٢) ·

··· فاذ يدعو فى الآية الأولى الى عدم الاقتراب من الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، يعلن تحريمها صراحة فى الآية الثانية ، ما ظهـر منها وما بطن كذلك ·

والوصف « بالفواحش » فى الآيتين هنا ـ وفى آيات أخرى غيرهما ـ وان كان يتناول أنواع الجرائم الاجتماعية الثلاثة الا أنه يدخل فيها الاعتداء على العرض دخولا أوليـا · فهو الجـريمة الوحيـدة ، دون جريمتى المال ، والنفس ، التى يصرح القرآن بوصفها دائما : بأنها فاحشة ، عندما أفردها بالتحريم فى قوله : « **ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا** » (٣) · وقد يزيد فى تجسيم أمر هـذه الجـرائم وشدة خطـرها فينسب وقوعها الى الشيطان ، والى تأثيره · والانسان الذى يباشر واحدة منها أو جميعها ـ تبعا لذلك ـ هو ولى للشيطان : يأتمر بأمره ، ويتصرف طبقا لاغرائه · يقول فى بعض آيات الكتاب العزيز : « **ومن يتبـع خطوات الشيطان فانه يامر بالفحشاء والمنـكر** » (٤) · ويقصد بالفحشاء هنا فى هذه الآية جريمة الاعتـداء على

---

(١) الانعـام : ١٥١ ·
(٢) الأعراف : ٣٣ ·
(٣) الاسراء : ٣٢ ·
(٤) النـور : ٢١ ·

العرض ، وهى الزنا ، بينما يقصد بالمنكر جريمتى : الاعتداء على المال ، والنفس ، وهما السرقة والقتل ·

ويقول فى البعض الآخر من الآيات :

« يا ايها الناس

كلوا مما فى الأرض حلالا طيبـا ،

ولا تتبعـوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين ·

انمـا يأمركم بالسـوء ، والفحشـاء ، وان تقـولوا عـلى الله ما لا تعلمون » (١) ·· وهنا فى الآية الثانية من هاتين الآيتين تعبر كلمة «السوء» عن السرقة ، والقتل ، وكلمة « الفحشاء » عن الزنا ، كما يعبر قوله : « **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** » عن الشرك · والآية بذلك تجمع بين الجـرائم الاجتماعية الثلاث ، وجريمة الاعتقاد ، وهى الشرك بالله ، وترد كلها ـ كما تذكر الآية ـ للشيطان فى وقوعها والتأثير فى مباشرتها ·

والقرآن لا يصرح باسناد أمر الى « الشيطان » ـ وهو من فعـل الانسان فى الواقع ، عندما ينحرف ويتبـع نفسـه الأمـارة بالسوء ـ الا لأن هـذا الأمر بالغ الأثر السىء على المجتمع والأمة من جهة ، والا لأنه لا يأتى به فـرد من الأفراد ، الا اذا تمكنت فيه روح الأنانية فأعمته عن كل ما سـوى ذاته فى مجتمعه وأمته ، من جهة أخرى ·

فاذا نسب القرآن الى الشيطان ، عدا هذه الجرائم ، أمورا أخـرى ، كتشكيك أصحاب الأموال فى أداء وظيفة المال وتحقيق منفعته العامة ، عـلى نحو ما تذكر هذه الآية : « **الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء** » (٢) ·· فهو ينسب اليه كذلك ايذاء كبيرا يهدد المجتمع والأمة بحرب الحقد والضياع ـ بجانب تلك الجرائم الاجتماعية ـ ، وهو الايذاء الناشىء عن حجب الانفـاق فى سـبيل المصـلحة العـامة ، وراء الزكاة · وحجب الانفاق فى سبيل الله والمصلحة العامة ، أو عدم أداء المنفعة العامة للمال ، فى آثاره السلبية على المجتمع والأمة يشكل عاملا قويا فى التقويض لا يقل شأنا وخطورة عن شيوع تلك الجـرائم الاجتمـاعية فى جوانب : العرض ، والمـال ، والنفس ، ومدى فاعليتها فى التعجيل بفناء المجتمع وضعف الأمة ·

---

(١) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ ·   (٢) البقـرة : ٢٦٨ ·

★ وبجانب التنبيه على خطورة هـذه الجـرائم واشراك الشيطان فى وقوعها ، يطلب القرآن تكرار الدعوة الى تجنبها ، وأن يناط أمر هذه الدعوة الى مجموعة من الأفراد المؤمنين لا تنى ولا تتباطأ لحظة فى شأنها ، حتى يكون المؤمنون جميعا ـ وهم أفراد المجتمع ـ على بينة فى كل وقت من أخطارها :

« **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويامرون بالمعروف ،**

وينهـون عن المنـكر ،

وأولئك هم المفلحون » (١) ٠ واذا لم تذكر هذه الآية ـ بجانب الحث على فعل الخير ، ومبـاشرة المعـروف فى القـول والعمـل ـ سوى النهى : عن « المنكر » دون أن تذكر « الفحشاء » معه ، فان الزنا ، وهو فاحشة ، منـكر كذلك ٠ ولكنه منكر بغيض ، ولذا أخذ وحده الوصف بالفحشاء ٠ والنهى اذن عن « المنكر » فى هذه الآية هو نهى عن الجرائم الاجتماعية الثـلاث : الزنا ، والسرقة ، والقتل ٠

واهتمام القرآن بوجود مجموعة من المؤمنين تناط بها الدعوة الى الخير، والأمر بالمعروف ، وتجنب المنكر ، وان كـان اهتماما برسـالة الاسـلام فى جملتها ، الا أن تخصيص « المنكر » بالنهى عنه فى مجمل الدعوة الى الرسالة يثير عناية خاصة بأمر هذه الجرائم الاجتماعية ٠

★ ومع هذين النوعين من المسالك التى يسلكها القرآن تجاه تلك الجرائم فانه قد حدد بصفة قاطعة عقوبات لها لا تتبدل ولا تتغير بتغير العهد والزمان ، مما يدل على أن الموقف تجاهها يجب أن يكون موقفا حاسما لا يقبـل الاجتهاد والرأى ، محافظة على حرمات الأفراد ، وصونا للعلاقات بينهم من الضعف أو التحلل :

(أ) فبعد النهى عن جريمة الزنا فى قوله : « **ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا** » (٢) ٠٠ حدد العقوبة لمن يرتكب جريمته فى قوله :

« **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ،**

ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ،

وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (٣) ٠ والقرآن فى تحديد العقوبة هنا على هذه الجريمة ، يتجه فى تنفيذها الى المؤمنين جميعا : عندما يخاطبهم

---

(١) آل عمران : ١٠٤ ٠ (٢) الاسراء : ٣٢ ٠
(٣) النـــور : ٢ ٠

فيقول : « **فاجلدوا كل واحد منهما مـائة جلدة** » . واخيرا عندمـا يناشدهم عدم الرأفة فى تنفيذ العقوبة ، لأن ذلك أمر يخص دين الله ، فيمـا تعبر عنـه الآية : « **ولا تأخذكم بهمـا رأفـة فى دين الله ، ان كنتم تؤمنون بـالله واليوم الآخر** » .

ولا شك أن الاتجاه بمطلوب هذه العقوبة الى المؤمنين ـ دون الحـاكم وحده ـ يؤكد : أن الاعتداء على العرض ، أو جريمة الزنا ، هى جريمة ترتبط بالمجتمع ككل ، وأن خطورتها ليست وقفا على بعض ، دون بعض فيه .

ونوعية العقوبة بأنها « الجلد » .

وكميتها بأنها مائة جلدة ،

وعلانيتها على مشهد من المؤمنين ، وان اتسم كل ذلك بالشدة وعـدم الرأفة فلأن جريمة انتهـاك العـرض هى عامل فاضح لانسـانية الانسـان ، ونزول بالانسان الى مستوى الحيوان نفسه . فما يترتب على الزنا من :

فضح العورة ـ والعورة آخر ما يمسك الانسان على سترة الا فى علاقة مشروعة ، ومن التهرب من المسئولية عما قد ينشأ من طفولة غير شرعية ، أو يتسبب من مرض لو تفشى أمره لحطم قوة المجتمع المادية والمعنوية .. كل ذلك بعيد كل البعد عن الانسانية فيما يصيب الأمة من كوارث .

ان الفارق بين عالم الحيوان ومجتمع الانسان ، ليس فى النسل ، ولا فى مباشرة الغريزة الجنسية ، فكلاهما ينسل ويباشر الغريزة الجنسية ، وانما فى المسئولية عن النسل ومباشرة الغريزة ، وعدم المسئولية عنهما .

فعالم الحيوان لا يعرف مسئولية فى النسل ، ولا فى مباشرة الغـريزة الجنسية ، بينما مجتمع الانسان فى قيادته وفى تحديد العلاقات بين أفراده يرعى المسئولية الفردية والمسئولية الجماعية معا . ومعنى المسئولية فى دائرة العلاقة الجنسية فى المجتمع البشرى هى تحمل النتائج التى تترتب على هذه العلاقة . ولن تتم المسئولية ويتم تحمل نتائجها باباحة الزنا ، أو بتقليل نظرة الخطر اليه ، أو فى التحايل على قبوله فى صورة من الصور التى تروج الآن : كصورة « الزواج الجماعى » أو صورة « تبادل الزوجات والرفيقات » .

فمهما كانت صورته فهو زنا فى حقيقته ، وهو بالتالى : جريمة اجتماعية ان أخذ فى الاعتبار أن المجتمع مجتمع انسـانى ويراد له أن يحقق الأهداف الانسانية فى بقـائه .

(ب) ويحدد القرآن أيضا عقوبة السرقة ــ وهى جريمة المال ــ فيما تذكره هذه الآيــة :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، جزاء بما كسبا ،

نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » (١) ·· يحدد القرآن هذه العقــوبة بقطع يد السارق · وهو تحــديد ينطوى على عنف وقسوة أيضا · وقد استهدف من العقوبة على هذا النحو « التنكيل » بمن يرتكب هذه الجريمة ، فوق جزائه عليها : « جزاء بما كسبا ، نكالا من الله » · وذلك لأن سرقة المال ليست اعتداء على نشاط الساعى فى تحصيله فقط ، ولا اعتداء على تحقيق منفعة المال العامة بانفاقه فى مصارف الترابط بين أفراد المجتمع فحسب ، ولكنها قبــل هــذا ، وذاك ، تعد امتهانا لكرامة السارق نفسه فى انسانيته · وهى كرامة الانسان الذى يجب أن يسعى بنفسه فى تحصيل فضل الله ورزقه ، وفق نشاطه الخاص فى السعى والتحصيل · اذ السارق ليس من الفقراء أو المساكين ــ أى ليس بعاجز عن السعى أصلا ، وليس كذلك ممن يقصر دخله من سعيه عن تغطيــة احتياجاته لنفســه وفى أسرته ــ فله طــاقة على الســعى ، وبمباشرته السرقة يعطلها عن العمل ، ويصبح من جانب يشبه صاحب الربا الذى يحول بمــاله ، دون تسخير طاقته فى سبيل الكسب ، وتحصيل الرزق ·

والسارق ــ فى نظر الاسلام ــ ليس من الفقراء والمساكين · لأن الفقير والمسكين يجب أن تغطى حاجة معيشتهما من الزكاة ، ومن انفاق المال وراءها ، مما يجب فى أموال الموسرين ، حسب ما جاء فى القرآن الكريم · وحصيلة الأموال التى تجبى من الزكاة ، أو تؤخذ من الموسرين ، يشرف عليها ما يسمى فى عرف الفقهــاء بــ « بيت المــال » ، وهو الخزينة العامة للدولة فى نظــام الحــكم المعاصر ·

ومعنى هذا : أن اثم السرقة ان باشرها فقير أو مسكين يقــع أولاً عــلى المؤمنين ــ وفى مقدمتهم ولى الأمر فيهم ــ وبالتالى يسقط حدها عن السارق ، وهو قطع اليد · لأنه يجب أن يتكفل المؤمنون بحاجة كل منهما قبل تنفيــذ حد السرقة · وعندئذ تكون السرقة ــ ان وقعت ــ جريمة اجتماعية ، وتعد اعتداء على مالك المال والمجتمع معــا :

أما على مالك المال ، فلأنها تعويق لسعيه ووقف لنشاطه ·

وأما على المجتمع ، فلأنها تحول دون تحقيق المنفعة العامة لوظيفة المال ، كما يراها الاسلام ·

---

(١) المائدة : ٣٨ ·

والتنكيل اذن بالسارق ـ عن طريق قطع يده ـ لا ينطوى على مجافاة لما يسمى بالحضارة الانسانية ، طالما هذه الحضارة تقوم على القيم العليا فى حياة الانسان • اذ القيم العليا التى يجب أن تتحقق فى حياة الانسان ، هى قيم :

حرمة المال ، :

وحرمة العمل والسعى ، :

وحرمة التكافل •

والسرقة جريمة ضد هذه الحرمات الثلاث •

والمجتمع الذى يرى فى قطع يد السارق والسارقة همجية هو مجتمع أنانى لا يكفل للعاجز عن الكسب معيشته فى الحياة ، ولا يضمن لمن يقصر نشاطه فى السعى والعمل عن الوفاء بحاجته وما يؤدى هذه الحاجة • وعندئذ تكون السرقة وسيلة للكفاف والوفاء بحاجة المعيشة ، وليست اعتداء على حرمات المال والعمل والتكافل •

(ج) وبعد أن ينهى القرآن الكريم عن « القتل » فى قوله تعالى : « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** » (١) ـ وهو نهى هنا مضاعف أو مؤكد أولا : بتحريم قتل النفس ، وثانيا : النهى عن مباشرة قتلها : « **ولا تقتلوا النفس ، التى حرم الله** » ـ يحدد عقوبة القتل فيما جاء فى قوله :

« **ياأيها الذين آمنوا**

كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ،

والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف ، واداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ،

فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم •

ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ؛ لعلكم تتقون » (٢) •

وهذه العقوبة هى : « القصاص » أى الأخذ بالمثل فى الاعتداء • وقد وضح القصاص ما يذكر فى قوله : « **الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى** » •

---

(١) الاسراء : ٣٣•

(٢) البقرة : ١٧٨ ، ١٧٩

ويرى القرآن أن القصاص في القتلى ، بقتل المعتدى القاتل ، وان كان في ظاهره : أنه اعدام نفس أخرى غير التى قتلت بالفعل ، ينطوى على «حياة» في واقع الأمر ، هى حياة المجتمع فى صيانته من التمادى فى جريمة القتل مستقبلا : « ولكم في القصاص حياة ، يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ·

وهنا اذ ترى بعض المجتمعات المعاصرة عدم الأخذ بـ « القصاص » فى القتل ، توفيرا لنفس انسانية من الموت ــ وهى نفس الفرد القاتل ــ فانها اذ تبقى على حياة فرد تهدد حياة أفراد كثيرين آخرين فى المجتمع ، وهم الذين يتعرضون لجريمة القتل من تلك النفوس ، التى لا يردعها سوى : القصاص فى القتلى ·

والمجتمعات المعاصرة ــ وهى تنظر الى هذه الجرائم الثلاث : الزنا ، والسرقة ، والقتل ، على أنها جرائم شخصية ، وليست اجتماعية ، ومن ثم تحدد عقوبات أخرى هى أهون بكثير من : الجلد فى الزنا ، وقطع اليد فى السرقة ، والقصاص فى القتلى ــ ربما تنطوى نظرتها على ما يساعد تفشى هذه الجرائم فى مجتمعاتها ، بالاضافة الى العوامل الأخرى التى تساعد على ذلك ، وهى عوامل : اقتصادية ، تتردد بين سوء التوزيع للعمل أو الثروة القومية من جانب ، وخروج المرأة ومشاركتها فى مجالات العمل المختلفة من جانب آخر ·

★ وازاء نهى الاسلام المشدد عن اقتراف هذه الجرائم الاجتماعية ، ودعوته الى قيام مجموعة من المؤمنين بالتذكير المستمر للابتعاد عنها ، وبالوقوف فى تحديد العقوبات عندها وحدها ··· لا يرى المؤمن الا ذلك الذى يتجنب بالفعل كبائر الاثم ، والفواحش : « والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، واذا ما غضبوا هم يغفرون » (١) ·· فيما يقصه القرآن الكريم من صفات المؤمنين ، التى تكون حقيقة ايمانهم · وكذلك فيما يقصه من صفات عباد الرحمن فى قوله : « والذين لا يدعون مع الله الها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما » (٢) · ومضمون ما فى الآيتين واحد ، وهو عدم اقتراف الجرائم الاجتماعية ·

وتكاد تكون الحيلولة دون اقتراف هذه الجرائم الاجتماعية فى نظر القرآن ــ بالاضافة الى تجنب تلك الجريمة فى العقيدة والايمان ، وهى جريمة الشرك بالله ــ تحدد مضمون الرسالة الالهية ، وما يطلب من الانسان ،

---

(١) الشورى : ٣٧ (٢) الفرقان : ٦٨

كانســان : فى سلوكه ومواقفه ، كمــا تكاد تكون عنوانا على الهــدف الأخير المنشود فى حياة الناس من « الروحية » والنهى عن اتباع « المادية » فى شططها وانحرافاتها ٠

وفيما ينصح به القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمبايعة النساء اللاتى وفدن اليه عندما تضمنت المبايعة عدم اقترافهن هذه الجرائم الاجتماعية والعقيدية على السواء فى قوله تعالى .

« يا أيها النبى

اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على :

أن لا يشركن بالله شيئا ،

ولا يسرقن ،

ولا يزنين ،

ولا يقتلن أولادهن ،

ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ،

ولا يعصينك فى معروف ٠ فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم » (١) ٠ فيما ينصح القرآن بكل هذا : دليل أكيد على الأهمية التى يوليها لسلامة الايمان ، وسلامة المجتمع فى الابتعاد عن جريمة « الشرك » والجرائم الاجتماعية الأخرى الثلاث ٠ فتكاد تكون المبايعة مقصورة على العهد بعــدم اقترافها ، بالاضافة الى عدم المعصية فى المعروف والمقبول فى علاقات الأفراد٠

والأمر نفسه فيما يطلب القرآن على لســان رسول الله صلى الله عليــه وسلم من المعارضين لرسالته والمجادلين فيها ٠ فهو يتلو عليهم المحرمات من الجرائم العقيدية والاجتماعية ، حتى اذا اتبعوها لم يكن هناك خلاف بينهم وبين المؤمنين قبلهم :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم :

الا تشركوا به شيئا ،

ـ وبالوالدين احسانا ـ

ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ،

---

(١) الممتحنة : ١٢ ٠

ولا تقربوا الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ،

ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ،

ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ·

ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده ،

وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ،

واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله اوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون · وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١) ·

فمضمون ما وصى به الله هنا مما يصور الصراط المستقيم هو الابتعاد عن جريمة الاعتقاد ، وهى الشرك ، وجرائم : العرض ، والمال ، والنفس · فجريمة الاعتقاد فيما ينهى عنه بقوله : « **الا تشركوا به شيئا** » · وجريمة العرض فيما يذكره فى قوله : « **ولا تقربوا الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن** » · وجريمة المال فيما يعبر عنه بقوله : « **ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ اشده ، وأوفوا الكيل والميزان** » · فان الأخذ من مال اليتيم بغير حق ، سرقة للمال ، وبخس الكيل والميزان سرقة للمال أيضا · أما جريمة النفس فقد عبر عنها ــ مرة فى صورة كانت شائعة ــ فى قوله : « **ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم** » وأخرى فى صورة عامة فى قوله : « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** » ·

واتباع (العدل) فيما يوصى به القرآن هنا بعد ذلك يكاد يكون تعبيرا عن الواقع الذى يعيش فيه بتجنب تلك الجرائم الأربع ، جريمة الشرك ، والجرائم الاجتماعية الثلاث الأخرى · فالذى يتجنب الاعتداء على (وحدة الألوهية) وعلى حرمات العرض ، والمال ، والنفس ، يسلك طريق الاستقامة · والاستقامة عدل وتوازن ، لا انحراف فيها أصلا ·

وحماية المجتمع الانسانى من هذه الجرائم هو حماية له من السقوط والتدهور فى مجال الانسانية نفسها وفى مجال العلاقات بين الأفراد · ومن يعنى بتقدم المجتمع فى ضروب الصناعة ، وفى مستوى المعيشة ، وفى توفير الامكانيات المادية للحياة ، ويترك لهذه الجرائم أن تأخذ طريقها الى النفوس ،

---

(١) الأنعام : ١٥١ ــ ١٥٣

ثم الى واقع الحياة ، انما يساعد على السقوط والتدهور فى المجالين معـا : مجال الانسانية ، ومجال العلاقات المتبـادلة بين الأفراد ٠ ورخـاء بعض المجتمعات البشرية اليوم (فى اسكندنافيا) بسبب التقـدم الصـناعى وتوفر الامكانيات المادية ، جعل منها نموذجا للانحلال ، وما يعبر عنه : (بثـورة الجنس) ، وفوضى الرأى ٠

(د) أما جريمة العقيدة ، وهى الشرك بالله ، فقد صورها القرآن الكريم مرة : بأنها ضلال بعيد : « **ومن يشرك بالله فقـد ضل ضـلالا بعيـدا** » (١) ٠ وأخرى : بأنها افتراء عظيم : « **ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما** » (٢) ٠ فالمشرك بالله حقيقة ، ضال فى طريقه ، ومفتر فيمـا يدعيه : هو ضـال فى طريقه ، لأن سلوك طريق الشرك يوصل حتما الى حتف الذات ، أو الى بيعهـا فى سوق الهوى والشهوات ٠ فهو فى عيشـته ذليـل ومستعبد ، ولا يسـتطيع التحرر ومباشرة حريته الانسانية ٠ ومذلته وعبوديته لهواه ، تجعل منـه منافقا وجبانا ٠ وهو كذلك مفتر فيما يدعيه ، لأنه لم يستوعب بعد فى معرفته حقيقة الكون ٠ واشراكه بالله عندئذ هو : ادعاء بما يسير حركة هذا الكون ويديره ٠ والانسان فى تحديده ومحدوديته لا يستطيع الخروج من دائرته الى دائرة عليا ، يدعى فيها فى ثقـة ويقين ، وقوفه على حقـائق الوجود فى كنهها ، وفى ترابطها ٠ ولهذا : الحديث عن الشرك بالله ، وعن وجود شركاء فى الكون معه ، هو حديث يقوم على الافتراء ، ويرتكب قائله اثما عظيما ٠ لأنه بقوله يظلم نفسه ، ويظلم من هو الكامل فى الوجود وحده ، معه ٠

كما يعلنها القرآن الكريم ـ حربا لا هوادة فيها ضد المشركين ولا يستبيح فيها دماءهم فحسب ، وانما يطلب استئصالهم أينما وجدوا ، ويؤكد للمؤمنين : أن الله معهم فى قتـالهم للمشركين ، ومطاردتهم اياهم : « **وقـاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين** » (٣) ٠

وفيما يقرره القرآن فى قوله : « **ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك ، لمن يشاء** » (٤) ، من : عدم المغفرة للمشرك ما يرتكبه مـن جريمـة فى حق (وحدة الألوهية) ٠٠ يوحى بأن هـذه الجريمة على رأس الجـرائم الأربع ، وربما تكون كذلك هى الأصل والمصدر لها ٠ فما من جريمة اجتماعية

---

(١) النساء : ١١٦ (٢) النساء : ٤٨

(٣) التوبة : ٣٦ (٤) النساء : ٤٨

الا وتدفع اليها (المادية) · وهى الغلو فى تحصيل المتع الدنيوية · والمادية مظهر انكار الألوهية ، والايمان بما عدا الله سبحانه وتعالى والشرك بالله لا يقل فى آثاره ضررا على الانسان المشرك من انكار الألوهية · ففوق أن الشرك بالله ينطوى على الايمان بما عدا الله ، ينطوى على انكار خصائص الله وصفاته ، التى فى مقدمتها : « الوحدة » فى الذات ·

★ ★ ★

الفصل الرابع

آثارها فى سقوط المجتمع

ان وجود الاتجاه المادى فى ذاته ، فى أى مجتمع ، يعتبر أصلا عاما من أصول الحياة الانسانية العامة · على معنى : أنه لا يخلو مجتمع بشرى من نواة هذا الاتجاه على الأقل · ثم يبقى فى اطار محدود · وقد ينتشر فتبدو آثاره ونتائجه واضحة · ولكنه على أية حال موجود ، وقابل للتوسع والانتشار فى المجتمع · ويوم ينتشر : تتجلى معالمه ، وأماراته ، ثم يصير المجتمع الذى انتشر فيه حتما الى السقوط والزوال ·

وهناك اذن ثلاث مراحل تتصل بهذا الاتجاه :

المرحلة الأولى : مرحلة وجوده وقابليته للتوسع ،

المرحلة الثانية : انتشاره وتوسعه بالفعل ، وأمارات ذلك ،

المرحلة الثالثة : سقوط المجتمع الذى تمكن منه هذا الاتجاه فى حياة أفراده · والقرآن الكريم يكشف عن هذه المراحل الثلاث :

★ فعن المرحلة الأولى نقرأ قوله تعالى :

« **وكذلك جعلنا فى كل قرية** (أى فى كل مجتمع) **اكابر مجرميها ، ليمكروا فيها ،**

وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون » (١) · فالشق الأول من هذه الآية وهو : « **وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها** » يقرر: أنه فى كل مجتمع بشرى ، صغير أم كبير – فى الماضى ،أو فى الحاضر ، أو فى الغد القريب أو البعيد ، فىحالة بدائية ، أو تطورية ، – يوجد بعض العمد والأكابر من أصحاب الاتجاه المادى فى الحياة · وهذا البعض هو الذى عبر

---

(١) الأنعام : ١٢٣

عنه هنا : بـ « **اكابر مجرميها** » · ووصف هذا البعض (بالمجرمين) للتدليل على طبيعة الاتجاه الذى يخضعون له فى حياتهم ، وليس ذلك الا الاتجـــاه المادى ، لأنه وحده : هو الذى يدفع الى الجرائم · ويستحيل أن يكون الاتجاه المقابل ، وهو اتجاه الايمان بالله · اذ هذا الاتجـاه الأخير لا يجعـل الدنيـا ومتعهـا المـادية مجـال المنـافسة بين الأفـراد · انمـا يسعى لينقلهم الى مجـال العمـل الصـالح ، بدلا من مجـال تحصيل المتـع الدنيـوية · ومجال العمل الصالح هو العمل الانسانى الذى يرتفع فوق النزوات والجنوح ، وفوق الخصومات ، والانحرافات ، والجرائم ·

واذن فى كل مجتمع بشرى شرذمة أو مجموعة من أصحاب الاتجاه المادى فى الحياة تتزعمه ، وتحاول أن تنفث سمومه فى المجتمع · ومحاولة ذلك هى ما يعبر عنها القرآن بقوله : « **ليمكروا فيها** » · ان محـــاولة (المـكر) فى (القرية) ـ أو فى المجتمع ـ هى محاولة (الفتنة) و (الفساد) ·· هى محاولة السير وراء الهوى والشهوة ، فى غير حد ، وفى غير اعتبار لأمر آخر · سوى تحقيق المتعة الحسية ·

وفى كل مجتمع بشرى اذن ، فى أى عهد ، وزمن ، ممثلون للاتجاه المادى فى الحياة ، ممن يعتمد عليهم فى التمثيـل ، وتتوفر فيهم صـــفات الزعامة والرياسة للفكرة ، أو الاتجاه · ثم فى الوقت نفسه لا يقتصر نشاطهم على تمثيل الاتجاه المادى ، بل يدعون اليه بالقدوة ، فى اثارة الفتن ونشر الفساد ، وما يقوض كل قيمة من القيم المثـالية ، التى يرتكز عليها الاتجاه الآخر ، وهو اتجاه الايمان بالله ·

ومع وجود هذا الاتجاه المادى فى الحياة كحقيقة أكيدة ومقررة ، ومع فاعليته ـ وعـدم جموده فى وجوده ـ وأخذه المبـادرة فى المكر والفتنة ، فانه لا يستطيع ازالة الاتجاه الآخر ، الذى يعارضه ، وهو اتجاه الايمان بالله ، من واقع المجتمع ، أى مجتمع ، فى أى وقت ، وفى أى مكان ·

وهذا القصد هو الذى يعنيه الشق الثانى من الآية الســـابقة : « **وما يمكرون الا بانفسهم ، وما يشعرون** » · أى أن مصير اثارتهم للفتن والفساد ، سيلحق بهم وحدهم فى النهاية · ولأنهم فى اتجاههم المادى يقعون تحت زينة الحياة الدنيا ، ومتعها وحدها ، فهم لا يرون فى سلوكهم ، وفى السعى لتحقيق أنانيتهم وشهواتهم ، النهـاية لهم ، ولا يتصورون : أن العـــاقبة تدور عليهم وحدهم ·

ورد القرآن بما رد به هنا عن قوله : « **وما يمكرون الا بانفسهم** » هو من الله ، الذى يتجه اليه المؤمن بايمانه وعبـادته · ومعنى رده هنـــا اذن : أن

الايمان بالله لا يضار من أصحاب الاتجاه المادى فى الحياة ، مهما أثاروها فتنة وفسادا ، وأن المؤمنين كذلك لا يبادون كلية من أى مجتمع بشرى قائم ، بفعل الزعماء والأكابر لذاك الاتجاه المادى ٠

والحقيقة التى لا مرية فيها هى : اختلاف المجتمع البشرى ـ أى مجتمع ، فى أى مستوى ، وفى أى وقت ـ وانقسامه الى : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ٠٠ الى المؤمنين بالله ، والكافرين به ٠٠ الى أصحاب الروحية فى الاتجاه ، وأصحاب المادية فيه :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ،

ولا يزالون مختلفين ٠

الا من رحم ربك ،

ولذلك خلقهم ،

وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (١) ٠ وهاتان الآيتان ، تقرران معا : حقيقتين :

الحقيقة الأولى : أنه باستطاعة الله أن يجعل الناس جميعا أمة واحدة ، ومجتمعا واحدا صاحب اتجاه واحد ، ولو شاء لفعل ذلك ٠

والحقيقة الثانية : أن اختلاف الناس فى مجتمعاتهم الى أصحاب الايمان بالله أو أصحاب الروحية فى جانب ، وأصحاب الاتجاه المادى والشرك فى الحياة فى جانب آخر ، أمر ضرورى قضت به حكمة الخلق للناس أنفسهم : **« ولذلك خلقهم »** ، واقتضته أيضا ارادة الله فيما وعد به من ملء جهنم من أصحاب الاتجاه المادى فى الحياة والشرك بالله ، من الجن ومن الانس معا : **« وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من : الجنة ، والناس أجمعين »** ٠

فاقتضاء حكمة الله فى خلقه : أن لا يكون الناس سواء فى الاتجاه فى الحياة ،

وأنهم لايزالون مختلفين فى هذا الاتجاه : **« ولا يزالون مختلفين »** الى أن تنتهى رسالة الانسان فى هذه الحياة الدنيا ـ وهى رسالة الابتلاء من جانب ، ورسالة الحق فى صراعه مع الباطل من جانب آخر ٠٠ هذا الاقتضاء يوجب اذن : وجود الايمان بالله فى صورة ما ، ووجود الاتجاه المادى فى صورة ما ، فى كل مجتمع بشرى مضى ، أو آت ٠

---

(١) هود : ١١٨ ، ١١٩

وارادة الله التى تتمثل فى اختلاف الناس فى المجتمع البشرى فىاتجاههم فى الحياة بين : مثالى ، ومادى ، أو بين مؤمن ، ومشرك أو كافر ، هى قانون الطبيعة البشرية الذى يحكم طبائع الأفراد والمجتمعات معا ٠ فتفاوت الأفراد فى مستوى الادراك ، وتفاوتهم فى التـأثر بالبيئات وبالعـادات والأعراف ، وتفاوتهم فى درجة التطور والنضوج ٠٠ يجعل منهم افرادا مختلفين ، ويجعل من مجتمعهم مجتمعا موزعا فى الاتجاه بين النقيض ، ونقيضه ٠

وطبقا لهذا القانون البشرى : ليس هناك يأس فى المجتمع اذا اشتد فيه ظلام المادية ، وأحكم اتجاهها ، وأغلقت نوافذ الهداية وحطم مصباحها ٠

وطبقا لهذا القانون أيضا ، لا تنبغى المبالغة فى التفاؤل والاطمئنـان ، اذا اتسعت رقعة الايمان وزاد عدد المؤمنين فى الأرض ، أو أحرزوا النصر يوما ما ٠ فهذه المبالغة فى التفاؤل والاطمئنان قد يتسرب منها نشاط الاتجـاه المادى ، ويفسد على الايمان ما تفاءل به أصحابه ، ويسبب له فى لحظة أخرى خيبة أمل ٠

وهنا : النصر ، والهزيمة ، سنة الحياة ٠ والاختلاف فى الاتجاه ، من طبيعة هذه الحياة ٠ وعدم فناء أو زوال أى اتجاه من اتجاهى الحياة ، قانون الحياة الأرضية نفسها ٠ وعدم اليأس عند شدة الظلام ، وعدم المبالغة فى التفاؤل عند وضوح النهار من مستلزمات الوجود الانسانى ٠ والخروج فى الاحساس أو فى السلوك عما هو لطبيعة الحياة هنا هو اصطدام مع الطبيعة نفسها ، فيه القضاء على من يسعى الى الاصطدام ٠

★ وعن المرحلة الثانية ــ وهى مرحلة انتشار الاتجاه المادى فى حيـاة الأفراد ــ فان الأمر فيها ينتقل من وجود الاتجاه المادى فى الحياة وفاعليتـه الى نشاطه الواسع ، وغلبته ، أو سيطرته على حياة المجتمع ٠ وأمارة التوسع فى نشاط الاتجاه المادى تبدو مرة :

١ ــ فى سلوك الأفراد ، وبالأخص فى سلوك أولئـكم الذين أترفوا فى الحياة ٠ فهؤلاء لا يحول بينهم وبين الاستمتاع بما أترفوا فيه أى حائل ٠ وبذلك يظلمون أنفسهم ، ويظلمون غيرهم ٠٠ يظلمون انفسهم ، لأنهم يتبعون شهواتهم فى غير حدود ، ويحولون بذلك ، المتعـة الى سوء يعود على صحتهم ، وعلى روابطهم فى الأسرة والمجتمع ٠ ويظلمون غيرهم ، لأن مجاوزتهم كل حد فى الاستمتاع بما حصلوه من نعم وترف ، يسبب حرمانا للآخرين ، الذى أصبحت لهم حاجة ماسة الى بعض ما فى أيديهم ٠ وتصور الآية القرآنية الآتية هذه الأمارة فيما تقوله :

« واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه ،

وكانوا مجرمين » (١) ·· فوصفت أصحاب الاتجاه المادى حينئذ :

(أ) بأنهم اتبعوا ما اترفوا فيه فأصبحوا منطلقين فى التبعية ، ينجذبون نحو المتع الحسية وحدها ، وليست لهم فى أنفسهم اية ارادة تجعلهم لاينجرفون وراء هذه التبعية ·

(ب) وبأنهم ارتكبوا الظلم بذلك ولأنفسهم قبل غيرهم ،

(جـ) وبأن تبعيتهم لما اترفوا فيه ، وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم ، دفعهم الى الجرائم الاجتماعية من : ارتكاب الفحشاء ، والفسوق ، والعصيان ، وأصبحوا بذلك مجرمين ، وأصبح مجتمعهم مجتمع جرائم ، يقل فيه أصحاب الفضل الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ·

وفيما آل اليه أمر المجتمع عندئذ تقول الآية الأخرى :

« فلولا (فهلا) **كان من القرون من قبلكم أولوا بقية** (فضل) **ينهون عن الفساد فى الأرض ! ،**

الا قليلا ممن انجينا منهم » (٢) · أى أن الفساد استشرى عندئذ لسبب سلوك هؤلاء الماديين بحيث ، لا تقاومه تلك القلة القليلة ، التى انجبت وأنقذت من طغيان الاتجاه المادى ، وموجته العارمة فى المجتمع فقلتها تجعلها ضعيفة، فى مواجهة الفساد والجرائم الاجتماعية ، واصبح تغيير المجتمع امرا لا مفر منه ·

والأمر : عندما يتبع المترفون ترفهم يكون : الظلم ، ويكون : الاجرام والفساد · وحينئذ يكثر أصحاب الاتجاه المادى ، ويقل المؤمنون الذين من شأنهم ان ينهوا عن الفساد فى الأرض · والمؤمنون القلة آنئذ يحفظهم الله ويرعاهم ، وينقذهم · والمجتمع القائم آنئذ مجتمع مادى ، أو مجتمع جرائم ، أو مجتمع ظلم ، أو مجتمع فساد ، وانطلاق فى الاستمتاع بالمتع الحسية الشهوية · وقد وصل الى النقطة التى لابد أن ينحدر منها ويسقط ·

٢ ــ وتبدو ــ امارة التوسع فى نشاط الاتجاه المادى ــ مرة أخرى : فى رفض النصيحة ، والاستمرار فى اتباع الظلم والاجرام ·

---

(١) هود : ١١٦ (٢) هود : ١١٦

وفيما مضى ــ فى تاريخ البشرية ــ كان الرسل عليهم الصلاة والسلام يوالون بالنصيحة للمترفين ، وزعماء الاتجاه المادى فى الحياة ، طالبين اليهم أن يوقفــوا موجة الظلم والاجرام ، ويعــودوا الى السلوك السوى المستقيم · وذلك عندما تبلغ موجة الظلم ، والاجرام ، والفساد ، حدتها ، ويبلغ الاتجاه المادى فى الحياة مدى نشاطه ، وشدة طغيانه ·

ولكن الغرور والافتتان بزينة الدنيا ومتعها ، تحت تأثير هذا الاتجاه المادى ، يسد الآذان عن السماع ، ويعمى الأبصار عن الرؤية ، ويغلق المنافذ الى القلب وأعماق النفوس ، فلا تستجيب لنصيحة ناصح ·· ولو كان هو الرسول المؤيد من قبل الله ·· ولو كان هو من أهل الفضل والخيرة فى قومه ·· ولو كان بعيدا عن الغرض الشخصى والزعامة والرياسة ·· ولو كان فى سلوكه المثل والقدوة للسلوك الانسانى الكريم ، الذى لم يدنسه الانحراف فى تيــار الشهوات والمتع المادية ، والفساد ، والفحشاء ، والمنكر · ولو كان ···

ومن هنا كانت قضية رفض النصح ، عند سيطرة الاتجاه المادى على حياة المجتمع ، لا تخص ناصحا بشخصه ، ولا تقف عند عهد بعينه ، أو عند مجتمع خاص من المجتمعات التى تنجرف فى اتجاه الظلم والاجرام ، تحت تأثير النزعة المادية ، والمتعة الحسية · وقول الله تعالى :

« وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها :

انا وجدنا آباءنا على امة ، وانا على آثارهم مقتدون ·

قال : او لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟

قالوا : انا بما ارسلتم به كافرون » (١)

··· قول الله هذا : يصور هذه القضية فى رفض النصح من الماديين

فالآية الأولى من هاتين الآيتين ــ والقرآن يتجه بها الى الرسول عليــه الصلاة والسلام ــ توضح عموم القضية ، وأنها لا تتخلف اطلاقا ، وأن الرد على لسان المنذرين من المترفين كان ردا تقليــديا ، لم يصــحبه مرة ما تأمل موضوعى ، ولا مراجعة للآثــار المدمرة والمهلكة للمترفين ولمجتمعهم ، عندما تطغى موجة الأنانية ، والاستهتار ، والفساد ، والاجرام · **« وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية** (أى قبل الرسول) **من نذير ، الا قال مترفوها : انا وجــدنا آباءنا على امة** (أى على طريق معين) **وانا على آثارهم مقتدون »** ·

---

(١) الزخرف : ٢٣ ، ٢٤

اما الآية الثانية منهما فلاقامة الحجة عليهم ، وتوضيح : أنهم لا يتبعون الا ما أترفوا فيه ، ويرتكبون أنواع الظلم والجرائم ، لأنهم مقتدون بأسلافهم فقط ، وأنهم لم يحتكموا فى ذلك الى عقل ، ولا الى واقع تاريخى ، اذ لو احتكموا الى منطق الانسان السليم لتجنبوا هذا الطريق المؤدى الى الدمار والهلاك واتبعوا هداية الرسول ، ولو احتكموا الى الواقع التاريخى لأرشدهم : الى أن عاقبة هذا الاتجاه المادى فى الحياة ، واحدة ، ومحتمة ، وهى : سقوط المجتمع ، وتوالى الويلات والمصائب على أفراده : « قال : أو لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا انا بما أرسلتم به كافرون » ·

والواقع التاريخى فى ماضيه يعيد نفسه فى يومه ، وفى غده · فالطبيعة الانسانية هى الطبيعة الانسانية ، لا تتبدل ولا تتغير فى خصائصها · والمجتمع البشرى هو المجتمع البشرى : فى أحداثه ، وفى عوامل هذه الأحداث ، وفى نتائجها ·

وطالما الاتجاه المادى فى الحياة كان فى الأمس البعيد والقريب ، فانه يظهر أيضا فى الغد القريب ، والغد البعيد · وطالما كانت نتائج الطغيان عن طريقه هى : انهيار المجتمع وسقوطه ، فهذه النتائج ذاتها متوقعة عندما يظهر فى أى وقت فى كبريائه ، وعنجهيته ، وفساده ، ومنكراته ، وفحشائه ·

★ أما المرحلة الثالثة — وهى المرحلة التى تلى طغيان الاتجاه المادى فى حياة المجتمع — فهى مرحلة سقوط المجتمع ذاته · وسقوطه آنئذ يعد ضرورة اجتماعية ، لا سبيل الى تفاديها · وهنا القرآن الكريم يشكل هذا القانون الاجتماعى بنتائجه ومستلزماته ، وفى مقدماته ، فيما تنطق به هذه الآية الكريمة :

« واذا أردنا أن نهلك قرية (أى مجتمعا) أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » (١)

··· فارادة الله هى : ذلك القانون الاجتماعى ، لا تنفك نتائجه عن مقدماته بحال ، والمقدمات فى هذا القانون هى : اتباع أصحاب الاتجاه المادى فى الحياة ما أترفوا فيه ، فالفسق ، والفجور ، والظلم ، والاجرام ، فاذا تولى المترفون أمر المجتمع زاد فسقهم ، واجرامهم ، وظلمهم ·

أما النتائج الضرورية فى ارتباطها بهذه المقدمات فهى تدمير المجتمع وسقوطه ، ولا راد لذلك بحال : « فحق عليها القول » · وما جاء فى الآية

---

(١) الاسراء : ١٦

الكريمة من « تأمير » المترفين وتوليهم الأمر فى المجتمع فهو لتعجيل النتيجة المترتبة فقط · ولذا كان التعبير بـ « فاء » التعقيب : « ··· **امرنا مترفيهـا ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا** » ·

أما المبدأ ·· وأما القانون الحتمى فهو : سقوط المجتمع المادى ، عندما تشتد فيه موجة الفساد ، والاجرام ، والظلم ، باسترسال المترفين فى ملذات الحياة ومتعها الحسية والمادية ·

وأما « متى » تقع النتائج ؟· فان تولى المترفون مع فسقهم وطغيانهم شئون المجتمع ، فيرتقب بين لحظة وأخرى : سقوط المجتمع ، وتدميره · وان لم يتولوا شئونه ، فربما يحتاج الأمر فى ترتيب النتائج ووقوعها الى شىء من الوقت ، حتى تبلغ الموجة العاتية أشدها وحتى يصل الظلم والاجـــرام الى نقطة ، لا مفر من التغيير والسقوط بعدها ·

والمفهوم المخالف لهذا القانون الاجتماعى هو : أن المجتمع اذا نأى بنفسه عن طغيان الاتجاه المادى ، واتبع هداية الله فى سلوك أفراده وأخضع العلاقات فيه الى « العدل » والتعاون والمحبة ، و « الاحسان » فانه باق لا يتغير ·

وقد صاغت ، آية أخرى ، مفهوم المخالفة هذا فى قانون مقابل ، هو : « **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** » (١) · فالآية تنفى على وجه التأكيد : أن يغير الله المجتمع ويدمره ، وأهله مصلحون معمرون · واصلاح أهل المجتمع هو فى : سلوكهم المسلك السوى ، ابتغاء وجه الله ·

واذن هناك قانونان يحكمان المجتمعات البشرية : فى بقائها ، وسقوطها ، ونتائجها ضرورية فى اللزوم والارتباط لوجود مقدماتها · وتتمثل فى هذين القانونين : ارادة الله جل شانه ·

وفيما تعبر عنه هذه الآية :

« **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين** » (٢) · وكذلك تلك الآيـــة : « **ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فانتقمنا من الذين اجرموا ، وكان حقا علينـــا نصر المؤمنين** » (٣) ·· وفى تعبير هـــذه وتلك ،

---

(١) هود : ١١٧ (٢) يونس : ١٣ ·
(٣) الروم : ٤٧ ·

ما يؤكد مضمون القانون الأول ، وهو انهيار المجتمع الفاسد ، عندما يبلغ فيه الفساد أوجه ، ويتحول النشاط لأفراده ، نحو الاجرام ، والاستمتاع بالملذات :

فالآية الأولى تنص : على أن المجتمعات فى ماضى التاريخ التى باشرت الظلم ورفضت هداية الرسل ، واستمرت فى عدوانها وفسادها ، وقع بها الهلاك والدمار ٠ وعدوانها ، وفسادها ، بسبب طغيان الاتجاه المادى فى حياتها ٠ والدمار والهلاك لمثل هذه المجتمعات أمر لا مفر منه : « وكذلك نجزى المجرمين » ٠

والآية الثانية تعيد نفس المضمون ٠ الا أنها تضيف الى الانتقام من المجرمين ، كأمر لا محيد عنه باسقاطهم وتدمير مجتمعهم ؛ أمرا آخر ، وهو : أن نصر المؤمنين أمر ضرورى ، تكفلت به ارادة الله كذلك فى بقاء مجتمعهم : « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » ٠

والمجتمع الانسانى ــ أى مجتمع انسانى ــ هو فى وجوده : فى وضع اختبار ، وفى فترة ابتلاء ، فى حقيقة أمره : اما الى بقاء ، أو الى سقوط وفناء من جديد : « **ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ، لننظر : كيف تعملون ؟** » (١) ٠ وفيه موجود على سبيل الحقيقة أيضا : ما يدفع به نحو البقاء ، وهو هداية الله ، وما يدفع به الى السقوط ، وهو الاتجاه المادى فى الحياة ٠

★ وليست هناك حاجة الى مزيد فى تأكيد هذا الشأن للمجتمع البشرى٠ وعلى من يشك ، أو تكون عنده بقية من ريب فى تحديد مصير المجتمع نحو أى من النتيجتين ، عليه أن يراجع التاريخ ، ويعيش فى آثار الماضى قليلا فيبدو له : الشأن واضحا ، لم يتخلف عنه مجتمع ما ، مهما كان وضعه ومهما كانت ظروفه : « **أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا : كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض ، وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون٠ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى : أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون** » (٢) ٠٠ فمجتمع الرومان فى الشرق الأوسط ، ومجتمع الفرس فيما وراء النهرين كانا من المجتمعات الشامخة فى قوتها وفى عمرانها ، وفى حضارتها على العموم ٠ ومع ذلك لم تغن عنهما : هذه القوة ، ولا هذه الحضارة ، فى السقوط والانهيار ، بعد أن استمر كل منهما فى طغيان الاتجاه

---

(١) يونس : ١٤ ٠ (٢) الروم : ٩ ، ١٠ ٠

المادى ، فكان الظلم ، وكان الفساد ، وكان الانهماك فى الملذات ، وكانت ولاية المترفين ورياستهم ، ولم يستمع أى مجتمع منهما لهداية الله ، ونداء رسالته : **« كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها »** •• **« ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى : أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون »**•

وأى مجتمع قبل مجتمع الرومان ، والفرس ، لم يتخلف عن « ارادة الله » الحتمية : **« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وأنشأنا بعدها قوما آخرين »** (١) •

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد • ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد • وثمود الذين جابوا الصخر بالواد • وفرعون ذى الأوتاد •

الذين طغوا فى البلاد • فأكثروا فيها الفساد • فصب عليهم ربك سوط عذاب • ان ربك لبالمرصاد » (٢) •

••• فهناك مجتمعات عديدة صغيرة وكبيرة ـ عبر التاريخ لم تشذ اطلاقا عن ذلك القانون الالهى • وهو قانون الطبيعة البشرية والمجتمع البشرى • وهو قانون نافذ : آمن به البعض ، أم كفر •

والفرار للزعماء من النتيجة الحتمية التى تنتظر المجتمع الذى وقع تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة : فظلم وأفسد ، وعبث ، واستدبر المشورة والهداية ، واستكبر رؤساؤه وزعماؤه ، واستهزأوا بالمؤمنين ، وبرسالة الله •• الفرار من الانهيار والسقوط الحتمى ، لا ينجى أحدا ممن يفر من العابثين والمفسدين • بل ستلحقه ان عاجلا ، أو آجلا : آثار سلوكه ، وهو سلوك الظالم المفسد ، الذى كفر بنعمة الله عليه ، وهى نعمة الرزق والجاه والمسئولية :

« فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها (أى القرية ـ وهى المجتمع) **يركضون •**

لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ، ومساكنكم لعلكم تسئلون •

قالوا : ياويلنا : انا كنا ظالمين •

فمازالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » (٣) • فهذه الآيات تصور : أن محاولات الهرب من النتائج الحتمية ، أو محاولات التراجع بعد أن يبلغ الظلم وفساد المترفين من أصحاب الشأن فى المجتمع قمته ••

---

(١) الأنبياء : ١١ •　　　(٢) الفجر : ٦ ـ ١٤ •
(٣) الأنبياء : ١٢ ـ ١٥ •

لا تجدى نفعا ولا تحول دون انزال العقوبة بالظالمين والمفسدين ، وفى مقدمتهم الزعماء والرؤساء .

فمحاولات الهرب من هذه النتائج يشير اليها قوله تعالى هنا : « **فلما احسوا باسنا اذا هم منها يركضون** » . ويصور عدم نجاح هذه المحاولة قوله جل شانه بعد ذلك : « **لا تركضوا ، وارجعوا الى ماأترفتم فيه ومساكنكم . لعلكم تسئلون** » . أى يستوى هربكم من النتيجة الحتمية ، وعودتكم بعد خروجكم الى وضعكم السابق فى مجتمعكم : فيما كنتم فيه من ترف ، وفيما أقمتم فيه من مساكن ، وفيما كنتم فيه من وضع المسئول ، وهو وضع الرؤساء والزعماء ، حتى يأتيكم العذاب .

ومحاولات التراجع بالاعتراف بالذنب ، تذكرها الآية الكريمة فيما تقول : « **قالوا : يا ويلنا ! انا كنا ظالمين . فمازالت تلك دعواهم ، حتى جعلناهم حصيدا خامدين** » . فاعترافهم بأنهم كانوا ظالمين . وترديدهم هذا الاعتراف عدة مرات ، حتى نالهم جزاؤهم لم يحل دون هذا الجزء واللحاق بهم .

وما تحكيه الآيات هنا من محاولات الفرار والهرب ، أو محاولات التراجع والندم ، قد يقع ، وقد لا يقع أيضا . وعندئذ يكون القصد هنا : هو الزيادة فى تأكيد نتائج الفساد وطغيان اتجاه المادية فى حياة المجتمع ، على المجتمع نفسه وعلى أفراده ، تبغى ما قد يعلق ببعض خيالات النفوس وتصوراتها ، من أن الفرار من أسباب الموت قد ينجى منه ، أو أن الهرب من نتائج الجرائم قد يحول دون وقوع عقوباتها على من ارتكب الجريمة .

★ وتاريخ المجتمع البشرى فى ماضيه يعيد نفسه فى حاضره ، وفى غده . وأحداثه المتشابهة تستتبع نتائج متشابهة كذلك . ولا دخل للتقدم العلمى أو التقدم التكنولوجى ـ وكذلك لا دخل للبدائية والتخلف ـ فى الترابط بين الأحداث والنتائج ، وتلازم الوقوع بين الأحداث ونتائجها فى أى وقت يمر بالانسان وبالمجتمع الانسانى .

ان الاحداث المتشابهة تستتبع نتائج متشابهة ، لأنها أحداث الطبيعة البشرية المحدودة الخصائص والوظائف . أما التقدم العلمى ، أو التخلف فيه ، فانه : لا يغير خصائص الطبيعة البشرية ، وبالتالى لا يغير وظائفها الأساسية . وانما يغير الوسائل التى يستخدمها الانسان فى حياته : فى تحصيل الرزق ، وفى الاقامة ، وفى التنقل ، وفى الاستمتاع ودفع المشقة فى كل ما يسعى فيه الانسان .

كذلك تقدم العلم ــ أو التكنولوجيا ــ لا يستلزم تقدم الانسانية فى سلوك الانسان · لأن التقدم فى السلوك الانسانى يرجع أولا وأخيرا الى تقلص مجال الأنانية واتساع المجال الجماعى فى تفكير الانسان ، وفعله ، وسلوكه على السواء ·

تقدم العلم قد يساعد على تحكم الأنانية · وتقدم التكنولوجى ، قد يساعد على الانحراف فى استغلال الطاقات المهيئة للانسان · وأحداث العالم اليوم ، واحتكاك الشعوب بعضها ضد بعض ، هى : احدى نتائج الأنانية فى المجتمعات ذات التقدم العلمى والصناعى ·

وإذن ليس هناك ما يحول اطلاقا دون استتباع الأحداث لنتائج معينة فى المجتمعات الانسانية الحاضرة والمستقبلة ، على غرار الأحداث والنتائج التى وقعت فى أمس هذه المجتمعات ·

والقوانين الاجتماعية ــ أو الترابط بين الأحداث والنتائج ــ هى اذن من الحقائق الضرورية · وربما يساعد تقدم العلم أو التقدم الصناعى فقط فى هول الأحداث ونتائجها ان وقعت اليوم ، زيادة عنها عند وقوعها فى الماضى ·

فالاتجاه المادى فى الحياة ان كان من الممكن أن يتحرك الى « الطغيان المادى » اليوم فى أى مجتمع معاصر ، فان مستوى الطغيان وآثاره عندما تقع لا تقارن بالآثار وبالمستوى الذى وقع فى القرون والمجتمعات السابقة ، بفضل التقدم العلمى والتقدم الصناعى فى الابداع والخلق لوسائل جديدة يستخدمها صاحب الاتجاه المادى المعاصر فى الظلم ، والفساد ، واتباع الترف ، والاستمتاع بالملذات ، وكذلك فى الاستهزاء بآيات الله وبهدايته ، وفى السخرية من المؤمنين أو الضعفاء ·

والطغيان كذلك بفعل الاتجاه المادى عندما يتحرك فى أى مجتمع معاصر اليوم لا يسبب سقوطا عاديا للمجتمع الذى يطغى أو يظلم أو يباشر الفساد والعبث · وانما نوع السقوط والانهيار للمجتمع المعاصر فى وصوله الى قمة الطغيان سيكون شديد العنف ، بحيث لا يشبهه على الاطلاق ما تم فى مجتمع سابق بالأمس :

وسائل المتعة اليوم كثيرة وعديدة ،

ووسائل الظلم والفساد ، والاكراه ، والضغط ليست عديدة فقط وانما هى فظيعة فى آثارها ، وفى بعدها عن كل شائبة للانسانية ،

ووسائل التدمير والتخريب ، والدمار ، رهيبة لا توصف رهبتها وشناعة

نتائجها ٠٠ كل ذلك بفضل تقدم العلم ، والتقدم الصناعى ٠ واذن الذى يتغير اليوم فى المجتمعات الانسانية المعاصرة ليس هو استلزام الأحداث لنتائجها ـ أى استلزام الطغيان والظلم والفساد والعبث والمبالغة فى الترف لسقوط المجتمع ـ وانما « النوعية » و « المستوى » : سواء أكانت نوعية الأحداث ومستوياتها ، أم نوعية النتائج ومستوياتها ٠

وكتاب الله عندما يبلور ارادة الله فيما يمكن أن يعبر عنه بقانون المجتمع ، لم يتعرض الى نوعية الأحداث والنتائج ، ولا الى مستواها ٠ وانما فحسب ذكر « الترابط » بين :

الاتجاه المادى فى الحياة ، وآثاره ، والاتجاه الانسانى أو الروحى أو الايمانى بالله وآثاره أيضا ٠ يذكر الترابط بين : الشرك ، والطغيان ، والجرائم الاجتماعية ، والظلم وسوء استغلال نعمة الله من جهة ، وضرورة سقوط مجتمع المشركين الماديين الطغاة ، الظالمين ، والعابثين والمفسدين من جهة أخرى ٠ ويذكر الترابط كذلك : بين الايمان بوحدة الله فى ألوهيته ، واتباع هدايته ، وعدم المبالغة فى الاستمتاع بالمتعة الحسية ، وسلوك طريق العدل والاحسان من جهة ، والنصر أو البقاء للمجتمع ولأفراده المؤمنين من جهة أخرى ٠

وما وراء هذا الترابط فى مستوى الأحداث ونتائجها فهو متروك للظروف التى يعيش فيها المجتمع ، والامكانيات فى الوسائل ونوعها التى يستخدمها الانسان فى حياته ٠

والحقائق الثلاث التى لا ريب فيها اطلاقا ، والتى هى مرتبطة بطبيعة الانسان وطبيعة مجتمعه فى كل وقت ومكان : هى :

١ ـ أن الاتجاه المادى فى الحياة يعيش داخل الفرد والمجتمع معا ،

٢ ـ وأن هذا الاتجاه قابل للانتشار والتوسع والسيطرة على حياة المجتمع ،

٣ ـ وأنه اذا سيطر هذا الاتجاه على حياة المجتمع فأصبحت حياة طغيان ، وظلم ، وفساد ، وشرك ، فسقوط المجتمع ضرورة لا مفر منها ٠

أما ما يبقى على المجتمع ،

أما ما يحفظ على علاقات الأفراد فيه : الود ، والصفاء ، والتآلف ،

أما ما يقيه شرور أعدائه واعتداءاتهم ،

أما ما يجعله فى نصر دائما ، وفى قوة دائما ، وفى عزة دائما ،

٠٠٠ فهو الايمان بالله وحده ٠

١ ـ « وكم اهلكنا من قرية (مجتمع) بطرت معيشتها ، فتلك مسـاكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ،

وكنا نحن الوارثين ٠

وما كان ربك مهلك القرى (المجتمعات) حتى يبعث فى أمهـا رسولا ، يتلوا عليهم اياتنا ، وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون ٠

٢ ـ وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خيـر وابقى ، افلا تعقلون ؟

افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه ،

كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » (١) ٠

ان المجتمعات المعاصرة ـ ان فى الشرق أو فى الغرب ـ هى مجتمعات مادية ، وجود الله فى حياتها وجود خداع أو عدم ٠ يسيطر الاتجاه المـادى فى الحياة على كل جوانب هذه الحياة فيها ٠ ولأنها مجتمعات مادية هى فى صراع غير منقطع ٠ وفى صراع بعضها ضد بعض تعيش جميعها فى قلق ورهبة ، واعداد الى يوم الفصل على هذه الأرض وحدها ٠ وما تعده ليـوم الفصل هو لتدمير البشرية فى لحظات ، وفى الوقت نفسه على حساب حيـاة العشرات من ملايين الناس كل يوم ٠

وهذه المجتمعات المادية فى تقدمها العلمى والتكنولوجى تخدم غرضـا واحدا ، هو غرض الصراع ٠٠ هو غرض الارهاب ، فالافناء ٠ وفى الوقت نفسه موجات الظلم والفساد ، والانحلال ، والسخرية بدين الله ، والتنـديد بالضعفاء ، والاعتزاز بالقوة المادية وحدها ٠ هذه كلها تعـد من الظواهر الواضحة لاتجاه هذه المجتمعات ٠

فاذا انتهى أمرها الى السقوط والى التغيير فسيكون سقوطها غير متصور فى آثاره ونتائجه على البشرية كلها ، وليس على أفراد مجتمعات الشرق ، أو مجتمعات الغرب ٠

أليس الصراع بين هذه المجتمعات هو نذير سقوطها وتغييرها ؟

أليست الحرب الثالثة أمرا حتميا للتعبير عن تغييرها ؟

أليست المجتمعات القادمة هى مجتمعات ايمان بالله وبالمثل الانسانية ، وليست مجتمعات طغيان بالقوة ، والحاد بالله ، ان كانت للحياة الدنيوية بقية أخرى فى تقدير الله ٠

تلك هى طبيعة المجتمعات ، تنبثق عن ارادة الله وحده ٠

---

(١) القصص : ٥٨ ـ ٦١ ٠

الباب الثانى

روحيـــة الـــــدين

- الاسلام : فى نظرته الى متع الحياة ٠
- الاسلام : فى نظرته الى المال ٠
  فى ملكيته ومنفعته ٠
- طريق المنفعة العامة للمال ٠
- منع الانحراف فى استغلال المال ٠

الفصل الأول

الاسلام : فى نظرته الى متع الحياة ٠٠٠

يتهم الاسلام بانه يقصر عن أن يوفر للانسان المعاصر ــ فى الثلث الأخير من قرننا العشرين الآن ــ الحياة الانسانية الكريمة ، لأنه يزهد فى متع الحياة الدنيا ، ويدعو الى عدم الالحاح فى طلبها ، فى انتظار متع اخروية ، يبشر : بأنها خير وأبقى ، وليس هناك ما يؤكد للانسان الذى يدعى الى ذلك ويستجيب لما يبشر به ٠٠٠ وقوع تلك المتع الأخروية !٠

فهو دين بالأولى يدعو لصرف الناس ــ بل ربما يخدعهم فيما يدعو اليه ــ عن منافعهم الدنيوية ، ويحملهم على أن يتركوها للمستغلين والانتهازيين دون أن يحصلوا من الحياة التى يعيشون فيها الا على القليل من تلك المنافع ، فى صحبة شقاء مستمر للعيش ، وجهد لا ينتهى للسعى فى سبيله ، ومرارة دائمة لطعم الحياة ، وظلمة قاتمة لليأس تخيم من لحظة الى أخرى !

هكذا : يتهم الاسلام ٠ وتشوه أهدافه ٠

ان الاسلام يدعو .. الى « الزهد » فى متع الحياة ، ولكنه لا يدعو الى اعتزال هذه المتع ٠ ودعوته الى الزهد : هى دعوة فى واقع الأمر الى عدم الالحاح فى طلب هذه المتع المادية ٠٠ هى دعوة الى عدم التركيز عليها واشباع الشهوة اللامحدودة منها ٠٠ هى دعوة الى قصر الرؤية ، والجهد ، والهدف فى الحياة على الحصول عليها وحدها ٠

★ ان الاسلام بدعوته الى « الزهد » يحول دون « المادية » وطغيانها فى حياة الانسان ٠٠ يحول دون « الوثنية » وانحطاط الكرامة الانسانية ٠٠ يحول دون النفاق ، والقلق النفسى ، والخوف الرهيب الدائم من مستقبل الحياة ٠

« فالمادية » ــ وهى الالحاح فى طلب المتع المادية من : المال ، والنساء ، وزخرف هذه الحياة الدنيوية ، والتركيز عليها واخضاع النظرة فى الحياة اليها دون غيرها ــ هى سبيل « الوثنية » فى الاعتقاد والايمان ٠

والوثنية لا تقف عند الاعتقاد فى حجر ، وعند الايمان بصنم ، قصدا الى تحصيل منفعة متوهمة ٠ أو الى منع ضرر غير محتم للوثنى ٠ بل هى الاعتقاد فى كل « موجود » له صفة التغير وعدم البقاء على حالة واحدة : بانه مصدر النفع أو مصدر دفع الضرر ، أو مصدر الاثنين معا ٠٠ هى الايمان : بأن فردا ما ، من الانسان ــ مثــلا ــ فوق الخطأ والخطيئــة ، وفوق المتناقضــات من صفات : الموت والحياة ، والفقر والغنى ، والضعف والقوة ، والهوان والعزة ، والجهل والحكمة ٠٠ هى الايمان : بأنه اذا مات الانسان فهو غائب فى حياة اخرى ، ولابد ان يرجع يوما ، وبانه معصوم ومنزه عن الخطأ والمعصية ، فكل كلمة له : حكمة ، وكل خطوة يخطوها : هى ريادة سليمة ، وكل حركة له : هى لمصلحة عامة ، وكل اشارة يوجهها : هى مطاعة ٠

والانسان ــ أى انسان ــ بطبعه البشرى محدود ، ومحدد ، وقيمته تبعا لذلك : ليست قيمة عامة ولا أبدية ، وأثره فى محيط نفسه ومحيط غيره لا يعدو نطاق محدوديته وقدرته المحددة ٠ ولذا هو : غير صالح ــ بحكم طبيعته ــ لأن يكون ذا تأثير مستمر فى جانب النفع ، أو الوقاية من الضرر ، لنفسه ، أو لغيره على السواء ٠

ومن هنا يضطر الذى كان يعبده بالأمس ان يوجه عبــادته الى غيره ، اليوم ، ان تعرض لتغير ، أو تحول الى وضع آخر لم يكن له بالأمس ، وهــو وضع الضعف ، أو الفناء مثلا ٠

٠٠٠ وهكذا : الوثنى يتلون فى قبلته فى العبادة ، وهو شقى وقلق فى هذا التلون ، لأنه سيظل يفتش عما يجب أن يعبده غدا ، وبعد غد ٠ وهو فى تغيره من معبود الى معبود : منافق ، يضفى على معبوده اليوم ما كان يضفيه على المعبود فى الأمس ، ويسلب معبود الأمس ، مميزات العبادة والاحترام ، ويكيل له من النقد ما قد يجعله فى محيط الخرافة والوهم ٠

والمنافق لا يعرف الكرامة لنفسه ولغيره معا فحسب ، وانما بالاضافة الى ذلك : لا يعرف الأمان والاطمئنان فى حياته ، لأنه ينظر دائما الى مستقبله نظرة الخائف الذى ترهبه صورة التغيير لمعبوده ؛ والانتقال من واحــد الى آخر ، بعد البحث وطول التفتيش عما يؤمل ، ثم يعتقد فيه : بأنه مصدر لجلب النفع المادى ، أو لدفع الضرر المادي كذلك ٠

« فالمــادية » ، أو الالحــاح فى طلب متع الدنيا : طريق « الوثنيــة » ٠ والوثنية بدورها : سبيل النفاق والانتهازية ٠ والنفاق من جانب : مصــدر القلق النفسى ، والتهيب والتخوف فى رهبــة من المستقبل ، وذلك كله يدفــع

بالوثنى فى النهاية الى : الجبن ، وعدم الانفاق من ماله على نفسه او عـلى غيره ، خشية مما يخبئه له الغد ٠

والاسلام ، فى مقابل ذلك ، اذ يوصى « بالزهد » اى بعـدم الالحاح فى طلب المتع المادية والتركيز عليها وحدها ، واذ ينظر الى الحياة الدنيا فى مواجهة حيـاة أخرى أخيرة ، على : أن تلك فى خيـرها وبقائها ، اكثر من الأولى ٠٠ يريد أن يحول بين الانسان وطغيانه « بالمادية » ٠٠ يريد أن يباعد بينه وبين النفاق وآثاره ، والخوف فى الحياة ونتائجه على النفس فى : قلقها ، وجبنها ، وضعفها ٠

★ ولا تقتصر آثار « المادية » على الذات وحدها ٠بل كثيرا ما تتعداها الى ذوات أخرى وأفراد آخرين فى المجتمع ٠

وفيما يصف به القرآن الكـريم المؤمنين ـ فى الآيات التـــالية ـ بأنهم يؤثرون : ما عند الله ، على ما فى الدنيا : من متع مادية ، وبالصفات الأخرى المستتبعة فى قوله :

« فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وابقى :

للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ٠

والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ،

واذا ما غضبوا هم يغفرون ٠

والذين استجابوا لربهم ، واقاموا الصلاة ،

وأمرهم شورى بينهم ،

ومما رزقناهم ينفقون ٠

والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون ٠

وجزاء سيئة ، سيئة مثلها ،

فمن عفا واصلح فاجره على الله ، انه لا يحب الظالمين ٠

ولمن انتصر بعد ظلمه ، فاولئك ما عليهم من سبيل ٠

انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، (تحت طغيان المادية) أولئك لهم عذاب اليم ٠

ولمن صبر ، وغفر ، ان ذلك لمن عزم الأمور » (١) ٠

٠٠٠ وفيما يصف به القرآن الكريم المؤمنين بما وصفهم به على هـــذا النحو ٠٠ يريد أن يوضح : أن الذين يؤمنون بالله حقا يبتعدون فى ايمانهم عن اتجاه « المادية » ٠

ومظاهر الابتعاد عنها :

أولا : أن يعتبروا الآخرة فيما لها من متع أفضل بكثير من الدنيا وما لهـا من : زينة ، وزخرف ٠ وهذا يبعدهم فقط عن المبالغة فى طلب المتع الدنيوية ، ولكن لا يصرفهم عن الاستمتاع بها ، وانما فى الحدود التى لا تخرج بالانسان الى الوقوع فى « المادة » وحدها من جديد : « **فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا** » ٠

ثانيا : أن يتوكلوا على الله ، ويعتمدوا عليـه وحده فى المعـــاونة ، وفى الحصول على الخير ، والوقاية من الضرر ٠٠ لا يرجون موجودا سواه فيما ينفعهم ، ويضرهم ٠ « **وعلى ربهم يتوكلون** » ٠ والتوكل على الله وحده يحول دون « الوثنية » فى الاعتقاد ، والانتقال من معبود الأمس الى معبود اليوم ، كمـا يحول دون القلق النفسى ، والتخلق بخلق النفاق ، والسقوط فى الضعف والهوان ، وفى ظلمـة اليأس فى الغد ، عندما يفتش عن المعبود من الناس فلا يجده ٠

٠٠٠ التوكل على الله هو مصدر الشجاعة ، ومصدر الاعتزاز بالكرامة الفردية ، ومصدر الحـرية الفردية ، ومصـــدر النجاح والظفر ، ومصدر الأمل فى الغد القريب والبعيد ٠ « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** » (٢) ٠٠٠ فى الحياة كلها ، وليس فى مرحلة دون أخرى ٠ ولا سبيل لهذا التوكل الا بالايمان بالله ٠ والايمان بالله لا يجتمع اطلاقا مع طغيان « المادية » ومع الالحاح فى تحصيل : متع هذه الحياة الدنيوية ، ولا مع « الوثنيـة » فى الاعتقـــاد فى الصنم ، أو فى الانسان ٠

ثالثا : أن يتجنبوا كبائر الاثم والمعاصى ، والانحرافات التى تؤذى النفس أو الآخرين ، كما يتجنبون الفواحش والجـرائم الإجتمـاعية التى

---

(١) الشورى : ٣٦ ـ ٤٣ ٠ (٢) الطلاق : ٣ ٠

تسىء الى المجتمع وتقوض العلاقات بين افراده ، كجرائم : الزنا ، والقتل ، والسرقة ، وانتهاك الحرمات ·· « **والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش** » · وليس تجنب كبائر الاثم والفواحش الا نتيجة حتمية لعدم الالحاح فى الاستمتاع بالمتع المادية فى هذه الحياة ، اى لعدم سيطرة « المادية » و « طغيانها » على النفس · فطالما لا يكون هناك : الحاح ، وضغط على النفس فى تحصيل المتع والاستجابة لشهوة النفس اللامحدودة لا يكون هناك اندفاع يحمل النفس على اقتراف المعاصى والفواحش ·

رابعا : أن يتخلقوا بخلق التسامح ، ان كان هناك ما يثيرهم ويغضبهم من أفعال الآخرين وتصرفاتهم · فليس أبقى على العلاقات بين الأفراد من التسامح · « **واذا ما غضبوا هم يغفرون** » · وبذلك يتقربون بصفة من صفات الله جل شأنه ، وهى صفة الغفران · والتسامح لا يكون له موضع لدى من تحمله نفسه على اقتناص الفرص ، وتلح عليه الأنانية فى السعى لتحصيل المال ، وتكوين العصبيات القبلية ، والاستمتاع بالنساء ، دون رعاية لحق الآخرين فى الوجود والحياة · التسامح ليس له مكان عند من تطغى عليه المادية، وتقوده « الوثنية » فى التفكير ، والتصرف · لأنه مدفوع وليست لديه فترة للمراجعة واعادة « التقييم » · فهو لا يستطيع أن يحول بين الذات وبين استمرارها فى الاندفاع · والمتسامح هو ذلك الذى يراجع الأمر ، ويحلل عناصره ، ويقيم تلك العناصر ، ثم يؤثر العلاقة الطيبة مع غيره ، على متعة أو مصلحة شخصية فائتة ، بسبب اثارة الغير واغضابه ، أو على اهانة كلامية تكون نتيجة لحمق الغير وهوجه ·

خامسا : أن يستذكروا الله فى كل تصرفاتهم ، ويتابعوا وصايا الكتاب فى سلوكهم مع أنفسهم ومع غيرهم · وأن يجدوا من اقامة الصلاة طريقا الى العودة الى الله ، كى يحافظوا على عدم الحاحهم فى الحصول على متع الدنيا ، وعدم المبالغة فى تقديرها · فمن يذكر الله فى أوقات متقاربة ، فى يومه وليله ـ هى أوقات الصلاة ـ ويدعوه للمعاونة على موقفه فى الحياة ، وهو موقف المؤمن به·· من يفعل ذلك : يشتد أزره ، وتقوى ارادته فى عدم الخضوع الى ملذات هذه الدنيا ومتعها المادية · أى تقوى ارادته فى : أن لاتسيطر عليه « المادية » ويطغى عليه اتجاهها « ··· **والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة** » ·

سادسا : **أن يكون أمرهم شورى بينهم : أى لا يعرفون تحكما ، ولا مفار في الاعتبار البشرى ، ولا فى حق الحياة حياة مكرمة فى هـــذا الوجود • اذ لا يشاور الآخرين معه في بيئته أو في مجتمعه أو في أمته ، الا انسان يقر لهم بحق الحياة ، كما يقر لنفسه ، ويعترف لهم بالمشاركة في متع الحياة ، على نحو ما يستمتع هو • وذلك هو** المؤمن بالله ، الذى لا يقع تحت طغيان المادية بعد ، والذى تتملكه روح التوكل على الله وحده • « **وأمرهم شورى بينهم** » •

ان مباشرة الشورى فى الأمر ، والمشاركة فيها لا تدل على عدم الخضوع لطغيان « المادية » فقط • بل تدل كذلك على وجود الايمان بالانسانية ، الذى يحمل عليه الايمان بالله • اذ واقع الايمان بالله فى حياة الانسان هو توفير الاحترام للقيم الانسانية التى تتجه الى صفاء النفوس ، وصفاء العــلاقات بين الأفراد ، وتمــكين أواصر المودة ــ بدلا من النفرة أو التطاحن ــ بينهم •

والذى لا يستشير الآخرين معه فى وجوده الخاص أو العــام ليس انسانا نانيا ، مغرورا ، مخدوعا بأنانيته فحسب ، وانما هو انسان : ملكت عليه « المادية » تفكيره ، وتصرفاته على السواء •

سابعا : أن ينفقوا مما لديهم من أموال ، ومــا حصلوا من نعم وأرزاق على سد حاجات الآخرين ، دون سؤال منهم ، وفى غير رياء أو منة ممن ينفق : « **ومما رزقناهم ينفقون** » • اذ ليس هناك أبعد عن الوقوع تحت سيطرة « المادية » والالحاح فى طلب الدنيا ومتعتها من هذا الذى ينفق من غير مقابل مادى ، مما لديه من : مال ، أو صحة ، أو علم ، أو جاه ، أو قوة ، على غيره ، فى غير مقابل • اذ شأن الذى تسيطر عليه « المادية » بوثنيتها : أن يأخذ ولا يعطى ، ويحصل لنفسه ولا ينفق لغيره ••• هو أنانى ، يدور حول نفسه فى تحصيل المنفعة أو فى دفع الضرر ، فان خرج عن دائرة الذات الى « معبود » له غيرها ، فللغاية نفسها • فكان الانفاق لذلك ، من : الرزق عــلى صاحب الحاجة أو لصالح الجماعة مظهرا من مظاهر عدم التطرف والمبالغة فى طلب متع الدنيا •

ثامنا : أن ينتصروا على أعدائهم ان اعتدوا عليهم : « **والــذين اذا أصــابهم البغى هم ينتصرون** » **• ولا ينتصر انسان ما ــ فردا وجماعة ــ على عدو له الا اذا اشترى الآخرة بالدنيا ، على معنى : انه يؤثر ما عند الله على ما فى دنياه وما فى أيدى الناس • فهو اذن لا ينجذب الى**

الدنيا وما فيها من متع مادية ، فتقعده عن القتـــال فى سبيل رد الاعتداء عليه ، ان تعين القتال سبيلا الى ذلك • وعامل النصر دائما هو اللامبالاة بالدنيا والحياة فيها ، فى طريق الاحتفاظ بالقيم العليا والانتساب اليها •

ولكى يبعد القرآن عن الصورة التى يرسمها للمؤمن على هذا النحو : أن مباشرته القتال فى رد العدوان ، ربما يتنافى مع بعض معالم هذه الصـــورة على الأقل ، كالتسامح وتجنب كبائر الاثم والعـدوان ، برر رد العدوان بأمرين :

بأن جزاء السيئة سيئة مثلها : « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** » • وهـــذا قانون طبيعى وسنة انسانية لا تقبل النقض •

وبأن النقد والمؤاخذة يوجه الى المعتدى فى اعتدائه ، وليس الى من رد العدوان على نفسه : « **ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل • انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق** (وهم أصحاب « المادية » من الوثنيين النفعيين) » •• وعليهم السبيل ويوجه اليهم اللوم فى دنياهم ، بجانب ما لهم من عذاب أليم فى أخراهم : « **أولئك لهم عذاب أليم** » •

ومع ذلك : اذا كان الاعتداء من الآخرين لا يتصل بالقيم العليا التى يؤمن بها المؤمن ولا بكيـــان المجتمع ذاته ، كمجتمع له خصائصه واســـتقلاله فى المميزات ، فان الصبر والمغفرة عندئذ من عزم الأمور ، أى من الأمور التى لايقوم بها ولا يحتملها الا أصحاب الايمـان القوى والارادة القوية : « **ولمن صـــبر وغفر ، ان ذلك لمن عزم الأمور** » •

وهذا التعقيب الأخير فى الآيات يدل على : أن مبدأ « التسامح » مبـدأ مفضل فى الأخذ به ، ومبدأ ذو تأثير ناجح فى استمرار البنـــاء ، وفى قوة الترابط بين الأفراد • ولا يعدل عنه فى مباشرة السيئة بمثلها فى الجزاء ، الا اذا كان الأخذ به يؤدى الى اضعاف الايمان بالله ومقومات هذا الايمان •

★ ومعنى استتباع « اللامادية » أو استتباع « الزهد » و « الروحية » فى الاسلام لهذه الصفات فيمن لا يلح فى طلب الدنيا ومتعها ، وان كان لا يعف عنها ولا يحرم نفسه منها •• معنى ذلك أن « المادية » والاتجاه القائم عليهـا فى النظرة الى الحياة والسلوك فيها تستلزم حتما نقائض هذه الصفات فيمن يكون « ماديا » أى فيمن يكون ذا طابع مادى فى معاملته ، وسلوكه ، وعبادته ، وتصرفاته :

(أ) فالمادى لا يؤمن بالله ، ولا بدينه ، ولا بقيم عليا • لأنه لا يعتقـــد الا فى

معبود مادى : حجر ، أو صنم ، أو انسان ـ ميت أو حى ـ وبالتالى لا يتوكل على الله ، وانما يتوكل ويعتمد على غيره · ولما كان غير الله ليست له صفات الله ـ وبالأخص صفة البقاء ـ فهو يتغير ويقبل التبديل والتحول · ونتيجة ذلك : أن يغير المادى معبوده المادى ، كلما دعت الحاجة الى تغييره وتبديله ·

··· ومن هنا كان المادى وثنيا ، أى ينتقل بعبادته واحترامه وولائه الى غير واحد ·· الى كثيرين ممن يعتقد فيهم : أنهم ذوو تأثير فى النفع، وابعاد الأذى ·

··· ومن هنا أيضا كان المادى منافقا · اذ ليس المنافق الا من كان ظاهر ايمانه لا يدل على حقيقة وقوعه ·

والوثنى ـ لأنه متقلب فى الايمان ـ لا تعرف الحقيقة لايمانه ، ولا تعرف له جدية فى الايمان · فهو يظهر الايمان ، طالما كانت له مصلحة شخصية فى اظهاره ، فان اختفت هذه المصلحة الشخصية اختفى معها الايمان بالمعبود المعين ، ورحل الى معبود آخر تكشف عنه المصلحة الشخصية الجديدة ·

(ب) وهو اذ يدأب على تحقيق المصلحة الشخصية ، لا يتجنب ارتكاب المعاصى، والفواحش فى سبيل تحقيقها · فهو ليس له وفاء لمن يعبده اليوم ويحترمه من الناس ، وليس له وفاء كذلك لأى شخص آخر حتى يرعى حرمته ، فيعف عن مباشرة الجرائم الأخلاقية والاجتماعية ضده ، أو ضد من يتصل به ·

··· هو انسان تجردت ذاته من الضمير ، وتجردت من الرقابة الذاتية ، وتجردت من المراجعات النفسية ، واندفعت فى طغيان « المادية » لا تعرف الا المنفعة المادية فى السعى ، والتقابل المادى فى المعاملات ، والهدف المادى فى تحقيقه · ولا ترى قيما انسانية ، تحدد الروابط بين الانسان والانسان ، حتى تقف عندها قليلا · ولذا : كل وسيلة تحقق لها الغاية فهى وسيلة مشروعة ، ولو كانت : الاعتداء على الأعراض ، أو النفوس ، أو الأموال ·· ولو كانت الفواحش ، والمنكر ، وكبائر الاثم ، والفسوق والعصيان ·

(ج) كما لا يعرف المادى معنى : التسامح والتنازل · لأن ذلك معنى انسانى كريم · وهو قد تعود المبادلات المادية أو المغالطات.، كى يأخذ ولا يعطى ،

أو يعطى اقل مما يأخذ · لكنه هنا ان لم يستوف جزاء نفسه ـ ان أسىء اليه ، أو ان أثير فغضب ـ فلا يكون تنازله عن تسامح ورضاء نفس · وانما : الجبن ، وخشية ضياع ما فى يده ، أو تفويت فرصة مرتقبة ، هو الذى يحول بينه وبين أخذ الحق لنفسه فى « جزاء السيئة بمثلها » ·

(د) أما الشورى فى الأمر فليس لها سبيل الى نفس صاحب الاتجاه المادى · فيم يشاور غيره ؟ وفيم ينتظر من غيره أن يشير عليه ؟· أيشاور غيره فى أمر هو غلب عليه ، أو يشير عليه غيره فيما لا مناص من اتباعه ؟ ان المادى لا ارادة له ، وانما هو منجذب دائما نحو المنفعة المادية ، وان أستئثار المتع الدنيوية بفراغ نفسه ، لا يجعله ذا رأى ، أو يجعله يقبل رأيا ، يخالف ما وقع تحت تأثيره ، ولا ينفك يتأثر به ·

وفى ظاهر أمره ، أنه يميل الى الاستبداد ، وكأن له خيارا فى الأمر · ولكن الواقع : هو ضعيف بماديته ، وغير ذى مشيئة فى تصرفاته وفى رأيه ·

··· هو مظلوم : فى أن ينسب اليه الاستبداد ، والانفراد فى الرأى ، وهو نفسه لا يستطيع أن يتخلص مما يمليه عليه اتجاهه المادى ، وطغيان بريق المتع المادية فى دنياه وعالمه ·

(هـ) وكيف ينتظر منه أن ينفق فى سبيل الله ، أو فى سبيل مصلحة عامة ، أو فى سبيل سد حاجات الآخرين من ذوى الحاجات ، وهو يدور فى تصرفاته حول ذاته ؟· كل شىء فى الوجود المادى يطلبه لنفسه ، ويذل فى سبيل طلبه ، ويقبل المهانة والسخرية واحتقار الذات فى طريق الحصول على ما يطلب ؟

وكيف ينتظر من المادى أن يعطى ولا يأخذ ، وهو الحريص على أن يأخذ ولا يعطى ، أو يعطى الأقل فى مقابل أن يأخذ الأكثر ؟· انه قد يسرق ، ويرتكب الفحشاء ، ويباشر جرائم : القتل ، وانتهاك الحرمات للآخرين ، فى سبيل اشباع نفسه من شهوات الدنيا ومتعها المادية · فكيف يكون ذلك الانسان ، الذى يسلك المسلك الانسانى فى الحرص على سد حاجات الآخرين ؟

··· انه مريض بـ « المادية » ومن هو مريض بها لا يتصرف تصرف الانسان السليم المعافى ، الذى يملك القدرة على نفسه وعلى ماله ، والذى يستطيع بالرأى الحر : أن يوجه مسلكه ، ويحدد موقفه من الآخرين ·

(و) ثم كيف ينتصر على الآخرين اذا اعتدوا عليه ، وهو من يجبن ويذل فى سبيل تحقيق مصلحة مادية شخصية له ؟. ان الذى ينتصر هو الذى يؤثر القيم الانسانية العليا ٠٠ هو الذى يؤثر الآخرة على الأولى ٠٠ هو الذى يؤثر الرأى الحر ، والكرامة البشرية ، على كل تبعية مادية ٠

٠٠٠ انه لا ينتصر ابدا ، لأنه ظالم لنفسه ولغيره معا : ظالم لنفسه ، لأنه : حرمها من أن تكون نفسا انسانية حرة ، لا تقع تحت سيطرة المغريات المادية ، وظلالها الدامس فى الوقت ذاته ٠ وظالم غيره ، لأنه : هو مصدر الاعتداء على غيره ، طالما لا يتهيب ارتكاب الفواحش ، وكبائر الاثم : « **انما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق** » (١) ليس له ايمان حتى ينتصر به ، وفى سبيله ٠ وايمانه بالمادية ، ايمان متقلب ومحدود الأجل والأثر ؛ فلا يدفع لأمد طويل ، ولا يبقى على الأحداث والأزمات ٠

★ وهنا : الاسلام اذا كشف فى هذه الآيات عن نتائج « المادية » ، ونتائج « الروحية » أو نتائج « الزهد » فذلك لمصلحة الانسان الذى يريد أن يعيش انسانا ، ولصالح المجتمع الذى يبغى أن يكون ترابط بعض أفراده ببعض ترابطا قويا ، قائما على الرضا ، وتودد النفوس ، وتبادلها فى المحبة والسلام ٠ ولم يقصد الاسلام اطلاقا بتحديد « المادية » و « الروحية » وآثار كل منهما على الانسان ، وكعضو فى مجتمع ، أن ينفر من الدنيا ، ويحمل المؤمنين به على تركها ، وترك ما فيها من متاع ، وما لها من زينة !

ان القرآن الكريم يتيح للمؤمنين به أن يستمتعوا بمتع الحياة الدنيا ، ويتزينوا بزينتها ، الى الحد الذى لا يخرجهم الى المبالغة والاسراف ٠٠ أى لا يخرجهم الى « المادية » ونتائجها ، التى من بينها : « الشرك » و « الوثنية » ، وارتكاب الفواحش ، والبغى ، والاعتداء ٠ ان القرآن يقول فى بعض الآيات الأخرى :

« يا بنى آدم
خذوا زينتكم عند كل مسجد ،
وكلوا واشربوا ،
ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين ٠

---

(١) الشورى : ٤٢ ٠

قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟

قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كــذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (١) ٠

فيامر بالتزين ، وبالاستمتاع بالأكل والشرب ، ويندد بمن يحرم زينـــة الله التى هيأها لعباده على الأرض ، كما يندد بمن يحـرم الطيبات مما تخـرج الأرض ، ويحرم الاستمتاع بها ٠ ثم يؤكد ، أنها : حلال للمؤمنين فى دنياهم ، وخالصة لهم وحدهم فى أخراهم ٠

ولكن الشىء الذى لا يبيحه للمؤمنين هو : « الاسراف » ٠ لأنه يؤدى حتما الى نتائج وخيمة فى حياة الانسان ، وحياة المجتمع معا ٠٠ انه يؤدى الى « المادية » وطغيانها وانحرافاتها ٠ ولذا تقول الآية الأخرى بعد ذلك :

« انما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى ،
بغير الحق ،
وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ،
وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٢) ٠

اذ ما حرمه فى هذه الآية هو : آثار « المادية » ونتائجها ٠ وقد كان من هذه الآثار ــ كما ذكر من قبل ارتكاب الفواحش ، والآثام ، والظلم والعدوان : على الأموال ، أو الأنفس ، أو الأعراض ٠

وكيف يحرم الاسلام متع الحياة الدنيا وزينتها على المؤمنين به ، وقد جعل الدنيا دار اختبار لايمان المؤمنين بالله ؟! والاختبار لا تعرف نتائجه الا بالمباشرة الفعلية لما فى الدنيا من : متع ، وزينة ٠ فمن سلك مسلك الاعتدال ، ولم يلح فى المتع المادية منها ، ويجعلها الهدف الأخير له ، فهو المؤمن على الحقيقة ٠ ومن وقف منها موقف المتطرف ، وجعلها تسد عليه منافذ الادراك ، فلا يبصر ، ولا يسمع الا من نافذة « المادية » وحدها ، فهو المنافق فى ايمانه ، والمتقلب فى عبادته ، والمشرك بالله : « **انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا » (٣) ٠**

---

(١) الأعراف : ٣١ ، ٣٢ ٠ (٢) الأعراف : ٣٣ ٠
(٣) الكهف : ٧ ٠

لا يعيب الاسـلام : أن تسيطر « المــادية » على البشرية فى عصر من العصور . ولكن الأمر الـذى يعيبه الاســلام حقا ، لو لم يكشف هو عن آثار المادية البشعة ، وخطرها على الانسانية ولو لم يرشد الناس كافة الى الطريق السوى ، وهو طريق الاعتدال فى الاستمتاع بمتع هذه الحياة الدنيا ، وعدم الغلو فيها ، وهو طريق : « الزهـد » أو « الروحية » حتى يعيش الانســـان انسانا ، ويبقى المجتمع البشرى مجتمع الكرامة والسيادة .

★ ★ ★

الفصل الثانى

الاسلام فى نظرته الى المال : فى ملكيته ومنفعته

★ ان الرزق – أو ملكية المال – يعود أساسا الى « فضل الله » · لأنه صاحب المال ، ومعطيه وموزعه · والرزق ، اذ ينتقل الى ملكية الانسان ، ينتقل اليه على : أنه مستخلف عليه من قبل الله ، ونائب عنه فى استثماره واستغلاله :

« آمنوا بالله ورسوله ،

وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ،

فالذين آمنوا منكم ، وأنفقوا ، لهم أجر كبير » (١) ·

··· والقرآن الكريم فى هذه الآية اذ يطلب الايمان بالله وبرسوله ، ويطلب مع الايمان : « الانفاق » فى سبيل الله ·· فانما فى طلبه الانفاق من المال ، لا يطلب الا ارجاع بعض ما لله عند واضع اليد على المال نفسه · فمالك المال الآن يضع يده وضعا مؤقتا على ما هو فى أصل ملكيته : لله جل شأنه ، وباق كذلك فى ملكيته · لذا يسمى القرآن « المال » فى يد مالكه « فضلا » للاشعار بعدم أصالة الانسان فى الملكية له · نقرأ قوله تعالى فى وصف المؤمنين حقا :

« ولا يأتل أولوا « الفضل » منكم والسعة ، أن يؤتوا : أولى القربى ، والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله » (٢) ·

وقوله فى وصف المنافقين :

« ومنهم من عاهد الله : لئن آتانا من « فضله » : لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين · فلما آتاهم من « فضله » بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون ·

---

(١) الحديد : ٧ ·　　(٢) النور : ٢٢ ·

فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه ، بما اخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون » (١) ٠

٠٠٠ فعبر القرآن عن المال فى أيدى هؤلاء ، وأولئكم : بـ « الفضل » كى يوضح : أن المؤمن المخلص فى ايمانه ، يتصرف فيما تحت يده من مال ــ بالانفاق فى سبيل الله ــ تصرفا منطقيا مع واقع الأمر ، وطبقا لما يجب على المستخلف على أمر ما ، من رعاية حق من جعله خليفة ، ونائبا عنه فيه ٠ وكى يوضح أيضا : أن المنافق فى ايمانه ــ لتشبثه فى الدنيا ، وايثارها على الآخرة ، واعراضه عن الانفاق لذلك فى سبيل الله ــ يتصرف فيما جعلمستخلفا عليه من : مال ، تصرفا غير واقعى ، وغير مستقيم مع حق النيابة والخلافة فيه ٠ وعقابه هو ما جاء فى قوله تعالى :

« من كفر بالله من بعد ايمانه ، الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ،

ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم ٠

ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ٠

أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم ، وأولئك هم الغافلون » (٢) ٠

والقرآن الكريم فى تحديد الفرد من الناس باستخلافه على المال من قبل الله ــ دون الأمة ، أو دون المجتمع ــ ٠٠ لأن الفرد هو : الحقيقة الواقعة فى الأمة ، ومسئوليته عن خلافة المال مسئولية شخصية ، وجزاؤه على الاحسان أو الاساءة : فى استخدامه واستثماره ، **هو جزاء عينى ، وفردى ٠**

وبذلك يختلف الاسلام فى نظرته الى الفرد ، والأمة ، أو المجتمع ، عن نظرة بعض الفلسفات المعاصرة ٠ فبينما الاسلام لا يرى : « الحقيقة الواقعة » التى يتعامل معها ، والتى تحدد مسئوليتها ، فيما وراء « الشخص » و « الفرد » مما يأخذ مثلا اسم : « الأمة » أو « المجتمع » ٠٠ يقر بوجود الأمة ــ أو المجتمع ــ على أنها جملة من الروابط المعنوية بين الأفراد فيها ، ولكن لا ترقى فى وجودها الى وجود الحقائق العينية ٠

---

(١) التوبة : ٧٥ ــ ٧٧ ٠ (٢) النحل : ١٠٦ ــ ١٠٨ ٠

★ واذا كان المال ــ فى نظر الاسلام ــ فى يد من يملك المال هو « فضلا » من الله ٠٠ فان مباشرة الفرد المالك له : فى تحصيله ، واقتنائه ، والسعى فى سبيله ، أمر يسنده القرآن الكريم نفسه ، الى الفرد ذاته ، ويُجعل للانسان نشاطا فرديا خاصا به ، فيه ٠ يقول القرآن الكريم :

« **فاذا قضيت الصلاة** (أى صلاة الجمعة) **فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من « فضل » الله** » (١) ٠٠٠ فيطلب الى المجتمعين لصلاة الجمعة أن يتفرقوا بعد الاجتماع ، ويسعوا فى سبيل تحصيل « فضل » الله ، وهو المال أو الرزق٠ وهذا الطلب ، وان كان يستهدف توضيح : أن أداء العبادة ــ وبالأخص صلاة الجمعة وما يلابسها من ظروف خاصة ــ لا ينبغى أن يحول دون السعى فى سبيل العيش ، ولكن فى الوقت نفسه ينطوى على اسناد السعى والعمل فى تحصيل الرزق ، وهو فضل الله ، الى الانسان نفسه ٠ ويقول ايضا :

« ٠٠٠ **وآخرون يضربون فى الأرض ، يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله** » (٢) ٠٠٠ يقول ذلك فى وصف فريق من المؤمنين : أنهم يسيرون فى الأرض لتحصيل وسائل العيش والحياة ، أى لتحصيل الرزق ، وهو فضل الله ، وينسب الى هذا الفريق صفة الفعل والمباشرة فى ذلك ٠ كما يصف فريقا آخر منهم ، يباشر القتال فى سبيل الله ، فيسند اليهم العمل فى هذا المجال ، اسنادا مباشرا ٠

على أن القرآن ، عندما يتحدث عن نعمة الله فى تقسيم الزمن الى ليل ونهار ، يذكر هدف هذا التقسيم فيما يختص بالنهار ، فيقول :

« **وجعلنا الليل والنهار آيتين ،**

فمحونا آية الليل (أى جعلناها ظلاما) ،

وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا « فضلا » من ربكم ،

ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا » (٣) ٠٠

٠٠٠ فيجعل اختصاص النهار بالضياء ، ليساعد ضوؤه على تحصيل « فضل الله » لمعايش الناس بانفسهم ٠

★ والمال اذن بأيدى الناس الذين يملكونه ، يعود الى الله أولا ، ثم الى سعيهم فى تحصيله ثانيا ٠ والناس فى السعى الى المال لا يختلف شأنهم فيه ٠

---

(١) الجمعة : ١٠ ٠ (٢) المزمل : ٢٠ ٠

(٣) الاسراء : ١٢ ٠

والمؤمن والكافر فى هذا السعى ، سواء فى نظر القرآن ، ولا دخل للايمـــان أو الكفر فى كثرة المال وقلته فى يد من يحصله · وكذلك كثرته وقلته فى يد من يملكه ، لا تدل على رضاء الله على من يملك الكثرة ، أو على عدم رضائه ، على من لا يملك أصلا ، أو يملك القلة منه :

« **من كان يريد العاجلة** (أى الدنيا ومتعها ـ وفى مقدمتها : المال)

عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصـــلاها مذموما مدحورا ·

ومن أراد الآخرة (وما لها من متاع هو خير وأبقى) **وسعى لها سعيها ، وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا** ·

كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطـاء ربك ، وما كان عطـــاء ربك محظورا (أى على أحد : من مؤمن ، أو كافر) ·

انظر : كيف فضلنا بعضهم على بعض (فى الدنيا) ، **وللآخرة أكبـــر درجات ، وأكبر « تفضيلا » (١)** ·

فهذه الآيات صريحة فى أن عطاء الله من الرزق والمال ، ليس محظوراً على أحد من الناس ، بغض النظر عن اتجاهه : فى الكفر ، والايمان ، وأنه يبسط فيه لمن يشاء ، ويقدر لمن يشاء ، دون رعـــاية لوضـــع من يبسط له فى الرزق ، أو يقدر له فيه ·

فتقول آيات أخرى :

« **ان ربك يبسط الرزق لمن يشــاء ويقدر ، انه كان بعبـــاده خبيـــرا بصيرا » (٢)** ·

« **أو لم يعلموا : أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (٣)** ·

« **له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (٤)** ·

★ ··· **ولو ربط القرآن عطاء الرزق من الله ، وهو المال ، بوضع خاص للذى يعطاه من الانسان ، من كفر ، أو ايمان ·· لما استقامت الدعوة الى**

---

(١) الأسراء : ١٨ ـ ٢١ · (٢) الاسراء : ٣٠ ·
(٣) الزمر : ٥٢ · (٤) الشورى : ١٢ ·

الحق ، على نحو ما بسطها فى رسالة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ، ولما كان « للآخرة » مكان فى تعاليم الدين ·

··· لو ربط القرآن عطاء الرزق بكفر الكافر ـ مثلا ـ على معنى أن يكون كفره هو السبب فى عطاء الله اياه من المال ·· لما ترقب أن يكون هنـاك من الناس من يؤمن بدعوته · لأن الايمان عندئذ سيكون العامل فى الحرمان والفقر ، لمن يؤمن بالله وبدعوته الى الحق ·

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة (أى فى الكفر) لجعلنا لمن يكفـر بالرحمن :

لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ·

ولبيوتهم أبوابا ، وسررا عليها يتكئون ·

وزخرفا ،

وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ،

والآخرة عند ربك للمتقين » (١) ·

··· يقول القرآن الكريم ذلك فى معرض « تقييم » الدنيا ومتعها ، فى مواجهة الآخرة ونعيمها · فأمر الدنيا وما فيها من متاع ، ليس ذا شأن يذكر ـ فى نظر القرآن ـ فى مقابل الآخـــرة ، التى هى وقف على المتقين والمؤمنين وحدهم · ولأن الدنيا ليست ذات شأن خاص ، فما أعطى للكافرين بالله فيها ، لا يدل على : قيمتهم الذاتية من جانب ، كما لا يدل على : رضاء الله عليهم من جانب آخر : **« أيحسبون انما نمدهم به من مـال وبنين · نســـارع لهم فى الخيرات ؟ بل لا يشـعرون »** (٢) · فالقيمة الذاتية هى للمؤمن بسبب ايمانه ، ورضاء الله ، ورهن بتقوى المتقين من عباده · ولولا أن يكون الناس أمة واحدة فى الكفر سواء ، عندما يعطى الله الكافر الدنيا ، دون المؤمن : « **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن : لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليهـا يظهـرون · ولبيوتهم أبوابا ، وسررا عليها يتكئون · وزخرفا** » · لأن ذلك كله متاع الحياة الدنيا ·

··· وليس اذن من صالح الدعوة الى الحق والايمان بها : ربط عطاء الله من الرزق بكفر الكافر · ثم من جهة ثانية لو كان هذا الربط قائما لألغى وجود الآخرة حتما · لأن الآخرة ـ كحقيقة دينيـــة ـ هى لجـــزاء المؤمنين

---

(١) الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥ ·   (٢) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ ·

والمتقين : « **والآخرة عند ربك للمتقين** » • وقلما يكون هنـاك عندئذ ايمـان ، وقلما يكون هناك مؤمن ، ان تم هذا الربط : فأعطى الكافر الرزق لكفره ، وحرم المؤمن من الرزق لايمانه •

ولو ربط القرآن ـ من ناحية أخرى ـ عطاء الرزق بايمان المؤمن ، لم تكن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، فالابتلاء والاختبار كما يكون بالنعمة ، يكون بالحرمان منها : « **ولنبلونكم بشىء : من الخوف ، والجـوع ، ونقص مـن الأموال ، والأنفس ، والثمرات ، وبشر الصابرين • الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون** » (١) •• ولكانت الحياة الانسانية ذات مرحلة واحدة ، وهى تلك المرحلة التى يعيشها الانسان على الأرض ، ولما كان هناك بعث أخروى • اذ لا حاجة عندئذ اليه • فالجزاء يمكن : أن يقع فى هذا الوجود الأرضى حينئذ : المؤمن يتمتع بالرزق ، والكافر بالله يحـرم من المتـع والزينة لهذه الحياة !!

ولكانت « المادية » حينئذ ليست بشىء آخر ، يختلف عن دعوة الدين • فدعوة الدين ، آنئذ تركز على هذه الحياة الأرضية وما فيها من أرزاق ونعم وزينة ، كما تركز المادية نفسها • وليس هناك اذن وراء الحياة الأرضية ما يسعى اليه الانسان ، عن طريق استقامته فى السلوك فى الدنيا ، وعن طريق صبره على الحرمان ، ومطالبته بالزهد ، وعدم الالحاح فى متعها •

ثم ان وظيفة الدين الأساسية هى : فى احلال « السلام » على الأرض • ولن يتم السلام عليها ، الا اذا خف التهافت على متعها وزينتها ، وقل الحقد ، أو ضعف ، بسبب تميز واحد عن الآخـر فى تحصيلها • ولن يؤدى الـدين وظيفته الأساسية هذه ، وقد ارتبط ـ كما هو المفترض الآن ـ الايمان بالرزق ، وبمتع الحياة • أليس التهالك على الدنيا ومتعها ، بناء على هذا الارتباط ، يكون هو النتيجة الحتمية له ؟• وهل التهالك على تحصيل متع الدنيا يقـر « السلام » على الأرض ويخفف الخصومة والحقد من أجل التفاضل فيهـا ؟ أم من شـأنه أن يزيد فى « الأنانيـة » ويدفع الى زيادة الحقـد ، وسوء العلاقات ؟•

وفوق ذلك كله : فان الدين فى دعوته الى الحق ، وفى وقاية هـذه الدعوة من العدوان ، يعتمد على : « الجهاد فى سبيل الله » ••• والجهاد فى سبيل الله تضحية بالنفس ، وبالمال ، والولد ، أى تضحية بمتع هذه الحيـاة الدنيا • كيف يباشر المؤمن اذن ، وقـد استغرق كله عندئذ فى هـذه المتع

---

(١) البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦ •

ـ حسبما هو المفروض هنا ـ الجهاد فى سبيل الله ؟٠ ان الذى يباشر الجهاد فى سبيل الله هو من زهد أصلا فى هـذه المتع ، ولو كـانت تحت يده وفى استطاعته ، وأخذ نفسه عن طريق العبادة بالسيادة فوق شهوته وهـواه ٠ وهكذا : منطق القرآن واضح فى عدم ربط عطاء الله وتوزيع أرزاقه على عباده ـ مع اختلاف فى سعتها وضيقها ـ بأى وضع لمن يعطيه ، أو يحرمه منهـا ، من ايمان ، أو كفر ٠

★★★

★ فجميع الأرزاق اذن من الله ، وهو يرزق من يشـاء ـ مؤمنـا أو كافـرا ـ بغير حسـاب ٠ واذا كانت جميعها تعود الى الله ـ مع سعى من الانسان فى تحصيلها وقد استخلف عليها ـ والله خالق الجميع ، ورب الجميع ٠٠ فمنفعتها تعود للجميع ، ولو كانت فى يد البعض منهم ٠ وبالتالى لا ينبغى اذن أن يتصور من عنـده الرزق والمال : أنه باعطـائه صاحب الحاجة قسطا منه ، كأجر على عمل ، أو فى غير مقـابل لسـد حاجته ٠٠ أن عطاءه عطاء حقيقيا من مال يملكه هو ، ومختص به وحده : ٠٠ لا ينبغى أن يتصور ذلك ، لأن مثل هذا التصور هو قلب لمنطق القرآن ومتناقض معه :

١ ـ لأنه اذا كان الله هو صاحب الرزق لكل كائن يتحرك على الأرض « **وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها** » (١) ٠

٢ ـ وأنه اذا كان هو صاحب التصرف المطلق فى عطائه : يمنحه من يشاء ، ويقبضه عمن يشاء ، ويبسطه لمن يشاء ، ويقدره لمن يشاء ،

٣ ـ وأنه اذا كان ينيب عنه الانسان ويستخلفه على ما فى هـذه الدنيا من أرزاق ، لمباشرة جمعها واستثمارها ،

٤ ـ وأخيـرا : اذا كان هو وحـده الخالق لجميع المخلـوقات ، ومن بينها الانسان ٠٠ فأرزاقه اذن فى دائرة الانسان ، للناس جميعا ، لا فـرق بين من يملك ومن لا يملك ، وأن ما يصل منها الانسان يصل اليه من الله ، بطريق مباشر ، أو غير مباشر ٠ ولذا لا يحق للانسان أن يدعى : أن الضعيف الذى لا يستطيع السعى لتحصيل الرزق ـ كالأولاد الصغار عند آبائهم ، والأتباع من الناس عنـد عائليهم ، والعاجزين عن الكسب بسبب الشيخوخة أو بسبب آخر ـ ان حصل كل واحـد من هؤلاء على

---

(١) هـود : ٦ ٠

الرزق من غيره ٠٠ أنه إقتطع من رزق الغير ، ومنح اياه ، ومن أجل ذلك : هذا المعطى فى ظاهر الأمر ، هو : صاحب فضل عليه ! ٠

فالقرآن يقول فى سبب تبرير النهى عن قتل الآباء والأولاد خشية الفقر :

« **ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطأ كبيرا** » (١) ٠٠ فيضيف رزق الأولاد الى الله ــ وليس للآباء ــ لأن الرزق فى حقيقة أمره ، كما يجب أن يعتقده المؤمن بالله ، يرجع اليه سبحانه وتعالى وحده ٠

وفيما يعطى للأتباع من عائليهم من أرزاق ، وهم الذين يتبعون غيرهم فى المعيشة ــ وخاصة من كانوا أرقاء على عهد بداية الدعوة الاسلامية ــ يقول القرآن أيضا فى شأن ذلك ، وفى الوقت نفسه ، يجمل قضية الرزق فى أساسها وآثارها ، وهى قضية المال فى ملكيته وعدم ملكيته :

« **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ،**

فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ،

فهم فيه سواء ،

أفبنعمة الله يجحدون ؟ » (٢) ٠٠ فتحمل هذه الآية أربعة مبادىء :

ــ **المبدأ الأول :** فى ملكيته ،

ــ **والمبدأ الثانى :** فى عدم ملكيته ،

ــ **والمبدأ الثالث :** فى الانتفاع به ،

ــ **والمبدأ الرابع :** فى تقييم مخالفة النظرة فى ذلك ٠

★ ففى ملكية المال تصرح الآية فى غير شبهة ، وفى غير لبس : بأن الناس يتفاضلون فى المال بالكثرة والقلة فيه ٠ أى يتميز بعضهم عن بعض فى اقتناء الرزق وملكية المال ، فيملك أحدهم الكثير ، بينما يملك الآخر القليل منه ، أو لا يملك منه شيئا ٠ واذا كان حد القلة محددا فى طرفه الأدنى بـ « العدم » واللاشىء فالكثرة لا حد لها : « **والله يرزق من يشاء بغير**

---

(١) الاسراء : ٣١ ٠ (٢) النحل : ٧١ ٠

حســـاب » (١) : واذا كان جل شأنه فضــل بعض الناس على بعض فى مجال آخر هو أرفع بكثير من مجال الرزق والمال ــ كمجال الرسالة ــ فمن اليسير قبول مبدأ التفضيل فى هذا المجال · يذكر القرآن الكريم : أن الله فضل بعض الرسل على بعض ، فيما تقوله الآية : « **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ؛ منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات** » (٢) · كما يذكـــر : أن الله فضـــل بعض النبيين على بعض ، فيما تقصــه الآية الاخــرى : « **وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ، ولقــد فضــلنا بعض النبيين عــلى بعض ، وآتينــا داوود زبورا** » (٣) ·

··· فالتفضيل فى مجال الرسالة والنبوة ، هو تفضيل : شأن ومنزلة ، بينما هو فى مجال المال والرزق تفضيل : « كم » وعدد · ولا يخشى الاســـلام الثراء الكثير ، طالما من يتميز به يعرف حدود الله فى المال ·· أى طالما صاحب الثروة الطائلة يعرف :

١ ــ أن الاحتكار والغش فى التجارة حـــــرام : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** » (٤) ·

٢ ــ وأن التطفيف فى الوزن والكيل حــرام : « **ويل للمطففين · الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون · واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** » (٥) ومثل التطفيف فى الكيل والوزن : عدم « التوازن » بين الاجر والعمل : يعطى القليل من الاجر ، ويؤخذ الكثير من العمل من جانب رب العمل ، ويؤدى القليل من العمل ويحصل الكثير من الاجر من جانب العامل · « **وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تاويلا** » (٦) ·

٣ ــ وأن أكل مال الضعيف ، بسبب عدم رشده ، حرام : « **ان الذين ياكلون أموال اليتامى ظلمــا ، انما ياكلون فى بطــونهم نارا ، وسيصـــلون سعيرا** » (٧) · « **ولا تقــربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده** » (٨) ·

---

(١) البقرة : ٢١٢ ·
(٢) البقرة : ٢٥٣ ·
(٣) الاسراء : ٥٥ ·
(٤) البقرة : ١٨٨ ·
(٥) المطففين : ١ ــ ٣ ·
(٦) الاسراء : ٣٥ ·
(٧) النساء : ١٠ ·
(٨) الاسراء : ٣٤ ·

٤ ـ وأن للآخرين من أصحاب الحاجة ، حق واجب الأداء ـ وراء الزكاة ـ فيما يملكه المالك من مال : « **والذين فى اموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم** » (١) •

« **فاما من اعطى واتقى • وصدق بالحسنى • فسنيسره لليسرى • وأما من بخل واستغنى • وكذب بالحسنى • فسنيسره للعسرى • وما يغنى عنه ماله اذا تردى** » (٢) •

٥ ـ وأن ملكية المالك ، هى ملكية استخلاف وانابة ، وليست ملكية أصالة : « **وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » (٣) •

••• لا يخشى الاسلام الثراء الكثير آنئذ ، اذ كثرة المال فى يد من يملكه الآن لا تؤذى أحدا ، بل المال عندئذ : فى خدمة الجميع ، ولمنفعة الكل • والفرق بين المالك له وبين من لا يملكه الآن ، هو : أن المالك عليه مسئولية فيما تحت يده من أموال :

المسئولية الأولى : وجوب حسن استثماره للمال ، بحيث ينفع الآخرين ، ولا يضر أحدا منهم •

والمسئولية الثانية : وجوب مباشرته لأداء الحقوق والواجبات فيه ، حسبما جاء فى وصايا القرآن الكريم ، ومنها مسئولية أصحاب الحاجة ورعايتهم من أمواله ، ومسئولية الأمة ووقايتها من الأعداء ، ان تعين الانفاق طريقا للوقاية •

الاسلام يتقى خطر المال ، ويدفع ضرر الانحراف فى استغلاله ، عن طريق الايمان بالله ، أى عن طريق الذات التى تملكه وتستثمره ، وليس عن طريق تحديد الملكية ، مع ترك الذات فى أعماقها غير متأثرة فى قليل أو كثير بالايمان بالله • اذ تحديد الملكية عندئذ لا يضمن النتائج الايجابية المرتقبة من التحديد لصالح الذات ، والصالح العام على السواء ، وهى نتائج النفع وعدم الضرر • بل قد يستمر الايذاء ، وتستمر الأضرار ، مع وجود تحديد الملكية • وليس بالأولى ، عن طريق الغاء الملكية ، وتحويل الناس الى أجراء • لأن الغاء الملكية الفردية : مصدر التواكل والكسل ، وبالتالى : مصدر زيادة الفقر والحرمان •

---

(١) المعارج : ٢٤ ، ٢٥ • (٢) الليل : ٥ ـ ١١ •
(٣) الحديد : ٧ •

والعامل الفيصل اذن هو تربية الذات من داخلها ، بتكوين الايمان بالله ، والخشية من الله ، وليس بتقدير ما يملك الفرد من مال ، بحد معين ، أو بالغاء الملكية الفردية أصلا · والله جل شانه ، يعلم حقا عندما يقول : « **والله يرزق من يشاء بغير حساب** » (١) ·· أنه لا يريد أن يؤذى عباده من المحرومين بسبب التوسعة غير المحدودة على من يرزقه بغير حساب من عباده الموسرين · قد يكون هذا الرزق بغير حساب « ابتلاء » من الله سبحانه · ولكن حكمة الله فى كونه لا تدع للمفسدين والعابثين بأموالهم فرصة البقاء على وجه الأرض : « **واذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا** » (٢) ·

★ أما من لا يملك المال ، فقد نصت الآية على أن رزقه فى هذه الحياة ــ وان كان يعطاه فى ظاهر الأمر من انسان آخر ، عداه : كالعامل اذا أعطى من صاحب العمل ، والتابع اذا أنفق عليه متبوعه ، والصغير من الأولاد اذا أنفق عليه من أبيه ، والعاجز بسبب المرض أو الشيخوخة اذا أعطى تطوعا ــ هذا العطاء واقع أمره : من الله : « **فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم** » (٣) ·· فنفت الآية أن يكون الرزق للأرقاء من أسيادهم ، هو : من رزق هؤلاء ردوه وأعادوه الى أولئك الأرقاء · وهذا النفى معناه : أنه لم يقتطع شىء من رزق المتبوعين هنا ــ وهم الأسياد ــ حين ينفقون على أرقائهم :

★ « **فهم فيه سواء** » (٣) ·· أى فهؤلاء الأرقاء ، مع الأسياد ، سواء فى الانتفاع بالرزق وبما يقتنى من أموال ، وان وقعت هذه الأموال المقتناة فى يد البعض ، دون البعض الآخر · وبهذا تضفى الآية على المال طابعا اجتماعيا ، وتحدد له وظيفة خاصة ، وهى النفع العام لمن يقبضه ويحصله فى يده ، ولمن لا يحصل منه شيئا ·

وبهذا النفع العام للمال ــ مع ملكيته الخاصة ــ يغاير الاسلام فى نظرته اليه : تلك النظرة الرأسمالية التى تجعل من الملكية الخاصة للمال ، مصدرا للنفع الخاص وحده · وبذلك يصبح عديم الملكية فى المجتمع غير ذى حق فى الانتفاع بالمال ، الا عن طريق التبرع من ماله اليه ، أو عن طريق الأجر الذى يحصله فى مقابل عمل ينجزه لغيره ·

وبناء على هذه النظرة الرأسمالية الى المال ، والى ملكيته ، والانتفاع به ، يستطيع مالك المال فى النظام الرأسمالى : أن يقبض يده ــ ويجوز له

---

(١) البقرة : ٢١٢ · (٢) الاسراء : ١٦ ·
(٣) النحل : ٧١ ·

كذلك ــ عن التبرع ، كما يستطيع : أن يساوم فى الأجر على العمل ، الذى ينجز له من أجير عليه ، كما يستطيع أن يتشــــدد فى المســـاومة الى درجة الظلم والحيف · لأن النفع بالمال يرتبط فقط بالملكية الخاصة له ·

ومن هنا يمكن أن ينشأ فراغ فى النظام الرأسمالى ، يملأ بالنظام الماركسى اللينينى ــ وهو القــائم على الملكية العــامة ــ ، كى يوفر للمحرومين ، ولمن لا يملكون شيئا ، رزقهم : سواء أكان فى صورة رعاية اجتماعية ، أم فى صورة أجر منــاسب على عمــل محدود ، مع عــدم اذلالهم فى مســاومة قاسية عــلى « الأجر » بينهم ، وبين أصحاب العمل ·

ولكن نظرة الاسلام الى المال ، والى ملكيته ، والانتفاع به ، تحول دون قيام النظام الرأسمالى أصلا ، وبالتالى لا تحدث فراغا فى المجتمع يحــاول النظــام الآخر : الماركسى اللينينى ، أن يشغلــه · اذ ليســت الرأسمــالية هى الثراء الطائل فى ذاته ، بل هى الانحراف فى استثمار المال ، واتخاذه وسيلة للاذلال أو للسيطرة على من لا يملكون المال من المعدمين العاجزين ، أو الذين يعملون فيمــا يملك الغير ، بأجر · والاســلام يحــول دون هــذا الانحــراف ، سواء على أساس نظرته للمال ، والى ملكيته والانتفاع به ، أو على أساس : من الأوامر ، والنواهى ، التى تحدد طرق الاستثمار الصحيح للمال ·

فالاســلام لا يربط بين الملكية والمنفعــة ، بحيث يكون الانتفاع بالمــال لمن يملكه فقط · بل يرى الملكية الخاصة ــ وفى غير حدود ــ ويرى كذلك : أن الانتفاع بالمال ، الممثل الآن فى ملكيات خاصة : هو لجميع النــاس والأفراد وليس وقفا على من يملكونه وحدهم ·

وتطبيق الاسلام ــ فى مجتمعات المسلمين ــ فى نظرته : الى المال ، يحفظ هذه المجتمعات من التبعية الى أحد النظامين : الرأسمالى ، والماركسى ثم يحفظها أيضا من الرجات والاضطرابات ، التى يحدثها هذا النظام أو ذاك·

★ ومن أجل القيمة الذاتية لنظرة الاسلام الى الانتفاع بالملكية للمال ، وانه انتفاع عام ، رغم أن ملكيته ملكية خاصة ·· تعقب الآية الكريمة على مخالفة ما جاء فيها ، بما تقوله : « **أفبنعمة الله يجحــدون ؟** » (١) · فتجعــل مخالفة هذه النظرة فى التطبيق مساومة لانكار نعمــة الله : فى « فضله » فى الأرزاق والأموال من جانب ، وفى « هدايته » وارشاده بشأن هذا « الفضل » ،

---

(١) النحل : ٧١ ·

فى المال والأرزاق من جانب آخر ، حتى لا تنشأ صعوبات فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض : بين من يملك المال ملكية خاصة ، ومن لا يملك منه شيئًا ٠

والهداية ــ كما جاءت فى الاسـلام ــ فى شأن المـال ، لا تقل شأناً فى القيمة ، عن اعطاء المال نفسه ٠ فالمال يعطى من الله للاستمتاع به ٠ والاستمتاع به يتوقف فى حقيقة الأمر على عموم الانتفاع به ٠ فاذا لم تلاحظ فيـه المنفعـة العامة ــ مع الملكية الخاصة له ــ خرج الأمر عن مجال الاستمتاع ــ الى مجال آخر : يشقى فيه الأفراد جميعا ، وهو مجال : الحقد ، والضغينة ، وهنـاك اذن ثلاث نظرات الى ملكية المال ، والانتفاع به :

الأولى ، وهى نظـرة الاسلام : أن ملكية المـال خاصة ، بحـق السـعى الخاص وابتغاء الانسان فضل الله فى الأرض ، بينما منفعته منفعة عامة ، بحق الاستخلاف على ما لله فى الأرض ٠

والثانية ، وهى نظرة النظام الرأسمالى : أن الملكية للمال ملكية خاصة ، وأن الانتفـاع به انتفـاع خاص ٠ وما تجبيـه الدولة من ضرائب هـو لتحقيق مصالح مشتركة للذين يملكون المال ٠

والثالثة ، وهى نظرة الماركسية أو البلشفية : أن الملكية للمال ملكيـة عامة (للدولة) وأن الانتفاع به انتفاع عام للأفراد جميعا ، كل على قـدر انتاجه ، أو حسب حاجته !

ونظرة الاسلام الى المال تلبى غـريزة الفرد فى الملكية والاقتنـاء من جانب ، كما تلبى روابط المجتمع فى سد حاجات من لا يملكون المال من جانب آخر ، فى صورة تتوفر فيها الكرامة الانسانية ، والعدالة فى المعاملة ٠

وربما تأسيسا على نظرة الاسلام الى المـال ، وملكيته حـرم القـرآن الكريم : « الربا » فى قول الله تعالى : « وأحل الله البيع وحرم الربا » (١) ٠ فطالما منفعة المال منفعة عامة ، فلا ينبغى أن يكون قرضه لمحتاج الى المال ــ فى أية مادة من المواد الربوية ، التى تمثل جميعها الرزق وفضل الله ــ على نحو ، يشبه قرضه لمن لا حق له فى الانتفـاع به ٠ اذ الاقراض للمـال بفضل وزيادة عن مقدار القرض ، وهو الربا ، يلغى : الحق الأصيل لمن لا يملك المال فى نظر الاسلام ، فى الانتفاع بالمال ٠

---

(١) البقرة : ٢٧٥ ٠

والبيع بخلاف الربا ، وان كان فيه ربح للبائع · لأن البيع لم يمنع المشترى من حقه الأصيل فى الانتفاع بالمال ، والربح الذى حصل عليه البائع ، هو ربح : العمل فى المال واستثماره · على أن التراضى : فى البيع والشراء ، هو تراض واقعى · وذلك سبب أصيل فى حله ، بينما التراضى فى قرض الربا بين المقرض والمقترض هو تراض صورى · وحقيقته : أنه اكراه فى صورة اختيار ، لأن الحاجة الماسة الى القرض ، هى التى تدفع الى القبول من جانب المقترض ، كما تحمل على عرض المال مع زيادة من جانب المقرض ·

وبهذه النظرة الاسلامية الى المال ، والى ملكيته ، والانتفاع به ، لا يحق لمالكه كذلك : الاستعلاء ، ولا يكسبه علوا واستكبارا فى الأرض · لأن المال عندئذ ليس مصدر قوة يتكىء عليها صاحب المال : فى ترفعه ، أو فى طغيانه ، أو فى بسط سيادته · وانما هو مصدر مسئولية مزدوجة ، يستعين المالك له بالله ، كى يعينه على أدائها أداء كاملا ، لا شبهة فيه ·

★ ★

الفصل الثالث

طريق المنفعة العامة للمال

★ اذا كانت الملكية الخاصة للمال أصلا من الأصول الثابتة فى المجتمع الاسلامى ، ولا يعدل عنها اطلاقا الا بسبب انحراف واضح يعود بالضرر على الأمة : فى دينها ، وفى أداء وظيفة المال نفسه — لأن التفاضل فى الأرزاق والأموال الذى جاء به قول الله تعالى : « **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق** » (١) لا يتضح الا اذا كانت ملكية المال ملكية خاصة — اذا كانت هذه الملكية الخاصة أصلا عاما فى المجتمع الاسلامى ، فالمنفعة بهذه الملكية هى أيضا : فى خدمة المصلحة العامة ، التى هى مصلحة الأفراد جميعا ، بحكم الاستخلاف من الله ، على المال ٠

لكن : ما هو الطريق الى تحقيق المنفعة العامة للمال ؟ أو بعبارة أخرى: ما هو الطريق الى وضع المال — مع ملكيته الخاصة — فى خدمة المصلحة العامة ، التى هى مصلحة الجماعة ، والأمة ، والأفراد كلهم ؟

هل يترك الاسلام المال فى ملكية خاصة يتزايد وينمو ، ويتجمع ويتكدس الى غير حد ؟ وهل بذلك تتحقق المنفعة العامة ، ويكون قد وضع المال فعلا فى خدمة المصلحة العامة ؟٠

ان القرآن يقول فى ندائه للمؤمنين :

« يا أيها الذين آمنوا

ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون (أى بهذا الأكل) عن سبيل الله ،

والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ٠ يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بهـا جباههم وجنوبهم وظهورهم ،

---

(١) النحل : ٧١ ٠

هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (١) ·· فيعلن الذين يكنزون الأموال بعذاب أليم ، عن طريق الأموال ذاتها ، اذ يحمى عليهـا فى نار جهنم وتكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم ، ويقـال لهم عنـدئذ : **« هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون »** ·

وكنز المال ــ كما شرحته الآية ، فى قوله تعالى : **« ولا ينفقونها فى سبيل الله »** هو : عدم انفاقه فى تحقيق المصلحة العامة ، ووضعه فى خدمة هـــذه المصلحة · وليس هو : التنمية والتزايد فى المال ، وليس هو : جمعه وتكديسه، وليس هو كذلك : انفاقه فى الترف والملذات ، أو فى العبث والفساد ، أو فى الصد عن سبيل الله · انما هو الوصول بحركة المال فى تنميته الى طريق القمة فى جمعه ، دون أن تصحب هذه الحركة ، الحركة الأخرى ، وهى : حـركة النزول به من القمة مرة أخرى عن طريق انفاقه فى أوجه المصلحة العـامة · وكأن حركة المال · كما تصورها النظرة الاسلامية :

١ ــ هى حركة سعى اليه : **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله »** (٢) ·

٢ ــ وحركة انفاق ما زاد عن الحاجة فى سبيل الله ، وهو سبيل المصلحة العامة : **« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »** (٣) ·

والحركتان معا ، لا تنفك ثانيتهما عن أولاهما · فاذا انقطعت الثانية عن الأولى ، كان كنز المال ، وكان العذاب بسبب اكتنازه · وان ارتبطت بحـركة جمع المال : حركة نزولية أخرى ، فى غير اتجـاه سبيل الله ، كان الانحـراف بالمال ، وكان الوعيد عليه ، وقد يكون بزوال المجتمع كلية ·

واذن الاسلام : لا يمنع تنمية المال اطلاقا ، ولا يمنع وصول المستوى فى جمعه الى رقم عال · وانما ذلك يتبع نشاط الفرد فى سعيه ، ولا حدود لهذا النشاط ، الا تلك التى تخرجه الى الانحراف به ، والفساد عن طريقه · وفى الوقت الذى لا يضع فيه الاسلام حدودا للتنمية ، لا يضع كذلك حدودا لانفـاقه فى سبيل المصلحة العامة ، وتمكينه من أن تكون فى خدمة هذه المصلحة ·

واذن الاسلام ــ كذلك ــ يرى : أن الانفاق فى سبيل المصلحة العامة ، جزء أصيل فى حركة المال ، بحيث لا تأخذ هذه الحركة وضعها السليم فىنظرته

---

(١) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ ·   (٢) الجمعة : ١٠ ·
(٣) الحديد : ٧ ·

الى المال ، الا بتحقيق هذا الجزء · ولكن : كيف يتم الانفاق فى سبيل المصلحة العامة ؟·

★ ان الحركة الأولى فى المال ، وهى حـركة السعى فى سبيله ، يدفع اليها حب الاقتناء · وهو ميل طبيعى فى الانسان · واذا قوى هذا الميل ، واشتد عند الانسان فى سعيه الى جمع المال ، قد يحمله على كنزه ، وعدم انفاقه فى سبيل الله قطعا · وقد يحمله ايضا على عدم الانفاق اصلا ، لا فى سبيل الله ولا فى سبيل الشيطان ــ فيمسك كلية عن انفاقه ، ويبخل به حتى على نفسه ·

أما الدفع الى الحركة الثانية للمال ــ وهى حركة انفاقه فى سبيل المصلحة العامة ــ فيحمل عليها : اما الالزام الخارجى ، أو الزام الذات الزامــا ناشئا عن « الارادة الحرة » التى تتكون فى الذات ، بفعل الايمان بالله : أى ليس الدفع اليها طبعيا بحكم غريزة فى الانسان ، كتلك الغريزة مثلا ، التى تدفــع الى حركة السعى فى سبيل المال ، وهى غريزة الاقتناء ، أو غريزة حب البقاء ، فى معناها الواسع ·

والالزام الخارجى على الانفاق فى سبيل المصلحة العامة يتحقق بقوة القانون الذى يشرع ، وبمساعدة السلطة التنفيذية فى نظم الحكم المعاصرة · ولكن الالزام عندئذ لا ينطوى على رغبة ــ أية رغبة ــ فى الانفاق · فهو يشبه أن يكون اكراها · ولذلك تتسع الحيل العديدة لاسقاطه ، أو على الاقل تتسع الحيل لاسقاط جزء من المال المقتنى · وتتعدد المحاولات العديدة لتغيير التشريع الملزم بذلك ، من جانب أصحاب رؤوس الأموال فى النظم « الليبرالية » · وكثيرا ما تنجح محاولاتهم ولو لبعض الوقت ، أو لاســقاط الضرائب التى تجمعت ولم تدفع من الملزمين بها ، والتى تتصل بهذه المنفعة العامة ·

والزام الذات هو ، أولا : التزام الذات لنفسها من نفسها ، بالانفاق فى أوجه المصلحة العامة ، وغالبا ما تكون هذه الأوجه : هى الأوجه التى نص عليها القرآن الكريم فى آية الزكاة : « **انما الصدقات** (الزكـاة) **للفقــراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم** » (١) · وهى أوجه :

★ المعيشة : للفقراء والمساكين ، بسبب العجز ، أو بسبب عدم الاكتفاء فى سد الحاجة ،

---

(١) التوبة : ٦٠ ·

★ **والتحرير : للأرقاء ، والذين قيدت حرياتهم فى التصرف بسبب خارج عن ارادتهم ،**

★ **والتعويض : للغارمين فى سبيل المصلحة العامة ، وفى سبيل وحدة الأمة ، ووقايتها من العدوان ،**

★ **والمصلحة الدائمة : فى سبيل الله ، وهى مصلحة الدعوة والأمة معا ، ومصلحة الدفاع أو الوقاية ،**

★ **والحاجة المؤقتة : ابن السبيـل ، والمؤلفة قلوبهم ، والعاملين على تحصيل الزكاة ·**

والقرآن يختار : أن يكون الالزام للذات بالانفاق فى أوجه المصلحة العامة ، من الذات نفسهـا ، وليس من قوة خارجة عنها ·· يختار فى حقيقة الأمر : أن يكون الانفاق عن حب للانفاق ذاته ، وليس عن كراهية أو شبه اكراه له · وبذلك يظل الانفاق مستمرا غير منقطع ، كما يظل السعى فى سبيل تنمية المال بروح نشطة متجددة ، فما يتجمع منه الآن تشعر النفس بشعور الرضـاء فى انفاقه · وهنا تكون متعة فى تنمية المال ، ومتعة أخرى ــ وربما أقوى ــ فى اخراجه ، وانفاقه على المصلحة العامة · والمنفق للمال فى هذا الوقت وبهذه الروح يتملكه : المعنى الجماعى ، وأنه يعيش لغيره ، كما يعيش لنفسه ، وأن طاقته فى السعى من أجل المال مكنته من المتعة فى انفاقه فى سبيل الله · وهو بسبب ذلك : انسان تعطى انسانيته ، ما وراء حدود ذاته ·

وفى تحديد القرآن للبر فى قول الله تعالى : « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر : من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المـال على حبــه : ذوى القــربى ، واليتـامى ، والمسـاكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب** ··· » (١) فيجعل انفاق المال حبـا للانفاق ، من مقومات معنى : « البر » عناية منه بزوال معنى الكراهية أو الاكراه من نفس المنفق ، وحرصا على استقرار : معنى الرغبة والحب فيها ، عنـدما يتحرك فى الحركة الثانية فى المال ، وهى : الحركة النزولية ، أو حركة الاعطاء والانفاق ·

★ وفى نهى القرآن أيضا عن ملاحقة المن ، أو الأذى النفسى ، لانفـاق المال ، على نحو ما تصوره الآيتان التاليتان : « **قول معروف ومغفرة خير من**

---

(١) البقرة : ١٧٧ ·

صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم • ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء النـاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان (حجر أملس) عليه تراب فأصابه وابل ، فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين » (١) • اذ فى نهى القرآن عن مثل هذه الملاحقة للانفاق : ما يؤكد المعنى الذى يريده الاسلام وراء انفاق المال ، وهو : الصفاء النفسى ، والمحبة له ، محبة غير مشوبة بما يكدرها •

فالآية الأولى من هاتين الآيتين : تؤثر صراحة حسن القول والتسامح ، على الانفاق المـادى الذى يتبعـه أذى بالقول ، على الأقل • وهى بذلك تؤثر المعنى الانسانى الكريم ، على الأمر المادى ـ وان كان بهذا الأمر المادى قوام الحيـاة المادية ـ ان صحب هذا الأمر المادى مـا يقلل من كرامة المعطى له ، وينزل من اعتباره الانسانى • بينما الآية الثانية : تسلك طريق الاقناع ، بأن الانفاق سيكون عديم الأثر ، وقليل الجدوى ، ان صحبه ما يؤذى الغير ايذاء معنويـا • وهو شبيه عندئذ : بوضع « البذور » على حجر أملس كان عليـه تراب ، فنزل عليه المطر وأزاله عنه ، وأصبح الحجر بذلك صلدا مجردا عـن التربة ، وغير صالح للانبات ، اذا ما وضعت عليه البذور •

والقرآن اذ يحرص اذن على : أن ينفق الثرى من ماله ما يشاء فى أوجه الانفاق التى تحدد المصلحة العامة ، يحرص قبل ذلك على : أن يكون سلوكه فى الانفاق سلوك الانسـان الذى تشبعت روحه بالمعـانى الانسانية ، وفى مقدمتها : الحب ، والصفاء ، والابتعاد كلية عما يجرح الاحساس والشـعور للآخرين • وهذا الحرص يبعد عن « الاحسـان » فى الاسلام معانى المهـانة والاذلال ، التى يلصقها به الحاقدون عليه •

وفى الآية التالية التى تأتى عقب هاتين الآيتين ، وهى قوله : « **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم ، كمثل جنـة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير** » (٢) •• وفى هذه الآية : يوضح القرآن أثر الانفاق ، اذا كان صادرا عن نفس مطمئنة راغبة محبة للاعطاء ـ ابتغاء مرضاة الله ـ ويشبهه بأثر الزرع الذى غرس فى حديقة تقع على ربوة عالية ، فلابد أن يصيبها الماء : اما من مطر ، أو طل ، وهى لذلك : تظل خضراء ومثمرة على طول العـام ،

---

(١) البقرة : ٢٦٣ ، ٢٦٤ •   (٢) البقرة : ٢٦٥ •

فتؤتى أكلها ضعفين · والانفاق عن صفاء النفس ومحبتها لا يذهب لذلك سدى ، وانما هو يضاعف المال ، كما يضاعف الماء والموقع للانبات ثمار هذه الحديقة·

وبعد اعطاء القرآن فى هذه الآية السابقة لهذين المثلين : للانفاق فى من وأذى ، والانفاق فى محبة ورغبة فيه : يذكر ، أن من أهداف جمع المال للذى يسعى فى تحصيله الانسان ،. هو سد حاجة الأولاد من بعده وعدم تركهم صغارا جياعا ، يتسولون الناس · وهو هدف طبيعى فى الانسان ، وهدف مشروع كذلك · ولكن ، لكى يتحقق هذا الهدف : ينبغى أن يكون ما يترك للذرية مأمونا من المخاوف والأخطار · وأمانه هو : فى الانفاق فى سبيل الله عن محبة ، دون أن تكون هناك شائبة الكراهية فيها · وذلك ما تنطق به هذه الآية : « **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** » (١) · وليس هناك أحد يود : أن تحف المخاطر ماله على هذا النحو ، الا شحيح بخيل ، أو من ينفق : منا وأذى · ولكى يكون هناك دليل مادى على الرغبة الصادقة فى الانفاق فى سبيل الله ، وكذلك على المحبة الصافية له ، يجب أن يقصد المنفق الى أجود ما عنده فينفق منه ، وليس الى الأدنى فيما يملك فيعطى منه : فالانسان ليس صاحب الرعاية العامة والتدبير الشامل فى هذا الوجود ، وانما هو الله · والله لا يرضى لعباده : المذلة ، عندما لا يوهبون من نعمة الله ما يغطى حاجاتهم ، ولا يرضى كذلك : أن يصيبهم أذى فى أحاسيسهم ، اذا ما ذكرهم انسان ، هو مساوق وأخ لهم فى الاعتبار البشرى ، بمنته عليهم : « **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه ، الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد** » (٢) ·· فالقصد فى الانفاق الى الطيب مما حصل عليه الانسان بسعيه ، أو أخرجته له الأرض بعمله فيها للانفاق منه ، هو : للتعبير عن المحبة فى الانفاق من المنفق ، وفى الوقت نفسه هو : تعبير عن رضاء المنفق ، وعن طاعته لما طلب اليه من ربه · ثم القصد الى ذلك أيضا : لا يقل وضوحا فى التعبير : عن أن الانفاق لمحتاجين للمال ، ليس طريقا للاذلال لهم ، ولانسانيتهم ، وانما هو : حق لهم يعطونه فى محبة لهم ، وفى حرص على كرامتهم ·

ويستمر كتاب الله هنا ، فيما يذكره متعلقا بالانفاق فى سبيل الله ، فيصرح بأن : الجنوح فى هذا الطريق هو بفعل الشهوة والهوى ، أو بفعل

---

(١) البقرة : ٢٦٦ · (٢) البقرة : ٢٦٧ ·

الشيطان ، كما يعلن : أن الاستقامة فى هذا السبيل ، هى بهداية الله والايمـان برسالته : « **الشيطان يعدكم الفقر** » (أى ان اقدمتم على الانفاق فى سـبيل الله) **ويامركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه** (أى لمن ارتكب خطأ او اثما) **وفضـلا** ، (أى نمـاء فى الرزق ، اذا ما انفقتم) **والله واسع عليم** » (١) ··
وبعد : الحض على البخل وعدم الانفاق فى سبيل المصلحة العامة جزءا من رسالة الشيطان ، لأنه يدعو الى الأنانية ، ويلوح فى تصور الانسان بالفقر ، ان أقدم على الانفاق فى سبيل الله · كما أن من دعوته ايضا : أن يوجه الانسان الى الفحشاء والمنكر ، تحت تأثير هوى النفس وشهوتها · أما : الله جل شأنه فيعد بالمغفرة لمن أخطأ وجنح الى الهوى ، كما يعد بالفضل والزيادة لمن أنفق من ماله فى سبيل الله ، عن محبة ورضاء ·

على أن القرآن ـ وهو يسلك طريق الترغيب فى الانفاق فى سبيل الله ـ لا يقف عند حد توضيح معين ، أو تمثيل خاص · بل قد يسمى : الانفاق فى سبيل الله « قرضـا » من المنفق ، لله جـل شأنه : « **ان المصدقين والمصدقات ، واقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم** » (٢) · وفى هذه التسمية: يشير الى أن المنفق تعلو منزلته بالانفاق ، حتى لكأنه يقرض المولى جل شأنه · وهذه صورة عالية فى الترغيب فى انفاق المال فى سبيل الله · ومع ذلك يعد سبحانه وتعالى هنا : بمضاعفة ما ينفقه المنفق ، بالاضافة الى الأجر الكريم على هذا العمل · وسبحانه صادق الوعد ·

☆ والحديث عن الانفاق فى سبيل الله ليس هو الحديث عن الزكاة ، وان كانت مصارف كل منها متداخلة · فالزكاة فرض وعبادة ، روعى فيها التعميم ، كما روعيت فيها : مقادير خاصة من المال ، جاء بها الحديث الشريف تعطى كل سنة · أما الانفاق فى سبيل الله ، فله دوافعه ومناسباته ، وهو قربى يتقـرب بها المنفق لله سبحانه وتعـالى ، ويخضع لتحديد المنفق ذاته ، ولا يتعين أن يكون فى واحـد ، أو بعض من مصارف الزكاة ، بـل يجـوز أن يكون فيمـا وراءهـا ·

وكل من الزكاة ، والانفاق بعدها فى سبيل الله ، مطلوب لتماسك البنـاء فى الأمة وتقوية الروابط الانسانية فيها · وحددت مصارف الزكاة كأسـاس ضرورى فى هذا التماسك · ثم يجىء الانفاق فى سبيل الله وأوجـه الخير ، لزيادة هذا التماسك وقوته ·

---

(١) البقرة : ٢٦٨ ·　　　(٢) الحديد : ١٨ ·

يجوز أن يوجه الانفاق فى سبيل الله ، على : التعليم ، وبناء المدارس ، وعلى الصحة والوقاية من الامراض ، والعلاج لها واقامة المستشفيات ، وعلى تعبيد الطرق ، واقامة المصانع والمؤسسات لصالح الاقتصاد ، والمساعدة على ايجاد فرص العمل ··· ولكن الزكاة لابد من أن تصرف فى الاوجه التى حددتها آية الزكاة السابقة ، وهى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين ··· » · وهى أوجــه يتقى بها : الحقــد بين أفراد الامة ، وتســد عن طريقهــا : جميع نوافذ الضعف النفسى ، بسبب التفاضل القــائم بينهم فى المعيشــة ، وفى القــدرات والطاقات على السعى فى سبيل المال وتحصيله ·

والزكاة والانفاق فى سبيل الله ، ان وقع بينهما فرق ، فليس فى الهدف الأخير للمجتمع والأمة ·· وانما فى « المواقع » التى تحصن بأى منهما ، أو بكليهما حصون الأمة والمجتمــع · والأهمية لهما من أجــل ذلك ، تكاد تكون متساوية فى تقدير الله جل جلاله بالنسبة لصالح الأمة · والقرآن الكريم اذ يقول : « ··· واقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضا حســنا (أى بالانفــاق وراء الزكاة) ، وما تقــدموا لأنفســكم من خير (عــن طريق هــذا الانفــاق) تجــدوه عنــد الله ، هــو خــيرا ، وأعظم أجــرا » (٢) ·· فيجعل الانفاق فى سبيل الله ، الــذى يعبر هنا عنه بالقــرض الحسن ، فى مستوى الزكاة كعبادة ، وفى مستوى الصلاة كعبادة أخــرى ـ وهما العبادتان الرئيسيتان فى الاسلام ـ مما يدل على : أن القيمة المتوخاة بالنسبة للحيــاة العامة فى الأمة الاسلامية من الانفاق فى سبيل الله ، لا تقل أهمية وتأثيرا ، عن تلك القيمة المرجوة من الزكاة والصلاة معا فى صفاء العلاقات وتماسكها ·

ومن هنا جاء فى وصف المؤمنين ، على أنها حقائق تدخل فى مقومات اتصافهم بالايمان قوله تعالى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعــلى ربهم يتوكلون · الذين يقيمــون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون · أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عنــد ربهم ومغفــرة ورزق كريم » (٣) ·· فيأخذ القــرآن فى تقرير المؤمنين عــلى حقيقتهم : تأثرهم بالله وبكتابه ، وتوكلهم عليــه ، واقامتهم الصــلاة ، وانفاقهم فى سبيل الله مما رزقهم الله وأعطاهم من أموال حصلوها بسعيهم فى هــذه الحياة على الارض · وتكاد هاتان الصفتان : اقامة الصلاة ، والانفــاق فى سبيل الله ، لا تفارق احداهما الأخــرى فى مطلوب القرآن من المؤمنين ، أو فى وصف المؤمنين الصادقين فى ايمانهم ·

---

(١) التــوبة : ٦٠ ·
(٢) المزمل : ٢٠ ·
(٣) الأنفــال : ٢ ـ ٤ ·

★ **ولخطورة اهمال الانفاق من اصحاب الثراء فى سبيل الله فى امتهم، ينذر القرآن الكريم اصحاب الاستطاعة والمقدرة فيها : بالويل فى الآخرة ، اذا لم ينفقوا ، ان فى سر ، أو فى علن ، فى سبيل الله ، كما ينذر من لا يقيمون الصلاة سواء بسواء : « قل لعبادى الذين آمنوا : يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقناهم ، سرا وعلانية ، من قبل ان ياتى يوم لا بيع فيه ولا خلال »** (١) ·· وقد يكون هذا اليوم فى الدنيا ، كما يكون فى الآخرة · يكون فى الدنيا ، اذا ظل الايمان عنوانا للمؤمنين فقط ، من غير أن يستتبعوا فى صفاتهم وتصرفاتهم ، مقومات الايمان الحقه ، التى فى مقدمتها : الصلاة ، والانفاق فى سبيل الله · اذ عندئذ لا يكونون أسياد أنفسهم ، ولا أعزاء على غيرهم ، لأن بناء مجتمعهم آنئذ بناء واه ، ضعيف · فمجتمع لا يحرص على اقامة الصلاة ، لا يتهيب المنكر والفواحش · ومجتمع لا ينفق فيه صاحب المال ، عن رضاء واختيار ، للمصلحة العامة ، مجتمع تشيع فيه الاحقاد وتتوتر فيه النفوس :

« **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم** » (٢) · فاذا جمع المجتمع بين الصنفين : بين عدم اقامة الصلاة ، وعدم الانفاق فى سبيل الله ، فلا يكون الا مجتمع العبيد الاذلاء · وهذه سنة المجتمعات لا تختلف أبدا · وعلى أثر مجتمع العبيد الذليل ، سيقوم حتما المجتمع الابى الكريم ·· مجتمع الاسياد ، والاحرار ، الذين تحرروا من شهوات أنفسهم ، ومن ظلمهم لذواتهم · وما ربك بظلام للعبيد ·

كما قد يكون هذا اليوم فى الآخرة · ونوعية العقاب عندئذ ، وكذلك مدته ، أمر موكول الى الله سبحانه وتعالى : وفيما تصوره سورة « الليل » القصيرة مخ رضاء الله لمن استجاب لوظيفة المال ، وطبق نظرة الاسلام اليه فأنفق من ماله ـ بعد الزكاة ـ فى المصالح العامة للأمة ، وفيما تصوره أيضا : من غضب الله على من لم يستجب لها ، فأمسك واستغنى بما جمع عن رضاء الله ورضوانه ·· هذا ، وذاك : يوحى للأثرياء المؤمنين طوال حياتهم وطالما يذكرون الله : بأن ذممهم مشغولة بدين المنفعة العامة ، وهو دين الله ، ولا تفرغ اطلاقا الا بالأداء ، والأداء غير القليل · نقرأ قول الله تعالى :

« **والليل اذا يغشى · والنهار اذا تجلى · وما خلق الذكر والأنثى** » (٣) · فيقسم سبحانه وتعالى بهذه الحقائق الواضحة الثلاث : والليل فى ظلمته ، والنهار فى وضوحه ، وخلق الانسان فى تنوعه بين ذكر وأنثى ، وهى حقائق

---

(١) ابراهيم : ٣١ ·
(٢) آل عمران : ١٨٠ ·
(٣) الليل : ١ ـ ٣ ·

لا ينكر وجودها الا من ينكر الشمس ، وهى تكاد تحرقه فى ظهيرة يـوم من أيام الصيف الحارة وهو فى صحراء لا نبت فيها ولا ماء ولا غيوم تظللها ٠ ويقسم بها ليؤكد : أن الحقائق التالية التى سيخبر بها فى هذه السورة ، هى : فى واقعيتها تشـبه تلك الحقـائق الثـلاث فى وجودها البديهى ٠ والحقائق التـالية هى :

« ان سعيكم لشتى (أى متنوع) :

فاما من أعطى واتقى ٠ وصدق بالحسنى ٠ فسنيسره لليسرى ٠

وأما مـن بخـل واسـتغنى ٠ وكـذب بالحسنى ٠ فسنيسره للعسرى ٠ وما يغنى عنه ماله اذا تردى ٠

ان علينا للهـدى ٠ وان لنا للآخـرة والأولى ٠ فأنذرتكم نارا تلظى ٠ لا يصلاها الا الأشقى : الذى كذب وتولى ،

وسيجنبها الأتقى ٠ الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمـة تجزى ٠ الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ٠ ولسوف يرضى » (١) ٠ هذه الحقائق التى يؤكد القرآن بديهيتها فيما يتصل بالمال هنا ، هى ثلاث حقائق :

الحقيقة الأولى : أن سعى الناس فى هذه الحياة مختلف ، وليس متجانسا فيما يتصل بالتوجيه والسلوك ، وسيظل مختلفا وغير متجانس ٠

الحقيقة الثانية : أن هناك فريقا من الناس ، يعطى ماله وينفقـه فى سبيل الله ، ثم هـو يتقى الله ، ويخشـاه ، بعـد أن آمن بأن : الحسنى فى المعـاملة والسلوك ، هى خير السبل للانسان ، وفى مقدمة الحسنى فى المعاملة : الانفاق فى سبيل المنفعة العامة ، فهذا طريقه فى الحياة ، وفى الآخرة سهل وميسور ٠

الحقيقة الثالثة : أن هناك فريقا آخر من الناس يبخل بماله على الآخرين ، وربما على نفسه كذلك ، ويتصور : أن فيما جمعه من مال ، غنى به عن الناس وعن الله أيضا ، ومن أجل ذلك : لا يؤمن بالحسنى فى المعاملة ، وفى التصرف ، فهذا سبيله فى دنياه ، وفى آخرته سبيل معقد ، ينطـوى على مشاق وصعوبات عديدة ، ولا ينفعـه ماله يوم يصاب بالأذى والضرر من الآخرين فى حيـاته الدنيوية ، أو يوم يبعث فى الآخرة وينال جزاءه من الله سبحانه فى نار تلظى ، لا يصلاها الا الأشقى الذى كذب بالحق وتولى عن العمل بمقتضـاه ٠ أما ذلك صاحب السبيل الميسور فيتجنب هذه النـار ، بتقواه ، وبما أعطـاه من مال للآخرين ، يطهر به المال ، كما يطهر به نفسه ، ولا يبتغى جزاء ولا شـكورا من أحد ، سوى وجه ربه الأعلى ٠

---

(١) الليل : ٤ ـ ٢١ ٠

★ ان تحقيق المنفعة العامة من المال الخاص هو أداء واجب دينى ، قبل أن يكون واجبا اجتماعيا • أى ان أداءه طاعة الله سبحانه وتعالى ، قبل أن يحقق مصلحة اجتماعية فى تماسك الأمة • وفى الطاعة لله تكمن هذه المصلحة الاجتماعية التى يريدها للمؤمنين برسالته ، ويحول تحققها دون الطغيان بالمال ، أو دون الانحراف عن طريقه ، كما يحول دون تفشى عوامل الهدم ، وهى عوامل الحقد والثأر •• هو فريضة دينية كفريضة الزكاة ، وان لم يأخذ منزلة الزكاة فى التصريح بفرضيتها ، وعدها من فروض العبادة المتكررة •

واعتبار تحقيق المنفعة العامة للمال الخاص فريضة واجبة الاداء يدفع الى أدائها ايمان المؤمن ـ يجعل للدلالة الاسلامية التى تلتزم بكتاب الله والحكم بما فيه ، حق التدابير فى جبايتها ممن لا يقوم بأدائها بنفسه ، ووفق ارادته الحرة التى انبثقت عن الايمان بالله •

وحبس الأموال الخاصة على المنافع العامة (وهى : الأوقاف) فى تاريخ الأمة الاسلامية يعطى مثلا رائعا على الايثار وعلى الطاعة لما يطلبه القرآن الكريم ـ فى صور عديدة من الترغيب أو التخويف ـ بشأن تحقيق المنفعة العامة من رؤوس الاموال الخاصة • وربما نصيب « الحبس » فى الأموال الخاصة على المنفعة العامة لا يقل عن ربع هذه الأموال فى جملتها فى أى مجتمع اسلامى • ولكن تعرض المجتمعات الاسلامية للاستعمار الغربى ـ ثم فيما بعد تعرضها للحكم الوطنى بعد الاستقلال السياسى ، وهو حكم فى جملته غير اسلامى فى اتجاهه ـ ذهب بكثير من هذه الاموال ، وكذلك بالمصادر التى كان يمكن منها الاستدلال على نسبتها الحقيقية فى جملة الاملاك الخاصة • والاوقاف ، أو الحبوس على « الخيرات العامة » أو على « البر العام » تعطى دليلا واقعيا على :

١ ـ أن الملكية الخاصة للمال لم تمنع تحقق المنفعة العامة فى تاريخ الامة الاسلامية •

٢ ـ وأن تحقيق هذه المنفعة العامة للملكية الخاصة لم يكن بفعل الزام خارجى ، كقانون أو سلطة تنفيذية ، وانما كان بفعل الارادة « الحرة » التى خلقها وحافظ عليها الايمان بالله ، وطاعة الله فيما أمر به ، أو نهى عنه •

٣ ـ وانه يمكن أن تتحقق هذه المنفعة العامة فى نطاق الملكية الخاصة للمال ـ حسب نظرة القرآن الى المال ـ مرة اخرى ، ان اخذ بالتوجيه الاسلامى فى نظام حكم اسلامى لأمة اسلامية •

ان سخرية المستعمر الغربى لأى مجتمع اسلامى بـ « الأوقاف والحبوس الاسلامية » كانت سخرية فى حقيقتها من « الوجود الاسلامى » على أرض هذه المجتمعات · والاستقلال السياسى عن طريق هذا المستعمر لأى مجتمع اسلامى لم يجد على أرض هذا المجتمع استقلالا ذاتيا فى التفكير والتوجيه لدى المسلمين يحمل على اعـادة النظر فى القيم والمؤسسات الاسلامية ، ومن أجـل ذلك استمرت « السخرية » بالاوقاف والحبوس الاسـلامية وعدته نظاما لا يتفق مع « روح العصر » فى قيام المجتمعات ونظمها ، حتى ألغيت أو صفيت تمـاما فى هذه المجتمعات الاسلامية القائمة ·

★ ان ضمان تحقيق المنفعة العامة للمال الخاص ـ وكذلك ضـمان عدم الانحراف فى استثماره أو فى السعى الى تحصيله ـ هو اذن : فى الايمان بالله وحده · وعند ضعف الايمان بالله يكون بالزام القانون والسلطة الادارية · ولكن الأداء للمنفعة العامة للمال الخاص عندئذ هو أداء اكراه · وآنئذ فان ضعف الحقد فى طرف ، وهو طرف أصحاب الحاجة والمستفيدين من المنفعـة العامة للمال ، يقابله : نشأة الحقـد ـ وربما فى قـوة ـ فى الطرف الآخر ، وهو الطرف المكره على الأداء من أصحاب الأموال الخاصة · ولأن نظام الحكم فى الاسلام هو ـ أسـاسا ـ نظـام أخلاقى ، قبـل أن يكون نظـاما قضائيا واداريا ، أى هو نظـام يعتمد على الضمير الخلقى وذاتيـة الفرد فى السلوك والأداء لما يطلب منه ··· فان الالزام الخارجى عن الذات بأداء المنفعة العامة من المال ، يدل على ضعف « الوجود الاسلامى » فى المجتمع الذى يلجـأ الى القانون ، والسلطة الادارية فى تحقيق الأداء ·

ولكى يرد هذا « الوجود الاسلامى » فى قوة تدفع على السلوك والتصرف ، الى المجتمع الاسـلامى مـرة أخـرى ·· تجب العناية من جديد بالايمان بالله كأصـل للتوجيه والقيـادة فى المجتمـع ، ولا يكتفى بالوقوف عند حد الزام القانون خـارج « الذات » والسلطة التنفيذية التى تحمـل كرها وجبرا عـلى الأداء · والا ـ على ممر الزمن ـ يصـبح الامـر الى « العلمانية » أو الى « تلاشى » الوجود الاسـلامى كلية فى المجتمع · كما يصبح الانسـان ضعيف الصلة بربه ، ولا تصور عبادته فى حياته أثرا يعرف : أنه للايمان بالاسلام ·

والعلمانية : هى : شر ما ابتلى به المجتمع الاسلامى على عهد الاستعمار للأمة الاسلامية ، وهى ذاتها التى تمهد لقبـول الالحاد فى الايديولوجيات التى تفرض نظاما معينا من الحكم يضطهد فيه الانسان من الانسان ، ويظلم فيـه الانسان من الانسان ، وتعيد الوثنية والشرك ، فى شر الصـور التى عرفت حتى الآن ·

★ ★ ★

الفصل الرابع

منع الانحراف في استغلال المال

يكاد يكون الاغراء بالمال ، والافتتان به ، والانحراف فى سبيله وعن طريقة الأمارات الدالة على ما للمال من تاثير قـوى ، اكثر من غيره ، عـلى نفس الانسان ، اذا تركت وشانها : من غير توجيه انسانى سليم ، أو وجهت توجيها يحملها على اشباع غرائزها وشهواتها ، ومن بينها غريزة : الاقتنـاء ، وشهوة الثراء · ومن هنا كان اقرار القرآن الكريم لهـذه الحقيقة الواضحة للمال ، وفى الوقت نفسه كان توجيهه نحـوه : ليس بعـدم تحصيله والسعى فى كسبه ، وانما بعد الحصول عليه ، بانفاقه فى أوجه الخير العـديدة ؛ كلما تجمع وتحصل : « انما اموالكم واولادكم فتنة ، والله عنده اجر عظيم · فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، وأطيعـوا ، وانفقـوا خيرا لانفسكم ، ومن يوق شح نفسه فاولئـك هم المفلحون » (١) ·· فيسـلم القرآن هنا : بفتنـة المـال واغرائه ، وينطوى توجيهه على خطر هذه الفتنة ، وعلى قوتهـا فى الوقت نفسه على نفس الانسان ، لأن التوجيه يقوم :

١ ـ على طلب التقوى لله حسب الاستطاعة : وتقوى الله هى : فى اتبـاع أوامـره ، وتجنب نواهيه ، سـواء فى مجـال المال ، أو فى مجالات أخرى غيره ·

٢ ـ وعلى طلب السمع والطاعة لتلك الأرامر ، والنواهى · وطلب السـمع والطاعة ـ بعد طلب تقوى الله ـ هو توكيد فى الواقع ، لوجـوب التبعية لوصايا الله فى كتابه الكريم ،

٣ ـ وعلى طلب الانفاق للمال فى أوجه الخير ، حتى لا يزيد تكدسه وجمعه فى تاثير فتنته واغرائه ،

٤ ـ واخيرا على ربط الفلاح والنجاح ـ ان فى هذه الدنيا ، أو فيما بعدها ـ باتقاء : شح النفس وبخلها تحت تاثير اغراء المال ، وذلك يستوجب : انفاق الزائد منه فى سبيل الخير العام ·

---

(١) التغابن : ١٥ ، ١٦ ·

ولم يكن للقرآن اطلاقا : أن يطلب فى معالجة فتنة المال ، واغرائه ٠٠ التوقف عن السعى فى سبيله وتحصيله ، لأن ذلك سيكون بمثابة لطلب التوقف فى معايش الناس وتحصيل أرزاقهم ٠ فنتيجة التوقف عن السعى فى سبيل المال ، هى : « الكساد » المؤكد فى حركة المال وتداوله : فى التجارة والمعاملات بين الناس ، وكذلك قطع مصدر الانفاق على من لا يستطيع السعى بنفسه ، لصغر فى السن ، أو عجز عن العمل بسبب ، او بآخر ٠٠ لم يكن للقرآن اطلاقا : أن يطلب التوقف عن السعى فى سبيل المال ــ كعلاج لاتقاء فتنته ــ لأن الذى يستطيع من الناس السعى وتحصيل المال هو البعض منهم فى المجتمع ، وهم أولئكم الذين لهم طاقات معينة ، وقدرات خاصة فى هذا المجال ٠ ومعنى التوقف عن السعى فى سبيل تحصيل المال حينئذ ، هو : التوقف عن عمارة الأرض ، وعن بحث ما فيها من ارزاق ، تدل على وجود الله وتدبيره وقدرته ، كما تمكن الانسان من المعيشة عليها ٠

ثم من جانب آخر : ان سلك القرآن هذا الاتجاه ــ وهو طلب التوقف فى السعى من أجل المال ــ كأنه يسلك طريق محاولة : نزع الغريزة فى الانسان وهى غريزة حب الاقتناء ، ويؤثر استئصالها ، بدلا من توجيهها ٠ وذلك ليس شأن الكتاب الذى أنزل هدى للناس ٠ اذ معنى هداية الكتاب للناس : ابقاؤه على خصائص الطبيعة البشرية فى الانسان ، والاعتراف بوجود هذه الخصائص ، مع توجيهها من طريق ٠٠٠ الى آخر ، يمثل الاستقامة : فى السير والسلوك ٠

والافتتان بالمال ــ وهو هنا يتمثل فى : جمعه وتحصيله ، وعدم انفاق الزائد منه عن الحاجة ، فى أوجه الخير ــ يؤدى الى الاساءة الى النفس التى تجمع أو الغير وهى الأخرى التى تحتاج اليه ، أو اليهما معا ٠

★ فقد تكون ظاهرة الاساءة ، هى : استغلال السلطة السياسية ، والادارية، والتشريعية ، فى نظام الحكم فى المجتمع ، لتحقيق أرباح غير مشروعة عن طريق التأثير بالمال فى شكل من الأشكال : ان فى شكل هدايا عينية ، أو فى شكل نسب معينة من الأرباح التى تحقق ، أو فى شكل رواتب تعطى فى أوقات معينة ، أو فى شكل دفع الى وظائف أعلى وسلطة أكثر ، فى جهاز الحكم ٠٠ أو فى غير ذلك ، من : الصور التى تحددها الظروف الخاصة ٠

وتتحقق الأرباح غير المشروعة اما : بتوجيه سياسى معين ، أو بتقنين خاص ، أو باتفاقات يجيزها القانون فى الظاهر ، أو بتعجيل التنفيذ فى أمر من الأمور ، كانت تتطلب المصلحة العامة التريث فى اقراره وتنفيذه ٠

ونظـام الحكم الرأسمالى يتركز عدم وفائه بالمصلحة العامة ـ فيمـا يؤخـذ عليـه ـ فى : استخدام المـال ، كقوة مؤثرة ، فى توجيه السلطـة : السياسية ، أو التشريعية ، أو الادارية ، فى أجهزة الدولة نحو اتجاه معين ، يتيح الفرصة للربح غير المشروع ، لرأس المال الخاص ، على حساب المصلحة العامة للأفراد ، أو على حساب المصالح العليا للدولة • وفى واقع الأمر هو : يتيح الفرصة لاستغلال فريق من الناس ، لفريق آخر منهم فى الأمة والمجتمع • فرأس المال الخاص الذى يربح ربحا غير مشروع يمثل مصلحة نفر من الناس• والمصلحة العامة التى تضررت بهذا الربح غيـر المشروع ، هى : مصـلحة من عدا ذلك النفر من الناس ، الذى استغل بقوة تأثير المال ، ربحا غير مشروع• والقرآن الكريم يصور هذا الاسـتغلال غير المشروع ، عن طريق المـال أدق تصوير ، فيما تذكره الآية الكريمة : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم ، وانتم تعلمون** » (١) •• فتجعل قبول الربح غير المشروع ـ عن طريق ما يعطى لأصحاب السلطة والنفوذ فى الحكم ، من : رشاوى فى صور عديدة ـ أكلا لأموال النـاس فى معصية واثم • وتجسم شناعة هذا الآكل الآثم ، بأنه : عن تخطيط ، وعلم مسبق •• أى بأنه قد دبر له ونفذ ، لا فى غفلة أو نسيان ، وانما فى يقظة ، وفى علم ، سواء : فى عدم مشروعيته وعدم حله ، أو فى خطوات تنفيذه • فهو جريمـة مقصودة ومعروف آثارها :

أما بالنسبة لمرتكبيها ، فقد أساءوا الى انفسهم بالمعصية • وأما بالنسبة لمن عداهم ، فالحاق الضرر بمن تضرروا بهذه الجريمة ـ وهم الفريق الآخر من الناس ـ أنه قد وصلتهم الاساءة فيما يمس أموالهم ومعايشهم • والحكام الذين مكنوا لفريق من الناس : أن يأكل أموال فريق آخر منهم بالاثم والباطل ـ عن طريق قبول الرشوة فى صورة ما ـ فهؤلاء : باشروا الظلم من مكان اقامة العدل ، ومكنوا للعدوان على فريق من الناس ، من مكان الولاية العامة التى هى لصالح الناس جميعا •

ومن أن هـذا العيب ـ وهـو تأثير المـال على السلطات الادارية ، والتشريعية ، والتنفيذية ، فى ربح غير مشروع ـ يلازم تقريبـا نظام الحـكم الرأسمالى •• فليس عـلاجه بسحب الأموال من أيدى أصحابهـا ، وجعلهم أجراء ، كما يقضى النظام الماركسى ، وانما العـلاج هو : تكوين الخشية من الله ، والحمل الاختيارى على الانفاق فى أوجه الخير ، فيمـا زاد عن حاجة المالك ، كما يرى القرآن الكريم • والخشية من الله تستلزم طبعا تجنب الاساءة بسبب المال ، فى أية صورة من صور الاساءة •

---

(١) البقرة : ١٨٨ •

★ وقد تكون الاساءة بسبب المال بمباشرة جرائم اجتماعية فى المعاملات والمبادلات التجارية والمالية لكسب المال · قد يكون : الغش ، والخداع ، وقد يكون الاحتكار ، وقد يكون الربا : طرق هذه الاساءة لكسب المال · فكل ما يسىء الى هدف المال ومنفعته العامة فهو جريمة ــ ترتكب ضد المجتمع نفسه · وكلها جرائم يحرمها القرآن الكريم : اما فى صورة نهى عام عنها ، كما تذكر الآية : « **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، الا أن تكون تجارة عن تراض منكم** » (١) ·· فالآية فى عموم النهى فيها عن أكل أموال الناس بالباطل ، تحرم : الغش ، والخداع ، والاحتكار ، والربا ، كما تحرم الغصب ، والسرقة · اذ كل واحد من هذه ينطوى على أكل أموال الناس بالباطل · واستثنت الآية من وقوع أموال الغير فى يد من لا يملكها ، التجارة القائمة على رضى الطرفين ، رضاء لا شبهة فيه لاكراه · فالمبادلات التى تنطوى على الغش ، أو الاحتكار ، أو الربا ، وان كانت فى صورها مبادلات تجارية ، ولكن الاكراه عنصر أساسى فيها ، فقبول الطرف الآخر للغش ، أو للزيادة الناشئة عن الاحتكار ، أو للربا : هو قبول مكره ، وليس قبول رضا على الاطلاق · أما الغصب ، والسرقة ، وغيرها ، فعنصر فقد الرضا ممن سرق ماله ، أو اغتصب ، واضح ·· أو يحرم تلك الجرائم فى صورة نهى خاص : اذ هناك آيات أخرى ، تدل بخصوصها على تحريم تطفيف الكيل والوزن ــ وهو صورة من صور الغش فى التجارة ، كما تذكر الآية : « **ويل للمطففين · الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون · واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** » (٢) · وكما تطلب آية أخرى ، الوفاء فى الكيل ، والوزن ، فى قوله تعالى : « **وأوفوا الكيل اذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا** » (٣) ·

وهناك تحريم الربا ــ وهو نوع من الاحتكار ــ على نحو ما جاء فى قول الله تعالى : « **الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى ، فله ما سلف ، وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون · يمحق الله الربا ، ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم** » (٤) · فهاتان الآيتان تدلان على تحريم الربا مرتين : صراحة فى قوله : « **وأحل الله البيع وحرم الربا** » · ثم بالاضافة الى هذه الصورة ، وتلك : تصوير المرابى فى وجوده فى المجتمع ، وهو وجود

---

(١) النساء : ٢٩ ·
(٢) المطففين : ١ ــ ٣ ·
(٣) الاسراء : ٣٥ ·
(٤) البقرة : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ·

المهزوز غير الثابت فى حركته ، وتفكيره ، وتصويره : « **الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** » • لأنه يعيش فى خوف على ماله وعلى نفسه ، ويضرب فى تصوره : فيما يجب أن يرسمه طريقا للأمان ، على : المال والنفس • ولذا لا يرى للمرابى استقرار فى شىء ما • وبما أن عامل عدم استقراره هو : عامل داخلى ، فكان مصدر اهتزازه ، وسبب عدم استقرار من : « الشيطان » الذى يحدث الأثر ، وأن يرى ويشاهد• وتجسيم تحريم « الربا » على هذا النحو ، لا لأنه ينطوى فقط على انحراف فى استغلال المال من جانب المرابى • وانما ، لأنه قبل ذلك : ينكر على صاحب الحاجة الذى قبل الربا ، حقه فى « « الانتفاع العام » للمال ، ذلك الانتفاع الذى هو وظيفته فى نظر الاسلام ، وان كانت ملكيته ملكية خاصة • ثم من جانب ثالث : ليس فى الربا : عمل للمرابى ، يمكن أن يقوم بأجر عليه ، أو بفائدة وربح له ، كالتجارة مثلا •

★ وقد تكون الاساءة عن طريق استغلال الضعيف ، كاليتيم فى ماله ، والأجير فى عمله ، فاليتيم ضعيف فى عدم استطاعته المحافظة على ماله ، أو فى تنميته تنمية تقيه المخاطر والأضرار • والأجير ضعيف فى عدم استطاعته الاستقلال : فى عمله ، وتقديره لقيمة هذا العمل ، التى لا تبخسه • وقد عنى القرآن بصفة خاصة بالمحافظة على مال اليتيم ، فتقول الآية الكريمة : « **ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** »(١) • وتقول الآية الأخرى : « **وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ، انه كان حوبا كبيرا** » (٢) • فتنهى الآيتان عن اقتطاع أموال اليتيم ، وضم ما يقتطع الى مال الوصى عليه ، وتعبر عن ذلك بالأكل ، للاشارة الى : انه أخذ فى غير مقابل اطلاقا ، كما تصفه : بأنه فى واقع أمره أكل نار فى البطون ، وتتوعد الآكل ـ زيادة عما فى الدنيا ـ بأنه سيلحقه فى الآخرة حتما عذاب شديد • كما تنهى الآيةالثانية عن استبدال الردىء من مال الوصى بالطيب من مال اليتيم ، وتصف مثل هذا الاستبدال ـ كالاقتطاع من ماله ـ بأنه يمثل ظلما كبيرا • لأن الاقتطاع ، كالاستبدال على هذه الصورة ، يصور عندئذ ، انحرافا واضحا فى مال اليتيم لضعفه ، رغبة فى الكسب وجمع المال لصالح الوصى ، من طريق لا يكلفه سوى الاستيلاء عليه • ثم يضع القرآن جملة من الوصايا فى تنمية مال اليتيم ، وفى تسليمه اياه عندما يشتد أمره ويستطيع المباشرة فيه بنفسه :

الوصية الأولى : أن مباشرة مال اليتيم وتنميته ، تكون على خير الوجوه

---

(١) النساء : ١٠ •   (٢) النساء : ٢ •

التى تدفع الضرر عنه : « **ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده** » (١) ٠

الوصية الثانية : أنه قبل تسليم مال اليتيم اليه ، يجب اختبار صلاحيته نفسه لمباشرة ماله : « **وابتلوا اليتامى ، حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم** » (٢) ٠ وعندما تدفع الأموال اليهم يجب أن يوثق ذلك عن طريق الشهود : « **فاذا دفعتم اليهم امــوالهم ، فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا** » (٢) ٠

الوصية الثالثة : أن الأجر على مباشرة الوصى لمال اليتيم ، بالطريق الأحسن والآمن فى الاستثمار ، غير ممنوع ، ولكن فى الحدود المعروفة فى المجتمع ٠ فان كان الوصى غنيا فأولى له : أن لا يأخذ أجرا على المباشرة : « **ومــن كان غنيا فليستعفف ، ومــن كان فقيــرا فليــأكل بالمعروف** » (٢) ٠ والتفصيل فى رسم طريق العناية والمحافظة على مال اليتيم فى القرآن الكريم ، لأنه المال الأيسر فى الاساءة ، وكذلك فى الكسب منه ، وفى الوقت نفسه ، لأنه : المال الذى تبدو عدم المشروعية فى الاساءة اليه بدوا واضحا ٠ وكذلك كله بسبب ضعف اليتيم الذى لا يستطيع أن يقاوم الجريمة التى ترتكب فى ماله ، والتى ربما ترتكب فى بطء ، وفى غير علانية ، مما يسهل التستر عليها ٠

والعامل الأجير لا يقل فى مستوى ضعفه ، وفى يسر المحاولة للاســاءة الى عمله ، وتقييم هذا العمل بسبب المال ، عن اليتيم ٠ لأنه : ان ملك مباشرة العمل واتقانه ، فهو لا يملك أخذ العمل ممن يؤجر عليه ٠ ومن هنا : هو فى حاجة الى من لا يأكل أجره بالباطل ، ولا يضم ما يأكله من هذا الأجر ، الى ماله الخاص ٠ وهو فى حاجة أيضا : الى من يقيم عمله ، فلا يبخسه وزنه ، على غرار تنمية مال اليتيم بالتى هى أحسن ٠ والوضع الذى هو معــروف للعامل فى أوروبا فى القرون الوسطى ، وفى القرن الثامن عشر ــ على عهد الثورة الصناعية ــ يكاد يشبه وضع الرقيق فى الجزيرة العربية ، وفى دولتى الفرس والرومان ، على بداية عهد الدعوة الاسلامية ٠ والقرآن تكفل بتدابير عديدة لتحرير « الرقيق » ورد الاعتبار الانسانى اليه ، حتى يصبح عضــوا كاملا فى مجتمع انسانى ، حر كريم ، بينما الحديث الشريف ، الذى يقول : « اخوانكم خولكم : أطعموهم مما تطعمون أنفسكم ، والبسوهم مما تلبسون ، وان كلفتموهم بأمر لا يستطيعونه ، فأعينوهم عليه » ٠٠ بينما هذا الحديث يوضح تماما مبدأ « المساواة » بين صاحب العمل ومن يقوم به ، فى المعيشة

---

(١) الاسراء : ٣٤ ٠ (٢) النساء : ٦ ٠

والرعاية ، بعد تقرير هذه الحقيقة الانسانية ، وهى : أن من يقومون بالعمل ، هم اخوان فى الانسانية ، وفى اعتبارها ، لأولئكم الآخرين الذين يؤدون لهم هذا العمل ، ويؤجرونهم عليه •

وسعى القرآن لتحـرير الرقيق بالسبل العديدة ، وكـذا أمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالمساواة فى المعيشة والرعاية ، واقراره بالاخوة فى الانسانية والايمان ، لمن يقومون بالعمل •• هـذا ، وذاك : لا يدع مكانا لمشكلة « الطبقية » ولا يدفع بالتالى الى صراع طبقى دموى ، للحصول على حق المساواة فى : العيش ، والحياة الانسانية ، بين أصحاب العمل ، والعمال المأجورين عندهم •

واذا عنى القرآن صراحة ، وتاكيدا ، بمال اليتيم لضعفه ، فان عنـايته ، بالعامل فى أجره وتقييم عمله بما لا يدع شبهة ضرر وأذى له ، محمولة عـلى اليتيم وتنمية ماله ، للسبب المشترك بينهما ، وهو ضعف كل منهما •

★ وقد تكون الاساءة عن طريق استغلال المرأة فى كسب المال وجمعه •
وصور استغلال المرأة بسبب المال عديدة ، وتتكرر جميعها أو بعضها ، كلمـا غلب الاتجاه المادى فى حياة الانسان ، ولم يدع مكان فيها لاعتبار انسانى أو معنى انسانى كريم فى أى وقت ، وفى أى عهد وزمن •

وفوق أن القرآن الكريم ينهى عن عدة صور من هـذا الاستغلال ، فانه حدد للمرأة من الحقوق الخاصة ـ فى مواجهة علاقتها بالرجل ـ ما يضمن لها استقلالها ، ويحفظ عليها مشيئتها فى التصرف • فينهى القرآن عن دفع المرأة الى البغاء والاتجار بعرضها ، لمصلحة المكره لها على البغاء : « **ولا تكرهوا فتياتكم** (بسبب ولايتكم عليهن) **على البغاء ، ان أردن تحصنا** (أى ان أردن المحافظة على عفتهن) **لتبتغوا عرض الحياة الدنيا** » (١) • وينهى عن امسـاك الزوجة قبيل انتهاء عدتها ، بمراجعتها ، ليحملها الزوج على مال تعطيه اياه : « **واذا طلقتم النسـاء فبلغن أجلهن : فامسكوهن بمعـروف ، أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا** (أى عليهن بالامسـاك) » (٢) • فالزوج اذ يكرر ارجاع زوجته فى طلاق رجعى قرب انتهاء عدتها ، كثيرا ما يقصد حملها على : « الخلع فتفتدى بمال المهر الذى أخذته منه • فاذا افتدت به ، انتهى أمرها معه • وفى ذلك تقول الآية الكريمة :

« **ولا يحل لكم : أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ، الا أن يخافا الا يقيما**

---

(١) النور : ٣٣ •   (٢) البقرة : ٢٣١ •

حدود الله ، فان خفتم الا يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما (فى الاعطاء من جانب الزوجة والقبول من جانب الزوج) **فيما افتدت به** » (١) · والحل فى قبول الزوج للمهرُ ثانية ، حين تفدى به المرأة نفسها فيما يسمى بالخلع ، لا يعفى هذا الزوج من اثم العدوان والضرر الذى يلحقه بزوجته فى اعادتها الى عصمته ، كلما قاربت على الانتهاء من عدتها ، ان قصد بهذا الامساك وبمراجعتها : حملها على الخلع ·

واذ يؤكد القرآن مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق والواجبات ، فيقول : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » (٢) ··· فانه يضيف الى الرجل من الواجبات ازاء المرأة : ما يحفظ عليها كرامتها ، ويحول دون نزولها عن مستوى الانسان ، الذى يتودد اليه ويسعى اليه ، عندما يختتم الآية الأخيرة بقوله : « **وللرجال عليهن درجة** » (٢) · أى وللرجالَ منزلة أخرى فوق المماثلة فى الحقوق والواجبات ، وهى منزلة التهذيب فى معاملة مطلقته ، وان كلفته مال ، ووراء ما يجب عليه · وذلك أمر يحمل الرجل حملا بعيدا على أن يكون غير مستغل لها · ويشرح هذه المنزلة ، طلب القرآن من الزوج : أن يتنازل عن نصف المهر الذى يستحقه لدى زوجته ، عندما يطلقها قبل الدخول بها ، فيما يقوله : « **وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ، الا أن يعفون أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، ان الله بما تعملون بصير** ·· » (٣) · فجعل عفو الزوج وتنازله عن حقه أقرب للتقوى · ثم يذكر : بأنه لا ينبغى : أن يهمل مبدأ « الفضل » والحسنى فى المعاملة بين المؤمنين · وفى حال ما يتعلق الأمر بصلة الزوج بزوجته ــ وان كانت زوجة سابقة ــ فمباشرة مبدأ « الفضل » والحسنى فى المعاملة ، ينبغى أن يبادر بها الزوج من جانبه ، تكريما لزوجته وتوفيرا لها من الاعتبار ما يجعلها غير سائلة ·

وبالرغم عن نهى الاسلام عن دفع المرأة لتكون وسيلة لكسب المال ، والاساءة بذلك الى انسانيتها ، فالاسلام ذاته جعل للزوجة من الاستقلال : فىَ أموالها ، والتصرف فيها ــ دون حاجة الى مشاركة الزوج لها فى توجيه هذه الأموال ــ ما يمكنها من الوقوف بعيدا عن الاساءة اليها فيما تملك · فهى حرة : تتخير السبيل أو الشخص الذى ترضاه لمباشرة تنمية مالها · وهى حرة أيضا : فى تحديد أوجه الانفاق التى تنفق فيها مما تملك ·

---

(١) البقرة : ٢٢٩ ·　　(٢) البقرة : ٢٢٨ ·
(٣) البقرة : ٢٣٧ ·

ومن أجل ابعاد شبهة الاساءة من أجل المال الى المرأة لا يرضى الاسلام عن أن يكون جانب المال هو : الدافع للرجل على خطبة المرأة ، ثم بالتالى على زواجها · ووضع عاملا ذاتيا للخطبة والزواج ، هو : عامل التدين ، والخلق الكريم ، سواء فى قبول المرأة من الرجل أو قبول الرجل من المرأة ·

★ وقد تكون الاساءة عن طريق استخدام المال للتحريض على الالحاد ، والصد عن سبيل الله · ولخطورة هذه الاساءة بالنسبة الى الدعوة الى الحق ، ثم الى المال ذاته ، يعبر القرآن عن الذين يسلكون هذا الطريق بـ « **الذين كفروا** » مع أنهم من المؤمنين فيقول :

« ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ،

فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ،

والذين كفروا الى جهنم يحشرون » (١) ··

ويعبر عنهم بذلك ، لأنه : لا يسلك طريق الصد عن سبيل الله ، ولا يحاول نشر الالحاد الا كافر فى حقيقة أمره · ووصفهم بالكفر ، مع أنهم أعلنوا ايمانهم ، ليكون عقابا لهم ، نظرا لخطورة مسلكهم تجاه الدعوة الى الحق ·

أما بالنسبة لخطورة هذا المسلك للمال نفسه ، فقد طلبت آية أخرى نزع المال من أيديهم وعدم رده اليهم ، والاكتفاء بالانفاق عليهم فى معايشهم ، بعد أن دمغهم بالسفهاء ، عندما تقول هذه الآية : « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها ، واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا** » (٢) ·· فوصفوا بالنسبة للدعوة الى الحق : بالكافرين ، بينما نعتوا بالنسبة للتصرف السىء فى المال : بالسفهاء · والسفهاء كافرون كذلك فى حقيقة أمرهم : « **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها** » (٣) · « **واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا : انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** » (٤) · « **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم** » (٥) · ويتميز السفيه فى كفره ، بأنه يبيت السوء لدعوة الحق وللمؤمنين بها · فكفره ليس كفرا عاديا ، وانما هو كفر قائم على

---

(١) الأنفال : ٣٦ ·
(٢) النساء : ٥ ·
(٣) البقرة : ١٤٢ ·
(٤) البقرة : ١٣ ·
(٥) الأنعام : ١٤٠ ·

تحد ، وينطوى على اساءة ـ نية أو فعـلا ـ للمؤمنين ، اما بالتعـاون مع أعدائهم ، أو بالعمل مستقلا لحسابهم ، وضد المؤمنين ٠

ولا ريب : أن من يستخدم المال للصد عن سبيل الله ، ونشر الالحاد ، هو متحد ، وينطوى تحديه على الاساءة البغيضة للايمان ، والمؤمنين معا ٠

واذا كانت الآية الثانية عالجت تحدى هؤلاء السفهاء ٠ بطلب نزع المال من أيديهم ، وعدم رده اليهم ، كى لا يستمروا فى تحديهم ، لأنه مال المسلمين جميعا ومنفعته يجب أن تكون لخيرهم ، وخير دعوتهم ٠٠ فالآية الأولى قبلها تؤكد : أن انفاقهم الأموال للصد عن سبيل الله ، لن يلقى نجاحا ، ثم فى النهاية يكون وبالا عليهم فى دنياهم ٠ أما فى آخرتهم فليس لهم مأوى سوى جهنم يستقرون فيها ٠

وتحدى الدعوة الى الحق قد يكون بدعوة أخرى تقوم على أنقاضها ٠ والصد عن سبيل الله قد يكون بالوقوف فى وجه المبادىء والقيم الاسلامية ، والنيل منها والسخرية بها أو من حاملها ، من آن لآخر ٠ فهؤلاء الذين يتحدون دعوة الحق على هذا النحو ، أو يصدون عن سبيل الله بمثل الطريق السابق ، هم كافرون وسفهاء ، مهما أعلنوا من صور اسلامهم والصقوا بانفسهم مظاهر الايمان بالله ٠ وهم فى واقع الأمر : بعداء كل البعد عن الله وعن رسالته ، طالما يمعنون فى تحديهم ، ويسخرون من مبـادىء دينهم ، قولا أو فعـلا ، وتصريحا أو تلميحا ٠

★ ★ ★

هذه بعض صور من صور الانحراف بسبب المـال والاسـاءة به الى الآخرين : ان فى أموالهم مباشرة بسبب ضعفهم ، وان فى افساد أجهزة الحكم فى الأمة بالتأثير عليه ، وان فى ابطال الدعوة الى الحق ، وفى صدها عن أن يكون لها سبيل الى نفوس المؤمنين ، أو تأثير على سلوكهم وعـلاقة بعضهم ببعض ، بنشر الالحاد ، أو بالسخرية منها ، ومما تدعو اليه من مبادىء ، وكلها صور تخرج المال عن أن يكون « فضـلا » من الله ، وتجعله وسـيلة للاستغلال السيىء ، والعبث والفساد فى الأرض ٠

ولأن عاقبة هذا السلوك بالمال فى بعده عن هدفه الأصيل ، ينذر بتقويض المجتمع القائم واستبداله حتما بمجتمع آخر يعيد للمال وظيفته ، يذكر القرآن من قصص المجتمعات السابقة على مجتمع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ما هو عبرة وذكرى للمؤمنين ، بسبب الانحراف فى الاساءة عن طريق المـال ٠ فيذكر مجتمع « مدين » ورسالة شعيب الى قومه فى هذا المجتمع ٠ وهى رسالة

تجمع فى دعوتها بين أمرين رئيسيين : بين عبادة الله وحده ، والبعـــد عن الانحراف بسبب ملكية المال • واذا نادت رسالة شعيب الى قومه بعبادة الله وحده فذاك أصل الدعوة الالهية فى كل رسالة رسول ، بعد ما يتفشى الشرك والوثنية فيمن يدعوهم الى العودة الى عبادة الله وحده • واشراك هذه الرسالة الدعوة الى حسن المعاملة والبعد عن الانحراف بسبب ملكية المال ـ مع الدعوة الى عبادة الله وحده ـ يدل أولا : على شيوع الطغيان فى المعاملة بسبب المال فى مجتمع « مدين » ، ويدل كذلك ثانيا : على أن أمر هـذا الطغيان يجب أن ينتهى : اما بالعودة الى الحسنى فى المعاملات المالية أو بهلاك المجتمع كـله وزواله • واذن : العمل على انتهاء الطغيان بالمال فى مجتمع « مدين » كان مهمة الرسالة التى كلف بها شعيب عليه السلام فى قومه • نقرأ قصة رسالته فيما جاء فى كتاب الله جل شأنه فى سورة هود :

« والى « مدين » أخاهم شعيبا ، قال يا قوم :

اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ،

ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط •

ويا قوم : أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين • بقية الله خير لكم ، ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ •

قالوا : يا شعيب •• أصلاتك تأمرك :

أن نترك ما يعبد آباؤنا ،

أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ انك لأنت الحليم الرشيد •

قال يا قوم : أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب •

ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد •

واستغفروا ربكم ، ثم توبوا اليه ، ان ربى رحيم ودود •

قالوا : يا شعيب : ما نفقه كثيرا مما تقول ، وانا لنراك فينا ضعيفا ،

ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز

قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان

ربى بما تعملون محيط · ويا قوم : اعملوا على مكانتكم انى عامل ، فسوف تعلمون : من يأتيه عذاب يخزيه ؟ ومن هو كاذب ؟ وارتقبوا ،

انى معـكم رقيب ·

ولما جاء أمرنا : نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ،

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين · كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا « لمدين » كما بعدت ثمود ! » (١) ·

··· اذ نقرأ هذه القصة فى تلك الآيات نجد : أن محور الدعوة والجدل حول ما جاء فيها ، يتركز فى « وحدانية الله » ثم فى الحسنى فى استغلال المال وعدم الاساءة به · ثم ما رافق هذه الدعوة من تهديد لأهل « مدين » من جانب شعيب ، لو استمروا على شركهم بالله ، وعلى اساءتهم فى استخدام المال ، صحب الحوار حولها تهديد كذلك من اهل « مدين » لشعيب ، لو استمر فى دعوته هذه التى تخالف عرف آبائهم فى العبادة ، وتحد من « مشيئتهم » فى استخدام المال : « **أصلاتك تأمرك : ان نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟** » · ولذا لا يفهمون دعوته ولا يعقلونها : « **ما نفقه كثيرا مما تقول** » ·

وفى أثناء شرح الدعوة التى جاء بها شعيب ، ربط القرآن بين الاساءة فى استخدام المال واستغلاله من جهة ، وبين الفساد فى الأرض من جهة أخرى ، وأن تلك مقدمة لهذا : « **·· ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** » ·

وأهل « مدين » لكبريائهم بسبب المال ، وغطرستهم وطغيانهم فى الاعتماد عليه استضعفوا رسولهم شعيبا واحتقروا شأنه : « **وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز** » ·

وهكذا : الفتنة بالمال تؤدى الى العبث والفساد فى المجتمع ، كما تحمل المفتتنين به على رفض صوت الحق الذى يوقظهم من غرورهم وعبثهم ، الى ان يجدوا أنفسهم فى غدهم وكأن لم يكونوا فى أمسهم : « **وأخذت الذين ظلموا** (أى بسبب اساءتهم استخدام المال واستغلاله) **الصيحة** (الزلازل) **فأصبحوا فى ديارهم جاثمين · كأن لم يغنوا فيها** · (وعندما يذهب هذا المجتمع العابث بالمال ، لا تبقى له ذكرى فى التاريخ سوى اللعنات) : **الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود** » ·

---

(١) هود : ٨٤ ـ ٩٥ ·

والقــرآن اذ يذكر قصة مجتمع « مدين » يذكر على أنها حادث تاريخي وظاهرة من ظواهر المجتمع الانسانى تتكرر بتكرر أسبابها · فكلما حصلت اساءات بسبب المال وأضرار للآخرين عن طريق استثماره ، ولم ينته المسيئون ، وهم الظالمون عندئذ ، كلما أصاب المجتمع ككل ، ما يهزه فى أساسه ، ويحدث تغييرا فى تكوينه واتجاهه ، بحيث يصبح مجتمعا جديدا على انقاض مجتمع قديم ، انتهى أمره · والمجتمع الجديد ، ان لم يسلك طريق الحسنى فى المعاملة بالمال ، ويختلف بذلك عن المجتمع السابق عليه ، فمصيره نفس المصير ·

واذ يتضح : أن الارتباط بين المال فى حسن الافادة منه ، أو فى ســوء الربح عن طريقه من جانب ، وبقاء المجتمع قويا ، أو زواله فى غير ندم عليه ، بل وفى لعنة عليه من جانب آخر ، هو : مبدأ لا يتخلف ، وقانون يحكم المجتمعات الانسانية فى غير استثناء ، ·· اذ يتضح هذا الارتباط ، يكون له الأثر القوى فى توجيه المجتمع فى ملكية المال والانتفاع به · وهذا الارتباط يمثل ارادة الله التى لا تقهر أبدا فى خلقه · وهنا يكون الايمان بالله وبارادته ، هو العامل الفعلى فى التوجيه ، وكذلك : صاحب الأثر فى الاستقامة ، وليس القــانون الاجتماعى كقانون اجتماعى يقوم على مقومات ونتائج تاريخية ·

★ ★ ★

الباب الثالث

فى مجال التربية النفسية

- الحاجة الى الرياضة والاعداد النفسى ·
- الصلاة فى مجال الايمان بالله وحده ·
- الصوم فى مجال اجتياز الأزمات ·
- الزكاة فى مجال الاعطاء الحر للمال ·
- الحج فى مجال الجماعة الكبرى ·
- الجهاد فى سبيل الله ، فى مجال التضحية بالذات ·

الفصل الأول

الحاجة الى الرياضة والاعداد النفسى

للاسلام نظرته الى « المادية » ٠

وللاسلام كذلك نظرته الى المال فى ملكيته ، ومنفعته ٠

وللاسلام توضيحه فى هذا ، وتلك ٠

وللاسلام نداؤه بالعمل على نحو ، وبتجنب العمل على نحو آخر ، فيما يصدر عن الانسان من أعمال أو سلوك ٠

هل تكفى النظرة ويكفى وضوحها فى الحمل على اتباعها والأخذ بها ؟٠

وهل يكفى اعلان النداء وتوجيهه على هذا النحو ، أو ذاك ، فيطاع وينفذ ؟

ان أية أيديولوجية فى تخطيطها الفكرى لابد أن يشغل فراغ فى هذا التخطيط بتحديد الوسائل ، التى يمكن عن طريقها أن يتحول « النظر » الى « تطبيق » ، و « الفكر » الى « ارادة » فعمل ، من الانسان الذى يقتنع بالنظر وبالفكر الخاص بهذه الأيديولوجية ٠ ان الاقتناع فى ظل حماس العاطفة الأولى بأيديولوجية معينة قد لا يدفع الى تطبيقها ، وقد يدفع الى تطبيقها لبعض الوقت ، ثم ينقطع الدفع حسب الدرجة فى حماسة الاقتناع ٠ ومن أجل ذلك : يجب أن يتحول الاقتناع الى « عادة » لدى الانسان المقتنع ، بحيث تصبح العادة هى مصدر الدفع نحو التطبيق ، ونحو العمل ٠

وهنا لابد أن تنشأ أو تتكون بعض العادات لدى الانسان لتؤدى المهمة العملية للأيديولوجية فى واقع الحياة الانسانية ، سواء فى واقع الفرد ، أو واقع المجتمع (١) ٠

---

(١) وعلى سبيل المثال فى الفكر الماركسى والتطبيق لهذا الفكر : نجد أن هناك انسجاما بين الفكرة وتطبيقها ، ثم نجد أيضا أن الأيديولوجية

والاسلام « فى نظامه » لحياة الانسان ، يعطى عناية خاصة لما يسميه بـ « العبادة » • حقيقة العبادة : أنها : « اعداد » وتكوين عادات خاصة ، وهى تلك الغايات التى تستهدفها نظرة الاسلام الى المادية مرة ، والى المال فى ملكيته ، ومنفعته مرة أخرى •

=

الماركسية عنيت تماما بـ « التدريب » أو بتكون العادات ، أو بتحويل النظر الفلسفى فيها الى واقع عملى فى حياة الأفراد والمجتمعات • وعنايتها الفائقة بالتدريب ، هى التى تبعث الحيوية باستمرار فى الفكر الماركسى ، وليست أصالته أو صلاحيته فى ذاته ، هى : التى تكشف عن حيويته •

الفكر الماركسى يقوم على « الحقد » ويدعو اليه • يقوم على تعميق الحقد والكراهية من جانب الطبقة العاملة ، ضد أصحاب رؤوس الأموال فى الصناعة ــ وأصحاب المزارع الكبيرة • ويرى أن وجود الطبقة العاملة وحصولها على حقها فى الأجور وأداء العمل فى ظروف مقبولة يتطلب أمرين :

الأمر الأول : الصراع مع أصحاب رؤوس الأموال ، بدون هوادة ولين •

الأمر الثانى : الثورة المسلحة الحمراء فى قلب نظم الحكم الرأسمالية ، وتحويل المجتمعات جميعها فى العالم الى مجتمعات عمالية ، تحتفظ فيها الطبقة العاملة بالسيادة ، عن طريق الديكتاتورية العمالية العالمية •

فلسفة تدعو الى الحقد وتقوم عليه ، لابد لها أن تدعو الى «الانقلاب» وعن طريق الثورة الدموية المسلحة ، ولابد أيضا أن تحول دون المهادنة ــ وما يسمى بالتعايش السلمى ــ كى تحقق هدفها الأخير ، وهو القضاء على النظام الرأسمالى ، أو ما تسميه بالامبريالية • وهو مصطلح تقصد به الولايات المتحدة الأمريكية أولا وبالذات •

ولكن كيف يتم اذن : تحقيق أهداف هذه الفلسفة الماركسية ؟

لابد أن يدخل عامل حاسم يدفع هذه الأهداف نحو التحقيق • لا يكفى أن تتحدث هذه الفلسفة عن « الحقد » ــ حقد الطبقة العاملة على أصحاب رؤوس الأموال ــ ولا يكفى أن تدعو الى كراهيتهم والانتقام منهم ، وأن تستخدم وسائل الاعلام المتنوعة ، وأن تحكم اغلاق النوافذ فيها عن أن يتسرب اليها ما يضعف دعوة هذه الفلسفة أو يعارضها • ومن هنا كان نظام الحزب الواحد فى الأيديولوجية الماركسية •

هذا العامل الحاسم هو : « التدريب » • التدريب على الثورة والانقلاب• التدريب على « حرب الغوريلا » ••• التدريب على حرب العصابات ، وهو حرب تقلق وتضعف العدو ، بأقل قدر من الخسارة • هى الحرب من الخلف ،

وكأن نظرة الاسلام الى هذين الجانبين ـ الى المادية ، والى المال ـ يرتبط بها أشد ارتباط وأقواه : أداء العبادة والاعداد لأدائها ، بحيث يصبح أداؤها عادات تؤثر ـ بحكم : أنها عادات ـ فى تطبيق النظرة الاسلامية ، وتحويلها الى عمل ، وسلوك ، وموقف ·

=

وفى غير مكان ، وفى غير صفوف ، وفى غير نظام ، الا نظام الغدر وأخلاق الانتقام والحقد والكراهية ·

وهنا كانت المعسكرات السرية · وهنا كان التدريب على استخدام أنواع معينة من السلاح ، وعلى أسلوب القرصنة ، وعلى المعيشة فى ظروف مريرة وسيئة ، قد يمر بها المحارب · ولكى يتوفر الحماس مع التدريب كان العنصر المفضل فى مراكز التدريب هو عنصر الشباب ذكورا واناثا على السواء · وكان المفضل من بين عناصر الشباب من لا يعرف له والدين أو أسرة ·· من يعرف فقط « الحزب » و « الدولة » كأب وأم ، مع الايمان العميق بالحقد والكراهية لأصحاب رؤوس الأموال ـ أعداء العمال وأعداء البشرية ـ وبالثورة الدموية !·

وهدف الثورة الثقافية « فى الصين الشيوعية » هو وضع الشباب فى الصين وفى العالم أمام أهداف الماركسية وحدها كما يصوره « ماو » : الحقد ، والثورة الدموية ضد الامبريالية · وغلق جميع منافذ الثقافات الأخرى ، والغاء العادات والأعراف ، وما يتصل بالحضارة البشرية فى : فنها ، وقيمتها ، وتاريخها ···

كما أن هدف « الحضانة الشيوعية » ـ وهو نظام خلقه كاسترو ـ هو عزل الطفل بعد ولادته بشهر عن أبويه وعن أسرته وبيئته ، ثم توفير جميع الظروف الممكنة لخلق انسان « ثورى » « مناضل » ، ضد الامبريالية ، لا يعرف الا « الحقد » عقيدة ، والا الثورة الدموية أسلوبا للتعبير عن هذه العقيدة ·

وقد نشرت مجلة quick الالمانية ـ الصادرة فى ميونيخ بتاريخ ٦ أغسطس ١٩٦٩ ـ تقريرا عن كاسترو فى كوبا كزعيم شيوعى ثائر يعيب على الاتحاد السوفييتى مبدأ « التعايش السلمى » وفى هذا التقرير ذكرت :

أن هدف الثورة الكوبية هو اشعال النار فى الولايات المتحدة الأمريكية·

وأن طريق الثورة هو : « الثورة ·· الانقلاب ·· الحرب ، وأنه توجد أربعة مراكز للتدريب العملى على الانقلاب فى منطقة : Seerra Maestra فى جنوب كوبا ·

وفى هذه المراكز يعد الشباب من جميع أنحاء أمريكا اللاتينية ، بالاضافة

ونظرة الاسلام الى المادية ، وكذلك الى المال : فى ملكيته ومنفعتـــه لكى تتحقق فى حياة المقتنع بها ، وبالتالى لكى تجد لها مجالا عمليا فى واقع المجتمع ـ تتطلب أن يتعود الفرد على ما ينشىء ، ويكون :

١ ـ عادة الايمان بالله وحده ، دون أن يشرك معه غيره ،

٢ ـ وحياة الحرمان من متع الدنيا لفترة أو فترات متــكررة فى حياة الانســان ،

٣ ـ وعادة الاعطاء للمال على الأخص من غير مقابل ، كلما كان هناك فائض منه عند مالكه ·

وهذه النظرة الاسلامية تتطلب اذن ثلاث عادات تتأصل فى الفرد المسلم ، يصدر عنها فى غير انقطاع · وما يصدره عنها ، هو : تحقيق هذه النظــرة ، وتحويلها من : اطار الصورة الفكرية الى ··· المسلك العملى ·

★ لابد أن تتكون عادة : الايمان بالله وحده ، حتى لا يقع الفرد تحت

الى بعض زنوج الولايات الأمريكية المتحدة ·

ومن بين « شعارات » الثــورة الكوبية التى كان يحملهــا « جيفارا » ـ الصديق الحميم لكاسترو ـ فى قيادته الانقــلابات فى أمريكا الجنوبيــة : « النار فى جنوب أمريكا » ـ « فيتنام أخرى ، مكررة فى عدد من دولها » ·

فالأيديولوجية الماركسية التى تنادى بالحقد وبالثورة الدموية ، كان لا يمكن أن تحقق : « الثورة العمالية العالمية » بالنداء وحده · وانما بالتدريب الناجح بخلق جميع الظروف التى تهيىء لهذا النجاح :

١ ـ العمل على اضعاف روابط الأسرة فى النظام الماركسى ، والحــرية فى المباشرة الجنسية ، ومساواة الطفل غير الشرعى بالطفل الشرعى ·

٢ ـ العمل على تقديم فكرة : « الدولة » و « الحزب » على فكرة الأسرة ، وجعل الدولة والحزب « الموجودين المقدسين » يضحى فى سبيلهما بالنفس لأنها هى الباقية للفرد فى النظام الشيوعى ·

٣ ـ اخضاع الأطفال والشباب لحياة المعسكرات الجماعية ـ ذكورا واناثا ـ ووضعهم هناك فى « بوتقة » تصهرهم فى مادة واحدة ثم يشكلون فى قالب واحد · أما المادة الواحدة فهى الولاء للدولة والحزب ، وأما القــالب فهو القالب الثورى الانقلابى الدموى ·

تأثير المادية وطغيانها وانحرافها ·· هـذا الطغيان والانحراف الذى يجـر اليه : الشرك بالله ·

★ لابد أن تتكون عادة : الحرمان من المتع الحسية ، حتى لا تجر التبعية اليها من القادر عليها الى الاتجاه المادى فى الحياة ، وحتى يستطيع فى الوقت نفسه أن يكون لديه فائض لحق المنفعة العامة للمال ·

★ لابد أن تتكون عادة : الاعطاء فى غير مقابل ، حتى يستطيع أن يحقق مالك المال : المنفعة العامة للمال ، فى رضاء وفى متعة نفسية ، لا تعدلها : تلك المتع الحسية التى تحصل بالمال ·

والعبادات الاسلامية : عمليات اعداد ، تستهدف أولا : تكوين عادات خاصة ، لنقل الفكر الاسلامية الى حقائق واقعية ، وعملية · ولكنها عادات لا يهمل معها الشعور بالهدف منها · وانما مع كونها عادات تصحب ما يصدر عنها « ارادة » الانسان أو « نيته » ، أو تسبق العمل الصادر عنها ، هــذه النية ، وتلك الارادة ·

فالاسلام لا يرى فى الانسان آلة ، أو شبه آلة ، تتحرك بغير قصـد وفى اتجاه لا تحيد عنه · بل يراه انسانا يتميز بميزته ، وهى : الارادة أو الحرية ، أو النية · ولذا كل عمل يسند الى الانسان ويسال عنـه ، هو : العمل الارادى وحده · والعبادات اذا اديت منه لا تقبل الا اذا كانت مصحوبة ، أو مسبوقة بنية العمل والأداء · وفى الحديث الشريف : « انما الأعمال بالنيات » ·

وفى نهى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** » (١) ·· عن مباشرة الصلاة فى حالة السكر ، لا لحرمة تناول المسكر ، وانما لعدم توفر الارادة والنية فى العمل الذى يأتى به المؤمن ، وبالأخص : الصلاة ·

وفى توعد القرآن للساهى فى صلاته فى قوله : « **فويل للمصلين · الذين هم عن صلاتهم ساهون · الذين هم يراءون** » (٢) ·· يتوعد لانعدام نيــة الصلاة ، التى هى استحضار لجلال المولى سبحانه وتعالى عندمباشرتها ·· ذلك الاستحضار الذى يهز المشاعر ، ويكون فى النفس للمصلى : عظمة الله التى تتمثل فى وحدانيته ، فى الوهيته ، وفى صفاته المعبرة عن كماله فى الوجود · وآية السهو فى الصلاة هنا ــ رغم انه يأتى بها رياء ــ أنه مع

---

(١) النساء : ٤٣ ·   (٢) الماعون : ٤ ــ ٦ ·

صلاته لم يزل واقعا تحت التأثر بالاتجاه المادى فى الحياة ، وهو اتجاه الشرك، والمتعة الحسية ، وانكار البعث : « **ارايت الذى يكذب بالدين** » (١) ، ولذا يمتنع عن تقديم أى عون مادى للآخرين : « **ويمنعون الماعون** » (٢) • ثم يسلك مع صاحب الحاجة مسلك العنف : « **فذلك الذى يدع اليتيم • ولا يحض على طعام المسكين** » (٣) •

فمع كون العبادات تتكرر فى اليوم ، أو فى السنة ، أو فى الحقبة من الزمن ، ومع أن تكرارها يسهم فى تيسير أدائها فتصبح كالعادات ، الا أن قبولها مشروط بالنية ، أو بالارادة والقصد اليها • وهذا الشرط : يضيف فى الدفع الى أدائها ــ بجانب قوة العادة وحملها على الأداء ــ الشعور بهــا ، والوعى بنتائجها وأهدافها •

وفائدة الاعداد النفسى ــ عن طريق العبادات ، وتكرار أدائها فى أوقات معينة ، لتحويل النظرة الاسلامية الى حقيقة عملية ، بحيث يعكس . واقع الحياة الانسانية فى مجراها : الفكرة ، التى تعبر عن النظــرة هى اذن : الالتزام المريح للنفس ، بالأهداف التى تطلبها هذه النظرة • والعبادات فى الاسلام فى مجال التجربة النفسية هى التى تساعد على أداء ما يلتزم به المؤمن بايمانه عن اختيار • وهى واقع الأمر : طريق الوفاء بالالتزام ، وليس طريقه : الاكراه ، والالزام من خارج الذات •

وهنا : العبادات فى الاسلام : ركن أصيل فى نظامه • على معنى أنهـا لابد أن تؤدى ، لكى تتحقق أهدافه فى حياة الانسان • وعلى معنى أيضا : أن أداءها اذا تكرر ، لابد أن يكون مقرونا بالقصد اليها ذاتها ، وبالهدف منهـا فى حياة الانسان • وبذلك ليست العبــادات معزولة ، أو مستقلة فى نظـام الاسلام • أى ليست مستقلة عن نظرة الاسلام : الى المادية ، ونظرته الأخرى : الى المال فى ملكيته ، ومنفعته • والذى يعزل العبادات ، ويعزل نفسه عن الحياة فى : متعها ، وملذات الدنيا ، وعن السعى فى تحصيلها ، ليس المسلم : الذى يدرك نظام الاسلام فى الحياة الانسانية • فالذى يعزل نفسه عن الحياة فى متعها ، وعن السعى فى سبيلها ــ وبالتالى يعزل العبــادات الاســلامية ويجعلها مستقلة تماما ــ كيف يتم له : أن يحقق نظرة الاسلام الى المادية ، أو الى المــال فى ملكيتــه ، ومنفعتــه ؟ • انــه لا يمــكنه : أن يحقــق هــذه النظرة ، الا اذا واجه الحياة المادية ، وسعى فى الأرض لتحصيل الرزق ،

---

(١) الماعون : ١ • (٢) الماعون : ٧ •
(٣) الماعون : ٢ ، ٣ •

وجد فى سعيه ، واقتنى من خيزاتها ، ثم اعطى ما زاد عن حاجته لغيره ، بعد أن يتجنب الانحراف فى اقتناء المال ، وبعد أن يبتعد عن التبعية أو الطغيان عن طريق الاتجاه المادى فى الحياة •

والذى يسقط العبادات ــ لذلك ــ باسم : رفع التكاليف ، أو الــذى لا يؤدى هذه العبادات اصلا ، او يؤديها فى غير انتظام ، أو يؤدى بعضهـا دون البعض ، مكتفيا بتطبيق النظرة الاسلامية الى المادية ، والى المال ، هو انسان متراخى ، لا يؤمن استمرار تطبيقه للنظرة الاسلامية ، وبالتالى لا تؤمن سيطرته على ذاته وانانيته ، وربما فى وقت لاحق قريب أو بعيد ــ يغلب على أمر نفسه ، ويزداد تراخيه ، فيهمل تطبيق النظرة الاسلامية ، كما اهمل من قبل : أداء العبادات •

لا يكتفى اذن من المؤمن بالاسلام : أن يؤدى العبادات المفروضة فى الاسلام فى عزلة نفسه عن الحياة الدنيوية ــ كالمتصوف الهارب ــ كمـا لا يكتفى بتطبيق النظرة الاسلامية الى المادية ، والى المال ، فلا يطغى ، ولا يمسك بالمال عن الانفـاق فى سبيل الله ، دون أداء العبادات الاسـلامية ، كالفيلسوف الزاهد الذى يعطى ماله يتزكى •

أما الذى يؤدى العبادات ، دون أن يكون لأدائها اثر فى تحقيق النظرة الاسلامية الى المادية ، أو الى المال فى ملكيته ، ومنفعته ، فصلاته لا تنهى عن الفحشاء ، والمنكر ، أى لا تنهى عن : الجرائم الإجتماعية ، التى هى : الزنا ، والسرقة ، والقتل ، ولا تنهى كذلك عن جريمة العقيدة ، وهى : الشرك بالله ، فى صورة من صور الشرك به ، وصيامه لا يحول بينه وبين التبعيـة للاتجاه المادى فى الحياة ، والطغيان بالقوة المادية وبامتـلاك متع الحيـاة الحسية ، وزكاته لا تحمله على مزيد الانفاق فى المصلحة العامة ، بعد الاكتفاء بحاجته ، من : ماله فيحقق المنفعة العامة للمال •• أما هـذا الـذى يؤدى العبادات على هذا النحو ، كعادة فقط ، فهو انسان يتبع « الالف » فى غيـر وعى ، ويخضع للعادة ، لأنها : عادة ، دون وعى بهدف منها •

وشأن الذى يرى وحدة الألوهية ، فى : تجنب زيارة القبور ، وفى محو القباب ، وفى تحطيم الأحجار والتماثيل ، ولا يراها فى تجنب « الوثنية » : فى قديمها ، وجديدها ، فى احجارها وفى اناسيها ، فى أموات الناس واحيائهم ، فى أصنام مكة وفى ترف الحياة المعاصرة ومتعها وجاهها ، فى الكفر والنفاق معا ، فى الميكيافيلية ، والانتهازية فى المادية ومستتبعاتها •• شأن هذا : شأن ذلك ، الذى يؤدى العبادات ، كعادة فقط •

وهو اضعف بكثير فى صـلته بالاسـلام ، من ذلك : الذى يعزل نفسه بالعبادة الاسلامية عن الحياة الدنيا كلها · لأنه يشغل نفسه ، ويشغل غيره ، بغير الايمان الاسلامى ، وبغير العبادة الاسلامية ، وبغير تطبيق النظـــرة الاسلامية ، وايديولوجية الاسلام فى الحياة ·· انه يشغل نفسه بـ « ضباب » مفهوم الشرك · كما يشغل من يعزل نفسه عن الحياة المادية بـ « ضـباب » الوحدة فى الألوهية ، فيظن أن من : مقتضيات هذه الوحدة ، أخذ العبادات الاسلامية واتباعها فى منأى عن الناس ، وعن الوجـود المشـاهد ، وبذلك يكون : « وحيدا » هو ، مع الله وحده ، وفى عزلة عن الناس وحياتهم ·

ان الايمان بوحدة الألوهية لابد أن يصير حقيقة عملية ، تستتبع تجنبا عمليا لآثار المادية : فى السلوك والاتجاه ، التى فى مقدمتها : الشرك أو اعتقاد الوثنية ، فى أى شكل ، أو فى أية صورة · كيف يصير ؟ ·

و « حرية » الفرد ـ فى نظرة الاسلام ـ التى تتمثل فى التحرر من الأنانية والتبعية للفتنة والملذات الحسية ، لابد ان تصير هى أيضـا حقيقة واقعة ، يبنى عليها الفرد عزته وكرامته من جانب ، كما يبنى عليها عدم مذلته وعدم جبنه فى طغيان من جانب آخر · كيف تكون أمرا واقعا ؟ ·

و « جماعية » الفـرد ـ فى الاســـلام ـ وأنه يعيش لغيره كما يعيش لنفسه ، وأنه اذا اقتنى من المال فلنفسه ولغيره معا ، وأنه اذا لم ينل بسعيه ، لا يحقد على غيره : ممن حصل من سعيه ، لأن له فيما تحصـــل ، كما لمن حصله بالفعل ، لابد أن تتحول الى : دافع ، والى عامل تحـــريك لا يفتر · كيف تتحول ، وكيف تدفع وتحرك ؟ ·

واذا نظرنا الى العبادات فى الاسلام ، وجدناها : تتساوى مع أهداف نظرته الى : المادية ، والى : المال فى ملكيته ، ومنفعته :

★ فنظرته الى المادية تبعد أمرين فى سلوك الفرد ، عن هذا السلوك :

(أ) تبعد الشرك بالله ، كأساس ، أو كغاية أخيرة للمادية ،

(ب) كما تبعـد التبعية للاتجاه المادى فى الحياة ، وارتكاب الجـرائم الاجتمـاعية ·

★ ونظـرته الى المـــال فى ملكيته ، ومنفعته تطـلب تحقيق أمرين :

(أ) تطلب الاقتناء والسعى فى سبيله ، وبذلك تتحقق الملكية الخاصة ،

(ب) وتطلب الانفاق فيما زاد عن الحاجة ، لصالح الأمة ، أو فى سبيل الله · وعبـادة « الصـلاة » فى الاسـلام ان تكفـلت بتجنيب الشرك ، وتحقيق الايمـان بوحـدة الألوهيـة ، فـان عبـادة الصوم : كما تسهم فى ابعـاد المادية وطغيانها ، أو فى اضعافها ، تسهم أيضا ، فى : تحقيق المنفعة العامة للمال ، بجانب عبادة الزكاة التى تتوفر على تحقيق هذه الغاية · وهى غاية : المنفعة العامة للمال ·

وعبادات الاسلام الثلاث : الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، هى عبادات الاعداد المباشر ، لتحويل النظرة الاسـلامية نحو المادية ، ونحو المال : الى واقـع فى حياة المسلم ·

ان الايمان بالله وحـده ، يجب أن يبقى فى تذكـر « المصـلى » لله : فى الصلاة الواجبة ، أو الصلاة النافلة · وهنا تكون فاعليته · اذ يوم أن خرج هذا الايمان للنقاش العقلى باسم : « الكلام » ووضعت وحدة الألوهية موضع التدليل الفلسفى ، والتعقيد فى البرهنة المنطقية ، يوم : عزلت هذه الوحدة عن الصلاة ، وفاعليتها فى : تجنيب المؤمن بالله وحده ، آثار المادية : ان فى الشرك ، وان فى الجرائم الاجتماعية ، من : الفحشـاء والمنـكر · وأصبحت هناك معرفة عقلية خاصة ، مستقلة « بالتوحيـد » بينما تؤدى الصـلاة فى رسومها ، دون جوهرها ·

والاعداد للحرمان ، وتهيئة النفس له ، يوم : وقفت عند حد : الامساك عن الأكل والشرب ، وما يدخل المعدة دخولا مباشرا أو غير مباشر فى صوم رمضـان ــ على نحـو مناقشة الفقهـاء ــ يوم : انفصلت التهيئـة عن : « الاستغناء » والترفع عن شهوة النفس ، نحو : المتع المادية التى تتمثل فى زينة الحياة ، أو جاهها ، أو فى قوتها المادية ، ويوم : أصبح الحـرمان فى شهر الصـوم : حـرمانا مؤقتا ، لا يتجاوز أيامه ، الى حمـل النفس على الاستمرار فى الوقوف فى مواجهة الفتن والمغـريات الدنيوية ، ولا تتجاوز هذه الأيام أيضا : الى تكوين القوة النفسـية الدافعة ، نحو : الامساك عن كل ما يؤذى ويضر الغير ــ ان فى القول ، او فى الفعل ــ ولا يتجاوزها كذلك : الى تلك القوة الاخرى ، وهى : قوة « القناعة » فى حيـاة الانسان ، التى يستتبع وجودها وجود فائض ، فى معاش صاحبها وفى رزقه ، يمكن أن ينفق لصاحب حاجة ماسة فى الامة ·

ويوم أن دخلت : « العلمانية » المجتمع الاسلامى ، واقحمت « نظـام ضرائبها » فى حياة الناس ، يوم : خف شأن الزكاة ، فى الباعث عليها ، وفى ادائهـا · واصبحت الزكاة كالضريبة ، ان اديت تؤدى فى كسل ، أو فى غير

رضا ومحبة · وبذلك فقدت : معنى الاعداد للاعطاء · اذ دافع الاعطاء عندئذ تحول ، من : داخل النفس ·· الى خارجها ، واصبح هذا الدافع الخارجى يتمثل فى : القانون ، والقوة التنفيذية المصاحبة له · وبهذا أصبحت عبادة الزكاة — ان أديت — بغير روح ، وفى عزلة عن : « الهدف ، وهو ، تحقيق : المنفعة العامة للملكية الخاصة للمال ·

ولذا يجب · أن تعاد للعبادات الثلاث فى الاسلام مكانتها وغايتها فى الاعداد والفاعلية ، نحو نقل النظرة الاسلامية فى حياة المسلم ·· الى واقع اسلامى تلمس آثاره ونتائجه فيها ·

* * *

الفصل الثانى

الصلاة فى مجال الايمان بالله وحده

الايمان : بأن الله واحد - اذا عبر عنه من يعلن الايمان به ، بشهادة : أن لا اله الا الله - هو فى ذاته حقيقة نفسـية ، أو يجب أن يصـبح حقيقة نفسيه ، تستقر فى قلب المؤمن أو فى أعماق نفسه · والا بقى ، قولا : لا مدلول له فى داخل النفس ، وفى واقع حياتها ·

وبتحليل عبادة : « الصلاة » - كما جاءت فى الاسلام - وتحليل علاقتها بتلك الحقيقة النفسية للايمان بوحدة الله ، يتضح :

أولا : ان الصلاة هى العبادة التى تؤدى فى : الصحة والمرض ، وفى السفر والاقامة ، وفى الحرب والسلام ، وفى الصغر والكبر · أى تؤدى فى كل وضع للانسان ، ويطلب أداؤها فى كل حال من أحواله ، على نحو ما · فيترخص فى أدائها فى السفر ، فتقصر الصلاة الى ركعتين : « **واذا ضربتم** (أى سرتم وسعيتم) **فى الأرض ، فليس عليكم جناح : أن تقصروا من الصلاة ، ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا** » (١) ·

وبالاضافة الى قصر الصلاة وقت القتـال مع الأعـداء ، يترخص فى أدائها جماعة ، على نحو : لا يمكن العدو من المؤمنين ، كمـا جاء فى قوله تعالى بعد ذلك : « **واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك وليأخـذوا أسلحتهم ، فاذا سجـدوا فليكونوا من ورائـكم** (أى للحراسة) **ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جنـاح عليكم ان كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى ، ان تضعـوا أسلحتكم ، وخذوا حذركم ، ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا · فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما ، وقعودا ، وعلى جنوبكم ، فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** » (٢) ·

---

(١) النساء : ١٠١ · (٢) النساء : ١٠٢ ، ١٠٣ ·

★ **وهى : العبادة التى تعد لها الأرض جميعها مسجدا ، تقام فيه . فليس أداؤها مرتبطا بمكان معين ، أو ببيت خاص تقام فيه : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » .**

★ وكذلك : هى العبادة التى تؤدى من فرد على حدة ، أو من أفراد مجتمعين .

★ وهى : العبادة اليومية كذلك : يفتح بها يوم السعى والعمل ، وتتخلل أوقاته ، ويختم بها نهاره : « **وأقم الصلاة طرفى النهار ، وزلفا من الليل** » (١) . « **أقم الصلاة لدلوك الشمس ، الى غسق الليل** » (٢) . « **حافظوا على الصلوات ، والصلاة الوسطى** » (٣) .

★ وهى العبادة التى : يؤذن لها باعلان الشهادة بأنه : لا اله الا الله ، ويتكرر النداء بهذه الشهادة فى أدائها فى اليوم الواحد ، وتصطحب كل حركة من حركاتها : فى القيام فيها ، والركوع ، والسجود : بالاقرار بأنه سبحانه وتعالى : « الله أكبر » .

★ وهى : العبادة التى يدعو فيها المصلى فى كل ركعة من ركعاتها ــ عندما يقرأ الفاتحة الواجب قراءتها ــ :بأن يمنحه الله العون فى أن يجنبه اتجاه « المادية » : فى شرورها وآثامها ، وأن يبقيه على « روحية الاسلام » : فى الايمان بوحدة الألوهية ، عندما يناجى المولى جل وعلا : « **اياك نعبد واياك نستعين** » . وفى الايمان باليوم الآخر ، عندما يقرأ بأنه : « **مالك يوم الدين** » . وفى اتباع الصراط المستقيم الذى لا انحراف فيه ، عندما يتوسل اليه سبحانه فى مناجاته بقوله : « **اهدنا الصراط المستقيم** » .

وأضداد هذه الأمور الثلاثة هى :

انكار اليوم الآخر ،

والشرك بالله ،

الضلال فى السبيل .

... هى نتائج اتجاه المادية فى الحياة .

---

(١) هود : ١١٤ . (٢) الاسراء : ٧٨ .
(٣) البقرة : ٢٣٨ .

وسورة الفاتحة التى تتكرر فى كل ركعة من ركعات الصلاة اليومية ، سواء منها الفريضة أو النافلة ، والتى يتوسل الانسان بما جاء فيها من دعاء الله بأن يقيه من الشرك ، وانكار البعث واليوم الآخر ، والضلال فى السلوك ، ويؤمنه البقاء على الايمان بالله وحده ، وعلى عبادته اياه لا غيره ، وبالبعث واليوم الآخر ، وبالهداية فى طريق العمل والسلوك ··· وهذه السورة القصيرة ـ وهى أم الكتاب ـ تحمل الدور الأول فى عبادة الصلاة : فى نقل الايمان بوحدة الألوهية ونتائجه من « المفهوم » الذى يتحدث به اللسان ، الى الحقيقة النفسية المستقرة فى القلب ، تلك الحقيقة التى هى فى الواقع : العامل الدافع الى التطبيق العملى للنظرة الاسلامية الى « المادية » والتبعية لها ·

ثانيا : ان الصلاة ـ بما لها من عناصر التأثير ، سواء بفعل صيغة الدعاء فيها ، أو بلحظة اللقاء النفسى والتصورى فيها ، مع الله سبحانه وتعالى ، أو بتكرار وقوعها وتقارب زمن الوقوع ـ تكاد تكون العبادة الأصيلة ، التى تقرب المؤمن بالله ، وبالتالى التى « ترسب » مفهوم الايمان بوحدة الألوهية فى نفس المؤمن ، وتجعل هذا المفهوم مدلولا واقعيا ، وحقيقة مستقرة فيها :

فالصلاة فى روحيتها ، وفى سعة الفرصة فى حياة المؤمن لأدائها ، وفى تركيز الروحية فيها على : « وحدة الألوهية » ـ التى هى فى مقابل المادية والشرك فيها ـ ضرورة لازمة للمؤمن ، الذى يريد أن يكون لايمانه فاعلية فى سلوكه ، وفى علاقاته ، وحياته على العموم ، وضرورة لازمة كذلك فى تحول : ايمان الأمة والجماعة ، الى سلوك مستقيم ، وعلاقات طيبة فيما بين الأفراد بعضهم مع بعض ·

وصلاة الجماعة ان قصد منها : اخراج الفرد من عزلته الروحية ، التى ربما يوحى بها : تصوره الضعيف لوحدة الألوهية فى عبادته لله وحده ، فيقصد بها قبل ذلك : نقل روحية الصلاة من مستوى الفرد الى مستوى « روحية الجماعة » حتى يكون أثرها مضاعفا ، فى نفس الفرد ، وحتى ينقل كذلك « مفهوم » الجماعة الى « حقيقة نفسية للجماعة » تستقر فى النفس ، بجانب حقيقة الايمان بالله وحده ·

واذا اقترنت الحقيقتان النفسيتان : حقيقة الايمان بالله وحده ، وحقيقة الجماعة ، فى نفس المؤمن وترسبت كلتاهما فى أعماق النفس ، فان هذا الترسب ذاته للحقيقتين معا سيكون فى أثره مزدوجا : على تجنب « المادية » التى هى سبيل الشرك ، وعلى عدم خضوع الذات للشهوة والهوى ، ذلك الخضوع الذى يمثل أنانية الذات من جهة ، والبعد عن الروح الجماعية من

جهة اخرى ، كما يمثل التبعية للاتجاه المادى فى الحياة ، وفى البعد عن : التاثر بالايمان بوحدة الألوهية كذلك ٠

★ ولأهمية الصلاة فى حياة المؤمن ــ عن طريق فاعليتها فى ترسب حقيقة نفسية ، لمفهوم الايمان بالله وحده ــ جاء فى القرآن الكريم : اقتران ادائها ، بالانتهاء من الفحشاء والمنكر ، واقتران عدم أدائها ، باتباع الشهوات والاسترسال فى انحرافات الاتجاه المادى فى الحياة :

فاقتران الانتهاء من الفحشاء والمنكر ، بأداء الصلاة ، جاء قول الله تعالى : « **اتل ما أوحى اليك من الكتاب ، واقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** » (١) ٠٠ فالصلاة التى ترسب فى النفس : حقيقة الايمان بالله وحده ، لابد أن تنتهى معها : الفحشاء والمنكر فى مباشرتهما ، وكذا : لابد أن ينتهى الاندفاع تحت تأثير الهوى والشهوة ، فى الرغبة فيهما ٠

واقتران عدم ادائها ، باتباع الشهوات والمنكر ، تقصه الآية القرآنية الأخرى ــ فى الحديث عن الأجيال التى خلفت الأنبياء ، منذ ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، نبيا بعد آخر ــ فيما يقول الله تعالى : « **فخلف من بعدهم خلف : اضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا** (أى شرا وخيبة) ٠ **الا من تاب ، وآمن ، وعمل صالحا ، فاولئك يدخلون الجنة ٠ ولا يظلمون شيئا** ٠ » (٢) ٠٠ فالخلف الذى كان يأتى بعد جيل الرسالة لأى رسول من الرسل ــ على عهد ابراهيم حتى رسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ــ كان يهمل فى اداء الصلاة حتى يضيعها ، وبالتالى كان يسقط فى التبعية الى الشهوات وانحرافاتها ، حتى يأتى رسول آخر يحذر من الاستمرار فى انحرافات الشهوات ، وينذر بتغيير المجتمع كله ، وبسقوطه : فيؤمن به البعض ، ويكفر برسالته البعض الآخر ٠ وهو : ذلك البعض الذى أعماه ترف الحياة : وطغيان اتجاه المادية ، عن أن يرى : الصواب فى السلوك ، والهداية فى طريق الحياة ٠ فضياع الصلاة اقترن به هنا فى الآية : اتباع الشهوات والعمل السيء ، كما اقترن به : الشرك بالله ٠ ولذا ترشد الآية الثانية الى الوضع السليم الذى يجلب من جديد : الرضا ، ويبعد عن الشقاء ٠ وهو وضع العودة الى الصلاة ، ومن ثم : الى العمل الصالح ، والايمان بالله وحده : « **الا من تاب** (أى عاد الى الصلاة) **وآمن** (أى بالله وحده ولم يشرك معه شريكا آخر) **وعمل صالحا** (أى بالابتعاد عن الشهوات) » ٠

---

(١) العنكبوت : ٤٥ ٠ (٢) مريم : ٥٩ ، ٦٠ ٠

واذا كان هدف الصلاة ، واذا كان شأنها أيضا : أن تنقل مفهوم الايمان بالله وحده ، الى حقيقة نفسية واقعية ، فى ذات من يعلن الايمان به ، فانها العبادة « الأم » وعليها يقع الاعداد السليم والنافذ ، لتطبيق النظرة الاسلامية كلها فى حياة الانسان ، سواء : تعلقت بالمادية ، أو بملكية المال ومنفعته · والعبادتان الأخريان بعدها ـ وهما : الصوم ، والزكاة ـ تضيف اليها فاعلية ثانوية فقط ·

والصلاة لهذا كله تعتبر « عماد الدين » · وللأهمية الكبرى لها ، اذ ينصح القرآن الكريم فى كثير من المواطن بأمر ، أو بعبادة أخرى ، فى مقام يتطلب النصح بهذا الأمر أو بهذه العبادة لوجود علاقة مباشرة بين مقام الحال وهذا الأمر أو هذه العبادة ·· فانه كثيرا : ما يضيف الصلاة فى النصح ، الى الأمر الخاص أو الى العبادة الخاصة التى نصح بها · يقول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، ان الله مع الصابرين · ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ، ولكن لا تشعرون · ولنبلونكم بشيء : من الخوف ، والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين · الذين اذا أصابتهم مصيبة ، قالوا : انا لله ، وانا اليه راجعون** » (١) ·· فالمجال هنا : هو مجال العرض لموقف الكافرين : فى عنادهم ، وفى تآمرهم على الدعوة ضد المؤمنين · ووضع المؤمنين الآن يتطلب : التحمل والصبر ، سواء على ايذاء الكافرين لهم ، أو على رفضهم لنداء الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو للشدائد التى يلاقونها فى القتال ، تلك الشدائد التى قد يترتب عليها : النقص فى الاموال والثمرات والأنفس ، كما يترتب عليها · الخوف ، والقلق · ولكن مع النصح بالصبر هنا فى قوله تعالى : « **استعينوا بالصبر** » وتأكيد هذا النصح فى تعقيب الآية · « **ان الله مع الصابرين** » ·· فان القرآن عندما طلب من المؤمنين ، أن يستعينوا بالصبر ، أضاف الى الاستعانة به ، الاستعانة بالصلاة أيضا ، وكانت الآية ، « **يا أيها الذين آمنوا ، استعينوا بالصبر ، والصلاة** » ·

وكذلك فى مقام آخر ، تحدد هذه الآية جوه :

« **يا بنى اسرائيل**

اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم (أى بانقاذكم من : الذل والهوان ، لفرعون مصر) ·

---

(١) البقرة : ١٥٣ ـ ١٥٦ ·

١ ـ **وأوفوا بعهدى اوف بعهدكم ، واياى فارهبون · وآمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ،**

٢ ـ **ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، واياى فاتقون · ولا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق وانتم تعلمون ·**

٣ ـ **واقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين · أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون ؟·**

٤ ـ **واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانهـا لكبيرة الا على الخاشعين** (أى على : المتواضعين غير المستكبرين وغير الطغاة ، وهم : الرعية ، أو الفقراء) ·

الذين يظنون : أنهم ملاقوا ربهم ، وانهم اليه راجعون » (١) ··

فالجو القائم فى هذه الآيات ، هو ، أن بنى اسرائيل ، رغم نعمة الله عليهم بانقاذهم من الذل والاستضعاف الذى ذاقوا بسببه ألوانا عديدة من : العذاب واهدار الآدمية ، فى مصر ، ورغم ما سجل فى التـوراة من عهد : قطعوه على أنفسهم ، بالايمان بكل رسول يأتى ، بما فيهم الرسول : محمـد صـلى الله عليه وسـلم ، فـان بنى اسرائيل ، تحت تأثر الكبراء فيهم بحب الرياسة ، والاستمتاع بمتع الحياة وزخرفها ، أعلنت الكفر برسالة الرسول : محمد عليه الصلاة والسـلام · ثم كذلك فى سـبيل الحرص على الزعامة والرياسة ، والبقاء فى التبعية للاتجاه المادى فى الحياة كانوا يخلطون الحق بالباطل ، مع العلم بالحق فى ذاته ، كما كانوا يستخدمون التأويل التعسفى فيما جاء بالتوراة لتبرير كفرهم ، رغم نصح الأحبار منهم لأتباعهم : بطـاعة ما جاء فيها · فكان تنديد القرآن بصنعهم ، وبموقفهم ، وبعدم وفائهم للعهد ، وكذلك لما جاء فى الكتاب المنزل اليهم · ثم طلب اليهم : أن يوفوا من جديد بالعهد ، ويؤمنوا بالقرآن ، ويطرحوا التزييف وخلف الحق بالباطل جانبا ، وبأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويدخـلوا بذلك فى صـفوف المؤمنين : « **واركعوا مع الراكعين** » ويتخلوا عن الكبرياء والرياسات ، واتباع ما أترفوا فيه ، وبأن يستعينوا على التغلب على الوقوع فى اتجاه المادية فى الحياة ، وفى اتباعهم لأهواء النفس فى الزعامة ، ولشهواتها فى الاستغراق فى الملـذات ، ثم فى الانتقال الى خط الايمان بالله وحده ، والتحرر من سيطرة الأنانية ، وطغيان المادية ·· أن يستعينوا بالصبر ، وبالصـلاة معا · وأضـاف الى

---

(١) البقرة : ٤٠ ـ ٤٦ ·

الصبر : الصلاة ، رغم انه طلبها من قبل : مع الزكاة ، والاندماج عن طريقهما معا فى صفوف المؤمنين ·

فالوضع لبنى اسرائيل : الكفار ، والطغاة الآن ، عن طريق المادية ، وضع : يتطلب الاحتمال والصبر منهم ، فى التحول من : وضع التبعية الى المادية ، الى السيطرة على النفس وأهوائها وشهواتها · فهو وضع تسود فيه المشقة النفسية ، لأنه انتقال من الضد الى الضد ، ولكن القرآن ـ لما لمنزلة الصلاة من أثر فى ابعاد السيطرة المادية ، وبالتالى فى تحرير النفس من طغيانها الذى يتمثل : مرة فى الميل الى الرياسة ، واخرى فى الاستغراق فى الملذات الحسية ـ يضيف الصلاة ، الى : الصبر هنا ، لمضاعفة شأن التغلب على المشقة النفسية القائمة فى الوضع الموجود حينئذ بين الاسرائيليين ·

وفيما جاء فى تقرير : شأن الصلاة هنا ، فى قوله تعالى : « ··· **وانها لكبيرة ، الا على الخاشعين** (أى على الضعفاء الذين لم يتورطوا كثيرا فى التبعية للمتع المادية) · **الذين يظنون : أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم اليه راجعون** » يشير الى ؛ أن مباشرة الصلاة ـ وهى العامل الأساسى فى التحول النفسى ، من : ترك النفس فى التبعية المادية الى رفعها فوق مستوى هذه التبعية ـ أمر يشق كثيرا على النفس الطاغية والمستغرقة فى التبعية المادية ، فهذه النفس أشبه بنفس « مدمنة » · أى ليست لها ارادة على ممارسة ما يخرجهـا من ادمانها ، وهى لا تقبل على هذه الممارسة الا بشق الأنفس ، والا كارهة غير راضية ·

أما النفوس الأخرى ـ وهى : عادة نفوس الضعفاء من الفقراء والرعـايا والأتباع للأثرياء ، الذين لا يملكون من المتـع المادية ما يجعلهم طغاة أو يجعلهم أشـبه « بالمدمنين » ـ فلا تشق عليهم مبـاشرة الصـلاة عند طلبهـا من جديد منهم · لأن ضعفهم فى الاقتناء ، والترف ، والوجاهة والجاه ، يجعلهم أقـرب الى المصدقين باليوم الآخر ، وبلقاء الله فيه · أى يجعلهم قريبين الى العـودة الى الايمان بالله ، والخلاص من التبعية المادية فيؤمنوا بالآخرة كما آمنوا بالله وحده « **الذين يظنون · أنهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون** » · والفريقان : ـ من تشق عليه الصلاة ، ومن لا تشق عيه ـ هما من بنى اسرائيل : كبراؤهم وزعماؤهم ، والمترفون فيهم ، وأصحاب الجاه منهم ، يمثلون الفريق الأول · والفقراء الضعفاء ، غير أصحاب الحظ الموفور فى المتـع واقتنائها ومباشرتها ، والبعيدون عن الحكم والرياسة ، يمثلون الفريق الثانى ·

والآية اذن فيما تقول : « **واستعينوا بالصبر ، والصلاة** » ·· تطلب الى جميع بنى اسرائيل عامة ، فى تحويلهم من الكفر برسالة الرسول عليه الصـلاة

والسلام ، الى الايمان بها ، ومن العنجهية المادية فى الزعـامة ، ومتع الحيـاة وزخرفتها ، الى الاسلام ، حتى يكونوا فى صفوف المؤمنين : « **واركعـوا مـع الراكعين** » وليسـوا فوقهم ، أو فى عـزلة ونفـرة منهم ٠٠ تطـلب اليهم : أن يستعينوا بالصلاة ، بجانب الصبر والاحتمال ٠ ثم فيما تقوله بعد ذلك فى وصف الصلاة : « **وانها لكبيرة** » ٠٠ تقوله بالنسبة للمتكبرين والمتعجرفين من أصحاب الترف والرياسات من بنى اسرائيل ، على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ٠ وفيما تستطرد فيه بعد هذا ، من قولهـا فى صـورة الاستثناء : « ٠٠٠ **الا عـلى الخاشعين ٠ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون** » ٠٠ تقصد به الفريق الآخر من بنى اسرائيل الذى لم يكن تأثره بالمادية وبالاتجـاه المادى فى الحياة ، من القوة ، على نحو تأثر الكبراء والسادة الأحبار منهم ٠ وهو ذلك الفريق الضعيف عادة فى المجتمع ، بسبب قلة حظه فى الحياة المادية ، وبعـده عن الرياسات ، وشرف الأسرة أو القبيلة ، وهو مع ذلك كافر أيضا بالرسـول وبرسالته تبعـا للوجهاء منهم ، فى الكفر ٠

وليس بسليم ـ فى التفسير لهذا الاستثناء ـ اذن : أن يقصد بقوله تعالى « ٠٠ **الا على الخاشعين** » المؤمنون من أمة الرسول عليه الصلاة والسلام ٠ لأنهم بايمانهم بالله وحده ، وباليوم الآخر ، يؤمنون ويوقنون ـ ولا يظنون فقط ـ بلقاء الله فى الآخرة وبالرجوع اليه بعـد البعث ٠

فالوصف لهذا الفريق بأنهم : « ٠٠٠ **الذين يظنـون أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم اليه راجعون** » وهو كناية عن تخلخل الاتجاه المادى فى حياتهم وعـدم سيطرته عليهم ، وهم من أجل ذلك : أقرب الى الايمـان باليوم الآخر وبلقـاء الله ٠٠ يشير الى أنهم : من الكافرين من بنى اسرائيل ، غير المتعنتين فقط ٠ ولذلك يسهل عليهم التحول ، من : الكفر الى الايمان ٠

و « الصلاة » اذن هنا ـ فى توجيـه القرآن لبنى اسرائيل ـ هى كبيرة وشاقة على المتعنتين ، من الوجهة النفسية وحدها ٠ وهى كذلك ، من الوجهـة النفسية وحـدها ، يسـيرة ومذللة عـلى غير المتعنتين من الكافرين من بنى اسرائيل ، الذين لم يتبعوا رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ٠ والصلاة اذن ، من حيث الركوع ، والسجود ، والأداء البدنى ، لا تنطوى على مشقة ٠ والمشقة أو عدمها ، هى الاقدام عليها ٠ اذ الاقدام عليها ، معناه : التنازل عن وضع كان قائما ، والنقـلة الى وضع آخر مرغوب فيه : اجتماعى ، واقتصادى مـادى ٠

★ وعن طريق الصلاة ـ لأهميتها فى تخطيط اتجاه حياة الانسـان ـ لا يتميز بها المؤمن عن المنافق ، والكافر فقط ، وانما نتيجة أدائها فى وعى :

النصر الأبدى للفرد ، والمجتمع · بينما اداؤهـا فى رياء ، لا ياتى الا بالضلال والحيرة فى سبيل الحياة · والذى يؤديهـا فى وعى تام ، هو المؤمن · والآخر الـذى يباشرها فى ريـاء ، هو المنـافق · أما الكافر فهو لا يؤديها ، وانمـا يستهزىء ويسخر بمن يؤديها ، وهو ليس الا ذلك المادى فى حياته ، الـذى تخـلى عن ارادته وحريته ، ليقع تحت الاغراء والفتنة بالمتع الحسية · ونهاية أمره ـ سواء أكان فردا أم مجتمعا ـ وهو القضاء على ذاته ، بفعل نفسه :

١ ـ يعـد الله المؤمنين بالدفـاع عنهم ، والوقـوف بجـانبهم ونصرهم حتما ، وهم أولئـكم الذين ، ان تمكنوا فى الأرض ، أقاموا الصلاة ، وآتـوا الزكاة ، وامروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر : « **ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور · أذن للذين يقاتلون** (وهم أولئـك المؤمنون) **بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير · الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا : ربنـا الله ، ولولا دفـع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيـع ، وصلوات ، ومساجد ، يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز · الذين ان مكناهم فى الأرض اقـاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وامروا بالمعـروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عـاقبة الأمور** » (١) · ويعدهم كذلك بسعة الرزق ، وزيـادة الفضل ان لم تصرفهم التجارة ، بالبيـع والشراء ، عن مباشرة الصلاة فى وقتها ، وايتاء الزكاة فى حينها : « **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيهـا بالغـدو والآصال · رجال لا تلهيهم تجـارة ولا بيـع عن ذكر الله ، واقـام الصلاة ، وايتـاء الزكـاة ، يخـافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصـار · ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشـاء بغير حساب** » (٢) · فيعد الله المؤمنين هنا : بالنصر مرة ، كما يعدهم بزيادة الفضل وسعة الرزق مرة أخرى ، والمؤمنون هنا : هم أولئك الذين يرسـبون فى أعمـاق نفوسـهم حقيقة الألوهية · فلا التمـكن فى الأرض بمغـر لهم ، ولا التجارة ، بالبيـع والشراء بملهية لهم : عن ذكر الله ، وعن جـلاله فى الصلاة ، حين يؤدونها فى وقتها ، دون تأخير ، أو كسل ·

٢ ـ كما يصف المنافقين ، ويعرفهم عن طريق الصلاة وحدها ، فيمـا تذكره الآية القرآنية الكريمة : « **ان المنافقين يخادعون الله وهو خـادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس** (فى أدائها) **ولا يذكرون الله الا قليلا · مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجـد له سـبيلا** » (٣) ··· فالمنافقون ليسـوا فقط : مذبذبين ، بين

---

(١) الحج : ٣٨ ـ ٤١ ·　　　(٢) النـور : ٣٦ ـ ٣٨ ·
(٣) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣ ·

الكافرين صراحة والمؤمنين ، ولا ينتمون فى واقع الأمر : الى أى من الفريقين ، بل يتجهون الى هؤلاء ان كانت لهم منفعة مادية ، والى أولئك ان كانت لديهم منفعة مادية أخرى : « **الذين يتربصون بكم ، فان كان لكم فتح من الله قالوا : الم نكن معكم : وان كان للكافرين نصيب** (أى فى النصر) **قالوا** (أى لهم) : **الم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟** » (١) · بل أمارتهم الحقيقية الواضحة : أنهم اذا قاموا الى الصلاة ، قاموا كسالى · ذلك لأن الصلاة فى حقيقة أمرها ، وصحة أدائها : الفصل بين الايمان ، وما عداه من نفاق ، أو كفر ·· فالمؤمن فى حقيقته يقبل فى مسرة وفى شوق الى لقاء المولى عز وجل ، على الصلاة لأنها هى مجال اللقاء النفسى · أما الكافر فلا يقبل اطلاقا ، بل يرفض ويستهزىء بمن يؤديها · والمنافق ، لأنه يريد أن ينتفع انتفاعا ماديا من المؤمنين والكافرين معا ، ليس لديه الدافع النفسى للاقبال على الصلاة ، ولكنه لابد أن يصلى حتى يستمر فى منفعته من المؤمنين كواحد منهم فى ظاهر الأمر ، فيقبل عليها فى كسل وتراخ ·

٣ ـ وبالاضافة الى هذا وذاك ، فان القرآن لا يحدد الكافرين من موقفهم من الصلاة · فأمرهم واضح تجاه الايمان بالله وحده ، وهو الرفض · ولذا كل ما يخص الايمان بالله وحده ، هم يستخفون به ، تقليلا لشأنه ، وخداعا لأنفسهم بصحة مسلكهم · وانما يطلب من المؤمنين بادىء ذى بدء : عدم اقامة علاقة ولاء ، ومودة مع الكافرين · ويبرر ذلك : بأن هؤلاء يستهزئون بدين المؤمنين ، ويسخرون بوجه خاص : من الصلاة ، عند أدائها ، والنداء اليها : « **يا أيها الذين آمنوا : لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا ، من الذين أوتوا الكتاب قبلكم ، والكفار ، أولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين · واذا ناديتم الى الصلاة ، اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** » (٢)· والكافرون يسخرون بوجه خاص من الصلاة ، لأنها تكاد تكون كل شىء يميز بين صحيح الاتجاه فى الحياة : فى النظرة ، والسلوك ، وخاطىء السبيل فيها : فى النظرة ، والسلوك كذلك · ولا ريب بعد ذلك أن نداء القرآن الى المؤمنين ، فى قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا : اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاسعوا الى ذكر الله** (أى الى الصلاة) ، **وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ، ان كنتم تعلمون · فاذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » (٣) ·· لا ريب : أن نداء القرآن هذا ، هو نداء يرتكز على قيمة الصلاة ، فى الفصل بين الاتجاه الصحيح والاتجاه الآخر الخاطىء فى النظرة والسلوك معا فى الحياة · ولذا كان تقرير الآية الأولى ،

---

(١) النساء : ١٤١ ·
(٢) المائدة : ٥٧ ، ٥٨ ·
(٣) الجمعة : ٩ ، ١٠ ·

من هاتين الآيتين : بأن الاستجابة الى هذا النداء « خير » : « **ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون** » كما كان ربط الأمل فى الفلاح فى السعى ومباشرته ، بعد أداء الصلاة فى الآية الثانية ٠٠ وهذا وذاك من النتائج المتوقعة للمسلك الصحيح ، وهو مسلك الايمان بالله وحده ٠٠٠ مسلك الصلاة والالتقاء فيها مع الله جل جلاله ، والحرص على استحضار جلاله دوما ، فى كل صلاة لا يتأخر بها عن وقتها أبدا ٠

★ ولكى لا تفتر حيوية الفاعلية للصلاة فى حياة المؤمن بالله وحده ، ينصح القرآن الكريم ـ بجانب ما تفصح به السنة النبوية من الصلاة النافلة وراء الصلاة المفروضة ـ بذكر الله فى كل وضع ، وفى كل حال للانسان ٠ فهو يوجه الى الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « **واذكر ربك فى نفسك ، تضرعا** (أى توسلا) **وخيفة** (أى وخشية من أن يغلب أمرك ، ما فى الحياة من مغريات) **ودون الجهر من القول ، بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين** » (١) ٠ ويطلب اليه ، عليه الصلاة والسلام ، أن يكون قدوة للمؤمنين فى ذكر الله ، فى غير الصلاة : الفريضة والنافلة ، وفى غير جهر وعلانية ، وفى بداية النهار وآخره ، غير غافل لشأن هذا الذكر ، وأثره على الايمان بالله وحده ، وحيوية فاعليته فى حياة المؤمن ٠ كما يوجه الى المؤمنين النداء : « **يا أيها الذين آمنوا : اذكروا الله ، ذكرا كثيرا ٠ وسبحوه بكرة وأصيلا ٠ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ، ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما ٠ تحيتهم ، يوم يلقونه ، سلام ، وأعد لهم أجرا كريما** » (٢) ٠ وهو نداء يوصى فيه : بذكر الله كثيرا ، دون تقيد بوقت ، أو بوضع للانسان ، كما يوصى بتسبيح الله وتنزيهه عن الشرك فى بداية السعى ونهايته ، وهو أول النهار وآخره ٠ حتى يكون السعى مثمرا ، وبعيدا عن انحرافات الشرك والمادية ، وهذه الغاية التى تترتب على ذكر الله كثيرا ، هى التى تذكرها الآية الأخرى بعد آية النداء : « **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ، ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما** » ٠ فصلاة الله على المؤمنين : هى رحمته بهم ، فى أن صاروا مؤمنين به وحده ، وغير ضالين فى طريق المادية واغرائها ، وكذلك ما لهم من عمل أو سعى ، لا ظلم فيه لأحد حتى لأنفسهم ٠ وبذلك لا تمسهم ظلمات المادية فيتخبطون فى السير والحركة ، أو ينحرفون فى تحصيل ما يحصلونه من رزق الله وفضله فى نهارهم ٠

واذ يطلب القرآن هنا فيما قبل ، من رسول الله عليه الصلاة والسلام من : ذكر الله فى أول النهار وآخره ، ويطلب الآن ، من المؤمنين : أن يذكروا الله كثيرا

---

(١) الأعراف : ٢٠٥ ٠ (٢) الأحزاب : ٤١ ـ ٤٤ ٠

دون تحديد لوقت معين ، على أن يسبحوه ، فى أول النهـار وآخـره ٠٠ فان التسبيح ، أولا : هو ذكر الله جل شأنه ، وذكر له بالصفة المميزة له تماما عن كل موجود آخر سواه ، وهى صفة « الوحدة » : وثانيا : تخصيص أول النهار وآخره ، كى يستعين الانسان بالله ـ عن طريق تذكره على عمله فى بدايته ، وكى يشكره عن هذا الطريق كذلك ، على توفيقه اياه فى نهاية العمل ٠ ولا يقصد القرآن اطلاقا ، من : ذكر أول النهار وآخره هنا ، وهناك ، تحديد وقت لذكر الله ، كأوقات الصلاة الفريضة مثلا ٠ اذ ذكر الله مطلوب فى غير زمان ومكان ، وفى أى وضع للانسان ٠ كى يبقى المؤمن فى حيوية ايمانه بالله وحده ٠

وفى آيات أخرى من القرآن الكريم نجد هـذا واضحا فى قوله تعالى : « **ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهـــار ، لآيات لأولى الألباب ٠ الذين يذكرون الله قياما ، وقعودا ، وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ! فقنـا عـذاب النار** » (١) ٠ وفى قوله أيضا : « **فاذا قضـيتم الصلاة فاذكروا الله قيـــاما وقعودا ، وعلى جنوبكم ، فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** » (٢) ٠٠ فيصف فى قوله الأول : الذين يذكرون الله فى أى وضع لهم ، وفى أى وقت ، بأنهم : أولوا ألباب ، مما يدل على العناية بذكر الله فيما وراء الصلاة كذلك ٠ كما يوضح القول الثانى مطلوب القـــرآن من المؤمنين ، فى : أن يذكروا الله فى كل وقت ، ووضع ٠ ولا يغير هذا المطلوب : أن الذين يوجه اليهم من المؤمنين كانوا فى شدة ، هى شدة الاشتبال فى قتـال مع الأعداء ٠ لأن الشدة اذا استدعت ذكر الله كثيرا ، فمعنى ذلك : أن ذكر الله له أثر فى حياة الانسان ، على نحو ما للصلاة من أثر فى هذه الحياة ٠ وهنا يكون النداء للمؤمنين ـ مقيـــدا أو مطلقا عن الوقت ـ بذكر الله ، بجـــانب الصلاة ، هو : لاستمرار « حيوية » الحقيقة النفسية ، وهى حقيقة الايمـان بالله وحـده ، التى تترسب فى نفس المؤمن ، عن طريق الصـلاة ٠ اذ ليست الصلاة الا ذكرا لله جل شأنه فى وحدانيته ، وفيما له من صفات تدفع المؤمن به الى القربى منه ، والتوجه اليه فى كل عمل ، لصالح نفسه ومجتمعه ٠

وصورة ذكر الله هى ، كما جاء فى القرآن الكريم عندما يطلبه من الرسول عليه الصلاة والسلام فى غير جهر وعلانية ، وهى ما يجب أن ينهج المؤمنون نهجها : اذ المطلوب تأثر النفس بالمولى سبحانه وتعالى ، عنـــدما يذكر جل جلاله على نحو ما تصور الآية : « **انما المؤمنون الذين اذا ذكـــر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمـانا ، وعلى ربهم يتوكلون ٠ الـذين**

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ ٠ (٢) النساء : ١٠٣ ٠

يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون · أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » (١) · ولا شك أن تلاوة القرآن صورة واضحة لذكر الله ، ولكن من غير أن يصحبها : ما يخرجها عن أن تكون ذات فعالية ·

★ والمسجد لكى تبقى للصلاة أثرها ، ولذكر الله فعله ، يجب أن يمنع فيه : ذكر أى موجود سوى الله تعالى ·· يجب أن لا يشرك فيه غير الله ، من انسان مهما كان وضع الذى يذكر اسمه ، ومهما كانت صلاحيته · اذ ذكر أى انسان بجانب الله ، فى بيت الله ، من شأنه : أن يصرف قليلا أو كثيرا ، التركيز على تصور الحقيقة النفسية لوحدة الله سبحانه ، وعلى ترسيبها فى نفوس المؤمنين ·

والشرك بالله ليس الا رفع ما عدا الله فى مستوى جلال الله وقدسيته ، وليس أيضا الا صرف القلوب وأعماق النفوس عن أن تعى الحقيقة الالهية وعيا كاملا وواضحا : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال · رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع ، عن ذكر الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار · ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » (٢) ·

هذا وضع بيت الله ، وهؤلاء هم المؤمنون الذين وعدوا بالنصر أبدا ، على شهواتهم وعلى أهوائهم وعلى أعدائهم · وهذه هى الصلاة ، التى أعدتهم للنصر · وهذا هو ذكر الله ، الذى زاد فى طاقتهم على التغلب على صعاب الحياة ومشاقها · وبهذا تكون الصلاة ذات صلاحية فعالة ، وعميقة فى تجربة المصلى فى صلته بالله ، وعبادته اياه وحده · وبالتالى : ذات أثر قوى فى تحويل النظرة الاسلامية الى المادية ، والشرك ، الى حقيقة نفسية ، يصدر عنها المؤمن فى الابتعاد عنها ، والركون الى الله وحده ، فوق المتع الحسية ومغرياتها · « الصلاة الصلاة · وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون »· تلك وصية الرسول عليه الصلاة والسلام للمؤمنين فى مرض موته ، أراد أن يدلهم فى اختصار : ما به وجودهم ، وعزتهم فى حياتهم ·

★ ★ ★

---

(١) الأنفال : ٢ ــ ٤ ·

(٢) النور : ٣٦ ــ ٣٨ ·

الفصل الثالث

الصوم فى مجال اجتياز الأزمات

★ لكى يستطيع المؤمن بالله وحده ، ان يلتزم بما آمن به ، وأن يلتزمه مختارا ، وأن يجتاز العقبة النفسية الداخلية ، وهى هواجس الشهوة والهوى ، فى سبيل التنازل عن بعض ما فى يده كثر أو قل – تحقيقا للمنفعة العامة للمال ٠٠ كانت عبادة الصوم كتجربة نفسية ، وكعبادة يتقرب بها الى الله ، يجب أن يمر بها المؤمن ، ويستمر من وقت لآخر فى مباشرتها ٠

ولكى يستطيع المؤمن بالله وحده ، أن يواجه كذلك مشقة الحرمان ويتغلب عليها ، حتى لا يذل لفتنة التمتع الحسية واغرائها ، وعندئذ يقع تحت التبعية لها من جديد فيسىء الى ايمانه بوحدة الألوهية ، وينتقل الى سلوك الشرك والتقلب فى العبادة ، من أجل هذه المتع ٠٠ كانت عبادة الصوم ، هى : السبيل الواضح للمؤمن فى الوقوف ، فى عزم وصبر واصرار ، أمام مشقة الحرمان المؤقت ٠

وتحقيق المنفعة العامة للمال عن طريق الصوم ليس اذن عطفا على من تعطى اياه ، بقدر ما هى واجبة الأداء فى صورة ، لا يشق على النفس أداؤها ، عندئذ ٠ فأوجه المنفعة العامة ليست فحسب : رعاية العاجز عن السعى فى الحياة ، ولا تغطية حاجة من يقصر سعيه عن ضرورات معيشته ٠ وانما هى عديدة ، بقدر ما تحتاجه المصلحة العامة للأمة ٠

فالصوم الآن – وهو التجربة النفسية على الحرمان ، كقربى الى الله – يستهدف تحقيق : « القدرة » فى الذات ، وهى حقيقة نفسية ، تصور حرية الارادة الفردية فى تحديد الموقف ، وتعيين سبيل السلوك فى الحياة ، وبهذه القدرة الذاتية : يفى المؤمن بما يلتزم به ، ويكون وفاؤه ليس عن الزام خارجى له ٠ هذه التجربة النفسية على الحرمان ، هى الكفيلة بتحقيق « النظرة » الاسلامية فى المادية ، وفى المال معا ٠

فاذا كانت النظرة الى المادية ، على : أنها مصدر الفواحش ، والمنكر ، والبغى ، والطغيان ، والعبث والفساد ، فالوقاية من الاستسلام الى الاتجاه

المادى فى الحياة ، أو تحدى هذا الاتجاه ، انما هو : فى « استساغة » الحرمان استساغة نفسية ، وفى عدم اعتبار : أنه شقاء ، بل اعتبار : أنه ضرورة من ضرورات الحياة البشرية تقع ، كما تقع أية ضرورة أخرى من ضروراتها ٠

واذا كانت النظرة الى المال فى الاسلام ايضـا ، على : أن وظيفته اجتماعية ، أى أن منفعته عامة للكل ، فالسبيل الى تيسير أمر هذه الوظيفة الاجتماعية للمال ، وتحويل تلك النظرة الى ما يشبه « العادة » فى سهولة أدائها ٠٠ يكمن فى تجربة الصوم كعبادة ٠ فالامساك عن المتع الحسية وقتئذ ــ أى وقت كون الصوم عبادة ــ ليس عن عجز فى اقتنائها ، اذ هى موجودة ومتوفرة ، وانما عن عبادة وقربى الى الله تعالى ، عن اختيار ومشيئة ٠ وما يسمى بـ « القناعة » ليس : امساكا باختيار القانع عن متع حسية ، وليس عن عجز عنها ، بل هناك رغبة فى رضاء الله ، بدلا عنها ٠

وتجربة الصوم كعبادة اذا كانت تجـربة على استساغة الحـرمان ، استساغة نفسية ، من المتع الحسية وشهوات النفس فيها ، وليس عن عجز وانما عن قدرة ، واذا كانت ضرورة فى حياة المؤمن كسبيل لتحويل النظـرة الاسلامية الى « واقع » فى نفس الذات ، هو « عادة » أو « ارادة » أو « طاقة » على الصبر والتحمل ٠٠ فانه ــ أى الصوم كعبادة ــ لابد أن يكلف بها : من يقدر عليها ، وأن تكون فترتها فى استطاعة الانسان ، وأن تتخلل حياة الانسان، كما يتطلب شأن العبادة : التكرار ، وكما تتطلب القوى النفسية وجود البواعث لحيويتها ٠ وهنا نجد القرآن ، يحدد فى الآيات التالية : ما تتطلبه هـذه التجربة من أوضاع ، كى تبقى حية ذات فعالية فى حياة المؤمن بالله : « يا أيها الذين آمنوا :

١ ــ كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون ٠ أياما معدودات ٠

٢ ــ فمن كان منكم مريضا ، أو على سفر فعدة من ايام اخر ، وعلى الـذين يطيقونه فدية : طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خيـر له ، وأن تصوموا خير لكم ، ان كنتم تعلمون ٠

٣ ــ شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الـهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ٠

ومن كان مريضا ، أو على سفر فعدة من ايام اخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ٠

٤ ــ ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » (١) ٠

٠٠٠ **فأولا** : يحدد القرآن فرضية الصوم ووجوبه ٠ وهو فريضة وواجب منذ رسالة الله على الأرض ٠ وفرضيته ووجوبه اذن ، جزء لا يتجزأ من دين الله ، وهو الاسلام : « **كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم** » ٠ وكما يحدد وجوبه ، يوضح هدفه فى قوله : « **لعلكم تتقون** » ٠ وهو اتقاء فتنة المادية واغرائها ، والوقاية من الانسياق فى تيار الاتجاه المادى فى الحياة ، الذى يوصل عادة الى الطغيان والفساد ٠

٠٠٠ **وثانيا** : يربط وجوب أدائه باستطاعة الانسان البدنية ٠ فان شق على الانسان فى وضع معين له ، كالسفر والمرض ، فيرخص له بالفطر ، على أن يعيد صوم الأيام التى أفطر فيها فى وقت آخر ، لا يشق عليه أداؤه فيــه : « **فمن كان منكم مريضا أو على سفر ، فعدة من أيام أخر** » ٠ ومع هذه الرخصة للمسافر والمريض ، فالذى يستطيع منهما الصــوم ، يجب عليه أن يخــرج من طعام اليوم ما يكفى فردا عن كل يوم يفطر فيه ، وان زاد فيما يخرجه بحيث يكفى أكثر من فرد واحد فهو خير له يثاب عليه : « **وعلى الذين يطيقونه فدية طعــام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له** » ٠ ومع ذلك فصوم المســافر أو المريض ــ الــذى يستطيع منهمــا الصوم ــ خير لأى منهمــا من الافطار ، والفدية : « **وأن تصــوموا خير لكم** » ٠ لأنه سينفع الصائم فى شد عزيمته ، وابعاد التراخى فى قوة احتمال الحرمان ومشقته : « **وأن تصوموا خير لكم ، ان كنتم تعلمون** » ٠ و « الطاقة » على الصوم التى تتحدث عنها الآية هنا : « **وعلى الذين يطيقونه** » هى طاقة المسافر أو المريض ــ وليس القصد طاقة : من يظن منه عدم الطاقة ــ الشيخوخة مثلا ــ أثناء سفره ، أو أثناء مرضه ٠ لأن عدم الصوم مع الطاقة للمسافر والمريض يكون رخصة له عندئذ ٠ والا اذا كان أى من المسافر أو المريض ، يضره الصوم يكون افطاره عندئذ واجبــا ، وليس رخصة : يجوز له بسببها أن يفطر ، كما يجــوز له أن يمسك ٠

٠٠٠ **وثالثا** : يحدد وقت أداء الصوم العبادة والفريضة ، بشهر رمضان المبارك ٠ وهو بهذا التحديد يهىء جوا روحيا خاصا ، يزيد من فعالية الصوم فى « التجربة » فى سبيل احتمال الحرمان ومشقته ٠ فشهر رمضان هو الشهر الذى أنزل فيه القرآن بهدايته وببيانه للطريق المستقيم ٠ وهو الطريق الــذى يجنب من يسلكه انحرافات المادية وعبثها : « **شهر رمضان الذى أنزل فيــه القرآن هدى للنــاس وبينــات من الهــدى والفرقان ، فمن شهد منــكم الشهر فليصمه** » ٠

---

(١) البقرة : ١٨٣ ــ ١٨٥ ٠

وأما ما جاء مرة أخرى فى شأن المريض المسافر فى قوله هنا : « **ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** » ٠٠ فجاء ليوضح سبب الرخصة فى عدم الصوم ، أثناء المرض أو السفر ، وهو دفع حرج المشقة ، التى تبعد الصوم عن كونه « عبادة » أى قربى تنطوى على مسرة يتقرب بها الصائم الى الله جلت قدرته : « **يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة** »٠ وقد فهم بعض الذين يعالجون شئون التفسير لكتاب الله : أن ما جاء فى قوله : « **وعلى الذين يطيقونه : فدية طعام مسكين** » ٠ هو نسخ لما ورد من قبل فى الآية السابقة ، فى قوله « **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** » وهو فى هذا التفسير يقطع صلة هذا القول : « **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** » عن المريض والمسافر فى الترخيص لهما بالفطر ، مع استطاعتهما مباشرة الصوم ، ويجعل هذا الحكم مستقلا ومنشئا وضعا خاصا فى عبادة الصوم ، وهو : أن القرآن فى بداية تقرير عبادة الصوم جعل القادرين من المؤمنين مخيرين بين الصوم أو الفطر مع الفدية ، وهى طعام المسكين ٠ ثم نسخ هذا الحكم ، بما جاء فى الآية بعد ذلك ، من قوله : « **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** » فرفع التخيير عندئذ وأوجب الصوم وحده ٠

ولكن ماذا يقول صاحب هذا التفسير فى بدء النداء للمؤمنين هنا ، فى تقرير الصوم : « **يا أيها الذين آمنوا : كتب عليكم الصيام** » ؟ ٠ أليس هذا القول مساويا لقول الله تعالى : « **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** » ؟ من حيث الوجوب والتكليف ٠ ان الله سبحانه وتعالى أعاد أمر الوجوب هنا فقط بالنسبة للمدة ٠ وهى الشهر ٠ ولكن وجوبه كعبادة ، تقرر بما جاء فى النداء السابق « **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام** » ٠

٠٠٠ **ورابعا :** يطلب من المؤمنين أن يشكروا الله جلت قدرته ، ويكبروا ويهللوا بذكره وبعظمته ، على فريضة الصوم كعبادة فى حياة المؤمن ، وعلى ما هداهم اليه فى تجاربهم ، ليكونوا خليقين بانسانيتهم ، وهى التجارب التى تتمثل فى العبادات ٠ فكل واحدة منها وان اتصلت بمجال معين فى حياة الانسان اتصالا وثيقا ، فهى تتصل بالجانب الآخر بقسط له أثر فيه ، وهى كلها تصقل الانسان بما تكونه من عادات لديه ، وبما تنشئه من ملكات وقدرات خاصة ، تساعد على تحويل « النظر » الى « واقع » و « الفكر » الى « تطبيق » ٠ ولولا هداية الله ـ ولذا يجب على المؤمنين به شكره ـ لما استطاع أن يخرج الناس من اغراء المتع الحسية والتبعية لها : « **أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم** » (١) ٠

---

(١) محمد : ١٤ ٠

★ **ان الامساك ـ لأداء فريضة الصوم ـ وقت الرخاء ، أى وقت اقتناء المتع الحسية واستطاعة الاستمتاع بها ، يعيد للمؤمن طريق النجاح فى الاختبار بالنعم التى يفيض بها الله عليه ، والتى لها اغراء وبريق يخدع ويفتن : « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم : ايهم احسن عملا » (١)٠ فالصائم عن قدرة ـ وليس عن عجز ـ هو الذى لا يدع نفسه لخداع ما على الأرض من زينة ، ويتورط فى بريقها ، وبذلك ينحرف فى مسلكه ، ويتخذ من تلك النعم : طريقا للظلم والطغيان ، والفساد ، بسبب تبعيته لما أترف فيه حينئذ ٠**

وذلك هو الطريق لاجتياز الابتلاء ، بتفاوت المستويات فى الاقتناء واختلاف درجات الثراء ومنازل الغنى بين الناس ٠ فكما جعل الله ما على الأرض زينة لاختبار أثرها على النفوس ، كذلك جعل تفاوت الغنى والمال امتحانا للنفوس الضعيفة والقوية ، والصادقة فى ايمانها والمترددة فيه : « **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فى ما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب ، وانه لغفور رحيم** » (٢) ٠٠ أى انه سريع العقاب لمن جنح بسبب ما آتاه الله من مال ورزق ، وأصر على غيه فيه ٠ وهو غفور رحيم ، لمن خدع به وقتا ما ، ثم تاب الى الله وسلك الطريق السوى : فى الاستمتاع به من جهة ، وفى تحقيق المنفعة العامة لوظيفة المال الاجتماعية من جهة اخرى ٠ وكما يكون الابتلاء باقتناء النعم ، وبالتفاوت فى الثروات ٠ يكون بالحرمان أو بالأزمات فى ذلك : « **كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، والينا ترجعون** » (٣) ٠ فالحياة عرضة للكثير والقليل ، وللرخاء والضيق ٠ والرخاء أو الكثير اذا كان للانسان ولنشاطه فى السعى أثر فيه ، فان القليل أو الضيق قد يكون نتيجة لعوامل بعيدة كل البعد عن ارادة الانسان وقدرته : « **ولنبلونكم بشىء من الخوف ، والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ٠ الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون ٠ اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** » (٤) ٠

والمؤمن الذى يتقرب الى الله بعبادة الصوم وبامساكه عن المتع ، رغم وجودها بين يديه ، **هو ذلك الذى تمر عليه الأزمات والشدائد بسبب نقص فى الأموال ، والأنفس ، والثمرات ، دون أن تحدث أثرا سلبيا فى نفسه ؛ حتى يهتز ويستسلم لشهوة النفس ، ويسأل ويلح فى السؤال لقضاء ما تشتهيه،**

---

(١) الكهف : ٧ ٠
(٢) الأنعام : ١٦٥ ٠
(٣) الأنبياء : ٣٥ ٠
(٤) البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ ٠

بطريق أو بآخـر · وهـو نفســه الذى تدرب على الصبر والاحتمال · فــاذا ما كانت الأزمة فى الانفس فانه ينقل صبره واحتماله الى مجال فقدها ، دون أن يضطرب ايمانه بالله وباليوم الآخـر ، فيميل الى الاتجاه المادى فى الحياة فينكر : ربــه وآخرته · لأن الاحتمال قدرة وطاقة ، اينمـا تكون الأزمـة ، تواجه بها · ولذا هو من أصحاب الهداية ، وممن رضى عنهم ربهم برحمتـه وتوفيقه ، فتمرس على الصبر ، بتدريب نفسه على الامساك فى الرخاء والشدة على السواء ·

وربما قبل الابتلاء بالدنيا ومتعها ، اقتناء وحرمانا ، يواجــه المؤمن بالله الابتلاء فى الايمان نفسه ·· يواجه الابتلاء فى مدى صدق ايمانه واخــلاصه فيه ·· يواجه التعرض بسبب الايمان ، للقتال مرة ، ولايذاء الأعداء بالقول ، والتآمر مرة أخرى : « **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا ، اذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا ، فان ذلك من عزم الأمور** » (١) ·

ان المؤمنين سيختبرون فى أموالهم بانفاقهــا فى الجهــاد فى سبيل الله ، وسيختبرون فى أنفسهم بالمواجهــة فى قتال الأعداء ، وسيختبرون بالتعرض للسخرية والاهانة والتشهير وترويج الأكاذيب · سيختبرون فى كل ذلك من أجل الايمــان ·

وما لم يكن لهم صبر وتحمل ، وما لم يدربوا على حماية النفس من التأثر بالدنيا فى متاعها والحرمان منها على السواء ، لا يكون لهم عزم ، ولا تكون لهم ارادة قوة نفسية خاصة ، يتقون بها ما يوضعون فيه من أحوال ، مــن شأنها : أن تهز الايمان وتضعفه · ولن تكون هذه المعانى النفسية ، وتجعلها فى أعماق الذات « واقعــا » يواجــه الابتلاء ، الا عبادة الصوم ·· الا الامساك عن نية ، وارادة ورغبة ·· الا الامساك فى تحد لشهوة النفس ، وفى تحد لمتــع الحياة المتوفرة ، وفى تحد للاغراء ولبريق هذه المتع الحسية ·

ان الابتلاء فى شأن الايمان ، لا : ليوضح حسن الاتجاه أو سوء الاتجاه ، قبل الاغراء بزينة الدنيا ومتعها · وانما ليظهــر العناصر الايمــانية الحقيقية والعناصر الأخــرى الانتهــازية · حتى يكون بنــاء المجتمــع بنــاء ســليما : « **ولنبلونكم حتى نعــلم المجاهدين منكم ، والصابرين ، ونبلوا اخباركم** (أى أحاديثكم عن ايمان النفس ، ومدى صدقها) » (٢) · ان الابتــلاء فى شــأن

---

(١) آل عمران : ١٨٦ ·   (٢) محمد : ٣١ ·

الايمان لبيان هذه القوى الثلاث : قوة الجهاد ، وقوة الصبر ، وقوة الصدق في التعبير عن الحقيقة النفسية للايمان ذاته ٠٠ قوة الجهاد بالنفس ، والولد ، والمال ، وقوة الصبر على المشقة والحرمان ، وقوة الصدق فى تحمل نتائج ، وفى سبيل الابتلاء فى شأن الايمان بالله ، يقص القرآن : كيف وضع المؤمنون امـام حقيقتين ، ويوضعون كذلك فى كل وقت أمامهما :

الحقيقة الأولى : أن نصرهم على أعدائهم يجب أن يكون بيدهم هم ، طالما يسلكون طريق الحـق صدقا ، وبينمـا يتبع الأعداء طريق الباطل ٠ والله قادر على نصرة المؤمنين ، ولكنه يتركهم لمدى صدقهم فى ايمانهم :

١ ـ « الذين كفروا وصـدوا عن سبيل الله اضل أعمالهم ٠

٢ ـ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما انزل على محمد ، وهو الحق من ربهم ، كفر عنهم سيئاتهم ، وأصلح بالهم ٠

ذلك : بأن الذين كفروا اتبعـوا البـاطل ، وأن الذين آمنـوا اتبعـوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ٠

« فـاذا لقيتم الذين كفـروا فضرب الرقـاب ، حتى اذا أثخنتمـوهم (أى أضعفتموهم) **فشدوا الوثاق** (خذوهم أسرى) ، **فاما : منا بعـد ، واما فـداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ٠**

٣ ـ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلوا بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم » (١) ٠

٠٠٠ فاتباع طريق الحق ـ ان كان اتباعه فى صدق واخلاص ـ فلابد أن يوصل الى النصر ٠ لأن الطريق الآخر ـ وهو طريق الباطل ـ لا يوصـل الا الى الخراب والتدمير ٠٠ لا يوصل الا الى العبث والفساد ، والى الطغيان ٠٠ لا يوصل الا الى الانقسـام بين كبراء وزعماء يتبعـون ما أترفوا فيـه ، وآخرين أذلاء مستضعفين ، ليس لهم من حظ فى حياتهم ، سوى : الشقاء ، والحرمان ، وذل الضعف والتبعية ٠

واذن الباطل لا يؤدى الى بقاء ، وبالتالى لا يؤدى فى ذاته الى نصر لأتبـاعه ٠ فاذا كان أهل الحق ـ وهم أهل الهداية والترفع عن الاغراء بالاتجاه

---

(١) محمـد : ١ ـ ٤ ٠

المادى فى الحياة ، وتجنب الظلم والعبث والفساد ــ أصحاب صدق واخلاص فيما يقولون ويتبعون ، فلهم البقاء ولهم النصر ، طالما غيرهم ليس له بقـــاء ولا نصر · ومن أجـل هذا المصـير لكل من أصـحاب الاتجاهين ، فالله جلت قدرته ، فى اظهار كل عـلى حقيقته ، يبـلوا بعضـهم ببعض : « **ولكن ليبـلوا بعضكم ببعض** » · فاذا أضيف الى مصير « الحق » فى النصر : أن الذين يقاتلون فى سبيله لن يضل لهم عمل ، ولن يذهب عملهم سدى ·· كان هنـاك دافـع آخر يضاعف فى نصر الحق لذاته · واذن ، فالمؤمن الصادق فى ايمانه ، فى مواجهته لعـدوه فى قتال : لابد أن ينتصر عليه ·

الحقيقة الثانية : أن المؤمنين فى قتالهم مع الكفار ــ فى أحـد ــ وضعوا فى هزيمة ، جرتهم اليها نفوسهم ، تحت التأثر بشهوة الغنـائم والحصول على المنفعة ، بعد ما رأوا أعداءهم يهربون من مواجهة القتال · فأسرعوا الى جمع الأسلاب وتفرقوا فى القتال ، فعاد اليهم أعداؤهم ، ونالوا منهم وهزموهم فى تلك الموقعة · انتصروا أولا بفعـل الدفعـة الأولى من الايمان · ثم طرح بعضهم الايمان جانبا ، وانجذب الى الاتجاه المادى فى الحياة وأغراه ، فكانت الهزيمة للمؤمنين جميعا · وضعوا أمام النصر ، والهزيمة فى موقعة واحدة ، وأمام أثر الايمان بالله ، والفتنة بالمتـع الحسية فى تعاقب ليس بينهما فاصل زمنى ، كى يشهدوا بأنفسهم : سبب النصر ، وسبب الهزيمة ، وكى يتضح : الصادق فى ايمانه ، والمنافق فيه ·· كى يتضح الذى أخذته تجربة الصوم فى صلابة الارادة وقوة العزيمة أمام المغريات الفاتنات أو فى مواجهة الحرمان والأزمات ، من ذلك الذى لم يفـد من عبادة الصوم الا امساكا عن الأكل والشرب ، من يوم الى آخر ، حتى اذا انتهت مدة الصوم عاد الى الانجذاب نحو المتع المـادية ، والى الشكوى من الحرمان ، ان أصابه يوما ما · وهذه الحقيقة الثانية : يقصها القرآن الكريم فى الآية التالية ، والآيات الأخرى بعدها :

١ ــ « **ولقد صـدقكم الله وعده** ، (أى بالنصر) **اذ تحسونهم باذنه** (أى تحصدونهم وتبيدونهم) ،

٢ ــ **حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعـد ما أراكم ما تحبـون : منـكم من يريد الدنيـا ، ومنـكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا الله عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين** » (١) ·

★ وبجانب الصوم الذى هو عبادة وفريضـة ــ وهو صـوم رمضان ــ هناك صوم النافلة ، وهو غير محدود فى زمنـه وأيامه ، وانما عـلى حسب

---

(١) آل عمران : ١٥٢ ·

الاستطاعة البدنية ، بحيث اداؤه لا يخل بواجب آخر ، كواجب السعى وتحصيل الرزق ، أو واجب الزوجية ، أو واجب الأمة والجماعة فى ميدان قتال مثلا ٠

وبجانب هذا النوع ، وذاك : صوم الكفارات ٠ وهو صوم عبادة أيضا ، ويتقرب به الى الله سبحانه وتعالى ، كى يكفر عن جريمة اجتماعية ارتكبها ، فى اندفاع أو تحت التأثر بعادة معينة ٠ أى ارتكبها دون أن يخطط لها ، ويبيت النية على مباشرتها ٠ وفى القرآن جاء الصوم كفارة عن جرائم : القتل الخطأ ، والظهار ، والحلف بالله لغوا ، والصيد فى الاحرام للحج ، أو العمرة :

١ ــ فعن جريمة القتل الخطأ ، كان قوله تعالى :

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ،

ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله ، الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ،

وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فدية مسلمة الى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما » (١) ٠

٠٠٠ وفى تعبير القرآن الكريم عن تحرير الرقبة المؤمنة مع الدية ، أو مع عدمها ، ثم عن الصوم فى حال عدم وجود الرقبة المؤمنة ٠٠ بأن ذلك توبة من الله : « **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله** » ــ وليس عقوبة ، أو حدا ــ دلالة واضحة على ، أنه أولا : أن صوم الشهرين المتتابعين هو عبادة ، وثانيا : أن العبادة لا تكون عقوبة ، أو حدا ٠ وانما هى قربى الى الله ، يتوسل بها هنا للعفو عن هذه الجريمة التى لم تقصد ، كشأن العبادة دائما ٠

وفى معنى عبادة الصوم : تحرير الرقبة المؤمنة ٠ ففى تحريرها قربى الى الله ، لأن التحرير ينطوى على رد الاعتبار البشرى الكامل لانسان ، تملكه آخر بالوراثة ، أو بالقهر ، أو الشراء ٠٠ تملك موضوعا وأمرا لا يملك الا بفعل القوة وحدها ٠ فاذا رد اليه اعتباره البشرى ، وشعر من رد اليه

---

(١) النساء : ٩٢ ٠

اعتباره ، بالمساواة بينـه وبين غيره · لا ينعـكس ذلك على نفسـه وتصرفاته كانسان فحسب ، وانما تعود اليه : « الكرامة » الانسانية التى خلق كل فـرد عليها من الله جل شانه ، وتتجلى فيه الطبيعة كما أرادها الله وسواها فأحسن صـورها · وبذلك يـدل على وجـود الله وعـدله ، اكثر مما لو بقى فى ملكية الغير ، ومسلوب الارادة والحرية والشخصية ، كحيوان يساق ، ولا يتجـه بذاته الى نحو ما يهدف · ان تحرير الرقبة فيها : معنى الزكاة ـ العبـادة ، وفيهـا معنى الانفاق فى سبيل الله الذى هو عبادة أيضا ·

وجريمة القتل الخطأ هى جريمة اجتماعية ، لأن القتـل هو القتل لنفس ذهبت وولت ، بغير حق · سواء أكان عمدا أم خطأ · فالعمد أو الخطأ فى القتل لا يغير اطلاقا من أنه : قتل نفس مؤمنة بغير حق · والخطأ فى القتل يأتى بشىء واحد وهو عفو الله · ولكن لارتباط هذا الخطأ بجزيمة اجتماعية ، اى بجريمة من شأنها : ان تكون مترتبة على اتباع الاتجاه المادى فى الحياة ، ومن آثار المادية ·· كانت الكفارة ـ اى القربى الى الله ـ تحرير رقبـة ، فان لم توجـد فصيام شهرين متتابعين ·· أى كانت الكفارة ممارسة لعبادة ، لهـا صلاحية التخفيف من حدة الاتجاه المادى ، والمعاونة على الخـروج من دائرة المادية والتبعية لها · فالكفارة هنا علاج عن طريق عبادة ، وليست عقوبة أو شـبه عقوبة · لأن العقوبة تـكون عـلى ذنب · ولا ذنب هنـا طـالما كان عفو الله ، وغفرانه ·

وهكذا : نجـد أن الكفـارات التى يكون الصوم فيهـا مستهدفا ، كبديل وعوض ، هى كفارات لجرائم اجتماعية لم تستكمل عناصر الجريمة الاجتماعية المترتبة على سيطرة المادية وطغيانها ، أو كفارات لجرائم لم يزل فيهـا اثـر للاتجاه المادى ولم تخلص النفس التى ارتكبت هذه الجرائم من : « الميـل » أو « الذبذبة » بين « الروحية » الاسلامية و « المادية » الجاهلية ·

٢ ـ وعن جريمة « الظهار » جاء قول الله تعـالى :

(أ) « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ـ ما هن أمهاتهم ، ان أمهـاتهم الا اللائى ولدنهم ـ وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا » (١) ·

(ب) « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا : فتحرير رقبـة من قبـل ان يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير · فمن لم يجد

---

(١) المجادلة : ٢ ·

فصيام شهرين متتابعين من قبل ان يتماسا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ،

(ج) **ذلك لتؤمنوا** (أى لتكونوا مؤمنين ، مخلصين ، وصادقين) **بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم** » (١) · وقول الله تعالى هنا فى الظهار ، واضح فى :

أنه منكر من القول ، وزور وكذب : « **وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا** » · هو منكر من القول ، لأن الذى يقول لزوجته : « أنت على كظهر أمى » ·· فيسوى بين الزوجة والأم فى حرمة المباشرة الجنسية ــ تلك الحرمة التى يكنى عنها بقوله : كظهر أمى ــ ينقل أمرا من دائرة الحل الى دائرة الحرمة ، أو يصف الحلال بالحرام · ووصف الحلال بالحرام ، أى وصف الشىء بنقيضه ، فيه منكر من القول · ثم فى الوقت نفسه ، هو زور وكذب · لأنه يقول على أمر أحله الله ، بأنه : حرام ، فكأنه يكذب على الله فيما يقوله جل جلاله ·

ومنكر القول والكذب على الله هو جريمة اجتماعية كذلك · فهو اشاعة للمنكر من جهة ، وتقول على الله فيما لم يقله من جهة أخرى · ويتصل اتصالا وثيقا بالعرف الجاهلى ، وهو عرف مادى · فصاحب الظهار ــ وقد أسلم وآمن بالله ــ لم تزل فى نفسه بعض رواسب المادية السابقة على المجتمع الاسلامى · ومن هنا كانت الكفارة : تحرير رقبة ، فان لم توجد فصيام شهرين متتاليين ، على غرار كفارة القتل الخطأ · ولكن زيد فى أمر هذه الكفارة : اطعام ستين مسكينا فى يومهم ، عند عدم توفر الرقبة المؤمنة ، فعدم القدرة على صيام شهرين متتابعين ، واطعام الستين مسكينا هو جانب مالى يشبه الى حد ما ، تحرير الرقبة المؤمنة · وهذا وذاك تجربة لتخفيف أثر الاتجاه المادى فى الحياة ، يشبه الصوم فى آثاره · ولكن فقط : أحدهما عن طريق الاعطاء ، والآخر عن طريق الامساك ، حتى تكون هناك فضلة فى المال للآخرين ·

وهدف كفارة الظهار على هذا النحو اذن ، هو تأكيد : الايمان بالله والصدق فيه ، والعزم على دفع الاغراء المادى ، فضلا عن عدم الوقوع فى اتجاهه : « **ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله** » ·· فجعلت الآية صاحب الظهار بظهاره كانه خرج من ايمانه ، أو كانه لم يكن مؤمنا على سبيل الحقيقة ، واتخذت من كفارة الظهار ، طريقا الى الايمان بالله ورسوله · واذن الصوم كبديل ، وكعبادة

---

(١) المجادلة : ٣ ، ٤ ·

كذلك ، خصص فى مثل هذه الجرائم الاجتماعية ـ لا لاعادة التوازن بين الروحية والمادية ـ اذ الروحية الاسلامية هى التوازن فى الاستمتاع بالمتع الحسية بين الحرمان منها كلية ، والاستغراق فيها كلية ـ وانما لدفع سيطرة المادية ، والابقاء فى خطوط الروحية الاسلامية ·

٣ ـ وعن جريمة اليمين اللغو كانت الآية الكريمة :

« **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم** (أى لا يعذبكم ولا يعاقبكم ، بـل هو يعفوا عنكم) **ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ،**

فكفـارته اطعـام عشرة مسـاكين من أوسـط ما تطعمـون أهليـكم أو كسوتهم ، أو تحرير رقبـة ،

فمن لم يجـد فصيام ثلاثة أيـام ،

ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » (١) ·· فالحلف بالله لغوا ، ينطوى على تعريض الله ـ دون قصد ـ للحرج ، وعدم توفير الاحترام اللائق بجلاله · اذ صـاحب لغو اليمين قد وعـد باسم الله أمـرا ، ولم يفعـل ذلك الأمـر · وهنا كان التعرض للحرج · ولكن لأنها : يمين غير مقصودة ، أى لم يبيت أمرها فى اهانة المولى سبحانه ، وكانت عفو الحديث ، أو وقعت تحت تأثير العادة ، لم يؤاخذ المولى سبحانه وتعـالى : صـاحب هـذه اليمين على الحـرج الـذى ترتب عليهـا : « **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم** » · ومع ذلك : فهى تدل من جانب آخر على أن صاحبها لم يزل متأثرا ببعض جوانب الاتجاه المادى فى الحياة ·· لم يزل متأثرا بما يستتبعه هذا الاتجاه ، من : الاستخفاف بالله ، وبالايمان به وبالمؤمنين به ، وان لم يكن على شعور ، ووعى بهذا الاستخفاف · ومن أجل تعريض قدسية الله للحرج فى اليمين اللغو كانت جريمة فى حق الله ، وهى أشبه بالجـريمة الاجتماعية · لأن ما لله هو للأمة كلها · وجاء لغوها سببا فقط فى عفو الله عنها ، وبقى أصل الجريمة ، فكانت الكفـارة التى : تخير بين اطعـام عشرة مساكين أو كسوتهم من جانب ، أو تحرير رقبة من جانب آخر ، ثم تدعوا الى الصوم ثلاثة أيام ، وأيضا متتالية ، حرصا من المولى جلت قدرته ، على أن يصفى رواسب الاتجاه المادى فى سلوك المؤمن الذى يعرض الله للحرج فى الحلف به · ومن أجل ذلك تطلب الآية فى نهايتها ، أمرين : تطلب الكف عن الحلف بالله : « **واحفظوا أيمانكم** » · وتطلب كذلك شكر الله على أن : وضـع

---

(١) المائدة : ٨٩ ·

طريق الحق خالصا من شوائب المادية : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » ·

٤ ــ وعن جريمة الصيد فى الاحرام للحج أو العمرة ، تقول الآيات القرآنية :

« يا أيها الذين آمنوا : ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك ، فله عذاب أليم · يا أيها الذين آمنوا : لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا ، فجزاء مثل ما قتل من النعم (أى الابل ــ البقر ــ الغنم) ، يحكم به ذوا عدل منكم ، هديا بالغ الكعبة (أى الى فقرائها) أو كفارة : طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما ، ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام · أحل لكم صيد البحر ، وطعامه متاعا لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما ، واتقوا الله الذى اليه تحشرون » (١) ·
فكل آية من هذه الآيات الثلاث ، تنذر ، أو تحرم : صيد البر فى الاحرام للحج أو للعمرة :

« **فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** » · « **لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم** » · « **وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما** » · مما يوضح : الهدف من هذا التحريم ، وهو توفير « الحرمة » لبيت الله · فاذا بوشرت جريمة قتل الصيد بعد النهى عن صيده ، وفى ظل مباشرة عبادة الحج أو العمرة ، فان ذلك لا يعد انتهاكا للحرم الآمن نفسه فقط ، ولا تحديا لما نهى الله عنه هنا ، من التحريم فحسب · وانما يعد تقليلا أيضا من شأن عبادة ، هى الحج أو العمرة ، فرض فيها التجرد ــ وقت أدائها ــ من كل مظاهر الدنيا وزينتها ، ومن كل ما يميز انسانا عن آخر · بل يعد نقضا لهدف هذه العبادة من التجرد ، ومن كل ما هو مادى · لأن الصيد ــ رغم التحريم ــ هو انجذاب لما هو مادى سهل الحصول عليه · ولسهولة صيده ، كان موضع ابتلاء واختبار ، اذ تناله الأيدى ، أو الرماح · « **ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم** » · والعقوبة على انتهاك حرمة البيت الآمن ، بقتل الصيد المنهى عنه ، هى ما جاءت في الآية فى قول الله تعالى : « **ومن عاد** (أى بعد التحريم) **فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام** » ·

ولكن مع ذلك ، هناك : كفارة قصد بها ــ كما يقصد من كل كفارة ــ أن لا تكون بديلة وعوضا عن العقوبة ، التى هى الانتقام · وانما قصد بها : تصفية الميل والتبعية للاتجاه المادى فى الحياة ، أو قصد بها : الوقوف الصلب

(١) المائدة : ٩٤ ــ ٩٦ ·

فى مواجهة الاغراء والفتن ، التى تثيرها المتع ، وما فى الدنيا من متاع ، وزينة من جديد • فاطعام المساكين بما يساوى الذعم التى يحكم بها ذوا عدل من المؤمنين ، او الصيام أياما بما يعدل ذلك ، حسب تقدير الفقهاء ، هو تلك الكفارة التى أنيطت بها مهمة التصفية للاتجاه المادى فى حياة الانسان • واذ ذكرت الآية هنا فى التعليل للكفارة ، ما تقوله : « ليذوق (اى الذى اقدم على الصيد) وبال أمره » •• فانها تقصد انى « تعظيم » « الجريمة » • لأنها فى الواقع : اعتداء على حرمات الله ، وعلى نفس العبادة التى أريد لها أن تكفل عدم الاعتداء على تلك الحرمات ، وهى عبادة الحج ، أو العمرة •

ان هذه الاوضاع التى طلب فيها القرآن الكريم الصوم ، ككفارة ، أريد بها : أن تكون فرصا أخرى لأداء هذه العبادة ، حتى تزيد فاعليتها فى حياة المؤمن : فى صهر ارادته وقوة عزيمته فى مواجهة المادية وآثارها ، وحتى تسهم فى « التزام » ما يلتزم به المؤمن ـ وهو ما يلزم به نفسه عن اختيار ـ فى تحقيق نظرة الاسلام الى الحياة ، وتطبيق ما تقوم عليه النظرة من : مبادىء ، وتوجيه •

***

الفصل الرابع

الزكاة فى مجال الاعطاء الحر للمال

★ الزكاة « العبادة » : ليست هى اخراج نسبة معينة من اربــاح رأس المال فى التجارة ، أو الصناعة ، أو الزراعة ، أو ما يكتنز ويدخر من مال ، وليست : هى أيضا اخراج نسبة خاصة مما يكتشف ، أو يستغل من معــادن الأرض أو مما يعثر عليه من ذهب أو فضة مدفون فى باطن الأرض ، أو من رأس المال نفسه ان بلغ نصاب الزكاة ، ولم يتغير بنقص فى آخــر العــام ٠٠ ليست هذا كله فحسب ٠٠ وليست هى كذلك : صرف ما يخرج من المال باسم الزكاة فى مصارف الزكاة التى جاء القرآن الكريم بتحديدها ٠ وانما بالاضافة الى اخراج النسبة المعينة من الأربــاح أو من المــال نفسه ، والى صرفها فى المصارف المحددة لها ٠٠ ان اخراجها وصرفها لم يكن واحد منهما عن طريق « الالزام » ٠ والا كان شأنها شأن الضريبة ، يلزم بها قانون الدولة ، تلك الدولة التى هى من صنع الانسان وثمرة فلسفته ٠

وانما « العبادة » فى الزكاة : أن يكون اخــراج المال وصرفه ناشئا عن « التزام » المؤمن بالله نفسه ، للاخراج والصرف معا ٠ وهو التزام ليست فيــه شائبة اكراه ، لأنه نتيجة الايمان ٠ والمؤمن لا يدخل الايمان مكرها ٠ بــل ايمانه يتم بفعــل مشيئته ومحض اختياره ٠ اذ لا يقبل ايمان المكره عند الله ، ولا يترتب عليــه أثر ما فى حيــاته ٠ ولذا : « التزام » المؤمن : هو قربى منه الى الله ، هو عبادة ٠ اذ العبادة « التزام » حر ، بأداء ما يترتب على الايمان ذاته ٠ فالايمان اذ يوجب الصلاة والزكاة مثــلا على المؤمن بالاسلام ، يلتزم المؤمن به عن مشيئة : بأداء الصلاة ، والزكاة ، والزكاة من جانب آخر ، فى أداء أى منهما ، تزكى ايمان المؤمن وتتفاعل معه تفــاعلا ايجابيا ٠ واذا زاد ايمان المؤمن وقوى كان : « التزامه » بالأداء عندئذ ، أيسر ، وأنشط ، وأدوم ٠

ولأن الزكاة عبادة والتزام ذاتى ، أى من ذات المزكى ، وليست قهرا ، ولا الزاما من خارج الذات : عن طريق القانون ، أو السلطة التنفيذية ، عــلى نحو ما فى الدولة المعاصرة ـ لا تكون الضريبة بديلا عنها ، ولا هى بديلة عن الضريبة ٠ لأن معنى العبادة ، والالتزام الحر ، ليس موجودا ، فى الضريبة ،

رغما عن اختلاف المصارف بين الاثنتين · وما يذكر عن « ديمقراطية » التشريع في الضريبــة ، لا يوفر فيهـا اطــلاقا : عنصر المشـيئة ، والرغبـة الفردية ، ولا القربى في غير مقابل ، الذى هو متوفر في الزكاة · وشتان بين « العبـادة » في أداء الزكاة لله ، وبين « الواجب » في أداء الضريبة للدولة ·· شتان بين « جــلال الله » الذى يقترب اليه المزكى بزكاته ، و « معنى الدولة » الذى يوجب على دافع الضريبة ، طاعته فيما يدفع من ضرائب ·

ان قلب المؤمن لا يعمر الا بالمحبة لله ، ولكن قلب الفرد في المجتمع المعاصر قلما ينطوى على رضاء بالدولة ، أو بنظام الحكم القائم · ومن هنا تعبر الدولة المعاصرة عن افلاسها في كسب طاعة الأفراد طاعة نفسية لنظامها ، عنـدما تكثر من اصدار التشريعات وتزيد في قوى « الأمــن » الداخلية ، التى تؤلفهـا لصيانة النظام والأمن فيها ·

ولأن العبادة التزام حر بقربى الى الله ، يترتب على الايمـان به ، ليس لتركها ــ اذا ما تركت ــ « حد » في الاسلام ، وان كان تاركهـا عاصيا · أى ليس لتركها « عقوبة » معينة جاء بها الاسلام ، كعقوبة القتـل ، أو السرقة ، أو مباشرة الزنا ، مثلا (١) · اذ من غير المعقول : أن يجتمع ايمان بالله على

---

(١) يحاول بعض علماء الاسلام أن يحدد لتارك الصلاة عقوبة من قول الرسول عليه الصلاة والسلام ، في رواية ابن عمر رضى الله عنه : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا : أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فاذا ما فعلوا عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحق الاسلام ، وحسابهم على الله عز وجل » (نيـل الأوطـار جـ ١/٣١١) ·

وهذه العقوبة هى المقاتلة · ولكن ظاهر الحديث ، أنه في مواجهة الذين لم يؤمنوا بعد برسالته عليه الصلاة والسلام · أما من آمن وترك الصــلاة · أو ترك الزكاة بعد ذلك فهو قطعـا آثم ، ولكن هل عقوبته ، هى المقاتلة أيضا ، مع بقائه على الايمان وترك الصلاة أو الزكاة ؟ · أليس عندئذ يكون الوضع هــو وضع مؤمن يقاتل مؤمنا ؟ وقد ورد في هذا الشأن قوله تعالى : « **وان طائفتــان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخــرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين** » · (الحجرات : ٩) ·

··· فجعلت الآية البغى والظلم من بعض المؤمنين للآخرين منهم ، سببا لمقاتلتهم من اخوانهم في الايمان · واذن ليس في ترك واجب من الواجبات في نظر القرآن ما يبعث على مقاتلة تاركه ·

سبيل الحقيقة ، مع ترك الصلاة ، او ترك الزكاة ، او ترك الصوم • فالأمـر فى حقيقته : يدور بين « وجود » الايمان بالله ، او « عدم وجوده » • فان وجد ، فالالتزام الحر بنتائجه قائم • والعبادات ، من بين ما يلتزم المؤمن بادائه اداء حرا ، تبعا لمشيئته فى الايمان •

وان لم يوجد الايمان فليس هناك التزام يؤدى ، عبـادة ، او غير عبادة ، ومن هنا تارك الصلاة ، او تارك اية عبادة اخرى ، ان اريـد محاسـبته ، فيجب ان يحاسب على : الايمان ، او الارتداد فيه ولو بالعمل ، ليس على ترك العبادة فى ذاتها • ولذا : الحرب التى واجـه بها الخليفة ابو بكر ـ رضى الله عنه ـ مانعى الزكاة ، كانت فى حقيقة امرها ، ارتدادهم عن الايمان ، وليست بسبب تركهم عبادة الزكاة •

★ هذا الالتزام الحر لمعنى العبادة والزكاة ، هو الذى يجعـل من الزكاة عطاء حر للمال ، اى عطاء غير مشروط بمبادلة منفعة اخرى ، وغير مكره عليه من احد ، وغير متعثر ، او متردد فيـه • فليست هناك عقبات نفسية دونه ، ولا هناك محاولات للهرب منه • وهنا تحقق المنفعـة العامة للمـال ، لأنهـا عطاء المال ، بدون مقابل •

ولأن اداء اية عبـادة يرتبط بالايمـان بالله جملة ، كانت صلة الزكاة صلة وثيقة بالصلاة خاصة ، التى هى كمصدر لنمو فاعلية الايمان ، وكعـادة يلتزم فيها بتحويل مفهوم « وحدة الألوهية » الى « حقيقة نفسية » مترسبة فى اعمـاق النفس • فالصلاة كعبادة ، تترتب هى ايضا على الايمان بالله ، فيلتزم المؤمن بادائها التزاما حرا خالصا • ولكن طبيعتها ، وهى : دعاء لله ، ومناجاة اياه ، وتوسل اليه ، فى ان يعينه على الصراط السوى ، وفى ان يحميه من الانحرافات والنزوات التى يدفع اليها الاتجاه المادى فى الحياة ، تتصل بذات الله فتـكون له ذات المصلى خشية ، وفيه امل فى النجاح والانقاذ • وهذا الأمل ، وتلك الخشية ، هما العامـلان فى زيادة الايمان نفسه بالله • وكلمـا زاد الايمـان وقوى ، كلما كانت القدرة على اجتياز العقبات النفسية ـ سواء أكانت هـذه العقبات بحكم العادة والالف ، او بحكم التوجيه السيء السابق ، او بحـكم سيطرة الأنانية ـ فى سبيل اداء الالتزامات ، التى تترتب اساسا على الايمـان بالله •

والزكاة وان كانت عبادة يلتزم بها المؤمن نتيجـة ايمانه بالله ، الا انها ترتبط بالمال ، والملك والاقتناء ، اى ترتبط بما تحرص الذات عليه ، وبحكم الغريزة وبحكم الأنانية فى سبيل « حفظ البقاء » للذات • حتى يخيل للبعض ان خلود البقاء للانسان هو فى جمع المال وادخاره : « **ويل لكل همزة لمزة • الذى جمـع**

مالا وعدده · يحسب أن ماله اخلده » (١) · وقد تمضى الحياة كلها على البعض الآخـــر فى سـبيل تكاثر المـال ، والأولاد : « **الهـاكم التـكاثر · حتى زرتم المقابر** » (٢) · بحيث يكون الهدف لأى منهما هو ذات المال ، سواء نظر مـن خلاله الى خلود النفس فى بقائها ، أو الى القوة التى يحفظ بها وجود كيانه ·

والحرص على المال المقتنى ، والسعى لاقتنائه طبيعة فى النفس البشرية لا تتخلى النفس عنها بحال · واذا وجدت الظروف مهياة لتحقيق هدف الاقتناء ، فان الشح سيكون لازمة لها · وعندئذ يشتد الحرص على المال فى اقتنائه ، ويزداد الأمر صعوبة فى انفاقه ·

ولارتباط الزكاة بالمال ، كانت عبادة الزكاة فى قوتها نحو التحليل من الشح والامساك ، الى الاعطاء الحر ، بحاجة الى فاعلية اكثر عن طريق الايمان بالله : فى قـوته ، وفى حيـويته · ومـن هنا : كـان اقتران أداء الزكاة بأداء الصلاة ، شائعا فى كثير من آيـات القرآن الكريم ، عنـدما يتحدث : عن شأن العبادة أو يوصى بها ، أو يلخص قوام الروحية فى الدين · فيقول الله تعالى :

١ ـ « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ، الا من بعد ما جاءتهم البينة ·

٢ ـ وما امروا :

الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، حنفاء ،

ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ،

وذلك دين القيمة » (٣) ·· فالآية الأولى من هاتين الآيتين ، تشير الى أن أهل الكتب السابقين ، يختلفون عن بعضهم بعضا فيتجه بعضهم الى الوثنية والشرك ويقع تحت طغيان المادية ، ويبقى البعض الآخر فى دائـرة الايمـان الصحيح ، ولم تقم بينهم فرقة على هذا النحو فى الدين ـ دين الله ـ الا بعد : أن جاءتهم الحجة برسالة رسول منهم اليهم ، توضح لهم الحق فى ذاتـه ، بينما الآية الثانية تلخص قوام هذا الحق الذى ينحصر : فى وحدة الألوهية : « **ومـا امروا الا ليعبدوا الله مخلصين** (أى فى عبادتهم اياه) **له الدين** (أى وحده لا شريك له) ، وفى الاستقامة الناشـئة عن اقـامة الصـلاة ، وايتاء الزكاة : **حنفاء** (أى مستقيمين) ويقيموا الصلاة ، **ويؤتوا الزكاة** » · ثم يصف القرآن الكريم ، ما جاء فى الآية الثانية من : مجموع عبادة الله وحده ، واقامة الصلاة ،

---

(١) الهمزة : ١ ـ ٣ ·
(٢) التكاثر : ١ ، ٢ ·
(٣) البينـة : ٤ ، ٥ ·

وايتاء الزكاة ، بانه : « **دين القيمة** » أى دين الجماعة المستقيمة · فعماد الدين اذن : وحدة فى الألوهية ، تحول دون الشرك ، وبالتالى تحول دون طغيان المادية ، وروحية تتمثل فى الصلاة ، والزكاة ، وهى : الروحية التى تكفل للمؤمن : النهج المستقيم فى الحياة ·

فاقتران الصلاة هنا بالزكاة ، لتيسير أمر الزكاة على النفس الانسانية ، واقتران الزكاة هنا ايضا بالصلاة ، لاضعاف الأنانية وسيطرة الاتجاه المادى فى الحياة ·

وقد أوصى القرآن المؤمنين ـ فى معرض ما يتمناه لهم أهل الكتاب من عودتهم الى الكفر ـ بالثبات على أمرين : على اقامة الصلاة ، وعلى ايتاء الزكاة ، تاركين لهم حقدهم وحسدهم · الأمر الذى يدل على أن : أداء هاتين العبادتين فى ارتباط بينهما من شأنه ، أن يبقى المؤمنين على تميزهم عما عداهم · يقول الله تعالى : .

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا ، حسدا من عند انفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ،

فاعفوا واصفحوا حتى ياتى الله بامره ، ان الله على كل شىء قدير ·

واقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير (أى بالانفاق فيما عدا الزكاة) **تجدوه عند الله ، ان الله بما تعملون بصير »** (١) ··

··· فالصلاة وحدها ، اذن لا تبقى فى نظر القرآن على ما يتميز به المؤمنون من الايمان بالله وحده ، وعلى عدم التبعية للاتجاه المادى وطغيانه فى حياتهم وفى مواقفهم · والاقتران بينهما ، هو : الأمارة المميزة ·

وكذلك فيما وعد به المؤمنين من الاستخلاف فى الأرض ، وفى قول الله تعالى :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى : لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك ، فأولئك هم الفاسقون ·

واقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ،

واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » (٢) · فقد طلب القرآن ـ لبقاء

---

(١) البقرة : ١٠٩ ، ١١٠ ·   (٢) النور : ٥٥ ، ٥٦ ·

هذا الاستخلاف ـ اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، مقترنين لا انفصال لاحداهما عن الأخرى • وبأدائهما معا يكون هناك ، ضمان لوجودهم فى العبادة فى دائرة الله وحـــده ، لا يخرجون عنها الى ما تدفعهم اليه المادية من شرك ووثنية ••

واذ يوجه القرآن قوله تعـــالى :

« ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ، ونصفه ، وثلثه ، وطائفة من الذين معــك ، والله يقــدر الليــل والنهار ،

علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، عــلم أن سيكون منكم مرضى ، وآخــرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضــل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه •

وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجــدوه عند الله ، هو خيرا وأعظم أجرا ،

واستغفروا الله ، ان الله غفور رحيم » (١) • •اذ يوجه هذا القــول الى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والى المؤمنين معه ، فيخفف الأمر عليهم فى شغل الليل بالدعاء والتوجه الى المولى سبحانه ، لأســباب متنوعة اقتضــتها حكمته جــل وعــلا ، ويطلب منهم أن يواظبوا على : أداء الصلاة ، والزكاة ، والانفاق فى سبيل الله •• اذ يوجه القرآن قوله هذا الى الرسول ، والمؤمنين معه : يوجه لأمرين :

أولا : أنه : فى أداء الصلاة ، وأداء الزكاة ، وما بعدها من الانفاق فى سبيل الله . ما يكفى لبقاء المؤمن بالله مؤمنا بالله ، لا تغريه المادية ، ولا يحوله طغيانها الى الشرك بالله ،

ثانيا : أن السعى فى الأرض ، ابتغــاء من فضل الله ، وهو ظاهرة طبيعية للحياة الانسانية ، كالمرض الذى يطرأ على صحة الانسان سواء بسواء • ولولا السعى فى الأرض وتحصيل رزق الله ، لما كان هناك ما يقتنى من مال ، ولما كانت هناك بالتالى : زكاة ، أو انفاق فى سبيل الله • واذن : لابد أن يشغل الانســان بالسعى لابتغاء فضل الله ، فيعوقه عن التفرغ للعبادة ، كما قد تشــغل صحة الانسان بالمرض ، فلا يتمكن من أن يؤدى العبادة على الوجه المطلوب • اذ يكتفى توجيه القرآن هنا : بقراءة ما تيسر من القرآن ، بجانب المداومة على الصلاة ،

---

(١) المزمل : ٢٠ •

وايتاء الزكاة ، فلكي يجمع بين : ما هـو من خصيصة الطبيعـة البشرية في حياتها ، وما هو واجب لله من عبادة لصالح المجتمع الانسانى ٠

وآيات عديدة أخرى ، فى مناسبات عديدة وفى مجالات مختلفة ، تطلب الى المؤمنين ـ كى يستمروا على ايمانهم ـ اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة معا ، كعبادتين ، فيهما : الضمان لتحقيق الهدف المقصود ، وفيهما العون لبعضهما البعض على انجاز كل منهما فى يسر ٠

وأما الانفاق فى سبيل الله ، أو اقراض الله قرضا حسنا ، فهو يتبع أداء الزكاة كعبادة يتقرب بها المزكى الى الله ، كما يتبع الصلاة كعبادة يتقرب بها المصلى الى الله الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ٠

★ ولأن الانفاق فى سبيل الله ـ وراء أداء الزكاة ـ أمر يقوى الروابط فى المجتمع ، وعامل يزيد فى صفاء النفس ، ويحـول باستمرار دون أن تطغى بكنز المال وجمعه ، ومن ثم تتبع المادية فى اتجاهها ، كان أشبه بالزكاة فى الالتزام به ٠ فهو قربى وعبادة ، ولكن ترك أداؤه لطواعية الذات لأداء الزكاة٠ أى ترك أداؤه للتأثر بفاعلية الزكاة ٠ فالمزكى ، وقد سهل لديه الآن : اخراج الزكاة لما فيها من قربى وعبادة الى الله ، يسهل عليه بعد ذلك : أن يزيد فيمـا أخرجه ، حتى يصل الى المقدار الزائد عمـا هو فى حـاجة اليه فقط ، وبذلك يغطى انفاقه « العفو » كله ٠

ومن غير شك : أن ما يشير اليه القرآن الكريم ، فى نداءاته العديدة الى المؤمنين من الانفاق فى سبيل الله ، لا يدخل فى معطى الزكاة الواجبة ٠ وآية « المزمل » السابقة تقول : « **فاقرأوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصـلاة ، وآتوا الزكاة ، واقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير** (وهو هذا القرض الحسن) **تجدوه عند الله ، هو خيرا وأعظم أجرا** » (١) ٠٠ هذه الآية توضح أنه الزيادة فى الاخراج من المال ، بعد أداء الزكاة ٠ اذ قد أطلقت عليه « **قرضا حسنا** » ثم جعلته فى أدائه تقديم خير لمن يفعله ، ولن يترك جزاؤه عند الله ، وهو أجر عظيم ٠ ولأنه غير الزكاة ، ووراءها ، فهو : لا يتقيد بالنسب والمقادير ، ولا بأنواع المال وأصنافه ، التى ترتبط بها الزكاة ٠ وتقييده فقط : بدائرة تبعده عن الاكراه أو عدم الرضا ، وتقربه الى معنى : المحبة وراحة النفس واطمئنانها الى مباشرته ٠ فهو :

أولا : لا يتحدد مقداره ، بنسـبة ولا كمية معينة : « **ويسألونك مـاذا**

---

(١) المزمل : ٢٠ ٠

ينفقون ؟ قل : العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ٠ فى الدنيا والآخرة » (١) ٠ فالآية هنا تنصح بالانفاق من المال ٠٠٠ الى العفو ٠ فهناك مسافة بين المال وكميته وما يتبقى عن حاجة المالك ، له ولأسرته ٠

ثانيا : أنه يتحدد فى نوعه ، بأنه من طيبات ، وأحب ما يقتنى المالك من ماله : **« يا أيها الذين آمنوا : انفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما اخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث : منه تنفقون ، ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد (٢) ٠ « لن تنالوا البر ، حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شىء فان الله به عليم » (٣) ٠**

ثالثا : أن يكون هناك اخلاص فى انفاقه ، أى يبتغى به المنفق وجه الله وحده : **« ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون »** (٤) ٠ فالآية تخبر عما ينبغى فى الانفاق ، وهو أن يقصد به وجه الله ٠

رابعا : أن يبتعد فيه عن الايذاء المعنوى لمن يعطاه ، وعن الامتنان به عليه : **« الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى ، لهم اجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٠ قول معروف ومغفرة ، خير من صدقة يتبعها اذى ، والله غنى حليم ٠ يا ايها الذين آمنوا : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان** (أى حجر صلد) **عليه تراب ، فاصابه وابل ، فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين » (٥) ٠**

خامسا : أن مصرفه ليس مصرف الزكاة ، على وجه التحديد : **« يسالونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير : فللوالدين ، والأقربين ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فان الله به عليم »** (٦) ٠ فهنا : اذا كان اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، قد نصت عليهم الآية ، وتشارك بذلك اية الزكاة ، فقد نصت على غيرهم مما لم تجعلهم اية الزكاة من مصارفها ، وهم : الوالدان والأقربين ٠ وهذا يفيد : أن الانفاق

---

(١) البقرة : ٢١٩ ، ٢٢٠ ٠ — (٢) البقرة : ٢٦٧ ٠
(٣) آل عمران : ٩٢ ٠ — (٤) البقرة : ٢٧٢ ٠
(٥) البقرة : ٢٦٢ ـ ٢٦٤ ٠ — (٦) البقرة : ٢١٥ ٠

فى سبيل الله ، أريد به : أن يكمل فاعلية الزكاة فى الأمة ، ويقوى الروابط فيها ٠ واذا كان الانفاق فى سبيل الله من أصحاب الأموال فى الأمة يعتبره القرآن الكريم قرضا حسنا لله ــ وهو فى واقع الأمر من مال الله الذى استخلف عليه الانسان ــ يجازى عليه جزاء كريما : فى كمه ونوعه ، كما تنطق هــذه الآية : « **من ذا الــذى يقــرض الله قرضا حســنا فيضــاعفه له ، وله أجــر كريم** » (١) ٠٠ فالقــرآن الكريم ذاتــه ، يطلب الى الرســول عليــه الصــلاة والسلام ، أن ينذر المؤمنين بالمبادرة بالانفاق ، وعدم التراخى فيه ، فيما تقوله الآية : « **قل لعبادى الذين آمنوا : يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقنــاهم سرا وعلانية ، من قبل أن يأتى يــوم لا بيع فيــه ولا خــلال** » (٢) ٠ ويقــرن طلب الانفاق ، سرا وعلانية ، باقــامة الصــلاة : ليؤكد أهمية الانفــاق فى حيــاة المؤمنين ــ على نحــو أهمية الصلاة فيهــا ــ وأنه جزء لا يتجزأ من ســبيل النجاة والنجاح ٠

ثم بالاضافة الى ذلك : يشدد القرآن فى الانذار ، اذ يرى فى التخلف عن الانفاق فى سبيل الله دفعا بالأنفس ــ من ذواتها ، وليس من أجنبى عنها ــ الى الضعف والهلاك ؛ وهو ضعف الأمة فى روابطها ، وهلاكها فى خصــومة بعض أفرادها لبعض : « **وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** (أى بمنع الانفاق فى سبيل الله لما يؤدى اليه ، من : ضعف وغلبة للعــدد) **وأحسنوا** (أى الى أنفسكم بالانفاق فى سبيل الله) **ان الله يحب المحسنين** » (٣)٠ فتطلب الآية من جميع المؤمنين القادرين على الانفاق : أن ينفقوا فى ســبيل الله ، فى صيغة الأمر والوجوب ــ ولم تذكر سبيل الترغيب فى هذا الانفاق ، على نحو ما تذكره الآية الأخرى السابقة : « **من ذا الذى يقرض الله قرضــا حسنا ؟** » ــ ثم تذكر : أنه ليس وراء التخلف عن الانفاق الا التهلكة ، وليس للذين لم ينفقوا وحدهم ، وانما للجميــع : « **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** » ٠ وكأنه ليس هناك خيار ، ولا وضع آخر ، بعد التخلف والامتناع عن الانفاق ، الا الهلاك بأيدى الهالكين أنفسهم وليس بأيدى أعدائهم ٠ ومع ذلك فهى ، بعد هذا التحذير ، تطلب اليهم : أن يحسنوا الى أنفسهم بالانفاق فى سبيل الله ، وفى الوقت نفسه ، تفيد أنهم : اذا صنعوا ذلك أرضوا الله سبحانه وتعالى : « **ان الله يحب المحسنين** » ٠

★ والمؤمنون اذن من خصائص صفاتهم : أن ينفقوا فى سبيل الله ، بجانب صفات أخرى تقتضيها نتائج الايمان بالله ، وتنص عليها آيات قرآنيــة

---

(١) الحديد : ١١ ٠ (٢) ابراهيم : ٣١ ٠
(٣) البقرة : ١٩٥ ٠

عديدة بما يفيد : أن المؤمنين فى واقع أمرهم ، هم : من على هذه الصفات • فان تخلوا عنها ، أو عن بعضها ، فأمرهم عندئذ يدور بين النفاق والكفر • تبتدىء سورة البقرة بقول الله تعالى :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه ،

هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون • والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون • أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (١) •• ففى وصف المتقين ــ وهم المؤمنون صدقا ــ كان الانفاق فى سبيل الله ركنا وأساسا من أركان التقوى : **« ومما رزقناهم ينفقون »** • واكتفى هنا بالانفاق فى سبيل الله عن اخراج الزكاة ، لما فى الانفاق فى سبيل الله من الدوافع النفسية ، وشدة القرب الى الله ، ما يدفع بالأولى على اخراج الزكاة • اذ قلما يكون هناك انفاق من منفق فى سبيل الله ، ولا يكون هناك اخراج زكاة منه • ولكن على العكس • قد يكون هناك مزك فى ماله ، ويقف بالاخراج من المال عند حد الزكاة •

وشرط أولى اذن لمن يوصف بالايمان صدقا : أن يتناول ايمانه الماضى فيؤمن بما أنزل من الله قبل رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما يتناول المستقبل فيؤمن بالآخرة • ويتناول الحاضر فى شهادته ، كما يتناول الغيب وهو ما فى حيز عدم الرؤية • وفى تطبيقه لما يؤمن به ، يكون مؤديا للصلاة محافظا على أدائها ، كما يكون قد بلغ فى صلته بالمال : أنه ينفق طواعية من ماله فى سبيل الله ، عدا ما يتقرب به كعبادة من اخراج الزكاة •

ويزداد المؤمنون وضوحا فى صفاتهم ، عندما توضع صفاتهم فى مواجهة صفات الآخرين من غير المؤمنين ، مما بقوا على كفرهم ، أو ماديتهم ، أو تستروا وراء اعتراف ظاهر بالايمان • وقد جاء فى سورة الفرقان ، ما يتلى من صفات المؤمنين ، فى مقابل صفات من عداهم ، فى قوله تعالى :

« وعباد الرحمن :

الذين يمشون على الأرض هونا (أى فى غير كبرياء ، أو فى غير طغيان الماديين) ،

واذا خاطبهم الجاهلون (وهم الكافرون الماديون) **قالوا : سلاما** (أى كانوا متسامحين : اذ لا جدوى من مناقشتهم) •

---

(١) البقرة : ٢ ــ ٥ •

والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (أى مصلين) ٠

والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، ان عذابها كان غراما ٠ انها ساءت مستقرا ومقاما ٠

والذين اذا أنفقوا (أى على أنفسهم وأهليهم) **لم يسرفوا** (أى لم يكونوا كأولئكم الماديين الذين يتبعون ما أترفوا فيه) **ولم يقتروا** (أى لم يمسكوا ويبخلوا على أنفسهم وعلى من عداهم) **وكان بين ذلك قواما ٠ والذين لا يدعون مع الله الها آخر ،**

ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ،

ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ٠ يضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه مهانا ٠ الا من تاب ، وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما ٠ ومن تاب وعمل صالحا ، فانه يتوب الى الله متابا ٠

والذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراما ٠

والذين اذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صما وعميانا » (١) ٠

فهذه الآيات جمعت ثلاثة أنواع من الصفات للمؤمنين هى : عدم بالمادية : « **الذين يمشون على الأرض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما** » ٠ واقامة الصلاة : « **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما** » ٠ والانفاق فى سبيل الله : « **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما** » ٠ لأن عدم مجاراة الماديين فى البذخ والترف ، يدل على عدم الخضوع للهداية ٠ وعدم التقيد فى الانفاق يزيد فى تأكيد عدم الخضوع لها ٠ ومن لم يخضع للمادية فى اتجاهها ، فهو فى جانب روحية الدين ٠ وعندئذ يزكى وينفق فى سبيل الله ٠ كما جمعت أيضا ثلاثة أنواع أخرى من الصفات يوصف بها الماديون الكافرون ، ويوصف بأضدادها المؤمنون ، بالطبع والضرورة : الشرك بالله ٠ ويوصف به الكافر المادى ، وبعدمه يوصف به المؤمن بالله : « **والذين لا يدعون مع الله الها آخر** » ٠ وارتكاب الجرائم الاجتماعية من : الزنا ، والسرقة ، والقتل ، ويوصف بها الكافر المادى ، وبعدم ارتكابها يوصف المؤمن : « **ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون** » ٠ « **والذين لا يشهدون الزور** ٠٠ » ٠ والاعراض عن كتاب الله ، وعن دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويوصف به الكافر المادى ، وبعدمه يوصف المؤمن : « **والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** » ٠

---

(١) الفرقان : ٦٣ ــ ٧٣ ٠

أما من يتستر وراء اعلان الايمان ظاهرا ، فاهم أمر يكشف عن طبيعته المختبئة هو : مطالبته بانفاق المال ، أو بالخروج الى ميدان القتال ٠ اذ أنه لا يستطيع أن ينافق هنا فى مجال التطبيق العملى ، كما يستطيعه فى أداء الصلاة ، أو الصوم ٠ وفى مجال طلب القتال تقول الآية الكريمة :

« **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة !** (أى هلا أنزلت سورة تطلب القتال) ؟ ٠

فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض (وهم المنافقون) **ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت** » (١) ٠ فهنا يبدو عليهم أثر الرعب والخوف الذى يكشف عن ايمانهم ، بأنه كان ايمان احتراف ومنفعة مادية ، ولم يكن ايمان تقوى ورسالة ٠ وفى مجال الانفاق لكشف المنافقين ، يقول الله تعالى فى مواجهتهم صراحة :

« **انما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم** (أى يختبركم بعد بسؤالكم انفاق الأموال فى سبيل الله) ٠ **ان يسألكموها فيحفكم ، تبخلوا ويخرج أضغانكم ٠ ها انتم هؤلاء : تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم** » (٢) ٠ فالقرآن أولا : يطالبهم بالايمان والتقوى ، مع أنهم أعلنوا الايمان من قبل ، ليشكك فى حقيقة أمرهم ــ هذه الحقيقة التى لم يكشف عنها النقاب واضحا أمام المؤمنين بعد ، عن طريق امتحانهم بطلب الانفاق فى سبيل الله والالحاح فيه ، وما يتبع ذلك منهم من : الامساك والبخل ، والتعبير عن الضغينة الكامنة فى النفس : « **وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم ٠ ان يسألكموها فيحفكم ، تبخلوا ويخرج أضغانكم** » ــ ثم يرفع ثانيا النقاب عن هذه الحقيقة التى تبتعد عن الايمان بالله ، بمقدار ما تقترب من الكفر ، بتوجيه طلب الانفاق اليهم فعلا ، فى سبيل الله ، وبذلك تظهر عاقبة هذا الطلب جلية واضحة ، وهى : الشح الذى يدل على عدم التأثر بالايمان بالله كلية : « **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** » ٠

---

(١) محمد : ٢٠ ٠ (٢) محمد : ٣٦ ــ ٣٨ ٠

★ وهكذا : اذا كانت الزكاة عبادة ، وقربى ، وكان الانفاق بعدها فى سبيل الله عبادة ، وقربى ، فان هذا الانفاق فى وقوعه ، يتأثر باخراج الزكاة ومدى فاعليتها فى نفس المزكى ، وكلاهما يدلان على حقيقة الايمان بالله ، ووزنه فى نفس من يعلنون الايمان به ، كما يدلان على التفاعل بالايمان فى نفس المزكى والمنفق · ومن هنا كان الانفاق فى سبيل الله أمارة قاطعة على حقيقة الايمان ، كما يكون رفضه ، ورفض الزكاة قبله ، أمارة على الكفر وطغيان الاتجاه المادى فى الحياة ، بينما أمارة النفاق فى الايمان تتضح فى الشح فى الانفاق فى سبيل الله ، بعد المطالبة به · ولا يختلف المنافق فى الايمان ، عن الكافر به ، الا فى المعارضة المختبئة وراء الشح عند المنافق ، والمعارضة الصريحة والانكار العلنى لدى الكافر ·

وفى حياة المسلمين فى تاريخهم لم يبق النداء للانفاق فى سبيل الله ـ وراء اخراج الزكاة ـ دعوة من القرآن الكريم لا يجد له صدى فى التطبيق العملى · وانما اقبال المؤمنين على « الحبوس » فى سبيل الخيرات العامة ، التى تشتمل منفعتها الكافة فى الأمة ، يصور : أى مدى تعمق هذا النداء وترسبت حقيقته النفسية فيهم ، بحيث أصبحوا يتنافسون فيما بينهم على « وقف » الأموال فى صورها المختلفة ، وحبس منفعتها على ضرب من ضروب « البر » والخير العام : ان فى سبيل التعليم والدعوة الى الله ، أو فى سبيل المرضى ورعايتهم الصحية ، أو فى سبيل أصحاب الحاجة ممن لا يملكون الوسيلة لسد حاجاتهم بأنفسهم ، أو فى سبيل قوة الأمة واعدادها فى مواجهة العدو ، أو فى سبيل رعاية حجاج بيت الله فى حرمه الآمن ، بل قد تجاوزت منفعة ما حبسوه ، الانسان فى تعلمه ، وتثقيفه ، وصحته ، وسد حاجته ، الى الحيوان : فى عدم اضطهاده وتعذيبه ·

وقد بلغت رعاية الواقفين بأوقافهم على صنوف الرعاية المختلفة حدا لم يقفوا به عند الجانب المادى ، أو الثقافى ، أو التعليمى ، والصحى فحسب ، بل كان مما شملوه بمنفعة ما حبسوا من أموال : أولئكم الذين يقومون بخدماتهم فى العمل المنزلى أو الخارجى لغيرهم ، لو أتلفوا ـ أو تلف منهم ـ ما هو أمانة لديهم ، بالكسر ، أو بعلم أخرى لم يتنبهوا اليها ، فيعوضون عما تلف لديهم ، حتى لا يكون هنا حرج فى علاقتهم بمن يقومون بخدمتهم وكذلك اللاتى لا يستطعن فى أفراحهن ، لفقر أيديهم اسعاد أنفسهن بلبس أثواب الزفاف ، أو التزين فى الأعناق ، والآذان ، بما تتزين به القادرات فى تلك المناسبة ، فتقدم لهن الفرصة من المنفعة العامة ، لما حبس من أموال ، كى لا يعدمن الفرحة فى المناسبة السارة · وبذلك راعى الواقفون الأحاسيس

الانسانية ، وحافظوا على الاعتبارات البشرية ، كما حافظوا على الوقاية ، من : الجوع ، والمرض ، والجهل ، والتشرد ٠

وبهذا لم يبق الاسلام دعوة تجوب الخيال ، وتناجى من يسمعها فى الصحراء ٠ بل أصبح نظاما لحياة الانسان ، يأخذ طريقه العملى فيها فى يسر ، عندما توفرت فى الانسان : حقيقة الايمان بالله ٠ ومعجزة القرآن هى : فى امكان الأخذ به فى كل وقت ، وعهد ، وفى امكان النجاح به ، عند اتباعه فى أى طور من أطوار البشرية ٠

★ ★ ★

الفصل الخامس

الحج فى مجال الجماعة الكبرى

١ ـ الدخول فى علاقة انسانية خالصة ٠٠ أو أداء شعيرة الاحرام ٠٠٠

٢ ـ ارتباط البشرية بعضها ببعض ٠٠ أو أداء شعيرة الطواف ٠٠٠

٣ ـ التعبير عن المثابرة والصبر ٠٠ أو أداء شعيرة السعى ٠٠٠

٤ ـ فى اللقاء العام والاتجاه الى الله وحده٠٠ أو أداء شعيرة الوقوف بعرفات ٠٠٠

٥ ـ التعبير عن الوقوف فى اصرار فى وجه الباطل ٠٠٠ أو أداء شعيرة رمى الجمار ٠٠٠

٦ ـ فى التضامن والاخاء ٠٠ أو أداء شعيرة النحر ٠٠٠

اذا كانت صلاة الجماعة لها دورها فى الترابط فى الحياة اليومية للمؤمنين فى نطاق السكان فيما يحيط بالمسجد ، واذا كانت صلاة الجمعة لها دورها كذلك فى الترابط وتقوية الشعور بالاخاء بين المؤمنين فى دائرة أوسع ، وعلى فترة تتجاوز اليوم الى الاسبوع ٠٠ فان حج بيت الله الحرام هو العبادة السنوية التى تجمع بين المسلمين ، ممن يستطيعون أداءه فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى صفاء نفسى ، وفى مساواة تامة لا يتميز فيها غنى عن فقير ، ولا صاحب جاه عن عديم الجاه ٠

١ ـ الدخول فى علاقة انسانية :

ووظيفة العبادة فى الاسلام اذا كان من شأنها أن تخلق فى نفوس المؤمنين بالله روح « المساواة فى الاعتبار البشرى » وروح « المساواة أيضا

أمام الله » ، فان الحج بوجه خاص يؤكد هذه المساواة ، منذ اللحظة الأولى في مباشرة أدائه • فالاحرام – وهو أول شعيرة من شعائره – هو : اعلان من المحرم أمام الله وأمام نفسه ، بتحريم كل ما يحول دون المساواة في الاعتبار البشرى ، أو يحول دون اخلاص النفس لله وحده ، وصفائها في العلاقات بين المؤمنين •

★ فالمحرم بإحرامه يعلن تحريم : لبس المخيط على نفسه ، كما يعلن العودة الى « البساطة » في الثياب ، وترك الزينة عن طريق حلق شعر الرأس ، أو طيب البدن والثياب • لأن المخيط من الثياب قد يختلف ويتنوع في مظهره • وعن طريق اختلافه وتنوعه في المظهر يخرج الأمر بين الحجاج ، قليلا أو كثيرا ، عن مستوى المساواة المطلوب فيما بينهم • وبذلك يتميز بعضهم عن بعض في الصورة المحسوسة • ولأن أيضا تزيين الشعر بقصه أو تسويَته ، ووضع الطيب على الملابس والبدن من شأن أى منهما كذلك ، أن يحدث اثرا مميزا بين الحجاج في المظهر ، مما يقلل من : تأكيد « المساواة » ، التى تستهدفها هذه العبادة في لقاء المسلمين في يومهم العظيم • فهى تستهدف « التجرد » عند اداء شعائرها مما يترك أثرا في النفوس : من أن هذا غنى ، أو صاحب جاه ، وذاك فقير ، أو عديم الجاه • وعن هذا « التجرد » في الاحرام لا تشتغل نفوس الحجاج بشىء سوى الله ، وسوى ما بينهم من علاقات الأخوة في الايمان بالله ، ومما يتطلبه هذا الايمان في سبيل بقائهم وقوتهم •

★ وفى الوقت الذى يعلن فيه المحرم تجرده من المخيط والزينة ، يعلن فيه أيضا بعده عن كل ما يربطه بمتع الدنيا ، وعما يسىء الى الآخرين معه •• يعلن بعده عن المرأة ، وبعده عن كل ما يؤدى الى الانحراف والخروج عن الصراط السوى ، وبعده عن لغو القول وفضوله ، وعن الخصومة واللجاجة في المناقشة • وفى الوقت نفسه : يحزم أمره على أن يكون سلوكه ، كموقفه ، هو سلوك الخير المهذب ، وموقف الممتثل الى الله ولهدايته • وفى هذا تقول الآية الكريمة : « **الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ، ولا فسوق ، ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب** » (١) •

ومع ذلك : فليس من المحظور على « المحرم » أن يباشر السعى لتحصيل الرزق أثناء أدائه عبادة الحج • لأن سعيه لذلك لا يحمل منه ماديا منحرفا ، ولا ينزل به الى مجال يناقض هدف احرامه في مباشرته هذه العبادة : « **ليس**

---

(١) *البقرة* : ١٩٧ •

عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم » (١) ٠ والسعى من أجل الرزق لا يخل بعبادة الحج كما لم يخل بأداء الجمعة ، الانتشار فى الأرض بعد أدائها لابتغاء فضل الله : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »** (٢) ٠

وهذا ، وذاك : يدلان على أن العبادة لله وحده ، وان كانت هى الغاية من خلقه ، فيما تذكره الآية الكريمة : « **وما خلقت الجن ، والانس الا ليعبدون** » (٣) ٠٠ فالعمل من أجل الرزق ، والسعى ابتغاء وجه الله ، لا يخرج عن غاية الانسان من خلقه ، وهى العبادة ٠ فالانسان فى عبادته يتجه الى الله ، وهو فى سعيه ابتغاء فضل الله يتجه اليه كذلك ٠٠ هو طالب عونه جل شأنه : ان فى أداء الصلاة ، وان فى أداء السعى من أجل الرزق ٠٠ وهو مقر بربوبيته : فى مباشرة شعائر الحج ، وفى ابتغاء فضل الله ٠٠ وهو ان سعى وتقوت من رزق الله ، فلكى ينهض بأداء العبادة لله ، وان نهض بأداء العبادة لله ، فلكى يستعين به على الهداية الى الصراط المستقيم ، ومن الصراط المستقيم : تجنب ارتكاب المنكرات ، من : قتل ، وسرقة ، واستباحة أكل مال اليتيم والضعيف بالباطل فى سبيل القوت والمعيشة ، والاتجاه الى الله والتوكل عليه وحده ، فى سعيه الخاص وعمله لتحصيل رزق الله ٠

★★★

٢ ـ ارتباط البشرية بعضها ببعض :

واذا كانت شعيرة : « الاحرام » ـ أولى شعائر الحج فى أداء عبادته ـ تستهدف « المساواة » بين حجاج بيت الله ، والترابط بين المؤمنين بالله على أساس من الصفاء النفسى وعدم الاحساس بفروق التميز فى الاعتبار البشرى ٠٠ فان شعيرة أخرى من شعائره ، وهى شعيرة الطواف بالكعبة ، تعيد الى الترابط بين البشرية كلها فى أجيالها العديدة منذ ابراهيم الى محمد عليهما الصلاة والسلام ، قوته واعتباره ٠ كما أن تقبيل الحجر الأسود داخل الكعبة يجسد المحبة لله ٠ فقد كانت الكعبة أول بيت وضع للناس على عهد ابراهيم ، وكان الطواف حولها شعيرة مستمرة من شعائر الحج الى هذا البيت الحرام ٠ واستمرار الطواف كشعيرة للحج ينبىء عما تتوخاه هذه الشعيرة من الاسهام فى تذكير المؤمنين بالله من الصلة القوية التى تربط أجيالهم ٠ وهى صلة الايمان بالله فى مواجهة الالحاد على الأخص ٠ وهذه صلة تاريخية تضيفها عبادة الحج ، الى صلة الترابط بين المؤمنين بالله عن طريق رسالة الرسول

---

(١) البقرة : ١٩٨ ٠ (٢) الجمعة : ١٠ ٠
(٣) الذاريات : ٥٦ ٠

محمد صلى الله عليه وسلم بأداء العبادة ذاتها · يقص القرآن ما وجه الى الرسول فى قول الله تعالى : « **انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين · وأن أتلوا القرآن ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين** » (١) ·· وما أمر به الله رسوله الكريم هنا : هو ما استجاب الله اليه من ابراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عندما دعاه بقوله : « **واذ قال ابراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام · رب : انهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم · ربنا انى أسكنت من ذريتى** (زوجه هاجر ، وولده اسماعيل) **بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** » (٢) ·· فقد دعا ابراهيم ربه :

(أ) فى أن يمكنه من أن تكون عبادته لله وحده ، ويجنبه بذلك الشرك ، وعبادة الأصنام ، والوقوع تحت تأثير الوثنية المادية : « **واجنبنى وبنى : أن نعبد الأصنام · رب انهن أضللن كثيرا من الناس** » · وذلك لصالح البشرية واخراجها من الضلال ·

(ب) وأن يجعل هذا البلد ـ وهو مكة ـ بلدا آمنا : « **رب ·· اجعل هذا البلد آمنا** » ليكون مثابة للناس وأمنا ·

(ج) وأن يجعل منه مكانا يتجه اليه الناس بعبادة الحج ، حتى يكون مكانا صالحا للسكنى ، وبذلك تستمر فيه عبادة الله وحده فى البيت العتيق ، أول بيت وضع لله تعالى : « **ربنا : انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** » · فحجاج بيت الله الحرام تهوى أفئدتهم اليه ، فيؤمونه يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا ·

ثم يتجه القرآن الى المؤمنين ، لاقرار فريضة الحج على من استطاع اليه ، فيما يقوله الله جل شأنه : « **قل صدق الله ، فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين · ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة ، مباركا وهدى للعالمين · فيه آيات بينات ، مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين** » (٣) ·· ففوق أن الكعبة أول بيت لله وضع للناس منذ عهد ابراهيم

---

(١) النمل : ٩١ ، ٩٢ ·   (٢) ابراهيم : ٣٥ ـ ٣٧ ·
(٣) آل عمران : ٩٥ ـ ٩٧ ·

عليه السلام ، وأن الحج اليه فريضة على من استطاع اليه سبيلا ٠٠ فان من يدخله له حق الأمان ، وحق الحماية على الله سبحانه وتعالى ٠ وبذلك ـ كما يعطى الطواف حول الكعبة معنى : الترابط التاريخى للبشرية فى ايمانها واستقامتها ـ يعطى الاحساس بالأمان ، من : الخوف ، والتتبع فى رحاب الله وبيته العتيق ٠ فالكعبة تجسم هذا الاحساس بالأمان ، كما تجسم الذكرى التاريخية للبشرية : « **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما** (أى سندا) **للناس** » (١) ٠ « **واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا** » (٢) ٠

★★★

٣ ـ **التعبير عن المثابرة والصبر :**

٠ وشعيرة ثالثة من شعائر الحج قصد بها كذلك توكيد الروابط بين المؤمنين ، ولكن من جهة التعبير عن مثابرتهم وصبرهم ، وعن خفة حركتهم وسرعتها فى الاستجابة الى ما يطلبه الايمان بالله منهم ، من معاونة ومؤازرة فى وقت الشدة ، أو من دفع اعتداء عدو عليهم ، وقت عدوانه ٠ وهى شعيرة السعى بين الصفا والمروة ، فتحديد المطلوب فى السعى فى الطريق الواقع بين هذين الجبلين : الصفا ، والمروة ، بأنه سعى ينم عن النشاط وخفة الحركة ، وابعاد البطء والتراخى فيه ، وأنه سعى متكرر ٠٠ ليرشد المؤمنين فى أداء عبادة الحج الى أن بعض ضرورات الحياة قد تتطلب من المؤمنين : زيادة المثابرة ، والصبر ، والمبادرة ، وسرعة الاستجابة ، على نمط ما يلاحظ فى أداء شعيرة السعى بين الصفا والمروة ، وتكون سرعة الاستجابة عندئذ : عبادة وقربى الى الله كذلك ، وكذلك المثابرة والصبر على تكرار السعى وزيادة مراته ٠ وفيما تطلبه الآية من أداء هذه الشعيرة ، فى قول الله تعالى : « **ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت ، أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم** » (٣) ٠ وفيما تطلبه : من التطوع بالزيادة فى أداء شعيرة السعى ، وفيما تعتبره من أن الزيادة فى أدائها خير ، هو لتقرير هذا النموذج فى نفوس حجاج بيت الله ، فى الصبر وفى سرعة الحركة : عند الاستجابة لما يطلبه الله سبحانه من المؤمنين به ٠

★★★

---

(١) المائدة : ٩٧ ٠ (٢) البقرة : ١٣٥ ٠
(٣) البقرة : ١٥٨ ٠

٤ ـ فى اللقاء العام والاتجاه الى الله وحده :

وهكذا : اذا انتقلنا من هـذه الشـعائر الثـلاث التى تستهدف « روح الجماعة الكبرى » فى أداء عبادة الحج ، الى الشعيرة الرئيسية فيه ، وهى : الوقوف بعرفات وجدنا : أن طريق أداء هذه الشعيرة من « تجمع » جميـع حجاج بيت الله فى يوم معين ، هو اليوم التاسع من ذى الحجة ، وعلى قمة جبل معين هو عرفات ، وتوجههم الى الله سبحانه فى دعاء واحد : « لبيـك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ٠٠ وجدنا أن هذه الصورة فى أداء هذه الشعيرة تزكى روح الجماعة الكبرى ، ازكاء ماديا ، ومعنويا : تتلاصق أجسامهم الغفيرة فى صعيد واحد ، وترتفع أصواتهم من على قمة جبل واحد ، تردد : دعاء واحدا ، وتضرعا واحـدا ، الى الله المعبود الواحد ٠ تملأ الكثرة العددية نفوسهم فخرا بقوتهم ، وتتجاوب فيها ، قوية : أصداء الايمان بالمعبود الذى وعد المؤمنين به وحده ، بالنصر والظفر على الأعداء الأول للاسلام ؛ أصحاب الشرك والمادية الالحـادية ، وطهر منهم بيت الله العتيق الى الأبد ٠ ينسون فى هذه الآونة : الدنيا ومتعهـا ، وينسون وجودهم الشخصى ، ولا يذكرون الا الله الواحد ٠ والذهاب الى « منى » والمبيت بها ليلة التاسع من ذى الحجة ، تمهيدا للوقوف بعرفات ، قيل : اذا لتذكر التقاء آدم وحواء ، بعد خروجهما من الجنة ٠ والوقوف بجبل الرحمة ـ كما يسمى ـ لا يقوى فحسب الشعور : بالقوة ، والعزة ، والترابط بين المؤمنين برسالة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا يذكـرهم فقط : بالمؤمنين السابقين منذ ابراهيم عليه السلام ؛ وبرسالته فى محاربة الشرك والوثنيـة المادية ٠ وانما يذكرهم كذلك : بالتقاء آدم وحواء ، بعد خروجهما من الجنة٠٠ يذكرهم اذن بأب البشرية ، كما يذكرهم بأولى الرسالات السماوية ، بجانب تعزيز روابط الأخوة الايمانية بينهم ٠

وهكذا : شعائر الحج ، اذا ارتبطت بأمكنـة معينة فلأن هـــذه الأمكنة المعينة تجدد ذكريات خاصة من شأنها : أن تطهر النفوس وتزكيهـا ، وتقوى الصلات بين بعضها بعضا ٠ والأمكنة اذن لا تقصد لذاتها ، بقـدر ما يتصل بها من ذكريات ٠ فهى رموز ، أو تعبير ، أو تجسيد لهذه الذكريات ٠ وهى لا تقدس لأنها أمكنة ٠ وانما يقدس ما توحيه ، من : ذكريات خالدة للانسانية كلها ٠

***

٥ ـ التعبير عن الوقوف فى اصرار فى وجه الباطل :

وشعيرة رمى الجمار نيط بها الوقوف فى ايمان وثبات فى وجه الباطل٠ والجمار ثلاث فى الطريق ، من : « منى » الى مكة ٠ وأولاها : جمرة العقبة ،

ترمى فى يوم النحر · ولا شك أن يكون للعزم الأكيد الناشىء عن الوقوف بعرفات ، وأداء شعيرته ، أثره فى الثبات على الحق ، ومؤازرته ، ومناوأة الباطل ، ومطاردته · ومن هنا : كان رمى الحجارة تعبيرا محسوسا وواضحا عن مطاردة الباطل والاصرار على الوقوف فى وجهه · فتكرار الرمى ، وعلى أيام متفرقة ، يعطى التعبير عن : مدى مناوأة الشر والباطل ، مناوأة أكيدة لا هوادة فيها · وكأن الحاج برميه الجمار الثلاث ، يعطى العهد على : عدم تراخيه فيما بعد ، فى انكار المنكر ، وفى دفع الباطل ، وفى الوقوف بجانب الحق · فهو الآن شهد من شعائر الحج ومناسكه ما جعله يحمل « روح الجماعة الكبرى » ·· روح الجماعة المؤمنة ، منذ ابراهيم الى محمد عليهما السلام · وهى تلك الروح التى تساند الحق وحده ، وتدعو الى عبادة الله وحده ، وتدفع فى عنف : وثنية المادية الالحادية ، والشرك بالله تعالى ، باعتبار أنه : مصدر اضلال لكثير من الناس : « **واجنبنى وبنى : أن نعبد الأصنام · رب انهن أضللن كثيرا من الناس** » (١) ·· والأصنام من الأحجار ، ان دل اتخاذها وعبادتها على الجهل لمن يعبدها ، فان الأصنام من الناس لو اتخذت ، يدل تقديسها على المهانة والمذلة لمن يقدسها · وما ينشأ عن الجهل ضلال · ولكن ما ينشأ عن المهانة والمذلة ، ضلال انكى ، وهو ضلال الضعف ، والنفاق ، والاحساس بالصغار والحقارة ·

★★★

٦ ــ فى التضامن والاخاء :

وعن روح الجماعة الكبرى التى يحملها كل حاج ــ أو يجب أن يحملها ــ يقوى فى نفس الحاج باعث التضحية فى سبيل الاخاء والتضامن · ومن هنا كان : « نحر الهدى » عقب رمى الجمار ، وكان اشراك الفقراء فى طعام ما ينحر ، تعبيرا واقعيا عن « الاخاء » و « التضامن » بين المؤمنين ·

والهدى ، أو الأضحية ، أو النحر ، فى التعبير المادى عن الاخاء والتضامن يشير من جانب آخر الى أن : ختام شعائر الحج يحمل من معناه الشىء الكثير ، تلك العبادة التى تسعى الى تحقيق المساواة فى الاعتبار البشرى · ولذا يبرز القرآن الكريم هذه الشعيرة ــ وهى شعيرة النحر ــ كهدف قوى من أهداف الحج ، يماثل هدفه العام فى جملته ، من : المنافع المادية ، والمعنوية · اذ تذكر الآية : « **وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق · ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا**

---

(١) ابراهيم : ٣٥ ، ٣٦ ·

البائس الفقير » (١) • وذكر الله على ما رزق من بهيمة الأنعام ، كنــاية عن النحر والذبح • وجعل مقصود ما يذبح وينحر هو « المشاركة » فى الطعــام منها ، مع أصحاب الحاجة : « **فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير** » • فاذا لم تقع المشاركة فى الطعام منها من جانب صاحب الهدى ، وتركها جميعهــا للبائس والفقير ، فان هذه الشعيرة لم تؤد حينئذ غايتها الكاملة • كذلك اذا لم ينحر ويذبح ، ودفع ثمن ما يذبح وينحر نقدا لأصحاب الحاجة ، فان « واجب » الهدى ــ اذا وجب بارتكاب ما يخالف بعض الشعائر ، أو بالتمتع بالعمرة الى الحج مثلا ــ أو التبرع به جريا على السنة الشريفة ، لا يؤدى ، كما يقضى الواجب ، أو كما جرت به السنة •

ان شعائر الحج جميعها تكاد تكون تجسيدا لمعان ، تكون الهدف الأصيل من أداء عبادته :

(أ) فشعيرة الاحرام والتجرد من لبس المخيط ، تجسد المساواة فى الاعتبار البشرى •

(ب) والطواف بالكعبة ، يجسد الترابط بين المؤمنين بالله طولا وعرضا ، أو فى حاضرهم وماضيهم •

(ج) وتقبيل الحجر الأسود ، يجسد حب الله والولاء له •

(د) والسعى بين الصفا والمروة ، يجسد المثــابرة والصبر فى الحيــاة ، والسرعة فى الاستجابة الى حاجة الآخرين •

(هـ) والوقوف بعرفات ، يجسد الاعتزاز بالقوة المادية للمؤمنين ، وبقوتهم المعنوية فى صلتهم بالله •

(و) ورمى الجمار الثلاث ، يجسد الاصرار فى دفع الباطل ، وانكار المنكر •

(ز) والنحر والهدى ، يجسد التضامن والاخاء •

وروح الجماعة الكبرى المستهدفة اذن من أداء عبادة الحج ، هى مجموع هذه « المثل » أو المعانى ، التى هى :

★ **المساواة فى الاعتبار البشرى ،**

★ **والترابط بين المؤمنين فى حاضرهم وماضيهم ،**

★ **والاخلاص لله وحده ومحبته ،**

---

(١) الحج : ٢٧ ، ٢٨ •

★ والصبر والمثابرة ، والسرعة فى الاستجابة الى أصحاب الحاجةمن الآخرين ،

★ والحرص على القوة المادية ، والمعنوية ،

★ والاصرار على مناوأة الباطل الممثل بالأخص فى الوثنية المادية الالحادية ،

★ والتضامن والاخاء ، بين الغنى والفقير وصاحب الجاه ومن لا جاه له ٠

واذا كانت شعائر الحج هى رموز أو تعبيرات حسية عن معان مستهدفة ، تتكون منها الروح العامة للمؤمنين ولجماعتهم ، فانه من غير المعقول أن تؤدى شعيرة منها فى غير الرمز والتعبير الذى وردت فيه ٠ أو على الأقل لا يبلغ عندئذ تعظيم الشعيرة المستوى المطلوب ، على نحو ما يوصى القرآن الكريم ، فى قوله : « **ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه** » (١) ٠

وفيما تنتهى به هذه الآية من قول الله تعالى : « ٠٠٠ **وأحلت لكم الأنعام الا ما يتلى عليكم** (أى الا ما يتلى عليكم تحريمه فى كتاب الله) ، **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ٠ حنفاء لله ، غير مشركين به** » (٢) ٠ قصد منه تحذير : أن ينقل تعظيم هذه الشعائر الحسية لما فيها من معان مستهدفة ، الى صورها المادية فتقدس هى كأمكنة محسوسة ترى وتشاهد ، وليس كتعبيرات ورموز عن معان مطلوبة ٠ فاذا نقل التعظيم على هذا النحو ، صار الأمر الى رجس الأوثان ، الذى نهت عنه الآية : « **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** » ٠ لأنها عندئذ أوثانا مادية ، وصار الأمر كذلك : الى قول الزور المنهى عنه هنا أيضا : « **واجتنبوا قول الزور** » ٠ لأنه المعظم للمكان ، وليس لما يوحيه من معنى ينسب الى الله الآن الأمر بتعظيم ما لا يعظم كما جاء فى قوله : « **ذلك ومن يعظم حرمات الله** » ٠ فهو يدعو جل جلاله إلى تعظيم المعنى المستهدف ، وليس الى تعظيم الصورة الحسية ، التى يظهر فيها ٠ وكان الذين يفعلون هذا النقل والتحويل آنئذ من المشركين بالله ، على النقيض مما يطلبه الله ، فى قوله : « **حنفاء لله غير مشركين به** » ٠

★ واذا ضمت عبادة الحج هذه الشعائر العديدة فان الثمرة المرجوة منها ، هى : البقاء على ذكر الله وحده ، بحيث يكون ذكره فى السلوك والأفعال والمواقف ، وفى التفكير والتصور ، كذكر الآباء ، أو أشد ذكرا ٠ ولذا يربط

---

(١) الحج : ٣٠ ٠ (٢) الحج : ٣٠ ، ٣١ ٠

القرآن هذه النتيجة ، بالانتهاء من أداء مناسك الحج فى قوله : « **فاذا قضيتم مناسككم ، فاذكروا الله كذكركم آباءكم · او اشد ذكـرا** » (١) · والتشبيه بالآباء ، لأن أمرهم لا ينسى من أبنائهم ، اذ ينتسبون اليهم ويحملون أسماءهم فى تمييز أشخاصهم · وينص القرآن الكريم على طلب هذه النتيجة · لأن الطبيعة البشرية ــ مهما تمرست على أداء العبادة لله ــ قد تنجذب الى اغراء المتع الدنيوية · وعندئذ قد تنسى الله سبحانه وتعالى فلا تذكره ، ولا تذكر هدايته ، ولا صراطه المستقيم فى سيرها فى الحياة ، حتى بعد أن أدى صاحب الطبيعة التى استهواها فيما بعد بريق الحياة المادية ، عبادة الحج ، وبعد أن شارك كذلك فى شعائرها ، وحرماتها · وعندئذ لا يعفيه أداء الحج مما سيلحقه من جزاء مقرر · وهنا تستطرد الآية السابقة فتقول : « ··· **فمن الناس من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا ، وما له فى الآخرة من خلاق** (أى من نصيب) · **ومنهم من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار · أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب** » (٢) · فالقرآن هنا ان ربط الجزاء بنوعية العمل الذى يؤدى من الانسان ، وكذلك بالاتجاه الذى يسير فيه طوال حياته ، ويحول دون أن يشفع عمل صالح لعمل سيء ، فانه لا يرى : « الدنيا » شرا ، ولا مباشرة ما فيها من متع ، أمرا سيئا ·

والسيء فى رأيه ، هو : الاكتفاء بالدنيـا عن الآخـرة ·· هو الوقوف بالسعى عند تحصيل متع الدنيـا ، ولو كان طـريق تحصيلها بسبب ايذاء واضرار الآخرين · وهذا هو ما يتصوره الفريق الأول من الناس الذى تصف الآية اتجاهه فيما تقوله : « **فمن الناس من يقول : ربنا : آتنا فى الدنيا ! ، وما له فى الآخرة من خلاق** (أى من نصيب) » · فان هذا الفريق يقصر أمله ، على ما فى الدنيا وحده · والتعبير بـ « **آتنا فى الدنيا** » دون ذكر نصيب مما فيها يجعل المطلوب كله دنيويا ·

أما الفريق الآخر الذى يطلب فى هدفه وفيما يحصله بسعيه نصيبا من الدنيا ، ونصيبا آخر من الآخرة ، كما تذكـره الآية : « **ومنهم من يقـول : ربنا ! : آتنا فى الدنيا حسنة** (أى نصيبا حسنا لا شبهة فيه من حـرام أو باطل) **وفى الآخرة حسنة** (أى نصيبا مقبولا عند الله خالصا لوجهه) **وقنـا عذاب النار** (هذا : تأكيد لما يطلبـه من حسن النصيب الدنيوى والآخـر الأخروى) **أولئك لهم نصيب مما كسبوا** (أى ما أتوا به وحصلوه بسعيهم وارادتهم سواء فى الدنيا ، أو من أجل الآخرة) **والله سريع الحساب** (للمثيب والمسيء على السواء) » ·· أما هذا الفريق الآخر الذى يطلب الدنيا والآخرة

(١) البقرة : ٢٠٠ ·   (٢) البقرة : ٢٠٠ ــ ٢٠٣ ·

معا ، ويعمل من أجلها سويا ، بحيث لا ينطوى عمله على : اساءة ما ، فهو يجازى على حسن عمله بالحسنى : ان اليوم ، أو فى الغد ٠

وما قد يشاع بين العامة اذن ، من : أن الحج فى أدائه يمحو كل سيء فى حياة الانسان : ما سبق وما سيأتى ، فهو لا يتفق مع ربط الجزاء بنوعية العمل فى صلاحه وفى اساءته ٠ هذا الربط الذى يمثل ارادة الله سبحانه وتعالى ، كقانون لا يتخلف فى حياة الانسان على مداها ٠ وما قد يفهم خطأ كذلك : من أن الدنيا شر يجب تجنبه ، فهو يخالف منطوق الآية السابقة مخالفة صريحة ٠ والعبرة دائما بنوع السعى للانسان ، وبنوع اتجاهه فى الحياة ٠ والعمل فى الدنيا من أجل الآخرة ، لا ينفصل عن العمل من أجل تحصيل بعض متع الدنيا ٠ عمل الآخرة فى الدنيا ، هو : فى بعد العمل من أجل الدنيا عن الاساءة ٠٠ هو فى رعاية « الحسنى » والتصديق بها فيما يعمله فى دنياه ٠ والعمل لذات الدنيا ، هو : الاستهانة « بالحسنى » فى أدائه ٠٠ هو التكذيب بها ، كمبدأ فى السلوك والعمل ٠

وآية العمل الأول ، هو التقوى والعطاء من المال ٠ وآية الثانى ، هو : البخل والاستغناء بالمال ، والاعتزاز به وحده : « **والليل اذا يغشى ٠ والنهار اذا تجلى ٠ وما خلق الذكر والأنثى ٠ ان سعيكم لشتى : ـ فأما من أعطى واتقى ٠ وصدق بالحسنى ٠ فسنيسره لليسرى** (أى نجعل طريقه سهلا ميسورا) ٠ **وأما من بخل واستغنى ٠ وكذب بالحسنى ٠ فسنيسره للعسرى ٠ ومايغنى عنه ماله اذا تردى ٠ ان علينا للهدى ٠ وان لنا للآخرة والأولى** » (١)

وننادى بما نادى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فى السنة العاشرة من الهجرة ، على جبل « الصفا » :

« **لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، له : الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ٠ لا اله الا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده** » ٠ **ويجب أن ينادى به المسلمون عن ايمان ، ليشهدوا نصر الله لهم على أعدائهم ، ويروا وعده حقيقة منجزة فى حياتهم بالحسنى ، ان فى الدنيا ، أو فى الآخرة ٠**

★★★

---

(١) الليل : ١ ـ ١٣ ٠

الفصل السادس

الجهاد فى سبيل الله ، فى مجال التضحية بالذات

١ ـ القتال ضرورة فى الحياة ٠
٢ ـ القتال من جانب المؤمنين ٠
٣ ـ الماديون الملحدون ، أو المشركون
٤ ـ ليس فى القتال معجزة ٠
٥ ـ النصر النهائى للايمان بالله ٠
٦ ـ أجر المقاتل عند الله ٠
٧ ـ الجهاد اليوم فى سبيل الله ٠

١ ـ القتال ضرورة فى الحياة :

★ طالما أن الحياة فيها الحق والباطل ، وفيها الاستقامة والانحراف وفيها العدل والظلم ، وفيها الخير والشر ٠٠ طالما فيها الشىء ونقيضه ، وفيها الانسان ذو العقل والحكمة وذو الهوى والشهوة ، وصاحب الايمان بالله وبالقيم الانسانية العليا ، وصاحب الكفر بها ، طالما أن الحياة الانسانية على هـذا الوضع فالقتال ضرورة من ضروراتها ، لمنع الفساد وطغيان الشر والهـوى والكفر بالله وبالقيم العليا ، وللابقاء على الايمان والعدل والخير ، يقول تعالى: **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسـدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »** (١) ٠ ويقول كـذلك : **« ولولا دفع الله النـاس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد : يذكر فيها اسم الله كثيـرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز »** (٢) ٠٠ ففى الآية الأولى يبرر ضرورة القتال بالحفاظ على الأرض من الفساد ، ويشير الى أن ضرورته تعتبر نعمة وفضلا من الله على العالم الانسانى ٠ وفى الآية الثانية ، يوضح ما أجمله من فساد العالم ، اذا لم يكن القتال مبدأ ضروريا فى حياة الانسان ـ من أن

---

(١) البقرة : ٢٥١ ٠ (٢) الحج : ٤٠ ٠

الفساد يتمثل فى ضياع الايمان بالله ، الذى يعد بيت الله له رمزا : « **لهدمت : صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد : يذكر فيها اسم الله كثيرا** » ٠

واذن : هدف القتال ، هو : الحرص على بقاء الايمان بالله على هذه الأرض ٠ واذن القتال من أجل هذا الهدف فريضة وواجب على كل من يستطيعه : « **كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** (أى والله يعلم ما هو فى صالح البشرية عامة ، ولذا أوجب القتال ، وأنتم لا تعلمون حقيقة هذه المصلحة العامة ، ولذا قد تكرهون القتال) » (١) ٠

★ والقتال كذلك قد يكون مكروها وبغيضا للنفس التى تحمل على مباشرته ٠ لأنه قد يعرضها للموت والفناء ، أو على الأقل يعرضها لفوات الاستمتاع بالسكنى والاستقرار فى هذه الحياة ، كما يعرضها لمواجهة المشقة النفسية والبدنية فيها ٠

واذا كان هناك احتمال ـ وهو احتمال كبير فى الواقع ـ أن يشق القتال على النفس وأن تتضرر به ، ولذا تكرهه وتبغضه ، فلابد أن تكون هناك فريضة فى الدين تدرب المؤمن على القتال ، وتجعل منه عبادة يتقرب بها الى الله ٠ وكانت هذه الفريضة هى : « الجهاد فى سبيل الله » ٠ وهى فريضة ليست موقوتة بوقت معين ـ كما حرفتها القاديانية لمصلحة السياسة الأجنبية فى الهند فى القرن التاسع عشر ـ بل هى فريضة دائمة ، مادام الانسان على هذه الأرض ، ومادام يتردد هذا الانسان بين الايمان بالله والكفر به ، وبين الحق والضلال : « **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا** » (٢) ٠

والذين آمنوا لا ينعدم وجودهم ، والذين كفروا لا ينعدم وجودهم كذلك ، الا اذا انتهت الحياة الدنيا ، وانتقل أمر الوجود كله الى الدار الآخرة ٠ ولذا فالجهاد فى سبيل الله باق ، والمؤمن بالله يجب أن يتخذ منه مجالا للتدريب على التضحية بالذات فى سبيل الله ، طالما هو يعيش على هذه الأرض ، وطالما هو مكلف بمقاتلة أولياء الشيطان ، وهم الكافرون المعتدون ٠ وهو اذ يملأ نفسه بالرغبة فى التقرب عن طريقه الى الله ، سيؤديه وهو غير كاره له ٠ بل على العكس : سيؤديه وهو متطلع الى يوم لقائه مع الله عز وجل ٠ واذ يؤديه

---

(١) البقرة : ٢١٦ ٠ (٢) النساء : ٧٦ ٠

وهو على هذا الوضع ، لا يخشى على فوات دنيا ، من : مال ، وولد ، وزينة ، كما لا يرهب الموت ، لأنه سيجد فى البديل عن ذلك عند الله ما هو خير وأعظم قدرا : « **فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل ، أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما** » (١) فسواء عليه غلب عدوه وانتصر عليه ، أم قتل فى لقائه معه ، فان الله قد وعده بأجر عظيم على ما آثره من آخرة على الدنيا فى جهاده فى سبيل الله ٠

★ والحفاظ على الايمان بالله هو سبيل الله ٠ وهو الغاية من القتال والجهاد ٠ والقتال أو الجهاد بالنفس قربة الى الله اذا تمحضت غايته للايمان بالله ، ولتمكين المؤمنين بالله من ممارسة عبادتهم لله وحده ٠ ووعد الله بنصره للمقاتلين والمجاهدين هو بسبب حرصهم على بقاء الايمان بالله ، ورغبتهم فى استمرار عبادتهم لله ، طالما هم يعيشون على هذه الأرض : « **ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور ٠ أذن للذين يقاتلون ، بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ٠ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا : ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد : يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ٠ الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور** » (٢) ٠٠ فهو فى وصفه للمؤمنين الذين وعدوا من قبله بنصرهم ، يصفهم : بأنهم اذا مكن لهم فى الأرض ، وكانت لهم السيادة عليها ، حققوا ايمانهم بالله فى مظاهره من : اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ٠ وهذا يعطى : أن المسلمين اذا ظلوا على الانتساب الى الاسلام ، دون أن يحققوا الايمان به فى حياتهم المقبلة ، لا يكفل لهم وعد الله بالنصر ، وليس الجهاد عندئذ فريضة يتقرب بها الى الله ٠ لأنه قد يكون جهادا فى سبيل الشيطان ولأوليائه ٠

★★★

٢ ـ القتال من جانب المؤمنين :

★ **واذا كان القتال مبدأ ضروريا فى حياة الانسان ، واذا كان الجهاد به فى سبيل الله فريضة على المؤمن المستطيع ، للمحافظة على بقاء الايمان وممارسته فى حياته ، فمتى تكون مباشرته من جانب المؤمنين حقا وواجبا ؟**٠

---

(١) النساء : ٧٤ ٠ (٢) الحج : ٣٨ ـ ٤١ ٠

ان المؤمن يقوم بمباشرته للجهاد ، عن طريق القتال ، اذا اعتدى عليه من عدوه . وعدوه : الكافرون من أهل الكتاب . والكافرون الملحدون من الماديين أو المشركين . وأهل الكتاب ان آمنوا بالله واليوم الآخر ، على نحو يغاير الاسلام ، فان الملحدين الماديين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر . بل ويصدون عن سبيل الله ، ويحاولون بقدر امكانهم ، أن يردوا المؤمنين عن دينهم .

ومشروعية الجهاد عن طريق القتال ، تبدأ من الاعتداء على المؤمنين : « **اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير** » (١) . فيؤذن للمؤمنين بالقتال عند وقوع العدوان عليهم ، وذلك بسبب ما يلحقهم من ظلم واعتداء . وهنا يعلن الله جلت قدرته : انه على نصرهم لقدير . لأنه يقف بجانب المظلوم ضد الظالم وضد المعتدى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين** » (٢) . فالقرآن يدعو المسلمين الى أن يتمسكوا دائما بما هو انسانى فى معاملة انفسهم ، ومعاملتهم لغيرهم . فهو اذ يشرع القتال يشرعه فى حدود ، ولهدف معين لا ينبغى أن يتجاوزه .

★ ولذا اذ يشرعه فى حدود معينة ولهدف معين ، يطلب انهاءه عندما يعلن الطرف المعتدى قبوله للسلام ، كما جاء فى قول الله تعالى : « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم . وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** » (٣) . فهو يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بقبول السلام ، عندما يعرض عليه ، لا عن ضعف أو خوف ، ولكن محافظة على عدم الاعتداء على العدو ، بعد أن يعرض السلام من جانبه . وفى الوقت نفسه يطمئنه عليه الصلاة والسلام بوقوف الله بجانبه ، وباعتماده عليه ، لو كان باطن عرض الأعداء من سلام هو الخدعة والمكر السيء . وذلك لكى لا يتردد عليه السلام كبشر ، فى قبوله للسلام عندما يعرض عليه . كما يطلب أيضا انهاءه عندما ينهيه العدو من جانبه ، على نحو ما يذكره الله سبحانه وتعالى فى قوله : « **فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم** » (٤) . واذن لا حاجة للمؤمن فى استمرار القتال من جانبه . فالقتال ضرورة ، تقدر بقدرها . وقدرها ، هو : رد الاعتداء وانهاء العدوان ، والعودة الى مجرى الحياة العادى .

★★★

---

(١) الحج : ٣٩ .
(٢) البقرة : ١٩٠ .
(٣) الأنفال : ٦١ ، ٦٢ .
(٤) البقرة : ١٩١ ، ١٩٢ .

٣ ــ الماديون الملحدون أو المشركون :

★ واذا كان هذا هو موقف القرآن بصفة عامة ازاء العدوان والاعتداء ، فان له موقفا يزيد عن هذا التحديد ازاء الماديين الملحدين · ولكى نحـددهم أولا ، نرجع الى القرآن الكريم فى أوصـافهم التى هم عليها ، فهو يقول فى شأنهم :

١ ــ « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر »

٢ ــ ولا يحرمون ما حـرم الله ورسـوله » (١) ·· فهم : لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يعـرفون منكرا ولا فاحشـة يحـرمونها على أنفسهم · بل يبيحون فعل ما يرونه لصالح أنفسهم ، ولو كان ضارا لغيرهم ·· يبيحـون انتهاك الأعـراض ، والأموال ، والأنفس ·· يبيحون الارهاب والاذلال والتحكم فى الآخرين ، طالما فيه صيانة لمصلحتهم الشخصية · هم : « وجـوديون » أو « أنانيون » أو « منفعيون » · هم : ماديون ينكـرون « الروحية » بل وينكرون العقل ، لحساب البدن ومتعه وملذاته ·

وفى مقابل هذا النوع من الماديين الملحـدين الوجوديين تصف الآية نفسها فى بقيتها : الضرب الآخر من الكافرين من أهل الكتاب فتقول :

« ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجـزية عن يد وهم صاغرون » (٢) ·· فكفـر أهل الكتاب لم يبلغ الى انكارهم لله ولليوم الآخر · وانما مبلغه : أنهم لا يدينون دين الحق ·· أى أنهم يختلفون فيما يدينون عن كتاب الله ورسالته · وأهل الكتاب الباقون على عهد الرسالة الاسلامية هم : اليهود ، والنصارى · وهذه الآية تعطى : أن الذين يواجهون الاسلام ويتحدونه بعـداواتهم هم : أهل الكتاب من اليهود ، والنصـارى ، وكذلك الماديون الملحدون ، أو المشركون · وهؤلاء وأولئـكم لن يفنوا ، كمـا لم يفن المسلمون · واذن تحديهم للاسلام والايمان به باق ، وعداوتهم كذلك باقية ، وترقب عدوانهم واعتدائهم باق أيضا · والجهـاد ، من أجـل ذلك ، عن طريق القتال باق ومستمر ، وفريضته أيضا باقية ومستمرة ·

★ هـؤلاء المـاديون الملحـدون ــ أو المشركون ــ يقفـون من المؤمنين بالاسلام موقفا ، فيه : تحرش ، وتحد · يقول القرآن الكريم فى شأن موقفهم :

---

(١) التوبة : ٢٩ ·

(٢) التوبة : ٢٩ ·

١ ــ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » (١) ٠

كما يقول :

٢ ــ « كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة ،

٣ ــ يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ٠

٤ ــ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ،

٥ ــ فصدوا عن سبيله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ٠

٦ ــ لا يرقبون فى مؤمن الا ، ولا ذمة ؛ وأولئك هم المعتدون ٠

فان تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون ٠

٧ ــ وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم فقاتلوا ائمة الكفر ، انهم لا ايمان لهم ، لعلهم ينتهون ٠ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا باخراج الرسول ، وهم بدأوكم اول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين ٠ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ٠ ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم ٠ أم حسبتم أن تتركوا ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون » (٢) ٠٠ فهذه الآيات ، تحدد موقف الماديين الملحدين ــ وهم من تعبر عنهم بالمشركين ــ بأنهم : فى حال القتال مع المؤمنين :

(أ) يواصلون القتال ضدهم حتى يردوهم عن الايمان ، ان استطاعوا : **« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » (٣) ٠**

(ب) ولا يرعون علاقة ما ٠ من قرابة ، أو جوار ، أو ذمة ، أو عهد ، ان ظهروا على المؤمنين ، وظفروا بهم : **« كيف وان يظهروا عليكم ، لا يرقبوا فيكم : الا ، ولا ذمة »** ٠ وفى حال السلم معهم :

---

(١) البقرة : ٢١٧ ٠ (٢) التوبة : ٨ ــ ١٦ ٠
(٣) البقرة : ٢١٧ ٠

(أ) تصر قلوبهم على العداء ، وان عبرت أفواههم عما يرضى المؤمنين ، ريـاء ونفاقا :

« « **يرضونكم بافواههم ، وتأبى قلوبهم ، واكثرهم فاسقون** » •

(ب) ويصدون عن سبيل الله ، ويمنعون بكل وسيلة أن يؤمن به أحـد ، تحصيلا لمتع الحياة المادية : « **اشـتروا بآيات الله ثمنـا قليـلا ، فصدوا عن سبيله ، انهم ساء ما كانوا يعملون** » •

(جـ) ويبيتون النية على الاعتداء ضد المؤمنين ، ويبادرون الى مباشرته : « **وأولئك هم المعتـدون** » •

★ وازاء هـذا الموقف العـدائى المستمر •• موقف المضمر للعدوان ، والمتربص به ، والمصر عليه ، يرى الاسلام : أن يعطـوا فرصة • فـان هم عدلوا عن العدوان ، وباشروا ما يدل على عدولهم عنه ، باتباعهم سـبيل الله من : اقامة الصلاة ، وايتـاء الزكاة ، فهم اخوان للمؤمنين فى الدين : لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم : « **فـان تابوا ، وأقامـوا الصلاة ، وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين** » • وجعـل القرآن اقامتهم للصـلاة ، وايتاءهم للزكاة ، تعبيرا لعدولهم عن اتجاههم فى المادية ، ورجوعهم الى سبيل الله • لأن فى الصلاة مناجاة لله وحده ، وفى الزكاة اخراج للمال ، وليس تحصيلا له • وفى مناجاة الله وحده عدول عن « الشرك بالله » • وفى اخراج المال : عـدم الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادى •

★ وان هم استغلوا هذه الفرصة للعداء ضد : الدين ، وضد المؤمنين ، فالأمر بقتـالهم أمر لازم ، لا مفر منـه ، حتى ينتهى خطـرهم بعودتهم الى الاسلام ، اذ المادية والشرك طارىء على دين الله : « **وان نكثوا أيمانهم مـن بعد عهدهم** (أى بعـد توبتهم وعودتهم الى سـبيل الله) **وطعنـوا فى دينـكم فقاتلوا : أئمة الكفر ، انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهـون** » • الى أن يقـول : « **قاتلوهم : يعذبهم الله بأيديكم ، ويخـزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صـدور قوم مؤمنين • ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله عـلى من يشاء ، والله عليم حكيم** » • والقرآن هنا : اذ يأمر بتوجيه القتال أولا الى أئمة الكفر فيهم ، فلكى يأخذ المؤمنون بالرؤوس المدبرة للعدوان فيهم • وعندئذ يضعف شأن البـاقين منهم ، مهما كثر عددهم • وهذا « تاكتيك » فحسب لتيسير القضاء عليهم • وليس المقصود منه : ترك من عداهم بدون قتال • فآية أخرى فى سورة التوبة أيضا : توضح مثل هذا الاجمال ، اذ تقول : « **وقاتلوا المشركين كافة ، كمـا يقاتلونكم كافة ، واعلموا : أن الله مع المتقين** » (١) •

---

(١) التـوبة : ٣٦ •

وقتالهم المفروض على المؤمنين حتى ينتهى خطرهم (باعلان اسلامهم) ينص عليه قوله تعـالى :

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، واخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنـة اشد من القتـل (والفتنة هى خطر المادية ـ أو خطر الشرك) ، **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جـزاء الكافرين • فان انتهوا** (أى بالاسلام) **فان الله غفور رحيم •**

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة (أى حتى لا يكون خطر لماديتهم باسلامهم) **ويكون الدين لله** (هذه الجملة تاكيد لما سبقتها) **فان انتهوا** (يكون الدين لله) **فلا عـدوان الا على الظالمين** (أى فلا قتال من جانب المسـلمين الا على من يرتكبون ، الظـلم) » (١) •

★ ثم من جهة أخرى ليس قتال الماديين الملحدين ـ من جانب المسلمين ـ موقوتا بأمر أولئك المكيين منهم ، كما قد يفهم قصر القتال عليهم من مثل هذه الآية : **« الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم ، وهموا باخراج الرسول** (أى مـن مكة) ، **وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم** (أى لقرابة بينكم وبينهم ، أو لكثرة عددهم وعددهم) **فالله احق أن تخشوه ، ان كنتم مؤمنين »** (٢) • ان هذه الآية تشير الى حـوادث الماديين الملحـدين المكيين ، وقد جاءت بين آيات القتـال للمشركين أو الماديين • فربما يظن أن مطاردة الماديين الى أن ينتهوا ويعودوا الى الاسلام ، مرتبطة بوقت الرسول عليه الصـلاة والسـلام فقط • واذن : لا قتال ضدهم ، بعد فتح مكة ونصر المؤمنين عليهم بهذا الفتح المبين • واذن كذلك : يجب أن يظل الأمـر على هـذا النحـو مع أهل الكتاب ، حتى يعطوا الجزية • فهو موقوت كذلك بالنصر النهائى للمؤمنين عندما تم فتح مكة • فقـد جاء أمر قتال الكافرين فى تنوعهم فى آية واحدة هى :

١ ـ **« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله** (وهم الماديون الملحدون ـ أو المشركون) •

٢ ـ **ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يـد وهم صاغرون »** (٣) • واذن : أيضـا الجهـاد فى سبيل الله فريضة موقوتة ، انتهت بانتهاء فتح مكة وبعودة الاسلام الى مقر رسالته الأولى فيها • وقد كانت مكة مقر الرسالة الالهية على عهد ابراهيم عليه السلام •

---

(١) البقرة : ١٩١ ـ ١٩٣ •
(٢) التوبة : ١٣ •
(٣) التوبة : ٢٩ •

وقد أشاع هذا الظن بعد الفرق الاسلامية المستحدثة فى ظل الحكم الأجنبى للمسلمين فى القرن التاسع عشر ـ وهى الفرقة القاديانية ـ رغبة فى توطيد الأمن والاستقرار للأجنبى فى حكمه ، وفى استغلاله لموارد البلاد الاقتصادية والبشرية ٠ ولكن ماذا يصنع المؤمنون بالله ، عندما يتحرك ماديون جدد ، ضد مجتمعهم وضد ايمانهم بالله فى مستقبل قريب أو بعيد ، وقد شرح القرآن موقف الماديين الملحدين وجعل خطرهم وفتنتهم على الايمان بالله أكبر من قتالهم ضد المؤمنين به : « **والفتنة اكبر من القتل** » (١) ٠

١ ـ أهناك ما يمنع وجود ماديين من جديد ، يلحدون بالله ، ويتحدون الله ورسوله ، يخرجون من بين الذين اتبعوا كتاب الله من قبل ؟

٢ ـ اليس الماديون الملحدون ـ أو المشركون ـ هم الذين وقعوا تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة ، وآثروا الدنيا على الآخرة فأنكروا وجود الله ، كما أنكروا اليوم الآخر كى يتمكنوا من أن يستعينوا بالمتع المادية فى غيبة رقابة الضمير الانسانى ، والخشية من الله ، والسلوك الأخلاقى والقوانين الانسانية عامة ؟

٣ ـ وما معنى قول الله تعالى فى شأن هؤلاء الماديين : « **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ، ان استطاعوا** » (٢) ، فيحكم القرآن ـ بصيغة المستقبل ـ على « الطبيعة المادية الملحدة » وعلى شأنها : متى ؟ ٠ وأين وجدت ؟

ان فتح مكة كان نصرا مبينا للايمان بالله فى ظل رسالة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكنه لم يكن نهاية التحديات للايمان بالله ٠ اذ طالما الايمان بالله موجود كان معه التحدى من الكافرين به ـ فى قوة أو ضعف ، وفى قلة أو كثرة ـ وهنا القتال ، كصورة من صور الجهاد فى سبيل الله ، ضرورة دائمة ، وفريضة مستمرة ، وغير موقوتة ٠

ان الاسلام لما كان دين الحياة الانسانية فانه لا يضمن فى ذات الوقت أن يؤمن به جميع البشر فى أى جيل وفى أى عهد ٠ واذا لم يضمن الاسلام ايمان الجميع به فى أى جيل وفى أى وقت ، فان عدم تحديد من لا يؤمنون به غير مضمون كذلك فى مستقبل الانسانية ٠

---

(١) البقرة : ٢١٧ ٠ (٢) البقرة : ٢١٧ ٠

واذا كان تحدى الماديين الملحدين لله ولرسوله فى مكة كان حلقة فى سلسلة تحديات مادية سبقته للرسالات الماضية على عهد الرسل السابقين ، كما تذكر الآية الكريمة :« **ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين • كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، ان الله قوى عزيز** » (١) ··· فسلسلة التحديات للايمان بالله مستمرة ، بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبعد فتح مكة ـ وفتح مكة ما هو الا نصر واحد على المادية ، وليس أخيرا وان كان نصرا مبينا ـ فى سلسلة انتصارات عديدة ، وعد بها الله المؤمنين · والمؤمنون لا ينتهون الا بانتهاء الحياة الانسانية فى هذه الدنيا ·

ثم ان تعبير الآية فيما تقول : « **ان الذين يحادون الله ورسوله** » بصيغة المستقبل تفيد : أن التحدى لله ولرسوله لم ينته بعد · وانما هو مع الايمان فى أى وقت · ولهذا فالقول بتوقيت فريضة الجهاد بعيد عن الروح الاسلامية والايمان بالاسلام ·

★ ولعنف المادية الالحادية ـ أو لعنف الشرك بالله ـ على الايمان والمؤمنين بالله ، ولخطورتها على ما يتصل بالاسلام ، لا يستقيم فى تصور الاسلام : أن يوجد مؤمن بالله على صلة مودة بملحد مادى : « **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو ابناءهم ، أو اخوانهم ، أو عشيرتهم ، اولئك كتب فى قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه** » (٢) · ومعنى ذلك أنه : اذا وجد من يتودد من بين المؤمنين الى الماديين الملحدين ، فهو ليس بمؤمن على الحقيقة ، وخارج عن الايمان كلية · ووضع المؤمن مع هؤلاء الماديين الملحدين ـ أو المشركين ـ هو اذن اما : القتال ·· الى الاسلام واما على الأقل : عدم التودد والركون اليهم فى ولاء أو شبه ولاء ، ان كانوا هم معهم على عهد : « **وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر :**

١ ـ **أن الله برىء من المشركين ورسوله ،**

٢ ـ **فان تبتم** (أى رجعتم الى الاسلام) **فهو خير لكم ،**

٣ ـ **وان توليتم** (أى أعرضتم واستمررتم فى غيكم) **فاعلموا : أنكم غير معجزى الله** (أى ستنالكم الهزيمة حتما) **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** (أى وبالاضافة الى الهزيمة · فى الدنيا سيكون العذاب لهم فى الآخرة) ·

---

(١) المجادلة : ٢٠ ، ٢١ ·　　(٢) المجادلة : ٢٢ ·

٤ ـ **الا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحــــدا ، فاتموا اليهم عهـــــدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين ..** » (١) .

فهذا النداء من الله ورسوله يوم الحج الأكبر ـ يوم الوقوف بعــرفات وتجمع المسلمين فى وقت واحد ، وعلى مكان واحد ، وفى دعاء واحـد الى المولى جل شأنه ـ بالتبرؤ من المشركين ، وهم الماديون الملحــدون ، يعتبر وثيقة ايمانيــة ، يلتزم بها المؤمنون فى كل وقت فى غيــر شبهة وغير شك . وما جاء فيها يحـدد كذلك الموقف النهائى للمؤمنين . فالاســلام مطـوب من هؤلاء الماديين أولا : « **فان تبتم فهو خير لكم** » . فان كان منكم اباء فقتـال حتى النصر عليهم : « **وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجـزى الله** » . وفقط يؤمن منهم : من كان له عهـد عند المؤمنين فترة العهــد ، على شرط : أنهم لا ينقضونه من جانبهم ، ولا يستعدون عليهم أحدا : « **الا الذين عاهـدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهــروا عليكم أحدا ، فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم** » . اذ أن الوفاء بالعهد مظهر من المظاهر الانسانية لكريمة التى تتطلب ضبط النفس وعدم الانسياق وراء الانفعالات الهوجاء : « **ان الله يحب المتقين** » . والمتقون هم أوليــاء الله الذين تحــرر سلوكهم من الهــوى والشهوة .

★★★

٤ ـ ليس فى القتال معجــزة :

ومع أن المؤمنين أصحاب ايمان بالله ، ومع أنهم ان قاتلوا أعداءهم من الكافرين انما يقاتلونهم فى سبيل الله ، ومع أن الكافرين غير معجزى الله فى النصر عليهم ... الا أن الله سبحانه وتعالى جعــل للكون وللحيـــاة سننا لا تختلف عنها . القتال صورة من صور الحياة . فهو خاضع لسننه الخاص . وسننه الخاص : أن الذى يرتفع فى قتاله مع عدوه عن مغانم الدنيا ، ويخلص لله ولاعلاء كلمته ، هو الذى ينتصر أخيرا . فهو مجال اختيار للايمان بالله ، كما هو مجال تدريب على التضحية بالنفس . وبمقدار ما يخلص فيه المؤمن بالله بقــدر ما يهون عليه : أن يضحى بذاته فى سبيله : « **ولو يشــاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلوا بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضــل أعمالهم** » (٢) فالآية تعبر عن ثلاثة مبادئ :

---

(١) التوبة : ٣ ، ٤ .
(٢) محمد : ٤ .

المبــدأ الأول : أن الله قادر أن ينتصر من أعداء الايمان ، فور أن يشتبكوا فى قتال مع المؤمنين ·

المبــدأ الثانى : أن الله لا يريد أن ينتصر عليهم بادىء ذى بدء ، حتى يتضح عيانا ما عليه المؤمنون من : ايمان فى قوته أو ضعفه ، فى لقائهم مع الأعداء ·

والمبــدأ الثالث : أن من يقتل من المؤمنين فى ميدان القتال له أجره ، ولن يفوته أبدا ·

واذا كان القتال مجال اختيار للايمان بالله فى قوته وفى ضعفه ، فالنصر أو الهزيمة احدى نتائجه · وكما يوصل الى النصر اذا كان الايمان ضعيفا · وقوة الايمــان فى السيطرة على هوى النفس والترفع عن المتع والاســـلاب والغنائم · وضعف الايمان فى النظــر الى تلك المتع والأســـلاب والغنائم واستهدافها فى القتال ، اما خالصة ، واما مع الاسهام فى اعلاء كلمة الله · وهنا ليست فى القتال معجزة · وانما النصر فيه ـ كالهزيمة فيه ســواء ـ مرتبط بمستوى الايمان · وتوضح الآيات التالية قانون القتال ، وهو قانون لا يتغير ، لأنه يصور ارادة الله ، فيما يقول القرآن الكريم :

١ ـ « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا : كيف كان عاقبة المكذبين · هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين ·

٢ ـ ولا تهنوا ولا تحزنوا ، وانتم الأعلون ، ان كنتم مؤمنين ·

٣ ـ ان يمسسكم قرح فقــد مس القوم قــرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ·

٤ ـ وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ·

٥ ـ ويمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين ·

٦ ـ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟

ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ·

٧ ـ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات أو قتل انقلبتم على أعقــابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ·

٨ ـ وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين ٠

٩ ـ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ٠ وما كان قولهم ، الا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ٠ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » (١) ٠

فارادة الله فى واقعة «أحد» قد تجلت فى هزيمة المؤمنين ٠ لأنهم لم يثبتوا فى أماكنهم التى وضعوا فيها فى مواجهة الأعداء ، واختلت صفوفهم عندما لاحت لهم بارقة نصر على أعدائهم ، من : الماديين الملحدين المكيين ، قبل أن يتم لهم هذا النصر نهائيا ٠ وكان انصرافهم للمنافسة فيما بينهم فى الحصول على الغنائم المادية ، وتركهم الرسول عليه الصلاة والسلام مع قلة من المؤمنين معه ، سببا فى عودة الأعداء وتسديد الضربة الأخيرة منهم للمسلمين ٠ وبذلك انتصروا عليهم ٠

وقد جاءت هزيمة المؤمنين فى « أحد » بعد نصرهم فى « بدر » ٠ وبذا بدا السبب واضحا لهم فى النصر ، والهزيمة ٠ ولولا هزيمة « أحد » لربما اعتقد بعض المؤمنين : أنه يكفى النصر على عدو الايمان ـ وبالأخص ذلك العدو الشرس ، وهو المشرك أو المادى ـ أن ينتسب المؤمنون الى الله ، دون أن يحققوا ما يطلبه الايمان من الاخلاص لله ، والصدق فى سبيله ، والصبر على ما يلحق المؤمن من مشقة وايذاء ٠ أو لربما اعتقد بعضهم كذلك : أن الايمان مصدر رزق دنيوى ، وأنه « سحر » يستتبع نتائجه حتما ، ولو كان الايمان ضعيفا ، ولو كان وسيلة لوقاية ، أو وسيلة أخرى لتحصيل المغانم والمتع ٠ وهنا جاءت الآيات التى ذكرت قبل ، توضح ما يجب أن يستخلص من الهزيمة ، طالما « القتال » من طبيعته أن يوصل : اما الى نصر ، واما الى هزيمة ٠ وما يجب أن يستخلص من الهزيمة ليس هو : الضعف والتفكك ولا هو الحزن واليأس ٠ وانما يجب أن تقود الهزيمة الى « القوة » والى « النصر » فى قتال لاحق ، اذا ما أبعدت عناصر الضعف فيه ٠ وهى عناصر الرغبة فى المتع المادية والأسباب الشخصية ٠ فالقتال فى نظر المؤمن يجب أن يتمحض

---

(١) آل عمران : ١٢٧ ـ ١٤٨ ٠

لله · فليس هو لشخص ، ولا وسيلة لدنيا تحصل · وما يستخلص من الهزيمة حسبما تذكر هذه الآية هو :

(أ) ان أمارة المؤمن أن لا يضعف ولا يحزن ، « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين** » ·

(ب) وان الهزيمة اذ تلحق المؤمنين اليوم فقد لحقت أعداءهم بالأمس · ومبدأ الحياة : تبادل النصر ، والهزيمة ، والانتهاء بالنصر للمؤمنين الصادقين

« **أن يمسسكم قرح ، فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس** » ·

(جـ) وعن طريق الهزيمة يميز الله المؤمنين حقا وصدقا ، من أولئك الذين يتسترون وراء اعلان الايمان ، وهم المنافقون ، « **وليمحص الله الذين آمنوا ···** » ·

(د) ولكى يشهد المؤمنون الصادقون ــ تبعا لذلك ــ المنافقين بينهم شهود رؤية عيان ·

(هـ) والهزيمة هى الجانب فى تجربة القتال ، الذى يخرج منه المؤمن مصقولا وثابتا على ايمانه ، وفى صقله وثباته على الايمان محق لأعدائه قطعا ·

(و) ولولا الهزيمة لما اتضح المجاهد صدقا ، والصابر حقا فى القتال ، « **أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟** » ·

(ز) والهزيمة لا ينبغى أن يكون سببها شخص ، ولو كان شخص الرسول عليه الصلاة والسلام · اذ القتال فى سبيل الله هو : للمبادىء التى فوق الأشخاص : « **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟** » ·

(ح) كما لا ينبغى أن تكون ــ أى الهزيمة ــ مصدر أسف على قتل من يقتل ، أو على فوات مغنم · فالموت مرهون باذن الله وقضائه وحده ، والدنيا لا يحرم منها من يطلبها مباشرة ، ولكن جزاء الآخرة ــ وهو الأهم ــ للمجاهد ، الصادق الصابر : « **وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين** » ·

(ط) ولم يكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا المؤمنون معه بدعا فى هزيمة لحقتهم · بل وقع ذلك مع الرسل السابقين · وكانت الهزيمة مصدر اخلاص ومناجاة لله ، ومصدر قوة فى تثبيت الأقدام ، وتحقيق النصر ضد الأعداء : « **وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين · وما كان قولهم الا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** » ·

(ى) وأوصلتهم الهزيمة الى نصر فيما بعد : « **فآتاهم الله ثواب الدنيا** (وهو النصر على الأعداء) ، **وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين** » ·

واذن من شأن الهزيمة أن : توقف على الأخطاء التى ارتكبت فى القتال ، فى الوقت الذى ترشد فيه الى قانون الحياة ، وهو : أن النصر ليس وقفا على فريق بالذات · وانما هو تداول بين الفرقاء الذين يشتركون فى القتال · وهو من حق القوى فى ايمانه بينهم أولا ، واذن قانون الحياة بين الناس لا يعرف المعجزة · والهزيمة اذن فى ذاتها : تنطوى على « قوة » اذا عرف استخلاصها ثم استخدامها ·

★★★

٥ ـ النصر النهائى للايمان بالله :

★ ومع أن القتال ابتلاء واختبار ، ومع أن النصر يخضع ـ كما تخضع الهزيمة فيه ـ الى قانون لا يتخلف يمثل ارادة الله ، فان هناك أيضا قانون آخر للحياة يمثل ارادة الله كذلك · وهو قانون النصر النهائى · وتصوره الآية القرآنية ، فيما يقول الله جل شأنه : « **ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير** » (١) · فالله هو العلى الكبير ، وأنه الحق فلابد أن ينتصر · وما عدا الله هو الباطل ، والباطل ضعيف فلابد أن ينهزم ·

والنتيجة الضرورية لهذا القانون هو أن الذين يقاتلون مخلصين وصادقين فى سبيل الله لا بد أن ينتصروا على الآخرين فى قتالهم معهم ، وهم أولئكم الذين يقاتلون فى سبيل الباطل أو الطاغوت · وتصرح آية أخرى بهذه

---

(١) الحج : ٦٢ ·

النتيجة اللازمة فيما تذكره : « **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان** (وهم أولياء الطاغوت والباطل ، أو هم الماديون الملحدون أو المشركون) **ان كيد الشيطان كان ضعيفا** » (١) • وضعف الشيطان ، أو ضعف أوليائه ـ وهم المشركون أو الماديون الملحدون ـ هو فى اتباع الهوى والشهوة • اذ من يتبع هواه وشهوته ، يصور خط سيره فى الحياة تعرجات تنبىء عن تقلبه فى سبيل اتباع الهوى وتحقيق الشهوة • والمتقلب ليس له مبدأ يتمسك به • وهو اذن لا يقاتل الا مكرها ـ والذى يقاتل مكرها يفر من ميدان القتال فور أن يجد مخلصا لنفسه • وهو من أجل ذلك ، ضعيف لا يثبت • ومن لا يثبت تلحقه الهزيمة حتما •

أما « الحق » جل جلاله فهو ثابت لا يتغير • وأما الذين يقاتلون فى سبيله فهم يقاتلون عن اختيار ، ويرون فى القتال قربى الى الله • لا يصرفهم عنه متاع الدنيا ولا شهوة النفس • ولا يسيطر عليهم أثناء القتال هوى الذات • فقد ارتضوا الآخرة ، بدل الدنيا وباعوا أنفسهم لله وحده • « **فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما** » (٢) • « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل ، والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم** » (٣) • فهم أقوياء بايمانهم ، وثابتون فى القتال من أجل هذا الايمان • ولذا يكون النصر النهائى لهم • وان هزموا فى موقعة ، فليتخذوا من الهزيمة فيها قوة فى موقعة أخرى ، وليبعدوا عن أنفسهم عناصر الضعف فى اصرار تلك العناصر التى اكتشفوها فى هزيمتهم •

والقانون الذى يربط النصر النهائى فى القتال بالايمان بـ « الحق » واتباعه ، ويربط الهزيمة النهائية باتباع الباطل وماديات الحيات وحدها ، هو : قانون طبيعى تتجلى فيه الارادة الالهية ، كما تتجلى فيه خصائص الطبيعة البشرية التى تحكم الانسان والمجتمعات الانسانية •

★ وفتح مكة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كان نصرا نهائيا له ـ ونصرا مبينا ـ على أعدائه • وبالأخص على أولئكم الماديين الملحدين ، وهم المشركون المكيون •• كان نصرا له أخيرا ، بعد تردد له بين نصر مرة وهزيمة

---

(١) النساء : ٧٦ •
(٢) النساء : ٧٤ •
(٣) التوبة : ١١١ •

مرة أخرى ، فى اشتباكاته مع أعداء الايمان · ولم تقده الهزيمة فى نهاية « أحد » وفى البداية فى « حنين » الا الى القوة ، فالنصر · وفى هذا النصر النهائى كقانون للحياة يقول الله تعالى : « **ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا · سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا · وهو الذى كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة ؛ من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا** » (١) ·· ومنطوق هذا القانون ــ كما تصوره الآية الكريمة ــ هو :

أولا : أن أعداء الايمان بالله ، وبالأخص الماديون الملحدون منهم ، اذا باشروا القتال مع المؤمنين لا بد أن يفروا ويولوا الأدبار ، وليس لهم معين ونصير بعد ذلك ·

ثانيا : أن ذلك يتجلى فى أحداث التاريخ الماضية كلها ، ويتجلى أيضا فى فتح مكة · واذن لا شبهة فى التلازم فى الوقوع بين قضاياه : يوجد الايمان فيوجد النصر · ويوجد الالحاد فتوجد الهزيمة · ومفهوم هذا القانون انه اذا وجد المنتسبون للايمان ، دون أن يوجد الايمان حقا وصدقا فى قلوبهم ، فلا يوجد النصر لهم تبعا لانتسابهم الى الايمان وحده · فالهزيمة التى انتهت بها « أحد » وابتدأت بها « حنين » تبعث انتساب بعض المؤمنين الى الايمان ، من غير أن يتمكن بالله فى نفوسهم · وهذا المفهوم صادق كقانون فى الماضى ، وفى حاضر المؤمنين ، ومستقبلهم · ومثله قانون آخر يعبر عنه قول الله تعالى : « **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** » (٢) · فالذين كفروا بالله هم سواء فى عدائهم للمؤمنين · وهم أولياء بعضهم بعضا ، مهما بدا بينهم من خلاف · فأهل الكتاب الذين لا يدينون دين الحق هم أولياء لأولئكم الماديين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، وهم جميعا أعداء المؤمنين · فمن يفرق من المؤمنين بين النوعين ، ويعلن الولاء لفريق بعد أن يظن الخير به ، ويبقى على الحيطة والحذر فى مواجهة الفريق الآخر ، ملتزما موقف الاسلام من أعداء الايمان ، فانه بولائه يجلب الخطر على المؤمنين جميعا ، وعلى الايمان بالله ، ويكون سببا فى الفساد والعبث الذى يلحق مجتمعات المؤمنين : « **الا تفعلوه** (أى ان لم تعتقدوا فى ولاء الكافرين بعضهم لبعض ، وتقاربهم فيما بينهم ، واتفاقهم جميعا ضد المؤمنين ، وان لم تتخذوا منهم موقفا موحدا ، هو موقف الحيطة والحذر ، مهما بدا من بعضهم من تودد ــ فهم « **يرضونكم بافواههم وتابى قلوبهم وأكثرهم فاسقون** » (٣)) ــ « **الا تفعلوه تكن فتنة فى**

---

(١) الفتح : ٢٢ ــ ٢٤ ·
(٢) الأنفال : ٧٣ ·
(٣) التوبة : ٨ ·

الأرض وفساد كبير » ـ ٠ والمؤمنون الذين هم فى ولاء مع أى من النــوعين لا يحق لهم أن يلوموا الاسلام وانتسابهم اليه ، اذا ما لحقهم الأذى والضرر بسبب هــذا الولاء ٠ وانما يجب أن يعودوا باللائمة على أنفسهم بمخالفتهم ارادة الله التى تتجلى فى ذلك القانون ، الذى يحكم مجتمع المؤمنين فى مواجهة العداء الدفين للايمان بالله والمؤمنين به ٠

★★★

٦ ـ أجر المقاتل عند الله :

أما أجر المقاتل فى سبيل الله عند الله فهو أجر متميز ٠ والمجاهد فى سبيل الله عامة بنفسه أو ماله ، له مستوى يرتفــع به عن مستوى المؤمنين الآخرين الذين قعدوا عن الجهاد ، وعن مستوى أولئكم الذين يباشرون من أعمال الخير ما لا يرقى الى الجهاد بالنفس ٠ يقول الله تعالى : « **لا يستوى القاعدون مــن المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله ، بأموالهم وانفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما** » (١) ٠ ويقــول أيضا : « **أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين ٠ الذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم اعظم درجة عنــد الله ، وأولئك هم الفائزون ٠ يبشرهم ربهم برحمة منه ، ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم ٠ خالدين فيهــا أبدا ، ان الله عنــده أجر عظيم** » (٢) ٠٠ وتفضيل الله للمقاتلين فى سبيل الله تفضيل واضح ، ودرجتهم عنــده هى درجة المبشرين برحمته ، ورضــوانه ، وجنــاته ، وبالنعيم الخالد الذى لا ينتهى ٠ والمقاتل فى سبيل الله ، ان قتل أو مات فى الجهاد لا يعد من الاموات الذين انتهى أمرهم ٠ بــل يعد مــن الأحيــاء الذين تتوفر لهم صــفات الحيــاة المستمرة : « **ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون** » (٣) ٠ « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون** » (٤) ٠ ولا شك أن الذى يضحى بنفسه ـ قبل أن يضحى بماله ـ فى سبيل الايمــان بالله بلغ مستواه فى قوة الايمان أعلى درجة ، بحيث أصبح لا يرى ذاته فى الحياة شيئا مستقلا فى الوجود ، يستحق أن يحافظ عليه من أجل وجــوده الخاص ٠ انه بالتضحية بذاته قد ألغى أنانيته ، وتجرد من خصائصها ٠ فهــو

---

(١) النساء : ٩٥ ٠

(٢) التوبة : ١٩ ـ ٢٢ ٠

(٣) البقرة : ١٥٤ ٠

(٤) آل عمران : ١٦٩ ٠

لا يؤثر الايمان بالله على نفسه فقط · وانما « باع » نفسه فعلا لله كلية · والموجود أمامه الآن : الله جل شأنه ، والايمان به ، لا غير ·

★★★

٧ ـ الجهاد اليوم فى سبيل الله :

١ ـ ومن هم اليوم ـ فى عصرنا الحاضر ـ أعداء الايمان بالله ، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ؟ ·

٢ ـ ومن هم كذلك الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ؟ وكيف أن هؤلاء وأولئكم بعضهم أولياء بعض ·

كان المشركون بالأمس على عهد نزول القرآن هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله · وكان بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يدينون دين الحق · وقد طلب القرآن الكريم من المؤمنين ـ حين طلب الجهاد فى سبيل الله ـ أن يقاتلوا الفريق الأول حتى يسلم أهله ، وأن يقاتلوا الفريق الثانى حتى يخضع :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١) ·

وقد تجلت صلة المشركين بالكتابيين الذين لا يدينون دين الحق ، وتجلى ولاء بعضهم لبعض فى المؤامرات العديدة التى دبروها ضد المؤمنين ، وانكشف هذا الولاء المتبادل واضحا فى واقعة « الأحزاب » ضدهم · ومن هنا جاء التحذير ، بعد التقرير ، فى قول الله تعالى :

« والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » (٢) ·

★ ان الذى لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر هو مادى · لا يؤمن بالله ، لأنه لا يراه ولا يحسه ، ولا يؤمن بالآخرة ، لأنها فى عالم الغيب ، وليست فى عالم الشهادة · والمادى هو الذى يؤمن بالمادة فقط · والمادة تتشكل فى صور محسوسة وملموسة · فيدركها البصر أو السمع أو اللمس ، أو أية حاسة أخرى من الحواس الخمس ·

---

(١) التوبة : ٢٩ · (٢) الأنفال : ٧٣ ·

والمشرك فيما مضى ، هو : مادى · ولأنه مادى كان لا يحرم ما حرم الله ورسوله · يحل لنفسه كل ما هو فى وجوده المادى المشاهد · لا يعرف حقا لغيره فيما هو موجود مادى مشاهد · وبالتالى لا يعرف له حرمة خاصة ، لا ينبغى أن تنتهك · وانما كل ما يقع عليه حسه ـ ولو كان لغيره ـ فهو مباح له : أخذه ، والاستمتاع به ، ولو على حساب شقاء الآخرين أو حرمانهم · لا يعرف الفواحش والمنكرات ، ولا الاثم ولا البغى والظلم · ولا يعرف العدوان والاعتداء · ولذا لا يحرم على نفسه ما حرم الله ورسوله ، حفاظا على حقوق الآخرين فى الوجود المشترك معه ·

والمشرك الذى هو مادى ، أنانى · اذ الأنانى هو من يقر بالذات دون أن يعترف بالآخرين معه · هو الذى ينسى حقوق الآخرين فى سبيل متعة نفسه · هو الذى يجعل الذات مركز الوجود ، يدور فى هذا الوجود حولها ولصالح الذات وحدها · وهو ـ أى الأنانى ـ يدور حول نفسه ليقتنص منافع الوجود المادى فيما يحيط به · فهو يتجه حسبما توجد منفعة مادية ، وقبلته فى العبادة ليست قبلة واحدة · هو كعباد الشمس يتجه الى جميع الاتجاهات بطريق الجاذبية ·

ومشرك الأمس ـ كما جاء فى تعبير القرآن ـ هو اليوم : صاحب الاتجاه الوجودى ، أو الانتهازى ، أو المادى ، أو الحسى ، أو الأنانى فى عرف التفكير الفلسفى المعاصر · ويجمع هذه الأوصاف كلها « مذهب المادية » · وبالأخص : المادية التاريخية ·

والمادية التاريخية اذ تنكر وجود الله ، وتنكر اليوم الآخر ، ولا تحرم ما حرم الله ورسوله ، تتحدى وجود الله ، لأن الله لا يرى ولا يشاهد كذلك · وتتحدى اليوم الآخر وتجعله خداعا وتخديرا ، وتضع بدلا منه ، ما يأتى به الغد على هذه الأرض من نعم مادية لا تحصى · وتنكر صراط الدين فى السلوك والمعاملة ، كما تنكر مقاييس الأخلاق فى تحديد العلاقات بين الناس ، وترى الانطلاق فى سلوك النفس · لأنه المجال الحر الوحيد الباقى ، من بين مجالات الحياة الأخرى ·

وفلسفة المادية التاريخية وجدت لتتحدى الدين · والذين يقيمون مجتمعاتهم عليها يقاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن دين الله ، ان استطاعوا · وما قاله القرآن فى مشركى عهده : فى تحديد صفاتهم ، وفى موقفهم من المؤمنين بالله ـ كما ذكر من قبل ـ ينطبق تماما على أولئكم الذين يتبنون الفلسفة المادية التاريخية فى توجيه شعوبهم ومجتمعاتهم ·

★ أما الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، فهم فى الدرجة الأولى : الذين يبعدون الدين عن التوجيه والتربية · هم الذين يأخذون اسم « العلمانيين » منهم ·· هم الذين ينكرون قيمة الدين ، وان لم يعلنوا انكار الله واليوم الآخر ·· هم الذين يحددون للدين منطقته ، ولفلسفة الحياة منطقتها ·

وهؤلاء العلمانيون أولياء لأولئكم أصحاب الفلسفة المادية التاريخية · لأنهم جميعا ينتهون الى غاية واحدة ، وهى اضعاف الدين أو ابعاده عن مجال التأثير على حياة الانسان ·· هى اضعاف الايمان بالله ، أو الغاؤه من الوجود الانسانى ·

وولاء هؤلاء لأولئكم ، بعضهم لبعض ، تدفع اليه روح واحدة ، وتخطط له عقلية موحدة فى العصر الذى تعيش فيه الانسانية اليوم · وهى روح « العالمية » والعقلية اليهودية العالمية ، التى تتمثل مرة فى : الفلسفة المادية التاريخية ، أو فى الراديكالية الماركسية ، وأخرى فى : الرأسمالية الليبرالية ، وثالثة : فى الماسونية أو فى « البنائين الأحرار » · وتستهدف هذه العالمية : تحقيق « التعايش السلمى » للأقليات اليهودية فى شعوب العالم ، كما تستهدف اعادة مملكة الله على أرض المعاد ، أو اقامة اسرائيل على « صهيون » كرمز للوحدة التاريخية للشعب اليهودى ، وفى الوقت نفسه : كوطن يلجأ اليه من يشعر بالمذلة أو الاضطهاد فى أقلية من أقلياتهم العديدة ·

ولا يمكن أن يتحقق التعايش السلمى للأقليات اليهودية فى شعوب العالم اليوم ، كما لا يمكن أن يتوطد أمن اسرائيل على صهيون ـ فضلا عن ازدهارها هناك ـ الا فى غفلة من الايمان المسيحى فى الشعوب المسيحية ، والا فى غفلة أيضا من الايمان بالاسلام فى الشعوب الاسلامية ، وبالأخص فى الشعوب التى تحيط بصهيون · ومن هنا جاء معول « العالمية » اليهودية : ان فى الراديكالية الماركسية ، أو فى النظام العلمانى ، أو فى الحركة الماسونية ـ ضد الايمان بالله فى كل طبقة من طبقات الشعب :

١ ـ فالماسونية تتجه بمعولها للرؤوس وللرؤساء الذين يوجهون السياسة والاقتصاد فى الشعوب ·

٢ ـ والعلمانية تسدد ما تملك من معول ضد تقويض القيم الدينية بين المثقفين والشباب فى دور التعليم المختلفة ، وفى وسائل الاعلام المتنوعة ·

٣ ـ والراديكالية الماركسية تسدد وسائلها التخريبية المختلفة لمحو الدين أساسا وعلى الأخص بين العمال والفلاحين فى المجتمعات ·

★ وجهاد اليوم فى سبيل الله ، ان اتجه ضد الماديين الملحدين فى الصور العديدة لاتجاه المادية ــ وبالأخص ضد الماركسية الالحادية ــ فانه يشبه ما اتجه اليه بالأمس ضد من كانوا يسمون بالمشركين ·

وان اتجه الى العلمانيين من أهل الكتاب ــ والعلمانيون هم من المسيحيين وحدهم كأهل كتاب ــ فانه كـذلك يشبه ما اتجه اليه بالأمس ضـد الذين : « **لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب** » ·

واذا اتجه الى الروح العالمية أو الى العقليـة العـالمية اليهـودية ــ والصهيونية جانب منها ــ فانه يكون قد اتجه الى ذلك المصدر الذى يعقـد الولاء والصداقة والترابط بين الماديين الملحدين من جهة ، والعلمانيين من أهل الكتاب من جهة ثانية ، لتحقيق الهـدف المشترك ، وهو : اضـعاف الايمان بالله ، ومحاولة رد المؤمنين عن دينهم ان استطاع ·

واذا لم يتيقظ المؤمنون بالله ·· اذا لم يتيقظ المسلمون اليوم الى هذا المصدر الذى يعقد الولاء بين الاتجاهين ، فى عداء الايمان بالله لتحقيق الهدف المشترك بينهما ، فالويل لهم آنئذ من خطره الداهم ، وفساده الكبير : « **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** » ·

★ وجهاد المسلمين اليوم ضد الروح العالمية أو ضد العقلية العـالمية اليهودية يكفى مع ضعف المسلمين فى حاضرهم ــ أن يكون فى المرحلة الأولى جهادا ، بيقظة العقل والقلب ، وبالدعوة واللسان ، حتى لا يقع بعضهم فى صداقة أو مودة لأصحاب أحد هذين الاتجـاهين ، فتحل الفتنـة فى أرض المسلمين ويعظم الفساد فيها ·

ان الصهيونية العالمية هى جانب فقط من العقلية العالمية اليهودية · وهى الجانب الذى يتبنى علنا : دولة اسرائيل ، فى اقامتهـا ، وبقـائها ، وازدهارها ·

ولكن الذى لا يعلن عن نفسه من العقلية العالمية اليهودية المحركة فى الواقع وهو الأخطر والأهم ــ هو : الجانب الفكرى منها وراء دفع الراديكالية الماركسية ، والجانب الآخـر الاقتصـادى وراء دفع العلمـانية فى النظم الرأسمالية ·

وعـدم الولاء من المسلمين لأى من الجـانبين : الراديكالى الماركسى ، والرأسمالى ، هو : الصورة التى يجب أن يبرز فيها الجهاد اليوم فى سبيل الله ·

★★★

الباب الرابع

فى أخلاق الفرد ، وسياسة الحكم

- أخلاق المؤمن ·
- سياسة الحكم الداخلية :
  ١ - فى الأصول العامة ·
  ٢ - فى سبيل الرعاية الاجتماعية ·
- سياسة الحكم الخارجية ·

الفصل الأول

أخـلاق المؤمن

١ ـ الله والانسان فى التوجيه :

اذا ذكر الله ـ سبحانه وتعـالى ـ فى التوجيـه فى مقابل الانسان فيقصد كتاب الله تعالى ، والايمان به واتباع هدايته ·

واذا ذكر الانسان فى مواجهة الله ـ عز وجل ـ فى هذا المجال فالمقصود استقلال الانسان بنفسه فيما يفعل ويتصرف من غير رجوع الى مبادىءالايمان بالله وما فى كتاب الله من هداية ·

واذا تصرف الانسان فى دائرته الخاصة مستقلا عن هداية الله ربما ما يقع من خطأ فى تصرفه يكون محدود الأثر نسبيا فى أول الأمر · ولكن اذا شاع هذا الاستقلال فى التصرف لدى أفراد كثيرين فى الأمة ، وبالتالى اذا تعددت الأخطا التى تلابس تصرفاتهم المستقلة عن هداية الله وكتابه وعن الايمان به وخشيته ·· فربما لا يؤمن عاقبة الانحراف على الأفراد أنفسهم وعلى أمتهم ·

ونفس هذه العاقبة فى آثار انحراف الانسان وسعة دائرته ربما تتبع استقلال صاحب المسئولية العامة فى الأمة ·

واذن ليس هناك أمان ولا ضمان فى أن تقع أخطاء فى التصرف قد تكون آثارها محدودة المدى ، وقد تكون واسعة الرقعة على حسب وضع المتصرف ، عندما يبتعد الانسان فى تصرفاته عن كتاب الله ويعتمد على نفسه وخصائصه البشرية ·

ليس هناك ضمان فى عدم وقوع أخطاء فى توجيه الانســان وتصرفاته عندما يستقل فيهما برأيه هو ، لأن رأى الانسان ـ ولو أضيف اليه رأى مجموعة من الناس مهما كثر عددها ـ لا يخلص للمصلحة العامة ، ولا يتخلص من العوامل التى كونت الانسان أو تضغط عليه حين يبـدى الرأى ، ولا حين يتصرف · فالانسان مجموعة من الانطباعات التى يضم بعضها الى بعض فى

تاريخ حياته ، وهى انطباعات قد تفاعلت مع الأحداث والظروف وأحوال المعيشة الخاصة ٠

ومن هنا كان رأى الانسان مقيدا أو محدودا ، وكانت الانفعالات للأحداث السارة والمريرة على السواء ألوان مختلفة تصبغ الرأى والتصرف بلون معين ٠

ومن أجل تفادى محدودية الرأى فى التوجيه وابعاد أثر هذه المحدودية فى إخطاء التصرف بقدر الامكان ٠٠٠ يستنكر القرآن الكريم أن يحتكم رسول الله والمؤمنون معه وبعده فى توجيه أنفسهم وأمتهم الى غير كتاب الله وهدايته التى جاءت مفصلة وواضحة فيه على نحو ما تعبر هذه الآية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يأمره ربه : « **افغير الله ابتغى حكما ، وهو الذى انزل اليكم الكتاب مفصلا** » (١) ٠

أى لا ينبغى أن أتبع مصدرا للحكم والتوجيه ، عدا كتاب الله ، فيما يتصل بسلوك النفس وشئون المؤمنين عامة ٠ بل الواجب هو اتباعه وحده ٠ وليس ذلك لأنه فصل فيه ضروب الهداية ، بل لأنه أيضا لا ترد كلماته ولا تنقض مبادئه ووصاياه على مر الزمن والأجيال حتى قيام الساعة كما تؤكد الآية الأخرى :

« **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم** » (٢) ٠

فما فى القرآن صدق وحق يصور التوجيه السليم والسلوك المستقيم للانسان ، وهو عدل أيضا بالنسبة للانسان كفرد ولعلاقاته مع الآخرين كأمة ٠

يتفق مع الطبيعة البشرية ، فلا يبالغ فى تقديرها الى أعلى ولا ينزل فى هذا التقدير الى أدنى مما لها ، من الخصائص والميزات وما يتفق مع الطبيعة البشرية فى خصائصها الصالح لها ، وله الدوام والبقاء فى الصلاحية معها ٠ ولكى يزيد القرآن فى توضيح ضرورة الأخذ بكتاب الله فى التوجيه ٠٠٠ ينتقل الى الاتجاه المضاد والمخالف ، وهو اتجاه الاعتماد على غير كتاب الله مما يراه الناس ، ويذكر أن الالتجاء الى مثل هذا الاتجاه ينتهى حتما بالأمة فى توجيهها الى الانحراف والتخبط فيقول :

« **وان تطع اكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا**

---

(١) الأنعام : ١١٤ ٠ (٢) الأنعام : ١١٥ ٠

الظن ، وان هم الا يخرصون · ان ربك هو اعلم من يضل عن سبيله ، وهــو اعلم بالمهتدين » (١) ·

ويعلل القرآن ذلك بأن الناس فى آرائهم الفردية لا يتبعون فيهـا سوى ميولهم الشخصية ، وهى لا تمثل الحق واليقين فى ذاته ، لأنها ظنون وخيالات تصور امانيهم وما يشتهون · ثم كثرتها لا تغنى عن الحق شيئا ولا تصلح بديلا عنه فهى كثرة عــددية وليست نوعية · أى مهما تعــددت وكثرت فهى لا تخرج عن انها ظن يمثل هوى وشهوة وأمنية ·

كما يعلل عدم الركون الى مثل هــذا الاتجـــاه فى التوجيه بأن الذين يمثلون هواهم فى الرأى والقول ليسوا صادقين ، بل هم كاذبون خادعون أو مخدوعون : « **وان هم الا يخرصون** » ·

ثم يعقب القرآن على تحديد هذا الاتجاه البشرى واتباعه ، دون كتــاب الله ، بقوله :

« **ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين** » ·

ليقرر أن الحكم الذى صدر هنا عن اتباع الكثرة من الناس ، فى بعــد عن كتاب الله ، هو حكم صــــدر ممن هو أعلم بالبشر فى طبائعهم ، وفيمـــا يتناجون ويفصحون ، وفيما يشتهون ويهوون ، وفيما هم عليه من اســتقامة أو اعــوجاج ··· هو الله جلت قــدرته : « **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء** » (٢) ·

★ ★ ★

٢ ــ حرية الفرد فيما يعتقد :

ان الاسلام يكفل حرية الفرد فيما يعتقد ، لا لأن الاعتقاد والايمان عن اكراه عديم الجدوى فى آثاره ؛ ولكن لأن الاكراه على الايمان قبل ذلك يضاد طبيعة الحياة التى يعيشها الانسان على الأرض ، كما يضــاد طبيعة الانسان ذاتها ·

يضاد طبيعة الحياة الانسانية على الأرض كما أرادها الله ؛ لأن الله أراد

---

(١) الأنعام : ١١٦ ، ١١٧ ·   (٢) البقرة : ٢٥٥ ·

لهذه الحياة أن تكون مجالا للصراع بين الحق والباطل الى أن تنتهى وتتحول حياة الانسان الى مرحلتها الثانية ٠ وهى مرحلة ما يسمى « بالآخرة » ٠

ان الانسان وجد على هذه الأرض ووجد معه فى الوقت نفسه عليها أمران آخران : وجدت رسالة الله التى انتهى أمرها من آدم الى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهى تمثل الحق أو الهــداية ٠ ووجدت كـذلك غواية الشيطان ـ وهى بارادة الله أيضا ـ ممثلة للباطل أو للضلال ٠

« واذ قلنا للملائكة اسـجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسـجد لمن خلقت طينا ؟

قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن (استأصلن) ذريته الا قليلا ٠

قال (الله) اذهب ٠

فمن تبعـك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » (١) ٠

فقد أذن الله اذن لابليس ـ وهو ممثل البـاطل والضـلال ـ فى مباشرة غوايته وفتنة الناس وتزيينه لهم المنحرف من السبل ، كما أرجاه فى مبـاشرة نشاطه الهدام الى يوم القيامة ٠٠ أى الى بدء المرحـلة الثانية فى حيـاة الانسان ، وهى حياة الآخرة ٠

ورسالة الرسل بالحق والهداية أيضا وان انتهى أمر الارسال بشأنها من الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الا أن الدعوة اليها باقية بقاء الناس فى حياتهم الأولى على هذه الأرض :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخيـر ويأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر » (٢) ٠

ووجود الحق والباطل معا على هذه الأرض الى وقت قيام الساعة يفرض اذن حرية الفرد فيما يؤمن به اليوم وغدا ٠ والا لو آمن الناس جميعا بالحق واتبعوا الهداية وأعرضوا عن الباطل وغواية الشيطان وجب أن تنتهى حياة الانسان على هذه الأرض ٠

---

(١) الاسراء : ٦١ ـ ٦٣ ٠ (٢) آل عمران : ١٠٤ ٠

ان يشأ الله انهاء هذا الصراع تنتهى الحياة الأرضية كلها ، وهذا ما تعطيه الآية الكريمة فى قوله تعالى : « **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا** » (١) • وعندئذ تنتهى الدنيا ، ولكنه لم يشأ واذن لايزالون مختلفين •

وأيضا يضاد الاكراه على الايمان طبيعة الانسان الخاصة ؛ لأن هذه الطبيعة كرمت فى خلقها وتصويرها : « **وصوركم فاحسن صوركم** » (٢) من الله فزودها بخصيصة الادراك والشعور : « **انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا** » (٣) • وادراك الانسان فى حكمه على ما يرى أو يسمع أو يفكر يقوم على الترجيح بين أشياء أو أطراف ويختار ما يرجح لديه بأنه أصوب أو أحسن •

فلو أكره الانسان على الايمان بشىء ما لكان فى هذا الاكراه مصادرة لطبيعته ولتعارض ذلك أيضا مع الخصيصة والميزة التى حباه بها الله فى خلقه وتصويره وهى ميزة الادراك والترجيح • وتعبير القرآن فى الخطاب الموجه الى الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله فى الآية السابقة : « **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟** » (٤) بهذه الصورة الانكارية ••• لا يوضح تعجبا وأستغرابا أو انكارا فحسب لمحاولة الاكراه على الايمان ، بل لمحاولة أنه يدور بخلد انسان ما ، مهما قربت صلته بالله • لأن الله ذاته لا يريد ايمان جميع الناس على هذه الأرض ، فارادته نافذة وفوق كل ارادة البشر •

وهنا ظاهرة الاختيار والمشيئة فى الاعتقاد ، والايمان ظاهرة انسانية طبيعية ، وظاهرة الهية كونية • ومحاولة أى انسان صب الناس جميعا فى قالب واحد لا تدل فى ذاتها على استحالة وقوعها ، بل تدل فى الوقت نفسه على عدم استيعابه الخصائص البشرية فى طبيعة الفرد وفى تغيير المجتمع ، وعلى شغل نفسه وشغل فراغ الناس بما لا جدوى فى وقوعه •

والاكراه بوسيلة أو بأخرى ، ومهما تعددت صوره فهو مع ذلك محاولة كريهة لا انسانية ، وتقدم المجتمعات فى العلم وفى تطبيق العلم مع الأسف كان سبيلا الى التوسع فى صور الاكراه على الايمان ، بدلا من القضاء عليه ، مما يدل على حاجتها لكى تحافظ على المستوى الانسانى الى الروحية قبل حاجتها الى العلم وتطبيقه •

---

(١) يونس : ٩٩ •　　(٢) غافر : ٦٤ ، التغابن : ٣ •

(٣) الانسان : ٢ •　　(٤) يونس : ٩٩ •

والقرآن الكريم اذن عندما يؤكد حرية الفرد فى اعتقاده بايمانه على الصورة التى برزت فيها الآية القرآنية السابقة : « **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** » (١) · يريد أن يعلم الأمم والشعوب فى قيادتها وتوجيهها احترام الانسان وتكريمه ، كما هو مكرم فى طبيعته وخلقه ، واحترام القيادة والتوجيه بالبقاء فى دائرة الممكن ، وعدم تجاوزه الى ما يصطدم بالقوانين الفطرية والاجتماعية ، وبتلك الأخرى التى تنظم الوجود الارضى للانسان ·

ان ارادة الله فى خلقه تفلح معها ملاءمة الانسان نفسه · فاذا لاءم نفسه معها حقق دوره الأخلاقى فى حياته ، ولكن لا ينجح التصادم معها بحال ، اذ من يصطدم معها لا يخسر المحاولة فقط ، وانما يرتكب أيضا الاثم والخطأ فى القيام بها ثم فى النهاية يحطم نفسه ، بينما تبقى كلمة الله هى العليا ·

والآن لم يبق بعد الاكراه فى الاعتقاد الا الاقناع به بالأسلوب الانسانى المهذب الكريم وذلك ما يدعو اليه الاسلام : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن** » (٢) ·

★ ★ ★

٣ ـ الايمان بالله :

والايمان بالله ليس قولا يعلن ولا شهادة ينطق بها اللسان وحده ، ولا آيات من القرآن تتلى فى مقام الاستشهاد بالارتباط بالاسلام ·

وهو كذلك ليس نصائح يوردها الناصح لغيره ، ولا معرفة بالدين تلقن لمن لا يعرفها ، ولا وظيفة خاصة يتعيش بها محترف :

« **قالت الأعراب آمنا** » (٣) ·

قالت الأعراب ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن منهم آنذاك الا قول رددوه يعبر عن التصديق برسالته ، دون أن يصحب قولهم ما يدل على أن الايمان أخذ من وجدانهم ، ما يجعلهم يتأثرون به فى مواقفهم ازاء المسلمين من أعدائهم ، وازاء أعدائهم منهم ، ودون أن يكون له قرار فى أعماق نفوسهم ، بحيث تنفعل بمبادئه وتأخذ سبيل توجيهه فى الحياة الخاصة والعامة على السواء ·

---

(١) يونس : ٩٩ ·
(٢) النحل : ١٢٥ ·
(٣) الحجرات : ١٤ ·

وتصحيحا لوضع هؤلاء الأعراب من اعلانهم التصديق برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم دون ما يدل على شيء آخر وراء هذا الاعلان فيما أعلنوا ، وتأثرهم بما أشهروا تصديقهم به ٠٠ جاء رد القرآن الكريم على قولهم موحى به الى الرسول الكريم : « **قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : اسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** » (١) ٠

أى أنكم لم تؤمنوا حقيقة بالاسلام ولم يستقر الايمان بعد فى قلوبكم ، وكل ما فى الأمر أن أعلنتم ، فحسب ، رضاكم بالاسلام أمام الملأ ، اما خوفا ووقاية أو طمعا فى دنيا ٠ فان قلتم : انكم أعلنتم الاسلام دينا لكم صادقين فيما تقولون ، ولكن قولكم : انكم آمنتم به ٠٠ غير صحيح ؛ لأن للايمان به مقتضيات تستوجب التضحية : اما بالنفس أو بالمال او بهما معـا ، وكـذلك بالولد ان كان هناك ولد ، ولم يكن الايمان لحظة ما سبيلا الى النفع والمغانم ، ولا طريقا الى الحياة ومتعها :

« **انما المؤمنون**

الذين آمنوا بالله ورسوله

ثم لم يرتابوا

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله

أولئك هم الصادقون » (٢) ٠٠

ذلك كان رد القرآن على من ادعى الايمان دون أن يكون مؤمنا فى حقيقة الأمر ، وهو رد يجعل من الايمان رسالة وهدفا ، وليس وسيلة وطريقا الى غاية أخرى ، ورسالته رسالة شاقة ؛ لأنها تقوم على التنازل عن المال الـذى تسعى النفوس عادة الى جمعه ، وقد تسعى الى اكتنازه ، كما تقوم على ايثار الموت على الحياة نفسها ، وهى أعز ما يحرص الانسان عليه وأكثر ما يجبن بسببه ٠

أما هدفه فطريقه طويل ، ان قدر للانسان البقاء على قيد الحياة ؛ لأن سبيل الله الذى يجب على المؤمن الجهاد من أجله ٠٠ ليست سبيلا خالية من الصعاب والمحن والأزمات ، بل تكاد تكون سبيل المحن والأزمات فى الحياة ، دون أن تكون يوما سبيلا الى الرخاء والاستمتاع ٠

« **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم**

---

(١) الحجرات : ١٤ ٠ (٢) الحجرات : ١٥ ٠

ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا

وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » (١) ٠

ولم تكن هذه الظاهرة ــ وهى ظاهرة الابتلاء فى الأموال والأنفس وتلقى الايذاء والأضرار من أعداء الله بسبب الايمان به ــ ظاهرة خاصة بالمؤمنين الأول ، وفى مقدمتهم رسول الله ٠ وانما هى ظاهرة تلازم الايمان بالله أينما يكون ومتى يوجد ٠

ومرجع الأمر فى قضية الايمان بالله بعد ذلك ــ فى جده وهزله على الرغم من المظاهر التى تؤيد هذا أو ذاك ــ يعود الى الله على نحو ما تعقب هذه الآية الكريمة : « **قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم » (٢) ٠**

وجعل القرآن مرد الايمان بالله فى النهاية الى علم الله ٠٠ كى يحرص المؤمن على الاخلاص فى ايمانه وفى القصد به الى وجه الله وحده ٠ وهنا يثمر ايمانه ، وتتحقق نتائجه العاجلة والآجلة ٠

أما نتائجه العاجلة فى الدنيا فهى : العزة : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى » (٣) ٠**

وليس من بينها قطعا الاستمتاع بجاه الدنيا وزينتها ٠

وأما فى الآخرة فهى رضاء الله والقرب منه :

« **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ٠**

جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ابدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » (٤) ٠

★★★

---

(١) آل عمران : ١٨٦ ٠
(٢) الحجرات : ١٦ ٠
(٣) النور : ٥٥ ٠
(٤) البينة : ٧ ، ٨ ٠

ومن يحرص على الايمان بالله لا يطلب الدنيا ولا ينتظر يسر الحياة · ولكنه ينتظر قطعا تحقيق ما وعد الله به عبــــاده المؤمنين من الاســتخلاف فى الأرض ورضوانه فى الآخرة · ﴿هم أولئكم الذين آمنوا ولم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ·

★ ★ ★

٤ ـ ما ينتظر من المؤمن فى اعتقاده وسلوكه :

ان المؤمن له صلة بخالقه سبحانه ،

وصلة بالأقربين اليه ،

وصلة بمن عداهم ممن يشاركونه الحياة فى مجتمعه وأمته ·

فصـلته بخالقه يجب أن تكون صـلة نقية خالصة لا يشرك به شيئا من موجودات سواه :

لا يرفع غيره من الموجودات أيا كان الى مستواه فى العبادة والاحترام والطاعة :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم

ألا تشركوا به شيئا » (١) ··

فالشرك بالله ليس انتقاصا لحق المولى سبحانه فحسب ، بل هو عنوان أيضا على نقص المشرك نفسه فى قيمته الانسانية · لأن من ينزل الله الى مستوى ما عداه من المخلوقات أو يرفع أيا من المخلوقات الى مستوى الله يكون قـد سوى فى تفكيره ومنطقه ثم فى اعتقاده بين خالق ومخلوق ، وبين من له الأمر كله فى الوجود ومن أمره وشأنه محدود فيه ·

ثم يجوز على من له مثل هذا المنطق فى التفكير أن يعبد ما هو دونه من الأشياء ، أو من هو دونه من البشر فيمتهن قيمته ويحط من قدر نفسه ·

وليس ذلك المؤمن الذى يريده الله ـ اذ المؤمن الذى يريده الله هو من عرف قدر نفسه وحقها فى الوجود ، وعرف أيضا قدر غيره أيا كان ومكانه فى الوجود ·

---

(١) الأنعام : ١٥١ ·

وعدم الشرك بالله اذن عنوان على انسانية الانسان ، التى لم تنحط عن مستواها ولم تترك أيا من خصائصها ٠

وصلة المؤمن بالأقربين اليه هى صلة الانسان المهذب الكريم فى معاملته ان كان هؤلاء الأقربون أبوين له ، وصلة المعتمد على الله فى سعيه فى الحياة ان كانوا أولادا له :

« وبالوالدين احسانا ٠

ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم » (١) ٠٠

فالوالدين فضلا عما لهما من أثر كبير على حياة الابن ٠٠ فهما بالنسبة له يعيشان فى مرحلة توديع الحياة ٠ ولـذا يجب أن تتوفـر لهما من جانب الابن فى هذه المرحلة ليس كل الرعاية المادية وحـدها ، وانما قبل الجانب المادى يجب أن يشعرا من قبل الابن بحسن أسـلوب المعـاملة ، بما يدل على احترامهما وتوقير أمرهما وعدم جرح احساس أى منهما ، مهما كان هناك من فرق فى الأوضاع الاجتماعية والمستويات العامة بينه وبينهما ، أما قبول رأيهما فى شأن من شئونه فيرجع فى الاعتقاد الى ما يقرره الاسلام ، ويفضل فيما عدا الاعتقاد تقدير الظروف والأحوال القائمة ٠

والأولاد ينبغى ألا تضيق بهم صدور آبائهم أو أمهاتهم ، سواء منهم من وجد بالفعل أو من كان فى طريقه الى الوجود ٠٠٠ لا ينبغى أن تضـيق بهم صدور الوالدين بسبب ما يظن أو يعتقد من عبئهم فى التكلفة والانفاق ، وهم ضعاف آنئذ لا يستطيعون أن يستقلوا بحيـاتهم أو يسهموا على الاقل مع الوالدين فى أعبائها ٠

واذا كانت الآية هنا حـرمت قتلهم تخلصا من أعبـائهم ، وناشـدت الوالدين ألا يقدما على ذلك لأن الله فى واقع الأمر هو الذى يرزق الطـرفين معا ٠٠٠ فانه قد يرتفع فى الحرمة الى مستوى قتلهم : التبرم بهم ونهـرهم وسبهم والتضيق عليهم ، تحت شعور نفسى عميق بأنهم عالة أو بأنهم أكثـر من الحاجة ، الامر الذى يعوق تطورهم حتما ويكون عنـدهم مركب النقص بوجودهم واحساسهم بعدم قيمتهم فى الحياة ٠

ومن هنا كان المؤمن على سبيل الحقيقـة هو ذلك الانسان المتفائل فى حياته الـذى يملأ جوانب نفسه بالأمل فى الله وبالتوكل عليه فى مسعاه ، اذ

---

(١) الأنعام : ١٥١ ٠

ربما ما ينفقه على ولد له كان سينفقه على مرض يصيبه · وشتان بين الانفاق على مرض يضعف أو يميت ، والانفاق على ولد يحيا ويزدهر ·

أما صلة المؤمن بمن عدا هذين الصنفين من الأقربين ··· فهى تتجلى فى تحقيق أمور أربعة :

١ ـ فى حرمة النفس : « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** » (١)

٢ ـ وفى حرمة المال : « **ولا تقـــربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشـــده وأوفوا الكيل والميـــــــزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها** » (٢) ·

٣ ـ وفى حرمة الشهادة : « **واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** » (٢) ·

٤ ـ وفى حرمة العهد : « **وبعهد الله أوفوا** » ·· (٢) ·

وهى حرمات تتطلب ألا تنتهك وألا يعتـدى عليها · اذ فى صـــيانتها والمحافظة عليها دليل على الاعتـراف بوجـود الغير وعلى افســـاح مجال المشاركة له فى الحياة العامة ، ثم فى الوقت نفسه هى دليل على أن الانسان الذى يرعاها ويحافظ عليها انسان لم يحكم هواه فى تصرفاته ولم يقع تحت تأثير الأنانية أو أى عامل من عوامل الاغراء فى الحياة فى علاقاته مع غيره ، رغم أن الظروف قد تواتيه للتنصل من تصرفاته أمام الملأ ·

فاليتيم صاحب المال الضعيف لا يقوى على منع التلاعب بماله ممن هو أقوى منه ·

وصاحب الحاجة الى ما يكال أو يوزن · تضطره حاجته الى الاغضاء عن العدالة · والذى يشهد لقريب يجـــد أكثر من سبب للتلبيس فى شهادته لمصلحته ·

وصاحب العهد قد يجد من التفسيرات العديدة ما يبرر عدم الوفاء بما عاهد عليه ·

---

(١) الأنعام : ١٥١ · (٢) الأنعام : ١٥٢ ·

وبتحديد هذه الآية القرآنية لصلات الفرد المؤمن بغيره فى أسرته أو فى مجتمعه وأمته على نحو ما وجدنا الآن ٠٠

نرى أن القرآن لا يستهدف سوى تمكين الانسان من أن يكون عنصرا صالحا للبناء فى تكوين امة متماسكة ٠٠٠ لا يستهدف سوى أن يكون الانسان فى تقدير نفسه ، وفى تقدير غيره فى الوجود انسانا ، كما خلقه الله وكرمه ٠٠ وأن يعيش انسانا حرا ، كريما ، آمنا ، ومن أجل ذلك عقبت الآية القرآنية بقول الله تعالى :

« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١) ٠

★★★

٥ ـ الايمان امانة المؤمن :

والمؤمن بالله مسئول عن ايمانه ، كما هو مسئول عن حياته ٠

وربما تكون مسئوليته ازاء الايمان أقوى من مسئوليته أمام نفسه ٠ لأن المفروض فى المؤمن أن يجاهد فى سبيل الله والايمان : بماله ، ونفسه ، وولده ٠ ومعنى ذلك : أنه يجب أن يؤثر الدعوة لدين الله قائمة عزيزة الجانب ، على نفسه وكل ماله فى هذه الحياة ٠

فان تعرض ايمانه بالله لأزمة فى مجتمع يعيش فيه ، فلا يدع نفسه تغلب على أمرها ، وعلى ما يصاحبها من ايمان ، بل يجب عليه أن يسعى لينجو بايمانه من أن تنال هذه الأزمة منه ٠ اذ الدعوة فى سبيل الله ليست لكسب مؤمنين جدد ، بقدر ما هى تثبيت لايمان المؤمنين بالله فى مواجهة الشدائد والأزمات :

« يا عبادى الذين آمنوا

ان ارضى واسعة فاياى فاعبدون ٠

كل نفس ذائقة الموت ، ثم الينا ترجعون » (٢) ٠٠

فالقرآن الكريم يدعو المؤمن ليحافظ على ايمانه ، ولو كانت الهجرة

---

(١) الأنعام : ١٥٣ ٠ (٢) العنكبوت : ٥٦ ، ٥٧ ٠

سبيل ذلك ، ويؤثر الهجرة بايمانه على تشبثه هو بالاقامة فى مكان معين ، قد يضعف ايمانه بالله أو يعرضه لشدة تصيب منه ٠

ومنطق القرآن فى هذا هو :

أن الأرض كلها لله ، وأنها واسعة لا تضيق بمؤمن ٠

وفوق ذلك ، فكل نفس لابد أن تموت فى هذا المكان من أرض الله ، أو فى ذاك ، فليس هناك مكان خلود على هذه الأرض يمكن أن تتمسك بالبقاء فيه طلبا للنجاة على حساب ايمانها بالله ٠ ثم اخيرا هذه الدنيا ليست المرحلة الأولى والأخيرة فى حياة الانسان ، ومن أجل ذلك لا تستحق الحرص عليها ٠ وانما بعدها حياة أخرى أبدية يعيشها الانسان ، اما عيشة هادئة مترفة ، أو عيشة مملوءة بالعذاب والشقاء ٠ والعمل لهذه أو لتلك هو الايمان بالله والعمل القائم عليه طوال المرحلة الأولى فى حياة الانسان ، لمن يريد النعيم ، أو تحدى هذا الايمان والانحراف عن استقامة العمل لمن لا يهمه شأن الآخرة ٠

على أن الايمان بالله اذا تعرض لأزمة أو شدة فى شخص مؤمن ما ، فان تلك الأزمة أو هذه الشدة ستزول حتما فى وقت ما ، بعد ذلك ٠ لأن الله وعد بهذا اذ يقول :

« ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ٠

كتب الله لأغلبن أنا ورسلى

ان الله قوى عزيز » (١) ٠٠

فالذين يحادون الله ورسوله هم أولئكم الذين يهزأون بالقيم والمبادىء الدينية ، ويتحدون الايمان بالله كمصدر هداية وتوجيه سليم للانسان بابعاد هذا الايمان من حياة الانسان والحكم عليه بالعزلة عن أى رافد من روافد التنوير والتبصير فى المجتمع ، وقد يكون ذلك بمحاولة ايجاد قيم أخرى تنظم حياة الانسان وسلوكه ، بدلا منه ، صنعها الانسان واختارها لتمكين شأنه على الأرض ٠٠

هؤلاء أكد الله سبحانه وتعالى فيما تقصه الآية السابقة :

أولا : أنهم سيصيرون الى الذل والهوان حتما فى نهاية المطاف ٠

---

(١) المجادلة : ٢٠ ، ٢١ ٠

وثانيا : أن عاقبتهم التى لا مفر منها هى الهزيمة ، لأن الله ـ تعالى ـ بقوته وعزته هو الذى سيواجههم فى تحديهم ٠

واذا نجا المؤمن بايمانه ، ولو بالهجرة به فى أرض الله الواسعة فـانه يكون قد كرم نفسه كانسان ، لأنه يفرط عندئذ فيما أؤتمن عليه ، وهو ايمانه ٠

وايضا أولى له ، لأن عاقبة أمر التحدى لدين الله والايمان به هى المذلة والهوان والغلبة والهزيمة لأولئكم الذين يجدونه ٠

وبذلك يكون قد حافظ على انسانيته ، كما سيشارك فى عـــزة الايمان بتأييد الله له ٠

والانسان الذى يعيش لانسانيته لو يستعرض ألوان الازمات والشدائد التى تقوم فى وجهه قصدا بسبب ايمانه ، ثم يصبر عليها ويحاول انقاذ هذا الايمان ولو بالهجرة من مكان الى مكان ٠٠٠ سوف يعتز بنفسه ويفخر طول حياته بما قام به فى سبيل أعز شىء لديه ، وسوف يعيش على ذكريات كلهـا مجد ونور وبطولة ، لأنه لم يهن ولم يضعف فى أوقات العسر والمحن ، وهى الأوقات التى ظهر فيها الباطل فى صورة العملاق ، واشتد فيها التحدى فى صورة الطغيان ٠ فقد حمل الحق ودافع عنه ، وعاش به ٠ وقد كان له منه نور الهداية عندما يتكاثف الظلام ، وله منه دوما باعث الحياة وهدفها ٠

ان الايمان هو الهداية والأمل ، وهو الحياة لمن عرفها ٠٠

★ ★ ★

٦ ـ فضل الايمان ، وليس فضل المؤمن :

وطبيعة الانسان طبيعة مزدوجة :

فيها العقل والحكمة ، من جانب

وفيها الغرائز والشهوة ، من جانب آخر ٠

٠٠٠ فيها مصدر الادراك والسمو ، وفيها مصـــدر الانحطاط والتردى ٠٠٠ فيها النفس المطمئنة التى تسعى الى الخير ، وفيها النفس الأمارة بالسوء التى تدفع الى الشر ٠٠٠ فيها الانســانية فى صفائها ، وفيها الحيوانية فى جموحها وشططها ٠

والتركيب في طبيعة الانسان على هذا النحو يجعله مرددا بين الخير والشر ، وبين السمو في التصرف والتردى في السلوك ٠

ومن اجل ذلك كانت رسالة الانسان لنفسه هى رسالة الذى لا يسعى لاماتة غرائزه في سبيل عقله وحكمته ، لأن دور الغرائز في تكوين الانسان وفي اعداده للحياة الفردية والنوعية دور رئيسى لا يستغنى عنه بحال ، الا اذا أريد له الفناء ٠ كما لا يسعى الى التخلى عن مساندة عقله في مواجهة غرائزه التى هى اقوى منه بكثير والتى هيئت من أول الأمر للقيام بنشاطها المطلوب في تطور أسرع من تطور العقل والادراك ٠

٠٠٠ رسالة الانسان لنفسه اذن هى رسالة الذى يوازن بين أمرين رئيسيين فيه ٠٠٠ هى رسالة من يعدل بينهما ولا يدع لأى منهما فرصة أن يطغى على الآخر ، وبالأخص لا يترك للقوى منها من اول الأمر وهو الغرائز أن يعتدى على الآخر الضعيف في نشأته وهو العقل ٠ بل يجب من أجل تحقيق هذا العدل أن يفسح المجال اكثر لنمو العقل ليشتد أزره ويقوى ساعده ٠

ولكن من الذى يضمن لكل فرد أن يحقق العدل في ذاته ، أو اى شيء آخر في طبيعته المركبة يعتمد عليه ليصبح العدل حقيقة واقعة ؟

ان الانسان بحكم هذا الازدواج في طبيعته مؤرجح بين ثنائيته ، وربما يميل الآن اكثر الى جانب الغرائز ، لأنه الجانب القوى فيه وبالتالى يستطيع أن يجذبه الى طرفه ومن ثم هو اكثر احتياجا الى عامل يحفظ عليه التوازن ٠

قد يقال : ان تجارب البشرية في تاريخها الطويل ، وقد تحولت الى أعراف وعادات وقوانين تستطيع في اطار المعرفة الانسانية وبتداول هذه المعرفة في التربية والتوجيه ٠٠٠ أن ترشد أفراد الانسانية الى مقاييس السلوك السليم ، يلتزمونها في تصرفاتهم ، وبذلك يحفظون التوازن بين عقولهم وغرائزهم ٠

والسؤال الآن هو :

١ ـ اى أمر يضمن سلامة هذه النظرات والعادات والقوانين التى تعتبر جزءا رئيسيا للعقل والغرائز في الانسان ، كما هو مفترض حتى تؤدى دورها في الحفاظ على هذا التوازن في الأجيال المتتابعة ؟

٢ ـ وأى أمر آخر يضمن ـ على فرض صحتها وسلامتها ـ أن يكون له تأثير على التوجيه وبالتالى على التوازن المطلوب ؟

ان القرآن الكريم يضيف الى هذه الثنائية فى تكوين الانسان طرفا ثالثا له اعتباره ، وهو صمام التوازن والعدل بين عقل الانسان وغرائزه · هـذا الطرف الثالث هو القلب أو الفؤاد · تقول الآية الكريمة :

« والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ،

وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة ، لعلكم تشكرون » (١) ·

··· وتشير الى خصيصة الانسانية فى الانسان ، فلا تراها فى العقل وحـده الذى جعلت الآية السمع والبصر مدخلا اليه ، بل ترى مع مدخل العقل والادراك هذا الفؤاد أو القلب · أما الغرائز فلم تشر اليها هذه الآية هنـا لأنها ترمز الى الحيوانية كقدر مشترك بين الحيوان والانسان ، والآية بصدد التحدث عن نعمة الله بالعلم على الانسان · والعلم أمر يخص الانسان وحده باعتبار انسانيته ، وليس باعتبار حيوانيته ·

واذا كانت وظيفة العقل هى الادراك والحكم ، فالفؤاد أو القلب هو مكان الايمان بالله فى النفس ، ووظيفة الايمان بالله حينئذ هى الحفاظ على التعادل بين الطبيعتين الأساسيتين فى الانسان ، وهما : العقل والغرائز · فالايمان بالله بما له من قوة دافعـة يحمل بها الانسان على اتجاه خاص طبقا لما رسم فى هداية الله وكتابه ·· يستطيع أن يكون دوما سندا لعقل الانسان وادراكه فى نشأته ونمائه كما يكون عونا للابقاء على الغرائز وعدم افنائها ، ومساندة الايمان لنمو العقل نموا سليما هى فى واقع الأمر فى تهذيب الغرائز والحيلولة دون جموحها أو التحكم فى سلوك الانسان كله ، وعلى هذا النحو تكون هناك فرصة للتطور العقلى الصحيح فى الانسان ·

وبهذا يعيش الفرد المؤمن بفضل الايمان بالله عيشة الانسان كما خلق ، وهو الانسان الحر الكريم ، والايمان بالله وحده اذن هو صاحب الفضل على الانسان المؤمن فى حسن سلوكه وفى تعادل طبيعته ، وليس الانسـان المؤمن بايمانه صاحب الفضل على الايمان بالله وعلى دين الله :

« يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين » (٢) ·

★ ★ ★

---

(١) النحـل : ٧٨ ·　　　(٢) الحجرات : ١٧ ·

٧ ـ المؤمن القوى ، والمؤمن الضعيف :

وان الفروق بين الأفراد فى مجالات الانسانية قائمة وواقعة فعلا ، فسواء فى مجال الوجدان ، أو الادراك ، أو العـزم والتصميم ٠ فانفعـالات الأفراد بشىء واحد يثير الانفعال ، تختلف بعضها عن بعض فى الدرجة ٠ وادراكهم للأشـياء التى تحيط بهم وحكمهم عليهـا ليس فى مسـتوى واحد فى الـدقة والصحة ٠ وكذلك شأن ارادتهم فيما يتخـذونه من موقف تجاه حادث خاص أو حالة معينة يتسم بالتنوع والاختلاف ٠

وطبائع الأفراد اذن بما لها من اختلاف فى الخصائص البشرية تحدد درجة قبولهم لمبدأ من المبادىء أو لعقيدة من العقائد ٠

ولا يختلف موقفها من الايمان بالاسلام فى هذا الشأن ٠ فهناك المؤمن الذى انفعل ايمانه بالاسلام انفعالا عميقا جعل نفسه وماله فى سبيل الدعوة لمبادئه أمرا هينا ، وفى الوقت نفسه محببا ومرغوبا فيه ٠ وهناك المؤمن الآخر الذى لم يتجاوز ايمانه به السطح فى نفسه ولم يبلغ منها مبلغا يؤثره عـلى ما سـواه ، ولو كانت الذات نفسها ، ولو كان ما تملك يده من مال ومتـع فى الحياة ٠ فهو قد رجح بين الايمان من جانب وأنانية الذات ومنافع الدنيا من جانب آخر ، والسبيل التى يسلكها تشير الى خفة وزن الايمان فى نفسه مرة ، ورجحان متع الحياة مرة أخرى ٠

والنـوع الأول من المؤمنين هو النوع القوى فى ايمـانه ، والقوى فى وجـوده ، والقوى فى آثاره بالنسـبة الى الدعوة الى الايمان أو الى الأمة المؤمنة فى صونها عـزيزة مرهوبة الجانب ، سليمة فى علاقات أفرادها وفى توازن المجتمع المؤمن وتماسكه ٠

أما النوع الثـانى فقـد تكون حياته عبئا على الأمة ، أو على أحسن الفروض تكون خالية من الزيادة المثمرة للصالح العام ٠ وعندئذ يكون وجود هذا النوع لنفسه ولحسابه وحده ، ويخشى أن يدفع حساب النفس الى أسلوب النفاق ، وهو أسلوب فوق أنه كريه من الوجهة الخلقية والانسانية ٠٠ خطر على أمن الأمة ومصلحة الدعوة الى الايمان ، بل يكاد يكون أخطر الأساليب على حياة المجتمع ووجوده ، رغم أنه أكثرها دهاء وخداعا ٠

يقول القرآن الكريم فى تصوير الفرق بين المؤمن القوى والمؤمن الضعيف ودرجة كل منهما عند الله :

« اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ،

كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله » (١) ٠

فالقرآن ينكر بهذا الاسلوب الاستفهامى أن يكون المؤمن الذى يقوم بخدمة حجاج بيت الله الحرام أو بخدمة المسجد الحرام نفسه فى مستوى ذلك الذى آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ٠ اذ الجهاد فى سبيل الله معناه : تحمل المشقة والتضحية فى سبيل الدعوة ٠٠ فى نشرها أو فى المحافظة عليها قوية عزيزة ٠٠ معنى الجهاد فى سبيل الله ابعاد الأنانية والاستمتاع بمتع الحياة عن أن تكون فى صف واحد مع ما يطلبه الايمان من مقتضيات وواجبات والتزامات قد تستدعى الحرمان أو تجر الى الموت والفناء ٠٠٠ بينما خدمة الحجاج أو المسجد الحرام هى من النشاط العادى للانسان الذى لا يقتضى اطلاقا تضحية بمال ، أو بنفس ، أو بولد ٠

ولكى يؤكد القرآن الكريم عدم التساوى بين النوعين فى الايمان يقول عقب الاستفهام المذكور : « **لا يستوون عند الله** » (١) ٠ ثم يتبع هذا الحكم بعدم التساوى بتفصيل المفاضلة اذ يقول :

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون » (٢) ٠

وذكر القرآن لخدمة الحجاج والمسجد الحرام كمثل لعمل المؤمن الذى هو أدنى ، وكذلك ذكره للهجرة والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال كمثل لعمل المؤمن الذى هو أعظم ٠٠٠ لأن ذلك كان من واقع المجتمع الاسلامى الأول اذ ذاك ، ولكن يمكن أن يحدد الفرق كقاعدة عامة بين العملين للتمييز بين النوعين ـ على نحو ما أشرنا من قبل ـ بأن المؤمن القوى هو ما يؤثر الايمان بالله والدعوة اليه على نفسه وماله ويستهين بهما فى سبيله ٠٠٠ بينما المؤمن الآخر هو الذى يقف موقف الموازن أو المتردد بين ما تطلبه نفسه من دنياه وما يطلبه ايمانه من التنازل عنها ، وربما ترجح نفسه ، وترجح دنياه على متطلبات ايمانه ، فينافق فى السلوك حتى لا يظهر ظهورا واضحا فى جانب النفس أو فى جانب الايمان ٠

ومن هنا : المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف ٠ والأمة يشتد ساعدها بالقوى ، بينما يكون وهنها بسبب الضعيف وموقفه ٠

---

(١) التوبة : ١٩ ٠ (٢) التوبة : ٢٠ ٠

ومن هنا كذلك : كان لا عجب : أن يستمتع المنافق بالحياة وبجاهها ، بينما يحرم المؤمن القوى فى سبيل ايمانه ، ولكنه حرمان عن اختيار ورضا ، فهو له فى حقيقة الأمر متعة ، وربما أثر هذه المتعة فى نفسه أكثر من متعة الحياة الدنيا فى نفس المنافق ٠

★ ★ ★

٨ ـ حياة الانسان بين الاستقرار ، والسعى فى سبيل الرزق :

أعدت الأرض فى صلتها بالكواكب الأخرى على نحو يوحى للانسان عليها : أن حياته المثمرة موزعة بين السكنى والاستقرار من جانب ، والعمل والسعى من أجل العيش والاستمرار فى الرسالة الانسانية من جانب آخر ، وأن حاجته الى السكنى والاستقرار ليست بأقل من حاجته الى بذل النشاط البدنى أو العقلى فى العمل الانسانى ٠ والذى أعد الأرض وطبيعة الحياة عليها على هذا النحو هو الله سبحانه وتعالى : والذى قدر للانسان ازدواجه بين جانبى السكنى والعمل هو الله تعالى أيضا ٠

فالانسان بطبيعته مخلوق للأمرين معا : السكنى ، والسعى ٠ والأرض بطبيعتها مخلوقة لتوفير حاجة الانسان الى كل منهما : وهما الاستقرار والعمل :

« قل :

أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا (أى دائما) **الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟٠**

قل :

أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة ، من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟

ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ،

لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ،

ولعلكم تشكرون » (١) ٠

---

(١) القصص : ٧١ ـ ٧٣ ٠

۰۰۰ فالقرآن يذكر أن تقسيم الزمن الى ليل مظلم يجب أن يسكن فيه الانسان ، ونهار مضيء يجب أن يسعى ويعمل فيه هو من رحمة الله على الانسان فى حياته الأرضية ۰ وليس هناك غير الله يستطيع أن يفعل ذلك ۰ فهو عالم بالمصلحة ، وقادر فى الوقت نفسه على تنفيذ ما يريده ۰

***

والنتيجة التى تستخلص من هذا التنظيم للزمن أن الانسان كما هو مطالب الى الخلود الى الراحة والسكنى ، مطالب أيضا بالعمل والسعى عن طريق مباشرة طاقاته البشرية التى أعد عليها ، وهو بالتالى مسئول أمام الله ان قصر فى أحد الأمرين : الراحة فى شطر من الوقت ، والسعى والعمل فى شطره الآخر ، وعبادة الانسان لله هى فى اتباعه ما نظم عليه الكون له ، وفيما يفعله أو يتجنبه ۰

وبقدر ما تطلب هذه الآيات ـ عن طريق تنظيم الحياة الانسانية على الأرض بما يتوارد عليها من ليل يعقب النهار ، ونهار يعقب الليل ـ الاعتراف بالله الخالق ۰۰۰ فانها تطلب من الانسان المؤمن ألا يخرج عن هذا التنظيم فى حياته اليومية : فلا يجهد نفسه الى غير استمتاع بفترة من الزمن يهدأ ويسكن فيها ، ولا ينصرف عن السعى والعمل ومباشرة اعداده الانسانى مستمرئا الكسل والبطالة ، ومعتمدا على مذلة السؤال ، أو على مال موروث ينفق منه ، أو يعيش على اقراضه بالربا لصاحب الحاجة والفاقة الى القوت فى حياته ۰

اذ الذى يجهد نفسه فى غير انقطاع لا يصل الى نتيجة فى حياته : « فالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » ۰ والذى يتسول أو يعيش على المال الموروث من غير جهد أو عمل انسانى فيه لا يشعر بكرامة الانسان ، وفى الوقت نفسه يبدد طاقاته البشرية فى لغو الكلام ، أو لهو الحياة ، أو الاضرار بالآخرين ، وهذا وذاك ليس المؤمن الذى يعرف الله ويتبع سبيله فى الحياة الدنيا ۰

۰۰۰ وذكرت هذه الآيات كذلك فيما ذكرت : أن الليل للسكنى والهدوء ، وأن النهار للسعى والعمل ، كى تكون الراحة موفورة فى وقت يتخذه الناس جميعا للراحة ، وكى يكون السعى والعمل ميسرا كذلك فى وقت ينشط فيه الناس جميعا للعمل والسعى ۰ فضلا عن أن ضياء النهار مما يساعد على العمل والسعى ، بينما ظلام الليل يعوقه وهو أنسب بالخلود الى السكنى والهدوء والاستقرار ۰

وهكذا ترسم خاصية الأرض فى وضعها مع الكواكب الأخرى ـ بفعل الله سبحانه ـ الطريق السليم لحياة الانسان ، الذى يستطيع بسلوكه أن يعيش عيشة من يعرف نفسه وغيره ، وهو لا يسود الطبيعة التى وجد فى أجوائها الا اذا تعلم من نظامها وأوضاعها · فهو لا يملى عليها ارادته قبل أن يتلقى منها الارشاد والتوجيه ·

والقرآن اذن لا يعزل الانسان عن الطبيعة ، ولا يدعوه الى الجهل بها أو تحديها ، وانما يدعوه الى تفهمها ليدرك خالقية الله ، وليلائم نفسه مع أوضاعها وقوانينها ، والانسان من أجل ذلك مدين لله بالشكر على نعمة القرآن : « **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار :**

لتسكنوا فيه ،

ولتبتغوا من فضله ،

ولعلكم تشكرون » (١) ·

★ ★ ★

٩ ـ أداء العبادة : لا يفوت على الانسان رزقه :

واذا حل موعد صلاة الجمعة والانسان فى سعى من أجل رزقه ربما يتردد فى الاستجابة الى أذان المؤذن لها ، ظنا منه أن وقتها ليس وقتا مماثلا لصلاة أخرى فهو أطول قليلا ، فضلا عن أنه يقع فى وسط النهار ، وفى زحمة الحركة للعمل اليومى ، وان ذلك ربما يفوت عليه بعض نتائج سعيه فى سبيل العيش والرزق فى الحياة · كما قد يتصور فى الصوم فى رمضان مثلا أنه يقلل من القدرة على العمل ، وفى الزكاة أن اخراجها ينقص من الداخل الكلى للمزكى ·

ان صلاة الجمعة تنطوى على معنى العبادة لله وعلى المشاركة الجماعية فيها · وهى مشاركة يلتزم بها المؤمن ليجدد الصلة باخوانه المؤمنين القريبين منه ، فى وقت تذهب فيه كذلك فروق السن واللون وما يميز فردا عن آخر ، ولا تسيطر فيه الا روح الاتجاه الى الله جل شأنه والايمان به · وبهذه الروح يصفو جو الحياة الانسانية العامة من كدر التزاحم على المتع المادية والتشبث فى الاستئثار بها فى فترة الاجتماع للصلاة ، ويكون لها أثر كذلك فيما بعدها لوقت ما ·

---

(١) القصص : ٧٣ ·

وهو اذن اجتماع يصفى حياة الأخذ والعطاء بين المتعاملين ويعيد اليهم الثقة فى التعاون بينهم فى المعاملات والمبادلات ، كما يذكرهم بهدفهم الأسمى وهو هدف الأخوة الانسانية على كتاب الله : فى الأخذ به والعمل بسنته والدفاع عنه ٠

انه اجتماع على محبة الله ، والتوكل عليه فى السعى والعمل ٠

« **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** » (١) ٠ وكافيه فى انجاح هدفه ٠ ولذا هو اجتماع فيه ربح للجميع ٠ وبقدر ما يتأثر الفرد فى صفاء نفسه فى هذا اللقاء بقدر ما يكون ربحه منه ٠

ومن هنا جاء نداء القرآن الكريم للمؤمنين فى قوله :

« **يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون** » (٢) ٠

فيطلب اليهم السعى الى المسجد لمناجاة الله والدعاء اليه ، كما يطلب منهم ترك ـ البيع ـ وهو رمز لترك العمل الذى يقوم عليه الرزق ، ثم يوضح : أن ما يطلب من السعى الى الصلاة ، وترك العمل عند النداء للصلاة يوم الجمعة هو فى واقع أمره خير لمن يستجيب له ٠

وكى لا يفهم المؤمنون أن التوقف عن العمل لصلاة الجمعة عندما يؤذن لها ينطوى على طلب العطلة فى باقى هذا اليوم ، جاء قوله تعالى بعد ذلك يوجه اليهم استمرار العمل والسعى فى سبيل الرزق :

« **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » (٣) ٠

ومعنى : « **واذكروا الله كثيرا** » هو : أن يكونوا ـ عندما يباشرون السعى لتحصيل أرزاقهم ـ على ذكر دائما بهداية الله وبطريقه المستقيم الذى رسمه للمعاملة ولأداء العمل ، والقيام بالنشاط الانسانى فى الحياة ٠ فلا يتلمسون هذا الرزق الا من طريق حلال ، ولا ينفقون الا بالطريق المشروع ٠ والحلال بين ، والحلال بين ، فما يضر النفس أو الغير فهو حرام ، وما عدا ذلك فهو حلال ، والدين بذلك يسر لا تعقيد فيه ٠

---

(١) الطلاق : ٣ ٠ (٢) الجمعة : ٩ ٠
(٣) الجمعة : ١٠ ٠

والعبادة ــ أى عبادة ــ اداؤها يسهم فى طاقة النفس على العمل وفى زيادة ثمرته فى النوع قبل الكم ، وليست للتصديق أو للصرف عن بذل الجهد البشرى ومباشرة الانسان لسعيه فى الحياة ٠

★ ★ ★

١٠ ــ العبادة تقرب المؤمن من ربه :

ان صنوف العبادة من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، وحج من شأنها أن تقرب المؤمن من الله سبحانه وتعالى ، لأنها تخلق جوا يتذكر فيه المؤمن ربه ، ويخلو فيه من شواغل الدنيا ليستحضر جلاله وعظمته ٠

وفى استحضار المؤمن لجلال الله وعظمته يتطلع الى أن يكون على نحو ما من صفاته ٠ وهنا اذا كانت العبادات فرصا للتوجه الى الله والاتصال به ، فانها حتما يجب أن تستتبع التقرب من الله ، والتقرب منه سبحانه وتعالى ليس تقربا مكانيا ، وانما فى محاولة الاتصاف بصفاته جلت قدرته ، وان لم يبلغ هذا الاتصاف تلك الدرجة التى لصفات المولى عز وجل ٠

يجب أن يوجد الله بصفاته فى حياة الانسان ، وليس فى عزلة وانفصال عنها ٠ يجب أن يسعى العابد المؤمن كل لحظة ليحقق فى ذاته ما عليه الله جل وعلا من صفات : العلم ، والقدرة ، والحياة ، والشدة ، والرحمة ، والخلق والابداع ، والغنى ٠٠٠ الى آخر تلك الصفات التى يتصف بها ٠

وليس معنى : أن يوجد الله بصفاته فى حياة الانسان ، أن يتحد الله مع الانسان ، أو يتحد الانسان مع الله ــ كما هو رأى بعض غلاة الصوفية ــ وانما على معنى : أن يتفاعل الانسان العابد ، بصفات الله فى حياته ، فيحصلها ، ويكون له درجة من مستواها يتفاعل بها ٠

فيسعى الى تحصيل العلم ، وبقدر ما يحصل العلم ويكسب من المعرفة بالوجود وخصائصه ٠٠ حتى الله سبحانه وتعالى ، بقدر ما يكون قربه من الله ٠

ويسعى الى تحصيل القدرة والاستطاعة : قدرة البدن ، واستطاعة العقل والتفكير ، وقدرة السيطرة على شهوة النفس ، واستطاعة التدبير فى الحياة ، وايضا بقدر ما يحصل من ذلك ، بقدر ما يتقرب الى الله ٠

ويسعى الى تحصيل الحياة للنفس ، كنفس انسانية · وهى حياة الكرامة والبعد عن المذلة والمهانة ، وحياة الممارسة للحرية الفردية ، التى يبدو أول مظهر لها ·

ويسعى الى تحصيل الغنى ، وهو غنى النفس عن طريق القناعة والاكتفاء بسد الحاجة عند المقدرة على تجاوزها ، فغنى المولى سبحانه وتعالى ليس غنى مال ، وولد · وانما هو غنى عدم حاجة الى الغير فى وجوده وبقائه · والتقرب الى الله الغنى لا يكون بجمع المال ، وانما بالزهد فيه · ولا بكثرة الأولاد ، وانما بعدم الحاجة اليهم ، وبقدر ما يستغنى المؤمن العابد عن غيره من أصحاب المال أو الجاه ، أو السلطة ·· بقدر ما يقترب من غنى الله وعدم حاجته الى الغير ، عداه ·

ويسعى فى عمله الى الخلق والابداع فيه · يسعى الى أن يتقنه ، وأن يكون ذا نوعية فيه · يقيس عمله بالاجادة والاتقان ، وليس بالكم والكثرة والعمل المتقن هو العمل المثمر · فالذى يقوم بارشاد الناس يكون عمله متقنا اذا أثر فيمن يرشدهم ، والذى يعلم التلاميذ أو الطلاب يكون عمله ذا طابع فى الخالقية اذا وجه تلاميذه وطلابه توجيها سليما ، وعن طريق (القدوة الحسنة) قبل طريق التلقين أو الالقاء ·

وبقدر ما يتقن العمل ويجيده ، بقدر ما يقترب من خالقية الله وابداعه ·

ويسعى أن يكون ذا رحمة مع المؤمنين حقا ، فى الوقت الذى يكون فيه ذا شدة مع خصوم الايمان وأعداء الانسانية ، ممن يتخذ بعضهم بعضا وثنا يقدس لفترة ، ثم يزول وتزول قداسته ، فيتجهون الى تنصيب غيره وثنا آخر ··· وهكذا : تدور حياتهم حول اقامة الأوثان ، وعبادتها لزمن مؤقت ·

وبقدر ما يحسن المؤمن الى المؤمنين ويرحمهم ، وبقدر ما يقف موقف الصلابة من الكافرين المعاندين ··· بقدر ما يقترب من الله الرحمن الرحيم ، الجبار المهيمن ·

فاذا انعزلت عبادة الانسان لله عن محاولة الاتصاف بصفاته ، وعن فاعليته فى حياته الفكرية والسلوكية ··· فان عبادته يخف وزنها ، وينعدم ـ أو يكاد ـ أثرها ·

ويقول القرآن الكريم :

« وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم ،

الا انهم كفروا بالله وبرسوله ،

ولا ياتون الصلاة الا وهم كسالى ،

ولا ينفقون الا وهم كارهون » (١) ٠

فيصف المنافقين بأن عبادتهم وتقربهم الى الله غير مجز وغير مثمر ، فاقدامهم على الصلاة وهم كسالى ، وانفاقهم المال وهم كارهون للانفاق ، يدل على « الانعزالية » فى حياتهم بين عبادة الله وفاعلية هذه العبادة فى حياة المؤمن حقا ، ولذا هم كافرون بالله وبرسوله فى حقيقة أمرهم ٠

ويقول الله فى كتابه الكريم أيضا :

« اتل ما أوحى اليك من الكتاب ،

وأقم الصلاة ،

ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ،

ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » (٢) ٠

ويؤكد أن شأن العبـادة أن تتأتى بآثارها ، فالصـــلاة وهى نوع من العبادة لابد أن تستتبع نتائجها من ترك الفحشاء والمنكر ٠٠ من ترك الجرائم الاجتماعية والأخلاقية التى تؤذى وتسبب الضرر للآخرين ٠ واذا لم تستتبع هذه النتائج فيدل أمرها على « انعزالية » فى أدائها ، وبالتالى على عدم فاعلية الله المعبود فى وجود الانسان وحياته ، وتصبح عندئذ رسما وشكلا وهيئة ، دون أن تكون لها روح وأثر ٠

ان امارة ضعف المسلمين هى هذه « الانعزالية » فى عبـــادتهم لله جل شأنه ، ولذا فشأنهم شأن الضعفاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات٠

ويوم يكونون أقوياء فى البدن والعقل ، وحريصين على كسب العــلم والمعرفة ، ومتقنين لعملهم ، ومتبعين سبيل الهداية فى سلوكهم ، ويوم يكونون كذلك أصفياء النفوس بعضهم لبعض ، ومتآخين على محبة فى الله ٠٠ يكونون حقا فى عبادتهم لله على درجة من القرب تؤهلهم لأن يصبحوا : « **خير أمة اخرجت للناس** » (٣) ٠

---

(١) التوبة : ٥٤ ٠ (٢) العنكبوت : ٤٥ ٠

(٣) آل عمران : ١١٠ ٠

والمؤمن القوى هو القريب من الله فى تمثله لصفات البارى ، والمؤمن الضعيف هو الذى تبعد الشقة بينه وبين الله فيما له من صفات ·

★ ★ ★

١١ ـ الحديث عن عمل لا يؤدى :

تحدث المؤمنون قبل واقعة « أحد » وفى أولها عن افعال سيقومون بها وأعمال يؤدونها ، تساندا وضمانا لنصرهم على أعدائهم · وكان الحديث عن الأفعال مثار حماس ودفع على لقاء العدو فى هذه الواقعة · ولكن سرعان ما تحول هذا الحماس للقاء والمواجهة الى الاقبال على الأسلاب والمخلفات المادية التى تركها العدو فى بدء الواقعة فرارا من القوة التى واجهه بها المؤمنون أول القتال · وعندما انشغل هؤلاء بالأسلاب وتفرق أمرهم على التسابق على التقاط حطام الدنيا ، جمع العدو شمله وعاد الى الميدان وحطم قوة المؤمنين ، التى اعتقد أولا : أنه لا يستطيع النيل منها ، وكان النصر له والهزيمة على المؤمنين ·

وأنزل القرآن الكريم فى هذا الشأن قوله :

« يا أيها الذين آمنوا ،

لم تقولون ما لا تفعلون ؟

كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ،

ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله ، صفا كأنهم بنيان مرصوص » (١)

والقرآن هنا يأخذ على المؤمنين أقوالهم ووعودهم التى تكشف التجربة العملية من جانبهم عن الفجوة الواسعة بين القول والتطبيق أو بين الوعد والوفاء به : **« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون » ؟**

وهزيمة المؤمنين فى « أحد » لم تكن شرا خالصا بالنسبة لهم بل كان فيها عنصر الخير ، هو أن يقفوا على ضعفهم وعلى سبب هذا الضعف ، كى يتفادوه ويتخذوا من الهزيمة عبرة توصلهم الى النصر ، اذا ما فرض عليهم القتال مرة أخرى ·

وكان سبب الضعف نزول أنانيتهم مجال العمل ، وتأثرهم باغراء متع الحياة الدنيا فى وقت يحددون بأيديهم وبأيمانهم مصير أمتهم ومصير دعوتهم

---

(١) الصف : ٢ ـ ٤ ·

ورسالتهم · فاختلافهم الى الأسلاب والغنائم التى تركها العدو فى أول المعركة عندما أصابه الهلع والفزع من تماسك المؤمنين وقوتهم فى تحديه ومواجهته ، يدل على أن قيم الدعوة التى حملوا أمانتها لم تكن لدى بعضهم على الأقل فى مقام يرتفع عن الدنيا وزينتها ومتعها ·

وهنا كان توجيه القرآن لهم بعد الاعتبار بهذه الهزيمة :

« ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله ، صفا ، كأنهم بنيان مرصوص » (١) · فالطريق الى النصر فى الحياة فى أية شدة ، أو أزمة ، أو معركة ، أو تحد هو : عدم التخلف أو التردد فى أداء الواجب ، حتى ليبدو الأمر وكأنهم جميعا فى صف واحد لا نتوء ولا خلخلة فيه : « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا** » · ثم مع ذلك : التماسك المتين القوى عند اللقاء والمواجهة : « **كأنهم بنيان مرصوص** » ·

والنصر اذن ، كما تفصح عنه الآية مرهون :

بأن يكون القتال أو الكفاح فى سبيل الله ، وهى سبيل القيم الانسانية العليا والمبادىء التى تحفظ على الأمة خيرها وقوتها وعزتها ، وصفاء العلاقات بين أفرادها ، وتضامن بعضها مع بعض ، وعدم تسلط بعضها على بعض ·

وبعدم التخلف فى أداء الواجب والتردد فى أدائه ،

وبالثبات والتماسك فى مواجهة التحديات والأحداث ،

كما انه من دواعى الهزيمة :

كثرة الحديث عن الفعل ، مع عدم صدق العزيمة على القيام به ومباشرته ·

والتطلع الى مادية الحياة ومتعها ، فى الوقت الذى يكون موضوع الحديث هو القيم العليا والمبادىء الرفيعة ·

ان كثرة الحديث عن عمل يؤدى وعن فعل يباشر ، دون عزم على الأداء والمباشرة لا يوحى بفقد الثقة فيما يقال فحسب ، وبالتالى يوصل الى التفكك

---

(١) الصف : ٤ ·

والانصراف الى تحقيق الأمانى الفردية التى تصبو لها نفس الفرد ويوجه هو نشاطه اليها · بل ان تخلف الفعل والعمل على القول الذى يقال ، هو خداع لمن يقال لهم ، ينتهى أمره حتما الى السلبية فى حياة الأفراد ، فيما يخص الأمة كلها · وذلك هو خطر فنائها ·

ان الوعود الكثيرة دون أن يتحقق منها القليل تفرح أول الأمر وتثير الحماس بشأنها · ولكنها أكثر من كارثة فى آثارها على الأمة وعلى مستقبلها · لأن الشك سيفرض نفسه على قول يقال ، حتى حين النداء لدفع الأخطار المحققة التى ستصيب الأمة حتما ان هى تمت ووقعت ·

ايمان بمثل انسانية عليا وبالله جل جلاله أولا ،

وصدق فى العزيمة المستوحاة من قوة الايمان ثانيا ،

والعمل فى تماسك وثبات ثالثا ،

ثم يكون أخيرا الحديث بالقول عن النصر ان شاء الله ، وليس عن الهزيمة والتفكك والهلع ·

★ ★ ★

١٢ ـ لا تكون منحة ، حتى تسبقها محنة :

١ ـ ان قضية الايمان بالمثل العليا وبالله ليست قضية لسان ينطق بها فى حسن القول ، وليست قضية ترف يستمتع به الانسان . ولا قضية زينة يتوج بها فى مظهره ·

انها قضية الحياة الانسانية فى صميمها وجوهرها · ان طريق الايمان طريق شاق · وان تحديات الايمان كثيرة وصعبة · وان حياة المؤمن ابتلاء وسلسلة من الاختبارات التى قد تهز نفس المؤمن هزا عنيفا الى درجة تقربه من اليأس :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ،

حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟

الا ان نصر الله قريب » (١) ·

---

(١) البقرة : ٢١٤ ·

فحياة المؤمن بالله معرضة حتما للجوع والحرمان ،

معرضة للأذى والأضرار والأمراض ،

معرضة للقلق والاضطراب « **مستهم البأساء والضراء** » لا يسلم من ذلك رسول ولا صاحب دعوة . ولا مؤمن من قريب أو بعيد : « **وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟** » .

وتعرض المؤمن بالله والقيم العليا لهذه التحديات ، ليس فى عهد ولا فى وقت دون وقت ، ولا فى رسالة من رسالات السماء دون أخرى ، ولا فى مكان أقيمت فيه دعوة لهذا الايمان دون آخر . انما ذلك مبدأ عام من مبادىء الوجود الانسانى ، وقانون من القوانين التى تحكم المجتمع البشرى بما فيه من اتجاهات مختلفة وغير متلاقية : « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ؟** » (١) .

وان الحرمان الذى يتعرض له المؤمن بالله حرمان مادى ، وان الايذاء والأضرار التى تصيبه هى ايذاء وأضرار مادية ، وبسبب ما يتعرض له من حرمان وايذاء قد يطول أمده أو قد يشتد أثره تتأرجح النفس بين ظلام ما تتعرض له ، وأمل فى نصر وعد به الله تعالى :

« **ألا : ان نصر الله قريب** » .

ولكن اذا غلب الانسان أمله فى نصر الله ـ وهذا ما يجب أن يفعله طبقا لايمانه ـ فان ما يتعرض له من حرمان مادى يهون أمره على النفس . وبذلك تعود اليها الطمأنينة ويقوى الأمل فى النصر ، طيلة حياته الانسانية على هذه الدنيا .

على انه من جانب آخر : اذا هان على المؤمن فعلا أمر الحرمان والاضرار المادى بسبب ايمانه ، عندئذ يشعر بقوة المنتصر وبعزته وتفوقه ، وذلك جزء من نصر الله له .

ان الفرق بين ظلام اليأس ونور الأمل هو فرق نفسى ، يمكن للانسان أن يجتازه بصبر المؤمن وثقته فى الله . وطالما اجتازه المؤمن لا يعود من جديد الى دائرة الظلام . لأنه يجد الظلام قد تبدد فى أفق حياته الى الممات ، ثم ينتقل بعد الممات الى متعة نصر أبدى ، هو نهاية التجربة والاختبار ، وهو نصر المؤمنين فى لقاء الله وفى البقاء فى جنته ورضوانه .

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

٢ ـ واذا لم يسلح الانسان بروحية الايمـان بالله فقلما ينجح فى حل مشكلة من مشاكل الحياة المادية التى تعترضه لسبب ما ، قد لا يكون هو التحدى لايمانه • ولكن قد تكون الظروف الطبيعية للحياة وأحوالها التى تتغير من وقت لآخر • وما يدركه الانســـان من أسباب تغيـــر الظروف والأحوال الطبيعية حتى الآن لم يبلغ الشمول والاستيعاب اذا لم يرب الفرد فى الأسرة ، وفى المجتمع ، وفى الأمة على أن : الأزمات وتعرض الانسان لها أمر لا مفر منه ـ على الأقل فى حياة الكثرة ـ فستكون خيبة الأمل عند مواجهة الشدائد سببا فى مرارة الحياة واليأس منها لمن يترقبها •

ان الايمان بالله ليست مسألة فردية أو شخصية بقـدر ما هى مشـكلة المجتمع والأمة ككل ، يسعى الى البقاء ، والتماسك ، والعزة والمنعة •

★ ★ ★

١٣ ـ حياة الرسول عنوان دعوته :

وهناك مظاهر عديدة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفى صلته بدعوته أنجحت هذه الدعوة ، وجعلته هو فى سلوكه ترجمة صادقة لمبادئها ، وما استهدفته من الوصول بالانسان الذى يؤمن بها الى مســتوى رفيع فى انسانيته ، هو مستوى التهذيب والاحسان •

واذا سجل القرآن الكريم مثل هذه المظاهر فى صورة التوجيه والارشاد لرسوله الأمين ••• فانه يقصد قطعا الى أن تجديد الدعوة الى الحق والى أن أية دعوة الى المستوى الفاضل فى الانسانيـة ـ اذا دعا وضع المجتمع للبشرى يوما ما الى الخروج به من حالة التردى والانحطاط فى الســلوك ، تلك الحالة التى تحتاج الى داع يدعو الى التبصير بالهداية المجـــردة عن الغرض والبعـد عن المصلحة الذاتية ، وهى هـداية الله وصراطه المستقيم ـ لا تجدى من الأمر شيئا الا اذا توفرت له هذه المظاهر التى طلبها القرآن ووجه بها رسوله المختار محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم •

اذ ما فى القرآن من نداءات أو توجيهات اتجه بها مباشرة للرســول ••• هى فى واقع أمرها لجميع المؤمنين فى أى وقت وفى أى جيل ، ويجب الأخذ بها وتطبيقها اذا ما تشابهت الظروف والأوضاع فى المجتمع •

من هذه المظاهر ذات الأثر الفعال فى انجاح الرسالة :

الصدق فيما يدعو اليه ،

والاخلاص له ،

والاستمرار فى متابعة الدعوة ،

وحسن التطبيق لمبادئها ٠

١ ـ فالتزام جانب الصدق فى الكشف عن واقع الدعوة وابعادها يقضى بابعاد التلبيس والخداع فيها ٠

يقول الله تعالى لرسوله الكريم :

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ،

ولا أعلم الغيب ،

ولا أقول لكم انى ملك ،

ان أتبع الا ما يوحى الى ،

قل هل يستوى الأعمى والبصير ، افلا تتفكرون » (١) ٠

فحذرت هذه الآية من ادعاء أمور ثلاثة واقحامها فى الدعوة ، كل واحد منها من شأنه أن يغرى ويجذب الأتباع والمريدين لفترة من الزمن ، حتى اذا انكشف واستبان واقعه كان النكوص عن التبعية بسببه أشد ٠ وانقلبت بعد ذلك الى عامل هدم لموضوع الدعوة الأصيل ٠

حذرت الآية من الوعد بالمال الوفير والعطاء الكثير ٠

٠٠٠ وحذرت من ادعاء العلم بالغيب ٠ وقد كان معروفا لدى العرب من كهانهم ومنجميهم أن العلم بالغيب يتبعه امكان طلب الكثرة من الخير ومتع الحياة فيكون الاقبال على الدعوة عندئذ اذا ما ادعى العلم بالغيب لا لذات الدعوة ، وانما يكون تحت تأثير متع الحياة المقبلة التى ينطوى عليها الغد الأفضل ، بسبب العلم بالغيب :

« ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » (٢) ٠

٠٠٠ كما حذرت أخيرا من ادعاء الانسان بأنه فوق مستوى البشرية

---

(١) الأنعام : ٥٠ ٠ (٢) الأعراف : ١٨٨ ٠

وانه من جنس آخر لم تختلط به حيوانية ولا غرائز ، وانه لذلك متميز على الانسان وبسبب تميزه تجب طاعته فى قيادته وزعامته ٠

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه :

ما هذا الا بشر مثلكم ، يريد أن يتفضل عليكم ٠

ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » (١) ٠

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا ، وكذبوا بلقاء الآخرة ، واترفناهم فى الحياة الدنيا :

ما هذا الا بشر مثلكم ياكل مما تاكلون منه ، ويشرب مما تشربون ٠

ولئن أطعتم بشرا مثلكم ، انكم اذن لخاسرون » (٢) ٠

٠٠٠ ثم ألزمت فى النهاية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعبيــر الواضح المحدد المعالم عن مهمته فى دعوته ، اذ تقول له :

« ان أتبع الا ما يوحى الى » (٣) ٠ أى قل ذلك ، ولا تزد عليه مما من شأنه أن يضيف اغراء على قبولها ، قبولا مؤقتا لا تؤمن عاقبته بعد ذلك ٠

٢ ــ والاخلاص للأمر الذى يدعو اليه والتفانى فيه يشير اليه قول الله تعالى موجها النداء فيه الى رسوله الكريم :

« قل ان صلاتى ، ونسكى ،

ومحياى ، ومماتى لله رب العالمين ٠

لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (٤) ٠

فدعوة الرسول هى الدعوة الى هــداية الله ٠ وليس هنــاك تعبير عن الاخلاص الكامل لله أبلغ من أن تكون حياة صاحب الدعوة اليه كلها وقفــا على عبادته والتوجه اليه ، وأن تكون هذه الحياة كذلك نموذجا تنعكس عليها مبادىء الدعوة ، بحيث يصبح صاحب الدعوة المثــل الأول للانسان المؤمن ، سواء : فى الايمان بها ، أو فى تطبيقها ٠

---

(١) المؤمنون : ٢٤ ٠
(٢) المؤمنون : ٣٣ ، ٣٤ ٠
(٣) الأنعام : ٥٠ ٠
(٤) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ ٠

٣ ـ ولا يقل أهمية عن المظهرين السابقين فى انجاح دعوة الداعى للحق ـ وهما ابعاد الدعوة عن التلبيس والخداع ، والاخلاص لمبادئها ـ مظهر التحمل والصبر فى سبيلها والمتابعة فى شأنها وهذا ما يسجله قوله تعالى :

« فاصدع بما تؤمر ،

واعرض عن المشركين · انا كفيناك المستهزئين · الذين يجعلون مع الله الها آخر ، فسوف يعلمون ·

ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون · فسبح بحمد ربك ، وكن من الساجدين ·

واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (١) ·

فهنا تطلب هذه الآيات الاستمرار فى الدعوة واشهارها مع التغاضى عما يفعله أعداؤها ، رغم ما يضيق بموقفهم منها صدر الداعى لها ، كما تطلب بجانب هذا الاستمرار : متابعة التطبيق العملى لمبادئها فى حياة صاحب الدعوة وبالأخص الصلاة من بينها ـ دون خشية من أحد ـ الى آخر رمق فى الحياة ·

٤ ـ فاذا أضيف الى هذه المظاهر الثلاثة التى هى :

الصدق فيما يدعو اليه ،

والاخلاص له ،

والاستمرار فى متابعة الدعوة ،

حسن التطبيق وهو اعطاء صورة كريمة للانسان الذى أخذ نفسه بتعاليم ما يدعو اليه ·· كان النجاح للدعوة مؤكدا ·

وهذا ما يشير اليه القرآن فى قول الله تعالى :

« فاستقم كما أمرت ، ومن تاب معك ،

ولا تطغوا ،

انه بما تعملون بصير ·

---

(١) الحجر : ٩٤ ـ ٩٩ ·

ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ،

وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون ٠

واقم الصلاة طرفى النهار ، وزلفا من الليل ،

ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ٠

واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين » (١) ٠

فهذه الآيات تريد من الرسول والذين آمنوا معـه ، أن يكونوا على نحو ما أمروا باتباعه :

★ لا تغرهم مرحلة من مراحل النجاح فى دعوتهم ، بحيث يصبحون طغـاة متعالين على غيرهم ،

★ ولا يأمنوا جانب المنحـرفين الذين لا يؤمنون بالله وظلموا بذلك أنفسهم فيستمعون الى نصحهم ، أن يقلدوا خطاهم فيصيبهم الفشل والدمار ،

★ وأن يبتعدوا عن مسلك الانتقام ويؤثروا فى سـلوكهم وتصرفاتهم مسلك المحسنين المهذبين أصحاب الفضل ،

★ ويصبروا على ما يلحقهم من أذى أو ضرر ٠

فان ذلك كله كفيل بالانجاح وبالنجاة معا ، وطالما هم على ذكر بالله فى كل ساعات عملهم ٠ وهذا ما تحقق جميعه فى حياة الرسول وفى سبيل دعوته وفى أمته ٠ حتى قال القرآن الكريم :

« **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » (٢) فجعل حياته عنوان رسالته ٠

والاحتفال بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم هو فى اقتفـاء أثره لمن كان يدعو لاصـلاح أو يتأمر على أمر ، وكذلك لمن كان يرجـو الله واليوم الآخر ، والحياة الدنيا والاطمئنان فيها ٠

★ ★ ★

---

(١) هود : ١١٢ ــ ١١٥ ٠ (٢) النسـاء : ٨٠ ٠

١٤ ـ المؤمنون فى تقدير بعضهم بعضا :

ولكى يبقى التماسك قويا فى علاقات المؤمنين بعضهم ببعض ٠٠ يجب أن يبتعدوا عن أن يهين بعضهم بعضا ، وأن يؤذى أحدهم اخاه بما يجرح الكرامة الانسانية ويقلل من الاعتبار البشرى لأى منهم ٠

يجب ألا يسخر قوم من قوم ، ويضحك ويهزأ منه ، فمثل ذلك لا يقع الا عن غطرسة أو عن أنانية أو عن حقد ٠ وهى أسباب لا تشرف من يتصف بها عندما يسخر من آخرين ويهزأ بهم ٠

الاسلام لا يمنع الاختلاف فى الرأى بين المسلمين ، لأن ذلك أمر تقتضيه الفروق الشخصية بين الأفراد ، وهى فروق قائمة لا ترد ، ثم تحول قطعا دون أن تذوب الأفراد بعضها فى بعض فى « وحدة شاملة » مهما حاولت بعض النظريات الحديثة اغراء بعض المجتمعات الانسانية المعاصرة بتطبيق هذا التذويب فيما يسمى بـ « المركب الاجتماعى » ٠

ولكن اذا وصل الاختلاف فى الرأى الى نزاع بينهم فان الاسلام يأمر المختلفين بالرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ويستوحوا منهما الرأى دون أن يقحموا عليهما ما يتشبث به كل فريق منهم ويحملوا أيا منهما أو كليهما على اعطاء لون معين مما اختلفوا فيه :

« **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** » (١) ٠

والاسلام اذ يدعو المؤمنين عندما تتسع هوة الخلاف فى الرأى بينهم فتصير نزاعا الى الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ، يحرص أشد الحرص على سلامة وحدتهم وشدة بأسهم وقوتهم فى تماسكهم ٠

وللهدف نفسه كذلك يمنع السخرية والضحك والاستهزاء فى معاملة المؤمنين بعضهم بعضا ، بجانب أنها لا تصدر عن كريم فى خلقه متسامح مشارك للآخرين معه فى عواطفهم ٠

---

(١) النساء : ٥٩ ٠

ومثـل السخرية والضحك والاستهزاء بالآخـــرين : سبهم وشتمهم واتهـامهم بدون بينة ، ونداؤهم بما يكــرهون أو يسمعون مما هم عليه فى حاضرهم أو كان لهم فى ماضيهم · كأن ينادى مؤمن بالأعرج أو الأعمى أو الأسود ، أو كان يجرح الآن بما وقع منه قبلا وتاب عنه فعــلا اليوم ·

وفى هذا يقول القرآن :

« يا أيها الذين آمنوا :

لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ،

ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ·

ولا تلمزوا أنفسكم ، (يجرح بعضكم بعضا بالسب والشتم والاتهام) ·

ولا تنابزوا بالألقاب ، (ينادى بعضكم بعضا بما يكره أن ينادى به) ·

بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ،

ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (١) ·

فعدد ثلاث صور من الصور التى من شأنها أن تؤذى الغير وهى أشد ايذاء اذا صدرت من المؤمن للمؤمن معه فى أمته وجماعته : وهى أشد ايذاء اذا صدرت من المؤمن لأن المفروض أن يكون انســانا مهـذبا لا يحكم خلق الأنانية والحقد فى معاملته ، وأشد ايذاء كذلك اذا وجهت الى مؤمن معه آخر ، لأن هذا قد يكون أكثر انسانية وفعلا للخير ، وأكثر قربا الى الله بعمله وسلوكه ·

وهذه الصور الثلاث هى :

١ ــ اعلان الاستهزاء والاستخفاف ·

٢ ــ التجريح بالشتائم والاتهامات غير المؤكدة ·

٣ ــ النداء بأوصاف يكره سماعها من توجه اليه ·

★ ★ ★

ولكن بعــد أن تفككت الأمة الاســـلامية الى مجموعات وصارت الى وحدات مستقلة ، أصبحت حرماتها غير مكفولة بين بعضها بعضا ، وما حرم

---

(١) الحجرات : ١١ ·

الاسلام توجيهه هنا من أفراد الى أفراد أصبح مستساغا توجيهه من مجموعة الى مجموعة ، وكأن الروابط بين هذه المجموعات تنكر فى وقتنا المعاصر أن تكون لها صلة بالاسلام ومبادئه ، عندما يسخر بعضها من بعض ، وعندما يكيل بعضها الاتهامات للبعض ، وعندما يصف بعضها بعضا بأوصاف أخدس فى العرف القائم لونا من الاستهجان والتشنيع ٠

ان مقاييس الاسلام للتهذيب والسلوك الخلقى الكريم هى مقاييس للسمو الانسانى والمستوى الرفيع فى الانسانية ترتبط فقط بالطبيعة البشرية ، دون ارتباطها بزمن معين لها أو جيل خاص من أجيالها ، فما يجافيها يكون هو التخلف عن مستوى الانسانية الفاضل ٠

★ ★ ★

١٥ ــ المساواة والمفاضلة :

١ ــ يشهد العالم الآن صنوفا عديدة من الصراع ٠٠

يشهد لونا من الصراع بين الأبيض والأسود ٠٠

ويشهد لونا آخر بين شعب فى قارة وآخر فى قارة أخرى ٠٠

ويرى لونا ثالثا بين عامل كادح وصاحب عمل ثرى ، وبين مثقف ٠٠ وهلم جرا ٠٠

وقد تمزق العالم بالفعل الى كتل ومجموعات متصارعة ٠٠ وواقع أى مجتمع انسانى اليوم يحكى تمزق العالم الكبير ، كما يحكى صراعه بين كتله ومجموعاته من لون أو من آخر ٠

وبقدر عنف الصراع واتساع نطاقه ٠٠ تتزاحم المذاهب الفلسفية لتبرير هذا الصراع أو ذاك ، أو لزيادة حدته وفعاليته ، ولم تكن المشكلة التى تبدى هذه المذاهب الرأى فيها هى مشكلة : « المساواة والتفضيل » كظاهرة انسانية ٠ بل هى مشكلة المعايير التى تقوم عليها المساواة والمفاضلة ٠ فاللون الأبيض أو الأسود معيار ، والثراء أو الفقر معيار ، والأمية أو الثقافة معيار ٠

« والمساواة والتفضيل » كظاهرة انسانية حقيقة لا يشك فيها ٠ واذا كانت الطبيعة البشرية تعطى أصل المساواة ٠٠ فأى أمر بعدها يقنع بالمفاضلة ؟

أهو اللـــون ؟

واللـــون لا يعـــدو أن يكون فى واقع أمـره أثرا للجـو والعوامل الجغرافية ٠

وإذن ليس أمرا ذاتيا يفاضل به بين فرد وآخر ، وبين مجموعة من لون وأخرى من لون آخر ٠

أهو الثراء والمال ؟ وهو عـرضة للزوال ٠ أهو الفقر ؟ وأمـره قـد يتغير الى ضده ، والعامل الذى يكدح اليوم قد يكون رب عمـل فى غـده ، فيكون له اعتبار الآن وفى الغد اعتبار آخر ؟ ٠٠

أهو الأمية وما يصحبها من تصور للسلوك والمعاملة ؟

لقد تزول الأمية ، ولقد يكون الأمى فى تصوره للسلوك والمعاملة أفضل من المتعلم فى هذا التصور ٠

تلك معايير لا تصلح أن تكون أسسا للمفاضلة وبالتالى لا ينبغى أن يتحول الخلاف من أجلها الى صراع يمزق الفرد والمجتمع وربما يمزق الفرد نفسه ٠٠

لا يصلح أن تكون هذه المعايير أسسا للمفاضلة بين فرد وآخـر ، أو مجموعة من الأفـراد ومجموعة أخـــرى لسبب بسيط ، هو : أنها جميعها لا تنبثق عن الطبيعة البشرية التى هى أصل المساواة ، والتى هى عبارة عن مجموعة من الخصائص تتميز بها عن الطبائع الأخرى فى الوجود ٠

والفكر المعاصر الذى يستند اليوم فى تبريره لهذا المعيار أو ذاك ٠٠ هو فكر متحيز لا يستطيع أن يكسب الاعتبار العام للمنطق المجرد السليم ، كما لا يمكنه أن يخدع بسبب أنه ظهر فى هذا العصر الـذى يتميز بالتقـدم الواضح للتيكنولوجيا والتطبيق العلمى فى مجـالات الحيـــاة المختلفة فى المجتمع الانسانى ٠

٢ ـ ومن أجل هذا التحيز أو من أجل المحدودية أو السطحية لفلسفات الصراع البشرى القـائم ٠٠ كان رأى الاسلام أحـكم فى مساوقته للطبيعة البشرية وفى تفريعه على خصـائصها المميزة ، عندما يقـر ويقـر المساواة والمفاضلة معـا ٠

يقول القرآن الكريم :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى » (١) ...

فيشير الى أصل المساواة فى الطبيعة البشرية بين الأفراد جميعا .

ثم يقـول بعد ذلك :

« وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (١) ...

ينفى أن يكون اختلاف الناس الى شعوب وقبائل ومجموعات ، مبررا للمفاضلة بين الأفراد ، كما قد تنادى به بعض الفلسفات المعاصرة ، بل ينظر الى هـذا الاختلاف على أنه سبب للتعارف واللقـاء ، وليس للتخاصم والتنافر . اذ الاختلاف أو المفارقة بين فرد وآخر أدعى للقاء والألفة بينهما كما بين الذكر والأنثى ، والقوى والضعيف ، والابيض والاسود .

ولكن المفاضلة وسببها يشير اليهما فى قوله تعالى ، تاليا لهذا :

« ان اكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » (١) .

فالطبيعة الانسانية كلها مكرمة عند الله ، لقوله تعالى فى آية أخرى :

« ولقد كرمنا بنى آدم » (٢) .

أما هنا فقد نص على الأكرم منهم ، وجعل معيار الأفضـلية : كثرة « التقوى » .

وكثرة « التقوى » ليست بحكم أحد من الناس ، وانما بعلم الله ذاته وخبرته .

ولذا كان التعقيب فى هذه الآية بقوله :

« ان الله عليم خبير »

أما « التقوى » نفسها فقد حدد معالمها القرآن فى قوله تعالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ،

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) الاسراء : ٧٠ .

وآتى المال على حبه : ذوى القـربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ،

واقام الصلاة ، وآتى الزكاة ،

والموفون بعهدهم ، اذا عاهدوا ،

والصابرين فى الباساء والضراء ، وحين الباس ،

اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » (١) ٠

فقـد نفى أن تكون التقوى هى الاتجاه الى فارس فى المشرق أو الى الرومان فى المغرب ، وانما هى وضع مستقل وسبيلها : الايمان ، والانفاق فى محبة ورضى ، والمواظبة على الصلاة والزكاة ، والوفاء بالعهد ، والصـبر عند الشدائد ٠٠ سبيلها صفاء النفوس ، ومشاركة اصحاب الحاجة فيمـا يكتسب من مال ، وتحمل الأزمات ، والوفاء بالالتزامات ، وتلك هى خصائص الانسانية المميزة ٠ وبدونها لا يكون الانسان الا مشاركا للحيوان فى انانيته وغرائزه ٠

★ ★ ★

واذن الاسلام اذ يسوى فى الطبيعة البشرية ، يميز بين افرادها ، على اساس : من البلوغ فى المستوى الرفيع منها ٠ واستقامة الانسانية ، ونجاح اى مجمع انسانى ٠٠٠ هو فى دفع الفرد نحو المستوى الفاضل فى الانسانية ، وليس الى الانحدار نحو الانانية والصراع من اجلها ٠

★ ★ ★

١٦ ـ المؤمنون والحرمة الشخصية :

هناك نظرتان متقابلتان الى الانسان فى المجتمع الذى يعيش فيه :

نظـــرة : ترى أنه ذاتية مستقلة ، ولكن لها علاقات بالغير تحـــددها القوانين والسلوك الأخلاقى والعادات ٠

والنظرة الأخرى : ترى أنه جزء فى كل يذوب وينصهر فيه ، ولا تعرف معالمه وحدوده الا أنه يسهم فى نشاط « الكل العام » المركب منه ومن غيره ٠

---

(١) البقرة : ١٧٧ ٠

والنظرة الأولى يراها الاسلام ، لأنه لا يلغى ذاتية فرد لمنفعة فرد آخر ، ولا يذيب شخصية انسان فى شخصية انسان آخر ، مهما كان بينهما من علاقات الصلة والقربى والمودة · فهو مع حرصه على نمو علاقة الانسجام والود والاستقرار بين الزوج والزوجة ·· يحرص فى الوقت نفسه على استقلال الزوجة فى التصرف فى الشئون المالية الخاصة بها ·

اذ لها أن تباشر هذه الشئون ، كما لها أن تفوض شخصا آخر غير زوجها فى مباشرتها · ومال الزوجة وهو محط نظر الزوج عادة ، يترقب بالزواج أن يكون له أمر فيه على الأقل · فاذا أبعده الاسلام عنه كان ايذانا منه باستقلالها والمحافظة على هذا الاستقلال ، رغم العلاقة القريبة بينهما ·

على أنه من جانب آخر ، مهما احتضن الاسلام الدعوة الاسلامية ، ومهما حرص على نقاء المجتمع الاسلامى وبالأخص الأسرة فيه ··· فانه يمنع الزوج من حمل زوجته غير المسلمة على الاسلام ، ويكتفى بجعل ثمرة هذه الزوجة من الأولاد : مسلمين · وبذلك يتيح للزوجة ممارسة عقيدتها الخاصة فى غير تضييق ولا حجر عليها اطلاقا ·

وبالاستقلال فى شئون المال ، وأمر الاعتقاد ، لا تنصهر الزوجة فى زوجها ، وبالتالى لا تنعدم شخصية فرد لسبب ما فى شخصية فرد آخر ، فى نظر الاسلام الى الانسان ·

وذاتية الفرد وشخصيته اذن شىء ، وعلاقته بفرد آخر فى المجتمع معه شىء آخر · ومن هنا كانت للشخص حرمات وحدود لا ينبغى أن تنتهك ، ولا يجوز أن تتخطى الا باذن من له هذه الحرمات وهو الفرد نفسه ·

ومن هذه الحرمات : حرمة النفس ، وحرمة المال ، والملك ، وحرمة العرض ، وحرمة المسكن والمنزل ·

والاسلام اذ يضع أهمية خاصة على حرمة المسكن ، ليس لأنه المأوى ومكان السكنى والاستقرار فقط ، وانما لأن له مع ذلك صلة وثيقة بخصوصية الشخص وهو عرضه · وهو الستار الذى يستر هذا العرض ، وفى الوقت نفسه هو المكان الذى تتحرك فيه الأسرة دون حرج من عبث الغير بنظراته وتطفله ·

ومن أجل حرمة المسكن دعا القرآن الكريم ألا تطأ قدم مؤمن منزل شخص آخر حتى يسأله أولا ، ثم يحس منه بالترحيب به ثانيا · وهذا

فيما يقوله الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا :

لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » (١) ٠

اذ الاستئناس يتضمن العنصرين معـا : عنصر الاذن بالدخول ردا على الاستئذان فيه ، وعنصر القبول من جانب الساكن وراحته النفسية ، وبذلك يشعر أنسه بالدخول عليه ٠

فان أذن للقادم بالدخول ، مع توفر الاحساس لديه من جانب الساكن بعدم الرغبـة النفسية فى دخوله ٠٠ فانه أولى له : ألا يدخل لأنه لم يتحقق عنصر الرضا والراحة والاطمئنـان لدخوله ٠

ثم مع الاذن والشعور بالرضا والراحة ، فان على الداخل بعد ذلك أن يحيى الساكنين وهم أهل المنزل ، ويقرءهم « السلام » عند الدخـول ، وهى تحية المسلم للمسلم ، توكيـدا للأمـان والاطمئنـان ، واشـعارا بعلاقة المؤمن بالمؤمن التى تقوم على الأقل على تجنيب الضرر والايذاء ٠

والمسألة هنا ـ كما تعرضها هـذه الآية ـ ليست مسألة حق للساكن فى المنزل لا ينبغى أن يعتدى عليه بعدم الاستئذان فيه ٠

وانما هى فوق ذلك مسألة الحرص على العـلاقة الانسانية الكريمـة المهذبة بين المؤمنين ، وعلى بقاء الولاء بين المؤمن والمؤمن سليما ، ذلك الولاء الذى هو حجر الزاوية فى التضامن والتماسك فى الامة الاسلامية ٠ ومن اجل ذلك كان التعقيب فى هذه الآية بعد تحديد المحافظة على حرمة المسكن ، قول الله تعالى : « ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » (١) ٠ فوصف اتباع أدب المنزل على النحو الذى شرحته الآية : بأنه خير للمؤمنين فى علاقات بعضهم ببعض ، ثم أمل فى أن يكون المؤمنون دائما على ذكر من هذا التوجيه ، لأنه ينطوى على الخير لهم جميعا ٠ وليس هناك خير أكثر من أن تكون العلاقة بين المؤمنين عـلاقة أخـوة صـافية ، واحترام متبادل ، وصون للأعراض لا يقصر فيها أحد فضلا عن أن يعتدى عليها أحد ٠

ولو أن الاسلام كان ينظر للأفراد على أنهم أجـزاء فى كل ، يذهبـون

---

(١) النـور : ٢٧ ٠

جميعا فى تركيبه وتضييع معالمهم في وجوده ، لما كانت هناك عناية منه بشخصية الفرد ولما حدد حرمته على هذا النحو ، بما يشعر الانسان بكرامته ، ويطمئنه على قيمته الذاتية ، وعلى عرضه الخاص فى أهله ، وبيته ، ومأواه ٠

★★★

١٧ ـ الحرص على صفاء النفوس :

وكل فرد من الناس بحكم طبيعته الانسانية يتأثر بما يتصوره عن الآخرين أو بما يراه فى حياتهم ، ثم ينعكس تصوره أو ما يراه فى تقديره اياهم ، أو فى موقفه منهم ٠

ولا تضار العلاقة بين الأفراد اذا كان ما يتصوره أو يراه أحدهم فى الآخر أو فى الآخرين ما يكون ـ شأنا ـ موضع فخر وثناء فى عرف الناس ٠

ولكن تضار هذه العلاقة حتما اذا كان الأمر على العكس ، لأن الذى يتصور فى غيره أو يرى فى حياته ما يشين ، سيجد داخل نفسه احساسا خفيا يجعله يتحفظ فى علاقته معه على الأقل ، ان لم يقف منه موقف المؤذى ، وبذلك تتوتر العلاقة أو تسوء ٠

وربما ما يتصوره فرد عن آخر لا يكون مطابقا للواقع ، بل قد يكون وهما وظنا ، وعندئذ يكون احساسا فى نفسه غير طيب بالنسبة لهذا الآخر ، أو يتخذ منه موقفا يسىء اليه ويؤذيه ، دون أن يستحق هذا الآخر مثل هذا الاحساس غير الكريم من أخ معه أو فى أمته ٠ ويعود توتر العلاقة أو سوءها آنئذ الى ظن آثم ٠ ومن هنا كان نصح القرآن الكريم بتجنب الظن فى تقييم العلاقات بين المؤمنين بعضهم مع بعض ٠ اذ ربما يكون منه ما يسىء، فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم » (١)٠

وربما أيضا يجد الفرد الذى يرى فى تصرفات فرد آخر معه أو فى حياته أو فى مجال حركته ، ما ينظر اليه نظرة فيها بغض وكراهية ، تحمله على اغفال علاقته به ، وربما الى الاساءة اليه ـ محاسن أخرى بجانب ما يعاب عليه ، تجعله راضيا عنه ، وربما معجبا به ٠

---

(١) الحجرات : ١٢ ٠

ولذا ينهى القرآن أيضا عن تتبــع عورات الآخرين ونقائصهم ، وعدها واحصــائها فى سلسلــة ، كأن حيــاتهم خالصة لهــذه العــورات والنقائص ، لا تشوبها حسنات ولا صفات أخرى يستحقون عليها الثناء · ويسمى هــذا التتبع تجسسا فيما يقوله بعد النهى عن الظن آنفا :

« ··· ولا تجسسوا » (١) ·

واذا كان كل فرد من الناس بحكم طبيعته الانسانية يتأثر بما يتصــوره أو بما يراه فى حياة الآخرين ··· فكل فرد أيضا أشد تأثرا وأكثر حســاسية فيما يتعلق بذاته مهما بلغ مستوى رفيعــا من الثقافة ، ومهما حصل من تجارب فى حياته ، لا يريد أن يتصدى له بعض المعترضين بما لا يرضاه ولا يحبــه ، ولو كان ذلك صحيحا ، فضلا عن أن يكون مختلقا ·

ومن شأن ذلك ــ لو وقــع ــ أن يسىء الى نفســه وربما يدفعــه الى سلوك غير مهذب ضد من يتحــدث بالسوء عنه ، اذ الأمر عندئذ ليس أمر الحــديث بالسوء عنه فحسب ، وانمــا قــد يكون قبــل ذلك أمــر اختــلاق السوء ، ثم اشــاعته ·

ولا شك أن نحو هذه التصرفات لا يسهم اطلاقا فى بقاء العــلاقات بين الأفراد سليمة أو صافية ، وانما يزعجها ويعرضها للاضطراب ·

وهنا كان تعبير القرآن فى نهيــه عن (الغيبــة) ــ وهى اختــلاق السوء واشاعته ــ تعبيرا صريحا فى الاشمئزاز من هذه الجريمة الخلقية المنكرة ، اذ يقــول :

« ولا يغتب بعضــكم بعضــا ، أيحب أحــدكم أن يأكل لحم أخيــه ميتا فكرهتموه » (١) · فيشبه اختلاق السوء عن أحــد وترويجه عنه ، بأكل لحم أخيه بعــد أن مات وأصبح جثــة عفنــة · وهذا منتهى التبغيض فى مبــاشرة هذه الجريمة الخلقية ؛ لأن هذه الجريمة تمثــل اعتداء مزدوجا عــلى انسان آمن وديع : تمثــل الاختلاق والكذب والسوء ، ثم تمثــل الترويج والاشاعة بما هو مختلق وكذب ، مما يدل عــلى عدم الحيــاء والفجــور واللاانسانية فى الســلوك ·

★ ★ ★

---

(١) الحجرات : ١٢ ·

وهكذا يطلب الاسلام ان نبقى النفوس صافية ببعدها عن الظن الآثم ، والتتبع المريب لنقائص الآخرين والتقاطها واحدة بعد الأخرى ، وبتجنبها اختلاق السوء على الآمنين الوديعين ·

ان ذلك تفكير سلبى وطريق غير ايجابى فى حياة الناس · وأولى منه أن يكون المؤمنين فى حياتهم بنائين ، يضيفون جديدا كل يوم فى تماسك علاقات بعضهم ببعض ، بدلا من أن يهدموا بعضهم بعضا ·

ان التفكير السلبى ، والسلوك السلبى ، والموقف السلبى فى حياة الأفراد هى امارات للفناء ، بعد كونها تعبيرا عن الحقد داء الانسانية الدفين · ومن الأسف أنه من السهل على الناس أن يحقدوا على بعضهم ، ولكن من الصعب أن يضعفوا الحقد فى نفوسهم ·

★ ★ ★

١٨ ـ المؤمنون وأداء الأمانة :

ليست الأمانة التى يجب أن تؤدى هى الوديعة وحدها · وانما هى صور عديدة : مادية ، وأدبية ، ومحسة ، ومعنوية ·

هى أداء واجب المسئولية التى يحملها المؤمن ازاء نفسه وازاء غيره ··· مسئولية الوظيفة العامة ··· مسئولية العدل فى القضاء ··· مسئولية الوفاء بالعقود ··· مسئولية الوفاء بالعهد ··· مسئولية الاخلاص فى المشورة ··· مسئولية الأسرة فى حفظها ورعايتها ···

هى تغطية جميع الالتزامات الناشئة عن قبول ، أو التى تترتب على مضمون الايمان بالله ·

فاذا طلب الله سبحانه وتعالى أداء الأمانة فى قوله :

ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها » (١) ··· فانه يقصد صنوف الالتزامات المختلفة التى تستوجب الأداء والتى ينشأ عن ادائها تبادل الثقة بين المؤمنين واستقرار هذه الثقة فى نفوسهم ، وليس ذلك النوع المادى وحده الذى قد يعرف باسم الوديعة ايضا ·

---

(١) النساء : ٥٨ ·

ثم اذا اوجب « العدل » بعـد ذلك فى قوله : « **واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ٠٠ » (١) فى ذكر خاص به ، فانه يريد أن يثير فقط الانتبـاه اليه على حدة ، اهتماما بقيمته فى حياة الأمة اذا التزمت بتحقيقه ٠

ان أداء الأمانة فى صـورها العـديدة كما هى مصـدر تبادل الثقة بين المؤمنين ٠٠ هى أيضا أمارة على رعاية الصالح العام بينهم ٠

والثقة التى توحى بأداء جميع الالتزامات فى العلاقات بين الأفراد ٠ هى ثقة أصيلة تعبر عن التماسك بينهم وعن الحرية الكاملة فى الحرص على بقاء المجتمع وقبـول نظامه الذى أنشأه وتأسس عليه ٠

ولا شىء أفضل من الثقة المتبـادلة بين الأفراد ، سواء فى صفاء بعضهم لبعض ، أو فى تآخيهم ، أو فى تحقيق التعاون بينهم ، أو فى تحابهم وتوادهم ٠

والمؤمن الذى يؤدى مسئوليته التى أؤتمن عليهـا ٠٠ يؤديهـا فى غير مماطلة وفى غير حاجة الى رقابة عليه تتعقبه وتتبع خطواته فى الأداء ٠ لأن أداءه اياها بوحى من ذاته ومن احساسه العميق بالمسئولية والواجب وشعوره بالحرية وهى حرية القبـول والأداء ، وحرية الارتباط والالتزام ٠

والانسان فى احساسه بالمسئولية وشـعوره بحـرية الالتزام ، يبلغ فى مستواه الانسانى مبلغ الذى هو على وعى تام بطبيعته المتميزة التى كرمهـا الله فى خلقها وتصويرها ٠

ومن أجل المدى فى الانسانية الذى يبلغه أداء الأمانة ٠٠٠ كان تعقيب القرآن الكريم على أدائها فى الآيـة السابقة هو : « **ان الله نعمـا يعظكم به ، ان الله كان سميعا بصيرا** » (١) ٠ فامتدح وأكبر ما أوصى به هنا ، وجعل بعـد هذا : أداء الأمانة فى آية أخرى ، صفة لازمة للمؤمن على الحقيقة ، لا يتخلف عنها ، ولا تفارقه ، اذ يقـول تعـالى فى وصف المؤمنين :

« **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** » (٢) ٠٠ والعهد والوفاء به صورة من صور أداء الأمانة ٠

وفى تعبير القرآن هنا ، وقبلا ، عن « الأمانات » بصيغة الجمع يؤيد أنها صور عديدة ، وهى المسئوليات العامة والخاصة ، والتزامات متنوعة يلتزم بها

---

(١) النسـاء : ٥٨ ٠ — (٢) المؤمنون : ٨ ٠

المؤمن طبقا لارادته الحرة ، ولمشيئته الانسانية التى دخل بها الايمـان ، وارتبط بنتائج ايمانه فى علاقاته العديدة مع غيره ·

واذا اختتم القرآن ما طلبه من المؤمنين به هنا من اداء الأمانات ، والقضاء بالعدل بين الناس ، يقول الله جـل شانه : « ان الله كان سميعا بصيرا » (١) ، فلكى يذكر المؤمن بالله بأن الله شهيد على ما ينطق به ان حكم وقضى ، وعـلى ما يأتى به ان عمل وتصرف ·

وتذكير المؤمن بالله بصفة للمولى جل شانه لها ارتبـاط بما يطلب منـه ، كتذكيره هنا بصفتى السمع والبصر لصاحب الأمر والنهى جـل جلاله ··· هو مصدر وعى المؤمن باداء ما يطلب فعله ، أو تـرك ما يطلب تركه منـه ، وهو أيضا : سر الرقابة الذاتية لدى الفرد على سلوكه ، وكذلك سر المسـاواة بين المؤمنين فى أنهم : كلهم راع ، وكلهم مسئول عن رعيته ، دون أن يراقب أحدهم الآخـــر ·

★ ★ ★

١٩ ـ قـوة المؤمنين :

ويسىء المؤمنون فهم صلتهم بالله ان هم اعتقدوا : أن دين الله ـ وهــو الاسلام ـ شىء منفصل عن حياة الانسان وعما يدرر فيها من اتجاه القـوة أو اتجـاه الضعف ، أو عما يطرأ عليها من نصر وهزيمة ، أو ان هم ظنــوا أنـه كافيهم ـ ليكونوا أعـزاء وأقـوياء ـ أن ينتسـبوا الى الاسـلام ، ويرتـلوا الدعـوات سرا وعلانية ، وفرادى وجماعات فى المساجد أو فى الدار ·

دين الله هو سير وفق مبادئه قبل كل شىء · ومبادئه هى قوانين المجتمـع البشرى وقواعد السـلوك الأخـلاقى للانسان · وقوانينـه ترتبط بنتائجها التى لا تتخلف عنها اطلاقا ·

فان رأينا أن هناك انعزالا فى حياة المجتمع وحياة الفرد بين المبـدأ أو القاعدة من جانب والنتيجة المرتقبة لأى منهما من جانب آخر ··· ندرك عـلى الفور أن المبـدأ لم يأخذ طريقه الصحيح فى التطبيق ، أو أن النتيجـة التى وقعت فى مجتمع المؤمنين وفى حيـاتهم تمت تحت اتبـاع مبدأ آخـر قد نهى الاسلام عن اتبـاعه ·

---

(١) النساء : ٥٨ ·

فهناك فى القرآن على سبيل المثال : تحـديد من هو : « الصديق » الذى يجب أن يركن اليه المؤمن ويتخـذ منه وليـا أى صديقا مخلصا فى حياته ، حتى يضمن القوة والعزة لنفسه ولأمته ، ان هو أخذ بـه وسار عليه ، ولا يلومن الا نفسه ان تركه وأصـابه الضعف والتمزق ·

يقول القرآن الكريم :

« **انما وليـكم** ـ (أى متوليكم فى صدق واخلاص) ـ :

الله ،

ورسـوله ،

والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (١)·

ثم يؤكد ـ سبحانه ـ نتائج هذا المبدأ عند حسن التطبيق له ، وهى القوة والعزة والمنعة لا محالة فيما بقوله بعـد ذلك : « **ومن يتـول الله** (أى يجعـله وليـا له) ـ **ورسوله ، والذين آمنوا ، فان حزب الله هم الغالبون** » (٢) ··

والمؤمن حين يجعل الله ورسوله ، والمؤمنين ، أوليـاء له ··· يكون بذلك قد نفـذ تعـاليم الاسلام التى آثارها جميعا فى واقع أمرها الى أداء عبـادتين رئيسيتين : هما اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة فى خشية وطاعة :

فباقامة الصلاة على نحو ما هو مطلوب فيها تصفو النفس ويقوى الميـل الى مشاركة الآخرين فى متـع الحياة وعدم الاستئثار بها ، وكذا الرغبة فى العمل على مساعدتهم ومساندتهم ·

أما ايتاء الزكاة فى رضاء نفسى فهو كفيل بسد الثغرات التى يأتى منهـا الضعف الى المجتمع عادة وهى ثغرات الحاجة ، سواء : فى دفع أذى الجوع والحرمان بسبب العجز عـن الكسب أو ضـيق مجاله ، أو فى رد الاعتبـار البشرى لمن حرم نفسه بسبب بعض العادات والتقاليد التى تحكمت فى المجتمعات البشرية يوما ما ، أو فى تعويض من جارت عليه الأحداث فذهبت بماله ، أو دفعت مروءته الى انفاقه فى سبيل اتقاء فتنة بين المؤمنين ، أو فى سـبيل تقوية أمرهم ضد عـدو متربص بهم ·

---

(١) المائدة : ٥٥ ·   (٢) المائدة : ٥٦ ·

وباتباع المؤمن للمبادىء الاسلامية حقا وصدقا يكون قد اتخذ الله وليا هو ورسوله والمؤمنين العاملين • وبهذا الولاء الذى يكون من المؤمنين للمؤمنين انفسهم على أساس من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ••• تنشأ الرابطة القوية التى لا انفصام لها والتى لها الغلبة والسيادة • وهـذا هو معنى قوله تعـالى : « فان حزب الله هم الغالبون » •

وفى الوقت الذى يحدد فيه القرآن ـ على نحو ما نقرأ فى هذه الآيات ـ من هو الصديق الذى يجب أن يحرص المؤمن على صداقته وعلى الولاء له ؟ : ينهى من طريق آخر وبصفة خاصة عن أن تمتد صداقة المؤمن بعـد ذلك الى من يهزأ بدين الله أو يتخـذه لعبـا ، سواء من كانوا يؤمنـون بكتاب أو يجحدون آيات الله وينكرون وجوده ، على نحو ما يعبر قول الله تعالى :

« يا ايها الذين آمنـوا لا تتخـذوا الذين اتخـذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، والكفار ، أولياء (أى أصدقاء ناصحين) **واتقوا الله ان كنتم مؤمنين » (١) •**

فشأن الذى يهـزأ بدين الله ويسخر منه ، كشأن الذى يلهو ويلعب به • كلاهما لا يحترم القيم الانسانية الكريمة ، ومن بينها اعتبار الانسان وكرامته وآدميته ، اذ دين الله ليس قصصا يعكس آثار الماضين ، بقـدر ما هو مبادىء تعبر عن القيم الرفيعة ، وبقدر ما هو حديث عن نتائج التمسك أو الانفصـال عنها فى حياة الانسان •

وهنا الصديق حقا للمؤمن العامل الذى يجب عليه أن يتولاه ويخلص اليه هو : ذات القيم الرفيعة فى كتاب الله أو فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو فيمن يحصل هذه القيم ومثلها من المؤمنين •

والعدو حقا للمؤمن العامل الذى يجب أن يبتعد بولائه عنه ، هو : عدم اعتبار القيم العليا فى حياة الانسان فى تعاليم تحط من شأنها ، أو فيمن يهزأ أو يلهو بها •

والنجاح والغلبة فى آخـر الأمر لمن يتمسك بها ، والضعف والتردى لمن ينفصل عنها •

★ ★ ★

---

(١) المائدة : ٥٧ •

٢٠ ـ ثبات المؤمنين :

ومن أخص الصفات التى يتمتع بها المؤمنون على سبيل الحقيقة ـ وهم أولياء الله وأحباؤه ـ انه لا خوف عليهم من أعدائهم ومن أنفسهم أيضا ، وأنهم كذلك لا يحزنون لفوات أمر عليهم يرغب غيرهم فى وقوعه :

« الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٠

الذين آمنوا وكانوا يتقون » (١) ٠

لاخوف عليهم من أعـدائهم ، لأن من شأن المؤمنين أن يعـدوا أنفسهم لمواجهة العدو وتحديه : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيـل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخـرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون** » (٢) ٠

وهو اعداد لرهبة العدو الظاهر ، والآخر المختفى وراء النفاق والخداع ، وليس اعدادا للاعتداء والطغيان ٠ « **وان جنحوا للسلم فاجنح لهـــا وتوكل على الله** » (٣) ٠

وطالما الاعداد للقوة المادية والمعنوية ٠٠ موجـودا بالفعـل بين المؤمنين ـ وهذا بشكل خاصة من خواصهم ـ فعدوهم سيتردد حتما فى تحديهم أو فى مواجهتهم بالعداء المسلح ٠ وهنا يكون مصدر الخوف عليهم أو التهـديد به من أعدائهم ، غير قائم ٠

ولا خوف عليهم كذلك من أنفسهم داخـل أمتهم ، لأن مصـــدر الخوف الداخلى هو فى تحكم الأهواء والشهوات واتباع نزوات الشيطان واغرائه ٠ وهم لا يكونون مؤمنين الا اذا كان الله وليهم ، ولم يكن الشيطان وليا لهم ـ كمـا عبرت الآية القرآنية الكريمة ـ ومعنى كون الله وليا للمؤمنين ومعنى كون المؤمنين أولياء لله ، هو أن يكون نهجهم فى سلوكهم نهج كتاب الله ، وهـو نهج التقوى والاستقامة ، « ٠٠٠ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** » (٤) ، كما جـاء فى وصفهم فى نفس الآية :

وليس هناك معنى آخر غير معنى التقوى فى مفوم أولياء الله ٠ اذ ما جاء مترتبا هنا فى هذه الآية على وصفهم بأنهم أولياء الله من : عدم الخوف

---

(١) يونس : ٦٢ ، ٦٣ ٠ (٢) الأنفال : ٦٠ ٠
(٣) الأنفال : ٦١ ٠ (٤) يونس : ٦٣ ٠

عليهم ومن عدم حزنهم ··· جاء نفسه فى آية أخـرى مترتبـا على الوصف بالايمان والاستقامة فى قول الله تعالى : « ان الـــذين قالوا ربنـــا الله ، ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة : الا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون » (١) ·

والتقوى أو الاستقامة ليست أكثر من الايمان بالله واتباع هداية كتابه الكريم :

« الم · ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ·

الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقنـاهم ينفقون · والذين يؤمنون بمـا انزل اليك وما انزل من قبلك ، وبالآخـرة هم يوقنون · أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (٢) ·

فاذا تمكن المؤمنون كافراد من التغلب على هواهم وشهواتهم ·· لم يكن فى داخل مجتمعهم أى مصدر للخوف يقلقهم أو يشتت شملهم ويجعلهم أعداء بعضهم بعضا ، اذ الأحقاد التى تتمكن فى النفوس وتملأ قلوب الأفراد ـ وهى سرطان البشرية ـ ترجع فى الدرجة الأولى الى الأنانية والأثرة · والمؤمن لا يطلب منه نتيجة ايمانه بالله الا تخفيف حدة الأنانيـة فى سلوكه والتـزام جانب الاعتدال فى السعى فى الحياة ، بحيث يترك للآخـــرين مكانهم فيها ، وبحيث ـ لو تيسر له كذلك ـ أن يعين هؤلاء الآخرين على أن يكون سعيهم فى الحياة موفقا وناجحا · وعندئذ يكون على هداية من ربه كما يفلح فى مسعاه: **« ·· أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » ·**

واذا كان شأن المؤمنين عدم الخوف عليهم من أعدائهم وأنفسهم معا ، فان شأنهم يقتضى أيضا عـــدم حزنهم · وليس المقصود بعـــدم حزنهم أنهم يتجردون من الانفعال ، ويسلبون قوة الوجدان التى هى مصدر العواطف المختلفة ·· ليس المقصود ذلك لأنهم بشر ، ولا يخرجون عن بشريتهم اطلاقا ، وانما المقصود : أن أحداث الحياة المادية لا تهزهم فى ايمانهم بالله وبالقيم العليا وبالسلوك الانسانى المهذب ، وانما تمر عليهم وكأنها لا تتصل بهم من قريب أو بعيـــد ، فلا يحزنون اذا مـا ألم بهم نقص فى الأمـوال أو الأنفس والثمرات ، أو اذا أصابهم الجوع والحرمان ، أو اذا حيل بينهم وبين جاه الحياة ومتعها فى وقت من الأوقات ··

---

(١) فصلت : ٣٠ ·   (٢) البقرة : ١ ـ ٥ ·

لا يحزنون لشىء طارىء من ذلك على حياتهم ، لأن غاية هذه الحياة فى نظرهم لم تكن دنيا يصيبونها ؛

فالمال اذا واتاهم كانوا بين الاسراف والتقتير فى انفـاقه ، ورأوا فيه حقا معلوما للسائل والمحروم · والسلطان اذا جاءهم كان للعدل ، ولحماية الضعيف حتى يأخذ حقه · والقوة ان وجدت لديهم كانت للمتكين من الخير ، وليست للطغيان والاعتداء · والأولاد ان قدموا لهم لم يكونوا فتنة ، وانمـا للاسهام فى صالح الأعمال ·

غاية الحياة لديهم أن يلقوا ربهم وقد حققوا ما طلبه الايمان منهم فى محيط أنفسهم وأمتهم من القيم العليـا ، وفى مقدمتهـا العدل والاحسان · وتحقيق هذه القيم يأتى فى المرتبة الأولى عن طريق عدم الالحاح فى متع الحياة وزينتها وعدم اللجاج فى الخصومة والنزاع فى سبيلها ·

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، نوف اليهم اعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون ·

أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (١) ·

وهم يريدون أن يبقوا أولياء الله وليسوا أولياء الشيطان ··· هم يريدون أن يبقوا مطمئنين ·

★ ★ ★

٢١ ــ عدم غواية المؤمنين :

وليس هناك مرض اجتماعى أقسى على المجتمع وأشد فتكا به من قبول الأفراد للاغراء وانجذابهم نحو بريق الفتنة ·

الاغراء فى ذاته ليس داء ، لأنه جزء من طبيعة الحياة التى نعيشها ·· لأنه قوام متع الدنيا وزينتها ، فهو موجود قطعا فى كل وقت ، وعلى طول حياة الانسان ، ولكن التأثر به والاستجابة اليه هو ذات الداء · وقد يبلغ مستوى يعز معه العلاج ، وهو مستوى اليسر فى الانجذاب اليه والخضوع له وانحلال الشخصية بسببه ·

---

(١) هود : ١٥ ، ١٦ ·

للمـــال اغراء ، وللمرأة اغراء ، وللأولاد اغراء ، وللجـــاه اغراء ، وللسلطة اغراء · وكلها مصدر فتنة يفتتن بها الانسان ويقع تحت تاثيرها · فاذا انتشر الافتتان بها وهن تماسك المجتمع وتفككت روابطه ، كما تضعف مقاومة الفرد وتسقط فى نظره قيم الانسان وقيم مجتمعه ، ويسهل عندئذ توجيه الأفراد الى ما يراد لهم من عدوهم ، بدلا ممـــا يريدونه هم لأنفسهم أو تريده أمتهم ومجتمعهم منهم ·

ولا يمكن اذن منع الطبيعة البشرية فى الفرد من التاثر على الاطـلاق بالمال ، والمرأة ، والولد ، والجاه ، والسلطة ·· وغير ذلك من زينة الدنيـا ومتعها ، ولكن الذى يمكن فعله هو وقف طبيعة الانسان فى الفرد ـ ثم بالتالى فى المجتمع ـ من الاندفاع فى التاثر بها عن طريق الارادة الفردية · وهى تلك الارادة التى يجب أن تأخذ مكانها فى العناية فى التوجيه والتربية ·

وتكاد تكون رسالة الاسلام دائرة بين مصدر الاغراء والفتنة فى حياة الانسان وطريق الحيلولة دون الاندفاع فى التاثر به ·

تصف رسالة الاسلام مصدر الاغراء وآثار هذا الاغراء على النفس الفردية وتحذر من عواقبها ونتائجها السيئة بالنسبة للانسان وجماعته ·

وتحدد طريق الارادة الانسانية نحو قوتها فى ذاتها ، وبالتالى نحو الوقوف فى وجه الاغراء وتحدى صوره البراقة ·

فالقرآن الكريم اذ يجعل مصدر الاغراء ما يسميه بـ « الشيطان » يجعل طريق الارادة القوية الايمان بالله واتباع هدايته ، ويقص حوارا جاء على لسان الشيطان توضيحا لفتنة الدنيا وأعراضها من جانب ، والوقوف فى وجهة من اجل ضمان القيم الانسانية فى المجتمع البشرى من جانب آخر :

« **واذ قلنا** (والخطاب من الله تعالى) **للملائكة :**

اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس قال : أأسجد لمن خلقت طينا ·

قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن (أى لاستأصلنهم جميعاء بالاغراء) **ذريته الا قليلا ·**

قال : اذهب ، فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا · واستفزز (أى استخفف) **من استطعت منهم :**

بصوتك ، واجلب عليهم بخيلك ورجلك ،

وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا

ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا » (١) ٠٠

فهذا الحوار يصور مدى فتنة الدنيا وهى : المال ، والمرأة ، والولد ، والجاه ، والسلطان ، وآثارها على جذب النفوس ووقوعها فى الكثير الغالب تحت تأثيرها ، وذلك بالتحدى على لسان الشيطان لله جل جلاله ٠ كما يعرض قوة المؤمنين فى وقوفهم فى وجه هذا الاغراء المثير الذى لو ترك فى مواجهة الطبيعة البشرية وحدها منعزلة عن الايمان بالله والتوكل عليه لساد عليها واذهب كل حدود الشخصية فيها ٠

ولكى يوضح القرآن آثار الاغراء على الانسان ومجتمعه ، وآثار التحدى لهذا الاغراء على الانسان ومجتمعه أيضا عبر بقوله :

« الله ولى الذين آمنوا ،

يخرجهم من الظلمات الى النور ،

والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » (٢) ٠

فمن خلص نفسه من الغواية والوقوع كلية تحت تأثير الاغراء كمن خرج من ظلمة الى نور ٠ ومن أضلة الشيطان واتبع شهواته وهواه فى سلوكه وعلاقاته بالآخرين لا يرى معالم الطريق الصحيح فى الحياة ، وهو كمن خرج من نور الى ظلمة ٠ لأنه قبل أن يقع تحت تأثير الاغراء كان له من فطرته الانسانية الخالصة ثم من هداية الله ما يمكنه من السير فى طريق لا اعوجاج فيه ٠

★ ★ ★

٢٢ ـ المؤمنون عند تخاصمهم :

والمؤمنون جميعا بعضهم أولياء بعض ٠ وهم اخوة فى كل مكان : لا تفرق بينهم لغة أو جنس ، أو لون ، ولا تفصل بينهم جبال ، وأنهار ،

---

(١) الاسراء : ٦١ ـ ٦٥ ٠ (٢) البقرة : ٢٥٧ ٠

ولا صحارى وبحار • فيرتبطون برباط واحد هو : رباط الايمان بالله وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم : يحكمونه فيما شجر بينهم من خلاف : « **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله** » (١) • ويرجعون اليه اذا تنازعوا فى الرأى بينهم : « **فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** » (٢) •

هذا شأنهم ، حسب كتاب الله بينهم • ونصيحة المؤمن واجبه • والمؤمن مرآة أخيه ، لا يرائى ولا ينافق •

فاذا وقع تخاصم أو تقاتل بين مجموعتين منهم وجب على المسلمين جميعا أن يتدخلوا ويحسموا النزاع بين المتخاصمين أو المتقاتلين ، ويعيدوا بينهم السلم والوئام ، على نحو ما تطلب هذه الآية الكريمة :

« **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** » (٣) ••

فطلب الصلح اتجه به القرآن الكريم الى جميع المؤمنين ، وليس الى فريق خاص من بينهم •

فاذا تجاوزت احدى الطائفتين حدود ما اتفقوا عليه ، أو اذا لم تصغ الى نداء السلام ، وباشرت العدوان على الطائفة الأخرى ••• كان واجب المسلمين فورا وبدون استثناء : أن يقاتلوا تلك الطائفة المعتدية لأنها باغية عندئذ حتى تعود الى أمر الله ، وهو وضع الأخوة بين المؤمنين موضع الشقاق والتخاصم وذلك هو قول الله تعالى : « **فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله** » (٣) •

فاذا عادت الى تغليب جانب الأخوة بين المؤمنين وتركت نزعة الهجوم والعدوان على اخوان لها فى الايمان بالله وجب على المؤمنين جميعا كذلك أن يضعوا شروط الصلح بين المتخاصمين ، على أن يراعوا فيها تحقيق العدل فى أدق مقاييسه ، لأن ذلك هو ما يطلبه الله جل شأنه ويرضاه ، ولأنه كذلك صلح بين أطراف هم متساوون فى الأخوة ، فى الايمان ، وهذا ما يشير اليه قول القرآن الكريم :

« **فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين** •

---

(١) الشورى : ١٠ •　　(٢) النساء : ٥٩ •
(٣) الحجرات : ٩ •

انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (١) ·

فتـدخل المؤمنون فى فض النزاعات الاقليمية واعادة المحبـة والوئام بين المتنازعين داخل الامة الاسلامية ··· هو طريق الايمان وهو ما يفرضـه القرآن · لأن شئون أية جماعة من المؤمنين هى شئون بقية المؤمنين فى الأمة ، مهما كانت أبعاد فى المسـافات أو اختلاف فى اللغات أو تقـابل فى الالوان وأصول الشعوب · فالمؤمنون بين أنفسهم لا يعرفون مبدأ : التدخل فى شئون الغير ، فليس فيهم أجنبى عن الآخر ·

ولكن تدخل الغير – وهو عدوهم – فى شئون المؤمنين غير من نظـرة بعضهم الى بعض ، ونقل ولاء بعضهم لبعض اليه هو نفسه · وبذلك أصبحوا أغيارا لأنفسهم ، وآمنوا بما فرضه هذا الغير عليهم الذى تدخل فى شـئونهم من نظرة ومن سلوك تجاه بعضهم البعض · ووضعت الحواجز والفواصـل والحدود داخل الأمة الاسـلامية ، سواء : أكانت جغـرافية ، أم لغوية ، أم شعوبية ، بل ومذهبية وطائفيـة · وبذلك انقسمت الى دول سياسـيـة : لها استقلالها الذاتى ، والسياسى ، واعتنق كل منها ازاء الأخرى مبدأ : « عـدم التدخل فى الشئون الداخلية » · ومبدأ : « الانفصالية » ·

وبذلك نجح أعداء المؤمنين فى حملهم على ترك أهم ما يأمر به دينهم فى ترابطهم مـن ولاء المؤمن للمؤمن ، ومعاضدة المؤمن للمـؤمن ، وتواد المؤمن للمؤمن ونجح هؤلاء الأعداء أكثر فى نقل ولاء المؤمنين اليهم أنفسهم دون بعضهم بعضا ، حتى ولو كان هؤلاء الأعداء ممن يحادون الله ورسوله ، الأمر الذى لا يراه القرآن الكريم اطلاقا متفقا مع الوصف بالايمان ، عندما يقول :

« **لا تجـد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ···** » (٢) الى آخر درجات القرابة فى الأسرة ، ونهى عن ذلك نهيا قاطعا ، اذ يقول : « **لا يتخـذ المؤمنون الكافرين أوليـاء من دون المؤمنين ، ومن يفعـل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقـاة** » (٣) ·

وبمبـدأ : « الانفصـالية » وكذا بمبدأ : « عـدم التدخل فى الشـئون الداخلية » بعـد توكيد الاستقلال الذاتى والسياسى لكل مجموعة من مجموعات

---

(١) الحجرات : ٩ ، ١٠ · (٢) المجـادلة : ٢٢ ·
(٣) آل عمران : ٢٨ ·

المؤمنين ·· كثرت مشاكلهم وتعقدت سبل الحياة بينهم ، وصعب عليهم حتى الاحتفاظ باستقلالهم الذاتى والسياسى الا فى ظل علاقة مع من يود عنتهم ، وما تخفى صدورهم أكبر ·

··· أصبح المؤمنون ضعفاء بهذا التمزق أو بهذا الاستقلال القائم على عدم التدخل فى الشئون الداخلية للغير ، وأصبح المؤمن يرى أخاه المؤمن يقتل أو يعذب على يد عدو للمؤمنين جميعا ، فلا يحرك ساكنا ، بل أصبح المؤمن يقتل أخاه المؤمن وهو اما أن يزيد حدة القتال بينهما ، أو يقف ليتفرج على الغالب ويصيح بالسخرية والاستهزاء من المغلوب منهما ·

··· أصبح للمؤمنين مشاكل اقتصادية ، ومشاكل سكانية ، ومشاكل سياسية ، ومشاكل دفاعية ، وحلولها جميعا فى ازالة الحدود والفواصل بين المؤمنين فى الأمة الاسلامية · وليس فى استطاعة أية دولة من دول هذه الأمة أن تحل جميع مشاكلها بمفردها وبجهد أبنائها المحليين وحدهم ·

هل يعود المؤمنون الى الشعور بالأخوة بينهم والى الولاء بعضهم لبعض ، والى التضامن والتشاور والنصح فيما يواجههم من مشاكل ؟

هل يعرفون أن غيرهم من أعدائهم هم الذين فرضوا عليهم مبدأ الانفصالية وحسنوا اليهم الاستقلال على أساس : اقليمى ، أو قبلى ، أو مذهبى ، أو لغوى ، أو شعوبى ، انتقاما منهم وحرصا على بقائهم ضعفاء ، واستفادة مما لديهم من ثروات وطاقات ؟

هل يرون فى القرآن نظام حياة يكفل لهم الأمن والاستقرار ، كما يكفل لهم العزة والمنعة ؟

★ ★ ★

الفصـــل الثانى

سياسة الحــكم الداخلية

(١) فى الأصول العامة :

١ ـ الاسلام دعوة الى الحق ، وسياسة فى شئون الحكم :

ان الاسلام دعوة الى الحــق ، وهو ما جــاء به القرآن الكريم خاصا بهداية الناس وبطلب الايمان بما أنزل فيه من تحديد للصراط المستقيم ··

وهو فى جانب الدعوة الى الحق لا يجعل للمؤمنين ولاية على قــوم ·· ويمنعهم من أن يمارسوا ضغطا أو اكراها فى أيــة صورة من صور الضغط والاكــراه للايمان والاسلام ··

« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئــكم بما كنتم تعملون » (١) ·

·· فالآية توجه نظــر المؤمنين الى الاهتمــام بأنفسهم ، وفى مقدمتها التمسك بالايمان ، وطالما هم يسلكون الطريق السوى ـ وهو طريق الهداية ـ لا يضرهم اطلاقا أن يضل غيرهم وينحرف عن هذا الطريق · والآية اذ تنطــق بهــذا التوجيه تتضمن توجيها آخر وهو : أن لا شأن للمؤمنين اطلاقا بأمر غيرهم من ضلالة أو هداية ، وليس لهم أى سبيل أو أى مبرر يدفعهم أو يبيح لهم أن يبــاشروا صورة من صور الضغط أو الاكراه من قريب أو بعيد لحمــل غيرهم على اتبــاع سياستهم ، وهو سبيل الايمان بالله ··

وآيات أخرى كثيرة فى القرآن تؤيد هذا التوجيه مثل قوله :

« وكذب به قومك وهو الحق ،

---

(١) المائدة : ١٠٥ ·

قل : لست عليكم بوكيل » (١) ٠

٠٠٠ وقـوله :

« ليس عليك هداهم ٠٠

ولكن الله يهدى من يشاء » (٢) ٠

٠٠٠ وقوله :

« انك لا تهـدى من احببت ، ولكن الله يهـدى من يشـاء ، وهـو اعلم بالمهتـدين » (٣) ٠

٠٠ وبمثل هذه الآيات يجعل القرآن مسالة « الهداية والكفر » شانا من شئون الله وحده ، ويرفع بذلك يد الرسول عليه السلام وصحابته والمؤمنين من بعـده عن مجال الايمان ، عدا الدعوة اليه بالحسنى : **« ادع الى سـبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن ، ان ربك هو اعـلم بمن ضل عن سبيله ، وهو اعلم بالمهتدين » (٤) ٠**

ولكن مع كون الاسلام دعوة الى الحق ، بعيدا عن الاكراه عليـه فـانه سياسة أيضا وتوجيه فى شئون الحكم للمسلمين ٠٠ هو سياسة وتدبير لشئون المجتمع الاسلامى ٠ وهو تحديد للأصول العـامة التى يجب أن يكون منهـاج حكم الامة الاسلامية قائما عليها فى مجالات العلاقات والروابط التى تشـد المؤمنين بعضهم الى بعض والتى تقيهم سوء أنفسهم واعتداء غيرهم عليهم ٠٠

واذا كانت الظاهرة التى يتميز بها جانب الدعـوة الى الحق فى القرآن ـ أسلوبا وتوجيها ـ هى عدم اللجوء الى الاكراه على الايمـان ، فضلا عن المواجهة بالقتـال للحمل عليه ٠٠ فان الظاهرة الأخرى التى تتميز بها « سياسة الحكم » للأمة الاسلامية ، فى أسلوب القرآن وتوجيهه هى الدعوة الى « رقابة » المجتمع الاسلامى « وحمايته » مما يضعف أمره ويفك الروابط فيه بين المؤمنين ٠٠ أو من اعتداء يوجه اليه من خارجه ٠٠ ولو استلزم الوضع استخدام القوة والالتجاء الى الحرب للمحافظة على المجتمع ووقايته ٠

اذ فى نظر الاسلام : أن المجتمع الاسلامى قام على أساس من « الارادة الحرة » المطلقة ، وهى التى تتمثل فى « المشيئة » التى قبـل بها الايمان بالله

---

(١) الأنعـام : ٦٦ ٠
(٢) البقرة : ٢٧٢ ٠
(٣) القصص : ٥٦ ٠
(٤) النحل : ١٢٥ ٠

استجابة لدعوة الرسول عليه السلام ٠٠ ولذا : ليس من واجب المؤمنين الأحرار فقط : الدفاع عن مجتمعهم ، وانما واجبهم : «الحق » كذلك أن يدافع عنه وواجب « الارادة الحرة » أن يحافظ عليها فى المجتمع البشرى عامة ٠٠ لأنها رمز الانسانية ومظهر الكرامة التى يتميز بها الانسان ٠

وتبعا لهذا : أعطى الاسلام للمؤمنين حق « الحماية » و « الوقاية » للمجتمع من الضعف الداخلى ، و « حق » رد الاعتداء من الخارج عليه من أعدائه ٠٠ يقول القرآن الكريم : فى توضيح هذا « الحق » للمؤمنين :

« ستجدون آخرين ٠٠

يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كل ما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها ، فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » (١) ٠

٠٠٠ فالآية هذه قد نزلت مع آيات أخرى بعد موقعة « أحد » والهزيمة التى منى بها المسلمون فيها ــ تشير الى أن هناك داخل مجتمع المؤمنين لم يزل فريق آخر من المنافقين ، بجانب الفريق الأول الذى ذكرته آية سابقة : تقول فى وصفه : « **ودوا لو تكفرون ، كما كفروا ، فتكونون سواء** » (٢) ٠٠ وتصف هذه الآية هذا الفريق الآخر بأنه :

(أ) يحاول كسب ثقة المؤمنين ، بجانب ثقته بقومه ٠٠

« يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ٠٠ »

(ب) وانه كلما تتاح له الفرصة « للعب على الحبلين » يسقط فيها ويستسلم اليها ٠٠

« كل ما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها ٠٠ »

والقرآن بهذه الآية وبتلك يحاول أن يبين نقاط الضعف فى هزيمة المجتمع الاسلامى ودور المنافقين فيه ، وهم الأعداء المستترون ، كما يحاول أن يعطى الرأى لمعالجة هذا الضعف ٠٠

٠٠ وهذا الفريق من أجل صفاته هذه أدخل فى الخيانة ، وأكثر خطرا

---

(١) النساء : ٩١ ٠ (٢) النساء : ٨٩ ٠

على المؤمنين · ولهذا يشير القرآن على المؤمنين هنا بأن يعاملوهم معاملة « أعداء مكشوفين » ولا يحتفظ بهم داخل المجتمع ··

« فان لم يعتزلوكم ·· ويلقوا اليكم السلم ·· ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم » (١) ·

واذ يشير القرآن على المؤمنين بهذه المشورة ، وهى وقف خطر هذا الفريق من المنافقين ·· فانه فى الوقت نفسه يعطى المؤمنين « الحق » فى وقاية أنفسهم من خطرهم عن طريق قتالهم ، اذا لم ينسحبوا من داخل المجتمع ، ويلقوا اليهم الأمان ، ويكفوا أيديهم عن الاساءة اليهم ··

« وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » (١) ·

وحق القتال لم يعطه القرآن اطلاقا للرسول عليه السلام فى شأن دعوته الى الحق ·· لا عن طريق مباشر ، أو غير مباشر · ولكنه هنا صراحة يدل دلالة واضحة على أن القرآن :

كما هو نداء الى الايمان بالله ··

هو كذلك توجيه للمسلمين فى شئونهم كجماعة وأمة ·· قيض لها أن تقوم ، ووجب عليها أن تبقى ··

فهو دين ، ودولة ·

أو بالأحرى ، هو منهج حياة للمؤمن فى شأنه الخاص ·· والعام على السواء ··

★ ★ ★

ـ طاعة كتاب الله ، دون طوائف الناس :

وثلاثة عوامل رئيسية توجب على الرسول الحاكم (عليه السلام) أن يطيع فى حكمه كتاب الله وقرآنه ، دون طوائف الناس مهما بلغت كثرتهم ·

العامل الأول : أن القرآن جاء مفصلا واضحا فى تعبيره عن مبادىء الحكم : سواء بين المؤمنين ، أو بين الناس جميعا ، وأن الوحى به حق ، يعلمه اولئكم السابقون على الاسلام من أهل الكتاب ، كما يعلمه الذين آمنوا

---

(١) النساء : ٩١ ·

به من أمة الرسول عليه السلام ·· ففوق أنه واضح فى التعبير عن مبادئه ، هو حق كذلك فى معرفة الناس وعلمهم اياه ·· فيمن أنزل عليهم كتــاب الله من قبــل ·

« افغير الله أبتغى حكما ؟ ،

وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمــون أنه منزل من ربك ،

بالحــق ،

فلا تكونن من الممترين » (١) ·

·· فهذه الآية تشير الى أنه من غير الطبيعى ومن غير المعقول كذلك : أن يلجــأ الحاكم الى غير الله فى كتابه فى الحــكم بين الناس ·· لما هو حق فى اعتقاد من يؤمنون برسالة الله عامة · ثم بسبب وضوحه ، وعدم لبس ما جاء فيه من أوامر ونواهى : يؤسس عليها حكم سليم ··

والعامل الثانى : أن جميع جزئياته وكلماته هى صــدق فيما تحتوى عليه من معنى ، وفيما تدل عليه أيضا من مفهوم ، كما أن جميع أوامره ونواهيه تصور العدل فى ذاته على ممر العهود والأجيال ·· ومن أجل ذلك : لا تبــدل كلماته ·· ولا يبدل ما عبرت عنه من مبادىء :

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ··

لا مبدل لكلماته ·· وهو السميع العــليم » (٢) ·

العامل الثالث : أن أكثر الناس فى طوائفهم العــديدة قد يبتعــدون عن كتاب الله، ويركنــون الى « الظن » ، فى تصوراتهم ·· وفى أحكامهم وفى مشــورتهم · وهم فى حقيقة أمرهم يلجــأون الى الكذب لتغطيــة أغراضهم وغاياتهم · اذ الذى يبتعــد عن كتاب الله فى صــدق كلماته ·· وعدل مبادئه ، يبتعــد عن الصدق والعدل · واذن البــديل عنده الكذب فى موضع الصــدق ، والظن فى موضع العــدل ·

« وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ،

ان يتبعون الا الظن ·· وان هم الا يخرصون » (٣) ·

---

(١) الأنعام : ١١٤ · (٢) الأنعام : ١١٥ ·
(٣) الأنعام : ١١٦ ·

·· فمن جانب ، هنــاك : حق ، وصــدق ، وعــدل ثابت ، وهو ما فى كتاب الله ·· ومن جـانب آخر : هنــاك ظن ، وكذب ، وهو ما يتبعــه اكثر الناس ·· والعبرة اذن بالنوع وليست بالكم ·· العبرة بما ينطوى على الحق ، والصدق ، والعدل فى ذاته ، وليست بما ينطوى عليه العدد وهو ضــد : الحق ، والعدل ، والصدق ··

وليس هناك خيار اذن فى اتبــاع كتاب الله ، دون ما عليــه الناس ان أريد تجنب الضلال والتخبط فى القيادة والحــكم بين الناس ··

والقرآن اذ يحدد هنا مصدر الحكم بكتاب الله ، دون الكثرة من الناس ، يشير الى قضية التطور فى المجتمع الانسانى ·· فأى مجتمع انسانى يقــوم على جملة من المبادىء معينة تمثلها دعــوة ينتسب اليها المجتمع فى قيــامه وخصائصه ، يكون فى واقع أمره موزعا بين قلة وكثرة ··

قلة تعى الايمان ، وتعى مبادىء الدعوة ·· وتحرص على ازدهار هــذه المبادىء لذات المبادىء ··

وكثرة تتبع فى الايمان بحماس ، وتحرص على الانتفاع بهذا الايمان الجديد ، على تحقيق المصالح عن طريقه ··

ويتجلى هذا التوزيع فى مجتمع المسلمين على عهد رسول الله عليــه السلام فى واقعة « حنين » فى الطريق من مكة الى الطائف · ففى لقاء المسلمين قادمين من مكة ــ وعددهم يقرب من العشرة آلاف ــ برجال هوازن وثقيف من الطائف ــ وعــددهم قرابة أربعــة آلاف ــ فى « حنين » كان سبب الهزيمــة للمسلمين فى أول الأمر هــو حماس الكثرة منهم للقتــال ·· دون وعيهم بحق يدافعــون عنه ، ودون ايمان منهم ايمانا قويا برسالتهم ·· فقتل منهم ، ورجــع فى فوضى : عدد كبير منهم أيضا فى الطريق الى مكة ··

ولم ينقــذ المسلمين أخيرا سوى القلة منهم التى تجمعت حول الرسول عليه السلام : فى حكمــة ، وتؤدة ، وايمان ثابت فى رد كفــار هوازن وثقيف على أعقابهم · وبذلك تم نصر الله للمؤمنين · كما تحكيه سورة التوبة فى قول الله تعــالى :

« **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ··**

ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغــن عنكم شيئا ·· وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ··

ثم انـزل الله سـكينته على رسـوله ، وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها ··

وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ·· » (١) ·

·· فوصف القرآن الكريم هنا القلة : من الرسول عليه السلام ، ومن بقى معه فى هذه الواقعــة : بالمؤمنين وجعل من ايمانهم وسكونهم واطمئنانهم للحق الذى يدافعون عنه ·· سببا فى نصرهم من جانب ، وتعذيب أعدائهم من جانب آخر ··

ولذا أمر القرآن هنا بأن يتبــع الحاكم كتاب الله ، دون الكثرة من الناس ·· لأن كتاب الله باق لا يتغير ·· فيما يصوره من حق ·· وعدل ·· وصدق ·· بينما الكثرة تتغير تبعا للحماس وانفعــال العاطفة ·· مما يجعلها تحيد عن الجادة السليمة ، وتخلط بين الهوى والحق ·· والكذب والصدق ··

★ ★ ★

٣ ـ الرسول الحاكم يؤثر رسالة الله والجهاد فى سبيله على الأهل والمال :

وان أى مجتمع انسانى انما يقوم من أجل مبادىء معينة ، ويبقى طالما يرعى أفراده هــذه المبادىء · ولا يمـكن للأفــراد أن يرعوا مبادىء مجتمعهم ويعملوا على تحقيقها الا اذا آمنوا بها فى حرية ، وفى غير ضغط ، وفى اكراه عليهــا ·

هذه سنة أولية فى قيام المجتمعــات وبقائها · وتلك سـنة أخرى فى انهيارها وهى : ظهور الأنانية ، والمغالبة من أجل الذات فيها ·

ولكن قد يتعرض الأفراد أنفسهم ـ بعد قيام المجتمع ـ الى صراع ذاتى يدور بين الحرص على مبادىء المجتمع والوقوف بجانبها من ناحية ، والميــل الى ما تدفع اليه بعض العواطف الانسانية أو بعض الغرائز فى الانسان مــن ناحية أخرى · وهذا الصراع الذاتى فى حقيقــة الأمر هو صراع موجود فى مراحل حياة الانسان كلها ·

والشىء الذى قد يخفى وجوده فى مرحلة ، أو يبرزه فى مرحلة أخــرى هو درجة الوجود للصراع فى نفس الفرد · وهى درجة تختلف من فرد الى آخر

---

(١) التوبة : ٢٥ ، ٢٦ ·

تبعـا لمستوى التبعية أو الخضوع لهذا الجانب او ذاك : جانب الوقوف فى صف المبادىء ، وجانب الميل الى العاطفة أو الغريزة ٠

ومن أجل هذا الوجود المستمر للصراع الذاتى فى الفرد فى المجتمـع كان من وظيفة الحاكم أو الولى العام أو المسئول الأول فيه : أن يوقظ فى الأفراد جانب : الجماعة والحرص على مبادئها ، سواء بالقدوة الحسنة له ، أو بتوضيح ما يتهدد الأمة ، ان غلب على أفرادها الميل الى العاطفة والنزوع الى الغريزة ، وبالأخص : العاطفة نحو الأسرة والأهل ، والنزوع الى غريزة الملك والاقتناء ٠ وهو تهديد لا يبقى على المجتمـع نفسه ، وبالتالى يقضى على جميـع أفراده كأصحاب مبادىء معينة ٠

والرسول الحاكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يطلب اليه القرآن الكريم أن ينذر أمته بانتهاء مجتمعهـا وقوتها وعزتهـا ، ان هى آثرت أعـداء رسـالة المجتمع ، لأنهم فقط أفراد أسرة ، ولهم قرابة العشيرة والقبيـلة ، أو ان هى آثرت بالمحبة أيضا المال واكتنازه ، والتجـارة وربحهـا ، أو آثرت الاستقرار فى السكنى والراحة فيها ، على مبادىء الرسالة والدفاع عنها ، والجهاد فى سبيل الله ٠ يقول القرآن الكريم :

« قـل :

ان كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، واخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ،

وأموال اقترفتموها ،

وتجارة تخشون كسادها ،

ومسـاكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سـبيله ٠٠ فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » (١) ٠

٠٠٠ فايثار المؤمنين لأعداء الايمان بالمحبة لقرابتهم ،

★ وايثارهم للمال وكنزه ،

★ وايثارهم التجارة فى ضمان ربحها وعدم خسرانها ،

★ وايثارهم الراحة فى السكنى والاستقرار فيها ، عـلى مشقة الجهاد فى سبيل المبادىء العليا ، والتضحية فيه بالمال أو النفس ، وعلى محبة الله

---

(١) التـوبة : ٢٤ ٠

ورسوله ‥ هو عودة بالمجتمع صاحب المبادىء الانسانيةُ الرفيعة الى مجتمع الأهواء والأغراض الشخصية ‥ هو عودة بالانسان الذى ارتفع فوق هواه ونفسه الأمارة بالسوء الى انسان يمعن فى حب الذات ، ومن أجل ذلك يحرص على المال وكنزه ، وعلى التجارة وربحها ، وعلى الأقرباء وعصبيتهم ، وعلى الاستمتاع بالاستقرار ، والخلود الى الراحة فى السكنى ، وعلى عدم التضحية بمال ، فضلا عن التضحية بالنفس ، فى سبيل المبدأ والرسالة ٠

ومجتمع الانانية لابد أن يتقوض ، لأنه ليس هناك من رابط يمسك به ٠ ولابد أن يتغير ، لأن الأنانيين فى أهدافهم وفى سلوكهم لا يجلبون على انفسهم الا التمزق والمغالبة من أجل الذات والفردية ٠

وبذلك يصبحون افرادا ، ليست بينهم أواصر تقرب بعضهم الى بعض ، سوى رابطة الفرقة والتناحر ٠ والمجتمع انمـــا يقوم بالتآلف ، ويبقى بالتماسك بين أفراده ٠

وهنا يتضح شأن ذلك النذير الذى ورد هنا فى التحذير : « **فتربصـــوا ، حتى يأتى الله بأمره** » الذى رتبه القرآن الكريم ، عندما يؤثر المؤمنون عـــلاقة القربى وعصبية الدم ، والمال والحرص عليه ، والتجارة وعدم الخسران فيها ، والسكنى والراحة بهـــا : على التضحية والجهاد فى سبيل الله ورسوله ٠ وهو جهاد فى سبيل المبادىء العليا ، والقيم الرفيعة ٠

والأمر دائما فى شأن المجتمع يدور بين وضعين ، لا ثالث لهما :

★ اما بقاء المجتمع ، مع التضحية فى سبيل مبادئه ،

★ واما أنانية ، ومغالبة فى سبيل الحصول على القوة المادية الفردية والمتع المادية ، ومن ثم لا يكون هناك مجتمع ٠ بل افراد منثورون ، لا يلتئم صفهم ولا تهدأ المغالبة بينهم ، وهم أضعف من أن يقاوموا غيرهم اذا اعتدى عليهم ٠

ولكى يبقى المجتمع سليما ومتماسكا ، يجب أن يكون الشعار الـــذى يعلنه ولى الأمر فيه ، والمؤمنون معه ، هو :

ايثـــار الله ، على الأهل والأموال ٠

ثم اذا عقبت الآية التى أوردت هـذا التوجيـه فى سياسة الحـكم ، يقول الله تعالى :

« والله لا يهدى القوم الفاسقين » (١) ٠٠

٠٠ فلكى تبين : أن أعداء الايمان بالله لا يرجعون عن غيهم وضلالهم الى الاستقامة واتبـاع السـبيل السـوى ، طالما كفـروا بالله وأعلنوا تحـديهم لرسالته ٠ ومن ثم فهم ليسوا موضع أمل ـ مهما كانت لهم علاقة قربى ـ فى أن تكون معاملتهم معاملة انسانية كريمة لأنفسهم ، ولمن عداهم ٠ وعنـدئذ : ايثـارهم بالمحبة على رسالة الله والجهاد فى سبيلها ليس ضد المجتمع ذاتـه فحسب ، بل ينم عن عدم الحكمة فيمن يؤثرهم بمحبته من المؤمنين ٠

والمجتمعات اذن فى سياستها لا تخضع الى الأهواء ، بل تستند أولا وأخيرا الى الاحتكام الى المبادىء والمحافظة عليها وايثارها على ما دونها : **« يا أيها الذين آمنـوا لا تتخـذوا آباءكم ، واخوانكم أوليـاء ، ان استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » (٢) ٠**

★ ★ ★

٤ ـ الرسول الحاكم يوجه المؤمنين ، الى عبادة الله ، والسعى فى سـبيل الحيـاة :

ويدعو القرآن الكريم ـ على لسان رسـول الله صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين الى السعى الى ذكر الله فى بيوت الله ، اذا نودى للصلاة من يـوم الجمعة ، وأن يتركوا التجارة أو ما يباشرونه من عمل ـ أى عمـل ـ وقت النداء ، حتى الانتهاء من الصلاة ٠

ثم يدعوهم مرة ثانية الى التفرق بعد أداء الصلاة ، الى استئناف العمل من أجل الرزق وشئون الحيـاة ، على أن يصـحبوا فى مباشرتهم للعمـل ذكر الله ٠ اذ ذلك أدعى الى استقامة العمل من جانب ، والى النجاح فيـه من جانب آخـر :

١ ـ « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسـعوا الى ذكر الله ، وذروا البيـع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ٠

---

(١) التوبة : ٢٤ ٠ (٢) التـوبة : ٢٣ ٠

٢ ـ فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغـوا من فضل الله ، واذكـروا الله كثيرا لعـلكم تفلحون » (١) ٠

وربط العمل بالتجارة فى الآيـة الأولى فى قـوله : « **وذروا البيـع** » وبتحصيل الرزق فى الآية الثانية فى قوله : « **وابتغـوا من فضل الله** » يقصد به جميع ضروب العمل وأنواعه فى مجالات الاقتصاد ، أو السياسة ، أو الثقافة ، أو الرعاية الاجتماعية ، أو الصحة ، أو الخدمات العامة فى أيـة صورة منها : اذ مباشرة العمل فى هذه المجالات جميعها هى مباشرة فى سبيل تحصيل الرزق ، وتركها وقت النداء الى صلاة الجمعة هى استجابة الى التفرغ للاجتماع من أجل الصلاة وعبادة الله ٠

والمؤمنون الذين يطلب اليهم ترك العمل لأداء صلاة الجمعة هم المؤمنون أنفسهم الذين يطلب اليهم التوجه الى مباشرة العمل بعد الانتهاء منهـا ٠ أى ليس المؤمنون فريقين : فريقا يباشر العبادة داخـل المسجد ؛ وفريقـا آخـر يباشر العمل خارجه ٠٠ أى ليس هناك من يعبـد الله دون أن يبـاشر عمـلا عدا العبادة ، كما ليس هناك من يباشر العمل دون أن يعبد الله ٠ والمؤمن فى ذاته كذلك ليس موزعا بين العبادة والعمل ٠ على معنى أن عبـادته ليست منعـزلة عن عمله ، وعمله ليس منعزلا عن عبادته ٠

ويستوى عمل المؤمن خارج المسجد فى أى مجال من مجالات الحيـاة يكون ٠٠ يسـتوى أن يعمل بمصـنع أو بمزرعة ، أن يعمـل فى التربيـة والتوجيه ، أو فى شئون الصحة والخدمات العامة ، أو فى شئون السياسة والدولة ، أو فى ادارة الحكم ٠ ويستوى مع غيره داخل المسجد فى التوجيـه الى الله وعبادته ٠

وليست هناك اذن حرفة فى العبادة ٠ وليس هناك احتراف بأى عمل يحول دونها ٠ وليس هناك اذن رجال دين ، ورجال دنيا ٠ وليس هناك اذن رجال حرب فى ميدان قتال ، ورجال امامة فى الصلاة فى مسجد ٠

هناك طرق شتى للسعى فى العمل ، وهناك تخصصات عديدة من أجل اتقان العمل ، ولكن هناك عبادة واحـدة ، ومعبود واحـد للجميـع : تؤدى عبادته كما يؤدى السعى نحو العمل وابتغاء فضل الله ٠

---

(١) الجمعة : ٩ ، ١٠ ٠

ان توزيع المؤمنين الى طائفة دينية تتكفل بالقوامة على شئون العبادة ، وأخرى مدنية يوكل اليها أمر السياسة وشئون الحكم والادارة ، لا يعود الى المبدأ الاسلامى الذى يقضى على الجميع بواجب العمل فى سبيل الرزق ، ثم بواجب تركه العمل عند الاجتماع فى صلاة الجمعة الى أن يتم أداؤها ، كما تصوره الآية الكريمة السابقة · وانما يعود الى تقليد تأثر به المسلمون فى حياتهم الاجتماعية ، بحيث أصبحوا يظنون : أن التوفر على أداء العبادة يحول دون ممارسة الادارة وشئون الحكم ، كما أن من صلاحيات العمل المدنى أو الدنيوى ومباشرته : الأمية فى دين الله ، والاستعلاء أو البعد عن أداء العبادة للمولى جل شأنه ·

وهذا الظن الذى ترتب على التقليد الطارىء على نظام الاسلام يعارضه معارضة صريحة تعقيب القرآن الكريم هنا ـ بعد أن حدد المبدأ الاسلامى السابق لجميع المؤمنين ـ بقوله : « **واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما ، قل : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين** » (١)·

··· فهذا التعقيب يرى : أن بعض المسلمين قد لا يستجيبون الى نداء العبادة ، كما يستجيبون الى اغراء التجارة أو اللهو ، بل يؤثرون الوقوف عند جانب الاغراء بما يحقق مالا ، أو متعة للنفس وراحة لها · ثم يضمن تعقيبه بأن الاستجابة الى نداء العبادة لا تنطوى على خسران أو نقص فى الرزق · بل على العكس : تنطوى على خير أكثر · لأنها ستزيد فى استقامة من يسعى فى تحصيل رزقه ، وفى اتقانه للعمل ، وفى أمانته فى أدائه · وتلك وسائل النجاح فيه ·

فعزل المؤمن نفسه فى أدائه للعمل عن مجال العبادة ، سواء أكان بسبب المال أو بتراخى النفس وتقاعدها ، يجعل منه ساعيا للعمل من أجل ذاته ومؤثرا له على أداء عبادة الله · وهو فى ذلك ليس مبتعدا فحسب عن الله ، وانما أيضا يبتعد عن مصدر النجاح ، الذى هو ذكر الله : « **واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » (٢) ·

وذكر الله ليس هو تلاوة أسماء الله الحسنى على « المسبحة » أو الأصابع · وانما هو مراقبته فى كل تصرف ، وفى كل تفكير ، وفى كل عمل ، واتباع هدايته فيما تنطوى عليه من أمر أو نهى ·

---

(١) الجمعة : ١١ · (٢) الجمعة : ١٠ ·

والاسلام اذن نظام لحياة العمل والعبادة ، ولدين الله ودنيا الناس ٠ ومن يدخله ويؤمن به يتساوى مع غيره فى وجوب السعى الى العمل ، وأداء عبادة الله ٠ ولا يترفع مؤمن به بعمله عن أداء العبادة ، ولا تحول عبادة عابد فيه عن مباشرة كسب الرزق وابتغاء فضل الله ٠

★ ★ ★

٥ ـ الشورى فى الأمر واجب الحاكم :

ان الهزيمة فى غزوة « أحد » لم تكن شرا على المؤمنين ، بقدر ما أعطتهم من « تجربة » مثمرة ، أوضحت لهم نقاط الضعف فى مجتمعهم وبالتالى أسباب هزيمتهم ووسائل علاجها أو تلافيها ٠

وأسباب الضعف الذى ظهر فى هزيمة المؤمنين فى « أحد » هى أسباب تتكرر ، ووسائل العلاج هى كذلك بدورها وسائل انسانية تتكرر أيضا ٠ وهنا كانت الفائدة من تجربة « أحد » ليست وقفا على الجيل الذى لحقته الهزيمة فيها من المؤمنين ، وانما هى فائدة ترتبط بطبيعة الانسان وخصائص هذه الطبيعة له أينما وجد فى أى مكان ، وفى أى وقت يباشر فيه الحرب والقتال مع أعدائه من أجل (الايمان) ٠

بعد هذه الهزيمة نزل القرآن الكريم : مرة يعلن الصفح عن أولئكم المؤمنين الذين أخطأوا ـ عند مباشرة القتال ـ فى اتباع شهوات أنفسهم نحو الدنيا ومتعها وانصرفوا عنه ، ولم يركزوا وعيهم وعنايتهم الى نصرة الرسول عليه السلام ونصرة مجتمعهم وأمتهم ، فتقول الآية الكريمة :

« **ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** (أى جمع المؤمنين وجمع الكافرين) **انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ،**

ولقد عفا الله عنهم ، ان الله غفور حليم » (١) ٠٠

واذ يعلن القرآن الصفح عن هؤلاء : يريد عدم انقسام الأمة ، والعودة الى وحدة قوية جديدة تقوم على الاخلاص فى الايمان بالله ، وعلى الالتقاء فى تنفيذ أهدافه وبالتالى يريد لهم ، مستقبلا ، الانتفاع بما حدث للمؤمنين جميعا فى هذه الغزوة ٠

---

(١) آل عمران : ١٥٥ ٠

وتعتبر هزيمة « أحد » هى أول هزيمة للمؤمنين فى لقائهم مع الكفار ، بعد نصرتهم فى غزوة « بدر » ٠ وهو أول نصر لهم فى اللقاء معهم ٠ ومن هنا كان هناك داع آخر للغفران والصفح عنهم من جانب الله ٠

ثم مرة أخرى يطلب القرآن من الرسول عليه السلام ــ بهذه المناسبة ــ صيانة لوحدة الأمة ، ودفعا لها فى سبيل القوة من جديد :

١ ــ أن يستمر الرسول عليه السلام فى معاملة هذا الفريق بالذات من المؤمنين ــ وفى معاملة المؤمنين عامة ــ فى المعاملة الكريمة التى ألفت من جانبه ، ويتجنب تبعا لذلك ما يؤثر على « الوحدة » فى الأمة من المعاملة الشديدة : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** » (١) ٠

٢ ــ وأن يتبع هذه المعاملة الكريمة لهم بالعفو عنهم ، تأسيا بما فعل الله عز وجل معهم : « **فاعف عنهم** » (١) ٠

٣ ــ وأن يشاورهم فى الأمر ، لا فيما يقصد باللقاء مع الكفار مستقبلا فحسب ، ولكن فى كل شأن من شئون الأمة ، حتى لا يساور بعضهم القلق ان ترك من غير أخذ رأيه ، أو تتثاقل قدماه فى الحركة فى توجيهه للقتال ، أو دعى اليه ولم يستشر فيه ٠٠

٤ ــ ثم أخيرا فى حال اتخاذ قرار معين ــ بعد المشورة ــ يجب عليه أن يتوكل على الله وحده فى العون والمساعدة ، دون اعتماد على ما سواه ، كالغرور بالقوة المادية أو الخداع بوعود الآخرين ٠ وهم لا يؤمنون بما يدعو اليه ٠ « **فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين** » (١) ٠

ولكى يؤكد القرآن أن الاعتماد على الله عامل أساسى فى النصر الأخير ــ وليس ما سواه ــ يقول بعد ذلك :

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٢) ٠

---

(١) آل عمران : ١٥٩ ٠ (٢) آل عمران : ١٦٠ ٠

والقرآن هنا اذ يطلب من رسول الله أن « يشاور » المؤمنين لا يطلب اليه قطعا أن يشاورهم فى شأن « الوحى » ٠

اذ الوحى أمر خاص به عليه السلام ٠٠ وبصلته بربه عز وجل ٠٠ هذا من جهة ٠٠

ومن جهة أخرى : فالوحى « معصوم » فيه الرسول ، ولا يقبل تبديل رأى ٠٠ أو تحريف تأويل ٠٠ واذن لا يمكن أن يكون موضوع شورى بين الرسول من جانب ٠ والمؤمنين من جانب آخر ٠

انما « الشورى » فى شئون الحياة ، وفى التطبيق لما نزل من عند الله فى تدبير هذه الشئون ٠ وتستهدف قطعا : قوة الروابط بين المؤمنين فى أمتهم ، كى تبقى خير أمة أخرجت للناس ٠

والقرآن عندما يطلب من الرسول عليه السلام أن يشاور المؤمنين معه ، يطلب ذلك على أنه واجب عليه ـ لا كداع ـ وانما كحاكم ٠ فيطلب فى صورة الأمر ، وفى غير جانب الوحى : « **وشاورهم فى الأمر** » (١) ٠

ومع أن الرسول محمدا عليه السلام عليه عهد منذ طفولته ، كما عهد عليه أثناء دعوته الى الحق : أنه لا يفتتن بالدنيا وجاهها ومالها ، ولا يغتر بخداعها فى زينتها ـ ومثله اذن لو باشر الحكم فى أمته لابد أن يكون عادلا ـ لكن طلب اليه أن يباشر الشورى فى أمر الحكم وتدبير شئون الأمة مع المؤمنين ، للمصلحة العامة ، وهى أن تكون هناك مسئولية جماعية وراء الرأى الذى يستخلص من الشورى ٠ ومعنى المسئولية الجماعية عندئذ : أن كل فرد من أفراد المؤمنين يلتزم بالمشاركة فى تنفيذ ما انتهى اليه الأمر ٠ وهو التزام أدبى ومادى ، حسبما يملى عليه ايمانه بالله ٠

وهناك يكون التضامن والتعاون فى الرأى وتنفيذه ، وفى المسئولية والتزاماتها ٠

على أن شئون الحياة للأمة تتوزع فيها الرغبات عادة ، حسب ميول الأفراد ٠ وذلك يستتبع تعدد الآراء فى المشكلة الواحدة ٠ فاذا عرضت المشكلة للمشاورة وتبادل الرأى فلابد أن يعرف الرأى الذى هو اقرب لحل

---

(١) آل عمران : ١٥٩ ٠

المشكلة · والذى هو فى الوقت نفسه يصور الرضاء النفسى للمتشاورين جميعا · وبذلك تفيد الأمة عن طريق « الشورى » :

١ ـ نضوج الرأى ·

٢ ـ والاتفاق عليه ، مع الالتزام به واعلان المسئولية عن تنفيذه ·

واذن « الشورى » من الرسول كحاكم فى أمة هى لضمان التعاون وقوة الترابط بين الحاكم والمحكومين · ثم كذلك لتآسى حكام المؤمنين فى الأجيال القادمة بعده بما أمر به ووجد عليه لصالح المؤمنين عامة ·

و « الشورى » على أية حال اجتهاد فى الرأى تحتمل الصواب والخطأ · ولكنها أقرب الى الأمان ، وأبعد عن الانقسام والهزات بين صفوف المؤمنين فى أمتهم ·

★★★

٦ ـ وجوب الشورى فى الأمر بين الأفراد :

ولا يكتفى الاسلام بأن تكون « الشورى » من الحاكم للمحكومين فقط ، كما لا يريد لها أن تكون « منحة » منه لهم ، فقد أوجبها عليه فى قول القرآن الكريم : « **وشاورهم فى الأمر** » (١) ·

لا يكتفى الاسلام بأن تكون قضية « الشورى فى الأمر » قضية مسئولية شخص بعينه تجاه آخرين فى الأمة والمجتمع ، لأنها فى ذاتها ، « أصل » لا يتغير فى ضمان الترابط بين فردين فأكثر ·· والتعاون بينهما :

ولذا يوجبها الاسلام على المؤمنين جميعا فيما بينهم ، كما يوجبها على الحاكم فى علاقته بالمحكومين ·· ووجوبها على الحاكم فى علاقته بالمحكومين اذن ليس الا جانبا واحدا من الجوانب العديدة التى يجب أن تسود فيها « الشورى » توجيه الأمة الاسلامية ·

يقول القرآن الكريم :

« **فما اوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا** »

---

(١) آل عمران : ١٥٩ ·

وما عند الله خير وابقى :

للذين آمنوا ،

وعلى ربهم يتوكلون •

والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ،

واذا ما غضبوا هم يغفرون •

والذين استجابوا لربهم ، واقاموا الصلاة ،

وأمرهم شورى بينهم ،

ومما رزقناهم ينفقون •

والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون » (١) ••

فيجعل : « الشورى فى الأمر » صفة من صفات عديدة لأولئكم الـذين يعدهم الله بما هو خير وأبقى عنده من متاع الحيـاة الدنيا وزخرفهـا • والصفات التى ذكرتها هذه الآيات لاستحقاق وعد الله ، هى :

١ ـ الايمان والعمل به « **للذين آمنوا** » •

٢ ـ التوكل على الله ، بدلا من الجرى وراء القيم الدنيوية ومستويات الحياة الرخيصة « **وعلى ربهم يتوكلون** » •

٣ ـ اجتناب كبـائر الاثم والجـرائم ، والابتعـاد عن الفواحش ، التى فى مقدمتها الزنا « **والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش** » •

٤ ـ السماح عند الغضب • « **واذا ما غضبوا هم يغفرون** » •

٥ ـ الاستجابة لله فى كل وقت ، واتباع سبيله ، « **والذين استجابوا لربهم** »

٦ ـ الاتصال بالله فى الصلاة ، « **واقاموا الصلاة** » •

٧ ـ وضوح الاتجاه فى الحياة ، والمشورة المتبادلة بين الأطراف المعنيـة « **وأمرهم شورى بينهم** » •

---

(١) الشورى : ٣٦ ـ ٣٩ •

٨ ـ الانفاق مما أعطى المؤمن من : مال ، وصحة ، وجاه ، وعلم واستعداد انسانى فى الذكاء والقدرة على العمل : « **ومما رزقناهم ينفقون** » ٠

٩ ـ عدم قبول المذلة والهزيمة من عدو ، والمقاومة من أجل حق الحياة « **والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون** » ٠

وقول القرآن هنا : « **وأمرهم شورى بينهم** » ، يشمل الأمر :

بين الزوجة وزوجها ، وبين أعضاء الأسرة الواحدة ، وبين الجار وجاره ٠

وبين المتعاملين فى عقود المصالح المتنوعة ، وصاحب العمل والعامل ٠

وبين المصالح المختلفة والادارات العديدة فى الجهاز الحكومى ٠

وبين أعضاء المجتمع جميعهم فيما يتصل بالصالح العام للأمة ٠

وهذا العموم فى ممارسة : « الشورى » يشرحه الحديث الشريف :

« كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ،

فالامام راع (أى الحاكم) ومسئول عن رعيته ،

والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته ،

والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ،

والخادم فى مال سيده راع ومسئول عن رعيته » ٠

و « الشورى » بهذا العموم واجب ، وحق لكل فرد : واجب عليه نحو غيره ، وحق له تجاه غيره ، وبأداء كل فرد واجب « الشورى » يصل حق « الشورى » لكل فرد أيضا ٠

ووجوب « الشورى » فى الأمر بين المؤمنين بعضهم بعضا ، لا لضمان « الوحدة » بين صفوف الأمة فحسب ، ولا للاطمئنان على مصلحة كل طرف داخل مع طرف آخر فى معاملة ، أو للمصلحة العامة لجميع الأفراد فقط ، وانما قبل ذلك لتنبيه كل فرد على مسئوليته الفردية ، وعلى ما يترتب على هذه المسئولية من التزامات نحو الفرد نفسه ٠٠ ونحو الآخرين معه فى المجتمع ٠٠

والتزامات الفرد المؤمن طبقـا لمسئوليته الفـردية ـ فى الاســلام ـ لا يشوبها اكراه ، يمارسه فرد آخر عليه • لأن أساس المسئولية الفردية التى يلتزم المؤمن بنتائجها فى الاسلام هى : الحرية ، والاختيار ، أو المشيئة فى قبـول الايمان بالله نفسه • واذا كان الدخـول فى الايمان بالله وفى المجتمع المؤمن بالله على أساس الحرية الفردية والبعـد كل البعـد عن الاكـراه ، فالتزامات الفرد طبقا لمسئوليته الفـردية هى : التزامات أوجبهـا الفرد على نفسه ، وليس وجوبها عليه من غيره •

وهنا المجتمع المؤمن بالله ـ فى نظر الاسلام ـ هو :

★ مجتمع حر فى ارادته ومشيئته •

★ ومجتمع صاحب مشيئة فى التزامات أفـراده ، طبقا لمسـئولياتهم الفردية •

وليس هناك بين المؤمنين ـ فى نظـر الاسـلام ـ ملتزم بعمل ما ، عن طريق الزام الغير فيما يشبه الاكراه ، مهما كان وضع الغير فى علاقته به •

و « الشورى فى الأمر » ، كالحرية الفردية فى الزام الفرد نفسه بنتائج مسئولياته الفردية ، هى من القيم التى يجب على الفرد أن يحصلها لنفسه • اذ الاسلام لا يرى قيمة من القيم العليا فى الحيـاة الانسانية تمنح لفـرد من فرد • وانما كل فرد يجب عليه أن يسعى لتحقيقها :

فحرية الفرد ـ وهى لا تتحقق الا بسيادة الانسان على شهوته وهواه ـ وسعى الفرد لكسبها ••

والقناعة ، والعدل ، والاحسان ، كلها من القيم التى لا تعطى من الغير ، وانما يكسبها الانســان لنفسه ، كالعلم والبصر بالأمور ، والتهـذيب •• ونحوها ••

كذلك « الشورى فى الأمر » ، ترد الى الأفـراد أنفسهم ، ان أرادوا أن يبقوا متحابين متضامنين فى مجتمعهم •

واذن الاسلام ـ كما ذكر من قبل ـ لا يعرف اهداء القيم العليا ، وانما يعد كسبها وتحصيلها عن طريق النشاط الفردى ، الذى يقوم أولا وأخيرا على الايمان بالله وحده•••

★ ★ ★

٧ ـ ممارسة العدل فى الحكم ، دون تحيز :

لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم فى حكمه صاحب « سيادة » على المؤمنين معه فى أمته · لأن الاسلام نفسه لا يعرف « السيادة » لأحد من الأفراد على آخر ، الا ما كان من رواسب العهد الجاهلى ، وهو ذلك العهد الذى طغت فيه المادية وأصبح الانسان يقوم فى سوق النخاسة ويباع فيها ويشترى بالدرهم والدينار ·

ولم يعرف هذا النوع الجاهلى المادى من « السيادة » الا ليرسم طريق تصفيته بحيث يصبح جميع الأفراد يتمتعون « بمساواة » فى الاعتبار البشرى ، ولا يفضل أحدهم الآخر الا بعمله الانسانى فى السلوك ، والتفكير ، والايمان ، ذلك العمل الذى يعود عليه وعلى مجتمعه بخير النتائج وافضلها ··

وجعل من أجل تصفية هذه الرواسب الجاهلية المادية فى سيادة بعض الناس على بعض : « تحرير الرقاب » مصرفا ثابتا من مصارف الزكاة ، بجانب وسائل أخرى عديدة ، يحمل المؤمن على اتباعها ··

وحكم الرسول عليه السلام حكم « قضاء » وفصل ، فيما يتنازع فيه الأفراد من شئون الحياة ··

وكان عليه السلام يباشر القضاء والفصل بنفسه ، عندما كان المجتمع الاسلامى محدود العدد · وغير موزع فى السكن والاقامة على عدد من الأماكن يبعد بعضها عن بعض ··

ثم عندما اتسعت رقعة الأمة الاسلامية ، وتعددت شئونها ، وتنوعت أسباب النزاع بين أفرادها كان نظام « التولية » فى القضاء و « النيابة » عن الخليفة الحاكم فى الفصل بينهم ··

والرسول عليه السلام باعتباره ـ قبل الحكم والقضاء ـ صاحب دعوة الى الحق ، فانه فى حكمه فى قضائه وفصله يلتزم بمبادىء دعوته التزاما لا تحيز فيه اطلاقا لسبب من الأسباب ··

ومن هنا يجب على المؤمنين الطاعة بحكم ايمانهم بدعوة الحق ومبادئها · وهى طاعة تنبثق من رضاء النفس وراحة الضمير ··

والمبدأ الاول فى دعوة الحق عند الفصل فى « النزاع » بين « متكافئين » فى الاعتبار البشرى ـ كما هو الأساس فى قيام المجتمع الاسلامى ـ هو :

« العدل » والعدل وحده ، دون أى اعتبار آخر ٠ لا بين المؤمنين بعضهم ضد بعض فقط ، ولكن بين المؤمنين وغيرهم كذلك ٠٠ ان رفع اليه الأمر ٠

ويوجب القرآن على الرسول الحاكم ـ كما يوجب على من يتولى الحكم بعده ـ أن ينحى فى حكمه بين متخاصمين كل وساطة أو محاولة تبعد العدل عن أن يأخذ طريقه السليم ٠٠ وأن يلتزم بما أنزل الله فى كتابه وأراه اياه ٠

وفيما يعقب به القرآن فى سورة النساء من قرب تصديقه عليه السلام بعض المؤمنين فى شهادة أوتوا بها ضد يهودى ـ وهو برىء فى واقع الأمر ـ كى يبعدوا التهمة عن واحد متصل بهم ٠٠ يوضح هذا العتاب : أنه على الحاكم : أن يتروى تماما فى حكمه وقضائه ٠ وأن يحتاط من الخداع ، حتى لا يأخذ بريئا بغير ذنب ، ولا يترك مذنبا يعبث ويستمر فى العبث لأنه يتمتع بجاه أو سند ٠٠

يقول الله تعالى للرسول الحاكم فى هذا الشأن :

« انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ٠ ولا تكن للخائنين خصيما » (١) ٠

٠٠٠ فجعل الغاية من نزول القرآن الفصل بين الناس والحكم على أساس منه وليس على أساس من غيره ٠٠

وما أراه الله فى هذا الكتاب الصادق هو : « العدل » فى الحكم ٠ وهذا يستوجب أن لا يكون الحاكم مخاصما من أجل الخائنين العابثين ومتحيزا اليهم فى الحكم ٠٠

فان كانت هناك مخالجة نفسية ـ تشير الى ما يشبه التحيز ـ ، انبعثت فى النفس لسبب ما ، فيجب طلب الغفران والصفح من الله فورا ، والله دائما غفور رحيم ٠٠ « **واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما** » (٢) ٠

يقول بعض المفسرين ان الآية نزلت بشأن حادثة وقعت من بعض الصحابة على عهد الرسول عليه السلام ، وتروى هذه الحادثة : على أن « طعمة بن الابيرق » وكان فى واقع أمره منافقا ٠٠ وتنسب اليه أعمال

---

(١) النساء : ١٠٥ ٠ (٢) النساء : ١٠٦ ٠

عديدة رديئة ـ اتهم بسرقة مجموعة من الات القتال ووضعها فى منزل يهودى وجدت عنده فيما بعد ٠ ورفع الأمر الى النبى عليه السلام فانكر اليهودى التهمة ، وأرجع الأمر الى « طعمة » ٠ عندئذ رغب بعض المسلمين فى حمل الرسول عليه السلام على أن يتحيز لجانبه ، وفى خداعه باستخدام سلطته كحاكم لصالحه ٠ ولكن النبى برأ اليهودى ٠٠ طبقا للعدل الذى لا يتغير بحال ، والذى أراه الله اياه فى كتابه الحكيم ٠٠

وبغض النظر عن هذه القصة فان عموم اللفظ فى الآية ـ يلزم الحاكم المسلم بجعل القرآن مصدر الحكم ، ثم باتخاذ العدل فى حيطة ، وتفرده أساسا له فيما يتصل ببن الناس ٠

وفى مجال الخطأ وارتكاب الجرائم ذكر القرآن هنا ثلاثة أحوال يكون المؤمنون على علم بها ٠٠ واتباعها :

« **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ٠٠ ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ٠**

ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما ٠

ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا ، فقد احتمال بهتانا واثما مبينا » (١) ٠

الحالة الأولى : من يعمل عملا سيئا ويظلم نفسه بمباشرة هذا العمل السىء فانه « **يجد الله غفورا رحيما** » ، ان تاب وطلب الغفران من الله ٠٠

والحالة الثانية : أن الذى يسىء فى العمل ويرتكب الاثم أو الجرائم فانه يسىء الى نفسه ، ويحمل ذاته فى واقع الأمر أوزارها ٠ ومهما حاول أن يخفيها من الله ، فالله حتما على علم بها ، لأنه العليم الحكيم ٠

والحالة الثالثة : أن من يرتكب جريمة كبر شأنها أو صغر ، ثم يرم بها بريئا منها ، ثم يعلم بهذه البراءة فضلا عن أن يباشرها ، فقد ارتكب جريمتين وليست واحدة ٠ الجريمة الأولى ما باشر ارتكابها ٠٠ والجريمة الثانية هى رميه البرىء بها ٠٠ « **فقد احتمل بهتانا** ـ أى كذبا ـ **واثما مبينا** » ٠

---

(١) النساء : ١١٠ ـ ١١٢ ٠

وذكر القرآن لهذه الأحوال الثلاث فى ارتكاب الجرائم ، وتوجيه المؤمنين بالاحاطة بها ، كى يساعد الحاكم فى الأمة على اقرار : « العدل » والفصل على أساس منه :

فالذى يعترف بخطئه يساعد على اقراره للعدالة

والذى يؤمن بأن الله يعلم الجريمة ومن يرتكبها ، لا يحاول اخفاءها · وذلك بدوره يساعد العدالة ··

والذى يؤمن بأن جريمته ستكون جريمة مضاعفة ان هو تنصل منها ورمى بها غيره ، سوف يتردد فى الاقدام على ذلك · وهذا بدوره يساعد العدالة ·

وهنا عدالة الحكم ، لا تتوقف على الحاكم العادل ، ولا على وضوح العدل فى مصدر التشريع ··

وانما تتوقف أيضا على « خلقية الضمير » عند من يفصل بينهم من الناس فى قضاياهم وخصوماتهم ··

هنا ·· الحاكم العادل ·· والقانون العادل ··

وايمان المتقاضين بالله : تكون عدالة الحكم التى تعمل على استقرار العدل والتوازن بين الناس ··

★★★

٨ ـ الالتزام فى المعاملة بالهدف الرئيسى للأمة :

والرسول الحاكم كما يلتزم بالعدل فى القضاء والفصل فى الخصومات بين الناس فى أمته ، يلتزم فى المعاملة لهم بالهدف الرئيسى الواضح للأمة · وهو هدف تحقيق « القيم العليا » فى المجتمع الاسلامى . الذى يرتبط بقاؤه واستمراره ببقائها واستمرارها ··

★ يرتفع فوق « الانتقام » وفوق المحاسبة على الصغائر التى مضت ، كما يتجاهل ما يثار من شكوك وصعوبات من التافهين الذين لا أهمية لهم فى سبيل تحقيق المبادىء التى أخذت الأمة نفسها معه بها ·

★ يتمسك بالجاد الصحيح ، ويسير وفق الخط الواضح فى الاستقامة وحده ولا يرجع بتفكيره الى اهانات تعرض لها الحق ، أو محاولات اضطهاد

لدعوته قام بها بعض الحاقدين ·· ويشغل بها نفسه والأمة معه ، أو يأخـــذ الرأى فى الحساب عليها ، وانما يمضى فى معاملته لتأكيـد القيم فى حيـاة الأفراد ··

ويصور هذا الالتزام فى المعاملة قول الله تعالى :

« خذ العفو ،

وأمر بالعرف ·

وأعرض عن الجاهلين » (١) ·

مبادىء ثلاثة يلتزم بها الرسول الحاكم فى أمته الاسلامية :
★ **الأول** : يتعلق بماض انتهى ، وقع فيه ما وقع من مؤاخذات واهانات ·· فيجب أن يقبل الاعتذار عنها ، ويتمسك بالعفو فيها ·· وهذا هو قوله تعالى : « **خذ العفـو** » ·

★ **والثانى** : ما يرتبط بمستقبل البناء فى الأمة ·· والتئام الصـفوف فيها ورضاء النفوس ·· واقبالها على التعاون فيما بينها بعضها بعضا ·· أو فيما بينهما والحاكم ، فهنا يجب أن يكون التوجيه قائما على « العرف » بعيدا عما يكره الناس فى سلوكهم وفى ترابطهم وفى تعاملهم ·· وليس كذلك فوق المستطاع ·· وليس أيضا سببا للايذاء ·· وهـذا هو قوله تعـالى ·: « **وأمر بالعرف** » ·

★ **والثالث** : ما يتصل بما يدور فى المجتمع بين الأفاقين أو التافهين أو الحمقى من : تخرصات أو سخافات ، أو تشكيكات أو مكائد رخيصة تدبر ضد الحق وضد مبادئه · وازاء هـذا : يجب الاعراض والتجاوز بالمرور سريعـا عليها ، دون الوقوف عندها والدخول فى مناقشة لها عابثة وغير مثمرة ·· الى الأهم والحيوى للأمة ·· وهو تحقيق رسالتها ··

والقرآن فيما يطلبه من الرسول الحاكم هنا على هذا النحو لا يطلب فحسب الطابع الخلقى الكريم لمعاملة الحاكم المسلم فى أمته الاسلامية ·· وانما يرسى كذلك أساسا للحكم الصالح نحو توجيه أمة قامت على جملة من المبادىء الانسانية الرفيعة ·· وتريد أن تحققها فى حياتها ·· وتستمتع بهـا فى الروابط والصلات التى بين أفرادها بعضها بعضا ·

---

(١) الأعراف : ١٩٩ ·

فالترفع عن صغائر الاهانات الشخصية أو عن الاستخفافات التى وقعت فى ظروف « التحول » للمجتمع ، مبدأ ضرورى لصيانة المجتمع نفسه من الوقوع فى منازعات واحقاد ، من شانها أن تنسى بمضى الماضى ٠٠ ثم مع أنها من التوافه فان الاشتغال بها واثارتها من شانه أن يأخذ جهدا فى وقت تشتد فيه حاجة البناء والترابط فى المجتمع ٠

والاعراض عن الجاهلين ، وهم الحمقى والأفاقون ٠٠ وعن لغوهم وثرثرتهم فى القول أو مكائدهم التى لا تنجح ، لا يوفر الوقت والجهد للبناء والترابط بين الأفراد كذلك ، وانما قبل هذا لا يضفى اعتبارا وشأنا لما لا جدوى فيه ٠٠ وعدم اعتبار ما لا جدوى فيه هو السبيل لايقافه وعدم استمراره فى المستقبل البعيد المدى ٠

أما التزام التوجيه والأمر بالمعروف ، أو بالعرف ، فمن شأنه أن يجمع النفوس على غير كره ٠٠ ويدفعها الى العمل والتقيد فى غير ثقل أو تباطؤ ٠ وعندئذ تكون مسيرة المجتمع أو مسيرة الأمة هى مسيرة الكلمة المتواصلة التى تتحرك من ذاتها ٠٠ وليس بسياط السائق ، أو باكراه المكره ٠

وهذه المبادىء الثلاثة : قبول العذر عن الصغائر ٠٠ والأمر بالعرف ٠٠ والاعراض عن الحمق ونزواته ٠٠ هى مبادىء الطبيعة البشرية فى معاملة الحاكم فى أى مجتمع انسانى ، يراد له : جدية العمل ، والرضاء النفسى فى التعاون ، وانجاز الرسالة التى نيطت به ٠

وفى الوقت الذى تتركز فيه عناية الحاكم المسلم ـ حسبما جاء فى هذه الآية ـ نحو تحقيق هذه المبادىء الثلاثة فى معاملة المؤمنين معه فى المجتمع ، يجب أن يظل بعيدا كل البعد عن أن يطيع فى المشورة الأعداء : الصرحاء منهم والمستترين لدعوته ولمبادىء مجتمعه ، وأن يعتمد ـ بعد مشورة أمته ـ على الله وحده ٠ اذ مهما كان تودد العدو فانه يضمر البغضاء ويتربص باللحظة التى يسقط فيها المجتمع ويعود الى مثل مجتمعه ، أو التى يضعف فيها أو يتذلل له : اذ ليس من وراء طاعة العدو الا الأذى ، وهو ليس أذى شخصيا ، بل أذى للمجتمع وللأمة ككل ٠٠ وهذا هو مفاد قوله تعالى :

« ولا تطع الكافرين ٠٠ والمنافقين ٠٠ ودع أذاهم ٠٠ وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » (١) ٠

★★★

---

(١) الأحزاب : ٤٨ ٠

٩ ـ توجيه المؤمنين الى الاهتمام بمشاكل جماعتهم :

ان المؤمنين وقد أصبحوا جمـاعة ، ولهم مجتمع ، ويكونون أمة يوجه اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوحى اليه من ربه : فيما يدعـو الى ترابطهم من جانب ، ويعفيهم من تبـديد نشـاطهم فيما لا يضرهم من جانب آخر :

يدعوهم القرآن الكريم الى الاهتمام بأنفسهم كأفراد وجمـاعة : يعنون بالتوجيه السليم ، فتأخذ كل نفس أمرها بالاستقامة ، واتباع خطوط الهداية والتغلب على الأهواء والشهوات ، كى تصبح لها حـرية فيما تفكـر ، وفيما تتصرف وفيما تسلك ٠ وهى حرية غير المغلوب على أمره ، وحرية صـاحب المشيئة ، وحرية من ارتبط فقط بهدى الله وبرسالته ٠

وكذلك يأخذ الأفراد جميعهم أنفسهم فيما بينهم بهذا التوجيه متضامنين ومتعاونين ٠ ويتركون بعد ذلك غيرهم وشأنه :

اذ مسئوليتم فيما يلتزمون به لا تتجاوز ذواتهم الى من سواهم وعلى غير اتجاههم ، طالما غيرهم لا يعتدون عليهم ولا يصيبهم منهم أذى مادى أو معنوى :

« يأيها الذين آمنوا ٠٠

عليكم أنفسكم ،

لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ،

الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » (١) ٠

فالقرآن هنا يوجه اهتمام المؤمنين الى شئونهم وحدهم ٠ ويطلب ترك من ليسوا فى الحياة على غرارهم وعلى سنتهم الى من هو رب الجميع ٠٠ «**الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون**» ٠ وذلك ليتوفر نشاطهم البدنى والعقلى الى مصالحهم ومصلحة العلاقة فيما بينهم ٠ **وبذلك يكون نشـاطهم** نشاطا ايجابيا فى سبيل وحدتهم وقوتهم وتماسكهم ٠ وهذا أجدى بكثير عليهم من توزيع مجهودهم : على أنفسهم ، وعلى من عداهم ٠ يحاولون حملهم على نظرتهم الى الحياة وسلوكهم فيها ٠ اذ قد تمر السنون ويتبدد النشاط البشرى

---

(١) المائدة : ١٠٥ ٠

دون نتيجة ترى من هـــذه المحاولة ، ســـوى الاصطدام والاحتكاك واثارة البغضاء بينهم وبين مخالفيهم فى الاتجاه فى الحياة ٠

وربما يقال : ان هذا الذى يدعو اليه القرآن هنا يتفق مع المرحلة الأولى من قيام الجماعة وتكوين الأمة ٠ لأنها فى حاجة فى هذا الوقت الى التفرغ للبناء الداخلى وتماسك الأفراد فى علاقاتهم بعضهم ببعض ٠٠ أما بعد مرحلة البناء والفـــراغ منها فيجوز التبشير بنظـرة المجتمع الى الحياة : بين من لا يرونها الآن ٠

لكن الـذى يحول دونه القرآن هنا ــ وهو مبدأ دائم ــ ليس التبشير ، وانما هو حمل الآخرين على اعتناق هذه النظرة التى للمؤمنين ٠٠ اذ معنى قوله تعالى : « **لا يضركم من ضل اذا اهتديتم** » ٠٠ هو تركهم وما يعتقدون ٠٠ طالما لا يكون لاعتقادهم المغاير نتيجة ضارة بهم ٠ وهذا بمفهومه يمنـع المؤمنين من حملهم على قبول نظرتهم الخاصة بهم ٠

ثم يخطىء من يتصور : أن قوله تعالى هنا للمؤمنين : « **عليكم انفسكم** » ٠٠٠ يتجه به القرآن الى المؤمنين كأفراد ، وليسوا كجماعة وأمة ٠ أى أن كل فرد يهتم بنفسه وحدها ، دون غيره من المؤمنين معه فى أمته ٠ فاذا رأى منـــكرا لغيـره فليتركه وشأنه ، طالما هو يتجه اتجاها صحيحا ٠ وقد بدد أبو بكر رضى الله عنه هذا التصور عندما خطب يوما فقال ــ فى رواية أحمد :

« أيها الناس : انكم تقرأون هذه الآية : « **يأيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم** » ، ولكنكم تضعونها فى غير موضعها ٠٠ وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الناس اذا رأوا المنكر ولم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » ٠

ان الإســلام لا يعرف « الفـردية » بمعنى العناية بالفرد والتغاضى عن الجماعة كما لا يعرف « المجتمعية » بمعنى التركيز على المجتمع وحده واهمال الفرد فيه ٠ ان الاسلام يعرف « الفرد » و « الجماعة » معا ٠ ويعرف واجبات الفرد ، وهى واجبات « العين » وواجبات الجماعة ، وهى واجبات « الكفاية » ان الاسلام يعرف المسئولية الفردية والمسئولية الجماعية على السواء ٠

والحديث المشار اليه يعبر عن هذه المسئولية الجماعية فى قوله « يعمهم الله بعذاب من عنده ٠٠ » فيجعل المؤمنين جميعا مسئولين عن المنكر الـذى وقع من بعضهم ولم يقوموا جميعا بازالته ٠

وفيما يذكره القرآن الكريم فى قوله :

« يا ايها الذين آمنوا :

هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم :

تؤمنون باش ورسوله ،

وتجاهدون فى سبيل الله باموالكم وانفسكم

ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » (١) ·

·· يشير الى أمرين رئيسيين فى ضمان النجاة من عذاب الآخرة :

١ ـ الايمان بالله ورسوله ·

٢ ـ والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ·

ولكن وجوب الايمان بالله هو وجوب عينى وشخصى · أى أن كل فرد فى الجماعة عليه مسئولية فردية وشخصية نحوه ·

أما وجوب الجهاد بالمال والنفس فهو وجوب جماعى أو كفائى ·· اى أنه يجب على الجماعة المؤمنة ككل : أن تجاهد بالنفس والمال فى سبيل الله ·· فان هى تخلفت عنه فهى مسئولة مسئولية جماعية أمام الله ·· واذا قام بهذا الواجب بعض أفراد الجماعة من القادرين قدرة مالية أو بدنية ، انتهت هذه المسئولية الجماعية عن الكل : من قام ، ومن لم يقم ··

والقادرون وحدهم فى الجماعة يعتبر واجبهم فى الجهاد بالمال والنفس ، أو بأحدهما فى سبيل الله ، واجب عليه ، ومسئوليتهم ازاءه مسئولية فردية أو شخصية · وأما عدا القادرين من الضعفاء أو المعدمين ، فتسقط عنهم المسئولية الفردية على نحو ما جاء فى آية أخرى :

« ليس على الضعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، اذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم » (٢) ·

ولكن فقط : على كل من لا يستطيع الجهاد فى سبيل الله وتسقط عنه من أجل ذلك مسئوليته الشخصية ، أن يكون مخلصا فى ايمانه بالله وبرسوله ،

---

(١) الصف : ١٠ ، ١١ ·   (٢) التوبة : ٩١ ·

وينصح غيره من القادرين بالانفاق فى سبيل الله والاقبال على الجهاد بانفسهم حتى تكون وحدة الأمة ازاء الجهاد وحده حقيقة ، وحتى لا يقع فى صفوفها خلل التخذيل والتثبيط ٠

والمجتمع الانسانى بعد ذلك دائما فى حاجة ماسة الى العناية بأمره الداخلى ، ورعاية البناء والتماسك فيه ، اكثر من الاهتمام بوجهة نظر الآخرين وتفكيرهم فى الحياة ٠٠

★ ★ ★

١٠ ـ تأكيد المسئوليات الفردية :

لا يرى الاسلام أن ارادة فرد تنصهر فى ارادة فرد آخر ، مهما كانت العلاقة من القربى بينهما ، فلا يرى مثلا أن ارادة الزوجة فى مالها وفى اعتقادها تذوب داخل ارادة الزوج ٠ ولا يرى أيضا أن ارادة مجموعة من الافراد تقوم ـ بديلا عنها ـ ارادة فرد واحد ٠

لا يرى هذا ، ولا ذاك : ليس فحسب باعتبار أن كل فرد راع فيما يوكل اليه فى محيطه أو محيط الاسرة ، أو فيما وراء ذلك فى نطاق الامة ـ وليس أيضا فقط باعتبار مبدأ « تعميم الشورى » بين الأفراد مع بعض ، أو بينهم ومن يولى عليهم من الولاة ٠ وانما قبل هذا وذاك باعتبار المسئولية الفردية عن العمل فى نوعه ، تلك المسئولية التى يترتب عليها الجزاء الأخروى ، قبل ارتباط نتائجها بها فى الحياة التى نعيشها فى دنيانا ٠

نقرأ قوله تعالى :

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟

قل هو من عند أنفسكم ، ان الله على كل شىء قدير » (١) ٠

٠٠٠ فنرى أنه يقص ما دار بين المؤمنين وفى أنفسهم من تساؤل عن أسباب هزيمتهم فى موقعة : « أحد » بعد انتصارهم فى غزوة « بدر » ثم يجيب على هذا التساؤل : بأن ـ الأسباب تعود الى أنفسهم ونواتهم ، وليس الى ما وراءها ، وبأن شأن الهزيمة فى ارتباط أسبابها بنفوس المحاربين شأن

---

(١) آل عمران : ١٦٥ ٠

النصر فى عودة أسبابها اليهم وحدهم • فهم المسئولون عن الهزيمة ، وهم الذين يرجع اليهم كذلك أمر النصر فى القتال :

••• **ان أخلصوا فى ايمانهم ولم يروا فى القتال توسعا واثراء وجاها دنيويا – بل رأوا فيه تحقيق مثل عليا ودفاعا عنها – كان النجاح والظفر حليفهم • وان اتخذوا الحرب وسيلة لاقتناص مال وغنائم مادية وجعلوا منها** قرصنة للاستيلاء على ما فى أيدى أعدائهم ، أو لسبى نسائهم للاستمتاع بهن ، كانت الهـزيمة حتما عاقبة حـــربهم : « **أو لما أصـــابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها** » (١) • فقد أسند اليهم أنهم أصابوا فى غزوة : « بدر » من أعدائهم ضعف ما أصاب أعداؤهم منهم فى : « أحد » •• أى أسند اليهم انفسهم النصر فى « بدر » • وجوابه هنا على تساؤلهم : « **قل هو من عند انفسكم** » (١) •• يؤكد أن هزيمة « أحد » ترجع اليهم أيضا •

••• فاذا أضاف القرآن فى الآية التاليــة : « **وما أصـــابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله** » (٢) •

••• أن ما وقع من هــزيمة المؤمنين فى « أحـــد » كان باذن الله ، لا ينفى : أن المؤمنين أنفسهم بتصرفاتهم فى « أحد » كانوا سبب هــزيمتهم ، كما ذكر من قبل : « **قل هو من عند انفسكم** » • لأن الله لا يرضى عن المؤمنين ان نافقوا فينصرهم فى نفاقهم ، ويؤازرهم فى كفرهم فى حقيقة أمرهم • وانما اذن الله فى المجتمع الانسانى هو مسايرة قانون أحكمه لضبط المجتمع نفسه • وهذا القانون : هو ترتيب الظفر والنصر حتما على الاخـــلاص فى الايمـــان بالله ، وترتيب الفشل والهزيمة على النفاق فيه والعبث به • وما يقع اذن من نصر أو هزيمة فهو باذن الله • لأنه طبق ارادته التى تمثلت فى هذا القـــانون الاجتماعى • ولكن السبب المباشر لاحـــدى النتيجتين ينطوى فى المباشرين للعمل والمنفذين له •

واذن هنا : مسئولية عن العمل • ونتيجة لا تنتقل من فرد الى آخر ، ولا من مجموعة الى أخرى : « **من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها** » (٣) « **ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة** (أى نفس محملة بالأوزار شخصا

---

(١) آل عمران : ١٦٥ • (٢) آل عمران : ١٦٦ •
(٣) فصلت : ٤٦ ، الجاثية : ١٥ •

آخر) الى حملها لا يحمل منه شيء ، ولو كان (هذا الشخص) ذا قربى » (١) « كل امرىء بما كسب رهين » (٢) · « كل نفس بما كسبت رهينة » (٣) ·

وتوكيد المسئولية الفردية فى القرآن الكريم على هذا النحو لا لاضعاف العمل الجماعى ، بل على العكس لتوجيهه توجيها قويا فى طريقه ونحو هدفه·

والرسول الحاكم ـ عليه السلام ـ له ارادة فردية ، وعليه مسئولية شخصية ، يشارك بها فى الرأى والعمل غيره فى أمة المؤمنين · ولكن كحاكم : عليه أن يحمل المؤمنين على ممارسة هذه المسئولية الشخصية ، ويؤكد نتائجها كما يطلب القرآن الكريم · ولتساوى المؤمنين فى ـ الارادة الحرة ، والمسئولية الشخصية كانوا متعاونين فى المصلحة العامة والحرص عليها · لأنهم يصدرون عن مصدر واحد ، وهو الايمـــان بالله ، ولأن ارادتهم تحررت من الهوى ـ وخلصت الى العمل العام ، وهو ما ينطوى على خير الأمة كلها · وعنــدما ينسب الى الرسول الكريم ـ عليه السلام ـ قوله :

« المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ··· يعبر عن هذا التســاوى بين الأفراد المؤمنين ، تبعــا لتساويهم فى الحرص على المصلحة العامة ·

والمجتمع المؤمن بالله هو مجتمــع أفراد تساووا فى الارادة الحــرة ، والمسئولية الشخصية ، والمشاركة الجماعية فى تحقيق المصلحة العامة ، وفى تكافؤ الدماء ، وفى الانابة فى السعى من أجل تحقيق السلام واقرار المعاهدات·

والرسول الداعى ازاء دعوته هو كل شيء فيها : له وحده الوحى ، وعليه وحده التبليغ ، والعصمة فيما يبلغ له وليست بغيره ·

أما الرسول الحاكم فمسئوليته فردية ، لا تلغى مسئولية غيره ، وهو مجتهد يصيب ويخطىء كمــا يصيب غيره من المؤمنين ويخطىء ان اجتهــد ويشاركه غيره الرأى وتحمل مسئولية العمل ·

★★★

---

(١) فاطر : ١٨ ·
(٢) الطور : ٢١ ·
(٣) المدثر : ٣٨ ·

١١ ـ مسئولية المستضعفين فى المجتمع مسئولية كاملة ازاء اكراههم من كبرائهم على عقيدة خاصة :

والمجتمع المادى فى وثنيته واشراكه مع الله فى العبادة ما لا ينفع ولا يضر فى حقيقة أمره مما هو فى هذا الوجود المشاهد ، يتجه الى تقسيم نفسه حتما الى : مستكبرين ومستضعفين ، تبعا لما يملكون من مال ، ويستمتعون به من جاه الحياة المادية ومتعها وزخرفها ٠

فالمستكبرون فى المجتمع هم أصحاب السلطة والنفوذ وأصحاب الثروات والأموال ، وهم الذين يباشرون الترف فى الحياة فى غير حدود ـ وربما فى غير استحياء ـ وفى غير رعاية للآخرين عداهم ٠

والمستضعفون هم الذين لا ينالون من الحياة المادية الا ما يجعلهم متطلعين الى الآخرين من المستكبرين ، طلبا لمعونتهم على سد حاجتهم ٠٠ هم الذين يلهثون فى سيرهم فى الحياة فى سبيل اكتفائهم والمحافظة على بقائهم ٠

والمستضعفون مغلوبون على أمرهم ٠ ولكنهم ليسوا ضعفاء فى طاقاتهم وامكانياتهم البشرية ٠ بل ربما لديهم من هذه الطاقات والامكانيات ما يجعلهم أسيادا فى المجال الانسانى على المستكبرين عليهم ، وامتلاك المستكبرين لوسائل القوة المادية : من سلطان ، ومال ، وعصبية ، هو وحده الذى أعطاهم الفرصة لأن يمارسوا الاستعلاء عليهم واملاء الكلمة فى مجالهم ، وهم لهذا مستضعفون ، من غيرهم ، وليسوا ضعفاء فى ذواتهم ٠

ومن هنا كانت مسئوليتهم الانسانية والفردية باقية لهم ، لم تزل باستضعافهم من غيرهم ، والفرق فى معيشة الحياة بين الطرفين : المستكبرين والمستضعفين ـ لا يبرر اطلاقا نقل مسئولية المستضعفين الى المستكبرين وحرمانهم منها ٠

وانقسام المجتمع المادى الوثنى الملحد الى هاتين الطبقتين ضرورة واقعة ٠ اذ طالما كان هدف المجتمع المادى هو تحصيل المتعة المادية ـ وسعى الأفراد يختلف حتما فى سبيل تحصيلها ، تبعا لاختلاف طاقاتهم وقدراتهم ـ فما يحصله افراد المجتمع جميعا يتميز بعضه عن بعض فى كمه ونوعه ٠ وهنا يكون تشابه أصحاب الكثرة فى الكم أو الجودة فى مصادر المتعة المادية يتآلف بعضهم مع بعض ٠ وأصحاب القلة أو الرداءة فى مصادر هذه المتعة المادية ينعطف بعضهم على بعض ٠ ويعطف كذلك بعضهم على بعض ٠ كما تكون هنا أيضا مفارقة واضحة : أصحاب اليسار فى المتعة المادية ، فى مواجهة

اصحاب الحظ اليسير منها · وتبعا لهذه المفارقة يكون المستكبرون اصحاب السيادة ، ويكون المستضعفون لهم ·

والمجتمع المادى ـ اى المجتمع الذى يستهدف فقط تحصيل المتع الدنيوية وملذات الحياة المادية ، او ذلك المجتمع الـــذى يتغاضى عن المعـــانى والقيم الانسانية فى حيـــاة أفراده ـ هو مجتمع طبقى · ولا يمكن بحال أن يتحـــول الى مجتمع لا طبقية فيه ، مهما كانت دوافع التحويل من قوة ، ومهما طال أمدها فى ممارسة هذا التحول ·

★ والقرآن الكريم اذ يصف كـــلا من طبقتى المجتمع المـــادى الوثنى بالظلم ، واذ يقرر المسئولية الكاملة للطبقة المستضعفة فى اختيار ما تعتقد ورفض ما تكره عليه ··· اذ يضع هذا وذاك يريد للمجتمع البشرى أن يكون مجتمعـــا انســـانيا صـــاحب اختيـــار ومشـــيئة ، تربط بين أفـــراده فى علاقات بعضـــهم ببعض : القيم الانســـانية العليـــا وهى ، قيم : العـــدل ، والمساواة فى الاعتبـــار البشرى ، والتواد ، وليس مجتمعـــا ذا طبقية من المستكبرين والمستضعفين : يملى مستكبروهم على مستضعفيهم ما يريدون لهم ، فى : عقيدة وايمان · يقول الله تعالى :

« وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ،

ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضـــهم الى بعض القول :

يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين !·

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ·

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار ، اذ تامروننا : ان نكفر بالله ، ونجعـــل له أندادا ؟ وأسروا النـــدامة لمـــا رأوا العذاب ،

وجعلنا الأغلال فى أعناق الـــذين كفروا ، هـــل يجزون الا ما كـــانوا يعملون » (١) ·

---

(١) سبأ : ٣١ ـ ٣٣ ·

··· فقول الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين يديه « كناية » عن أصحاب الوثنية المادية وهم الملحدون الذين لا يؤمنون بكتاب ، لا بالقرآن ولا بالذى سبقه من التوراة ، والانجيل ·

··· وتعبير القرآن ـ مخاطبا الرسول عليه الصلاة والسلام ـ عن هؤلاء الماديين الوثنيين بالظالمين ، يشير الى أن المجتمع المادى الوثنى الذى لا يؤمن بكتاب هو مجتمع ظالم ، لا فرق بين المستكبرين والمستذلين فيه ·

ثم فيما يقصه هنا من المحاورة بين المستكبرين والمستضعفين فى هذا المجتمع المادى من القاء اللوم أولا من جانب المستضعفين على المستكبرين فى الحيلولة بينهم وبين الايمان بالله ، ومن دفاع المستكبرين عن أنفسهم ، ثم على رد المستضعفين عليهم ثانية : بأن خداعهم المستمر بالليل والنهار وتضليلهم اياهم بتشويه الايمان بالله كان بمثابة أمر لهم بالابتعاد عن هذا الايمان ··· يريد أن يحمل المستضعفين مع ذلك المسئولية فى عدم ايمانهم بالله · لأن مكر المستكبرين أو خداعهم وتضليلهم ، مهما قوى شأنه ، لا ينبغى أن يقهر مشيئة الانسان ولو كان مستضعفا ، بسبب أن السلطة والجاه فى يد غيره ·

ثم تعبير القرآن بالمستكبرين والمستضعفين ـ بدلا من الكبراء والضعفاء ـ عن طبقتى المجتمع المادى الوثنى الملحد ليفيد : أن الزعامة بين المستكبرين هى زعامة مصطنعة وليست ذاتية وأصيلة ، كما أن الضعف بين المستضعفين هو ضعف مصطنع أيضا وليس أصيلا · ولذا : زعامة المستكبرين لا تمنحهم قيمة انسانية ذاتية ، كما لا يحول ضعف المستضعفين دون اعتبارهم الانسانى فى مباشرتهم المسئولية الفردية ، وبالأخص نحو الايمان بالله وبهدايته ·

★★★

١٢ ـ الرسول فى مجال المسئولية والميل الانسانى :

★ طلب الى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يلتزم العدل المطلق فى حكمه ، ولو كان بين مسلم وكتابى ،

★ وطلب اليه أن يتبع كتاب الله فى حكمه ، دون أن يتبع عامة الناس ·

★ وطلب اليه أن يشاور أمته ، وأن يدعو المؤمنين الى أن يأخذوا بأسلوب الشورى فيما بينهم ·

★ وطلب اليه أن يكون القدوة الحسنة فى جماعة المؤمنين : فى كل تصرف له ، وفى كل عمل له ٠

٠٠٠ طلب اليه كل ذلك وهو انســـان : له طبيعة الانســـان ٠ ومن خصائص هذه الطبيعة الميل الانسانى ، والعرضة لقبول الاغراء بمفاتن الحياة الدنيوية ٠ واريد له ان يظل فى نطاق هذه الطبيعة الانسانية : لا يرتفع فوقها الى ان يكون ملكا ، ولا شبه اله ٠

★ ومن المتوقع لمن يدعو الى دعوة تختلف فى مبادئها وتوجيهها عن تلك المبادىء السائدة فى المجتمع ــ ولو كانت دعوته رسالة من الله ــ أن تعرض عليه الدنيا ٠٠ أن يعرض عليه جاهها ٠٠ وتعرض عليه اموالها وثراؤها ، مقابل أن يشارك فى أوضاع المجتمع القائمة ، ويترك دعوته الجديدة ٠ وهذا الذى يتوقع لصاحب الدعوة الجديدة من اغراء وافتتان هو أمر يعتبر سنة اجتماعية ، قلما تتخلف ٠

فاذا قرأنا فى القرآن الكريم ــ فى مواجهة رسول الله صلى الله عليــه وسلم ــ قوله تعالى :

« وان كادوا ليفتنونك (أى ليغرونك) عن الذى أوحينــا اليك لتفترى علينا غيره (أى لتأتى ببديل عنه لا يعارض ما عليه القــوم) واذن لاتخذوك خليــلا ٠

« ولولا أن ثبتناك (أى منحناك القوة) لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا٠ اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا » (١) ٠

٠٠٠ اذا قرأنا هذه الآيات الثلاث ندرك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يوقف رسوله الكريم على جملة من الحقائق النفسية ، وهى :

أولا : أن شأن النفس البشرية ، ان تعرضت للاغراء بمفاتن هذه الحياة المادية ، أن تميــل الى قبول الاغــراء ، ما لم تكن متحصنة بقوة العزيمة والايمان بالله ٠

وثانيا : أن زعماء المجتمع السابق على الدعوة الجديدة ــ وكذلك زعمــاء أى مجتمع يختلفون فى أصول العقيدة عن مجتمع آخر ــ لايقبلون

---

(١) الاسراء : ٧٣ ــ ٧٥ ٠

دعاة المجتمع الجديد أو المجتمع الآخر ، كأصدقاء وخلان ، الا اذا أمالوا دعوتهم الجديدة لتلائم عقيدة المجتمع السابق ، بحيث لا يبدو هناك خلاف بين المجتمعين · وقبل هذه الملاءمة يتخذون منهم أعداء سرا وعلانية ، على السواء ·

وثالثا : أن النفوس التى تقبل الاغراء بمفاتن الدنيا ـ وهى ذات مسئولية فى الأمة ـ يختلف عقابهـا على آثار هـذا الاغراء على الدعوة الجديدة فى اضعافها أو فى اذابتها فى غيرها ، تبعا لمسئولية من قبل الاغراء منهم · فهو عقاب مضاعف فى الحياة وفى الممات لمن يباشر الرياسة فى أمته وفى مجتمعه الجديد ·

ورابعا : أن الله قد منّ على رسوله الكريم ـ صلوات الله عليه وهو انسان ـ بقوة العزيمة وبقوة الايمان بالله · فكان ثابتا فى وجه الاغراء · وذلك عامل من عوامل نجاحه فى دعوته وفى حكمه ·

ويستهدف القرآن هنا الكشف عن هذه الحقائق النفسية اعلان :

١ ـ أن الله لا يتهاون اطلاقا فى عقاب صاحب المسئولية فى الأمة فى الدنيـا والآخرة ، ان هو اضر بالحق وبالعدالة فى الحكم ، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

٢ ـ وأن صاحب المسئولية فى الأمة ـ ان أراد أن يتجنب عقاب الله ـ عليه أن يتخذ من الايمان بالله سندا يحول بينه وبين التأثر بالدنيا فى اغرائها ومفاتنها ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

وفى اعلان القرآن : أن رسول الله لو مال الى الاغراء بالدنيا لضوعف له العذاب فى حياته ومماته من قبل الله جل شأنه ، ولما وجـد نصيرا له آنئذ على الاطلاق ·· ما يفيد أن مسئولية الحـكم فى الأمـة الاسلامية مسئولية كبيرة ، لا يتجرد فيها صاحب المسئولية فى حكمه عن الغاية الشخصية فقط ، وانما يجب عليه أن يسعى عن طريق الايمان القوى بالله وحده ليواجه الاغراء : فى تحدياته بالمال والجاه والسلطة والترف ، على حساب الحق والعدل ·

والله بعد ذلك كافيه شر انصار الباطل ، والمتآمرين ضد الحق والعدل : **« وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا · سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا »** (١) ·

---

(١) الاسراء : ٧٦ ، ٧٧ ·

... فقد وعد جل شانه بالانتقام منهم ، ان هم اذوا صاحب المسئولية فى مباشرته للحق والعدل .

***

١٣ ـ مراجعة الرسول الحاكم فى مباشرة مسئوليته (بسبب الرأى) :

★ ان العصمة لله وحده . وان العصمة أيضا لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمر أن يبلغه للناس من دين الله . وما عدا ذلك مما يبديه من رأى فى شئون الحياة وسياسة الحكم فهو اجتهاد يقبل المراجعة .

والحكومة الدينية ، أى الحكومة المعصومة عن الخطأ لا توجد فى الاسلام من أجل ذلك . وهى حكومة اسلامية ان التزمت فى الحكم بكتاب الله . على معنى . انها تجتهد فى تطبيقه . وهى فى هذا التطبيق تخضع لطبيعة الانسان فى الرأى ، وهى طبيعة الصواب والخطأ . فهى حكومة انسانية ، وليست بالهية .

وأبعد ما يكون عن الاسلام فكرة الحلول والتجسيد . فلا يحل الله جل شانه فى شيء ما ولا يجسده كائن ما ، حتى تكون له قداسة الهية وترفع عن الخطأ . والانسان هو الانسان . لا يصعد الى مستوى الاله فى القداسة والعصمة والمنزلة ، ولا ينخفض الى مستوى الحيوان فى تفريغ قلبه من الايمان ، وسلب اختياره ومشيئته فى التفكير والتصرف .

★ ولكى يحرص الاسلام على المستوى الانسانى للانسان ـ لا يتجاوزه الى أعلى ، ولا يسقط عنه الى ادنى ـ سجل القرآن الكريم مراجعة الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم فى بعض ما رأى فى سياسة أمته . وهى مراجعة يختلف اسلوبها حسب ما كان للرأى من اثر فى حياة الأمة وقيادتها .

فيقول فى مواجهته عليه الصلاة والسلام :

« عفا الله عنك ، لم اذنت لهم ؟ حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين » (١) .

... فالله سبحانه وتعالى يسائل رسوله ـ *صلى الله عليه وسلم* ـ بقوله : «لم اذنت لهم ؟» ، بعد ان ذكر مقدما انه قد عفا عنه بالفعل تطمينا له .

---

(١) التوبة : ٤٣ .

فقد أذن الرسول لبعض المؤمنين فى ظاهرهم والمبغضين للايمان فى داخلية نفوسهم ــ وهم الذين يعرفون بالمنافقين ــ بالتخلف وعدم الخروج مع بقية المؤمنين ، وفى مقدمتهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لمباشرة القتال ضد الأعداء من أصحاب الشرك والوثنية المادية الالحادية ·

وبالاذن لهم بعدم الخروج الى القتال لم ينكشف وضعهم ولم يظهر موقفهم على حقيقته ، وان كان استئذانهم من الرسول عليه الصلاة والسلام يدل على ما تنطوى عليه نفوسهم من عدم الايمان وتربصهم الشر بالمؤمنين · ولذا جاء التعقيب على تساؤل الله جل شأنه : « **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر : أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين · انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون** » (١) ·

ولكن مع ذلك فلو لم يأذن الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ لهم بالتخلف وعدم الخروج الى القتال لتبين فى وضوح للمؤمنين جميعا موقفهم كما هو فى واقعه ، وهو موقف النفاق والحقد والكراهية : « **حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** » · وعندئذ كان يصغر شأنهم مع المؤمنين ، ويتم عزلهم عن حياتهم فيما لها من منافع أو فيما يصيبها من أزمات ·

ذاك أسلوب من أساليب المساءلة · وهو أسلوب العتاب الرقيق الذى اقترن ببقاء رضاء المولى سبحانه على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، رغم ما رآه من رأى يمس أمرا حيويا فى الأمة ، وهو سرعة الوقوف على الأعداء بين صفوفها ·

وهذا أسلوب آخر فيه من الشدة ما يتناسب وخطورة الموضوع الذى تناوله الرأى · نقرأ قوله تعالى :

« ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ·

لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (٢) ·

··· *فيعلن استنكار* : أن يكون لنبى ــ أو لقائد أمة ــ أسرى حرب يمكن أن يفديهم بمال ، قبل أن يتمكن فى الأرض ويتم له النصر على أعدائه ، وانما

---

(١) التوبة : ٤٤ ، ٤٥ ·   (٢) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ ·

الأمر آنئذ هو قتل جميع الأعـداء فى ميدان القتـال أو من يقع تحت أيدى المؤمنين ، حتى يكون هناك رادع لهؤلاء الأعداء من جانب فلا يندفعوا الى قتال المؤمنين غير متريثين لنتائج القتال • ومن جانب آخر : من شأن هـذا الطريق ـ وهو عدم الابقاء على عدو يتمكن منه قبل تمام النصر ـ تقليل عدد الاعداء • واذن هذا الرأى الأمثل يترتب عليه اضعاف الروح المعنوية لـدى الأعداء ، كما يترتب عليه تقليل عددهم • وهذا وذاك ، يوسع من غير شك فرص النصر عليهم •

والمهم للرسول الحاكم قبل أن يتم له النصر على أعدائه أن ينتصر عليهم، لا لذات النصر • وانما لأنه سيمكن مجتمعه فى مباشرة عقيدته وايمانه ، فى غير خطر أو تهديد بالخطر ، وهو خطر الحرب أو الهزيمة • وهذا الهدف أرفع بكثير من الحصول على فدية مال مقابل اطلاق أسرى القتال ، يمـكن أن يعودوا من جديد الى صفوف الأعداء • وهو هدف أرفع لأن المال مهمـا كثر فهو الى زوال ، بينما المجتمع فى ايمانه وعقيدته لو ثبت ايمانه وتمكنت عقيدته من السيادة فهو الى بقاء • وهذا المعنى هو ما تشير اليه الآية كسبب لاستنكار ما رآه الرسول عليه الصلاة والسلام مع أبى بكر ، ومخالفا فيـه رأى عمر ـ رضى الله عنهما : « **تريدون عرض الدنيـا** (وهو مال الفـداء للأسرى) **والله يريد الآخرة** (أى يريد أن يكون الجـزاء ليس فى الدنيـا عن طريق المال وانما فى الآخرة عن طريق نعيمها) » • ولا يتحقق ذلك الا ببقاء الايمان والمؤمنين عن طريق تمكين مجتمعهم ، وتثبيت أمتهم بالنصر النهائى على أعدائهم •

وفيما تقول الآية الثانية : « **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخـذتم عذاب عظيم** » •

••• ما يشير الى نوع المراجعة فى قوتها • اذ معناه : لولا قضاء من الله سبق بالعفو عنكم هنـا لكانت عقوبتكم على مـا اتجهتم اليه من رأى فى موضـوع أسرى الحرب قبل تثبيت أقدامكم ، عـذابا عظيما • لأنه موضـوع مستقبل الايمان بالله والأمة المؤمنة به ••

وهكذا : الرسول عليه الصلاة والسلام كمبلغ له العصمة ، وكحاكم أمة له اجتهاده فى الرأى وطبيعته الانسانية ، ومن حق من يعود اليه الأمر آنئذ التعقيب عليه •

***

١٤ ـ كتاب الله يحسم النزاع فى الرأى بين المؤمنين :

★ ان الاختــلاف فى الرأى طبيعة بشرية · فالتفكير الانســانى ذاته يختلف تبعا لمؤثرات البيئة والتنشئة والتوجيه على من ينكرون · واللغة التى تحمل الفكر وتعبر عنه تختلف ذاتها كذلك فى احتمال الأسـلوب فى تركيبـه واحتمال الألفاظ فيما تعبر عنه ·

وما يعبر عنه الفقهاء من « الاجتهاد » هو صـيغة اخرى للاختـلاف فى الرأى ، اذ ما يقررونه على مبدأ : أن رأى المجتهد يلزم المجتهد وحده دون غيره ، هو دلالة ذلك ، ثم ما يذكرونه من أن : المجتهد الذى يصيب له أجران والمجتهد الآخر الذى يخطىء له أجر واحد ، يفيد : أن الباعث على الاجتهاد ـ أو على الاختلاف فى الرأى ـ يجب أن يكون البحث عن الحقيقة وتحـرى الصواب فى ذاته ، وليس الهدم أو الفساد ·

واذا كان الاختلاف فى الرأى هو من خصائص الطبيعة البشرية فان التنازع بسببه أو الخصومة عن طريقه بين الأفراد ليست من سمات العقـل البشرى الذى هو مصدر التفكير والرأى فى الانسان · وانما خصومة الرأى ـ أو التنازع بسببه ـ ترد بالأولى الى الأنانية ومتطلباتها من المحافظة على البقاء ، والى غريزة المقاتلة فى الذات التى تدافع عنها ·

والتنازع فى الرأى وهو وليد الشقاق ، من شانه أن يفتت الأمة الى طوائف وجماعات · وهذا الوضع بدوره يؤدى الى الضعف أو الفناء للمجتمع كلية ·

★ ومن أجل خطورة التنازع بسبب الرأى يحرص القرآن الكريم على أن يعود المؤمنون جميعا بالخلاف فى الرأى الى كتاب الله ـ ان وصل الى درجة التنازع فيه ـ حسما لهذا الخلاف ودفعـا لآثاره السلبية على الأمة · وفى ذلك قوله :

« يا ايها الذين آمنوا

١ ـ اطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم ،

٢ ـ فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله ، والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر (اى ان لم يسيطر عليـكم الاتجاه المـادى فى الحياة) ·

ذلك خير واحسن تاويلا » (١) ·

---

(١) النساء : ٥٩ ·

... فالآية تقرر مبدأين ضروريين لبقاء المجتمع الاسلامى ، ثم لحمايته من الضعف أو الفناء :

المبدأ الأول ـ وهو خاص ببقاء المجتمع ـ طاعة كتاب الله . فقيام مجتمع المسلمين كان على أساس من الايمان بكتاب الله وحده . وكذلك بقاؤه رهن بطاعة هذا الكتاب والاخلاص فى تطبيق ما جاء به .

أما طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه من قول أو عمل ـ تطبيقا لمبدأ اسلامى ـ فذلك لأنه صلى الله عليه وسلم أمين ومعصوم فيما كلف بتبليغه ، وخير قدوة للمسلمين جميعا فيما أخذ به نفسه من مبادىء القرآن فطاعته محمولة على نسبته الى كتاب الله وصدقه فى هذه النسبة .

وطاعة أولى الأمر هى بقدر ارتباطهم كذلك بكتاب الله ايمانا به وتطبيقا لأوامره ونواهيه ، والأمر فى طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى طاعة أولى الأمر كذلك ، يعود اذن فى حقيقة أمره الى طاعة كتاب الله .

والمبدأ الثانى ـ وهو خاص بحماية المجتمع من الضعف أو الفناء ـ رد الخلاف فى الرأى بين المسلمين ، عند التنازع فيه وظهور امارات الشقاق بينهم بسببه ، الى كتاب الله والى رسوله وحدهما . لأن أولى الأمر قد يكونون طرفا فى النزاع أو متحيزين لطرف من طرفيه . فشأنهم كشأن بقية المسلمين يعودون جميعا بالخلاف فى الرأى وبروز أمارات الخصومة فيه الى القرآن وما صح عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبارجاع المسلمين الخلاف فى الرأى والخصومة فيه الى كتاب الله وما صح عن الرسول يلتقون من جديد على الايمان بما هو متفق عليه وحده بينهم ، وينبذون بالتالى مصدر الخلاف والفرقة . وبذلك يعود تماسكهم وتعود وحدتهم ، وينقى مجتمعهم من عناصر الضعف .

فاذا اشتد التنازع بين المسلمين فى الرأى وأدى الى التقاتل فيما بينهم فالحل هو الصلح بين المقتتلين . والصلح بدوره يعود أخيرا الى كتاب الله وما صح عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

فالآية التى تذكر هذا الحل ، وهى قوله تعالى :

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ،

فان بغت احداهمـا على الاخرى فقـاتلوا التى تبغى حتى تفىء (اى ترجـع) الى امر الله ،

فـان فـاءت فاصـلحوا بينهمـا بالعــدل واقسـطوا ، ان الله يحب المقسطين » (١) ٠

٠٠٠ تحدد المرجع الذى يؤول الى دور الوساطة بانه امر الله ٠ وامر الله هو مـا يعبر عنه كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **فان فـاءت** (اى رجعت الى امر الله والتزمت بـه) **فاصلحوا بينهمـا بالعـدل ، واقسطوا** (اى اعدلوا) » ٠ والعدل والاحسان هما ما يقوم عليه كتاب الله ، وتستهدفهما السنة الصحيحة ٠

***

---

(١) الحجرات : ٩ ٠

(٢) فى سبيل الرعاية الاجتماعية

١ ـ الرسول الحاكم : « يعنى بمصارف الزكاة » :

ليس هناك مجتمع بشرى يتساوى أفراده فى الدخول ، أو فى مستوى المعيشة المادية ; كما انه ليس هناك مجتمع يتساوى أعضاؤه فى الطـاقات والقدرات على العمل ، وحل المشاكل ، والتمييز بين الحق والباطل والضلال والهداية ٠

والمجتمع الانسانى هو حتما مجتمع يفضل بعضه بعضا ، ويتميز أفراده بعضهم عن بعض : بسبب الرزق ، والاستعداد الطبيعى والقدرة على الانجاز ، والصلاحية للريادة ٠ ولا يضره أن يتميز أعضاؤه على نحو يبدو فيه البعض ذا سعة فى الرزق ، أو ذا طاقة أقوى على العمل ، أو ذا أهلية وكفاية أكثر فى حل المشاكل أو فى القيادة ٠ وانما الذى يضره أن تبقى أفراده فى تميزها وحدات : لها استقلالها وانعزالها ، كل عن الأخـرى ، دون أن تكون لهـا رابطة التبادل الانسانى فيما بينها ٠ ويعنى بالتبادل الانسانى : تبادل المعانى الانسانية الكريمة من : العطف ، والمودة ، والتعاون ، والاخاء ٠٠ وما شابه ذلك ٠

اذ الفراغ فى علاقات أفراد المجتمع ـ مع تميز بعضهم عن بعض فى الرزق سعة وضيقا ، وفى الكفاية قدرة وضعفا ، وفى الطاقة ايجابا وسلبا ـ يسبب نفرة فى هذه العلاقات ، وعلى مرور الوقت يحولها الى مصادر للحقد : صاحب الضيق فى الرزق يحقد على صاحب السعة فيه ، والمتخلف فى الكفاية والأهلية يحقد على صاحب الشوط البعيد فيها ، والسلبى فى الطـاقة على العمل يحقد على الايجابى فيها ٠

واذا تحولت علاقات الأفراد فى المجتمع الى أحقاد وضغائن فان المجتمع نفسه يشك فى وجوده قائما ، الا فى شكل تجمعات سكانية على أرض معينة ، وفى ظل جو جغرافى خاص ٠

ولكى تقاوم الأحقاد وآثارها السلبية على المجتمع ، بحيث لا تنمو ، أو بحيث تقف عند حدها الأدنى ، عنى القـرآن الكريم بأنواع معينـة من أفراد

الأمة فى رعايتها والسهر على شئونها · وهذه الأنواع هى التى حددت فى مصارف الزكاة فيما تقوله الآية :

« انما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم » (١) ·

··· واذا كانت مقاومة الحقد ـ بسبب المفارقة فى ملكية المال ـ واضحة فى الرعاية بالفقراء ، وهم الذين يعجزون عن الكسب لسبب ما ، وبالمساكين وهم الذين سعيهم فى العمل ودخلهم من أعمالهم لا يفى بحاجتهم ·· فان هناك ضروبا ثلاثة أخرى فى هذه المصارف لا تقل رعايتها فى المجتمع أهمية عن الرعاية المباشرة لوقف الحقد عن مستواه الأدبى بين الفقراء والمساكين ·

الضرب الأول : رعاية تحرير الانسان من رق الانسان واستعباده ، وتخليصه من قيود التبعية لغيره ، سواء أكان الرق فى صورته البدائية أو فى صورته العصرية ، وسواء أكان رق فرد أم رق جماعة ·

والانسان الرقيق هو انسان يتمتع بخصائص الطبيعة البشرية ، التى من بينها : الحقد على من يسد فى وجهه منفذ الحرية الفردية ، والاستقلال فى الرأى ، والمساواة الكاملة فى الاعتبار البشرى ·

الضرب الثانى : تخليص الغارمين من ازماتهم المالية ، بسبب ما انفقوا فى الدفاع عن الأمة ، أو فى اتقاء الفتنة بين طوائف المؤمنين والاحتفاظ بالعلاقات الطيبة بينهم ، أو بسبب ما تعرضت له أموالهم من التلف والضياع بفعل العوامل الطبيعية : كالسيول والفيضانات ، أو الجفاف وغارات الجراد مثلا ، أو بفعل الحروب والتدمير فيها ، أو بفعل الحرائق وما يشبه ذلك مما لا يدخل فى ارادة الانسان ومسئوليته الشخصية ·

فهذا الغارم ـ وقد كان يملك بالأمس ولا يملك اليوم ـ سيحقد على المجتمع الذى لا يؤازره فى محنته ، وقد ذهبت أمواله : اما فى سبيل هذا المجتمع ، أو على كره منه شخصيا ·

ومثل الغارم ـ من بعض الوجوه ـ ابن السبيل ، وهو المار فى سفره باخوان له فى الدين والايمان ، ولا يملك اتمام سفره · فيوم لا يعاون منهم

---

(١) التوبة : ٦٠ ·

يفقد الثقة بتضامنهم ، وربما يجعله ينكر على المجتمع دعوته الى التضامن والتعاون ، وربما يذهب الى أبعد من ذلك فيحقد على سواه ممن كان يستطيع أن يعاونه ولم يفعل ٠

والضرب الثالث : سبيل الله ، وهو سبيل الدعوة الى قيم الايمان بالله ، وسبيل الحفاظ عليها ٠ وفى سبيل الحفاظ على الدعوة ومبادئها الحفاظ على الأمة التى تحمل الايمان بها ، والدفاع عنها ٠

وهذا الضرب الثالث فى عدم رعايته أكثر اضرارا على المجتمع من عدم رعاية الحيلولة بين الحقد والخروج عن مستواه الأدنى فى نفوس الحاقدين من الغارمين ، أو أبناء السبيل ، أو الفقراء والمساكين ، أو الأرقاء ٠٠ اهمال هذا النوع أكثر اضرارا ، لأن مصدر التمويل للدعوة الى القيم الايمانية عندئذ سيجف ، والقيم الايمانية هى المركز الذى يدور عليه ترابط أفراد المجتمع الاسلامى بعضهم ببعض ٠ ومعنى ذلك : انتهاء المجتمع الاسلامى بمعناه الواقعى يوما من الأيام ، وتعرض أفراده الى الغزو الفكرى أو العقائدى ٠

عاملان ضروريان فى بقاء المجتمع الاسلامى مجتمعا قويا ، ومجتمعا واقعيا :

العامل الأول : محاربة « الحقد » فى نفوس أصحاب الحاجة من : الفقراء ، والمساكين ، والغارمين ، وأبناء السبيل ٠

والعامل الثانى : الابقاء على مصدر تمويل الدعوة الاسلامية واستمرارها واستمرار الكفاح فى سبيلها ٠

ومصارف الزكاة ــ حسبما وردت فى القرآن الكريم ــ كفلت لهذين العاملين بقاءهما وقوتهما ٠

والرسول الحاكم ــ عليه الصلاة والسلام ــ يطلب اليه كتاب الله أن يلتزم الحكم بما أنزل الله :

« وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما انزل الله ، ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق » (١) ٠

---

(١) المائدة : ٤٨ ٠

٠٠٠ ومما قضى به كتاب الله : أن تكون رعاية مصارف الزكاة أمرا ضروريا ، لا تراخى فيه من الحاكم ٠

« ٠٠٠ فريضة من الله ، والله عليم حكيم » (١) ٠٠ عليم بما يتم فى شأنها من ولى الأمر العام ، وحكيم فيما حدده فيها من أنواع الأفراد صيانة للمجتمع من التدهور والتفكك ، اما بسبب الحقد أو بسبب اهمال دواعى الترابط بين أفراده ٠

★ ★ ★

٢ ـ توجيه الأمة الى العمل الانسانى :

ويخطىء من يظن أن « التوازن » بين العمل والأجر فى مجال أداء العمل ، وبين السلعة وثمنها فى البيع الشراء ، وبين المشورة ومكافآتها فى ميدان الاستشارات الطبية والقانونية والفنية على العموم ، وبين أى شىء ومقابل له ٠٠ كاف فى تماسك المجتمع وترابطه ترابطا قويا ٠٠

يخطىء من يظن ذلك ٠ لأن علاقة التوازن أو التقابل بين الشراء ومقابله، تنتهى بانتهاء الاتفاق أو العقد أو بانتهاء الأداء ٠ وليس هناك بعد ذلك أى ارتباط ـ فضلا عن أى التزام ـ بين الطرفين ، سوى ما يتذكره كل طرف عن صورة الأداء التى أدى بها ما اتفق عليه ٠٠

وعلاقة « التوازن » هى اذن علاقة تبادل منفعة ، تنتهى أخيرا الى صور المنافع المادية ، التى يمكن أن تقع بين أفراد فى مجتمعات عديدة وأمم وشعوب مختلفة ٠٠ ومن أجل ذلك لا يسهم التوازن أو العدل بمعناه الضيق ـ فى حدود التقابل بين الأمرين أو الطرفين ـ فى قوة التماسك بين أفراد المجتمع الواحد ٠

ولذا يجب أن يكون « التوازن » أو « العدل » قاعدة عمل فقط بين أفراد المجتمع وأفراد الأمة الواحدة ، بعضهم مع بعض ، ويستتبع بعده حتما عملا اضافيا آخر من جنسه أو من غير جنسه فى غير مقابل ، وراء حدود التوازن والعدل بمعناه الضيق ٠٠

وهذا العمل الاضافى الآخر هو فى طبيعته ذو طابع انسانى ٠٠ والعمل صاحب الطابع الانسانى هو ما يرتفع فوق المنفعة أو المصلحة المادية ٠٠ وفوق

---

(١) التـوبة : ٦٠ ٠

المبادلة والمعاوضة بالمثل ·· هو عمل باعثه الميل الانسانى العام ·· الـذى يتمثل فى العطف والمودة والرحمة ، والعون ·· وهذه كلها ـ وأمثالها ـ معان لا تقابل بمادة ولا تدخل فى عقد بين طرفين ·

وقد يكون العمل الاضافى الانسانى فى توصيل منفعة مادية أو معنوية الى الغير ، وطبعا بدون مقابل منه ··

وقد يكون فى تجنيب الغير الأذى والضر ·· وأيضا بدون مقابل كـذلك اللهم الا وجه الانسانية وحدها ··

وفيما يذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ان الله يأمر :

بالعدل ، والاحسان ، وايتاء ذى القربى

وينهى :

عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (١) ·

··· يصور العمل الانسانى الاضافى الذى يجب أن يقوم به كل فرد فى الأمة بجانب مباشرته للعدل وحرصه على شأن « التـوازن » فى العقـود والمبادلات وكل ما يقع بين طرفين لمصلحة لهما معا ·· يصور العمل الانسانى الاضافى فيما يوصل منفعة للغير ، بما عبر عنه هنا بالاحسان ··· وبايتاء ذى القربى ··

ويصور العمل الانسانى الاضافى فيما يقى الآخر من الأضرار والايذاءات بما عبر عنه بالنهي عن : الفحشاء والمنكر والبغى ·

فالاحسان توصيل منفعة انسانية فى غير مقابل ، لمن لا يعترف بمطالبته من المحسن فى الحياة الاجتماعية ·

وايتاء ذى القربى توصيل منفعة انسانية فى غير مقابل ، لمن يعترف بمطالبته من المحسن فى الحياة الاجتماعية ·

---

(١) النحل : ٩٠ ·

وكلا الأمرين : الاحسان ، وايتاء ذى القربى : لهما أثرهما الذى لا ينكر فى قوة الترابط بين الأفراد ، عن طريق اضعاف الحقد فى نفوس ذوى الحاجة أولا ·· وعن طريق معاونتهم ثانيا على اجتياز مشقة العيش والمحافظة على البقاء الفردى ·

أما الفحشاء ـ وهى الجرائم الاجتماعية الكبرى كجريمة الزنا ـ والمنكر ـ وهو الذى يستقبح عمله ·· ويخجل فاعله من الحديث عنه : كالظلم ، والغيبه ، والنميمة ، والتجسس ـ والبغى وهو الاعتداء على حرمات الآخرين ·· فتجنبها ينطوى على وقاية الآخرين من الأضرار والشرور ·· وابعاد الأذى والضرر عن الغير هو عمل انسانى كذلك · وصلت منفعته الى الآخرين بدون مقابل ··

وكل من النوعين فى العمل الانسانى السالف لا يباشره الا مؤمن ، أو الا فرد حر تخلص من سيادة الهوى والشهوة على سلوكه وتفكيره وارادته ·· اذ الانسان الذى لم يتحرر بعد من سيادة الشهوة والهوى ، لا يتحرر اطلاقا من التزام التقابل والتوازن والعدل بمعناه الضيق فى معاملة الآخرين معه ، فى مجتمعه وأمته ·· ومن ثم يحرص على المنفعة الخاصة فى كل عمل له ويمسك عن العمل الانسانى الاضافى الذى يذهب الى الآخرين بدون مقابل ··

★ ★ ★

٣ ـ رعاية المجتمع :

فى سورة من السور القصار فى كتاب الله جل جلاله ـ وهى سورة : الضحى ـ يعرض القرآن الكريم لوضع الرسول عليه السلام فى نشأته ومراحل تطوره ، ويذكره بما كان له من وضع سابق ليرتب عليه مسئوليته الآن كحاكم ، ازاء افراد جماعته ممن لهم هذا الوضع فيذكره :

★ بأنه كان يتيما ، لم يسعد بوجود والديه معه وكفالتهما اياه : فى طفولته وفى سنى مراهقته ،

★ وبأنه كان حائرا فى توجيهه ، بجانب حيرته فيمن يرعاه بسبب يتمه ،

★ وبأنه مع هذا وذاك كان فقيرا ، لا مال لديه يستند اليه فى عيشته ونفقاته ·

··· فهو محروم الوالدين ، محروم التوجيه ، محروم السند من الثروة والمال · وليس هناك انسان تتوفر له ظروف البؤس مثل ذلك الانسان الذى

يحرم كفالة الوالدين ، ويفقد المصدر السليم للتوجيه ، ويحيط به الفقر فيجعل حياته فراغا الا على هموم الحياة المادية ومشاكل العيش فيها :

••• يذكره بأن الله جل جلاله لم يتركه يواجه ظروف البؤس وحـده ، ولم يترك هذه الظروف تنال منه وينل لها ، بل أفاض عليه بالرعاية فى كل جانب من هذه الجوانب التى كيفت وضعه السابق . كما أفاض عليه بالرضاء ، مما جعل حياته تتبدل وتصير نهايتها أفضـل وخيرا من بدايتهـا ، وأصبح الرسول المختار الذى يطلب اليه الآن كحـاكم فى أمتـه أن يكون فى جانب المحروم : ان فى كفالة وبسبب يتم ، وان فى مال وبسبب فقر ، وأن فى صحة وبسبب مرض ، وان فى معرفة وعلم بسبب جهل وأمية ، كما كان الله من قبل فى جانبه :

« **الم يجدك يتيما** (بدون كفالة) **فآوى ؟• ووجـدك ضـالا** (حائرا) **فهدى !• ووجدك عائلا** (فقيرا) **فأغنى !** » (١) •

••• فقد هيأ له عمه أبا طالب فكفله فى عطف ومحبة ، وصانه سبحانه عن الانحراف فى السلوك والتفكير حتى بدء اختياره للرسالة ، وأغناه من فضله أولا بالقناعة ثم بذلك المال الذى كان يعمل فيه لحساب زوجته خديجة رضى الله عنها •

••• ولكى يؤكد الله سبحانه وتعالى الرعاية للرسول عليه السلام فى هذه الجوانب الثلاثة يقسم فيقول :

« **والضحى • والليل اذا سجى** (سكن واستقر) • **ما ودعك ربك وما قلى** (أبغضك وكرهك) •

وللآخرة خير لك من الأولى » (٢) •

••• يقسم بالضحى فى وجودها الملموس فى النهار ، وبالليل عند سكونه واستقراره الذى لا ينكر ، ليقول : ان الله فى عدم تركه لرسوله أثناء حاجته للرعاية ، وفى رضاه وعدم بغضه له طوال هـذه الحاجة ، لهـو فى وقوعه وتأكده على نحو ضحى النهار ، والليل فى سكونه ، لا ينكر بحال • وكـانت نتيجة تلك الرعاية التى لم تفتر •• هو ما طرأ من خير ملموس فى تطور حياة

---

(١) الضحى : ٦ ـ ٨ •   (٢) الضحى : ١ ـ ٤ •

الرسول عليه السلام ، وتبدل واضح لشأنه ، فأصبح رسولا وداعية ، كما أصبح حاكما فى أمة تؤمن به وبرسالته ٠

هذا التبدل الواضح لشأن الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته جدير بأن يجعل من حكمه رعاية ، وليس سلطة أو تسلطا ٠٠ جدير بأن يجعل منه انسانا يميل الى تحقيق المعانى الانسانية وحدها ويعيش من أجلها وفى سبيلها ٠٠ جدير بأن يجعل حكمه الى وقوف بكل ما يملك الى جانب « الضعيف » ٠٠ الضعيف بسبب اليتم ، أو الضعيف بسبب السؤال والحاجة :

« فأما اليتيم فلا تقهر ٠ وأما السائل فلا تنهر » (١) ٠

واليتيم ضعفه معروف ٠٠ ضعفه بسبب صغر السن ، أو بسبب اغراء ما ترك له من مال ، فتتزاحم عليه الأكلة الذين لا يرحمون الضعيف ، ولكنهم يخشون القوى ٠

وصاحب السؤال والحاجة ضعفه فى أنه يسأل غيره : اما بسبب ضيق اليد ، أو بسبب الجهل ، أو بسبب المرض ٠

والرسول عليه الصلاة والسلام اذ يرعى الضعيف فى الأمة لا يرعاه فحسب بحكم وظيفته كحاكم لجماعة المؤمنين ، ولكن مع ذلك ليترجم عن نعمة الله عليه ، التى خرج هو بسببها من وضع الضعيف الى وضع القوى :

« وأما بنعمة ربك فحدث » (٢) ٠

وهو لا يحدث عن نعمة الله عليه بقول ، وانما فى الدرجة الأولى برعايته للضعيف ومساندته فى ضعفه حتى يخرج من هذا الضعف ٠

ولم تكن مطالبة القرآن للرسول عليه الصلاة والسلام بهذه الرعاية الاجتماعية ، بوقوفه جانب الضعيف ، أمرا خاصا به لا يتعداه الى حاكم بعده ممن يتولون شأن الأمة الاسلامية ، أو الى واحد من المؤمنين فى جماعتهم ٠ وانما مطالبته بها كحاكم أولا وكراع تعم رعايته أفراد الأمة : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ٠ وتذكيره ــ فى جانب مطالبته بهذه الرعاية ــ بوضعه السابق وبوضعه الآخر اللاحق وفضل الله عليه ، ليكشف فقط عن الدواعى

---

(١) الضحى : ٩ ، ١٠ ٠ (٢) الضحى : ١١ ٠

التى تدعو الى رعاية الضعيف من الحاكم ، وقد تجسمت فى تجربة مر بهـا عليه الصلاة والسلام شخصيا ٠

والا فافراد المؤمنين مطالبون كذلك برعاية الضعيف ، واقربهم الى الله والى رضاه من يجعل فى ماله حقا ـ وراء الزكاة ـ لصاحب الحاجة ، فيقول القرآن الكريم :

« ان المتقين فى جنات وعيون ٠

آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك (فى الدنيا) محسنين »(١)

« وفى اموالهم حق للسائل والمحروم » (٢)٠

٠٠٠ فيجعل من صفات المتقين الذين يستمتعون بالجنة الآن انهم كانوا فى دنياهم يرون فى أموالهم حقا للسائل والمحروم ، رعاية لصاحب الحاجة ٠ واذ يرون هذه الرعاية حقا للضعفاء فليس هناك مكان فى نفوسهم للامتنان على هؤلاء بما يقدمونه لهم من أموالهم ٠ وليس هناك اكرم على المعطى من أن يرى هو نفسه ـ وليس من غيره ـ أن عطاءه حق لغيره ، وليس هناك اكرم من المعطى اياه من ان يصور العطاء له بانه حق يستوفيه من غيره ٠

واذا كانت رعاية الضعفاء مطلوبة من القادرين فانها بالأولى مطلوبة من الحاكم الراعى الأول ٠ لأنه القادر قبل غيره ، وقدرته ليست بماله الخاص ، وانما بولايته وبتوجيهه وبالطاعة له ، وهى طاعة منبثقة عن المحبة له والرضا بولايته ٠

وليس هناك ما يبعد قضية « المال » فى نظرة الاسلام عن ان تكون قضية « تحكم » لجانب و « اذلال » لجانب آخر ، من تصوير القرآن الكريم للانتفاع به فى قوله :

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ،

فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت ايمانهم ،

فهم فيه سواء ،

افبنعمة الله يجحدون ؟ » (٣) ٠

---

(١) الذاريات : ١٥ ، ١٦   (٢) الذاريات : ١٩ ٠
(٣) النحل : ٧١ ٠

... فمع تقرير القرآن : مبدأ التفاوت فى الأموال والأرزاق ، فليس ما يعطى أو ينفق منها على الأتباع هو من مال المالك ، بل ان التـابع والمالك كلاهما سواء فى الانتفاع بما فى يد المـالك من أرزاق تصرف له · وتصور خلاف ذلك يعتبر جحدا وانكارا لنعمة الله · واذن التابع لا يشعر بمنة المالك عليه فى المال ، ولا يعتبر أن له يدا عليه · لأن الله سبحانه هو الرزاق :

« وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » (١) ·

★★★

٤ ـ الرسول الحاكم ـ يمارس مبدأ التواضع والرحمة بالمؤمنين فى المعاملة :

★ « الحكم » فى نظر الاسـلام ليس سلطة ، بل بالأحرى هو قضـاء وفصل · لأن « الالزام » الذى يلتزم به المؤمن فى مجتمعه فى الأداء والترك هو الزام ذاتى ، أى من ذات المؤمن وايمـانه هو ، وليس من شخص أو مؤسسة خارج ذاته : تأمره فيطيع وتنهاه فينتهى ·

ايمان المؤمن بالله هو مصدر الالزام ، وهو مصدر الطـاعة فى الفعل والترك · وحكم الرسول عليه الصلاة والسلام ، هو حكم قضاء ، والالتزام به من جـانب المؤمنين يعود الى ذواتهم أولا · وبذلك يختلف حكم الاسـلام عن الحكم المعـاصر فى أن هذا الأخير اذا اعتمد على القـانون ـ وهو قضاء ـ يعتمد أيضا على القوة الجبرية المنفذة له · وهى قوة خـارجية وراء الذات للفرد ، وهى التى تلزم ، والفرد عندئذ يلتزم ·

واذن الفرد فى المجتمع المعاصر قلمـا يلزم نفسه بالطاعة فى الفعـل والترك عن مشيئة واختيار · والالتزام له هو من القوة المادية الخارجية وراء ذاته · وتطبيقا لهذا الفرق بين الحكم فى الاسلام والحكم الانسانى المعاصر ، يتضح أن الفـرد فى « الحكم » فى الاسـلام مختـار فى الزام نفسه بالفعـل والترك ، وفى الحكم الانسانى المعاصر مجبر ومضطر فى الالتزام فى الفعل والترك · والدولة فى الاسلام لذلك دولة أخلاقية بينهما فى نظام الحكم المعاصر دولة قانونية أو بوليسية ·

وهذا الفرق يعود الى طبيعة تكوين المجتمعين : فالمجتمع الاسلامى لا يتكون عن طريق القهر والاكراه اطلاقا ، وانما يتكون على أساس من قبول

---

(١) هود : ٦ ·

الايمان بالله · والانسان فى قبوله الايمان بالله يقبله حرا ومختارا · ولذا كل تصرف من الانسان المؤمن بعد ايمانه ليس له اعتبار فى نظر الاسلام ، الا اذا كان هنـاك من المباشر له قصد اليه و « نية » فى فعله أو تركه ، ثم كـانت له ارادة بعد ذلك فى فعله أو تركه ·

أمـا المجتمع المعاصر فهو غالبـا يتكون عن طريق الدفـع بصـورة أو بأخرى · فكل المجتمعات الأوروبية تقريبا هى مجتمعات قامت على دفع ثورة مباشرة أو غير مباشرة · وهى تلك المجتمعات التى لها نظام الحكم المعاصر فى تاريخ الانسانية اليوم ·

كذلك الحكم فى الاسـلام ليس « تسلطـا » · على معنى أنه ممـارسة لشهوة التسلط والاستعلاء · لأنه طالما كانت الدولة فى الاسلام دولة أخلاقية فى سياستهـا ، وكان الفرد فيها يلزم نفسه بالطاعة ، ويلتزم بنتائج ايمـانه الحر فى السلوك والتصرف ·· فليس هناك مكان لشهوة فى الحـكم ، حتى تكون مباشرته تسلطا ·· وانما الحكم خدمة عامة ، لا يؤجر عليها من يباشره· وهو خدمة قضاء · وتنفيذ فى الحـدود التى رسمها القرآن ووضحتها السنة الصحيحة ·

يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

« يؤتى بالولاة – وهم الحكام – يوم القيامة فيقول الله جل جلاله : انتم كنتم رعاة خليقتى ، وخزنة ملكى فى أرضى ، ثم يقول لأحدهم : أنت ضربت عبادى فوق الحد الذى أمرت به ؟ فيقول : يا رب ! لأنهم عصوك وخالفوك · فيقول جل جلاله : لا ينبغى أن يسبق غضبك غضبى ! · ثم يقول للآخر : لم ضربت عبادى اقل من الحد الذى أمرت به ؟ فيقول : يا رب ! رحمتهم ، فيقول تعالى : كيف تكون أرحم منى ؟ خذوا الذى زاد ، والذى نقص . فاحشوا بهما زوايا جهنم » ·

وهذا القول للرسول صلى الله عليه وسلم يصور وظيفة « الحكم » فى أنها بعيدة كل البعد عن أن تتبع شهوة النفس ·

★ وهنا اذ يوجه القرآن الكريم رسول الله ، عليه الصلاة والسلام – وهو حاكم – فى معاملة المؤمنين بالتواضع وبالرحمة : فيقول :

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (١) ·

---

(١) الشعراء : ٢١٥ ·

ويقول كذلك :

« محمد رسول الله ، والذين معه ، اشـــداء على الكفار ، رحمـــاء بينهم » (١) ٠

٠٠٠ اذ يوجه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذا ، وبذاك ٠٠ فانه لا يبقى فحسب على علاقات المودة بين المؤمنين جميعا ، بمـــا فيهم من يولى الحكم ومن لا يولاه على السواء ، بل ليوجه الحاكم فى الأمة الاسلامية بأن وظيفة الحكم ليست مصدر استعلاء ، وانما هى مسئوليات وخدمات عــامة للآخرين ٠ وعن طريق التواضع فى المعاملة ، والرحمة والمشاركة فى العواطف الانسانية الكريمة بين من يولى الحكم ومن لا يولاه يشتد الترابط والصــلات بين الأفراد جميعا ٠ ثم لا تكون وظيفة الحكم عندئذ مغرية يتنافس عليها من له الصلاحية ومن ليست له ٠ لأن ابعادها عن أن تكون مصدرا لتسلط واستعلاء يجعل من يُقبل عليها يقبل فى غير تلهف وفى حيطة وحذر ٠

والذى يفسد الحكم دائما هو أن ينظـــر اليه على أنه « صـــناعة » و « حرفة » ولذا ينتظر من مباشرته الغنم المادى أو الأدبى على الأقل الــذى يتخذ فيما بعد طريقا لتحقيق الفوائد المادية ٠ كما قد يتخذ وسيلة للتسلط أو طريقا للانتقام ٠

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٢) ٠

٠٠٠ فما يجب أن يتبع فى سياسة الأمة هو المغفرة عن الخطأ ، والعطف والرقة فى المعاملة ٠ والا انفض المجتمع فى علاقاته وتماسكه ، وان بقى هيكلا فى ظاهره ٠

★★★

---

(١) الفتح . ٢٩ ٠　　(٢) آل عمران : ١٥٩ ٠

(٣) فى سبيل سلامة الأمة

١ ـ السعى الى القوة فى سبيل سلامة الأمة :

يطلب القرآن الكريم الى الرسول الحاكم ـ والى المؤمنين معــــه ـ أن تكون الأمة فى مواجهة عدوها ، وهو عدو الله كذلك ، على درجة من القــوة المادية تستطيع بها أن ترد عدوانه فى كل لحظة · والهدف من أن تكون الأمة من وضع قوى دائما ليس هو استخدام القوة للاعتداء والتوسع ، وانمــــا لارهاب العدو وتحذيره من الاقدام على العدوان ، ان فكر فيه · فالقوة هى للوقاية والحماية ، وللمواجهة عندما تضطر الأمة الى المواجهة :

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (١) · والخطاب فى الآية موجه الى المؤمنين جميعا ـ وليس الى الرسول الحاكم وحده ـ للدلالة على وجوب مشاركة الأمة لحاكمها فى هــذا الموضوع مشاركة مشورة وعمل فى هذا الموضوع الذى يرتبط مستقبلها به · هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : للدلالة على أن الأمة مهما بلغت علاقتهــــا النفسية بحاكمها وارتياحها واطمئنانها الى حكمه ·· فانها لا ينبغى أن تفنى فيه ولا أن يذهب وجودها فى وجوده ·

وعدو المؤمنين هو عدو الله اذا كـــانوا مخلصين فى ايمـــانهم ، ولم يحترفوا به أو ينتسبوا اليه انتسابا ، دون أن يعملوا بمبادئه ·

واضطرار الأمة الى مواجهة عدوها أمر يكاد يكون لازما فى طبائع المجتمعات الانسانية بسبب اختلافها فى العقائد ·

فالمجتمع الانسانى لا يختلف عن مجتمــع آخر بلـــون البشرة للأفراد أو بالوضع الجغرافى ، فى الاستقرار ، بقدر ما يختلف عنه بسبب العقيدة التى تكون تاريخه ، وتحدد هدفه فى الحياة ، وتصبغ لغته بصبغتها ، وترسم خطوط السلوك العام فى التعامل لأفراده بعضهم مع بعض ، أو لهم مع غيرهم خارج مجتمعهم ·

واختلاف العقائد اذن يحمل امكانية الخصــومة فى ذاته · فاذا أزره التعصب للعقيدة حمل معه كذلك وقوع المواجهة بين مجتمع وآخر · وقد تقع

---

(١) الأنفال : ٦٠ ·

المواجهة مع عدة مجتمعات ، طالما يشتد الاختلاف فى العقائد بينها • ولذا : عدو اليوم لمجتمع قد يخلفه غدا عدو آخر لهذا المجتمع ذاته ، ويخلفه بعد غد عدو ثالث له أيضا •• وهكذا •••

وهذا ما تشير اليه الآية السابقة عندما تقول ـ بعد النداء الى المؤمنين باعداد القوة :

« ••• وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم » (١) •

••• أى وأعداء آخرين ، لكم والله لا تعلمونهم ، لأنهم فى طى المستقبل والله وحده هو الذى يعلمهم ، لأنه علام الغيوب •

ولكى يؤكد القرآن أن القوة التى يعد المؤمنون بها أنفسهم هى لوقاية مجتمعهم وحمايته من عدوان عدوهم ، وليست للاعتداء على غيرهم أو التوسع بغية السيادة والاستغلال الاقتصادى أو السياسى ، يستطرد فيقول ، مخاطبا الرسول الحاكم ، وموجها اليه الأمر لتنفيذه :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها ،

وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم » (٢) •

••• أى اذا مال الأعداء للمسالمة فليس هنا من موقف للمؤمنين ازاءهم سوى الاستجابة لميلهم ، وسوى الاعتماد عندئذ على الله ، والركون اليه فى الوقاية مما يبيتون من سوء ، ان اتخذوا السلام ، خدعة للغدر والانقلاب • فالله كفيل برد غدرهم • وبنصر المؤمنين عليهم ، بما ربط بين قلوبهم من رباط الايمان ، والألفة ، والأخوة :

وان يريدوا أن يخدعوك (بعرضهم السلام) فان حسبك الله ،

هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ،

والف بين قلوبهم ، لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما الفت بين قلوبهم ،

ولكن الله الف بينهم ، انه عزيز حكيم » (٣) •

وضمان الله للمؤمنين بالنصر على أعدائهم ـ سواء فى المواجهة السافرة

---

(١) الأنفال : ٦٠ • (٢) الأنفال : ٦١ •
(٣) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ •

أو عند التبييت للعدوان ـ فى تحليله الأخير ، حسب ما جاء فى هذه الآية ، يعود الى :

★ الايمان بالله فى اخلاص • وأمارته الانفاق فى سبيل الله فى مشيئة حرة ، وفى تقرب الى الله وحده •

وسبيل الله فى هذا المجال هو الاسهام فى اعداد القوة لارهاب العدو ووقاية المؤمنين من الاعتداء عليهم •

★ كما يرجع الى الألفة القوية التى لا يصنعها الاغداق المادى ، مهما اتسعت دوائره ، وانما يصنعها حب الله والعمل لتحقيق القيم الرفيعة ، التى تحيل حقد النفوس الى صفاء ووئام ، والشره فى التنافس على فتات المتع المادية الى التواد والتعاطف بين الناس •

ومع أن الانفاق فى سبيل الله ، أو فى سبيل اعداد القوة للأمة هنا ، مظهر من مظاهر الايمان بالله الا أن الله جل شأنه لم يجعله من غير مقابل مادى أو معنوى لمن أنفق •• مقابل مجز ، لا ينطوى على شائبة من الاجحاف :

« وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون » (١) •

وهذا المقابل قد يكون راحة النفس لما قامت به فى سبيل الجماعة • وقد يكون رضاء الناس ومودتهم للمنفق ، أو عدم حقدهم عليه على الأقل • وقد يكون وقايته من شرور النفس والآخرين • وقد يكون التزام المنفق جادة الاستقامة فيما يفكر ، أو يسلك ، أو يتصرف • وكل أمر من هذه جزاء طيب لما أنفق فى سبيل الله •

والأمة التى تنتصر على أعدائها يجب أن تتوفر لها اذن العوامل التالية:

أولا : القوة المادية ، واشراك الجميع فى اعدادها عن طريق الارادة الحرة • والارادة الحرة توجد حيث يوجد الايمان بالله الذى يرتضيه الاسلام • وهو ذلك الايمان الذى يخلو من كل شائبة للاكراه أو الارهاب : **« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »** (٢) •
« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » (٣) •

---

(١) الأنفال : ٦٠ • (٢) النحل : ١٢٥ •
(٣) البقرة : ٢٥٦ •

ثانيا : القوة المعنوية وهى : الترابط والتآلف والاخـــاء ، لا بين الأبدان ، وانما بين القلوب والنفوس . وسبيل هذه القوة المعنوية هو الله ، والعمل فى سبيله ، واستهدافه فى كل تصرف أو تفكير للانسان . ويستحيل أن تكون المنفعة المادية هى الطريق الى تلك القوة المعنوية، مهما كان شأن تلك المنفعة ومداها . لأن النفع المادى يثير الشهوات والأهواء ، ولا يؤسس أى رباط لا بين الأبدان فى تكتلها ، ولا بين النفوس فى تجمعها . واثارة الشهوات والأهـــواء تدفع الى طلب المزيد . فان لم يتحقق هذا المزيد كان الانتكاس وتولية الأدبار .

ثالثا : غاية القوة هى الوقاية والحمـــاية من العدوان ، وليست الغـــزو والتوسع والحصول على المغانم المادية والأسلاب من المال ، والنساء، وجاه الحياة .

فاذا لم تتوفر هذه العوامل ـ كلها أو بعضها ـ فليس هناك سبيل مؤكد للنصر ، وليس هناك بالتالى عون من الله ، مهما تلى القرآن وآياته ، ومهمـــا صاح المصلون بالدعوات فى المساجد أو الخلوات .

وعصر العلم مهما بلغ فى التقدم فان تقدم العلم فيه لا يكون عوضـــا اطلاقا عن الايمان بالله فى تصفية النفوس وترابطها ، وفى نجاحها على هواها وعدوها على السواء . ان الروحية هى لصفاء النفوس وتماسكها ، وان العلم وتقدمه لتطبيب الأبدان ورفاهيتها ، أو تخريب الحياة وتدميرها .

★★★

٢ ـ الوقاية من عوامل الهدم الداخلى :

ولا يكفى فى أداء المجتمع الجديد رسالته أن يقوم على أعقاب مجتمع آخر سبقه . بل بقاؤه فى قيامه وتماسكه فى حاجة الى صيانة أولا من عوامل الهدم الداخلى : وهى عوامل النفاق والمنافقين فيه .

والمجتمع الاسلامى هو مجتمع جديد بالنسبة للمجتمع السابق عليه فيما مضى ، وهو جديد كذلك بمبادئه الانسانية بالنسبة الى مجتمع آخر فى أية فترة من فترات التاريخ بعد ذلك ، يمارس مبادىء أخرى تغـــاير مبادئه ، ويدعو الى أهداف تختلف مع أهدافه .

وهذا الاختلاف فى المبادىء والأهداف هو الذى يجعل المجتمع الاسلامى عرضة للتحدى : سواء فى داخله أو خارجه . والذين يحملون عنصر التحدى فى داخله ثلاثة أنواع من الذين ينتسبون اليه .

النوع الأول : المنافقون وهم الذين يعلنون ايمانهم ورضاهم بالمبادىء التى قام على أساس منها المجتمع الجديد ، وفى حقيقة أمرهم يضمرون العداء لها ويحاولون بطريق أو بآخر تدميرها وانهاء أمر المجتمع نفسه ٠

والنوع الثانى : الحاقدون على المجتمع الجديد ولا يستطيعون اظهار حقدهم ، كما لا يستطيعون اعلان كفرهم بمبادئه أو تكرار الايمان بها ، اما توقيا لضرر مادى أو ادبى يتوقعونه لو أعلنوا كفرهم بها ، أو لنفع يرجون الوصول اليه ببقائهم على وضع المتستر فى شأنها ٠ وهؤلاء هم مرضى النفوس والقلوب ، غلب عليهم الحقد فأعجزها عن أن تحمل بواعث الخير ، وأبقى على ضعفها فى تمنى زوال الخير لمن عداها ٠

والنوع الثالث : أصحاب الأراجيف والأكاذيب ، يتهافتون على اختلاقها وترويجها ، اما اشباعا لرغبة الاختلاق والترويج ، أو تنفيسا عن بغضاء وعداء نفسى دفين ٠

ووجود هذه الأنواع الثلاثة داخل كل مجتمع جديد أمر طبيعى ، وصفة اجتماعية لا تتبدل ولا تتغير ، والمجتمع الاسلامى هو مجتمع انسانى يخضع للسنن الاجتماعية وقوانين الطبيعة البشرية فى قيام المجتمعات وبقائها وفى تعرضها للضعف والتحدى ٠

والرسول عليه السلام باعتباره حاكما ـ وليس باعتباره داعيا ـ يطلب اليه القرآن الكريم أن يكون موقفه من النفاق والمنافقين ، أو من تلك القوى التى تتحدى المجتمع فى مبادئه وفى بقائه ، هو التريث فى أول الأمر ، اكتفاء بما يعلنه القرآن الكريم من تنديد ومن عذاب متوقع للذين يؤذون بنفاقهم مبادىء الاسلام فى تحديها فى غير اعلانها ويؤذون الرسول عليه السلام فى شخصه أو فى أسرته ، ويؤذون المؤمنين والمؤمنات فى علاقات بعضهم ببعض بالقول ، أو بالفعل ، أو بتبييت السوء ٠

يذكر القرآن الكريم :

« ان الذين يؤذون الله ، ورسوله ، لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا ٠ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا » (١) ٠

٠٠٠ فيسجل لعنة الله على تلك العناصر التى تحمل عوالم الهدم

---

(١) الأحزاب : ٥٧ ، ٥٨ ٠

للمجتمع من داخله ، كما يحملهم الوزر ومسئولية الجريمة فيما يختلقونه من اكاذيب ، كسبيل لاضعاف الصلات والروابط فيه بين المؤمنين ٠

وفى الوقت الذى يقف فيه الرسول الحاكم ـ عليه السـلام ـ موقف التريث هذا يطلب اليه القرآن الكريم أيضا فى صراحة : عدم طاعتهم فى رأى يبدونه ، وعدم تصديقهم فى قول يقولونه ، وعدم محاكاتهم فى عمل فردى أو اجتماعى يقومون به : « **ولا تطع الكافرين ،**

والمنافقين ، ودع أذاهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » (١) ٠

٠٠٠ فيقرن عدم الطاعة للمنافقين ـ وهم الذين يمثلون العنصر الهدام من داخل المجتمع ـ بعدم الطاعة للكافرين وهم العنصر الذى يحمل العداء فى علانية للمجتمع ومبادئه من خارجه ، دليلا على تساويهم فى محاولة الاساءة لرسالة المجتمع الجديد والنيل منه فى بنائه وتماسكه ٠

ولكن موقف التريث والصبر هذا على الايذاء ـ بجانب الحذر وعـدم الطاعة ـ سرعان ما يتغير ويتحـول الى موقف ايجابى يأخـذ فى الاعتبار القضاء نهائيا على مصدر التحدى وعلى تلك العناصر التى تحاول الاساءة بطريق غير مباشر الى أهداف المجتمع وقيمه ومبادئه ، تلك المبادىء التى قام من أجل أدائها والحفاظ عليها ، وهى عناصر النفاق ، والحقد والاختلاق ٠ وذلك عندما يتكرر ايذاؤهم ، ويخشى على المجتمع افتراؤهم واشاعتهم السوء والباطل ٠

« **لئن لم ينته المنافقـون ، والذين فى قلـوبهم مرض ، والمرجفـون فى المدينة (فى المجتمع) لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورنك فيها الا قليلا ،**

ملعونين ،

أين ما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ٠

سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » (٢) ٠

٠٠٠ فهنا جعل القرآن الكريم اطلاق يد الرسول ـ كحاكم ـ فى قتلهم وابادتهم مرهونا باستمرار فى ايذائهم وضررهم ٠ ويرى القرآن الكريم من أجل ذلك : أن القضاء عليهم عندئذ ـ كوجودهم أصلا فى المجتمع ـ مبدأ من مبادىء المجتمع الانسانى فى قيامه وفى بقائه ، وهى المبادىء التى تعبر عن سنة الله فى كونه والتى لا تتبدل بحال ، بسبب وقت أو مكان ٠

---

(١) الأحزاب : ٤٨ ٠ (٢) الأحزاب : ٦٠ ـ ٦٢ ٠

ولكن لا يعلم أنهم يختلقون الأكاذيب ، ويشيعون السوء بالباطل على وجه الحقيقة ، وأنهم يقصدون الى ايذاء الأنفس الهادئة المستقيمة فى علاقات بعضها ببعض ، الا اذا كان المجتمع غير مغلق : يعـرف الناس فيه أحـداثه أولا بأول فى صدق ، ويعرفون أخطاء أولى الأمر فيه فى غير محاولة لاخفائها والتستر عليها ، أو فى غير محاولة الى التقليل من شأنها والاستهانة بها ٠

ولهذا سجل القرآن الكريم مجانبة الرسول كحاكم ـ عليه السـلام ـ للصـواب فى تصرفاته ـ وعاتبـه عليها فى صور مختلفة من العتاب ٠ وبتسجيله مجانبة الرسـول كحاكم للصـواب فى التصرفات ، أو المؤمنين كأصحاب مشورة معه ، يحول القرآن دون تفشى الظنون والأوهام التى تنسج منها القلوب المريضة قصصا تسيى الى أهداف المجتمع والى المؤمنين فيه ، كما تسيىء الى الرسول وأسرته ٠ وبهذا وحده يتكشف الاختلاق والكذب من المغرضين من العناصر الهدامة ، وهى عناصر النفاق والحقد ، ان هم باشروه للقضاء على المجتمع ، وكذلك يستحقون القتل والتتبع ٠

يقول القرآن الكريم فى عتاب الرسول الحاكم ، عليه السلام :

« **عفا الله عنك** ،

« **لم أذنت لهم ؟** » (١) ٠

٠٠٠ فبدأ بالعفو عنه تطمينا له فى بقاء رضائه عنه : اذ يقول : « **عفا الله عنك** » ثم يستفهم منه بعد ذلك استفهاما انكاريا بقوله : « **لم أذنت لهم ؟** » وهذا معناه ما كان ينبغى أن تأذن لهؤلاء فى التخلف عن القتال ٠ لأن اذنك لهم بالتخلف حال دون كشف حقيقتهم ٠ وانما الأمر السوى كان فى تركهم وما يفعلون من أنفسهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ، أى حتى يتضح المؤمن الصادق والآخر المنافق ٠

ومعرفة اتجاه الأفراد فى المجتمع عن طريق التطبيق العملى أمر رئيسى فى صيانة المجتمع من الضعف من جانب ، وفى حسن قيادته وسلامة توجيهـه من جانب آخر ٠

وهذا لون من ألوان العتاب على مجانبة الصواب فى تصرفات الرسول عليه السـلام فى قيادته كحاكم وكولى عام على المسلمين يرعى شـئونهم

---

(١) التوبة : ٤٣ ٠

ويحافظ على وحدتهم ، كما يحافظ على بقائهم ، وفى الوقت نفسه هو مبدأ من مبادىء القيادة العامة للمجتمع ، وهو مبدأ المكاشفة والمحاسبة على ما يقع من أخطاء ومجانبة للصواب فى التصرفات ·

··· كما يدل على أن الرسول ـ من توجيه القرآن نفسه ـ كان حاكما فى أمته وجماعته كما كان داعيا الى الحق وفى سبيل الله · وفى دعوته الى الحق كان معصوما فى تبليغه الوحى ، وفى حكمه بما أنزل الله كان مجتهدا ، وكان انسانا مؤمنا بربه ·

★ ★ ★

٣ ـ الرسول الحاكم : يقى الأمة من الأمراض الاجتماعية الخطيرة :

ان الأمراض الاجتماعية عديدة :

★ منها ما يطرأ على مجال المال ، فى سوء استغلاله ، أو فى احتكاره ،

★ ومنها ما يطرأ على مجال التوجيه ، فى اهماله ، أو فى سوء اتجاهه ،

★ ومنها ما يطرأ على مجال العلاقات ومجال السلوك بين الأفراد ، فى دفعهم الى الجرائم الجنسية أو الجرائم العامة ·

والمجتمع الاسلامى ـ كما يطلب القرآن الكريم ـ يعنى بالوقاية من الامراض فى جميع هذه المجالات ، وغيرها مما يتصل فيه فرد بفرد آخر · ولا يقصر رعايته على مجال جانب واحد كجانب المال مثلا ، على نحو ما تهتم نظم الحكم المعاصرة · وربما تكون رعايته لوقاية مجال العلاقات والسلوك بين الأفراد من الجرائم الاجتماعية تلفت النظر كثيرا ، لما يوليها من أهمية بالغة · وربما تكون هذه الاهمية البالغة التى يوليها مجال السلوك بين الأفراد ـ حسب نظرته ـ هى الأساس للوقاية فى كل مجال آخر من مجالات المجتمع ، على عكس ما قد تراه بعض نظم الحكم المعاصرة اليوم ·

الاسلام يرى أن استقامة الفرد فى سلوكه هى مصدر صلاحيته للبناء فى علاقته مع غيره فى المجتمع ، ومصدر تماسك المجتمع وقوته · اذ استقامة الفرد فى السلوك هى بمثابة التشذيب للبنة البناء ، لا تجعله ينفر ولا يشذ اذا وضع فى صف مع آخر فى مجتمعه ، وانما التآلف ثم التماسك فى البقاء ·

وأخص أمر يكون هـذه الاستقامة هى : « التربية الجنسـية » وتوجيه السلوك فيها ، بحيث يرتفع هذا التوجيه عن مستوى تصرف الحيوان ·· أى بحيث تبقى فيه سمات « الانسانية » ·

وهذه التربية كما تقوم على توجيه الفرد توجيها ذاتيا ـ أى توجيها يؤثر فى سلوكه بباعث من ذاته ـ تقوم على توجيهه كذلك فى عـدم اثارته لغيره · وبذلك تتكـون له رقابة فى ذاته ، تسيطر على اتجاهه فى علاقتـه بالجنس الآخر ·

فاذا قال القرآن الكريم فى جانب من هذه التربية : ـ

« **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم** » (١) ،

وقال كذلك :

« **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن** » (٢) ·

··· اذا قال هـذا وذاك فانه يبغى أن يتوفر للفـرد ـ ذكرا وأنثى ، صفتين :

★ صفة الحياء ، وهى مقـدمة للصفة الثانية ، وسـبيل من السبل الواضحة فى اكتسابها ·

★ وصفة المحافظة على العرض ، وعدم الاعتداء على حـرمة الغير ، والغير هو المجتمع الاسلامى كله ، وليس فردا واحدا فيه ·

وصفة الحياء تعنى : أن لا يستخدم الفـرد ـ ذكرا أو أنثى ـ نظـره كوسيلة من وسائل الاثارة أو الاغراء للجنس الآخر ، أو لتكوين الهواجس والصور النفسية لدى الفرد ذاته عن الجنس المقابل ، بحيث يشغل النفس بما يصرفها عن جد الحياة ، ويحملها على الاستجابة لفعل الغريزة الهوجاء · والحياء بهذا المعنى هو الذى يقصد من طلب القرآن للرسول الحاكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يوجه المؤمنين والمؤمنات فى المجتمع الاسلامى الى غض البصر فى قوله : « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصـارهم** » وفى قوله أيضا : « **وقـل للمؤمنـات يغضض من أبصـارهن** » · وليس المعنى من غض البصر عـدم ممارسة الرؤية بالعين فى لقاء أحـد الجنسين بالآخر · اذ ذلك أمر

---

(١) النور : ٣٠ (٢) النور : ٣١ ·

طبيعى من العسير تجنبه · ولكن المعنى ـ كما ذكر من قبل ـ هو عدم ممارسة هذه الرؤية فيما يؤدى فى آخر الأمر الى انتهاك الحرمة عن طريق البصر لأحد الجنسين أو كليهما ·

وصفة المحافظة على العرض وعدم الاعتداء على الغير تعنى : « العفة » وعدم مباشرة جريمة « الزنا » · وقد عبر القرآن عن هذه الصفة بـ « المحافظة على الفرج » · وهو تعبير ينطوى على سلوك الفرد نفسه فى مجال العلاقة الجنسية · وطلب ذلك من الفرد ـ ذكرا أو أنثى ـ يعنى أن يوجه الفرد فى تربيته الجنسية الى ما يحول باختياره دون مباشرة جريمة الزنا · تلك الجريمة التى لا يراها الاسلام جريمة فردية بل ينظر اليها على : انها جريمة ضد المجتمع نفسه ، وان وقعت على فرد ، ومن فرد ·

فاذ تقول الآية الكريمة :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ،

ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ،

وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (١) ·

··· فانها لا تقتصر هنا على ذكر العقوبة على هذه الجريمة فقط ، وانما تطلب مع ذلك أن تكون فى علانية ، وأن تشهد مجموعة من المؤمنين توقيع العقوبة عليهما ، مما يدل على انها ترتبط بحق المجتمع كذلك ، قبل ارتباطها بحق الفرد الذى باشرها ·

والاسلام يرى خطورة هذه الجريمة ليس فقط فى تفشى الأمراض التناسلية والطفولة غير الشرعية ، ولا فى الهرب من المسئولية العلنية ، ولا فى انتهاك العرض وحرمة الفرد ، ولا فى الصرف عن جد الحياة والتخلف عن نداء الواجب فيما يتعلق بالدفاع عن الأمة · وانما قبل ذلك يراها فى أن هذه الجريمة تسوق الى جرائم أخلاقية أخرى ، أدناها : الانحدار الى مجال الفساد والعبث واللامبالاة بحقوق : الذات ، والغير ، والمجتمع ، فى توفير حياة سعيدة كريمة ·

نظام الاسلام فى « الحكم » فى الأمة ليس غاية ، وانما هو وسيلة · ومعنى ذلك : انه لا يسعى مثلا « لانطلاق » الأفراد فى علاقاتهم الجنسية ،

---

(١) النور : ٢ ·

كملهاة ينصرفون عن طريقها عن متابعة سير الحكم ورقابته ـ كما تسعى نظم الحكم المعاصرة فى صورة أو فى أخرى ـ بل هو أداة « للتقويم » و « الاستقامة » ٠ ولكن لا برفع العصا والارهاب ، وانما بتوضيح الآثار السلبية والايجابية التى تترتب على تصرف ما ، جماعى أو فردى ، ثم بالعقوبة الرادعة التى تنم عن الجرم الشائن ، كعقوبة السرقة ، والزنا ٠ فكلتا الجريمتين وان وقعتا عادة فى السرية والخفاء ، الا أن جريمة السرقة تدل على الفرار من مجال العمل الجاد ، بينما جريمة الزنا تدل على الجبن والفرار من تحمل المسئولية الشخصية فى بناء الأسرة ٠

والمؤمن ـ فى نظر الاسلام ـ هو الذى يباشر القتال فى الميدان بشجاعة للمحافظة على قيم المجتمع العليا ، ويباشر جدية العمل فى مجال المنافسة فى الحياة ، ويباشر المسئولية الفردية فى علانية فى انجاب الاطفال وبناء الاسرة ٠

★ ★ ★

٤ ـ الرسول الحاكم : ينبغى الا يخدع بحسن القول أو بحسن الهيئة فيمن حوله :

ومظاهر الاغراء والتأثير فى حياة الناس عديدة ٠ قد يكون القول وفصاحة اللسان ٠ وقد يكون المنظر وقوام الأبدان ٠ ولكل من هذا وذاك تأثير على من يسمع القول أو يرى المنظر ، هو تأثير الاعجاب والهيبة وتأثير القبول والميل وعدم النفرة ٠

فاذا اجتمع لصاحب القول المطلق وفصيح اللسان حسن قوام البدن ، وفداحة الجسم وطوله كان تأثيره على من يتحدث اليه تأثيرا مزدوجا فى قبوله وعدم النفرة والاطمئنان اليه ٠

وحسن المظهر والمنظر لا يعنى جودة المخبر والجوهر ٠ اذ قد يكون فى حسن مظهره فى القول ومنظره فى الجسم : فارغ القلب من الايمان ، عليل النفس بمرض الانانية وحب الذات ، ضعيفا بجبنه ، وذليلا فى سبيل متعة أو تحصيل مغنم أى مغنم ٠ ووهب من الله فصاحة القول وفراهة الجسم وحسن القوام حتى لا يتجرد من كل سبب يهىء له القبول فى المجتمع ، ويجعله يشارك فى اتخاذ طريقه فى الحياة بين الناس للسعى فى تحصيل رزقه ومعيشته فى غير نفرة منهم أو كراهية له ٠

هؤلاء الذين وهبوا فصاحة القول وحسن القوام قد يدخلون حياة الآخرين مؤثرين فى توجيه من تحملوا مسئولية ، أو فى قيادة التزم الآخرون

بحدودها ومبادئها ·· مؤثرين تاثيرا سلبيا لمصلحة لهم خاصة ، ولتحقيق منفعة مادية تعود عليهم وخدهم · قد يدخلون بالنصيحة وتاكيد الاعتراف بالمبادىء التى تلتزمها القيادة فى الأمر ·· قد يدخلون بالرأى فيبدو له بريق وهو خادع يتجه الى ما يضعف ، وليس الى ما يقوى ، والى ما يفكك ، وليس الى ما يجمع ويكفل ، والى التثبيط وقبول الهزيمة وليس الى الدفع والصلابة فى التحدى ·

والرسول الحاكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بشر يجوز أن يعجب بما يعجب الناس به من فصاحة مثل هؤلاء ، وحسن منظرهم وفراهة أبدانهم · ويجوز أن يدخل مثل هؤلاء حياته عليه الصلاة والسلام مؤكدين له ايمانهم بدعوته وبمبادئها وبأن مخبرهم فى جودته وفى اخلاصه وصفائه لله ورسوله لا يقل عما وهبوا من نعمة الله فى أجسامهم من حسن المنظر وفى ألسنتهم من فصاحة القول ·

ولكن المسئولية الكبرى وهى مسئولية القيادة والحكم ، ومسئولية حماية القيم والمثل العليا للاسلام ، ورسالته تتطلب أن يكون الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكذا كل ولى عام بعده للمؤمنين ـ على حيطة وحذر فى شأن من يدور حوله · وبالأخص أولئكم الذين وهبوا نعمة التاثير بالقول والمظهر ، وهم فى حقيقة أمرهم أعداء لتلك القيم ومبيتون السوء لها وللمؤمنين بها ، ويتسترون فحسب بتلك النعمة التى لولاها لنفر منهم المجتمع لقيم مظهرهم وسوء مخبرهم حينئذ ·

والحيطة والحذر فى شأن هؤلاء تعتبر من المبادىء الاساسية للسياسة الرشيدة للحكم ، التى جاء بها القرآن الكريم وتقصه هذه الآيات ·· يقول الله تعالى :

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ·

واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » (١) ·

ويقول أيضا :

« اذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد أنك لرسول الله ـ والله يعلم انك

---

(١) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ·

لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون · اتخذوا أيمانهم جنة (ســـتارا) **فصـــدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ، ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون · واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله ، انى يؤفكون** (أى بسبب افكهم وكذبهم) » (١) ·

··· فهذه الآيات تحدد مظهرهم ومخبرهم معا ··· تحدد ما هم عليه من سمات القبول فى منظرهم وما لهم من حقائق مشينة وفاسدة · كما تحدد : كيف يتخذون من ظاهر أمرهم ستارا لما يخفون من عداوة ، وفى الوقت نفسه تكشف عن أن خـــداع الظاهــر لهم يصــاحبه فى طبائعهم جبن النفوس · « **يحسبون كل صيحة عليهم** » وفراغ الاجسام من القلوب المؤمنة الدافعة : « **كأنهم خشب مســندة** » · فهم هياكل لا تقــوى أمــام المقــاومة ، ولا يعتمد عليها ان جد الجد ·

··· ثم يتجه القرآن بحديثه الى هؤلاء أصحاب المظهر الخادع ليوضح لهم : أن أمرهم سوف لا يظل سرا خافيا · بل الأيام والأحــداث ستكشف عن حقيقتهم · ومفتاح هذا الكشف يؤخذ من حديثهم ومضمون قولهم : اذ مهمــا تصنع الانسان فى ستر حقيقة نفسه فقوله فى لحظة ما سيعبر عن هذه الحقيقة ويزيل الستار عنها :

··· يتجه القرآن نحو هؤلاء ليقول لهم :

« **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض** (وهو مرض النفاق : ضعف الايمان والتحدث عنه) **أن لن يخرج الله أضغانهم ؟** » (٢) ·

ثم يتجه ثانية مخاطبا الرسول عليه الصلاة والسلام :

« **ولــو نشــاء لأريناكهم** (أى حقيقة أمرهم) **فلعرفتهم بسيماهم** (أى فلعرفتهم فى هذه الحقيقة كما تعرفهم بسيماهم وبمظرهم) : **ولتعــرفنهم فى لحن القول** (مضمونه ·· فهو مفتاح حقيقة أمرهم) » (٣) ·

وهنا بداية الحيطة فى سياسة الحــكم من مثل هؤلاء هى فى الوقوف عند أقوالهم والتعرف على فحواها ومضمونها وما تستهدفه ·

★ ★ ★

---

(١) المنافقون : ١ ــ ٤ · (٢) محمد : ٢٩ ·
(٣) محمد : ٣ ·

٥ ـ تحول المنافقون الى المعارضة الصريحة يجب الا يحزن الرسول الحاكم :

في تكوين أي مجتمع جديد ـ وكذلك الحال في انتقال المجتمع من عهد الى عهد في الحكم ـ ربما لا يكون المؤمنون حقا بمبادئه هم أول الذين يلتفون حول الداعي أو الحاكم ويسعون الى لقائه ومشاركته الرأي في القيادة وتحمل المسئولية ·

وانما الذين يسعون في تلهف الى اعلان ايمانهم بالمجتمع الجديد أو العهد الجديد في حكم المجتمع هم أولئكم الذين يحاولون باعلان ايمانهم الانتفاع به في دنيا يصيبونها أو جاه يستمتعون به ·· هم اولئكم الذين يتجرون باعلان الايمان دون أن يكون لهم ايمان في الواقع ، وبانتسابهم الى المجتمع الجديد أو العهد الجديد في حكم المجتمع دون أن يكونوا على استعداد نفسي بمساندته ، فضلا عن التضحية في سبيل بقائه ·

وكما أنهم أسرع الى اعلان ايمانهم تحصيلا لهدف مادي ، هم أسرع كذلك الى اعلان الكفر بالمجتمع الجديد ـ وبمبادئه أو بالعهد الجديد في الحكم بالمجتمع يوم يرون في اعلان كفرهم منجاة لأنفسهم من أضرار ستلحق بهم حتما أو يوم يواجهون بمسئوليات تحتم عليهم التضحية بالنفس أو بالمال أو الولد في سبيل المجتمع الجديد أو العهد الجديد في حكم المجتمع · وكذلك هم أول أعوان لمجتمع مرتقب يقوم على أنقاض المجتمع القائم أو العهد الذي يتوقع له أن يرث العهد السابق ·

هؤلاء هم الذين يسارعون في الايمان ، والكفر بعد الايمان على السواء ـ هم الذين يسميهم القرآن الكريم بالمنافقين · وقد يسمون اليوم بالانتهازيين أو المصلحين · وهم بين فترة اعلان الايمان وقبل اعلان الكفر بالايمان ثانية من دعاة التثبيط والهزيمة ، ان جد الجد أو استدعى الامر المواجهة الصريحة لعدو المجتمع ، والوقوف منه موقف التحدي ·

ثم هم كذلك في هذه الفترة غير حريصين على أن يكونوا في سلوكهم ـ ولا في أقوالهم ووصاياهم ـ قدوة طيبة لمبادىء المجتمع الجديد أو للأهداف التي يعلن عنها العهد الجديد في المجتمع محاولة تحقيقها ، وفيما جاء في وصفهم قول الله تعالى :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض : يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون ·

وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها » (١) ٠

٠٠٠ فيصفهم القـــرآن الكريم بوصفين رئيسيين ، على نقيض صـفات المؤمنين حقا :

الوصف الأول : أنهم فى سلوكهم وتصرفاتهم وفى أقوالهم وأحاديثهم عن مبادىء المجتمع ينهجون نهجا مناقضا لرسالة المجتمع ، فيأمرون بالمنكر بينما الاسلام ينهى عنه ، وينهون عن المعروف بينما رسالة الله تناديه وتطلب العمل والقول وفقه ٠

الوصف الثانى : أنه اذا جـد الجـد وتطلب المجتمـع فى حمايته ورد اعتداء المعتدى عليه ــ الانفاق فى سبيل ذلك ٠٠٠ قبضوا أيديهم ، وحبسوا أموالهم لأنفسهم خاصة ٠

ومن يحبس ماله عن الانفاق العام لصـالح ذاتى لا يضحى بنفسه فى ميدان قتال ، ولا بولده فى لقاء عدو ؟

ومن أجل هذين الوصفين تحكم عليهم الآية بالفسق ، وقد جاء فى وصف الفاسقين قوله تعالى :

« الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثـاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون » (٢) ٠

والفاسقون كافرون على سبيل الحقيقة : « **ولقد أنزلنا اليك آيات بينات ، وما يكفر بها الا الفاسقون** » (٣) ٠ ولكن يصاحب كفر الفاسق فى حقيقة أمره اعلانه الايمان لفترة ، ثم اعلانه الكفر بعد الايمان وهو اعلان لا يأتى بجديد لانه تعبير عن أمر كان قائما من أول الامر ٠

والرسول الحاكم ــ وكذلك كل ولى عام ــ ربما يصعب على نفسه أن يتخلى هؤلاء عن الايمان ، بعد أن تقربوا به ظاهرا وسارعوا قبل غيرهم فى اعلانه ٠ وربما يظن أيضا أن لهذا التحول أثرا نفسيا ــ هو أثر سلبى ــ على هدف المجتمع وقيمه العليا ٠

---

(١) التوبة : ٦٧ ، ٦٨ ٠ (٢) البقرة : ٢٧ ٠

(٣) البقـرة ٩٩ ٠

ومن أجل تبديد كل أثر لهذا التحول جاء قوله تعالى فى توجيه الرسول الحاكم ـ عليه الصلاة والسلام :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر : من الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم » (١) ٠

٠٠٠ فواقع الأمر بالنسبة لهؤلاء المنافقين لم يتغير شىء لأنهم لم يكونوا مؤمنين أبدا ٠ أما ترتب ضرر على تحولهم هذا فليس هناك أدنى ضرر على رسالة الله التى هى رسالة المجتمع المؤمن ورسالة الرسول عليه الصلاة والسلام والولاة المسلمون بعده ٠ وجاءت الآيات الأخرى لتنفى هذا الضرر فى قول الله تعالى :

« ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر (من هؤلاء المنافقين) : **انهم لن يضروا الله شيئا ٠**

يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم » (٢) ٠

وربما هناك نفع حقيقى فى كشف هؤلاء المنافقين عن أنفسهم باعلانهم الكفر بعد الايمان ولكن هذه الظاهرة ـ ظاهرة اعلان الكفر بعد الايمان ـ انما تقع من المنافقين وقت الشدائد والأزمات ٠ والمنتظر لذلك اذن أن يكون هناك ضرر ٠ ومن هنا كانت عناية القرآن فى هذا الضرر لاطمئنان الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمته معه ٠

* * *

٦ ـ حماية الأمة من أعدائها :

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يجنح فى سبيل دعوته الى الحق ٠٠ الى القوة ، أو الى العنف لحظة ما ٠ وطريقه كان دائما الى هذه الدعوة هو طريق السلام ، والاقناع ، والتحمل لأذى المعارضين له ، مهما اشتدوا فى معارضته وفى انكار دعوته ، لأن الاكراه فى الدين لا يصل بالانسان المكره الى اطمئنان نفسى بالدين ، ولا الى التزام أدبى فى تطبيق مبادئه ٠

ولكنه عليه السلام فى حكم أمته شرع له استخدام القوة ، والخروج عن حدود الدين والرحمة فى مطاردة الاعداء الذين أصروا على العدوان فى علانية أو غير علانية ، ولم يكن لهم من هدف فى حياتهم سوى تقويض هذا المجتمع

---

(١) المائدة : ٤١ ٠ (٢) آل عمران : ١٧٦ ٠

القائم الذى يحرمهم ـ عن طريق تطبيق المبادىء الأخلاقية والانسانية ورعايتها وحدها ـ من مباشرة الاسلوب اللاانسانى فى تحقيق المنافع المادية أو الامتيازات الأدبية فى مجتمع يحرصون على بقائه أو على اقامته ٠

فنرى القرآن الكريم يوجه النداء الى الرسول عليه السلام لمواجهة أعداء الأمة فيها بقوله :

«يا أيها النبى :

جاهد الكفار ، والمنافقين ، واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » (١) ٠

كما يوجه الى المؤمنين فى هذه السورة :

« يا أيها الذين آمنوا :

قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (٢) ٠

٠٠٠ فهو يناشد الرسول عليه السلام ـ كما يناشد المؤمنين معه فى مواجهة أعدائهم ـ وهم الكفار فى صراحة أو نفاق ـ بأن يكونوا غلاظا شدادا فى هذه المواجهة ، لا تأخذهم فيها رحمة ولا شفقة ، ولا تلين لهم قناة ٠

ولكن تكون هناك حدود مضبوطة وعلامات مميزة للكافر الصريح أو الكافر المنافق من جهة ، والمؤمن على سبيل الحقيقة من جهة ثانية ، وحتى لا يقع خلط فى هذه المواجهة حددت نفس السورة القرآنية التى ذكر فيها هذان النداءان ـ وهى سورة التوبة ـ المؤمنين المخلصين فيما تقوله ، قبل توجيه أى نداء منهما :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ،

يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله » (٣) ٠

---

(١) التوبة : ٧٣ ٠
(٢) التوبة : ١٢٣ ٠
(٣) التوبة ٧١ ٠

.. كما حــدثت الكافرين صراحة أو فى تستر بالحلف بالله كذبا ، وبنقض العهـد ، وبمحـاولة النيـل والفتـك بصـاحب الدعـوة الى الحق ، وبالانتقاص من شأن الأغنياء الذين يتبرعون بأموالهم فى سـبيل الخير ، وبالسخرية من شأن أولئكم الذين لا يجدون فائضا يتبرعون به ، وبالمحاولة بشتى الوسائل للقعود عن المشاركة فى الجهاد فى سبيل الله . وتصفهم هـذه الآيات فيما تذكره بقولها :

« يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد اسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ،

فان يتوبوا يك خيرا لهم ، وان يتولوا يعذبهم الله عذابا اليما فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير .

ومنهم مـن عـاهد الله : لئن آتـانا من فضـله لنصـدقن ، ولنكونن من الصالحين .

فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون . فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون .

ألم يعلموا : أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب .

الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ،

والذين لا يجـدون الا جهـدهم فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ولهم عذاب أليم .

استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفـر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » (١)

وليس الكفر هو اعلان عـدم الايمان بالقول وحـده ، ولكنه أدخل فى الانكار والتحدى ان عبر عنه الفعل والعمل ، كما أن خطره يزداد ان ألبس ثوب الرياء وهو يتحرك فى الظلام فى عنف ضد القيم الانسانية التى تكون عقيدة الايمان بالله وبرسالة رسوله عليه السلام .

وان دلت مشروعية القتال هنا ضـد المتســترين من الكافـرين بالقيم

---

(١) التوبة : ٧٤ ـ ٨٠ .

الاسلامية ، وكذلك مشروعية استخدام الغلظة والعنف فى مطاردتهم وابعادهم من صفوف الأمة ، ان دل هذا وذاك على أن الرسول فى حكمه وفى سياسة توجيه أمته يختلف عنه فى دعوته الى الحق وفى اسلوبها ـ فانه يدل من جانب آخر على خطر الذين يعملون فى الظلام وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ضد القيم الانسانية العليا التى يراد لها باسم الدين أن تسود تصرفات الأفراد فى الأمة ، وعلى أن القسوة فى تتبعهم وعدم مهادنتهم لميول نحوهم ، هى الطريق السوى فى ابعاد مصدر الشر والايذاء للبشرية :

« استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » (١) ٠

واذ يقول القرآن الكريم فى آية أخرى :

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم » (٢)
انما يقول ذلك كتوجيه أساسى فى سياسة الحكم لترابط المؤمنين وحماية مجتمعهم ومثلهم ، وفى الوقت نفسه لا تتقيد صلاحيته بزمان ولا بمكان ، وانما صلاحيته فوق الاجيال والعهود ٠

والشدة والرحمة وان كانتا متقابلتين ، ولكن كلتاهما تكونان أصلا من أصول الحكم ، التى لو خولفت لأنذر عدم اتباعها بضياع المجتمع فى قيمه ، وفى شخصيته ، وفى تميزه بالطابع الخاص به ٠

ولأصالة هذا المبدأ فى توجيه سياسة الحكم طلب من الرسول الحاكم ، كما طلب من المؤمنين معا فى نداء القرآن ، ولم يكتف القرآن الكريم فى توجيه النداء أن يكون للحاكم وحده ٠

★ ★ ★

٧ ـ الرسول الحاكم ينتظر طاعة الأمر له فى مواجهة العدو :

وان احتفاظ الأمة بسيادتها ، وبأمنها الخارجى ، وبحريتها فى ممارسة ما تؤمن وتعتقد به لا يوهب لها من أحد ، وانما تحصل عليه بثباتها فى لقاء العدو ، وصبرها على الشدائد ، وتكتلها فى غير تنازع وشقاق ، وراء الطاعة لما تمليه رسالة القرآن ودين الله ٠

---

(١) التوبة : ٨٠ ٠ (٢) الفتح : ٢٩ ٠

ويوم أن يعـــد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض ، وبأن يمكنهم من الدين الذى ارتضاه لهم ، وبأن يبدلهم الأمن بعد الخوف كى يمارسوا عبادتهم فى حرية من غير تهديد عدوهم ··· يؤم أن يوحدهم سبحانه وتعالى بذلك فى قول القرآن الكريم :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » (١) ·

··· يعدهم بذلك ، ولكن على أن يحققوا هذه المبادىء الأربعة :

١ ـ الثبات فى لقاء الأعداء وعدم تولى الأدبار ، هلعا وجبنا منهم ·

٢ ـ والطاعة لله ورســوله فى اتباع القيم العليا ، وعدم النزول بها مجال الغنائم وما تتطلبه الأنانية من متع مادية ·

٣ ـ وعدم التنازع والشقاق فى الرأى عند اللقاء والمواجهة ·

٤ ـ وبالصبر على اللقاء ، وفى الأزمات التى يفرضها العدو ، مهما طالت مدتها ·

··· وهذا ما يطلبه نداء الله الى المؤمنين فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ،

اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ·

وأطيعوا الله ورسوله ،

ولا تنازعوا فتفشلوا ، وتذهب ريحكم (أى تتبدد قوتكم) ·

واصبروا ، ان الله مع الصابرين » (٢) ·

··· أى يجب أن يكون هدف القتال فوق الأشخاص ومطالب الذات · واذ يعبر عنه بقوله : « **وأطيعوا الله ورسوله** » (٣) فان الله ـ ورسوله معه ـ

---

(١) النور : ٥٥ ·

(٢) الأنفال : ٤٥ ـ ٤٦ ·

(٣) الأنفــال : ٤٦ ·

قد رسم الطريق السوى للسلوك والمعاملات بين الأفراد · وهو طريق يؤدى حتما الى صفاء العــلاقات ، وقوة التعاون والتضامن · والذى يأمر به الله أو ينهى عنه الله ، هو لخير المؤمنين أولا وبالذات · واذن هدف القتال توفير هـــذا الخير للمؤمنين · ومنه تمكين سيادة المؤمنين فى الأرض ، وتحقيق الأمن والاطمئنان لهم والحرية الكاملة فى مباشرة ما يعتقدون ·

··· كما يجب أن يكون موقفهم وقت المحنة ، وهى محنة لقاء العــدو فى قتال ، عدم التراجع اطلاقا أو تولى الأدبار · وانما الثبات مع تذكر الله جل شأنه ومعاهدته على نصرة دينه ومبادىء هذا الدين ·

·· ·على أن يبعدوا عن وحدتهم فى صفوف القتال تضاربهم فى الاتجاه وتقدير الأمور · فانه ليس أشق على الأمة فى ضــياع قوتها وســيادتها من التمزق فى الرأى والتعصب له « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » (١) ·

··· أما الصبر والجلد وقت الأزمة فانه ليس الوسيلة المنجية فى لقاء العدو فقط · وانما هو سبيل النجاح دائما فى الحرب والسلم على السواء ، وفى الرخاء والشدة معا · واذا كان الصبر فى الأزمة أو الشدة معروفا فانه فى الرخاء يكون بالحيلولة دون طغيان النفس وتمردها على السلوك السوى ، تحت تأثير الاغراء والفتنة لمال ، أو صحة ، أو عصبية تكون مصدر الرخاء للانسان · وفى الوقت الذى يطلب القرآن من المؤمنين تحقيق المبادىء السابقة فى لقاء العــدو ، ان هم أرادوا الاحتفاظ بسيادتهم فى الارض وحــريتهم فى العبادة ، ينهاهم عن الغرو والطغيان بعدد من الرجال ، أو عدة فى القتال ، وعن الرياء فى ســلوك أو مواقف ، وعن الاصغاء لهواجس النفس التى قد تسد عليها منافذ الحقيقة والواقع · ويعطيهم المثل المكشوف فى وضع كفــار مكة يوم خرجوا للقاء المؤمنين فى بدر وهم أكثر ما يكونون غطرسة وغرورا بعددهم وعدتهم ، وأكثر خيلاء ورياء فى أحاديثهم ووعودهم ، وأكثر اقتناعا بغلبتهم وقوتهم ، حتى جاء لقاء بدر ·· فكشفهم على حقيقتهم · وهى حقيقة الضعيف المنهزم · يقول تعالى محذرا المؤمنين :

« **ولا تكونوا كالذين خرجوا** (الى القتال) **من ديارهم** (مكة) **بطــرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط ·**

واذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وانى جار (مجير) **لكم ·· فلما تراءت الفئتان** (فئة الكافــرين مع فئــة

---

(١) الأنفـال : ٤٦ ·

المؤمنين) نكص على عقبيه ، وقال انى برىء منكم ، انى أرى ما لا ترون (من قوة المؤمنين) انى أخاف الله ، والله شديد العقاب » (١) ٠

٠٠٠ ويمكن أن يصور حديث الشيطان هنا هواجس النفوس التى سدت على الكافرين من أهل مكة منافذ القوة الى المؤمنين ، وهى قوة الايمان بالله والثبات فى القتال ، والرغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله ، والزهد فى الدنيا انتظارا لنعيم الآخرة ٠

والرسول الحاكم ـ وكذلك الولى العام للمؤمنين ـ فى مواجهة أعداء الأمة ، ان لم يجد سندا من المؤمنين ، والمؤمنون ، ان لم يكونوا مؤمنين حقا بالله ورسوله ومطيعين لله ولرسوله وقت المواجهة ٠ لا يجد سبيلا الى النصر ٠ اذ النصر ليس دعاء ينطق به الراغب فيه ، وانما هو موقف ٠٠٠ هو ايمان وثبات وتضحية ، ولكن فى سبيل القيم العليا وليس فى سبيل الأشخاص أو المتع ٠

ان ارادة الله فى شئون المجتمعات الانسانية تتمثل فى المبادىء التى تحكم طبيعة هذه المجتمعات ٠ والمعجزة ليست واحدا منها ٠

★ ★ ★

٨ ـ الرسول الحاكم ـ تجب الاستجابة لدعوته الى النفير العام :

★ ان المجتمع الاسلامى ـ كما يرسم القرآن الكريم خطوطه العامة ـ هو مجتمع انسانى ٠ أى مجتمع يسير وفق القوانين التى تحكم المجتمعات البشرية فى أى مكان وفى أى زمان ، وهى قوانين الطبيعة الانسانية ذاتها ٠

و « السلام » وان كان الهدف الأصيل الذى يجب أن يسعى اليه المجتمع الاسلامى سواء بين أفراده فى الداخل أو بينه وبين مجتمعات أخرى فى الخارج ، ليتمكن من البناء والعمران والاستمرار فى حياة انسانية فاضلة ٠٠ الا أن الحرب تتعين ، لا كأمر نشاز ، ولكن كقانون أيضا يحكم المجتمعات فى علاقة بعضها ببعض ٠

قد تتعين الحرب لرد الاعتداء ٠ وقد تتعين أيضا للوقاية من اعتداء متوقع ، أو مبيت ٠ قد تتعين الحرب لرد الاعتداء ، فهى حرب دفاعية ٠ وقد

---

(١) الأنفال : ٤٧ ، ٤٨ ٠

تتعين للوقاية من اعتداء متوقع ، فهى حرب وقائية · وهذه وتلك ان وقعت أية منهما لا تخرج عن نطاق الخلقيـة ولا عن المقيـاس الخلقى للتصرفات والمواقف التى تستحسنها الانسانية ·

اذ الحديث عن حرب لرد الاعتداء ، هو حديث عن حرب توجه ضـد مجتمع يؤمن بالله وبالقيم العليا ، ويسعى الى تحقيق ما يؤمن به فى تصرفات أفراده · وكذلك الحديث عن حرب للوقاية من اعتداء مبين أو متوقع ، هو حديث عن حرب تبينت أو تتوقع ضد هذا المجتمع المؤمن نفسه ·

وعندئذ تكون الحرب للمحافظة على الايمان بالله وعلى القيم العليا فى سلوك الانسان ·· تكون لوقاية الانسانية من التدهور والانحطاط ·· تكون لوقاية الحضارة الانسانية بما اشتملت عليه من مبـادىء ومظـاهر ، من الزوال ·· تكون لمطاردة الوثنية المـادية وعدم تمكينهـا من السيادة على الانسان والمجتمع الانسانى ·

ولذا : فالحرب تعتبر ضرورة لا مفر منها · ويعتبر القيام بها ـ من أجل ذلك ـ واجبا اسلاميا ، كما تعتبر المساعدة فى انجـاحها بعوامل المسـاعدة المختلفة من : مال ، وعتاد ، ورجال ، أمرا مفروضا لا يتأخر عنه الا عـديم الايمان بالقيم العليا فى المجتمع الانسانى والا متستر وراء شعار ايمـانى ليس له مدلول فى حقيقة نفسه ، يبتغى اياه متعا مادية ومغانم متنوعة العدد والنوع ·

★ والحرب اذا كانت ضرورة اجتماعية فهى أيضا مجال اختبار لايمان الأفراد فى قوته وضعفه ، أو صحته وزيفه ·

وجاء القرآن الكريم باعلان ضرورتها للوقاية عندما يطلب من المؤمنين جميعا فى أية حال من أحوالهم ، فى حال الصـحة والمرض ، وحال الغنى والفقر ، وحال الشباب والشيخوخة ·· أن يسارعوا الى تلبية دعوة الرسول الحاكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى غزوة تبوك الى شد الرحال لمواجهـة الرومان فى الديار التى احتلوها فيما يسمى بالشام وقتذاك حتى يفسدوا ما ائتمروا عليه من الاعتداء على مجتمع المؤمنين بالمدينة ، جاء القرآن ليقول :

« **انفروا خفافا وثقـالا** (أى اخـرجوا جميعا) **وجاهـدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون** » (١) ·

---

(١) التوبة : ٤١ ·

۰۰۰ فيطلب الى المؤمنين أن ينفروا ويخرجوا فورا الى الحرب ، وأن يعينوا بما يملكون من أنفس وأموال على النصر فيها ۰ لأنها فى سبيل الله ، وفى سبيل القيم العليا والانسانية ۰

وهم اذ يساعدون على نصر سبيل الله انما يقدمون فى واقع الأمر خيرا لأنفسهم هم ، هو : خير عدم الوقوع فى مذلة الطغيان بسبب القوة المادية ۰ هو خير المعيشة فى سلام الايمان بالله والتعاون والارتباط فى الحياة على أساس من هدى الله ۰۰ هو خير العزة والكرامة الانسانية ۰۰۰ هو خير السيادة على الضعف وضروب الهوان ۰

وجاء القرآن منذرا المؤمنين ، اذا لم يباشروها فى استجابة فورية ، فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا :

١ ـ ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل ۰

٢ ـ الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ،

٣ ـ ويستبدل قوما غيركم ،

٤ ـ ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير ۰

٥ ـ الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ، ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » (١) ۰

۰۰۰ وبهذا يضع المؤمنين بين أمرين لا ثالث لهما : اما الخروج الى الحرب فى غير ابطاء ، واما تلقى عذاب الهوان وترقب الزوال لمجتمعهم ۰ وعندئذ لا يضار الحق شيئا ، ولابد أن ينتصر على يد قوم آخرين يؤمنون به صدقا ۰ وقد انتصر الحق من قبل فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن معه ساعتذاك الا واحد ممن آمن به ۰ وذلك بفضل قوة الايمان ، وقوة

---

(١) التوبة : ٣٨ ـ ٤٠ ۰

الاحتمال والصبر ، وقوة الثقة بالنصر ، بالاضافة الى اطمئنان النفس وثباتها · وتلك القوة النفسية هى : جنود الحق التى لا ترى ولا تشاهد الا فى آثارها من الانتصار ·

★ ★ ★

٩ ـ الرسول الحاكم ينتظر مثابرة الأمة وعدم توانيها فى طلب العدو :

قد تتطلب سيادة الأمة ، ويتطلب الاحتفاظ بحريتها فى العبادة ، ومباشرة القيم العليا التى تميز مجتمعها عن مجتمع آخر ـ فوق الثبات فى مواجهة العدو ـ قد يتطلب ذلك : عدم التوانى فى طلب العدو والمثابرة فى تتبعه ، قضاء على فتنته ، وسوء ما يدبره لاضعاف الأمة · وخطوة عدم التراخى ، أو عدم الضعف فى طلب العدو ، وهى خطوة قد تحتاج الى الوقت بجانب العزم · اذ الأمر عندئذ ليس أمر لقاء ينتصر فيه من يثبت لفترة حتى تنتهى المواجهة . وقد تكون فترة غير طويلة ·

ولكن الوقت الذى تحتاجه المثابرة فى طلب العدو ، والقضاء عليه أينما وجد ـ قد يطول · وبالرغم من ذلك لا تقع فى الأثناء انتصارات تشجع على المثابرة فى التتبع · ولذا ان لم يكن هناك عزم أكيد يدفع فى غير تمهل أو تململ لا ينجح العمل فى هذه المرحلة ·· مرحلة طلب العدو ، وتتبعه ، بحيث لا يكون مصدر ضرر وايذاء من جديد بعد ذلك ·

والرسول الحاكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينتظر من المؤمنين ، للنصر النهائى : المساندة فى مواجهة العدو ، وفى مرحلتين : ينتظر الثبات منهم وعدم تولى الأدبار عند اللقاء ، وينتظر كذلك المثابرة منهم فى طلب العدو ولو تفرق فى أوكاره أو تجمع فى غير رؤية كحركته للانقضاض عندما تحين له الفرصة للانقضاض على الأمة ·

ولأهمية المرحلة الثانية بالنسبة لسيادة الأمة والاحتفاظ بحريتها ـ نجد القرآن الكريم فى حثه للمؤمنين وفى طلبه منهم أن يباشروا العمل المكلفين به والذى يتناسب مع هذه المرحلة يركز ما يطلبه منهم بأمرين :

الأمر الأول : مشترك بينهم وبين أعدائهم ·

الأمر الثانى : خاص بهم وحدهم ·

وذلك عندما توجه هذه الآية الكريمة الطلب الى المؤمنين فى قول الله تعالى :

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، ان تكونوا تألمون ، فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » (١) ·

··· فالمطلوب من المؤمنين هنا ألا يضعفوا بالتوانى والتراخى فى طلب القوم ·· وهم الأعداء بعد تشتتهم وتفرقهم على أثر المعركة أو قبل تجمعهم لمعركة جديدة ـ وانما عليهم أن يثابروا ويستمروا فى تتبعهم وطلبهم : « **ولا تهنـوا فى ابتغاء القوم** » · ولا ينبغى اطلاقا أن يكون ما يصيب المؤمنين فى هذه المهمة من أذى أو ألم ، هو أذى نفسى أو ألم مادى بمانع لهم من الاستمرار والمثابرة · لأنهم اذا كانوا يألمون بسبب ما ، فان الآخرين وهم الأعداء يألمون كذلك ، لأنهم يرون أنفسهم متتبعين الى حتفهم الأخير · والخوف وحده بسبب التتبع أو بسبب توقع الاشتباك الذى يستهدف القضاء الأخير ، من عوامل الألم : « **ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون** » ·

ثم هناك عامل ايجابى بعد ذلك يجب أن يدفع بالمؤمنين الى أداء مهمتهم المحددة هنا على خير وجه ، دون أن يشاركهم فيه أعداؤهم وهو ما تعبر عنه الآية بقـول الله جل جـلاله : « **وترجون من الله ما لا يرجون** » ··· هـو أن لهم الأمل عند الله فى حياة أفضل ، بسبب جهـادهم فى سبيله : « **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** » (٢) · دون الكافرين والمنافقين ، لأن هؤلاء وهؤلاء يصـدون عن سبيل الله ويسـعون فى الأرض الفساد : « **واذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ، وبئس المهاد** » (٣) ·

وهذا العامل الثانى ـ وهو عامل الرجاء والأمل فى حياة أفضل وفى جزاء أوفى ـ يحول قطعـا دون أن يتسرب الى النفوس مرض النفـاق ، أو الضعف بسبب الحياة الدنيا · فهى لا تنى ولا تهن · بل تبقى قوية العزم فى شدة البأس ، ومن يقوى عزمه ويشتد بأسه ينتصر فى النهاية حتما ، مهما طال الوقت على المواجهة فى القتال ، أو على اقتفاء أثر عدوه للتخلص منه ·

واذن : من يريد أن يكون سيدا ، ينتظر أن يكون له عدو · ومن كان له عدو يتوقع منه السوء · ذلك من أخص خصائص البشرية ، سواء فى صلة الفرد بالفرد أو فى صلة المجتمع بالمجتمع ·

---

(١) النساء : ١٠٤ ·　　(٢) محمد : ٣١ ·

(٣) البقرة : ٢٠٦ ·

والذى يريد أن ينتصر على عدو لى يترقب الأزمات ، واجتيازها بالثبات والصبر كما يترقب طول الأجل على مناوأة العدو ومناوشاته ، والسبيل عندئذ للقضاء على هذه المناورات والمناوشات هو جعل العدو فى وضع لا يثيــر المتاعب فيه مرة أخرى ٠

والقرآن الكريم اذ يتجه الى المؤمنين ـ والرسول الحاكم على رأسهم ـ أن يمارسوا الثبات فى لقاء العدو مرة ان هجم واجهــوه ، وأن يسلكوا طريق المثابرة فى تعقب أذاه وضرره ٠٠٠ انمـا يرشـدهم الى خصائص الطبيعة البشرية والمبادىء التى تحكم المجتمعات الانسانية ، ليكونوا على بينة فى مواقفهم فى الحرب والسلم على السواء ٠

والوقوف على خصائص الطبيعة البشرية للأفراد والمجتمعات لا تعنى غير خطوة فى سبيل النجاح ٠ أما الخطوة الأخيرة فى النجاح فهى « للايمان بالله » فى قوته وفى دفعه نحو الحركة هو اجتياز الابتلاء بالحرمان من متــع أو بالاغداق فيها :

« كل نفس ذائقــة المــوت ، ونبلوكم بالشر والخــير فتنــة ، والينــا ترجعون » (١) ٠٠

٠٠٠ فالمؤمن بالله لا يطغى بالخيـر والنعيم ، ويصبر عنــد الحرمان والايذاء ٠

ومن هنا : الحديث عن النجاح فى أى عمل ، يجب أن يسبقه الكشف عن قيمة الايمان ، والايمان بالله وحده لا شريك له ٠

★ ★ ★

١٠ ـ القدوة فى الثبات عند الأزمات :

والرسول الحاكم ـ عليه الصــلاة والسلام ـ اذ ياخــذ نفسه ويدعو المؤمنين معه بالتزام الثبات عند الشدائد فى القتال ، أو عنــد الأزمات فى جوانب الحياة ٠٠ انما يفعل ذلك استنادا الى الايمان بمبادىء ثلاثة :

★ مبدأ : أن أجل أى انسان هو مقدر عنــد الله ٠ ولا يرتبط انتهـاؤه بأمر ما ، سوى ارادة الله سبحانه وتعالى ٠ فليس الفرار من المشاركة فى

---

(١) الأنبياء : ٣٥ ٠

القتال بعاصم من انتهاء الأجل ، وليس عدم التهيب فى لقاء العدو فى حرب معه بباعث على انهائه :

« قل : لن ينفعكم الفرار ، ان فررتم من الموت أو القتل ، واذن لا تمتعــون الا قليلا ·

قل : من ذا الذى يعصمكم من الله ان اراد بكم ســـوءا ، أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » (١) ·

··· من توجيه الله لرسوله عليه الصلاة والسلام ليخاطب به المنافقين ومرضى القلوب فى الأمة من المترددين والشاكين فى نصر الله من المؤمنين ·· ليخاطب به الانتهازيين والأنانيين الذين يسعون لمصالحهم المادية الخاصة أيام الرخاء ، حتى اذا جد الجد انتحلوا المعاذير والأسباب الواهية لعدم المشاركة فى مواجهة الأعداء ، بصورة أو بأخرى ، أو بالأنفس ، حرصا على حياتهم ، وعلى بقاء استمتاعهم بما حصلوه من المتعة بالنفاق والخداع ·

··· ويؤكد القرآن الكريم هنا أن الفرار من ميدان القتال ومن لقــاء الأعداء لا يحول اطلاقا دون الموت أو القتل بأى سبب آخر · لأن الحياة والموت لأى انسان يرجعــان الى ارادة الله وحــــده ـ وليس الى حيطة أو نقص فى المنعة ، وليس هناك موجود ، كائن من كان ، يستطيع أن يقف فى طريق هذه الارادة الالهية النافذة : **« قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا ، أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا »** ·

★ ثم مبدأ : أن كل شدة لابد أن تنتهى الى سعة ورخاء ، وأن العسر ينطوى فى ذاته على اليسر ليصير اليه يوما ما · فلا تبقى الحياة حلقات فى سلسلة الأزمات ، ولا يبقى الظلام الى ما لا نهاية :

« فان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا » (٢) ·

··· يعلن القرآن هــذا السنن للحياة ، ويؤكـــده فى صور مختلفة ، ليصبح اعتقادا وايمانا ، تطمئن اليه النفوس وقت محنها وشدائدها ، ويستمر الأمل فيها بدون انقطاع ، حتى فى أكثر اللحظات ظلاما وأقربها الى اليأس ·

فاذا أضيف عدم تسلط اليأس على النفوس الى : « القضاء ، والقدر » فى حياتها ومماتها ، كان الثبات فى الأزمات والشدائد نتيجة لازمة لهما معا ،

---

(١) الأحزاب : ١٦ ، ١٧ ·   (٢) الشرح : ٥ ، ٦ ·

وكان اجتيازها مرهونا بالزمن وحده ـ قصر أو طال ـ ولكنه على أية حال واقع لا محالة ٠

★ وأخيرا مبدأ ثالث : ان الحياة للانسان ليست أرضا مستوية ، وليست لونا واحدا ٠ وانما فيها الارتفاع والانخفاض ، وفيها الأبيض والأسود ٠٠ فيها المرض والصحة ، وفيها الفقر والغنى ، وفيها الجاه والتجرد منه ، وفيها القوة والضعف ، وفيها تذوق المتع المادية وعدم استطاعة تذوقها ٠٠ فيها النقيض ونقيضه ٠ والايمان بذلك يعين على الثبات وعدم الاضطراب فى مواجهة التغيير فى الحياة التى يعيشها الانسان :

« ولنبلونكم بشىء :

من الخوف ،

والجوع ،

ونقص من الأموال والأنفس ، والثمرات ،

وبشر الصابرين ٠ الذين اذا أصابتهم مصيبة (أى وقعت بهم نازلة من الخوف أو الجوع أو نقص الأموال أو الأنفس والثمرات) **قالوا : انا لله وانا اليه راجعون (١)** ٠ (أى أن مصيرنا الى الله ، والتقاؤنا به جل شأنه هو الهدف الأخير ، ولذا فالدنيا التى نعيش فيها والتى تتوارد وتتوالى ظواهرها علينا ، لا تقلقنا ولا يحول تغيرها دون تمسكنا بالايمان بالله) » ٠

٠٠٠ والقرآن هنا فى جعل الحياة للانسان عرضة للاختيار ، وموضوعا للتغيير الى سىء والى غير مرغوب فيه من الانسان ذاته : من اطمئنان الى قلق نفسى وخوف ، ومن شبع الى جوع ، ومن قوة الى نقص فى الأموال أو الأنفس أو الثمرات ، وتأكيد ذلك على أنه من طبيعة الحياة الانسانية ٠٠ يريد أن يكشف للانسان طبيعة الحياة البشرية ، وانها سواء وطبيعة الكون الذى نعيش فيه وطبيعة المجتمع الذى نقيمه كذلك ٠

فالطبيعة الأرضية اذا سار فيها الانسان التقى بالمنخفض من السهول والمرتفع من الجبال ، والتقى بالماء فى الأنهار والبحار وبالرمال فى الصحراء ، والتقى بما فيه من زرع ونبات وبما لا زرع ولا نبات فيه ، والتقى بالبارد والحار من الجو ٠

---

(١) البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦ ٠

واذا لاحظ طبيعة المجتمعات وجد فيها العادل والظالم ، والمهذب وغير المهذب ، والأنانى والجماعى ، والمنطوى على الغدر والخيانة والمسالم ، ومن لا ينزع الى القتال ، والظاعن والراحل ... الخ ·

وايمان الانسان بتغير حياته وبأنها عرضة للنزول من وضع مرغوب فيه الى آخر لا يوده ·· لا يجعله أمرا مفاجئا ، ان حل التغيير بالنزول فعـــلا ، وغير آسف فى الوقت نفسه · لأن ذلك من شأنهـــا ومن طبيعتها · وبالتـــالى لا ينال من ايمانه بالحياة ذاتها ، فيقبل غير مدبر فيها ، ويصون نفسه من ضعف اليأس ، ويترقب الخير فى غده ، بعد أن نزل به الشر فى أمسه · وذلك أمر الانسان « السيد » ·· أمر الانسان الذى كرمه الله · وسخر له فى حياته الأرض وما فيها وما عليها ، وسخر له الليل والنهار ، والشمس والقمر دائبين·

والزام الرسول الحاكم ـ عليه الصلاة والسلام الأمة بالثبـات عنـــد الأزمات هو فى « القدوة الحسنة » فى مواقفه · اذ الوحى بما جاء فى هــذا الشأن انتهى تبليغه منه الى المؤمنين · ولكن الذى يعيد الحيوية اليه فيصبح عامل تأثير قوى فى التزام المؤمنين به هو النمط الذى يظهر فيه موقف الولى العام للأمة ·

ولم يعرف عن الرسول عليه الصلاة والسلام فى تطبيق ما دعا اليه وما وجب عليه تبليغه للناس من وصايا ومبادىء ، الا أنه كـان المثل الأعلى · وبذلك كان الانسان الكامل :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجوا الله واليـوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » (١) ·

وهو أسوة وقدوة يجب أن تتبع · ولكن الذى يتبعها هو من أخلص لله ، واستهدف لقاءه ، وذكره فى كل عمل يعمله ·

★ ★ ★

١١ ـ العناية بالجانب النفسى فى توفير القوة للأمة :

وفى لقاء المؤمنين بعدوهم فى القتال لا يكفيهم فى احراز النصر عليه أن يتفوقوا فى العدد أو فى العتاد وانمـــا مع ذلك ـ أو قبل ذلك ـ يجب أن يكونوا فى مستوى نفسى يجعلهم مطمئنين الى النصر اذا ما التقوا به ·

---

(١) الأحزاب : ٢١ ·

وهناك من العوامل التى توفر للمؤمنين هـذا المستوى ما يشـير اليه القرآن الكريم فى عدد من آياته · وهى ترجع جميعها الى الايمـــان بالله ثم بقدرته فى كونه ·

فهناك ما يحكيه القرآن الكريم من : الحكم مسبقا من قبل الله تعـالى بنصر الرسل ، وبان المؤمنين بالله جند غالبون :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين :

انهم لهم المنصورون ·

وان جندنا لهم الغالبون » (١) ·

··· واذا كان الله ــ وهو مركز الايمان ــ قد قضى وحكم فى علمه بنصرة دعاة الحق ، وحماته ، وبنصر المؤمنين به ، وهو القادر جل جلاله ، الذى لا تعرف لقدرته حدود ··· فان نفوس المؤمنين عندئذ لا يخالجها أدنى ريب فى النصر ، اذا ما ألتقوا بأعداء الله فى قتال أو فى ابتلاء · وذلك معنى لا يدفع به الى النفوس سوى الايمان والايمان بالله وحده · لأن أى ايمان بأهـداف أخرى لا يرقى فى قوته وفى استمراره الى الايمان بالله · على انه قلما يتكون فى نفس الانسان ايمان بشىء آخر سواه ، لأن ما سوى الله محدود ينكشف بين آونة وأخرى · وما كان محدودا فى صفاته وفى معاله لا يتأصل من أجله ايمان فى نفس من يعلن الايمان به · واعلان الايمان به عندئذ هو خدعة أو وسيلة الى غاية أخرى ، ينتهى بتحقيقها ·

وهناك وراء قضاء الله الأزلى وحكمه بنصرة حماة الحق والمؤمنين به ، ما يحط بنفوس الأعداء من الرعب والخوف من جانب المؤمنين :

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » (٢) ·

··· ورعب الأعداء وخوفهم من جانب المؤمنين ــ وان كان بفضل الله تعالى ، كما تنطق الآية : « **سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب** » الا أنه لا يتم الا اذا كان المؤمنون بالله مؤمنين به حقا وصدقا ، لا يتخذون من الايمـــان وسيلة لدنيا ، ولا يخدعون به أنفسهم وغيرهم · ولذا جاء عقب هذه الآية ، قوله تعالى فى الآية التالية :

---

(١) الصافات : ١٧١ ــ ١٧٣ · (٢) آل عمران : ١٥١ ·

« ولقد صدقكم الله وعده ، اذ تحسونهم (أى تستأصلونهم) باذنه ،

حتى اذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم ، من بعد ما أراكم ما تحبون !

منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ،

ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ،

ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » (١) .

... فهذه الآية الثانية تذكر : أن وعد الله بالقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا من جانب المؤمنين كان صدقا ، وترتب عليه أن هزموا واستؤصلوا فى القتال : « **ولقد صدقكم الله وعده ، اذ تحسونهم باذنه** » ثم تفيد أيضا : أن المؤمنين فى لقاء آخر مع الكفار عندما انقسموا فيما بينهم . بين راغب فى دنيا يريد تحقيقها من أسلاب الأعداء والغنائم التى يستولون عليها منهم ، وآخر بقى وفيا لايمانه ومخلصا فيه ... تخلى عنهم الله . ولذا لم يرهبهم الأعداء وكان النصر لهم ، وكانت الهزيمة للمؤمنين ، ابتلاء واختبارا لهم ، وتجربة تنفعهم فى حياتهم المقبلة : .. « **حتى اذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر وعصيتم ، من بعد ما أراكم ما تحبون** (من النصر) : **منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم** (فكان النصر لهم) **ليبتليكم** » .

وحتى لا يكون المؤمنون فى غدهم متأثرين بذنبهم فى هـــذه الهزيمة ومقيدين فى حركتهم المقبلة باحساس الرضا أو عدم الرضا من جانب الله .. كان قوله تعالى دليلا على تسجيل هزيمتهم بسبب فشلهم ، وتنازعهم فى الأمر وعصيانهم باستخدام القتال كطريق لتحصيل دنيا ، وليس سبيلا لحماية دعوة الله : « **ولقد عفا عنكم** » . وباخبار القرآن بعفو الله عن المؤمنين عن خطئهم فى هدف القتال أفسح لهم مجال العمل المستقيم مرة أخرى ، ووضعهم من جديد فى طريق الايمان الصحيح ، كى يتحقق لهم وعد الله بنصره على أعدائهم .

... واذ تنتهى هــذه الآية بقوله جـل شـانه : « **والله ذو فضــل عــلى المؤمنين** » .. تريد أن تسـجل على الله فضــله على المؤمنين به ، كقضـية لا ينفك تاليها عن مقدمها بحال : فاذا وجد الايمان بالله وجـد فضـل الله على صاحب الايمان به : ينصره على هواه ، كما ينصره على عدو ايمانه ، وأمارة ترقب النصر على العدو هى التأكد من نصر المؤمن على هواه أولا . اذ طالما وجدت للهوى سيادة على النفس ، يستحيل أن تسود النفس على نفس غيرها ، ولو كانت نفس عدو للايمان بالله .

---

(١) آل عمران : ١٥٢ .

ان الله الـذى يدع الرعب فى نفوس أعـداء المؤمنين يدعه فقط بسبب ايمانهم • والايمان هو تحرر وسيادة فى حياة المؤمن ••• هو ترفع عما يذل النفس ويجعلها ذات حاجة • وعندئذ اذا دخل فى لقاء مع العدو لم يدخـل معه متكافئا ، وانما يدخل متفوقا ، لأنه لا يحرص على نفس ، ولا مال ، ولا ولد ، ولا جاه ولا سلطة ، ولا منزلة فى دنيا أو مجتمع • وانما يحرص على شىء واحد : هو أن يلقى ربه مستشهدا فى سبيل الايمان به وبقيم الحيـــاة الرفيعة • ومن حرص على الاستشهاد فى سبيل الايمان بالله ينتصر على عدوه حتما ، بعد أن انتصر هو على نفسه وتحرر من شهوتها التى تجذبه نحـــو التخلى عن القتال واللقاء فيه ، ونحو الهرب ضمانا لسلامة النفس ، وضنا بالحياة المادية •

وهنا يستحيل أن يكون الهدف المادى باعثا على القتال من أجله • لأن الانسان عندما يدفع الى القتال يوازن بين هذا الهدف المادى وبين حيـــاته المادية وبقائه مستمتعا بها ، فيؤثر الثانية على الأولى ويفر من الميدان للحفاظ عليها •

وللارتباط الوثيق بين السيادة على هوى النفس والسيادة على العدو فى اللقاء معه ، اذا انهزم المؤمن من عدوه يجب أن يعود الى نفسه قبل أن يواجه عدوه مرة أخرى ••• يجب أن يعود الى نفسه فيختبرها مع هواهـــا وشهوتها :

ان كانت هى السائدة أم المسودة ، ولا يتقدم خطوة فى لقاء عدوه من جديد الا اذا تحرر تماما من هوى نفسه ، وعندئذ يكون مخلصا فى ايمـانه بالله ، وبالتالى يضمن فضل الله عليه وهو نصره على عدوه •

★ وهناك وراء القضاء الأزلى ينتصر الله لحماة دينه ، وبالقائه الرعب فى قلوب أعداء المؤمنين فى القتال بسبب ايمان المؤمنين بالله •• هناك وراء هذا ، وذاك : ما يحل بنفوس المؤمنين من الاستخفاف بالكفار وهوانهم عليهم ، مما يذكره قول الله تعالى :

« اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ،

ولو أراكهم كثيرا ، لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ،

ولكن الله سلم ، انه عليم بذات الصدور » (١) •

---

(١) الأنفـال : ٤٣ •

... والله لم ير رسوله عليه السلام في منـامه : أن أعداءه قلة ، كي يشجعه ويشجع المؤمنين معه على اللقاء بهم في القتال ، الا بفعل الايمان بالله في نفسه صلى الله عليه وسلم ... الايمان بقوله تعالى : « **يا أيهـا النبي : حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون ، يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون** » (١) .

والايمان بذلك ليس خدعة وليس وهما قائما على غير أساس من طبيعة الانسان وخصائص هذه الطبيعة . انما هو حقيقة نفسية ايحائية ، وقد بلور القرآن هذه الحقيقة في تعليل انتصار المؤمنين مع قلة عددهم ، على أعدائهم مع كثرتهم في العدد ، في وصف هؤلاء الأعداء : « **بأنهم قوم لا يفقهـون** » اذ أن عـــدم فهمهم لا يعود الى بلادة في التفكير ، وانمـــا لايثارهم الشرك في العبادة ، وطغيان المادية في حياتهم . اذ من شأن الشرك في العبادة أن يجعل المشرك مترددا بين عديدين ولا يركن الى واحد منهم أبدا ، ومن شأن طغيان المادية في الحياة ايثار الجانب الأسلم على الجانب الآخر الذي يعرض الحياة الى الهلاك .

والمتردد في اتجاهه ، والمؤثر للسلامة في حياته ينـــال منه خصمه في يسر ، وينتصر عليه في غير كثرة من العدد ، وفي غير قوة كبيرة في العدة .

وهكذا الجانب النفسي ، أو المعنوي ، أو الايماني للمحارب هو الجـانب الأهم في لقائه مع عدوه وانتصاره عليه ، ان كان ذا مستوى يقلل في نفســه قيمة العدو ، ويجعـل من ايمانه رهبة له . وهنـــا يكون قضـاء الله الأزلي بالنصر للمؤمنين :

« **ولقـــد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون** » (٢) .

والرسول الحاكم عليـــه السلام في دائرة تكليفه تبليغ الوحي ، كلف برعاية هذا الجانب النفسي على نحو ما أشارت اليه الآيات السابقة .

وهكذا يجب على المؤمنين بعده ، ان أرادوا النصر وعـدم التبعيـة ، وأرادوا القوة ، واعلاء الكلمة ، وعدم الاستخذاء وقبول المذلة .

★★★

---

(١) الأنفال : ٦٥ .　　(٢) الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣ .

الفصل الثالث

سياسة الحكم الخارجية

١ ـ الرسول الحاكم يؤمن من يريد من الأعداء السماع لدعوة الحق :

★ موقف الاسلام من أعدائه الوثنيين الماديين ـ وهم المشركون بالله والذين لم يختلفوا بسبب كتاب من الله ينتسبون اليه ـ واضح · وهو الحذر منهم وعدم الخداع بما يقولون ، فضلا عن عدم الولاء واقامة علاقة معهم على أساس الصداقة والمودة · وذلك بسبب أن الهوة بين الطرفين : أى بين المؤمنين وهؤلاء المشركين ، عميقة ، بحيث يقف كل منهما على النقيض مما يقف عليه الآخر :

فالمشركون يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ـ وهو متاع هذه الحياة المادية ـ ولذا يصدون عن سبيل الله ، وهو الايمان برسالته للانسانية على هذه الأرض· هم لا يعرفون فى الوجود الا ما هو مادى والا ما فيه متع مادية ، أينما يجدونها يتجهون الى مصدرها بالعبادة والخضوع ، وان تغير هذا المصدر فى الغد عما كان عليه بالأمس ، وحتما سيتغير · ومن هنا كان شركهم وتعدد ما يتجهون اليه بالاحترام والولاء ·

وهذا التعدد أو الشرك فيما يعبدون يعتبر صدا عن سبيل الله · لأنها سبيل واحدة لا تغيير فيها ، وهى سبيل الواحد ، الكامل ، الباقى ، الخالق ، والفعال لما يريد ·

وسبيل الله لذلك تستتبع تقدما فى انسانية الانسان الذى يسلكها ، دون أن تستلزم حتما حصولا على منفعة مادية ، بينما يستتبع طريق الشرك مغنما ماديا ومصلحة شخصية للمشرك · ومن هنا كان التناقض فى الهدف بين المؤمن والمشرك ، فبينما يستهدف المؤمن انسانية فى ذاته بعبادته لله وحده ، يستهدف المشرك بشركه ونقل عبادته من موجود لآخر ، متعة مادية يحقق بها شهوة من شهواته ·

والعداوة بين الطرفين اذن هى عداوة جذرية · ومن هنـــا كان موقف المؤمن ـ كما يمليه الاسلام ـ ليس هو الاعتـــداء على المشرك ، بل الحـــذر والحيطة منه وعدم الخداع بظاهر أمره · لما يراه هذا المشرك فى الايمان بالله الواحد من عقبة تحول دون استمتاعه بالمتع المادية · وهو مستهدف فى حياته اياها وحدها · وقد جاء تأصيل هذا الموقف الذى يقفه المؤمن من عدوه المشرك فى قول الله تعـــالى :

« **كيف وان يظهروا عليكم** (أى يظفروا بكم وينتصروا عليكم) **لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة** (أى لا يرعوا فى معاملتكم عنـــدئذ علاقة قرابة أو جوارا ولا الوفاء بعهد قطعوه على أنفسهم) ·

١ ـ **يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم** (أى تأبى قلوبهم أن تجـــارى ما ينطقون به من كلام خادع وتصر على البقاء على الكراهية والحقد لكم) **وأكثرهم فاسقون** (أى أكثرهم لا يخفون ما يضرون لكم ولايمانكم بالله وحده ، فهم فجرة) ·

٢ ـ **اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، انهم ساء ما كانوا يعملون** ·

٣ ـ **لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون** » (١) ·

··· فهذه الآيات توضح ما يتميز به المشركون فى عداوتهم للمؤمنين · وهو أنه يوم يملكون الأمر على المؤمنين يوم يسومونهم العذاب ولا يرعون فيهم أية علاقة من قربى أو عهد اليهم · كما توضـــح سبب هذه العـــداوة · وهو اتجاههم المادى فى الحياة الذى يطغى على كل شىء فى علاقات الانسانية ، ويجعلهم يميلون من الشىء الى نقيضه وينتقلون بانحنائهم وخضوعهم من كائن الى آخر ·

★ ومع هذا الموقف الحذر ، ومع هذه العـــداوة الأصـــيلة فى نفوس المشركين بالنســـبة للمؤمنين ، فان الرسول الحاكم عليـــه الصلاة والسلام ـ والمؤمنين بالله ـ يجب عليه أن يؤمن المشرك فى دخوله الى ديار المسلمين وخروجه منها الى مكان آخر يأمن فيه على نفسه ، اذا طلب الأمان فى سبيل الانصات الى دعوة الحق والاتصال بها عن قرب · لا لأمل أن يؤمن بهـــا

---

(١) التـــوبة : ٨ ـ ١٠ ·

فحسب ، ولكن لأن ذلك أيضا واجب من يأخذ على نفسه مسئولية التعريف بها وقيادة الأمة على أساس منها .

يقول الله تعالى :

« **وان أحد من المشركين استجارك فأجره** (أى اذا طلب منك الأمان فأمنه) **حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ،**

ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (١) .

... واذا تعلل الآية وجوب تأمين المشرك حتى يتصل بدعوة الحق عن قرب أو اتصالا مباشرا ، بأن المشركين قوم لا يعلمون ، فلكى تضع احتمالا آخر – ليس هو خداع العداوة – يحمل بعض المشركين على الاتصال بالمؤمنين ، وهو الرغبة فى التعرف على الحقيقة . اذ أن شركهم كثيرا مايكون بسبب العادة أو بسبب تضليل زعمائهم وكبرائهم ، وهم فى واقع أمرهم ليس لديهم علم صحيح فيما يتجهون اليه من شرك .

وهكذا : يجب أن لا تنطوى صدور المؤمنين على الحقد على غيرهم من أعدائهم الحقيقيين . فهم بايمانهم بالله يترفعون عن كراهية الآخرين ، مهما كانت علاقتهم بهم . لأنهم استهدفوا هدفا فى حياتهم ، وهو أن يكونوا انسانيين ، وليسوا أنانيين ماديين . ومن الانسانية أن تمكن غيرك من المعرفة الحقة ، ومن الانسانية أيضا أن تبقى صافى النفس – وان كان مع الحذر – مع من يضمر لك العداء .

★ ★ ★

٢ – الرسول الحاكم يلتزم بوفاء العهد للاعداء طالما يحافظون عليه

★ وأيضا من انسانية الانسان أن يلتزم بوفاء ما عاهد عليه . ذلك لأن العهد أمانة ينتظرها الطرف الآخر . فاذا لم تؤد اليه فقد لا يخيب أمله فحسب ، وانما مع ذلك قد يصيبه ضرر بعدم الأداء ، سواء أكان ضررا ماديا أو معنويا . ولا تحمل الكراهية أو البغض للطرف الذى يجب الوفاء له بالعهد ، على عدم الوفاء به اليه . كما لا تحمل الكراهية للغير كذلك على الاعتداء عليه أو على عدم العدل فى حكم أو فى شهادة تتعلق به .

---

(١) التوبة : ٦ .

واذا كان مطلوبا من المؤمنين أن يتجنبوا العدوان على الآخرين بسبب بغضهم اياهم ، على نحو ما تذكر الآية : « **ولا يجرمنكم شنآن قوم** (أى لا يحملكم بغض قوم) **أن صدوكم عن المسجد الحرام ، أن تعتدوا** » (١) ٠٠٠ واذا كان مطلوبا أيضا أن يباشروا العدل فى الحكم والشهادة ويتجنبوا الظلم وقول الزور بسبب خصومة أو كراهية لمن سواهم ، كما جاء فى قوله تعالى : « **كونوا قوامين لله** (أى مخلصين وقاصدين وجه الله) **شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا** (٢) ٠ (أى لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل فى الحكم فيما بينهم أو فى الشهادة فيما يخصهم) ، ٠٠ **فكذلك** مطلوب منهم أن يتجنبوا عدم الوفاء بالعهد بسبب البغض أو الكراهية لمن يجب أن يوفى له بالعهد :

٠٠٠ مطلوب من المؤمنين بدل العدوان ، التعاون على البر والتقوى : « **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب** » (٣) ٠

٠٠ ومطلوب منهم العدل ، بدلا من الظلم فى الحكم ، أو من ــ ــن الزور : « **اعدلوا هو اقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون** » (٤)
٠٠ ومطلوب كذلك منهم أن يفوا بالعهد لخصومهم ولأشد أعدائهم ــ وهم المشركون ــ طالما استقام هؤلاء فيما عاهدوا عليه : « **الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين** » (٥) فهؤلاء يجب الوفاء بالعهد اليهم بسبب استقامتهم فيه ، ويستثنون من أجل هذا السبب من الوضع العام الذى هو للمشركين فى نظر المؤمنين ، وهو وضع الريبة والشك فى معاملاتهم وفى عهودهم ، على نحو ما تقول الآية : « **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟** » (٦) ٠ فهى تنكر أو تستبعد أن يثق الله جل شأنه ورسوله عليه الصلاة والسلام بما يقطع هؤلاء من عهد ، لما جبلوا عليه من الغدر والخيانة : « **لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون** » (٧) ٠ ومع ذلك فالرسول الحاكم عليه الصلاة والسلام مطالب بأن يلتزم بوفاء العهد لهؤلاء الأعداء ، طالما يحافظون عليه ٠ وكذلك الشأن بالنسبة لقادة الأمة الاسلامية من بعده : يلتزمون بالعهود التى أعطوها

---

(١) المائدة : ٢ ٠
(٢) المائدة : ٨ ٠
(٣) المائدة : ٢ ٠
(٤) المائدة : ٨ ٠
(٥) التوبة : ٧ ٠
(٦) التوبة : ٧ ٠
(٧) التوبة : ١٠ ٠

لأعدائهم ، حتى ينتهى أمدها · فاذا خشوا خيانة منهم اعتبروا تهيؤهم للخيانة نقضا للعهد من جانبهم · وبذلك يعلنون لهم نقضهم كذلك له · ويستوى آنئذ تهيؤ الأعداء لخيانة المؤمنين مع اعــلان المؤمنين لنقض العهد ، فى أن لا يكون هناك التزام من أى جانب بالوفــاء · ويصــبح الوضــع بين الفريقين وضــع حــرب · وهــذا ما يشير اليه قــوله تعالى فى خطابه للرسول الحــاكم عليه الصلاة والسلام : « **واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء** (أى اطرح اليهم عهدهم ليكون الوضع متساويا معهم فى عدم الوفاء بالعهد) **ان الله لا يحب الخائنين** » (١) ·

★ والطابع الانسانى هو اذن الطابع الذى يجب أن يسود أولا موقف المؤمنين من أعدائهم · لأنــه وحــده هو الــذى يعــلن عن ايمانهم بالله · فهم لا يصدرون فى موقفهم عن انفعال بكراهية أو بغضاء ، أو عن خصومة أو حقد · وانما يصدرون عن مبادىء تترجم الايمان بالله · يصدرون عن مبــدأ العدل لذاته ، وعن مبدأ الوفاء بالعهد لذاته · اذ هــذه المبــادىء من أخص آثار الايمان بالله فى حياة المؤمن ·

وبهذا الطابع الانسانى وحده فى المواقف والمعاملات بالنسبة للأعــداء يتجلى ترفع الانسان المؤمن عن أن يدع تصرفه يتأثر بغريزة المقاتلة أو حب الانتقام ، كما يتأثر الحيوان ، وبه أيضا يكون مصدر خير لنفسه ولغيره على السواء ·

والمؤمن بعد ذلك لا يباشرالحرب والقتال ضد أعــدائه الا مكرها ، من أجل الحفاظ على هذه المبادىء التى يصدر عنها فى الحيــاة الانســانية · والحرب ، والسلام فى حياته : من عوامل بناء الحضارة ، واستقامة السبيل فى علاقات الناس بعضهم ببعض · فلا يعرف السلام تمهيدا لغدر وخيانة ، كما لا يعرف الحرب طريقا لتوسع مادى ، أو لتخــريب مدنية ، وهــدم قيم ومثل عليا ·

وكذلك الرحمة والشدة فى حياته تستهدف نفس الغاية · وهى البناء فى الحضــارة الانســانية ، وتحقيق القيم العليا فى العلاقات والروابط بين الأفراد : « **محمــد رســـول الله ، والذين معه أشــداء على الكفار رحمـــاء بينهم** » (٢) · هم أشداء على الاعداء المخربين لكل ما هو انسانى ، رحمــاء على أولئكم الذين يساهمون بتصرفاتهم وبمواقفهم فى ارساء السلوك الانسانى

---

(١) الأنفال : ٥٨ ·   (٢) الفتح : ٢٩ ·

الكريم ، وهو السلوك الموصل الى التعاون والتواد بين الناس جميعا ٠

* * *

٣ ـ **الرسول الحاكم : يتجنب اتخاذ السند من الأعداء لأمته :**

ومهما أعلن عـدو الأمة ـ وهو عـدوها فى الاعتقاد والايمان بالله ـ رضاه وموافقته على اتجاه الحياة فى الامة وما يقوم عليه من مبادىء ، وما للأمة من أهداف ٠٠ فانه ليس صادقا فى واقع أمره ولا يؤتمن جانبه بحال ٠ ولذا يجب أن يتجنب اتخاذه سندا وصديقا ، يركن اليه فى السراء أو الضراء ٠

والقرآن الكريم فى توجيه الرسول الحاكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى سياسة الأمة الخارجية ، أى فى سياسة الأمة مع غيرها ممن لا يشاركونها الايمان بكتاب الله ، يطلب الى المؤمنين أن يبتعـدوا عن صـداقة هؤلاء وعن الثقة فيهم ، اذ يقول :

« **يا أيها الذين آمنوا : لا تتخذوا بطانة** (أى سندا وصديقا) **من دونكم** (أى من غيركم وهم : من لا يشاركونكم الايمان بالله) » (١) ٠

ونداء القرآن هنا يتجه به الى المؤمنين جميعا ، لأن الامر فى الـواقع يخص كل فـرد مؤمن ، فى خطورته وفى آثاره ٠ ومن غير شك : الرسـول الحاكم عليه الصلاة والسلام ـ ومن بعده ولى المؤمنين العام ـ يتجه اليـه هذا النداء بالأولى وبالأخرى ٠

ولأن اتخاذ السند من عدو الأمة يبلغ خطورته على الأمة ذاتها مبلغـا خطيرا لم يكتف القرآن بالنهى عنه ، وانما ذكر الأسباب التى تدعو اليه وتحتم اتخاذ الحيطة فى تجنب الثقة به ، فيقول بعد هذا النهى :

« **لا يالونكم خبالا ،**

ودوا ما عنتم » (١) ٠

٠٠ ويذكر سببين :

★ **السبب الأول** : أن عدو الأمة فى ايمانها بالله لا يقصر اطـلاقا فى الدأب على العمل لايصال الضرر ، والأذى ، والفساد الى المؤمنين ، فى صورة

---

(١) آل عمران : ١١٨ ٠

مبـاشرة أو غير مبـاشرة ، لأن ذلك هو منطق عداوته ، ومنطق اختلافـه فى الايمان والاعتقاد ·

وهذا مـا تقوله الآية : « **لا يألونكم خبالا** » أى لا يقصرون فى الحـاق الضرر والايذاء بكم ·

★ **والسبب الثانى** : أن الرغبة الدفينة فى نفسه ـ عدو الأمة ـ ومـا يوده من أعماقه للمؤمنين ، هو : أن يواجه المؤمنون فى حياتهم دائما عنتا ومشقة متواصلة ، ان فى الشقاق والنزاع فيمـا بينهم بعضهم بعضـا وان فى السعى وراء مطالب الحياة المادية ، وان فى تحقيق القيم العليـا التى يؤمنون بها · وهذا ما تشير اليه الآية ، اذ تقـول : « **ودوا ما عنتم** » · أى ودوا عنتكم ومشقتكم فى حياتكم تحت ضغط أى عامل ، وفى أى مظهر من مظاهر الحياة ·

فعدو الأمة ـ تبعا لهذا التوجيه من القرآن الكريم ـ هو فى محاولة لا تنقطع لايصال الضرر والأذى بالمؤمنين ، فى الوقت الذى يضمر فيه مشـقة الحياة لهم والتعثر فيها · ومثل هذا لا يؤمل فيه الخير للمؤمنين ابدا ، ولا يستحق بحال أن يولونه الثقة ، فضلا عن التقرب اليه بالصداقة والاعتمـاد عليه ·

ولكى يعطى القرآن الكريم الأمارات التى تدل على طبيعة العداء ، بسبب الدين والايمان بالله ، يشير الى أربع منها :

الأولى : أن أصحاب هذه الطبيعة ـ رغم ما قد يتخذونه من حيطة ـ انهم قد يتفوهون فى أحاديثهم بمـا ينم عن البغضـاء والكـره للمؤمنين والاستهزاء بالدين والسخرية من طريقة الحياة للأمة المؤمنـة : « **قـد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر** » (١) ·

الثانية : أنكم قد تتوددون اليهم وتميلون الى عشرتهم بل وتحبونهم ، ثم كذلك تؤمنون بكتاب الله كله ، وهو ينطوى قطعا على قدر مشترك فى الاعتقاد بينكم وبينهم ، ومع ذلك لا يحبونكم ولا يميلون اليكم ، الا اذا تحولتم كلية وبما تؤمنون به الى ما يعتقدون ويبشرون هم به : « **ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله** » (٢) ·

---

(١) آل عمران : ١١٨ ·   (٢) آل عمران : ١١٩ ·

الثالثة : أنهم ينافقونكم : اذا واجهوكم والتقوا بكم أعلنوا موافقتهم على ما ترون وتؤمنون به ، واذا تركوكم أعلنوا من خلفكم الحقد عليكم ، وهو حقد يدفعهم الى عض الأنامل عليكم غيظا : « **واذا لقوكم قالوا آمنا ، واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** » (١) ٠

الرابعة : أن ما يسركم يثير حزنهم ، وأن ما يضركم يبعث على سرورهم٠ وهذه أمارة واضحة على تمكن العداء ، وعلى أن تلك النفس هي نفس شريرة حاقدة ، تتحين الفرص للايذاء والاضرار ، والحاق العنت والمشقة بمن تعاديه: « **ان تمسسكم حسنة تسؤهم ، وان تصبكم سيئة يفرحوا بها** » (٢) ٠

٠٠ وهي أمارات كافية ، ومقنعة بعدم الاعتماد على عدو الأمة ، وبعدم منحه الثقة والولاء ، أو الصداقة والمحبة ٠ والطريق الواضح ٠ اذن في سياسة الأمة التي يحملها المسئول الأول فيها ـ وهو وليها العام ـ هو عدم اتخاذ السند من الأعداء مهما كان مظهر توددهم ، ومهما كانت درجة اقرارهم لما عليه الأمة من ايمان ، وما لها من مثل عليا ٠

وليس بتجنب الثقة في هذا العدو ما يضر المؤمنين اطلاقا ٠ اذ أن ما يترقب منه من نفع هو ـ في الحقيقة ـ وهم ، وما يحاوله من ايصال الضرر يقصر عن أن يضر المؤمنين طالما هم مخلصون في ايمانهم بالله ، وأصفياء في علاقتهم بعضهم ببعض ويتماسكون ككتلة واحدة في وجهه : « **وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، ان الله بما يعملون محيط** » (٢) ٠

٠٠٠ ليس هناك ما يضر المؤمنين على الاطلاق اذا ما احتملوا وصبروا ، واتقوا الله فلا يذعنوا لأهوائهم وشهواتهم ، واعتمدوا على الله فتذكروه فيما يأمر أو ينهى عنه ، في كل عمل يأتون به وفي كل سلوك يباشرونه ٠

واذا وجب على المؤمنين في سياسة أمتهم تجنب اتخاذ العدو صديقا وسندا ، فانه ليس بلازم عليهم أن يواجهوه بالعداء أو يباشروا العدوان عليه ٠ بل قد تجب عليهم في بعض الظروف مداراته ، بعدم مجاهرته بالعداء :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،

ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ،

الا أن تتقوا منهم تقاة » (٣) ٠

★ ★ ★

---

(١) آل عمران : ١١٩ ٠ (٢) آل عمران : ١٢٠ ٠
(٣) آل عمران : ٢٨ ٠

٤ ـ الحذر من مفاجاة العدو :

وفى سياسة الحرب مع أعداء المؤمنين ـ وهم الذين يكفرون بالله ويهزأون بدينه وبمبادئه ـ يوضح القرآن الكريم للرسول الحاكم عليه الصلاة والسلام : المبادىء التى يجب السير عليها فى الموقف نحوهم ، ضمانا للنصر ، ولكن فى اطار السلوك الخلقى · وطالما كانت حرب المؤمنين مع غيرهم هى حرب وقاية لهم وحماية لمبادىء دينهم ، وطالما كان اعدادهم للمواجهة وتزودهم بالقوة المادية ومرابطتهم فى الحصون على الحدود هو لارهاب عدو اليوم ، وفى الغد ، وفيما بعد غد ·· فليس للمؤمنين هدف أخير سوى أن يعيشوا فى سلام ، ولكن فى عزة ، ومن أجل البناء الداخلى مع حيطة وحذر من الخارج ، ملتزمين فى كل موقف وفى كل عمل يأتون به : المبادىء الأخلاقية التى يدعون اليها ، والتى تتمثل فى الانسانية الفاضلة ·

والحذر والحيطة يتطلبان من المؤمنين التمسك فى السلوك وفى تقرير المواقف نحو أعدائهم بما جاء به القرآن الكريم من هذه المبادىء :

أولا : أن يعتقد المؤمنون : أن الذين يكفرون بالله ويهزأون بدينه يتحللون من كل ما يسمى بضمير ، وكل ما يسمى بمبادىء الانسانية والأخلاق فى المعاملة لغيرهم · وهم شر على من عداهم ، وشر فى أنفسهم كذلك : « **ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون** » (١)·

··· وقد حكمت عليهم الآية بسبب عدم ايمانهم ـ بأنهم شر بالنسبة لجميع الكائنات التى تتحرك على هذه الأرض ، وليس على مجموعة دون مجموعة ، وانما على الكائنات التى تدب على الأرض كلها · ويدخل فى ذلك : أنهم شر على أنفسهم ، وبالأولى شر على غيرهم ·

ومعنى اعتقاد المؤمنين بأن الكافرين بالله شر الكائنات كلها التى لها حركة على هذه الأرض ·· أنه لا يؤمن جانبهم على الأقل فى أن يباشروا السوء أو يبيتوه ، مهما أعطوا من الضمانات والعهود · لأن الذى يفى بالعهد اذا أعطاه ، هو : ذلك الذى يتقى الله ويخشاه · أما من لم يؤمن بالله فهو لا يتقى أحدا ، ولا يخشى موجودا فى نقضه لما عاهد عليه ، طالما كانت له مصلحة ذاتية فى

---

(١) الأنفال : ٥٥ ·

نفسه ، بعد أن كانت له مصلحة أخرى عندما وعد به · ولهذا تقول آية أخرى بعدها فى أسباب شريتهم : ·

« **الذين عاهدت منهم ، ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون** » (١) ·

ثانيا : يجب على المؤمنين اذا ما اشتبكوا فى قتـال معهم أن تكون الضربة التى توجه منهم اليهم قاضية عليهم ، بحيث تكون عبرة لغيرهم يعتبر بها آخرون يشاركونهم الكفر بالله والبعد عن الانسانية والأخلاق فى السلوك · وهذا ما تطلبه الآية التالية :

« **فاما تثقفنهم** (تجدنهم وتلتقى بهم) **فى الحرب فشرد بهم من خلفهم** (أى ليكن قتالك اياهم تشريدا وتمزيقا لمن يخلفهم بحيث لا يلتئم جمعهم أبدا ــ وهذا كناية عن الشدة) **لعلهم يذكرون** » (٢) ·

ثالثا : يطالب القرآن الكريم الرسول الحاكم ــ هنا أيضـا مع ما يطلبه من الشدة والعنف فى قتالهم ان قاتلوا ــ أن يفى بعهد أعطاه لهم ، ان هم حافظوا عليه ·

ولكن ان قدر عليه الصلاة والسلام أو خشى لأمر ما ، أن ينقض هؤلاء الكافرون الأشرار عهدهم مع المؤمنين ــ وهو العهد الذى ضمن المؤمنون لهم فيه ممارسة الاعتقاد ومباشرة الأموال التى لهم فى حرية وفى غير تضييق ــ وبذلك يخونونه ·· فالأمر أن يعلن عليه السلام نقضه كذلك من جانبه وجانب المؤمنين معه ، حتى يكفل للأمة حرية المواجهة فى القتال ، ان دفعوا اليه دفعا ضدهم :

« **واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم** (أى العهد) **على سواء** (لتكون أنت وهم سواء فى التحلل منه) ، **ان الله لا يحب الخائنين** » (٣) ·

··· ولذا ليس هنا حرج فى نقض العهد من الوجهة الأخلاقية ، على حين أن نقضه حينئذ ضرورة وجودية وسياسية ·

★★★

---

(١) الأنفال : ٥٦ ·
(٢) الأنفال : ٥٧ ·
(٣) الأنفال : ٥٨ ·

ودور القيادة الذى يلتزم به الولى العام للأمة الاسلامية ـ حسب توجيه القرآن الكريم هنا ـ اذن هو :

★ الاعتقاد ببعـد الكافرين بالله عن معـــاملة غيرهم من المؤمنين فى انسانية ، أو تحت رقابة أى ضمير خلقى ٠

★ الوفاء بالعهد لهم ، ان التزموا به ، سواء فى جانب المال ، أو فى جانب الاعتقاد ٠

★ أخذهم بشدة فى القتال ، ان هم باشروا العدوان ضد الأمة ٠

★ نقض العهد واعلانه لهم ، ان كان هناك احساس أو كانت هنـــاك خشية لدى الولى العام من جانب العدو بنقضه ، حتى تكون للمؤمنين حرية المباشرة فى لقائه فى القتال ان شنها حربا ضدهم ٠

ودور القيادة الاسلامية فى هذه المبادىء الأربعة هو :

(١) دور السياسة الرشيدة ٠

(٢) ودور الدفاع اليقظ ٠

(٣) ودور السلوك الخلقى الكريم ٠

أما دور السياسة الرشيدة فهو فى اعتقاد المؤمنين : أن أعداء الايمان بالله يستحيل عليهم أن يكونوا انسانيين فى السلوك أو فى المعاملة ٠ وبالتالى يستحيل أن يكون لهم وفاء بعهد قطعوه على أنفسهم ، وأكدوه مرارا ٠ ومن هنا : تجب الحيطة منهم ، بحيث لا تفاجأ الأمة بعدوانهم ، كمـــا ينبغى أن لا يكون لهم ولاء من جانب المؤمنين وأن لا يرتبطوا بصداقة معهم ٠ وكـذلك فى نقض العهد معهم ، ان أحس المؤمنون بميل هؤلاء الأعداء الى نقضهم له ، عن طريق تربصهم بالقتال معهم ٠

وأما دور الدفاع اليقظ فهو فى عنف القتال وجعل ما يلاقيه الأعـداء من المؤمنين فيه عبرة لغيرهم ٠

ودور السلوك الأخلاقى الكريم هو فى المحافظة على العهد ، طالما يفى به الأعداء ، مهما كانت الفجوة بينهم فى الاعتقـــاد ٠ ومعنى ذلك : عـدم بدء المؤمنين بنقضه ، وعليهم الوفاء به احتراما للكلمـة التى يعطونهـا الى أن يلمسوا الشر مبيتا ٠

ولكى يطمئن القرآن الرسول الحاكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنين معه فىحال لقائهم الأعداء فى قتال ، أو فى حال اعلانهم نقض العهد من جانبهم عندما يحسون الخيانة والغدر ، يختم القرآن التوصية بهذه المبادىء الأربعة فى سياسة الأمة الاسلامية مع أعدائها بقول الله تعالى :

« **ولا يحسبن الذين كفروا ، سبقوا** (أى تقدموا ونجحوا على المؤمنين بسبب عزمهم على نقض العهد وتبييتهم العدوان ضدهم) ٠

انهم لا يعجزون (أى انهم لا يستطيعون ـ مهما كانت نواياهم الخبيثة ومهما كان تخطيطهم للخيانة والغدر بالمؤمنين أن يعجزوا قدرة الله تعالى فى نصرة المؤمنين) » (١) ٠ وقدرة الله فى نصر المؤمنين على أعداء الايمان بالله ، مرتبطة فى كل وقت باخلاص المؤمنين أنفسهم فى ايمانهم ، وبجعله فوق الدنيا ومتعها ٠٠ فوق الجاه ، والمال ، والحكم ، والولد ٠٠٠

***

(١) الأنفال : ٥٩ ٠

الباب الخامس

فى الدولة : فى طابعها ، وأصول الحكم فيها

- فى طابع الدولة الانسانى ، والعالمى ·
- فى الالتزام ، دون الالزام ·
- فى مبدأ : الشورى ، المتكافئة ·
- فى كفالة حرية الرأى ·

الفصل الأول

فى طابع الدولة الانسانى والعالمى

الدولة هى التنظيم الذى يكفل لمجتمع ما ، ممارسة عـــلاقة أفراده ، بعضهم ببعض ، فى دائرة الأهداف والمبادىء التى ارتضاها هؤلاء الأفراد عند لقاء بعضهم مع بعض ، وعند التصميم على المشاركة فى قيام مجتمع خاص بهم ، يحرص على تحقيق الغاية منه ، سواء : فى تمكين الأفراد من مباشرة ما ارتضوه من مبادىء ، أو فى حماية هذا الذى ارتضوه من المبادىء، من الاعتداء عليه من أجنبى عنهم ·

★ ومن أجل تمكين أفراده من مباشرة مبادئه وتحقيق أهدافه كـانت ضرورة توفير الحرية الفردية ، وفى الوقت ذاته كانت ضرورة المحافظة على الاستقرار فى الداخل ·

★ ومن أجل حماية المبادىء والأهداف من اعتداء أجنبى عليها كانت ضرورة المحافظة على سلامة المجتمع من الخارج ·

★ ولكى يبقى الوعى بأهداف المجتمع ومبادئه واضحا لدى الأفراد فى أجياله المتلاحقة وبالتالى لكى تتوفر الحرية الفردية فى ممارسة هذه المبادىء من جانب ، وفى حمايتها من جانب آخر ، من الاعتداء عليها فى الداخل وفى الخارج على السواء ، كانت ضرورة التربيـــة الخاصة بمبـــادىء المجتمع وأهدافه ، وضرورة التركيز عليها فى استمرار ·

والتربية الخاصة فى المجتمع الاسلامى هى التى :

أولا : تمكن الفرد من معرفة مبادىء السلوك الشخصى ، وسير العــلاقات بين الأفراد ، على نحو ما فى الاسلام فى كتاب الله ، ومن تطبيق هذه المعرفة للمبادىء فى الحياة الخاصة والعامة ·

ثانيا : كما أنها هى التى تحدد له فى تعاليم الاسلام دائرة الحرية الفردية ، والوسيلة التى يحافظ بها على حرمات الآخرين معه ، وهى الوسيلة التى يحقق الالتزام بها المحافظة على الاستقرار فى الداخل ·

وثالثا : هى كذلك التى تثير أهتمام الفرد فى يقظة وفى غير انقطاع ، لرد الاعتداء الخارجى ، وتجعل الثقل فى حياته على حماية أهداف المجتمع ومبادئه من أن تتعرض لأجنبى عنها ·

وعن طريق التربية الاسلامية فى المجتمع الاسلامى ، تكون مسئولية الاستقرار الداخلى لتمكين الأفراد من ممارسة الحرية الشخصية مسئولية فردية ، وكذلك مسئولية حماية مبادئه وأهدافه من الاعتداء الخارجى ، هى الأخرى مسئولية فردية كذلك · على معنى :

أن كل فرد فيه مسئول عن الاسهام بما يستطيع فى المحافظة على الأمرين معا · وعلى معنى أيضا :

انه ليس هناك فى المجتمع الاسلامى فرد أو مجموعة من الأفراد هى وحدها التى تسأل عن هذه المحافظة ، دون من عداها من الآخرين ·

ومن هنا كان اكتناز المال كطاقة فى الحياة ، وعدم طرحه من بعض الأفراد للتداول فى المعاملات المالية الداخلية أمرا عدائيا للمجتمع ، لأن استمرار الاكتناز يوصل الى عدم الاستقرار فيه · وكذلك الولاء من بعض الأفراد لقوة أجنبية عن المجتمع يعتبر انتهاكا لحرمته ، وتشجيعا على الاعتداء عليه من الخارج ·

ولتعميم المسئولية الفردية فى الاستقرار الداخلى ، والاعتداء الخارجى، كان واضحا ما يروى عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« ألا ! : كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ،

والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ،

والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده ، وهى مسئولة عنهم ،

وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه ،

ألا ! : فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » (١) ·

---

(١) رواه الخمسة فى كتاب التاج : ج ٣ ص ٤٩ ·

... اذ المسئولية الفردية واضحة هنا · لأن الانسان ـ أو الفرد ـ اما رجل فى أهل بيته ، واما امرأة فى بيت زوجها وأهله وولده · واما عامل فى مال صاحب العمل · وصاحب العمل قد يكون فردا ، أو شركة ، أو هيئة ، أو دولة·

ويترتب على وضوح المسئولية الفردية فى المجتمع الاسلامى عدة أصول ، أو عدة مبادىء أساسية تراعى فى سياسة المجتمع وتدبير أموره :

أولا : أن أداء المسئولية الفردية على وجهها الصحيح ينـاط فقط بالالتزام ·

وثانيا : فى وجوب الشورى المتكافئة ،

وثالثا : فى كفالة حرية الرأى والاعتقاد ·

★ ★ ★

واذا كانت المسئولية فى المجتمع الاسلامى ليست مسئولية فرد فيه وحده ، أو جملة أفراد معينين من بين أفراده ، دون غيرهم ، فان الدولة الاسلامية ذاتها ليست دولة قبيلة ، أو شعب ، أو عرق وجنس ، أو طبقة خاصة ·

ان طابع الدولة فى الاسلام لابد أن يأخذ ما للدعوة الاسلامية من اعتبار انسانى عام ، وهو ذلك الاعتبار الذى يحدده مصدر الرسالة الالهية فى القرآن الكريم ·

★ فالدعوة الاسلامية هى للناس جميعا :

« قل : يا أيها الناس
انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ،
لا اله الا هو يحيى ويميت ،
فآمنوا بالله ، ورسوله النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ،
واتبعوه لعلكم تهتدون » (١) ·

وجاءت لتعلن كافة الناس بهداية الله :

« وما أرسلناك الا كافة للناس ، بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر النـاس لا يعلمون » (٢) ·

---

(١) الأعراف : ١٥٨ ·   (٢) سبأ : ٢٨ ·

وهداية الله تتجلى فى أن يكون كتاب الله هو قاعـدة الحكم ، والفصـل بين الناس · لا فرق بين من يؤمن به ، ومن يبقى على كفره · ولا يعدل عن اتباعه بحال ، تحت أى ضغط أو رجاء :

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ،

لتحكم بين الناس ، بما اراك الله ،

ولا تكن للخائنين خصيما » (١) ·

كما تتجلى فى اباحة الاستمتاع بما تخرجه الأرض من ثمراتهـا ، فى حدود ما لا يفوت على أحد حقه فيها :

« يا أيها الناس :

كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ،

ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين · انما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٢) ·

★ ولأن دعوة الاسلام جاءت للناس جميعا سوت فى الاعتبار البشرى بين أفراد الانسانية فى كل مكان ، وفى كل جيل · اذ يستحيل أن توجه الناس، أينما كانوا ، الى قبول ما تدعو اليه عامة ، وهى تفرق بينهم فى الاعتبار ، وتجعل بينهم حواجز ، أو تصنفهم الى طبقات · هم جميعـا ــ فى نظرها ــ خلقوا من نفس واحدة :

« يا ايها الناس :

اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ،

وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ، ونساء » (٣) ·

··· وهم جميعا : خلقوا كذلك من ذكر وأنثى :

« يا أيها الناس :

انا خلقناكم من ذكر وأنثى ،

---

(١) النساء : ١٠٥ ·

(٢) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ ·

(٣) النساء : ١ ·

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ،

ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) ·

فللناس عامة خصائص طبيعية واحدة ، هى طبيعة الانسان ، وان تفاوتوا ـ فيما بعد ـ فى نمو هذه الخصائص وتطورها ، تحت التأثر باختلاف ظروف البيئة ، والعوامل الوراثية ، والجغرافية ·

وما بين الأفراد من اختلاف أو فروق فى نمو الخصائص البشرية وتطورها يجب أن يكون سببا للتضامن والتعاون بينهم ، وليس طريقا الى التخاصم والتنابذ · لأن الاختلاف فى مدى تطور خصائص الطبيعة البشرية لدى الأفراد من شأنه أن يولد فيما بينها حاجة بعضهم الى بعض · والحاجة تؤدى ـ على أكمل وجه ـ عند تعارف الأفراد وتعاونها ، وليس عند تخاصمها وتنابذها ·

وما تشير اليه الآية هنا من تكوين الشعوب والقبائل ، أو الجماعات تشير الى تكوينها على أساس انسانى : لغوى ، أو أسرى ، وليس على أساس طارىء ، كغنى أو فقر ، لأن الغنى والفقر من الأمور العرضية ، التى لا تقوى على التجمع ، ولا يطول أمرها فى الترابط بين الناس ان اتخذت رباطا بينهم ·

واذ تسوى الدعوة الاسلامية بين الناس فى الاعتبار البشرى ، فانها تضعهم مرة أخرى أمام مسئولياتهم الفردية ، وتؤكد لهم :

« من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ،

وما ربك بظلام للعبيد » (٢)

« ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ،

وان أسأتم فلها » (٣) ·

ولتوفير المسئولية الفردية الكاملة للفرد لا تكره هذه الدعوة ـ فردا ، أى فرد ـ على الايمان بهداية الله :

« قل : يا أيها الناس

قد جاءكم الحق من ربكم ،

---

(١) الحجرات : ١٣ ·
(٢) فصلت : ٤٦ ·
(٣) الاسراء : ٧ ·

فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ،

ومن ضل فانما يضل عليها ،

وما انا عليكم بوكيل » (١) ٠

٠٠٠ فالآية اذ تسلب الرسول عليه الصلاة والسلام معنى الوصاية والانابة عن الناس ، تفسح مكانا رحبا لحرية الايمان والكفر للأفراد ٠ فاذا سلبت وصايته على الناس فقد أبعدت بالتالى : الزامه أو اكراهه لهم ، على قبول أمر يريده ٠

والرسالة الالهية اذ تبعد الحمل والاكراه عن دائرة القبول والرفض للأفراد فلتحمل كل منهم نتائج قبوله أو رفضه ٠ ففى حال القبول : الفرد هو الملزم لنفسه بآثار القبول ٠ وفى حال الرفض لا عذر له فى وصول المكاره اليه٠

« انا أوحينا اليك ،

كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ،

وأوحينا الى ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ،

وعيسى ، وأيوب ، ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وآتينا داوود زبورا ٠

ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ،

وكلم الله موسى تكليما ٠

رسلا مبشرين ، ومنذرين لِئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ،

وكان الله عزيزا حكيما » (٢) ٠

وعن مبدأ المساواة فى الاعتبار البشرى بين الناس جميعا فى الدعوة الاسلامية كان طابع الدولة فى الاسلام طابعا انسانيا وعالميا ٠ أى لا يقوم على اتباع تقاليد قبيلة أو أعراف لها معينة ، ولا على رعاية لما يدعى من مميزات عنصر على عنصر ، ولا على ضمان حقوق خاصة لمجموعة بعينها من الناس : كمجموعة الأشراف أو النبلاء ، أو كمجموعة أرباب العمل فى شئون المال والصناعة ، أو مجموعة أصحاب الأجور من العمال ٠

---

(١) يونس : ١٠٨ ٠

(٢) النساء : ١٦٣ ــ ١٦٥ ٠

انها فوق القومية ، التى تدعو الى التكتل على أساس من رواية عنصر وعرق معين · وفوق الرأسمالية التى تساند الأثرياء من أصحاب المال والصناعة ، وربما على حساب غيرهم من المستهلكين ، أو العمال فيها · وفوق البروليتاريات ، أو ما يسمى بالطبقة العاملة ، وحكومتها العالمية ·

فالدولة الاسلامية دولة انسانية وعالمية : تمحى فوارق المال والملك وفوارق العنصر ، وفوارق اللغة ، والفوارق القبلية · وتستهدف فقط الاعتبار الانسانى ، والمستوى الانسانى الفاضل ، الذى تخطط رسالة الله حدوده ومعالمه ، ولا يتميز فيها فرد عن فرد آخر الا بدرجته فى هذا المستوى : « **أن اكرمكم عند الله أتقاكم** » (١) ·

ولا يرتبط تميزه هذا فى المستوى الانسانى الفاضل بزيادة فى منفعة مادية له أو بزيادة فى نفوذ أو جاه له فى دنياه ومجتمعه أو بصعوده الى طبقة اجتماعية خاصة ، اذ أن تميزه هو فى تقدير الله وحده · وهو تميز يجلب له رضاء الله عليه ، ولكن يلزمه فى دنياه وفى معاملته غيره بالتواضع والتسامح ، وبالاعتدال فيما ينفق فى حياته ، وبالاستقامة وعدم ارتكاب الجرائم الاجتماعية من : اعتداء على الأعراض والنفوس ، وبالتوجه الى الله وحده ، والاعراض عن اللغو وقول الزور :

« **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما** » (٢) ·

··· الى أن يقول كتاب الله :

« **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما ·**

والذين لا يدعون مع الله الها آخر ،

ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ،

ولا يزنون ·· » (٣) ·

الى أن يقول أيضا :

« **والذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراما** » (٤) ·

---

(١) الحجرات : ١٣ ·
(٢) الفرقان : ٦٣ ·
(٣) الفرقان : ٦٧ ، ٦٨ ·
(٤) الفرقان : ٧٢ ·

ان عالمية الدولة فى الاسلام ، وانسانيتهـا ، لا تقضى بوجوب حكومة موحدة فى العالم ولكنها تقضى فقط بأن يكون المجتمع الاسلامى فى أى مكان ، وفى أى وقت ، مفتوحا للناس جميعا ، وأن يكون نظام حكمه انسانيا ، فوق كل الفوارق والحواجز التى تتخذ من وقت لآخر فى أى عصر جاهلى تسوده المادية أسبابا لتصنيف الأفراد ، وجعلهم طبقات متفاوتة فى المنازل ٠

***

الفصل الثـــانى

فى طابع الالتزام ، دون الالزام

★ مفهوم الالتزام هو : أن يلتزم الفرد فى المجتمع بأمر أو بأمور يؤديها بدافع ذاتى · بينما مفهوم الالزام هو : أن يحمل الفرد ويكره على أداء أمر ، أو أمور معينة · والدافع على الاداء فى حـال الالزام ليس هو ذات الفرد · وانما هو عامل خارج عن الذات ، قد يكون الارهاب أو التهديد بالارهاب ·

ولكن فى جـانب الالتزام يجب أن تتوفر المشيئة الذاتية الحرة ، التى تتمثـل فى الاقتناع أولا ، ثم فى العزم والتصميم ثانيـا · تلك المشيئة التى يأخذ وضعها فى الالزام عامل الاكراه أو الارهاب ·

والزام القانون فى المجتمع الحر الملتزم لا ينطوى على معنى الاكراه · وانما هو تعبير عن التزام الأفراد · وتنفيذه عن طريق القوة المـادية ـ أو السلطة التنفيذية ـ عندئذ هو تنفيذ له فى بعض حـالات معينة وعلى أفراد معينين ، لم تتأصل فى نفوسهم المشيئة الذاتية التى هى وليدة الاقتناع ، أو حيل بينهم وبين الاقتناع بسبب أو بآخر ·

واذن أداء السلوك المطلوب فى المجتمع الملتزم أفراده هو أداء حر ، تحركه ذوات الأفراد ومشيئـاتهم الصلبة · على العكس مـن سلوك الأفراد الملزمين من قبل غيرهم وراء ذواتهم : فانه سلوك قهرى أو اكراهى ·

فهل المجتمع الاسلامى مجتمع ملتزم ، أو هو مجتمع ملزم ؟ وهل الدولة الاسلامية دولة ملزمة لأفرادها ، أم هى دولة يلتزم فيها الأفراد ؟

★ ان المجتمع الاسلامى ـ فى قيامه وتكوينـــه ـ هو استجابة وقبول للايمان بدعوة الاسلام · انه ترابط على أساس العمل بمبادئه ·

وقبول الايمان بالاسلام ـ عند الله ـ مرهون فقط بالمشيئة الحرة لمن أعلن الايمان به ، وبصدقه فى تطبيق مبادئه فى حياته ·

وجو المشيئة الحرة للايمان بالاسلام ـ كما تحدده الدعوة الاسلامية ـ هو جو يبعد فيه الاكراه المباشر ، وغير المباشر ، كل البعد عن الايمان به واعلانه ٠

وهناك مظاهر ثلاثة تركز عليها الدعوة الاسلامية ـ فى كتاب هذه الدعوة ـ ولها أهميتها فى توفير الحرية فى مشيئة الانسان ، عندما يقبل الايمان بالاسلام :

★ **المظهر الأول :** تحديد رسالة صاحب الدعوة ، وأمره فيها بتجنب كل ضغط على الدفع نحو الايمان بالاسلام ٠ فالشأن فى قبوله أن لا يقع تحت اكراه ما :

« لا اكراه فى الدين ،
قد تبين الرشد من الغى ،
فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ،
لا انفصام لها ، والله سميع عليم ٠
الله ولى الذين آمنوا : يخرجهم من الظلمات الى النور ،
والذين كفروا : أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور الى الظلمات ،
أولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون » (١) ٠

٠٠٠ فهاتان الآيتان تقرران عدة مبادىء لافساح مجال للحرية الفردية فى قبول الايمان أو رفضه :

المبدأ الأول : أنه لا ينبغى أن يقع اكراه ما فى شأن الدين والاعتقاد به ٠

المبدأ الثانى : أن الشأن فى الحق ـ أو الهداية ـ أن يكون واضحا ، بحيث يكون وضوحه هو السبب فى قبوله لذاته ٠ كما أن الشأن فى الضلال أن يكون واضحا ، بحيث يكون وضوحه كذلك سببا لرفضه ٠ فالحق يحمل حجة قبوله والدافع الذاتى على ذلك ٠ والباطل يحمل دليل رفضه والدافع الذاتى على ذلك ٠ ولا يكون الحق واضحا الا اذا تجرد عن هوى الأنانية ، والحزبية ، والطائفية ، والشعوبية ، والعنصرية ٠ ولا يكون الباطل واضحا

---

(١) البقرة : ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ٠

الا اذا اختلط بميل الى تحقيق رغبة انانية ، أو حزبية ، أو طائفية ، أو شعوبية وعنصرية ٠

المبنا الثالث : أن من يرفض الباطل ، ويكفر بالهوى وبالانحـــراف فى السلوك ، ويؤمن بالاستقامة والحسنى فى التصرف والمعاملة ، فانه يعيش فى نور ، بعيدا عن الظلام ٠ ووليه ونصيره عندئذ هو الله جل شانه ،

وأن من يعارض الهداية والاستقامة والحسنى فى التصرف والمعاملة ، ويتبع هوى نفسه ، أو حزبيته ، أو طائفيته ، أو شعوبيته وعنصريته ، فـانه عندئذ يعيش فى ظلمات المادية ، ولا يأمن من عاقبة أمره من شقاء ، هو النار بعينه ٠

★ أما رسالة صاحب الدعوة للايمان فقد جاءت آيات عديدة تحددها ٠ مثل قوله تعالى :

« يا أيها النبى :

١ ــ انا أرسلناك شاهدا ، ومبشرا ، ونذيرا ٠ وداعيا الى الله باذنه ، وسراجا منيرا ٠ وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا ٠

٢ ــ ولا تطع الكافرين ، والمنافقين ،

٣ ــ ودع اذاهم ،

٤ ــ وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » (١) ٠

٠٠٠ فقد حددت هذه الآيات هنا :

★ دعوته الى الله فى اطار ما يأذن به ، وهو ما جاء فى الوحى ٠ لا يتجاوزه ، ولا يعدل فيه ٠ وبأن يكون سلوكه طبق ما يدعو اليه ، بحيث يكون مرآة ينعكس عليها ، وهداية واضحة لمن يقتدى به ٠

★ وبأنه فقط يحمل البشارة لمن يؤمن به ، بأن له من الله فضلا كبيرا ، جزاء له فى الآخرة ٠ كما يحمل الانذار لمن يعارضه ويرفض دعوته ، بجزاء له من الله فى الآخرة كذلك ٠ وانه على أية حال هو نفسه شاهد وحجة عنـــد الله ، على من يؤمن أو يرفض ٠

---

(١) الأحزاب : ٤٥ ــ ٤٨ ٠

★ وبأن يتجنب طاعة أعدائه وأعـــداء الايمـــان ، وهم الكافرون : المعارضون صراحة وعلنا • أو سرا ونفاقا • كما لا يرد على اذاهم وضررهم بأذى وضرر مثله يلحقهم من جانبه • ويترك أمر الانتقام منهم الى الله ، وينيبه عنه فى ذلك • فهو خير من يقوم بالوكالة والنيابة فى هذا الشأن •

واطار الرسالة لصاحب الدعوة هنا هو اطار سلمى ، بعيد عن الخصومة والايذاء • وفى الوقت نفسه اطار قدوة للعمل الخير المستقيم • فلا يعظ بقول دون أن يحققه هو فى سلوكه • ولا يرفع مبدأ أو شعارا ، دون أن ينتزع مفهومه من التطبيق العملى له فى حياته •

وفى تحديد اطار الرسالة لصاحب الدعوة الى الايمان هنا ، أشارت الآيتان الى قضيتين : قضية الجزاء فى الآخرة ، وقضية التوكل على الله •

والاعتقاد بهاتين القضيتين فى الدين يثير اتهــاما ضده من المـــادية التاريخية فى القرن التاسع عشر • اذ تدعى :

أن الجزاء الأخروى نقل للثقل فى حياة الانسان الى ما وراء الوجــود الحاضر • كما تدعى :

أن التوكل على الله ينطوى على انتظار « الخلاص » ــ من كل شر ــ من الله وحده •

والاعتقاد اذن بكلتا القضيتين : يخفف أو يقلل من عمل الانسان وسعيه فى وجــوده الخاص ، ويؤجل حلــول مشـــاكل حياته ، أو يتركها الى من لا يستطاع ادراك وجوده بالحس ، فضلا عن معرفة طاقته ، كما يتصــورها المؤمنون به •

والمادية التاريخية فى هذا الادعاء ، أو فى ذاك ، تتغاضى عن أن : هدف الجزاء الأخروى فى الاسلام ليس هو ثقل الحياة الانسانية الى وجود مغيب متوهم وراء الوجود المحسوس • وانما على العكس : هو الدفع الى تركيز النشاط للانسان فى الحياة الانسانية والسعى فيها لحمل الذات على اتبــاع المستوى الفاضل ، وهو مستوى المودة والمعاونة والصــفاء فى العــلاقات ، متجنبا النزول الى مجال الأنانية • وهو مجــال الخصومة والنزاع ، بسبب التهافت على المتع الحسية • اذ المتع الحسية فى ذاتها تنطوى على اغراء ، ولكنها لا تقوم على قيم باقية • ومن أجل ذلك لا تستحق أن تكون مصــدرا للنزاع بين فرد وآخر من أفراد الانسان • فالانسان يمكن أن يخفف منهــا ،

دون أن يضار بأذى مادى ، وبارادته ومشيئته ، من غير أن يكره على التنازل عنها ممن عداه ·

على أن الحياة الأخروية هى امتداد لحياة الانسان قبل الموت · فهى سلسلة متصلة الحلقات ، وما يحصله الانسان من معان انسانية رفيعة فى فترة ما قبل الموت ، هو رصيده الباقى فى فترة ما بعده ، فى الآخرة · ولكن ما يحصله من متع مادية فى الفترة الأولى تزول بالموت كشأن أى مادى ، ولا يكون للانسان عندئذ رصيد لحياته الانسانية فيما بعده · والغنى من الناس الذى يعيش طوال حياته على رصيد باق ، هو من كان عمله فى الوجود الحاضر ـ أو فى الدنيا ـ ذا قيمة لا تزول بموته وبانتهاء الفترة الأولى من فترتى حياته · والفقير أو الشقى من الناس هو من تنتهى قيمة عمله بموته · وهو ذاك الذى كون رصيده من مصادر المتع الحسية وحدها · وهو فقير أو شقى بذلك ، ليس لأن قيمة عمله تنتهى بموته فقط · ولكن كذلك : لأن تكوين المتع الحسية لا يتم من غير أن يكون على حساب حرمان الآخرين فى المجتمع ، أو على حساب آلامهم ·

أما التوكل على الله فهو ليس تواكلا ، وليس نقلا للمسئولية الفردية الى الله · وعندئذ يكون مصدر سلبية فى حياة الانسان فى وجوده الحاضر · انه ـ كذلك ـ على العكس : مصدر ايجابية على العمل الخلاق للانسان · فالتوكل على الله يأتى لدى المتوكل ، بعد أن حشد جميع طاقاته الفكرية ، والمادية ، والبدنية لعمل ما ، يرى انجازه ، أو لمشكلة ما ، يرى حلها : **« فاذا عزمت فتوكل على الله »** (١) · والتوكل بعد حشد هذه الطاقات معناه : طلب عون اضافى من الله ، لاتمام المطلوب · وعون الله للانسان هو دائما فى التزام الانسان : الاستقامة ، والاخلاص ، والأمانة فيما ينوى ، وفيما يعمل : واذن ليس توكل الانسان على الله بعيدا عن ذات الانسان المتوكل · وانما هو فى واقع الأمر التزام الانسان بالقيم الانسانية العامة ، بجانب تصريف نشاطه وطاقاته فى سبيل المطلوب من انجاز عمل أو حل لمشكلة ·

وليس من شك فى أن انسانا ما لا يدخر طاقة من طاقاته فى سبيل انجاز عمل أو حل لمشكلة ، ثم فى الوقت نفسه لا ينحرف بهذا الطاقة فيما يؤذى أو يضر الآخرين ، أو يؤذى أو يضر نفسه ··· ليس من شك : فى أنه سينجح فيما اقدم عليه ·

---

(١) آل عمران : ١٥٩ ·

وانن التوكل على الله ليس سلبية أو تشجيعا على السلبية ، بل هو دافع على السعى والعمل الايجابى المثمر ، البعيد عن الاضرار والضرر ٠

كما جاء تحديد رسالة صاحب الدعوة فى أيات اخرى ، فى قول الله تعـالى :

١ ـ « اتبع ما اوحى اليك من ربك ، لا اله الا هو ،

٢ ـ واعرض عن المشركين ٠ ولو شاء الله ما أشركوا ،

٣ ـ وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما انت عليهم بوكيل ٠

٤ ـ ولا تسبوا الذين يدعون ، من دون الله ، فيسبوا الله عدوا بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم ، ثم الى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون » (١) ٠

٠٠٠ فهذه الآيات تطلب الى صاحب الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يتبع فقط ما يوحى اليه من ربه ، وهو الاعتقاد باله واحد ، هو الله سبحانه وتعالى ٠ وأن يعرض عن المشركين ٠ وهم الماديون الذين ينكرون الآخرة ، ولا يؤمنون الا بالوجود المشاهد ٠ لأن عدم ايمانهم بالله وباليوم الآخر معا ، يعود الى وقوعهم تحت تاثير الاتجاه المادى ٠ وقلما يستطيعون التخلص منه ٠ وفى انجازه لهذين الأمرين يكون قد أدى رسالته فى الدعوة ٠ اذ ليس هو حفيظا ولا صاحب سلطة على من يقل الأمل فى ايمانهم من الماديين الوثنيين حتى يرغمهم على الايمان ، كما انه ليس بوكيل ونائب عنهم حتى يهتم بشأنهم ويخشى عليهم نتيجة وثنيتهم ٠ وفى الوقت نفسه لا ينبغى له ـ أى لصاحب الدعوة عليه السلام ـ أن يسب أو يلعن أصنامهم التى يعبدونها ويخضعون لها ، مهما كان شأنها من الحقارة أو التفاهة ٠ لأن سبها لا يعود بمنفعة على الدعوة له ٠ بل قد يأتى بضرر لها ٠ وهو ضرر الاعتداء من جانبهم بسب الله ، سبحانه ، سبا مماثلا أو أدخل فى الشناعة ، ناشئا عن عداوة فحسب وبغير علم منهم لحقيقته جل شأنه ٠

فاذا كانت هناك خصومة بين حق صاحب الدعوة ، وباطل هؤلاء الوثنيين فلتبق هذه الخصومة موضوعية بين الحق فى ذاته والباطل فى ذاته ٠ ولا ينبغى أن تتجاوز هذه الدائرة الى ما وراء الموضوع ٠

---

(١) الأنعام : ١٠٦ ـ ١٠٨ ٠

فاذا كان صاحب الدعوة يؤمر بأن يقف عند الحق وحده فيما يدعو ، ولا يأخذ لنفسه صفة القوامة أو الحراسة أو الانابة عن الناس عندما يدعوهم الى حقه ، كما لا يسلك مسلكا جانبيا يعاب عليه ، وراء موضوع الحق ذاته ··· فان ذلك من شانه أن يبعد جو الاكراه ـ ابعادا كليا ـ عن قبول الايمان بما يدعو اليه · فليس هنا من قريب أو بعيد أى عامل يمكن أن يكون له تأثير ، وراء الاقتناع الذاتي بالايمان نفسه ·

ونزلت بعض آيات أخرى فى زيادة تحديد رسالة صاحب الدعوة ، فى مثل قول الله تعالى :

« واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم ، حتى يخوضوا فى حديث غيره » (١) ·

··· فهذه الآية تناشد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يتجنب مجلس الأعداء المعارضين لدعوته ، عندما يخوضون فى الحديث عنها ، الى أن ينتقلوا الى حديث آخر · وذلك للتخفيف من التوتر النفسى الذى قد يزداد أمره بالاحتكاك عند المشاركة فى الحديث ، أو للحيلولة دون تمكينهم من الوصول الى هدفهم من اسماعه ما يؤذيه نفسيا من قبائحهم التى قد يلصقونها بدعوته ، أو لترك فرصة أخرى قائمة يعاودهم فيها المراجعة بشأن هذه الدعوة ·

وعلى أية حال ، فالآيات التى وردت فى تحديد رسالة صاحب الدعوة ازاء دعوته فى القرآن الكريم ، تحمله على أن يكون : « موضوعيا » وأن يترك أمر القبول أو الرفض لها ، لموضوعها وحده · وهذا التحديد يعبر عن المنهج الانسانى الصحيح للاقتناع بعقيدة ما · وهو منهج المنطق ، الخالى من عوامل التأثير الأخرى وراءه · اذ يستحيل أن يولد التأثير بعوامل أخرى وراء « الموضوع » الاعتقاد به ، وبالتالى يولد الالتزام بما يعتقده ، بحيث يحمل نفسه على تطبيقه ، والدفاع عنه بذاته أو بما يملك ·

★ **والمظهر الثانى :** عدم ربط رزق الله للانسان ، بايمانه أو بكفره · فقد جاء قوله تعالى :

١ ـ « زين للذين كفروا ، الحياة الدنيا ،

٢ ـ ويسخرون من الذين آمنوا ،

---

(١) الأنعام : ٦٨ ·

٣ ـ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ،

٤ ـ والله يرزق من يشاء ، بغير حساب » (١) ٠

٠٠٠ فأعلن فى هذه الآية : أن الذين كفروا أغرتهم الحياة الدنيا بزينتها، ومالها ، وما فيها من قوة مادية ، وأنهم وقعوا تحت تأثير هذا الاغراء فلم يروا فى حياة الانسان ذا قيمة واعتبار الا ما يتصل بمتع الدنيا وحدها ٠ وأنهم من أجل ذلك لا يقدرون القيم الانسانية العليا ، ومن ثم يسخرون من الذين آمنوا ٠ وهم من تتمثل فى تصرفاتهم وسلوكهم هـذه القيم العليـا ، دون أن يكون لهم جاه الدنيا وزينتها ومالها ٠

كما أعلن فيها كذلك : أن هؤلاء المؤمنين ، رغم أنهم لا يملكون من الدنيا ما يجعلهم فى بسطة من العيش وفى اعتزاز بالقوة المادية ، فوق الكـافرين المعارضين ، فانهم يتميزون عليهم فى الآخرة برضاء الله وقربهم منه ٠

ثم قرر هنا أخيرا فى صراحة : أن متع الدنيا ، وما فيها من مال ، وزينة وجاه ، لا شأن لها بايمان من يؤمن أو ببقائه على الكفر ٠ ولذا : فالله يرزق من يشاء بغير حساب ، مؤمنا أو كافرا على السواء ٠

ويؤكد هذا « الانفصال » بصورة أوضح فى قوله تعالى :

« الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ،

وفرحوا بالحياة الدنيا ،

وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع » (٢) ٠

٠٠٠ فبعد أن ذكر المبدأ : بأن رزق الله للانســـان ، وفى غير حســاب وتحديد ، يتعلق بمشيئته فقط ، ولا رابطة بينه وبين الايمان أو الكفر به ٠٠ أخبر عن فرح الكفار بالدنيا وحصولهم عليهـا ، وتركهم السرور بما حصلوا عليه من متعها يحول بينهم وبين الايمان بالله ، وبالقيم الانسانية العليا ٠ ثم قيم متع الحياة الدنيا ، فى مواجهة ما فى الآخرة للمؤمنين ، بأنهـا مؤقتـة وتنتهى بانتهاء الفترة الأولى من حياة الانسان ٠

وعدم ربط الرزق من الله لانسان ما ، بايمانه أو بكفره ، يدل على مدى الحرية الواسعة التى يتركها الله للانسان ، ازاء قضية الايمان والكفر ٠ ويريد

---

(١) البقرة : ٢١٢ ٠

(٢) الرعد : ٦ ٠

له : أن يكون ايمانه به وبرسالته لهداية الناس مدة حياتهم على الأرض ، خاليا تماما من التأثير ، وبالأخص مما يكون له تأثير على « المعدة » فيما تقتات به ليحافظ الانسان على بقائه ·

وربما لولا الخشية من أن يفتتن الناس وينصرفوا كلية عن الايمان بالله ، لأفاض الله من نعمته ورزقه على الكافرين به بما يجعلهم يعيشون فى ترف واسع ، وفى زينة خالصة من ذهب وفضة :

« وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟

أهم يقسمون رحمة ربك ؟

نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ،

ورحمة ربك خير مما يجمعون ·

ولولا أن يكون النـاس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفـر بالرحمن ، لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون · ولبيوتهم أبوابا ، وسررا عليهـا يتكئون · وزخرفا ،

وان كل ذلك ، لما متاع الحياة الدنيا ،

والآخرة عند ربك للمتقين » (١) ·

··· فالله سبحانه فى هـذه الآيات يرد على المعـارضين من المـاديين الوثنيين بمكة ، نقدهم بتكليفه جل جلاله محمدا بن عبد الله ـ عليه الصـلاة والسلام من بين العرب ـ بالرسالة اليهم · ويجمل القرآن رده هذا فى : أنه جل شأنه صاحب الأمر فى توزيع المعايش والأرزاق فى الحياة الدنيا عليهم وعلى غيرهم ، فكيف لا يكون هو صاحب الأمر فى اختيار من يؤدى رسالته الى عباده ؟·

والله فى توزيعه الأرزاق والمعايش فى الحياة لايلحظ اطلاقا فى تحديد ما يعطيه ، ايمانا لانسان أو كفرا منه به ·

وخشية فقط من افتتان النـاس بالدنيا ومتعها الى غير حـد ، لأعطى الكافرين به عطاء ملحوظا فى الدنيا · لأن ما فى الدنيا متاع مؤقت ، بينما ما فى الآخرة ـ وهو للمؤمنين المتقين وحدهم ـ خير وأبقى ·

---

(١) الزخرف : ٣١ ـ ٣٥ ·

وحق الانسان فى الاعتقاد فى الاسلام اذن ــ على نحو ما تعطيه الآيات القرانية هنا وهناك ، من :

تجنب الاكراه والحمل على الايمان ،

ثم من تأكيد الله عدم ربطه الرزق فى الحياة الدنيا بايمان به أو بكفر به ٠

٠٠٠ هو الحق الذى يتفق مع خصائص الطبيعة البشرية التى خلق عليها ٠ فطالما خلق الانسان من مادة ، هى : الطين ، ثم الماء المهين ، وأعد فى تصويره بالسمع ، والبصر ، والفؤاد ، أى بمنافذ الادراك ، ووسائل الحكم ٠٠٠ فطالما كانت هذه هى طبيعة الانسان المتميزة ، فالأجدر به أن يترك وشأنه حرا ، ليصل الى حكم يطمئن اليه فى الايمان والكفر ، وكذلك فيما عدا الايمان والكفر ٠

وبعض نظم الحكم المعاصرة التى تربط عمل الانسان مع الأجر عليه بالولاء لنظام الحكم القائم ، وبالايمان بالايديولوجية التى تأسس عليها النظام ، يصطدم فى هذا الربط بخصائص الطبيعية الانسانية التى تترجم : فى الحرية فى تقييم الأشياء ٠ وفى مقدمتها : حق الاعتقاد ٠

والاسلام فى مقابل هذه النظم ــ فى جانب الاعتقاد وحق الانسان فى الحرية فيه ــ ليس النظام المثالى ، بقدر ما هو النظام الانسانى لحياة انسانية كريمة ٠

بعض هذه النظم للحكم المعاصر يضع « الدولة » فى الاكبار والتعظيم ، والطاعة المخلصة ، والملك للمال ــ كل المال ــ موضع « الله » فى الدين ٠

فاذا كان الله فى الدين هو الذى يستحق العبادة ، والطاعة ، والمالك للمال والمستخلف عليه ، فالدولة فيما يسمى بالنظام التقدمى للحكم هى وحدها هى التى تعبد ، وتطاع ، وتملك وتستخلف على العمل والمال ٠ ولكى لا ينازعها موجود آخر يكون شريكا لها فى العبادة والطاعة والملكية للمال ، يحارب هذا النظام التقدمى للحكم الدين ، والله ، فى غير هوادة وفى غير رحمة ٠

واذا كان الله فى الدين قد أخذ على نفسه الرزق لكل كائن وموجود يتحرك ويدب على هذه الأرض ، فيما يذكره قول الله تعالى :

« وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ،

ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » (١) ٠٠٠ فالدولة فيما يسمى بنظام الحكم التقدمى أوجبت على نفسها : حق العمل ، والأجر عليه ، ونقلت اليها هذه المهمة التى أوجبها الله على نفسه فى الدين ٠

وكذلك اذا كان الله ، فى الدين : يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدر ، على نحو ما ورد فى الآية الكريمة : « **أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (٢)** ٠٠٠ فالدولة أيضا فيما يسمى بنظام الحكم التقدمى تبسط فى الأجر لمن تشاء ، وتقدر فيه لمن تشاء ٠

ولكن الفارق بين الله ، فى الدين ، والدولة فيما يسمى بنظام الحكم التقدمى : فى الرزق وفى التفضيل فيه بين انسان وآخر ، هو :

★ أن الله لا يربط اعطاء الرزق لمخلوق ما ، ولا الفضل والتوسعة فيه ، بولاء المخلوق له وبايمان الانسان المعطى به ، كما ظهر جليا فى الآيات القرآنية السابقة ،

★ بينما تربط الدولة فيما يسمى بنظام الحكم التقدمى : اعطاء العمل والتوسعة فى الأجر بولاء من يعطى لها ، وبمدى اعلانه الاخلاص فى الطاعة والتبعية ولو نفاقا ٠ فالمعارض لنظام الحكم التقدمى يلقى العنت فى الحصول على عمل ٠ وان حصل عليه ــ وهذا نادر ــ فلا يؤجر الا القليل التافه ٠

وبهذا الربط بين الحصول على العمل والأجر عليه من جانب بالولاء للدولة من جانب آخر فى نظام ما يسمى بالحكم التقدمى ، يتضح انعدام الحرية الفردية فى قبول أو فى رفض هذا النظام ٠ كما يتضح من عدم الربط فى الرزق والفضل فيه من جانب بالايمان بالله فى الدين من جانب آخر : مدى الحرية الفردية فى قبول العقيدة وفى رفضها على السواء ٠

ففى الدين لا تتخذ المعدة وحرمانها من الطعام سبيلا للايمان بالله ٠ بل يتخذ المنطق ، والواقع التاريخى ، والموضوعية المجردة عن كل عامل مؤثر غير ذات الموضوع ، السبيل للاقتناع والايمان ٠ لأن الدين يحترم « روحية الانسان » ــ وهى عقله وتفكيره ــ ويخاطبها وحدها ، دون بدنه ، لأنها مركز التمييز بينه وبين مخلوق آخر ٠

---

(١) هود : ٦ ٠　　　(٢) الروم : ٣٧ ٠

بينما المادية التاريخية ، التى هى أساس ما يسمى بنظام الحكم التقدمى، لا ترى فى الانسان سوى معدته وفرجه ٠٠ لا ترى فيه سوى البدن ٠ وترى أن ما عداه ــ ما يسمى عقلا أو نفسا ــ يتبعه فى صورة ما ٠ وعلى أية حال ليس مستقلا فى الكيان ، ولا فى الاعتبار ، ولا فى الارادة ٠ ومن أجل التركيز على البدن يرى هذا النظام لما يسمى بالحكم التقدمى : أن « المعـــدة » هى مفتاح الطاعة والولاء ، وليس العقل أو انسانية الانسان ٠ وهنا كان ربط هذا النظام : الأجر على العمل ، بالولاء وبالطاعة للدولة ، صاحبة الملك للمــال والتى تستحق العبادة من أفرادها ٠

وعلى هذا النحو تقدس الدولة فى هذا النظام : وليست هيئة أو جهازا يضع نفسه فى خدمة الأفراد فى المجتمع ٠ فهى ليست مصنوعة ومخلوقة ٠ وانما هى صانعة وخالقة !!

★ **والمظهر الثالث :** تسجيل صنوف الاتهامات فى كتاب الله : فى القرآن الكريم ، التى كانت توجه الى الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ باعتبـــار كونه صاحب الدعوة الى الايمان بالله ، وكذلك ما كان يوجه اليه من المــلام أو العتاب من جانب الله تعالى ٠

فلو أن الدعوة الى الايمان أريد لها ، ولجوها ، أن تخلو من شبه العوامل المؤثرة ضدها ، وأن يكون جوها بذلك جوا غير طبيعى ، دخل عليه ظلال من الايهام بعدم المعارضة ٠٠ لما سجل كتاب الله صـــورا عديدة من اتهـــامات المعارضين ــ قصد أولا وبالذات منها : التشويش على صاحب الدعوة ــ وكذلك لما سجل ما وجهه سبحانه الى رسوله الكريم من عتــاب أو ملام ، ممـــا قد يستغل هذا أو ذاك ضد موضوع الدعوة ذاته ٠

ولكن تسجيل القرآن الكريم لهذين النوعين من :

اتهامات المعارضين ،

وعتاب الله ،

٠٠٠ أعطى للانسان المدعو الى الايمان فرصة التعرف على كل ملابسات الدعوة ٠ وذلك ليكون حكمه ــ قبل اقتناعه وايمانه بها ــ بعد الوقوف على موضوعها ، وما قيل فى شأنها من المغرضين ضدها :

★ ففى اتهامات المعارضين للدعوة ، من الزعماء والمستكبرين ، أصحاب

الصولة فى المجتمع المادى المكى ، يسجل القرآن اتهامهم للرسول ولدعوته بما تقصه هذه الآية :

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قالوا :

١ ــ ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ،

وقالوا :

٢ ــ ما هذا الا افك مفترى ،

قال الذين كفروا للحق لما جاءهم :

٣ ــ ان هذا الا سحر مبين » (١) ٠

٠٠٠ فاتهموا الرسول عليه الصلاة والسلام ، بأنه يريد أن يقطع عليهم تاريخ حياتهم ، ويقف دون ارتباط حاضره بماضيه ، فيصدهم ويصرفهم عما كان يعبد آباؤهم ٠ وفى هذا الصد والصرف تفويت لمنافع كثيرة عليهم ٠ وأخصها : تفويت وراثة الجاه والشرف فى الرياسة والسيادة ، ووراثة الاحتكار فى المال ونفوذه : « **ما هذا الا رجل يريد : أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم** » ٠

٠٠٠ واتهموا الدعوة ذاتها ، بأنها افك وكذب واضح ، مفترى ومختلق ٠ لأن ما عليه وضع مجتمعهم من احتكار الجاه والرياسة والمال ، هو ــ فى نظرهم ــ غير قابل للتغيير ٠ اذ هكذا ورثوه عن آبائهم جيلا بعد جيل ٠ فمحاولة تغييره الآن بأى اسم ، وتحت شعار اية دعوة ، لا تكون الا كذبا وافتراء : « **وقالوا : ما هذا** (أى ما هذا القرآن) **الا افك مفترى** » ٠٠

٠٠٠ كما اتهموا الدعوة كذلك بأنها ليست كذبا ولا اختلاقا فحسب ٠ بل هى أيضا : خداع واغراء ، تشد اليها كثيرا ممن يؤمن بها ، لا لنفع مادى يحصل عليه من يؤمن بها ، ولكن لما تنطوى عليه من بريق ، هو بريق السحر والمهارة الفائقة فيه : « **وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : ان هذا الا سحر مبين** » ٠ وما سحر هذه الدعوة ــ كما يرون ــ الا ضياء الحق الذى جاءت به ٠٠ الا ضياء العدل وتحقيق الاعتبار البشرى فى مساواة كل فرد بالآخر فيه ٠

---

(١) سبأ : ٤٣ ٠

واذن وقد اتهموا صاحب الدعوة ، واتهموا دعوته بما اتهموه هنا من : محاولة صرفهم عن عبادة ما كان عليه الآباء وسحب الرياسة منم · لأنهم لم يتصوروا : أن الآلهة العديدة ـ على نحو ما تقدم عليه الوثنية المادية ، وكما الفوا هم ـ تصبح فى دعوة ما ، الها واحدا · فالذى يدعوا الى اله واحد عندئذ ، ويترك الآلهة الكثيرة ، اما انه ساحر كذاب :

« وعجبوا : أن جاءهم منذر منهم ،

وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب !

اجعل الآلهة الها واحدا ؟ ان هذا لشىء عجاب » (١) !

··· واما أنه يعيش فى وهم الخيال ، كما يعيش الشعراء ، قد أصابته لوثة من الجنون زادت فى وهمه وخياله فى تصوراته :

« انهم كانوا اذا قيل لهم : لا اله الا الله ، يستكبرون · ويقولون : ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (٢) ·

··· وربما لو دعا ، فى نظرهم ، الى هذا التحول فى العبادة من الكثرة الى الوحدة فى الألوهية ملك من الملائكة ـ وليس انسانا ، أى انسان ـ لجاز لهم أن يصدقوا · اما أنه انسان وليس بملك ، واما أنه منا ومن آحادنا ، وليس من كبرائنا وأشرافنا ، فليس لدعوته من تفسير سوى أنه : مجنون ، اراد أن يأخذ لنفسه حق الريادة والتمييز فى المجتمع :

« أنى لهم الذكرى ، وقد جاءهم رسول مبين · ثم تولوا عنه ، وقالوا : معلم مجنون » (٣) ·

« وقالوا : يا ايها الذى نزل عليه الذكر (أى القرآن) : **انك لمجنون ·**

لو ما تاتينا بالملائكة ، ان كنت من الصادقين » (٤) ·

وهكذا مهما تكررت دوته اليهم ، ومهما نوع فى أسلوبها وفى سياق الحجج على صحتها ، لم يكن منهم من رد الا أن يصفوه ويصفوا دعوته ، بما ذكروا من تهم :

« وان يروا آية يعرضوا ، ويقولوا : سحر مستمر · وكذبوا ، واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر » (٥) ·

---

(١) سورة ص : ٤ ، ٥ ·
(٢) الصافات : ٣٥ ، ٣٦ ·
(٣) الدخان : ١٣ ، ١٤ ·
(٤) الحجر : ٦ ، ٧ ·
(٥) القمر : ٢ ، ٣ ·

والسبب فى تشددهم فى موقفهم ليس هو موضوع الدعوة ، وانها تنطوى على افتراء ، أو على تخييل وخداع ،. وانما يعود هذا السبب فى واقع الأمر الى اتباعهم أهواءهم · « **واتبعوا أهواءهم** » ·

واتباع الهوى هنا هو : التأثر بمظاهر الرياسة ، وسيطرة المال ، وعصبية الطبقية فى المجتمع المكى المادى · اذ من شأن تأثرهم بذلك : أن لا يفسحوا فى منطقهم وتفكيرهم أى فراغ ـ ولو ضيقا ـ لتحليل ما جاء فى الدعوة الجديدة ، والحكم عليها من عناصرها التى تتركب منها ·

وقد رد القرآن على اتهامات المعارضين من الوثنيين الماديين هنا ، بقوله تعالى :

« **فذكر :**

١ ـ **فما أنت بنعمة ربك** (وهى نعمة الرسالة واصطفائه لها) **بكاهن** (وهو المدعى لعلم الغيب) **ولا مجنون** ·

٢ ـ **أم يقولون : شاعر ، نتربص به ريب المنون ؟ قل تربصوا ! ، فانى معكم من المتربصين · أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون ؟·**

٣ ـ **أم يقولون : تقوله ، بل لا يؤمنون ؟· فليأتوا بحديث مثله ، ان كانوا صادقين ! أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟· أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون ؟· أم عندهم خزائن ربك ؟· أم هم المسيطرون ؟· أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين !· أم له البنات ولكم البنون ؟ · أم تسألهم أجرا ، فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب ، فهم يكتبون ؟·**

٤ ـ **أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون !·**

٥ ـ **أم لهم اله غير الله ، سبحان الله عما يشركون !·**

وان يروا كسفا من السماء ساقطا ، يقولوا : سحاب مركوم ·

فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون · يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ، ولا هم ينصرون » (١) ·

··· فكان رد القرآن على ما وجه من اتهام الى صاحب الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن نفى خروجه عن « المستوى الطبيعى » للانسان : فتفى

---

(١) الطور : ٢٩ ـ ٤٦ ·

انه يعيش فى تكهنات الغيب كما يعيش الكاهن ، وانه ينحرف فى التفكير كما ينحرف المجنون فيه ، وانه يسلك مسلك الخيال فى التصور كما يصنع الشاعر · فهو انسان طبيعى ، يوحى اليه من قبل ربه عالم الكون كله وما فيه من حقائق ومخلوقات ، ويبلغ ما يوحى اليه فى صدق وأمانة الى الناس جميعا ·

··· وتناول الرد على ما وجه الى موضوع الدعوة كذلك من اتهام المعارضين هنا ، تفنيد : أن ما جاء فيه كذب وافتراء ، كما ادعوا · وذلك بمناقشة بعض ما انطوى عليه الموضوع من قضايا : كقضية الخلق ونسبته الى الله ، وقضية تهيئة أسباب الرزق من جانب سبحانه لكل كائن يتحرك على هذه الأرض ، وقضية اختصاصه وحده بالعلم الواسع فى محيطه ، والدقيق فى مدلولاته ووقائعه ، فى أسلوب يحمل على الاقرار وعدم الانكار الا من المتعنتين فى معارضتهم وانكارهم ·

··· وأبرز أخيرا ، كنتيجة للمناقشة : أن معارضتهم ليست معارضة موضوعية · وانما غايتها : الكيد للدعوة ولصاحبها ، لأسباب تتصل بالهوى وليس بالمنطق ·

ولذا وجه لصاحب الدعوة ــ عليه السلام ــ وصية هى أن يتركهم وشأن مصيرهم ، مؤكدا له : أن كيدهم سوف ينتهى الى : لا شىء ، وأن معارضتهم ستختتم بالهزيمة وعدم النصر : « **فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون · يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون** » (١) ·

★ وفى عتاب الله لرسوله الكريم ــ عليه الصلاة والسلام ــ عاتبه :

على بعض تصرفات أتى بها ،

أو على رأى أقره ،

أو على ميل بشرى تردد فى نفسه :

فمن التصرفات التى أتى بها وعاتبه عليها : تجهمه ــ عليه السلام ــ فى وجه ضعيف سعى مقبلا على الاسلام ، وهو عبد الله بن أم مكتوم ، بينما احتفى بآخرين من أصحاب الشأن ووجهاء القوم فى مكة ، حدبا منه على اسلامهم ، وهم أكثر المعارضين لدعوته والمنددين بها · ونزلت فى هذا العتاب سورة : « **عبس وتولى** » التى تقول :

---

(١) الطور : ٤٥ ، ٤٦ ·

« عبس وتولى · أن جاءه الأعمى · وما يدريك لعله يزكى · أو يذكر فتنفعه الذكرى ·

١ ـ أما من استغنى · فانت له تصدى · وما عليك ألا يزكى ·

٢ ـ وأما من جاءك يسعى · وهو يخشى · فانت عنه تلهى » (١) ·

··· ومحور العتاب : أن صاحب الدعوة الى الحق ـ والحق فى ذاته قوة وجاه ـ ينبغى أن يكون احتفاؤه بمن يدعوه اليه ، على قدر سعيه ومدى ميله الى قبول الدعوة ، وليس على قدر وضعه الاجتماعى ومنزلته فى الشرف فى قومه · وعلى كل حال : لا بد أن يلتمس صاحب الدعوة عذرا لصاحب عاهة ، كعبد الله بن أم مكتوم هنا ، اذا لم يرع ما يجب فى العرف والسلوك الاجتماعى ، فى الخطاب أو المعاملة فى سبيل الحصول على ما يمكنه من الايمان بالاسلام · اذ رسالة صاحب الدعوة تمكين من يدعى اليها من الالمام بها لتقييمها والحكم عليها ·

ومن هذه التصرفات أيضا : ارجاؤه تنفيذ ما كلف عن طريق الوحى بتنفيذه فى مسألة ابنة عمته : زينب بنت جحش ، مع زوجها المعتوق : زيد ابن حارثة · فقد كان زيد هذا متبنى لرسول الله عليه الصلاة والسلام · وكانت العادة فى الجاهلية : أن لا يتزوج المتبنى زوجة متبناه · وأراد الله أن يبطل هذه العادة الشاذة فى البشرية كلها فأوحى اليه عليه السلام بأن يزوج ابنة عمته هذه الى متبناه : زيد بن حارثة ، ثم يطلقها منه ليتزوجها هو · فلما تزوجها زيد أساءت معاملته ، لأنه كان رقيقا وأعتق ، وهو بذلك أدنى منها نسبا · وكان يأتى الى الرسول مكررا شكواه منها ، فيرجئه ، ويقول له : « **أمسك عليك زوجك ، واتق الله** » · وكان الباعث له على النصح بالارجاء فى واقع الأمر هو · الخشية من الناس ، وما تأصل بينهم من عادة : عدم زواج المتبنى بزوجة متبناه · فنزلت فى عتابه على الارجاء هذه الآيات ·

« **واذ تقول للذى أنعم الله عليه** ، (بالاسلام) **وأنعمت عليه** (بالعتق) : **أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى فى نفسك** (وهو الوحى اليك بتنفيذ ما أمرت بتنفيذه فى ابطال هذه العادات الجاهلية) **ما الله مبديه** (أى حتما بحكم أنه رب الناس جميعا) **وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ،**

فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج

---

(١) عبس : ١ ـ ١٠ ·

فى أزواج أدعيائهم ، اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا ٠

ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ،

سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ٠ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ، ولا يخشون أحدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا ٠

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله . وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » (١) ٠

ومن الآراء التى أخذ بها وعاتبه عليها ما وقع من موافقته صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه فى قبول الفدية من أسرى الملحدين المكيين فى « بدر » لحاجة المسلمين الى المال آنئذ ، تاركا رأى عمر رضى الله عنه الذى رآد لصالح القوة فى جانب المسلمين ، باضعاف هؤلاء الماديين الوثنيين ، عن طريق اعدام أسراهم الذين وقعوا فى غزوة بدر فى أيدى المحاربين المؤمنين ٠ وعبر عن هذا العتاب قوله تعالى :

« **ما كان لنبى أن يكون له أسرى** (أى يفديهم مقابل مال) **حتى يثخن فى الأرض** (أى يتثبت ويقوى فيها) **تريدون عرض الدنيا** (أى بتنفيذ الفداء للأسرى بالمال) **والله يريد الآخرة** (أى لكم بالثواب على مساندتكم الايمان ، وتكوين مجتمع مؤمن قوى فى مواجهة المجتمع الملحد المادى) **والله عزيز حكيم** (أى قوى لا يقهر ، ولذا يريد للمؤمنين العزة والقوة ٠ وحكيم فى اقراره ما يصلح للمؤمنين فى اعدادهم نحو القوة) ٠ **لولا كتاب من الله سبق** (أى لولا قضاء من الله وقع وأبرم بنصركم فى النهاية) **لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** (أى لنالكم فيما أقدمتم عليه من أخذ الفدية فى بدء أمركم عذاب ليس بهين ، **هو** عذاب البقاء على الضعف والهوان لكم فى دنياكم ، وبالتالى : عذاب فى الآخرة على عدم الحرص على قوة المؤمنين ومستقبل مجتمعهم) » (٢) ٠

أما عتاب الله جل شأنه لرسوله الكريم ــ عليه الصلاة والسلام ــ على ميل نفسى ربما يخالج صدره فقد عبرت عنه هذه الآيات الثلاث :

« وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره ، واذن لاتخذوك خليلا ٠ ولولا أن ثبتناك ، لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ٠ اذن لأذقناك ضعف الحياة . وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا » (٣) ٠

---

(١) الأحزاب : ٣٧ ــ ٤٠ ٠ (٢) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ ٠

(٣) الاسراء : ٧٣ ــ ٧٥ ٠

... فالرسول عليه السلام كانسان ربما تردد فى نفسه أثر الميـل الى المحـاولات التى كانت تباشرها قريش مـن وقت لآخـر لكسبه وادخـاله فى محيطهم ، عن طريق الاغراء بالملك والزعامة فيهم . فخشية من أن يخـالج نفسه مثل هذا الميل ثم يتمكن منها ، وبذلك تخسر الدعوة الى الايمـان ، أعلن سبحانه : أنه لا يدعه تتأثر نفسه بمثل هذه المحاولات . فقد ثبته على الايمان بالله وبرسالته . ولولا ذلك لما كان تكليفه بالرسالة حـائلا بين الله وأخـذه بالشدة ، لو فرض أنه ركن الى مصدر الاغراء والفتنة ، ولم يبلغ الوحى كما أمر بتبليغه ، مستهدفا صالح قريش وحدها ، دون صالح الدعوة فى ذاتها .

★ ★ ★

وهكذا ، توفر هذه المظاهر الثلاثة عناصر المشيئة الانسانية الكاملة ، لقبول الدعوة الى الايمان . بحيث يكون قبولها ناشئـا الآن عن « التزام » ممن يقبل الايمان بها ، وليس عن الزام وحمل عليها .

وبالتـالى : مجتمع المؤمنين هو مجتمع حر المشـيئة فى ايمانه ، وحر المشيئة أيضا فى التزام ما يلتزم به : ان فى العبادة ، أو فى المعاملة ، أو فى السلوك .

ويتبع هذا وذاك حتمـا : أن تكون « الدولة » فى الاسـلام ليست دولة اكراه وقهر . وانما هى « تنظيم » يعبر عن المشيئة الحرة الكاملة فى الالتزام بما يكفل للمجتمع :

قيـامه ،
وبقـاءه ،
وقـوته ،
وتعاون أفراده .

وبهذا لا تكون الدولة فى الاسلام فوق الأفراد وذات سيادة عليهم ، أو أجنبية عنهم تفرض عليهم طاعتها ، طالما هى تعبير عن المشيئة الفردية فى الالتزام .

وبهذا ـ أيضا ـ لا يكون قانون الدولة ، أو بعبـارة أخـرى لا تكون الشريعة الا جزء مما آمن به أفراد المجتمع ايمانا حرا وصريحا . كما لا تكون الطاعة له الا جزء مما التزموا به أو الزموا هم أنفسهم بالطاعة له .

ان سلطة الدولة فى الاسلام سلطة خلقية قبل أن تكون ادارية : تذكر بما فى كتاب الله ، وترشد طبقا للمبادىء التى انطوت عليها رسـالة الله فى

توجيه الناس ، فى سلوكهم وفى علاقات بعضهم مع بعض ، وتنفذ حدود الله فى الدائرة التى رسمت لها فى قرآنه الكريم ، وهذا هو شأنها طالما الأفراد على وعى بالتزاماتهم التى ألزموا أنفسهم بها عن طريق الايمان بالله ٠

انها دولة ايمان ٠ فاذا ضعف الايمان فيها فسبيل قوته من جديد هو سبيل انشائه ، وهو سبيل الاقناع ٠

ولكن على الدولة أيضا فى الاسلام أن ترد العدوان على الايمان : من الخارج والداخل على السواء ٠ لأن رد العدوان جزء كذلك مما التزم به المؤمن فى ايمانه بالله : فمخالفة أوامر الله ونواهيه ممن آمن به نقض منه لما التزم به ، وفى الوقت ذاته تتضمن هذه المخالفة عدوانا على آخرين معه فى المجتمع ، يستوجب رده من الدولة ، بجانب ما يستوجب من جزاء أخروى من الله ٠ والتضييق على المؤمنين من أعداء الله الملحدين الماديين ، والآخرين من المنحرفين من أهل الكتاب يتطلب دفعه وازالته :

١ ـ « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ،

٢ ـ ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد . وهم صاغرون » (١) ٠

ومن أجل ذلك طلب كتاب الله الى المؤمنين أن يكونوا دائما على أهبة الاستعداد ، لرد العدوان الخارجى ان وقع ، وللتخويف والارهاب لمن تسول له نفسه الاعتداء من أعداء الله ورسوله ، على دين الله والمؤمنين به فيما يقوله جل شأنه :

١ ـ « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم ، وأنتم لا تظلمون » (٢) ٠

ومع الحرص على وجود الاعداد الدائم لرد العدوان الخارجى ، فان على المؤمنين فى الوقت ذاته أن يحرصوا على :

الاستعداد للسلم ان أخذ به العدو فى سياسته مع المؤمنين ٠

---

(١) التوبة : ٢٩ ٠ (٢) الأنفال : ٦٠ ٠

وعلى بقاء التالف والتعاون فيما بينهم لأنه نفسه هو القوة الحقيقية لهم ، وعلى الاكتفاء الذاتى فى القوة لرد الاعتداء ، دون اشراك أجنبى عنهم فيه :

١ ـ « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم**٠

٢ ـ **وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله : هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ٠ والف بين قلوبهم ، لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم ٠**

٣ ـ **يا أيها النبى : حسبك الله ، ومن اتبعك من المؤمنين** » (١) ٠

والاعداد للقوة لرد العدوان ، واستخدام القوة فى رده اذن لا يخرج طابع الدولة عن معنى : « الخلقية » التى تتسم بها فى الاسلام ٠ لأن هذه الخلقية تستبعد أمرا واحدا فقط فى دائرة الانسان وهو : أن يكره المؤمن على القتال ، أو يكره على الايمان ، أو يكره على الطاعة ٠ اذ المؤمن الحر صاحب المشيئة فى مباشرته للقتال ، أو الطاعة ، أو للعقل أو للترك يلتزم من نفسه بما يباشره ٠

وليس اذن كذلك : معنى الخلقية :

١ ـ السلبية فى العمل والتواكل أو اللامبالاة ٠

٢ ـ والاستسلام للعدوان ،

٣ ـ وابعاد القوة المادية ،

٤ ـ والابتعاد فى الحياة عما تتطلبه مبادىء الحياة الانسانية للفرد والمجتمع من : سعى ، وجند ، وجهاد ٠

والفرق اذن بين الدولة الخلقية والدولة غير الخلقية أن : الأولى لا تكره أفرادها ـ بل يلتزمون هم بانفسهم عن طريق الايمان ـ على السلوك المعين فى الجوانب العديدة للحياة الانسانية ـ ومن بين أنواع هذه السلوك ـ مقاتلة الأعداء ، ودفع العدوان ـ بينما الثانية تمسك بسيف الارهاب ـ وقد يصل الى الاذلال واهدار كرامة الفرد وقيمته البشرية ـ لحمل أفرادها على الطاعة والولاء فيما تطلب منهم ٠ وقد تطلب تعسفا ٠ وقد تطلب ما ليس بانسانى ٠

★ ★ ★

---

(١) **الأنفال : ٦١ ـ ٦٤ ٠**

الفصل الثالث

فى مبدأ : الشورى المتكافئة

★ ان مبدأ : الشورى فى الاسلام أصل يتفرع عن مبدأ آخر فيه ، هو وجوب الطاعة من المؤمنين لله ، ولرسوله ، ولأولى الأمر · وهو ما التزم به المؤمنون عند قبولهم الايمان بالله · اذ طالما تجب الطاعة لكتاب الله ، وهو ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بتبليغه ، وأمر كذلك أولوا الأمر بتطبيقه فى ولايتهم وامارتهم على غيرهم من المؤمنين ـ يحق لمن يطيعون وتفرض عليهم هذه الطاعة أن يشاركوا بالرأى فيما يطالبون بالطاعة له من أولى الأمر ·

فقد تطلب منهم التضحية بالنفس أو بالولد ، أو يطلب منهم الخروج عن معظم ما يملكون من أموال ، أو يطلب منهم الصبر على المحن والأزمات أو يطلب منهم التسامح أو العفو ·· كل ذلك فى سبيل الايمان والحرص على بقائه فى ذاته ، وكرباط بين المؤمنين جميعا ·

وقد جاء القرآن بما يعبر تعبيرا صريحا عن أن من شيمة المؤمن بالله ووضعه أن لا يتلكأ فى الطاعة ، وأن يستجيب لها فى غير تردد · يقول الله تعالى :

« انما كان قول المؤمنين ، اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ،

وأولئك هم المفلحون · ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ، ويتقه ، فاولئك هم الفائزون » (١) ·

··· ويقول القرآن الكريم ذلك فى تحديد وصف المؤمنين ، مقابل ما يصف به المنافقين فى قوله ، قبل هذا :

« ويقولون (أى المنافقون) : آمنا بالله ، وبالرسول ، وأطعنا ،

ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ·

---

(١) النور : ٥١ ، ٥٢ ·

وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون · وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين ·

أفي قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخـــافون : أن يحيف الله عليهــم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون » (١) ·

··· فالشعار الذى يتميز به المؤمن هو : أن يسارع الى القبول والطاعة عندما يدعى لأمر من أمور الايمان بالله · بينما شعار المنــافق هو : اعــلان القبول والطاعة قولا ، ثم الانصراف عملا عن تنفيذ ما أعلن قبوله والطاعة له·

والطاعة اذن لما فى كتاب الله هى : الظاهرة المعبرة عن التزام المؤمن بما آمن به حرا مختارا ، غير واقع فيه تحت تأثير الرهبة أو الرغبة ، وهى بدورها تستوجب الشورى ومعرفة رأى المؤمنين ، عنــــدما يطلب اليهم أولوا الأمر الطاعة فى أمر ما ·

فاذا تنازعوا فى الرأى فيما بينهم ، بعضهم بعضا ، وجب رد الأمر الى كتاب الله ، وكذلك الى ما جرى عليه تطبيق الرسول عليه الصلاة والسلام ، دفعا للفرقة والحزبية ، وصونا لوحدة الأمة وقوتها فى التضامن :

« يا أيها الذين آمنوا :

أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم ،

فان تنــازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » (٢) ·

··· فالطاعة التى تجب أصلا هى ما كانت لكتاب الله ، وليست لكتاب آخــر ·

وطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه المعصوم فى تبليغ ما جاء به عن الله وهو كذلكالقدوة الحسنة فى العمل به ·

وطاعة أولى الأمر لأنهم أعرف من غيرهم بكتاب الله ، وأشدهم حرصا على أخذ أنفسهم بأحكامه ومبادئه ، وأكثرهم رعاية لصالح المؤمنين وخيرهم العام · اذ ولى الأمر فى الاسلام ليس من عامة الناس ، وانما من خيارهم :

---

(١) النور : ٤٧ ، ٥٠ ·   (٢) النساء : ٥٩ ·

فى الدين ، علماوعملا ، ومن اكثرهم دأبا : على صالح المؤمنين فى أحوالهم ومعايشهم ، وعلى توجيههم للسلوك السوى المستقيم ، وعلى الابقاء على قوة الترابط والمودة فيما بينهم ، ومحـاولة تخفيف أثر الحقـد فى نفوسهم ، بعضهم على بعض ٠٠ حقد فقيرهم على غنيهم ، وحقد ضعيفهم على قويهم ٠

وكما دخل المؤمن باله الايمان به بمشيئته الحرة ، فانه كذلك فى التزامه بطاعة أولى الأمر يلتزم بها عن رأى واقتناع ٠ ولذا يجوز للمؤمنين أن يختلفوا فى الرأى ، وأن يختلفوا أيضا فى وسيلة تطبيقه ٠

ولكن لا يجـوز لهم أن يتخاصموا ويتنازعوا ـ فضـــلا عن أن يقتتلوا ويقاتل بعضهم بعضا ـ بسبب الخلاف فى الرأى والانقسام فيه ٠

فاذا بلغ خـلافهم درجة المخاصمة والتنـــازع يجب عليهم حسم الأمر بالرجوع الى ما فى كتاب الله واستيعابه ، ثم الى ما وقع فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وأثر عنه فى القـول والعمل : « **فان تنـازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** » ٠

وطاعة كتاب الله اذن ، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام فيما يتصل بهذا الكتاب هى طاعة واجبة يكفل بها التزام المؤمن ، عندما قبل الايمان بالله حرا طائعا ٠ ولا يحق لمؤمن ـ بعد أن آمن ـ أن يناقش كتاب الله ، ولا ما أثر عن رسول الله خاصا بهذا الكتاب ٠

والرأى للمؤمنين وحقهم فى ابدائه هو فيما يطلبه اذن أولوا الأمر منهم٠ فتحق لهم مناقشتهم ، كما يحق لهم أن يروا غير ما يرون ٠ اذ تنصيص الآية هنا على الرجوع الى كتاب الله والى ما أثر عن الرسول فى القول والعمـــل وحدهما ، عندما يصل أمر الخلاف فى الرأى بين المؤمنين الى درجة النزاع والخصومة : « **فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول** » ٠٠٠ يسوى بين المؤمنين جميعا فى الوضع من كتاب الله ويعطى لذلك :

أولا : أن الطاعة لكتاب الله ، والى ما أثر عن الرسول صلى الله عليـه وسلم مكفولة وواجبة ، فى غير معارضة أو مخالفة ٠

ثانيا : أن الطاعة لرأى أولى الأمر مشروطة بعدم مخالفة من تطلب منه الطاعة من المؤمنين ، لولى الأمر ، فى رأيه ٠ اذ لولى الأمر مجتهد فيما يرى ٠ والاجتهاد حق كذلك لمن يستطيعه من المؤمنين عداه ٠ والالزام برأى المجتهـد

يقصر فقط على المجتهد ذاته ، ولا يتعـــداه الى غيره · ولذا كان مبـــدأ : « الشورى » مبدأ اساسيا للالزام بالطـاعة الى الرأى الذى يحـدد من قبـل المؤمنين ·

★ و « الشورى » اذن اجتماعية ، فى نظر الاسلام اليها · هى ضرورة للحفاظ على الترابط والتضامن · وضرورة كذلك للحرص على بقاء المجتمع كمجتمع · وضرورة ثالثة للالتزام بالطاعة · ولقـد وضع الاسلام مبـــدأ : الشورى ، لذلك فى صف اقامة الصلاة ، والانفاق فى سبيل الله واثرهما فى صفاء النفوس وترابطها ، وجعل مباشرتهـا وأثر هذه المباشرة على تماسك المجتمع ، كـأثر تجنب كبـائر الاثم والفواحش على بقـائه وقوتـه · يقـول الله تعالى :

« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى :

للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ·

والذين يجتنبون كبائر الاثم ، والفواحش ،

واذا ما غضبوا هم يغفرون ·

والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة ،

وأمرهم شورى بينهم ،

ومما رزقناهم ينفقون ·

والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون ·

وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين ·

ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل · انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب اليم ·

ولمن صبر وغفر ، ان ذلك لمن عزم الأمور » (١) ·

··· فهذه الآيات تعدد صفات المؤمنين · وهم أولئكم الذين لا يرون فى متاع الحياة الدنيا من : مال ، ونساء ، وطيبات ما رزقوا به من عند الله ، وزينتها ، المتعة المثلى · وانما يرون هذه فيما عند الله فى آخرته ، فهى خيـر وأبقى مما فى الدنيا كلها ·

---

(١) الشورى : ٣٦ ـ ٤٣ ·

ولذا : لا يتهافتون ، كما لا يقبلون المذلة ، فى سبيل ما فيها من متع ، ولا يتخاصمون ويتناحرون فى الخصومة من أجله · ولا ياسفون أو يحزنون ان ضاع منهم أو فاتهم ، كما لا يطغـون به ان آتاهم واقتنوا منـه ما يجعلهم أصحاب فضل فى الرزق على غيرهم ·

ومن صفاتهم التى ذكرت هنا :

تجنبهم الجرائم الاجتماعية ، وهى جرائم : الزنا ، والقتل ، والسرقة ، وقدرتهم على ضبط أنفسهم عند الغضب ، وعفوهم عمن أثار غضبهم ،

وهم بذلك فى علاقتهم بغيرهم فى أمتهم أصحاب انسانية وفضل فيها ·

··· وكذلك من صفاتهم :

انهم استجابوا لدعوة الايمـان ، وحرصوا على اقامة الصـلاة ، التى يتجلى فيها خضوع الانسان لله وحده ، وتتركز فيها دون غيرها من العبادات مناجاته له ·

وأن الأمر بينهم شورى لا يتحكم فيه واحد منهم ،

كما أنهم ينفقون أموالهم حسب ما يرزقون ، فى سبيل الله والمصلحة العامة ·

والمؤمن ـ حسب ما تذكره هذه الآيات ـ اذن ، هو :

فى علاقته بالله دائب المناجاة له فى الصـلاة والتـذكر له فى سلوكه وتصرفاته ·

وفى علاقته بالآخرين معه : لا يسىء اليهم بالاعتداء على عرض أو نفس أو مال لواحد منهم · بل مع عدم اساءته اليهم يقدم من خير نفسه العفو · وبجانب ما يقدم لهم من مال ، يحرص على اعطائهم الرأى حرصه على الوقوف عليه عندهم ، فى صورة من التشاور بينهم ·

ودائرة الشورى هى دائرة العلاقة بين المؤمنين جميعا :

ففى الأسرة يشاور ربها زوجه وأولاده ، فيما يهم من شئونها : ان فى التدبير والانفاق ، أو فى التوجيه وتربية الأولاد ·

وفى علاقة الجوار يشاور الجار جاره القريب والجار الجنب ، فيما لهما من مصلحة مشتركة ، على نحو ما يشاركه فى مسراته وأحزانه ·

وفى الولاية العامة يشاور ولى الأمر من تجب طاعتهم له ، فيما يتعلق بازالة عوامل الضعف فى العلاقات بين الأفراد ، وفيما يعود عليهم من خير مشترك فى سعيهم ، وفى طمأنينة فى حياتهم ·

وفى الأزمات والشدائد العامة يشاور أولوا الأمر بعضهم بعضا ، كما يتشاورون مع أصحاب الخبرة والمعروفين برجاحة الفكر وحسن التقدير ·

والشورى هى صورة من صور الاجتهاد ، أو صورة من صور تطبيق الرأى المتفق عليه ، والذى جرى به العمل · اذ أن ما يجرى فى شأن الشورى يجب أن يكون فى نطاق الكتاب والسنة الصحيحة · على معنى أن يراعى فيها ما حرمه الله وما أحله للفرد والجماعة ، وما أوجب الأخذ به على المؤمنين وما منع من مباشرته ، وما هو من الأمور الأساسية التى لا يعدل عنها للجماعة ، وما هو من شأن المصالح المرسلة فى قيادتها · وهكذا ·

فلا تكفى مراعاة المصلحة الشخصية وحدها فى المشورة للأسرة وأفرادها ، ولا لمن بينهم علاقة جوار ، ولا لمن يعيشون فى ولاية واحدة ، دون مراعاة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم · وانما تعالج المصلحة الشخصية عند الشورى مع اعتبار المبادىء الاسلامية ، فى كل دائرة كانت ضيقة أم واسعة فى محيط الأمة ·

وعلى سبيل المثال :

١ ــ فى محيط الأسرة ــ الزوجة والأولاد ــ يجب أن تكون المشورة فى نطاق ما أوصى به الله فى معاملة الزوجة فى قوله تعالى :

« ··· ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ،

وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم ·

الطلاق مرتان : فامساك بمعروف ، أو تسريح باحسان » (١) ·

وكذلك فى حدود ما حذر منه ، وأوجب أخذ الحيطة فيه ، فى قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا :

ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ، فاحذروهم ،

وان تعفوا ، وتصفحوا ، وتغفروا ، فان الله غفور رحيم » (٢) ·

---

(١) البقرة : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ·　　(٢) التغابن : ١٤ ·

... فبينما يوصى القرآن الكريم الأزواج بمعاملة الزوجات على أساس من المساواة فى الحقوق والواجبات ، ولكن ليست مساواة حرفية تتسم بطابع المبادلة والتبادل العددى والمادى ، وانما يكون للأزواج فيها فضل يصل الى الزوجات فى غير مقابل منهن لهم . وهو الاحســـان الذى يتمثــل فى القول المهذب المعروف ، والتسامح ، وعدم الشح والتقتير .. بينما يوصى القرآن بذلك يحذر من جانب آخر الأزواج من الانسياق وراء العاطفة فى المواقف منهن ، وكذلك من الأولاد فى توجيههم . فقــد ينطوى الانسياق وراء العــــاطفة فى المواقف من الزوجات والأولاد الى عبث الزوجة ، والى عبث الأولاد أو الى تآمرهم عليه . وبذلك يصبح عبثهم فى أثره على الزوج كأثر العداوة من عدو صريح له . وبذلك يكونون أعداء حقيقيين للأزواج والآباء .

٢ ــ وفى شئون المال ان حث الاسلام على السعى من أجل الرزق ، وجعل أداء صلاة الجمعة التى تقع فى كل أسبوع لا تحول دونه ، اذ يقول الله تعالى:

« يا أيها الذين آمنوا :

اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون .

فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (١) .

... فانه أيضا يحذر من الافتتان به ، فيما تذكره هذه الآية :

« انما أموالكم ، وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم » (٢) .

... ومن أجل ذلك يجب أن تكون الشورى فى شئون المال دائرة بين السعى فى اقتنائه ، والحيطة من الوقوع تحت تأثيره والاغراء به ثم الطغيان عن طريقه . يجب أن لا يقصر فى السعى لاقتنائه . ويجب كذلك ، مع هذا ، أن يحول بين نفسه والاعتداء بسببه على حقوق الآخرين فى الحياة .

٣ ــ وفى الجوار يحدد نطاق المشورة فى قوله تعالى :

« واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ،

وبالوالدين احسانا ، وبذى القربى ،

واليتامى والمساكين ،

---

(١) الجمعة : ٩ ، ١٠ .   (٢) التغابن : ١٥ .

والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » (١) ٠

٠٠٠ فقد طلبت الآية الاحسان والمعاملة الانسانية الكريمة للجار الملاصق القريب ولصاحبه الآخر بجنبه ٠ وقرنت الاحسان فى صوره العديدة الى الجار ــ ضمن ما عددت هنا ــ بطلب عبادة الله وحده وعدم الشرك به ، مما يدل على اهتمام الاسلام بعلاقة الجوار ، اهتمامه بالحث على عبادة الله وحده ٠

٤ ــ وفى شئون الأمة عامة تخضع الشورى لمثل ما جاء فى قوله تعالى:

« ان الله يأمر بالعدل ، والاحسان ، وايتاء ذى القربى ،

وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى ،

يعظكم لعلكم تذكرون ٠

وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » (٢) ٠

٠٠٠ فالحفاظ على العدل ، وهو اعطاء كل ذى حق حقه : اعطاء المحروم حقه فى العيش والطمانينة فى الحياة ، واعطاء كل فرد حقه فى أن لا يصاب بأذى وضرر فى نفسه ، وفى ماله ، وفى عرضه ، وفى منزله وسكناه ، وأن لا يحال بينه وبين التعبير عما يرى أو يعتقد ٠٠ هو قوام الأمة فى نظام ترابطها ٠

والاحسان ، الذى هو اعطاء من يملكون من الأفراد طاقات وقدرات أكثر من غيرهم لمن لا يملكون مثل طاقاتهم وقدراتهم ، وفى حاجة الى مزيد منها ٠٠ هو أساس المحبة فى الترابط ، والتعاون فى اجتياز الأزمات والشدائد، أو فى ازالة أسباب الضعف والوهن فى الأمة كلها ٠

والمال طاقة وقدرة ، والصحة ، والعلم ، والتهذيب كلها طاقات وقدرات إنسانية كذلك ٠

وتجنب الفحشاء وهى : الزنا ، والمنكر وهو : القتل أو السرقة ــ مما تعرف جميعها بجرائم المجتمع أو الجرائم الاجتماعية ــ هو السد المنيع ضد

---

(١) النساء : ٣٦ ٠ (٢) النحل : ٩٠ ، ٩١ ٠

تسرب الخصومة والعداوة والبغضاء والحقد الدفين ، وداء الأنانية الى العمق فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض ٠

اما البعد عن البغى والظلم من أفراد الأمة جميعا فهو لا يعبر فقط عن اعتراف كل فرد بحق أخيه فى الوجود والحياة ـ وهذا منتهى ما تصل اليه التربية الاجتماعية السلبية ـ وانما هو تعبير عن الاقرار الكامل بالوجود الحى لمعنى الواجب والحق فى المجتمع ٠ والمجتمع السليم ،القـــوى هو ذلك المجتمع الذى يحيا فيه معنى : الحق ، أو قبله ٠

وهكذا : العدل ، والاحسان ، والبعد عن الجرائم الاجتمـاعية ، وعن الظلم اذا دارت شورى الأمة فى شئونها الداخلية فى نطاقها لا تتعرض لهزات أو انقلابات داخلية ، كما لا تحتاج الى علاج أو حلول أجنبيـة تستورد ، أو ترغم على قبولها ، لحل ما قد يكون لديها من مشاكل تكونت فى فترة أو فترات انحرفت فيها تصرفاتها عن هـذه المبـــادىء الأساسية فى ســياسة الأمة الاسلامية ٠

٥ ـ وفى علاقة الأمة الاسلامية بمجتمع أهل الكتاب ، الذى خرج عن هدايته واستمرأ الدنيا ومتعها وحدها ، وأصبح بذلك عدوا لأصحاب الروحية الانسانية ، فان الشورى التى تباشرها الأمة عندئذ ترتبط ارتباطا وثيقا بمثل قوله تعالى :

« الم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ، ويريدون : أن تضــلوا السبيــل ٠ والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله وليــا ، وكفى بــالله نصيرا » (١) ٠

وبمثل قوله :

« الم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، يؤمنون بالجبت والطاغوت، (أى يصدقون بالخرافة ومصدر الشر ، وهو الهوى والشهوة) **ويقولون للذين كفروا : هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا » (٢) ٠**

٠٠٠ اذ طالما يؤثر هذا المجتمع : الماديين والملحـــدين ـ وهم الـــذين كفروا ـ على المؤمنين بالله والذين يسلكون سبيل الله فى حياتهم ، وطالما كذلك لا يبغى للمؤمنين أن يبقوا على ايمانهم ، وانما يريد لهم الضلال والحيرة ،

---

(١) النساء : ٤٤ ، ٤٥ ٠ (٢) النساء : ٥١ ٠

والضعف والهوان ، والمذلة والتبعية ٠٠٠ طالما يقف من المؤمنين هذا الموقف فالشورى فى علاقة الأمة الاسلامية بمثل هذا المجتمع يجب أن تظل فى دائرة الحذر والحيطة ، فى الوقت الذى تزيد فى قوتها على أساس من الايمان بالله ، والاعداد لرد العدوان ، ان وقع عليها ٠

٦ ـ وفى علاقتها بمن يلتزم المادية والالحاد وحده فى اتجاهه فى الحياة من المجموعات البشرية الأخرى ، يجب أن تقع المشورة فيها ، مقيدة بما جاء به قول الله تعالى :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ،
ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو اخوانهم ، أو عشيرتهم ،
أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » (١) ٠

٠٠٠ والقرآن بما يعبر به هنا من نفى : أن يوجد مؤمن بالله واليوم الآخر يتواد مع من ينكر الله واليوم الآخر ـ وهو المادى الملحد ـ انما يعبر عن حقيقة صادقة وواقعة ٠ وهى أن النقيض لا يتواجد مع نقيضه فى وقت واحد ، فضلا عن أن يواليه ويعانقه عناق المودة ٠ فالمؤمن بالله فى طرف ، والمادى الملحد المنكر له فى طرف ولا يواد أحدهما الآخر الا اذا تنازل عن الصفة التى له ، وانتقل الى صفة نقيضه ٠

وعلى أية حال ينبغى للمؤمنين فى علاقتهم بغيرهم من أهل الكتاب أو الماديين الملحدين أن يكونوا على حذر منهم ، وأن لا ينتظروا أن يكونوا لهم أصدقاء أو مساعدين ٠ ولكن هذا الحذر لا ينبغى أن يستفزهم الى الكراهية الصريحة واعلان العداء لهم ٠ فمع الحيطة فى معاملتهم قد تجب مداراتهم ، وعلى الأخص اذا لم يكونوا هم من القوة بحيث يدفعون شرورهم ٠

وقد رسم القرآن الكريم فى بعض آياته اطار السياسة الايجابية للمؤمنين فى علاقتهم بمن عداهم ، سواء من أهل الكتاب أو من الماديين الملحدين ـ وفى اطار هذه السياسة تدور المشورة الواجبة بينهم : بعضهم مع بعض فقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا :

لا تتخذوا اليهود ، والنصارى أولياء (أى لا تنظروا اليهم على أنه ترجى

---

(١) المجادلة : ٢٢ ٠

منهم الصداقة والحماية والمساعدة لكم ، اذ هم أقرب الى عداوتكم منهم الى صداقتكم ولذا : لا تحاولوا أن يكون لكم منهم أصدقاء وحماة) ،

بعضهم أولياء بعض (فالشأن فيهم : أن يتخذ بعضهم سندا للآخر فقط ، وليس لكم) ، **ومن يتولهم منكم فانه منهم** (أى ومن يستشيرهم منكم ويأمن الى مشورتهم ، فانه يتخلى فى واقع الأمر عن أن يكون واحدا منكم ، وعن أن يكون مؤمنا بمثل ما تؤمنون به) ، **ان الله لا يهدى القوم الظالمين** (عدم الرجاء فى صداقتهم ومساعدتهم للمؤمنين ، وعدم الثقة فى مشورتهم لأى واحد منكم يعود الى ظلمهم وتعديهم على الحق · ومن يعتدى على الحق لا يؤمن جانبه ، ولا يؤمل فيه الخير لمن يتمسك به · وتعديهم على الحق يتمثل أولا فى تحريفهم كتاب الله ـ وهو التوراة أو الانجيل ـ لصالح أنفسهم · اذ قصدوا أن تكون لهم ميزة على غيرهم ، وبالتالى قصدوا الى السيادة والزعامة على غيرهم) » (١) ·

··· وقال أيضا :

« **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ، من دون المؤمنين** (أى لا ينبغى للمؤمنين أن ينظروا الى الكافرين ـ من أهل الكتاب أو الماديين الملحدين ـ على أنهم أصحاب صداقة وحماية ، ونخوة بالنسبة للمؤمنين فى مساعدتهم ؛ ويجعلونهم من أجل ذلك أصدقاء ، مبتعدين بصداقتهم اياهم عن صداقةالمؤمنين وعن قوة الترابط معهم عن طريق المودة والولاء) ،

ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء (واذن من يخرج من المؤمنين عن هذه النظرة الى الكافرين عامة ويتخذ منهم وليا فهو بعيد كل البعد عن الايمان بالله ، وعن طاعة ما جاء فى كتابه) ،

الا أن تتقوا منهم تقاة (ولكن استثناء من هذه النتيجة اللازمة : لايعصى المؤمنون الله ولا يخرجون عن الايمان به ان تعين عليهم أن يوالوهم ، وقاية لهم من شرهم ، وحيطة فى دفع أذاهم عنهم ، فى وقت هم لا يستطيعون فيه دفعه بالقوة ، ان أصابهم) ، **ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير** · (أى لضرورة هذا المبدأ ـ وهو مبدأ عدم موالاة المؤمنين للكافرين والحيطة والحذر فى معاملتهم ـ للأمة فى تماسكها وبقائها على الايمان بالله ، واستقلالها وعدم تبعتها واذلالها ·· نذكركم الله أيها المؤمنون بعقابه ، ان أنتم خرجتم عليه · فان

---

(١) المائدة : ٥١ ·

لم يصـبكم عقابه فى دنيـاكم فمصيركم ، كمصير الوجود كله ، اليه سبحانه وتعالى) ٠

قل : ان تخفوا ما فى صدوركم ، أو تبدوه ، يعلمه الله ، ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، والله على كل شىء قدير (والله جل شأنه اذ ينذركم بعقابه العاجل أو الآجل ، فانه يعلم ما تنطوى عليه نفوسكم من الولاء أو عدمه للكافرين وان لم تعلنوه ، دون المؤمنين ٠

فقدرته جل شأنه تشمل كل شىء : تشمل الجزاء وتنفيذه ، كما تشمل العلم بالجريمة ، وان اختفت قرائنها) » (١) ٠

* والصورة التى تتم فيها الشورى فى الأمة يحددها الاسلام ٠ وكذلك السبيل الى رسمها وتنفيذها لم يحـــدده كذلك : أهو سـبيل الاجتمـاعات ، والندوات والمجالس التى تعرض فيها المشـكلة ويطلب حلها ممن اشـتركوا فيها ؟٠ أم هو سبيل النيابة والتفويض ؟٠

كان المسجد فى وقت من الأوقات مكان الشورى العامة فيمــا يواجه المسلمين من مشاكل ٠ ولكنه ليس السبيل المتعينة ٠

وانما المتعين هو صاحب الشـورى ومن يعطى الرأى ٠ انه صـاحب الصلاحية فى فهم كتاب الله ، وصاحب الاستقامة والعمل بكتاب الله ، طالما أن الشورى وابداء الرأى فيها يعتبر صورة من صور الاجتهاد ، وطالما أن اطارها العام يرسمه ويحدده كتاب الله ٠

والذين لا يلتزمون العمل بكتاب الله ولا يحسنون التفقه فيه ليسوا بذوى صلاحية اذن فى المشاركة فى الشورى ، وعلى الأخص فى الشئون العـــامة للأمة ٠

ويرجع أمرها أخيرا الى مجموعة لا تنتمى الى شرف الأسرة ، ولا الى الثروة والمال ، ولا الى العصبية القبلية أو الاقليمية ، ولا الى جاه الحـكم والسلطة والولاية ٠ وانما تنتمى الى التدين وفهم كتاب الله ، والوقوف على سنة رسوله صلى الله عليه وسـلم ، وان كـــان فيهم شرفاء ، أو أثرياء ، أو أصحاب عصبية ، أو أصحاب جاه بالحكم والولاية العــامة ٠ ولكن أســاس اختيارهم هو كونهم من القدوة فى فهم كتاب الله ، وفى العمل بما جاء به ٠

---

(١) آل عمران : ٢٨ ـ ٢٩ ٠

فاذا كانت الندوات والاجتماعات يدعى اليها هؤلاء القدوة ، أو اذا كانت النيابة والتفويض يعطى لهم فالهدف من المشورة فى الاسلام قائم عندئذ ·

والاسلام عندما أقام مجتمعه أقامه على أساس من طرح الايمان بالله وقبوله فى حرية ومشيئة · والذين دخلوا فى هذا الايمان ، وشاركوا فى بناء المجتمع الاسلامى ــ بناء على ذلك ــ كانوا من مستوى واحد ، وهو مستوى المؤمنين بالله ، لا فرق بين مؤمن منهم وآخر الا بالتقوى · ولم يميز بعضهم عن بعض نسبة الى شرف الأسرة والعمل ، أو الى جاه المال وطبقة الرياسة · ومن هنا لم يعرف المجتمع الاسلامى طبقية : لم يعرف عامة وجماهير ، ولم يعرف مثقفين وبورجوازيين ، ولم يعرف نبلاء وأرستقراطيين بسبب الثروة أو النسب · وانما عرف ــ ويعرف فقط ــ مؤمنين بالله وبرسالته التى جاء بها محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، لا فرق بين عربى وعجمى ، ولا قرشى وغير قرشى :

« يا أيها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) ·

ولهذا : لم يعرف الاسلام حكم الجماهير والكافة ــ وهم سواد الشعب ــ فى مواجهة حكم الأرستقراطيين والنبلاء ، ولا حكم هؤلاء فى مواجهة حكم أولئكم · ولذا ــ كذلك ــ ليس فى نظامه وضمن مبادئه ، ولا فى مألوف عباراته ما يسمى : بالديمقراطية وهى حكم العامة أو الشعب ، وسيادة من ينتمون الى النسبة العددية الكبرى فى المجتمع ، ولا ما يسمى بالارستقراطية وهى نظام حكم النبلاء والأشراف أو المتميزين فى المجتمع من أصحاب الطبقة العليا لشرف الأسرة أو كثرة المال ، ولا ما يعرف بالأوتوقراطية وهى نظام الحكم المطلق غير المحدد وغير المقيد بأى عهد أو ميثاق ، ولا كذلك ما يسمى بالثيوقراطية وهى نظام الحكم الذى يعترف بالله كحاكم مدنى أعلى ، تفسر قانونه سلطة روحانية خاصة مكونة من رجال الاكليروس ·

لا يعرف الاسلام هذه النظم من الحكم فى نظامه وبين تعاليمه · والمجتمع الأوروبى وحده هو الذى عرفها وتصارعت طبقاته بعضها ضد بعض ، ومازال يعرفها وتمارس طبقاته الصراع فيما بينها من اجلها ·

ان المجتمع الأوروبى لم يعرف وحدة الألوهية فى أية عقيدة آمن بها منذ كشف عن نفسه · انه عرف الوثنية ، وهى عقيدة تدعو الى تعدد المعبود الذى

---

(١) الحجرات : ١٣ ·

يتميز فى نظر من يعبدونه عنهم ، قبل أن يعرف أن المسيحية المثلثة وغير الموحدة كذلك · انه عرف المعبود مشخصا أو مجسما فى وثنه ، قبل أن يعرفه مشخصا ومجسما فى الكنيسة ومسيحيتها ·

وعرف بذلك اذن موجودات عديدة مشخصة ومجسمة تتميز فى وجودها واعتبارها ، بحيث يجب أن يتوفر لها احترام العبادة ، كما تتوفر لها الطاعة فى غير حوار ومناقشة ، وفى غير ابطاء وتلكؤ ·

وعن وجود طبقة الآلهة المتميزة فى اعتقاد المجتمع الأوروبى نشأت فيه طبقة تترفع بالنسب والانتماء الى الأسر التى تقترب من الآلهة العديدة ، فى الاتصال برعايتها والحفاظ عليها ، بذكر ما ينسب اليها مما يعد فى دائرة توصيل النفع أو الوقاية من الضرر لمن يعكفون على عبادتها ·

وعن نشأة الطبقة المتميزة فى أى مجتمع بشرى ما ، يتنوع الأفراد فيه بعد هذه الطبقة الى طبقات أخرى ، حسب القرب أو البعد من الطبقة المتميزة فيه فى الاعتبار ، وحسب نوع العمل والخدمات التى تؤدى فيه · وبذلك وجدت فى المجتمع الأوروبى بعد الطبقة العليا طبقة متوسطة ، وأخرى دونها · وعلى هذا النحو أدت الوثنية الدينية فى اعتقاد المجتمع الأوروبى الى خلق « طبقة » فيه ، قد يختلف مضمون كل طبقة فيه فى عهد من عهود هذه المجتمعات عنه فى عهد لاحق له · والثورات والحروب المحلية التى وقعت فى تاريخ المجتمعات الأوروبية تكاد كلها تقريبا تعد ثورات وحروبا طبقية ، تستهدف رفع طبقة من مستواها فى الاعتبار الاجتماعى الى مستوى أعلى منه ، عن طريق الوصول الى الحكم ·

وعرفت الطبقة العليا أو المتميزة فى تاريخ هذه المجتمعات باسم الطبقة الأرستقراطية أى المنتخبة والمتميزة ، فى مقابل ما عرفت به الطبقة الدنيا باسم الطبقة العامة أو الشعبية ، وما عرفت به الطبقة المتوسطة باسم الطبقة البورجوازية ·

ولم تنجح مسيحية الشرق ــ وهى مسيحية السلام والروحية الانسانية ــ عندما وصلت الى روما ، مركز الامبراطورية الرومانية العالمية ، فى أن تحول المجتمع الأوروبى الى مجتمع انسانى ، تخف فيه فوارق الطبقة فى الاعتبار البشرى ، فضلا عن أن تقضى عليها ، لأن الكنيسة التى أنشئت هناك ، وهى الكنيسة الرومانية ، تبنت أساس « التعدد فى الألوهية » كما تبنت أساس التجسيد للآلهة ــ وهما الظاهرتان فى الوثنية الأوروبية اللتان أوحتا بخلق

الطبقية فى المجتمع الأوروبى - فضـلا عن اشتراكهـا فى الصراع الطبقى ، ومحاولة جعل الحكم فى المجتمع فى يد رجال الاكليروس ٠

أما الاسلام فلم يعرف الا « الوحدة » فى الألوهية ، ولم يعرف اللهالواحد الا أنه لا يدرك بالأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو السميع العليم ٠ فلم يعرف اذن تعددا فى الألوهية ، كما لم يعرف تجسيدا وتشخيصا للالهية ٠

ويعرف الوحدة فى الألوهية على أنها تضفى آثارها على المجتمع المؤمن بها فى علاقات أفراده بعضهم ببعض ، بعد أن تضفى هذه الآثار على الفرد المؤمن نفسه فى التنسيق بين روحه وجسمه ، بحيث يكون سلوكه الشخصى منسجما وغير موزع بين طرفين متضاربين فيه ، اقتضاهما خلقه من مادة ، وتصويره واعداده بالصورة العقلية المدركة ٠

ثم عندما قام أول مجتمع اسلامى قام جديدا ، نفض عنه جهالة الماضى ، وبالأخص جهالة الوثنية المادية ، وهى جهالة الشرك بالله وما يتصل بهـذا الشرك من خرافات النفع والضر ٠ ومن قبل الانضمام اليه ممن قبل ، قبله على أساس التخلى تماما عن تقاليد الآباء والأجداد ، وقبول « الوحدة » فى الألوهية بكل ما تحمل من معنى ، وبما لها من آثار على ذاته والمجتمع الذى هو عضو فيه ٠ وسارت المجتمعات الاسلامية فى تاريخ تطور الايمـان بالاسلام على الوحدة فى العقيدة ، ورفض التعدد ٠

فضلا عما دعا اليه الاسلام نفسه من اعتقاد المساواة فى الاعتبـار البشرى ، ومن أن من كانوا بالأمس قبل الاسـلام فى المجتمـع الرومانى أو الفارسى من الخدم والعبيد - أى من الطبقة الدنيا - أصبحوا الآن بعد ايمانهم بالاسلام اخوانا لمن كانوا بالأمس كذلك فى المجتمع المكى الوثنى أسيادا ومن أصحاب طبقة الأشراف المتميزة : « اخوانكم خولكم : أطعموهم مما تطعمون أنفسكم ، وألبسوهم مما تلبسون أنفسكم ، وان كلفتمـوهم بأمر لا يطيقونه فأعينوهم عليه » (١) ٠ صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام ٠

والحروب والثورات فى تاريخ المجتمع الاسلامى لم تكن لذلك اطلاقا حروبا وثورات « طبقية » كما كان الأمر عليه فى تاريخ المجتمعات الأوروبية ٠ ربما قد يكون للشعوبية أثر وراء بعض ما وقع فيه من حروب أو ثورات ٠ ولكن الشعوبية ليست طبقية على أية حال ٠ حقا : ان الشعوبية تنطوى على

---

(١) من حديث شريف ٠

معنى التميز ، ولكنه تميز جنس بشرى على آخر ، بحيث يعتبر أفراد جنس ما ، متميزين جميعا بما فيهم الرفيع والوضيع ، عن أفراد جنس آخر بما فيها كذلك الرفيع والوضيع · وليس ذلك هو تميز الطبقة فى المجتمع ·

ونتيجة لذلك فالمجتمع الاسلامى – منتسبا الى مبادىء الاسلام – لا يعرف طبقية ، ولا يعرف صراعا طبقيا ، ولا نظام حكم ديمقراطى ، أو ارستقراطى أو ثيوقراطى · أى لا يعرف حكم الطبقة الدنيا أو العامة أو الجماهير ، ولا حكم النبلاء والأشراف بالنسب أو المال ، ولا حكم الفرد واستبداده · لأن مثل هذه النظم فى الحكم هى نظم طبقية ترعى مصالح طبقة على حساب ما عداها من طبقات أخرى ·

كما لا يعرف الحكم الثيوقراطى ، على غرار حكم الآباء والقساوسة · اذ ليس فى الاسلام طبقة رجال دين ، وكل اليهم وحدهم أمر الدين فى فهمه والتعبير عن الرأى فيه ، كما وكل اليهم الفتوى التى تطاع فى غير مناقشة ، وتلزم الزاما حاسما من عدا هذه الطبقة من المؤمنين به · ليس الدين مهنة وحرفة فى الاسلام تحترف بها مجموعة خاصة من المؤمنين ·

كتاب الله للناس كافة من غير أن يكون بعضهم وسيطا فى نقل معانيه الى بعض آخر · والمجتهد فى كتاب الله يلزم باجتهاده وما توصل اليه من رأى نفسه فقط ··

واذا كان الحكم فى المجتمع الاسلامى بكتاب الله فتطبيق كتاب الله من المؤمنين ومن الذين يطبقونه من الولاة يخضع للتخطئة والتصويب · ولذا وجبت الشورى فى الأمة الاسلامية ، بين الحاكم والمحكومين جميعا ·

واذن ليست هناك عصمة فى تطبيق كتاب الله · بل تطبيقه يخضع للمراجعة ، كما يخضع من قبل لتبادل الرأى فيه · واذا انتفت العصمة فى تطبيق كتاب الله ، كما انتفت المهنة والحرفة بسببه ، فالحكم به ليس حكما ثيوقراطيا ، أى الهيا · وانما الحكم به حكم بشرى يستند الى مبادئه وتعاليمه·

القرآن يعلم المؤمنين به نظام الحكم لصالح جميع أفراد الأمة ، والنقل عن المجتمع الأوروبى يعلم المسلمين الحكم لصالح الطبقة المعينة وحدها ، أو يوحى اليهم بالبعد عن كتاب الله فى أخذهم به ، تحت دعوى الثيوقراطية ونظام الأكليروس فى الأخذ به :

★ ★ ★

الفصل الرابع

فى كفالة حـرية الرأى

★ ان الحرية فى الرأى تضاد التبعية الطلقة فيه ، كما تضاد التقليد فى غير تصرف أو تخلف عنه · هى حركة ونشاط مستمر فى الملاءمة بين الانسان ومجال حياته ، طالما يعيش الانسان فى ظروف وأحوال متجددة ومتغيرة · انها اذن التعبير عن حيوية الطبيعـة البشرية ، وحيوية المجتمـع البشرى · ولكنها لا تعنى التحريض على العصيان ، أو التضييق والاحراج وعدم اعطاء الفرصة للآخرين ، ولا تعنى كذلك الاثارة والدفع الى الانقلاب · فيروى عن عوف بن مالك الأشجعى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبـونكم ، وتصلون عليهم ويصـلون عليكم ، وشرار أئمتكم : الذين تبغضونهم ويبغضونكم ويلعنونكم ·

قال : قلنا يا رسول الله :

أفلا ننابذهم عند ذلك (أى نخاصمهم ونخرج عن طاعتهم) ؟

قال : لا ! ما أقاموا فيكم الصلاة ، الا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئا من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله (أى فليعلن كرهه ، ويصرح ببغضه لارتكابه المعصية) ،

ولا ينزعن يدا من طاعة » (١) ·

··· فالحديث الشريف هنا يرسم طريق الرأى فى المعارضة والنقد فى سياسة الأمة ، ويفرق بين أمرين جوهريين فيها : بين الطاعة لأولى الأمر من جهة ، وحرية الرأى وتقييم تصرفاتهم من جهة أخرى · فحرية الرأى بالمعارضة والنقد للولى أو للامام تلغى وجوب الطاعة له ، مادام يقيم الصلاة · ووجوب

---

(١) نيل الأوطار : جـ ٧ ، ص : ١٨٢ ·

الطاعة له ـ مادام يقيم الصلاة ـ لا يلغى معارضته فى الرأى علنا وصراحة وانكار تصرفاته التى تتسم بالانحراف والمعصية ·

وعدم الربط بين الأمرين يؤكد أن هدف الحرية فى الرأى هو التقويم والاصلاح ، وليس للاحراج ، أو السعى الى الانقلاب · كما يؤكد : أن الوالى أو الامام الذى يحافظ على اقامة الصلاة فى الأمة ، مازال يرجى منه الخير ، فى أن يعود الى الحق والصواب ، عندما يذكر به ، عن طريق مصارحته بالاثم والمعصية . والكشف له عن انحرافه فيما باشره من تصرفات ·

ويؤكد عدم اللزوم بين هاتين القضيتين الأساسيتين : وجوب الطاعة . وحرية الرأى . ما يرويه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قوله :

« من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر ،

فانه من فارق الجماعة شبرا فمات ، فميتته جاهلية » (١) ·

وعدم اللزوم بينهما يوضح مدى المستوى الانسانى الرفيع الذى يجب أن يكون عليه المؤمن بالله · اذ هدفه الصالح العام وحده ، ان باشر الرأى فى غير حرج فى تقييم سياسة الأمة أو فى نقد تصرفات الحاكم ، أو ان أخذ بما يجب عليه من طاعة ولى الأمر وعدم الخروج عليه لاثم أو لمعصية ، أو لخطأ ارتكبته فى سياسة أمته أو فى سلوكه الشخصى ، طالما يؤمل فيه الخير ولا تنطوى تصرفاته على أضرار بالايمان وبالتالى بالأمة ·

وبهذا لا يعرف المؤمن بالله الاستكانة والخشية من الناس ، كما لا يعرف الانقلاب والتربص له من أجل تولى السلطة والحكم لذاتهما ، سمة المؤمن بالله هى سمة الصراحة فى الايمان وعدم المداراة فيها لمنفعة شخصية ، وطابعه العام هو القوة فى صلته بالله ، والخشية منه وحده دون الخشية من الناس ، والتسليم له دون الاستسلام لأحد عداه ·

وطالما المؤمن بالله قويا فى ايمانه ، فهو لا تسيطر عليه المادية فى توجيهها ، وبالتالى لا تخضعه أنانيته الى رغبات الذات وحدها فى تحقيق هواها وشهوتها · وهو من أجل ذلك بعيد عن الهدف الشخصى اذا مارس حقه فى الرأى والنقد فى السياسة العامة للأمة ·

---

(١) نيل الأوطار : جـ ٧ ص : ١٨١ ·

والمسئولية الفردية فى العمل ، وفى أداء الطاعة معا ، هى التى تؤصل وجوب حرية الرأى · كما أن صالح الجماعة يؤصل وجـوب الولاء وعـدم الخروج على ولى الأمر · وفى قوله تعالى :

« أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم ،

فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » (١) ·

··· ما يدعو الى أداء الطـاعة ، فى وقت مباشرة الحـق فى حـرية الرأى · فاذ يطلب القرآن عند التنازع فى الأمر مع أولى الأمر ، رد النزاع الى الكتاب والسنة الصحيحة وحدهما ـ دون رأى لولى أمر خاص ، أو لأحد بعده فى الجماعة ـ يعنى على الأقل عدم الحجر على الرأى ، وان أدى ابداؤه الى خلاف مع ولى الأمر ·

والرأى اذن مسموح به لمن يستطيع مباشرته ، والخلاف فيه كذلك أمر عادى أو ضرورى ، بحكم الفوارق الفردية بين أصحاب الرأى ·

أما التنازع فيه فلا يعود الى الرأى فى ذاته · وانما يعود الى الانفعال والميل الى الدفاع عن النفس ·· يعود الى نوع من أنواع الحـزبية ، أو الى التعصب للذات أو لرأى معين · فهو خارج عن حدود الرأى للصالح العام · ولذا يجب على المختلفين فى الرأى آنئذ أن يهملوا الجانب النفسى الانفعالى ، ويرجعوا بأمر الخلاف فى الرأس الى الأصل الذى لا يأتيه الباطل والهوى ، ولا الحزبية والتعصب من بين يديه ولا من خلفه ، وهو القرآن الكريم ، والسنة التى تعتبر توضيحا له ·

والآية السابقة اذ تنص على أداء الطاعة لأولى الأمر صراحة ، فانهـا تنص بطريق غير مباشر كذلك على : أن الحرية فى الرأى ضرورة من ضرورات الحياة الانسانية ، وأن مباشرتها ستؤدى حتما الى الخلاف فيه ، وقد تؤدى الى الشد والجذب بسببه بين أصحاب الرأى ، اذا ما اختلفوا فيه بينهم ·

والا : اذا لم تعط هذه الآية وجود حرية الرأى ، كظاهرة ضرورية من ظواهر الحياة الانسانية فى المجتمع ، وفى سياسة الأمة وتوجيهها ، فيم يكون

---

(١) النساء : ٥٩ ·

التنـازع بين المؤمنين كرعيـــة مـن جـانب ، أشـير اليهم فيهـــا بقـوله : « وأطيعوا ••• » ، وأولى الأمر من جانب آخر ذكروا بقوله : وأولى الأمر » ؟•

انه اذا لم تكن للأفراد حرية فى مباشرة الرأى ــ فى نظر الاسلام ــ كانت الطاعة على الأفراد لأولى الأمر على غرار الطـاعة لكتـاب الله ولرسوله • والطاعة لهذين المصدرين مضمونة على الدوام من جانب ، وبعيدة عن اعادة تقييم ما جاء فيها ووزنه من المؤمنين من جانب آخر • وعندئذ تكون حكومة أولى الأمر حكومة معصومة عن الخطأ والهية فى كل وقت ، ويكون الانســان بالتالى كذلك ، اذا تولى أمرا ، أصبحت العصمة خاصة من خواصه •

وليس ذلك هو الاسلام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى تروى عنه أم سلمة فيما تنقل ، قوله :

« انما أنا بشر ،

وانكم تختصمون الى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ،

فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخـذه ، فانمــا أقطع له قطعة من النار » (١) •

••• فيؤكد عليه الصلاة والســـلام : أنه بشر ، يجوز عليـــه الخطأ والصواب ، وانه لذلك غير معصوم • كما يقرر : أن قضاءه وحكمه قد لا يتفق مع واقع الأمر ، لأنه مجتهد فيه • والمجتهد انســـان يصيب ويخطىء • وما يؤكده عليه الصلاة والسلام ، ويقرر هنا أيضا ينفى : أن يكون ولى الأمر حكما صحيحا على الاطلاق • واحتمال حكم ولى الأمر للخطأ يعطى حرية الرأى للمؤمنين ، تصحيحا لما يكون من خطأ وقع فى حكمه •

وأما استمرار الطاعة لولى الأمر ، رغم أنه أخطأ ، مادام يقيم الصلاة فى الأمة ، فانه يرجع الى الحفاظ على وحدة الجماعة وعدم تمزقها ، بسبب اثم أو معصية تقع من ولى الأمر فيها • ودأبه على اقامة الصلاة فى الأمة ، يعبر عن أن خطأه كان خطأ مجتهد • وهو من استنفد امكانيات الاجتهــاد وخصائصه فى الانسان المجتهد للوصول الى الحق فى ذاته ، فجاوزه التوفيق فى الكشف عنه •

---

(١) فى رواية الخمسة : كتاب التاج ج ٣ ، ص ٧١ •

★ والاجتهاد كمبدأ من مبادىء الاسلام له قيمة مزدوجة :

له قيمة فى الملاءمة فى حياة الانسان بين الأحداث والظروف المتجددة من جهة . واخضاع حلها وحرمتها للمبادىء الاسلامية العامة من جهة ثانية · وهذه الملاءمة هى التى تجعل الانسان المؤمن بالله يعيش فى غير قلق نفسى مع التغييرات التى تطرأ فى عالم الانسان ، فى ظل مبادىء الاسلام ، تلك التغييرات التى يحدثها التقدم العلمى ، والتطور الصناعى والتيكنولوجى ·

وله قيمة ثانية فى تمكين الانسان المجتهد من المشاركة بالرأى فى شئون أمته وفى اعداده للولاية العامة ، أو الامامة · وبذلك لا يكون هناك فى الأمة الاسلامية احتكار لتصريف شئون الأمة أو للرأى فيها من مجموعة معينة ، أو أسرة خاصة ·

هذا بالاضافة الى قيمته كتعبير عن حرية الرأى فى المجتمع الاسلامى ، ومنزلة هذه الحرية بدورها فى الاعلان عن كرامة الانسان المؤمن ·

وما تجمع من أحكام فقهية فى تاريخ المجتمع الاسلامى ، وما توزعت اليه من مدارس فقهية عديدة ، تنبىء عن أن الاجتهاد فى الاسلام لم يبق مبدأ نظريا فقط ، وانما أخذ طريقه الى التطبيق ، وأصبح حقيقة ناطقة فى تاريخ المسلمين بشيئين :

أولهما : تجريد الانسان ــ فى الاعتقاد ــ من العظمة منذ رسالة الاسلام، وأن الانسان لم يتغير لذلك فى هذه الخصيصة عن الوضع الذى لحق آدم ، بعد أن ظهر خطؤه فى التجربة التى مر بها فى الجنة · وهى التى لم يقو فيها على دفع اغراء الشهوة والمتعة المادية · والاعتقاد بعصمة الانسان ، اذن ، فى فترة من فترات تاريخ حياته لا يعود لرسالة الله ، بل يرجع الى تخييل الانسان فى تصويره وتصوره ·

واذا كانت ممارسة الاجتهاد هى الأمارة على حيوية المجتمع الاسلامى وتفاعله مع الحياة الانسانية العامة وظروفها المتجددة ، فان التقليد أو التبعية بدورها تشير الى ضعف الأمة أو ركودها · واذا بدت ظاهرة الضعف فى الأمة الاسلامية ، فالأولى سلوك طريق التبعية للمعروفين بحسن ادراكهم وممارستهم الاجتهاد فى تاريخها من الأئمة ، من التعثر فى سبيل الاجتهاد الذى من شأنه أن يسىء الآن لكتاب الله ، والايمان به ، والدعوة اليه ، اكثر من أن يأتى بحسنة واحدة اليها · الى أن تظهر من جديد بعض العناصر الموهوبة والحدبة على دين الله ، وتستطيع أن تفهم الحياة الجارية واحداثها ، كما

تستطيع أن تردها الى كتاب الله · وعندئذ يستأنف مبدأ الاجتهاد حيويته وطريقه فى حياة الأمة الاسلامية ·

فالتوقف عن الاجتهاد فى فترة الضعف لا يلغى كونه مبدأ واجب التطبيق فى كل وقت · واتباع طريق التقليد فى هذه الفترة لا يعنى أن التقليد أصبح مبدأ فى الحياة الاسلامية · اذ أنه لا يكون مبدأ لهذه الحياة أبدا · وانما يلجأ اليه عند الضرورة فحسب · وهى ضرورة الحفاظ على كتاب الله من انتهاك حرمته من الأميين والمارقين عن دين الله ·

ان الاجتهاد ميزة كبرى يتميز بها الاسلام · وضرورته لدين الله واضحة، بعد ختم الرسالة الالهية بمحمد عليه الصلاة والسلام · فترك الانسان مع هذا المبدأ بعد الرسول يعيش فى ظل رسالة الله ، الى أن تنتهى الحياة الدنيا ، فى غير حاجة الى ما وراء ذاته · وهو فى اعلانه عن الحرية الانسانية فى الفهم ووزن الأمور وتدبير شئونه ، لا يقل عن ضرورته للملاءمة فى حياة الانسان المتطورة ·

★ والخلاف بين الفقهاء واتجاهاتهم فى مدارسهم العديدة المشهورة منها ، وغير المشهورة ، يعبر عن مدى حرية الرأى فى الأمة الاسلامية التى مارسها الانسان المؤمن بالله · وخلافهم فى الرأى يرجع الى مغايرة ظروف الحياة والبيئة التى عاش فيها مجتهد ، لظروف البيئة فى مجتمع اسلامى آخر عاش فيه مجتهد آخر ، كمغايرة أحوال مجتمع بغداد لمجتمع « المدينة » أو مجتمع القاهرة بين مجتمعات الأمة الاسلامية · فان جو الثقافة الفكرية ـ بعد تعريب الفكر اليونانى القديم ـ فى بغداد وما ظهر فيه من المنطق الأرسطى أصبح يميل الى استخدام القياس أكثر من الوقوف عند حد التطبيق للمبادىء الاسلامية الذى جرى على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى « يثرب » فى حياة المجتمع الاسلامى الأول · وقد كانت حياة تتسم بالبساطة وفى اطار ضيق · وعن المفارقة بين المجتمعين فى بغداد والمدينة كان تقدير المدرسة الحنفية فى بغداد للرأى والقياس ، أرجح من تقديرها للسنة العملية ، التى وقفت عندها المدرسة المالكية فى المدينة ، دون اعتماد الأخذ بالرأى أو بالقياس · والمجتهد الواحد قد يعدل عن رأى رآه فى بيئة وظروف معينة فى مجتمع ، الى رأى آخر يراه بسبب ظروف مغايرة فى مجتمع آخر · على نحو ما ينسب الى الامام الشافعى من أن له فى بعض المسائل رأيا قديما ، عدل عنه الى رأى جديد فيه ، بعد أن انتقل من مجتمع الى مجتمع آخر من مجتمعات الأمة الاسلامية ·

وبهذا تعدد المدارس الفقهية ـ حسب الخلاف فيما بينها فى الرأى ـ يدل من ناحية على تعدد البيئات واختلاف الظروف فى المجتمعات الاسلامية ، ومن ناحية أخرى على الميل الى الاستقلال فى الرأى ومعارضته التبعية فيه بين أصحاب الاستعداد الى الاجتهاد فى الأمة ٠ ولا يدل بحال على ضعف أو تفكك فى الرباط فيها ٠

★ وسيظل تعدد الاتجاه فى الرأى والخلاف فيه أمارة الحيوية فى الأمة الاسلامية ، وعنوانا على الحرية البناءة فيه طالما يلتزم أصحاب الخلاف فيه بكتاب الله : يستمعون الى تلاوته أو يقرأون فيه ، بدافع الرغبة الى ما يمليه هو عليهم ، وليس بدافع اكراهه على أن ينطق بما هم حريصون على أن ينطق به من رأى مبيت لديهم من قبل ٠ تضاف الى ذلك : الرغبة الصادقة ـ عند محاولة تفهم كتاب الله والملاءمة بين أحداث جدت وظروف تغيرت وبين مبادىء هذا الكتاب وما جاء فى السنة الصحيحة شرحا لها ـ فى تحقيق الصالح العام والحرص على سلامة دين الله من الاستغلال السىء لمصلحة خاصة سياسية أو مادية ٠

ولذا طالبت الآية السابقة المؤمنين عند تنازعهم فى الرأى ـ من أولياء الأمور وغيرهم ـ عرض الأمر على الكتاب والسنة الصحيحة ٠ ومعنى طلبها منهم ذلك هو الحيلولة دون تحكم الأهواء السياسية أو الطائفية أو النزعات الشخصية فى تفهم كلام الله ٠

فاذا تعرض كتاب الله للفهم السياسى الحزبى أو الطائفى ، أو لتحكم النزعات الشخصية ، باسم الاجتهاد وحرية الرأى ، فانه يتعرض فى واقع الأمر للاستغلال السىء ممن ينتسبون اليه باعلان الايمان به ٠ ويكون تعرضه لذلك آنئذ أمارة على تفكك المسلمين ، وعلى نزولهم من مستوى الايمان به وتطبيقه فى حياتهم ، الى مستوى المستغلين والمحترفين به ٠ على نحو ما آل اليه تصرف فريق من أهل الكتاب السابقين على الاسلام فى تحريف كتابهم ٠

وقد تعرض فعلا كتاب الله فى حقب من تاريخ المسلمين الى هذه المحاولات الاستغلالية والانحرافية : تعرض لتأييد وجهة نظر سياسة خاصة ، أو للملاءمة مع فكرة أجنبية دخيلة ، قد تكون مضادة لتوجيه كتاب الله لو ترك وشأنه يملى على المؤمنين به ما يريد ، وليس ما يريدون ٠

فسياسة دمشق على عهد الأمويين لعبت دورا أذل المسلمين ، ونزع منهم عامل المعارضة من أجل الحق وفى سبيل الحق ٠ اذ استهدفت سياسة الأمويين قتل المعارضة للحكم الأموى باسم الدين ٠٠ « باسم عقيدة « الجبر » ٠

ومفادها : أن كلام الله فى قرآنه يوجب الاستسلام للقدر ، ويسلب المؤمن حريته فى العمل وفى الرأى معا · والمؤمن على الحقيقة ـ فى نظر هذه العقيدة ـ هو من يؤمن : بأن الانسان مسير ، وليس بمخير ، وأن الفعل والارادة والخلق فى الكون كله لله ، وما الانسان الا كالريشة المعلقة فى الهواء ، يدفعها الريح الى أى اتجاه يتحرك فيه · وجمعت جميـع الآيات التى تسند : الهـــداية ، والضلال ، والفعل الى الله فى مجال تأييد هذه العقيدة السياسية · وتركت الآيات الأخرى فيه التى تحدد مسئولية الانسان عما يصدر منه : من ايمان ، وكفر ، وعمل ·

وسياسة بغداد على عهد العباسيين دفعت بلعبتها السياسية الى المجال المقابل · وهو مجال الاختيار والمشيئة الانسانية فى الفعل والرأى ، كى تبرر انقلاب العباسيين من أجل سياسة الحكم وتسلم أمر المسلمين باسم الخـلافة الاسلامية ، من يد الأمويين · وفى هذا المجال لم تبق حرية الانسان ومشيئته فى العمل والرأى فى دائرة المسئولية الفردية وفى حـدود المصلحة العـامة للمسلمين ، ودين الله . وكتابه · وانمـا تجاوزته الى المجـــال الأسمى فوق الانسان ، وهو مجال القرآن الكريم · وأبيح للانسان فى عهد العباسيين أن يناقش كتاب الله فى ألفاظه ، وتراكيبه : أهى قديمة ، أم حادثة ؟· كما أبيح له أن ينفذ الى دائرة الألوهية نفسها ويناقش وحدة الذات الالهية : أصفاتها عين ذاتها ، أم غيرها ؟· وهكذا : مما جعل الانسان يتخيل : أنه باستطاعته أن يحدد بعقله المحدود ذات الله ، وكتابه معا !

فعقيدة الجبر لدى الجبريين التى ظهرت فى العصر الأموى ، كعقيـدة الاختيار عند المعتزلة التى شاعت على عهد العباسيين ، وانتزعتا معا من كتاب الله ، وأرغم عليهما ارغاما ، تحت ضغط السياسة والتطلع الى الحكم أو الى الاستمرار فيه · فهما عقيدتان سياسيتان · والعقيدة الاسلامية هى الايمان بالمسئولية الفردية ، وبما يحقق هذه المسئولية من مشيئة انسانية فى حدود العمل الانسانى والطاقة البشرية ، ثم بالتوكل على الله فيما وراء ذلك ·

وهذه العقيدة : لا هى جبر الجبريين ، بسبب ما فيها من التوكل على الله ، ولا هى اختيار الاختياريين من رجال المعتزلة ، بسبب ما فيها من المشيئة الانسانية · هى ليست ظاهرة الاستسلام فى عقيدة الجبر ، كما ليست لها ظاهرة التجاوز والمبالغة فى الحرية فى عقيدة المعتزلة ·

والطابع السياسى لهاتين العقيدتين هو : طابع « الاستسلام » وعـــدم المعارضة عن رضا من دين الله ، عند شيوع عقيدة الجبر ، وطابع التنـــديد

بماضى السياسة السابقة · والدافع الى الاعتقاد بالحرص على كرامة الانسان وتطبيق كتاب الله فى السياسة الجديدة ، عند تفشى عقيدة الاختيار ·

وكما تعرض كتاب الله للضغط السياسى ، تعرض أيضا لضغط النزعات الشخصية أو الطائفية ، أو نزعات قبول الفكر الأجنبى الدخيل · وعن هـذا التعرض زادت المذاهب ، والطوائف ، كما زاد التفكك والانقسام فى الأمة ، واتسعت الهوة بين مذاهبها وطوائفها · وأصبحت الحركة العقلية فى حدودها الضيقة تسير فى اتجاه التنازع والتنابذ ، والتخاصم والتعادى · وانقسـام الكلاميين ، والفلاسفة ، والمتصوفة والفقهـاء فى صفوف أهل السـنة من المسلمين ، وانقسام الشيعة الى طوائفها العديدة ما بين امامية واثنى عشرية وغلاة ، وباطنيين ، وفاطميين ، واسماعيليين ·· الى غير ذلك من المجموعات التى لا عداد لها ، يعبر عن مدى هذا الانقسام ، وعن سعى كل مجمـوعة فى طائفة لتخضع كتاب الله الى ما تراه · وما تراه قد يكون « دخيلا » على الاسلام والقرآن ، وعما تجلى فى التطبيق العملى للاسلام والقرآن ، على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ·

وليس من الانصاف أن يدعى : أن حـرية الرأى التى يقوم عليهـا الاجتهاد ، كمبدأ رئيسى فى الاسلام ، هى المسئولة فى النهاية عن فوضى الطائفية فى الأمة الاسلامية ، وعن السعى الى اخضـاع القـرآن لما ترى ، بدلا من الخضوع اليه فيما يرى هو · فقد كان عهد الأئمة والمجتهدين الأول يصور طابع الريادة الاسلامية السليمة ، والامتثال الى كتاب الله وسنة رسوله فيما رأى هؤلاء الأئمة المجتهدون ، وفيما استنتجوه من أحكام ·

ولكن العامل فى فوضى الطائفية ، وفى تلك الظاهرة الخطيرة ، وهى ظاهرة شد القرآن الى الأهـواء والآراء المصلحية أو الدخيلة ، كـان ضعف الايمان بمبادىء الاسلام ، تحت النزول الى مستوى الاغراء بمتع الدنيـا وجاهها ، والاستجابة لمصـدر الاغراء والمتع ، وقـد تزايدت وكثرت بسبب الفتوحات الاسلامية ·

والانقلاب الأموى فى دمشق كان نقطة التحول فى خط سير الايمان بالله وفى درجته ومستواه ، كما كان بداية الصراع الواضح من أجل السلطة والحكم وجاه الدنيا ، بدلا من التضـحية فى سبيل الله ، والحـرص على قوة الأمة وترابطها ، اللتين يستهدفهما المؤمن بالله ·

والتاريخ الاسلامى فى حاجة الى مراجعة دقيقة لتوضيح منزلة الأحداث السياسية فى التأثير على استخلاص الأحكام فى الفقه الاسلامى ، وعلى تبلور بعض العقائد فى مذاهب المتكلمين ، والقواعد فى سياسة حكم الأمة ، ووظيفة

الولاية العامة · فضلا عن تأثيرها فى وضع الحديث ، ومبادىء بعض العلوم الشرعية كعلم أصول الفقه للسنة والشيعة من المسلمين ·

وعلى أية حال لا يمس الاسلام كدين ، أن يسىء اليه بعض من ينتسبون اليه فى تخريجه · وانما المسلمون بعملهم هذا يسيئون فقط الى أنفسهم كأفراد وأمة ·

★ ★ ★

والحديث هنا عن كفالة حرية الرأى هو من كتاب الله ودينــه ، وليس من تطبيق المسلمين فى عهودهم التى تنازعوا فيها على الرياسة والحكم باسم الدين وعلى حسابه · وكتاب الله باق لم يمس · والذى يجب أن يتغير هو نظر المسلمين اليه ، ثم طلبهم المساعدة من هدايته ، ان أرادوا أن يصــبحوا أمة انسانية تستمتع بخصائص المستوى المهذب · وهو المستوى الذى يدعو الى التقارب ، والتواد ، والتآخى ، وليس الى التخاصم ، والتنازع ، أو التحــكم فى السيطرة لفريق على فريق ، وفى الاستقلال لفريق لحساب فريق آخر ·

★ ★ ★

الباب السادس

الدعوة فى أسلوبها ـ والقائم عليها

- سبيل الدعوة ٠
- القائم بأمر الدعوة ٠

كان الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام : صاحب دعوة الى الحق ، وهو دين الله · وباشر القيام بهذه الدعوة يوم أن كان المؤمنون به وبدين الحق ، أفرادا ضعافا وهو بمكة · وباشرها فى يثرب ، بعد أن أصبح له مجتمع مؤمن قوى من الذين هاجروا معه ، حماية لايمانهم ، من أولئكم الذين ناصروهم وآزروهم فى ايمانهم بالحق من مؤمنى المدينة · وأوحى اليه القرآن : كتاب الله ، وهو بمكة · وتم وحيه بما تنطق به آية المائدة التى نزلت بعرفات فى حجة الوداع : « ·· **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا** » (١) ·

ولم ينهج صلى الله عليه وسلم فى سبل الدعوة الى الحق فى أى وقت ، سوى منهج الحجة الواضحة والحكمة فى الاقناع ، وأمر من ربه سبحانه بعدم الاستجابة الى ايذاء المعارضين له ، والى لغوهم فى القول ، واستكبارهم وعنجهيتهم فى سياق الرفض ، اكتفاء بوضوح الحق فى ذاته ·

فالحق يجب أن يحمل دليله فى نفسه ، أمام العقل الانسانى الذى لا يقع تحت ميل الهوى ، ولا ينجذب الى شد العصبية الفكرية ، وبريق الزعامة القبلية والاقليمية ، وجاه الشرف فى الأسرة أو فى الطبقة ، وعامل التمييز لأى أمر أو جانب ينطوى على مصلحة فردية ·

وابتعد صلى الله عليه وسلم فى مباشرته للدعوة الى الحق عن أن يحقق عن طريقها رغبة أو مصلحة ، أو يتخذ منها سببا للجاه والشرف والرياسة ، أو ينفع بها قريبا : فى نسب ، أو بعيدا فى حسب ·

وعاش عليه السلام للدعوة الى الحق ، وفى ظلها ، وفى تجرد عن الدنيا وزينتها فى تحقيق هدفها ، وفى صبر وتحمل على المكاره ، والشدائد المادية والمعنوية لنجاحها ·

وجنبها الاكراه والرهبة ، والخوف ، ووفر لها المشيئة الخالصة والارادة الحرة لمن يؤمن بها ·

وترك للمؤمن بها : أن يلتزم بمبادئها ، بعد أن اختار الايمان ووصل اليه ، وأن يراقب هو نفسه تطبيق هذه المبادىء فى حياته وحياة المؤمنين معه ، دون من يلزمهم برقابة خارجية : بسيطة ، أو مركبة ·

---

(١) المائدة : ٣ ·

ومن هنا كانت جماعة المؤمنين جماعة تلتزم ، ولا تلزم ، وكانت دولتهم دولة أخلاق ، وليست دولة سوط وعصا وارهاب · وكانت أمتهم أمة انسانية يسود فيها اعتبار الانسان ، وكرامته ، وحريته ···

يسود فيها ما صور الله به الانسان من : « روحية » بعد أن خلقه من المادة ، ليتميز بهـذا الازدواج عن بقية المخلوقات ، ويستحق أن تكون له الخلافة فى الأرض : « **الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين · ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين · ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع ، والأبصار ، والأفئدة ، قليلا ما تشكرون** » (١) ·

كل ذلك من خصائص السبيل الى دعوة الحق ، وخصائص القائم بأمرها وهو الرسول عليه الصلاة والسلام ، يوحى بأن :

دين الحق هو دين الله ، وليس دين انسـان لمصلحة له فى زعامة أو رياسة ، وأنه الدين الذى يحتفظ للانسان فى الايمان به : بالحرية والمشيئة ، والاعتبار الانسانى ، ويترك له أن يكون رقيب نفسه فى تطبيق ما جاء به ·

وأنه الدين الذى يعين الانسـان المؤمن به ، على أن يبقى له مسـتوى الانسان وأن لا ينزل عن مستواه الروحى للتميز به فى تصويره الى مستوى الطبائع المادية ، فيشتهى متع الحياة المادية وحدها ويعيش لها ، ومن أجلها ·

وانه لذلك : الدين الـذى لا يؤقت بزمن ، ولا بمكان ، وانمـا يرتبط بالانسانية أينما وجدت ، وكانت ·

انه للانسـانية ، وليس لعنصر ، أو لكتـلة من البشر ، أو قبيلة ، أو أسرة ·· انه لعالم الانسان · ومن أجل ذلك : يستهدف الوحدة فى العالم الانسانى كله ·

وما جاء فى هذا الباب من توجيه القرآن الكريم ، من خصائص الدعوة الى الحق ، وخصائص القائم بأمرها هو شاهد على أن :

الاسلام هو دين الله ، وأن القرآن كتاب الله ، وأن محمدا رسول الله ، وخاتم الأنبياء والمرسلين الى الناس ، الى أن يبعثوا من هذه الأرض يوم الجزاء الى الدار الآخرة ، ولو كره الكافرون ·

★ ★ ★

---

(١) السجدة : ٧ ـ ٩ ·

الفصل الأول

سبيل الدعوة

١ ـ الاخلاص فى الدعوة للحق وحده :

ان أمارة الاخلاص للدعوة الى الحق ، والى السلوك السوى ، والمستوى الانسانى الكريم ـ هى أن لا يشرك الداعى الى هذا الحق شيئا آخر معه ٠٠ أمارة هذا الاخلاص : أن تكون الدعـوة للحق وحـده ، وفى سبيله خاصة ، لا يجامل على حسابه ، ولا يحترف به ، ولا يبغى بالدعوة اليه نفعا يعود عليه خاصة ٠

لأنه اذ يشرك الداعى مع الحق أمرا آخر معه فى الدعوة ، يكون قد أشرك الشىء وضده ، فما عدا الحق : باطل ، وزيف ٠

واذا اختلط الحق مع الباطل فى دعوة باسم الحق ، التبس الأمر على من توجه اليهم الدعوة ٠ وعندئذ يفسد الوضع كله ٠ فوق ما ينال الداعى من آثار لفساد الوضع ٠ وهى آثار لا تضر الدعوة الى الحق فقط ، بل تضر وتؤذى الداعى باسم الحق ، قبل أن يصل الأذى والضرر الى موضوع الدعوة نفسه٠

ولذا يوجه القرآن الكريم نداءه ، وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام كصاحب دعوة الى الحق ـ ضمن ما يوجهه اليه من نصائح يلتزم بها من أجل انجاح دعوته ـ بأن لا يشرك فى دعوته الى الله الها آخر ، والا كان من المعذبين، وأن لا يجامل أحدا على حسابها والا كان غير جاد فى دعوته الى الحق ٠

« فلا تـدع مع الله الهـا آخر فتـكون من المعـذبين ٠ وانذر عشـيرتك الاقربين » (١) ٠

---

(١) الشعراء : ٢١٣ ، ٢١٤

فالدعوة الى الله وحده ، هى دعوة الى القيم الانسانية خالصة ، تلك القيم التى تستخلص من صفات الله جل شأنه · وهى : قيم العلم ، والحياة ، والخلق ، والابداع ، والغنى فى الذات ، وبالنفس ، والقدرة والطاقة على العمل والفعل ، والرحمة فى موضعها ، والشدة حين يدعو الأمر اليها ، والعون والمساعدة ، والترفع عن الدنايا ، والملك والسيادة على النفس ، وقبل الغير·· وهكذا : ما يؤخذ من بقية صفات المولى عز شأنه · وعبادة الله اذن ليست منعزلة عن وعى هذه الصفات ، وعن محاولة التقرب اليها بتحقيقها فى ذات الانسان العابد ·

وأثر العبادة على الانسان المؤمن بالله ، هو اذن : أن تصبح ذاته ذات علم دقيق ، وذات حياة يحركها ضميرها واحساسها الكامل بالواجب دون حاجة الى دفع من غيرها ، وذات أثر فيما تعمل ، هو أثر الابداع ، وذات غنى ذاتى بالقناعة ، وذات استعداد لمساعدة الغير وعونه ، وذات سمو فى الاعراض عن الدنيا والنقائص والفواحش والمنكرات ، وذات سيادة على الميول التى تسوق الانسان عادة الى مستوى ما دون الانسان ، وذات ملك واقتناء ، يبعد عنها شبح العجز والضعف · وهكذا ·

والشرك بالله معناه اذن : اشراك هذه القيم معها فى الدعوة · ولشراك غيرها ليس قيمة فى نفسه ، وليس كذلك من القيم أصلا · وعندئذ تصبح الدعوة الى القيم المثلة للمستوى الفاضل للانسانية ، متضمنة أيضا أمورا أخرى ، هى دون هذا المستوى الفاضل · وهذا الخلط من شأنه : ألا يمثل هداية ، ولا خطأ مستقيما فى السلوك · وانما بالأحرى يصور اعوجاجا فى حركة السير ·

وهذا الاعوجاج نفسه لا يسبب ألما ، هو ألم الانحراف لمن يدعو باسم الحق ، وانما يكون عنوانا على أن الداعى : اما مشوش فى دعوته ، واما صاحب غرض شخصى ، وهذا ، وذاك لا يعود فى النهاية الا بالضرر على صاحب الدعوة ، وعلى من توجه اليهم هذه الدعوة على السواء ·

كذلك الاخلاص فى الدعوة يتطلب من الداعى أن يوجه دعوته الى الأقربين معه ، وأن يطلب اليهم أن يكونوا قدوة فى تطبيق مبادئها وتحقيق أهدافها والا اذا جامل صاحب الدعوة الى الحق عشيرته ، ومن زمرته فتركهم وشأنهم ولم يسو بينهم وبين غيرهم ، عندئذ يكون الهوى قد دخل هذه الدعوة، وبالتالى يكون قد شاب الحق واختلط به أمر ليس هو حق ولا مثل رفيع ·

وفى الوقت الذى يتطلب فيه الاخلاص الى دعوة الحق عدم اشراك شىء

آخر معه ، وعدم المجاملة على حساب هــذا الحق ، يتطلب كـــذلك أن يكون صاحب الدعوة اليه لين الجانب ، متواضعا فى علاقته مع الذين يشاركونه الايمان بهذا الحق · اذ ذلك دليل آخر ، على : أن الدعـــوة الى الحق فوق الجاه والاعتزاز به ، وفوق السلطة والترفع بها ، وفوق كل ما من شأنه أن يبعث فى النفس العادية شيئا من الترفع والاستعلاء ·

وهنا أمر القرآن كذلك فى هذا الموضوع نفسه ـ عندما وجه هذا الأمر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كصاحب دعوة ـ بالتواضع ، واللين ، فى قوله جل شأنه : « **واخفض جناحك لمن اتبعـك من المؤمنين** » (١) ·

وهنا يمكن أن يقال : ان أمارات الاخلاص للدعوة الى الحق ثلاث :

عدم اشراك أمر آخر مع القيم العليا التى يدعو اليها الداعى ، مما من شأنه أن يكون نقيضا وضدا لهذه القيم ·

وعدم المجاملة على حساب الدعوة ، والانحراف بها فى تمييز فريق على فريق ، واعتبار الدعوة الى الحق دعوة عامة يجب أن يتبعها كل انسان من قريب أو بعيد فى صلته بالداعى ·

وعدم الاستعلاء والترفع من جانب الداعى ازاء من يشاركونه الايمان بدعوته ·

وبالاضافة الى هذه الأمارات أمارة أخرى : هى التجرد عن الغل والحقد تجاه من لا يؤمن بهذه الدعوة ، بعد عرضها عليه ، وتركه وشـــأنه : « **فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون** » (٢) ·

وليس على الداعى عندئذ ، أى عنـــدما يرفض فريق ممن توجه اليهم الدعوة ، موضوعها ومضمونها ، الا أن يعلن فقط تجرده وعدم رضاه على ما يكون من عنادهم ومعارضتهم ، دون أن يتبع ذلك بحقد يضمره أو يتربص بهم ولو بعــد حين ، ويكفيه عندئذ : أن يتــوكل على الله الذى هو عزيز لا ينال ، وفى الوقت نفسه هو رحيم بمن يؤمن به وبكتـــابه : « **وتوكل على العـــزيز الرحيم** » (٣) ·

---

(١) الشعراء : ٢١٥ ·
(٢) الشعراء : ٢١٦ ·
(٣) الشعراء : ٢١٧ ·

فالتوكل على من له العزة ، ومن هو صاحب الرحمة ، كفيل من غير شك، بالمساندة التى يحتاج اليها الداعى الى الحق · وفى الوقت نفسه كفيل كذلك بعدم الحاجة الى غيره ·

وعند ذاك لا يكون هناك سبب لحقد على من يعارض ويكفر بالدعوة ، لأن الحاجة لا تمتد اليه ، سواء لايمانه ان آمن ، أو الى عدم معارضته ان عارض ·

★ ★ ★

٢ ـ عرض الدعوة دون الحمل عليها :

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيدنا محمد بن عبد الله ، جانبان :

الجانب الأول : انه داع الى الهدى ودين الحق ·

والجانب الثانى : انه قائد لمجتمع المؤمنين وامتهم ، وكلا الجانبين جاء بهما القرآن الكريم ·

وفى الجانب الأول وأنه داع الى الحق ، يعرض القرآن الكريم للخصائص والصفات التى يجب أن يتصف بها الرسول كداعية ، وهى صفات وخصائص تبعد الداعية الى الحق والى القيم العليا كل البعد ، عن الاكراه والقسر · واذا استعرضنا القرآن الكريم فى هذا الجانب نجد ضمن ما نستعرض كوصية يجب أن يتبعها الداعى ، أن يعرض دعوته دون الحمل عليها ، طالما هى دعوة الى القيم الانسانية العليا · وفى مقدمة هذه القيم : السلام وعدم الاعتداء ، والبعد عما يجرح الانسان فى حرماته الشخصية والفردية · نقرأ قول الله تعالى : « **انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين · وأن أتلوا القرآن ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين** » (١) ·

··· فالآية الأولى من هاتين الآيتين تشير الى مضمون دعوة الحق وهى الدعوة الى الله وحده الذى له كل شىء فى الوجود ، كما تشير الى أن من يؤمن بذلك يكون فى عداد المسلمين · فالاسلام هو عنوان لدين الله ، منذ أن كانت رسالته الى مجموعة خاصة من الناس ، أو الى الناس كافة · وليس

---

(١) النمل : ٩١ ، ٩٢ ·

الاسلام اذن هو دين الرسول عليه الصلاة والسلام وحـــده ؛ بل هو عنوان اتسم به الاسلام لتأكيد : أنه رسالة الله ٠

والآية الثانية من هاتين الآيتين تعرض للأسلوب الذى يجب أن يتبع ازاء موضوعية الدعوة الى الحق ، فتذكر : أن على الرسول فقط ، أن يتلوا القرآن وآياته على الناس ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فلا شأن للرسول به ، ولكن موقفه ـ عليه السلام ـ عندئذ لا يعــدو أن يكون موقف النــاصح ، وموقف المنذر من تبعات الضلال والانحراف : « **ومن ضل فقل انمــا أنا من المنذرين** » ٠

٠٠٠ وهكذا لم يكن للرسول ، عليه السلام ـ وكذلك شأن كل داع الى القيم العليا والمثل الانسانية ـ من واجب يؤديه ازاء رسالة الله : الا أن يذكر ما جاء فى هذه الرسالة ، دون أن يكره ، أو يلزم أحدا بها ، حتى دون أن يحرج أحدا فى قبولها ، أو عدم قبولها ٠

فطالما كان موضوع الدعوة بعيدا عن التحيز ، وعن الغرض والهوى ، فيكفيه فى اقبال الناس عليه هـــذا البعد عن التحيز والهـــوى والغـــرض الشخصى ، ولا يتفق اطلاقا اذا كان موضوع الـــدعوة هو موضـــوع القيم والمستوى الانسانى الرفيع ، أن يكون هناك اكراه من انسان لآخر على قبوله ٠ لأن الاكراه فى ذاته لا يتفق مع كرامة الانسان ولا مع حريته الفردية ، ولا مع استقلاله فى الرأى ، اذ من القيم الرفيعة التى يجب أن تتحقق فى حياةالانسان عن طريق أية دعوة للاصلاح وللحق : قيمة الحرية الفردية ٠

والاسلام كرسالة من الله الى الناس جميعا ، يحرص كل الحرص على أن يوفر الكرامة الانسانية للفرد ، تلك الكرامة التى تتمثل أول ما تتمثل فى الحرية الفردية ٠ والمؤمنون من أجل ذلك سواء : فى القيمة والاعتبار ، ويسعى بذمتهم أدناهم ٠

واذا كان موضوع الدعوة الى الحق والقيم الانسانية العليـــا ـ وفى مقدمتها الكرامة الانسانية ، والحرية الفردية ـ فالداعى لمثل هـــذه القيم لا يتصور فى حقه مطلقا أن يخرج من اعتبارها ، سواء فى التطبيق العملى فى سلوكه ، أو فى الأسلوب الذى يعرض به دعوته ٠ ومعنى ذلك : أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وكذلك كل داعية للمستوى الانسانى الفاضل ـ لايليق فى شأنه أن يكون مكرها على الدعوة ، ولا ملزما اياها فى أية صورة من صور الالزام والاكراه ٠ نقرأ أيضا قول الله جل شأنه فى سورة أخــرى : « **وبالحق**

انزلناه وبالحق نزل ، وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا ، وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا » (١) ٠

٠٠٠ ففى هاتين الآيتين كذلك نجـد أن القرآن الكريم يؤكـد الأسلوب البعيد عن الاكراه والالزام ، اوضح تأكيد ٠ فاذا عدنا مثلا الى قوله هنا : « **وبالحق انزلناه وبالحق نزل** » نجد أن هذا القول ينطوى فيما ينطوى عليه : أن القرآن ــ وهو موضوع الدعوة الاسلامية ــ ليس بحاجة الى اكـراه فى قبوله ٠ لأن الحق والصدق لازمه ، فى انزاله الى الرسول ، وفى وحيه اليه ، ولازمه كذلك فى موضوعه : « **وبالحق نزل** » ٠

واذا انتقلنا الى قوله : « **وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا** » نجـد القرآن أيضا يؤكد خصيصة الأسلوب الذى تعرض به الدعوة ، وهو الأسلوب البعيد عن الاكراه ، لأنه متى كان الداعى قد حددت وظيفته فى دعوته عن طـريق البشارة لمن يؤمن بالدعوة ، وطريق الانذار لمن يعارضها ويكفر بها ، فليس هناك ما يحمله على الالزام والاكراه لغيره ٠

واذا ذهبنا الى الآية الثانية : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا** » نلمس : الى أى مدى تضيف هذه الآية من توضيح الى ما سبق ، فيما يخص أسلوب الدعوة ، من : الابتعاد عن الاكراه والقسر ٠ اذ نزول القرآن مفرقا ليقرأه الرسول على مهل ، ثم تأكيد انزاله من عند الله ، يجعل لدى الذين يسمعون تلاوته ، وقتا يتدبرون فيه ما جاء به ٠ وطالما ترك للانسان وقت للتدبر والتفكر فى قبول الدعوة أو رفضها ، فصوره الاكراه والالزام عندئذ تكون بعيدة كل البعد فى الحمل على قبول الدعوة ٠

والقرآن بتحديد وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام فى دعوته الى الحق ، والى الهداية والى الطريق المستقيم ، بأنـه : مبشرا ، ومنـذر مـرة أخرى ، مـع ترك موضوع الـدعوة مفتوحا للقبول والاعـراض ، وللايمـان والكفر ، يجعل من القرآن الكريم ومن الدعوة اليه مصدرا لتكريم الانسان ، والمحافظة على حرماته ، وعلى ممارسته لحريته الفردية ، ومن أجل ذلك : كانت دعوة الاسلام دعوة للانسان فى كرامته ، وفى مستوى انسانيته الرفيع ٠

★ ★ ★

---

(١) الاسراء : ١٠٥ ، ١٠٦ ٠

٣ ـ الدعوة الى الحق : ليست سلعة ولا حرفة :

ومما يساعد على رواج الدعوة الى الحق أن يكون أمرها تنفيسا عن الايمان بها ، على معنى : أن يكون أمرها هدفا فى ذاته ، وليست وسيلة يكتسب عن طريقها المال ، أو الجاه ، أو زينة الحياة الدنيا · لأن جعل الدعوة الى الحق حرفة أو مهنة ، أو بمنزلة السلعة التى تباع وتشترى ، يعرضها للمساومة ويخرج بقيمتها عن أن تكون قيمة ذاتية · والذين يقبلون عليها ، عندئذ ـ ان هم أقبلوا عليها ـ يقبلون عليها كذلك للاحتراف بها أو للمزايدة عليها ، والذين يرفضونها عندئذ ايضا ـ ان هم رفضوها ـ يرفضونها ، لأنها لا تنطوى على غنم أو ربح مادى فى نظرهم ، مثل ما تنطوى عليه أية سلعة أخرى من السلع المادية ·

ولذا فكل رسالة أرسل بها رسول من قبل الله صحبها توكيد الرسول لقومه : أنه لا يبغى من وراء رسالته : جزاء ماديا ، أو معنويا على أدائها ، وان كان هناك جزاء أو فائدة ما ، فهى تلك التى تعود من وراء هداية المهتدين بها · يقول القرآن الكريم ، متحدثا عن هذا الوضع قبل رسالة الرسول سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : « **كذبت قوم نوح المرسلين · اذ قال لهم أخوهم نوح الا تتقون · انى لكم رسول أمين · فاتقوا الله وأطيعون · وما أسألكم عليه من أجر ، ان أجرى الا على رب العالمين** » (١) ·

فنوح ـ عليه السلام ـ فيما طلبه من قومه وفيما وجههم اليه ، أكد لقومه : أن دعوته الى الحق والى الهداية لا ينتظر عليها أجرا ولا جزاء منهم ، وجزاؤه فقط من الله وحده ·

وعلى هذا النحو فى التأكيد يوجه القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ يقول له : « **أولئك الذين هدى الله** (وهم الرسل السابقون) **فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجرا ، ان هو الا ذكرى للعالمين** » (٢) (رسالة للناس جميعا) ·

وما يوجهه القرآن الكريم هنا الى الرسول عليه الصلاة والسلام يصور مبدأ عاما فى شأن الرسالة الالهية ، والدعوة لما تنطوى عليه من حق ، وهذا المبدأ العام : هو تخليص الدعوة الى القيم الانسانية ، من كل شائبة من شوائب الاحتراف لزعامة ، أو لجاه دنيوى · وهنا يمكن أن يقال بحق : ان الدعوة

---

(١) الشعراء : ١٠٥ ـ ١٠٩ · (٢) الأنعام : ٩٠ ·

الى الروحية الانسانية ــ وهى الدعوة الى القيم والمثل الانسانية ، منفصلة تماما ومتجردة عن الدنيا وزينتها ، وعلى معنى : أنه لا ينبغى أن يتكسب بها ، أو تتخــذ تجارة للمزايدة عليهــا ٠ وهنا كذلك الأجر المادى على الامــامة فى الصلاة ، أو على موعظة تتلى على الناس ، من شأنه : أن يبعد الدعــوة الى الحق عن أن تكون خالصة له ٠

والمسلمون أيام عهدهم بالقوة والعزة : قوة الايمان ، وعزة الاسلام ، كانوا لا يؤجرون على امامة الصلاة ، ولا على توضيح لدعوة الحق وما أنزل من عند الله ، وكانوا يتعيشون من حرف أخرى ، أبعد ما تكون عن التردد على المسجد أو على مجالس الوعظ ٠ ولكن يسجل القرآن البعد التام عن الاحتراف بالدعوة الى الحق يطلب الى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعلنها واضحة فى قوله : « **قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم ، ان أجرى الا على الله ، وهو على كل شىء شهيد** » (١) ٠

فهو يشهد الله على أنه لم يكن هناك أجر اطلاقا على دعوة الى الحق ٠٠ لم يكن هناك طلب لجزاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من أصحابه الداعين الى الحق ، كما أنه لم يكن هناك جزاء تم بالفعل على هذه الدعــوة اليهم ٠ واذا كانت هناك منفعة ما ترتبت على هذه الدعوة ، فهى تلك المنفعة التى تصيب من آمن بها واهتدى بهديها : « **ما سألتكم من أجر فهو لكم ، ان أجرى الا على الله** » ٠

ومن السهل اذن أن يعــرف السبب الــذى من أجله تكبو الدعــوة الى الحق ، وتتعثر تلك الدعوة الى القيم والمثل ، والمبادىء والنظم العامة ٠٠ من السهل أن يعرف هذا السبب ، لأنه يكمن فى الاحتراف بالدعوة وجعلها وسيلة للتعيش أو للجاه فى الحياة ، لأن الاحتراف بمثل تلك الدعوة ينبىء على الأقل عن البعد عن الايمان بها ، ويعبر فى الوقت نفســه عن النفــاق فى الموقف ازاءها ٠ اذ ما يؤمن به الانسان سينتقل حتما ليشغل فراغا فى قلوب الآخرين، وما لا يؤمن به مهما أجهد نفسه فى التعبير عنه لا يتجاوز شفتى الداعى ولا طرف لسانه ، وهذه حقيقة أولية تؤكدها الدراسات النفسية ، ويؤيدها تجاوب الدعوات المختلفة فى فترات التاريخ ٠ قد يبدو من تكرار الدعوة ومن اعــادة اعلانها : المرة بعد المرة ، أنها أثرت وشغلت فراغا من ايمان من سمعوها أو أقبلوا عليها ٠ ولكن تغيير وضع الداعى كفيل بأن يظهر : أن شأنها كان كشأن دق الطبول ، تقرع الأسماع ولكنها لا تتجاوز الآذان ٠

---

(١) سبأ : ٤٧ ٠

حرى بالدعوة الى الحق ، احتراما للحق ذاته ، وترويجا له أن تبتعد عن التكسب والتعيش ٠

وحرى بالداعين ان هم كانوا مخلصين فى دعوتهم : أن يجعلوها تعبيرا عن ايمان ، وليست وسيلة لكسب عيش أو جاه فى الحياة ٠

★ ★ ★

٤ ـ ابعاد الدعوة الى الحق : عن شبهة الاستغلال :

ولم يطلب الاسلام الى المؤمنين يوما ما أن يقاتلوا خصوم الدعوة الى الحق ، ومعارضيها : بسبب الدعوة ذاتها ، وانما عندما أذن لهم بالقتال كان القتال حماية لهم ، ودفعا لاعتداء أعدائهم من الكافرين برسالته ٠ ومن أجل ذلك حددت مشروعية القتال فى الاسلام بأمرين :

الأمر الأول : أن يقع اعتداء من الخصوم والأعداء على المؤمنين بسبب دينهم ورسالتهم ٠

والأمر الثانى : ان يكون القتال فى سبيل تمكين المؤمنين ، من الاستمرار فى ممارسة دينهم وتطبيق مبادئه فى حياتهم ، فى غير خوف ولا ارهاب ٠

وبسبب تلك الظروف التى تهيىء الاذن للمؤمنين بقتال أعدائهم ، كان سير المؤمنين فى القتال ، صورة من صور الجهاد فى سبيل الله ٠ والجهاد فى سبيل الله اذن هو : طريق لرد الاعتداء على المؤمنين من جانب ، وتأمين أداء رسالتهم فى الحياة من جانب آخر ٠ وهو لذلك ليس سبيلا للقرصنة ، ولا للغزو والتوسع ، ولا للاستغلال وابتزاز الأموال ، ولا للتمكين من سيادة مجموعة على مجموعة من الناس ، ومشروعيته فى رد الاعتداء ٠ وهدفه للتمكين من حرية ممارسة نظام الحياة الذى ارتضاه المؤمنون لأنفسهم ٠

فاذا ابتغى بعض المؤمنين هدفا فرعيا آخر فى الطريق الى القتال لدفع الاعتداء : كالحصول على المال أو متاع من متع هذه الحياة الدنيوية لدى الخصوم والمعارضين ، فان ذلك يعد استغلالا للدعوة الى الحق ، كما يعد تسخيرا للقيم العليا فى طريق مغانم هذه الحياة ٠ وهنا يطلب القرآن الكريم الى المؤمنين : أن يتئدوا فى وقوفهم على معالم الأمور ، قبل اتخاذ أى موقف معين منها ، ان هم رحلوا وخرجوا من ديارهم فى سبيل الله ، مستهدفين رد اعتداء خصومهم ودفع الظلم الذى وقع عليهم : « **يا أيها الذين آمنوا اذا**

ضربتم فى سبيل الله (أى سرتم) **فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام : لست مؤمنا ، تبتغــون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم ، فتبينــوا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا » (١)** ٠

فهذه الآية تطلب من المؤمنين ــ ان هم باشروا السير بعد الخروج من ديارهم فى سبيل الله ــ أن يتبينوا وأن يتئدوا فى بحثهم للأمور وكنفها ، وفى الوقوف منها موقفا معينا حتى لا يقعوا فى أخطاء تخرج بهم عن الغاية الرئيسية فى الجهاد ، وفى سبيل الله ، وهى غاية رد اعتداء الظالمين عليهم : « **يا أيهـــا الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا** » ٠ كما تطلب اليهم أن يقبلوا اسلام من يلقى عليهم السلام من أعدائهم ، ان هم مروا بهم ، ولا يرفضوا اسلامهم بغية الحصول على متاع من أمتعة هذه الحياة الدنيا لديهم : « **ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا** » ٠ ويوضح ــ كى يطيع المؤمنون عن طيب خاطر ونفس ما طلبه القرآن منهم ــ أن عند الله مغانم كثيرة ، هى أفضل مما لدى هؤلاء الأعداء لأنها ليست مغانم مادية ، وانما من بينها اطمئنان النفس ورضــــاء الله ، والاعتـــزاز بالقيام بالواجب ٠٠٠ وما شاكل ذلك مما يسمو فى جوهره عن تلك الأمور المادية ، ويسمى القرآن هذه المعانى التى هى عند الله : « **مغانم** » لتكون أدخل فى معنى العرض مما لدى الخصوم ٠ كما يذكر فى سياق هذا التوضيح : أن المؤمنين اذا لم يحرصوا على أن يكون الجهاد فى سبيل الله خالصا لغايته التى حددها القرآن ، فالمؤمنون عندئذ ، ان أشركوا أمرا آخر فى الهدف ، يكونون على وضع ما كانوا عليه قبل الايمان ٠ وهو وضع أولئـــكم الذين يستهدفون فى حياتهم متع هذه الدنيا وحدها ، بطريق مشروع أو غير مشروع ، من : مال وغيره ٠ واذن لا يكون للايمان بالله ميزة فى سلوكهم ٠ ولكن بما أن الله قــد من عليهم بهذا الايمان يجب أن يعبروا عنه وعن مقتضياته : « **كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم** » ٠ ولكى يؤكد القرآن ما طلبه أولا من المؤمنين فى طريقهم الى الجهاد من : التريث والتؤدة فى كشف الأمور ، والوقوف على معالمهـــا واتخاذ موقف سليم منها ٠٠ تعيد هــذه الآيات مرة أخـــرى ما طلب منهم ، فتقول : « **فتبينوا** » ٠ ومع ذلك تعقب هــذه الآيــات بما طلبتــه من المؤمنين ، على نحو ما طلبت ، بأن الله خبير بعملهم ، فلا يغيب عنه مضمون العمــل ، ولا هدفه ، ولا الباعث عليه والدافع له : « **ان الله كان بما تعملون خبيرا** » ٠

ان الدعوة الى الحق ــ وهى الدعوة الى الاسلام ــ تعنى السلام لفظا ومعنى ٠٠ تعنيه ايمانا واعتقادا ٠٠ تعنيه سلوكا وتهذيبا ٠٠ تعنى البعد عن

---

(١) النساء : ٩٤ ٠

الايذاء والاضرار .. تعنى تجنب القرصنة والارهاب .. تعنى انسانية الانسان والبعد عن الحيوانية .

★ ★ ★

٥ ـ امانة الداعي الى الحق : في عرض مبادىء الدعوة :

قد يتعرض الداعي الى الحق الى محاولات من جانب المعارضين لـه ، لحمله على التغيير فيما يعرضه من مبـادىء ، أو لحمله على اغفال بعض هذه المبادىء فى الحديث عن دعوته عندما يواجههم ، ملوحين له : أنهم بذلك التغيير ، أو بهذا الاغفال ، يكونون أقرب الى دعوته ، والى النظر فيها ، ثم الى قبولها .

ولو أن ما يطلبه المعارضون كان تفسيرا لمجمل ، أو توضيحا لمبهم فى الدعوة الى الحق ، لكان هناك ما يبرر الطلب ، ويدعو الى مزيد فى توضيح الدعوة من جانب الداعى نفسه . ولكن اذا كان طلبهم هو الاغضاء ، أو تغيير ما جاء فى الدعوة مما يخالف عقيدتهم ، ويخالف الفهم المتوراث ، فان الأمر عندئذ من جانبهم لا يعـدو أن يكون محـاولة لاختبـار مدى ايمان الداعى بما يدعو اليه ، ومدى حرصه على تبليغ رسالته ان كانت له رسالة حقيقية .

ومن أجل توقع هذه المحاولة من جانب المعارضين ، فان أهم ما يجب أن يتصف به الداعى الى الحق ، هو الامانة فيما لديه من رسالة تعهد بتبليغها وبنشرها ، لا ينقص ولا يزيد فيها كلمة ، فضلا عن أن يغض الطرف عن مبدأ فيها لم يبلغه ، أو عن أن يستبدله حتى يصبح نشازا فيها . واذن امانة الداعى الى الحق ، لا تمر من غير اختبار وامتحان لها . وهو فى ذاته اختبار صعب لا يجتازه الا ذلك الذى عهدت عليه الامانة فى أطـوار حياته ، وصـارت هى طبعا له .

والقرآن فيما يوجه به الرسـول صـلى الله عليه وسلم فى هـذا المجال بقوله : « **واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غيـر هــذا ، أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، ان أتبع الا ما يوحى الى ، انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم** » (١) .

---

(١) يونس : ١٥ .

والقرآن فيما يوجهه هنا الى رسوله الكريم ـ ساعة أن تتعرض أمانته فى الدعوة الى الحق وتبليغه ، الى الاختبار ـ بأن يكون رده على القائمين بحمله على التغيير فيها . هو قوله : « **ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، ان اتبـع الا ما يوحى الى ، انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم** » ·· يوجهه بذلك ليبقى محتفظا بالأمانة كاملة فى شأن دعوته الى الحق ، طوال قيامه بها · اذ هذا الرد الصريح هو فاصـل الأمر ، لا يترك وراءه لبسا فى رفض الاستجابة الى تلك المحاولة ، والى مجاراة أهواء المباشرين لها ·

فالذين لا يرجون لقاء الله ، وهم الذين يذكرهم القرآن فى آية سـابقة بقوله : « **ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحيـاة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون · أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون** » (١) ·· هم هؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ، ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ·لأنهم متشبثون بمتع هذه الحياة وتحصيلها · فاذا وجهوا لعبادة الله وحده ، وتليت عليهم الآيات التى تنكر عليهم عبادة الأوثان ، حرصا على كرامتهم الانسانية وعلى عدم تعرضهم للمذلة فى عبادتهم لسواهم من بشر ، أو دون البشر ، طلبوا ـ ولو بلسان الحال ـ عـدم اسماع ذلك ، ورغبوا فى الانتقال بهم الى شأن آخر ، أو الى تبديله بأمر يصادف هواهم ·

فاذا كلف القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول فى مواجهة هذه المحاولة : « **ان اتبع الا ما يوحى الى** » ·· فلكى يقطع خط الرجعة دون هـذه المحاولة من جانب ، ولكى يؤكـد من جانب آخر : أن « الحق » لا يقبـل التغيير والتبديل بحال ، وأن الداعى اليه لا يملك رأيا مستقلا بجانبه ، وانمـا هو ملتزم باتباعه : فى مضمونه ، وفى التعبير عنه على السواء : « **قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى** » ·

وهنا يمكن أن يقال : ان الحق فى مبادئه هو كل ، لا يقبل التجزئة ، ولا التراخى فى الاعـلان عنه · جميع مبادئه تنبثق عن الايمان بوحـدة الله ، الذى لا شريك له ·

والايمـان بوحدة الله قضـية لا يختلف التعبير عنهـا منـذ بدء الدعوة الى الحق ولم يكن لعرضها مراحل يتنوع التصريح بها ، والاعـلان عنها فى مرحلة دون مرحلة أخرى · **لم تكن الدعوة الى وحدة الألوهية على فترات** ، وان كان الجهر بها تأخر بعض الوقت عن البـدء فى التوجيه اليهـا · اذ هذا

---

(١) يونس : ٧ ـ ٨ ·

أسلوب يتبع جو البيئة ، والظروف التى تدعو أو لا تدعو الى الاعلان عنها فى جهر وتحد · ولكن : « لا اله الا الله » كان وما زال ، ولم يزل كذلك منذ تكليف الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بالدعوة الى الاسلام وهو دين الله منذ أن جاءت به رسالة رسول سابق ·

ان : « لا اله الا الله » كان النقطة الفاصلة فى تصحيح وضع الرسالة السماوية · لذا : لا يقبل المساومة ، ولا التلبيس ، ولا الخداع للاغراء على قبوله · لأن الذى يؤمن بـ « لا اله الا الله » يؤمن فى الوقت نفسه بالتحدى والمواجهة العنيفة التى سيفرضها أصحاب المصلحة فى المعارضة · وهم أولئكم الذين سيحملهم هذا المبدأ على تغيير موقفهم ونظرتهم الى الحياة ، وتقديرها تقديرا لا ينبعث عن شهوة جامحة ، ولا عن رغبة منحرفة · وانما ينبعث أصلا من الاحتفاظ بكرامة الانسان · وكرامة الانسان قبل كل شىء فى : عدم قبول المذلة من أجل المتعة ، أو الشهوة ، أو من أجل الحصول على جاه متخيل وعارض ، لا يلبث أن يزول ، وتتعرى منه الذات ، وتعود الى ما لها من قيم لاتفارقها · ويقدر أن الايمان بـ : « لا اله الا الله » يحفظ على الانسان كرامته ، اذا بالشرك بعبادة الله غيره : من مال ، أو جاه ، أو انسان ، أو ما دون ذلك ، يجعل من الانسان ذاتا تتجه حسب مصلحتها الشخصية ، لا تعرف الوفاء ، ولا المبدأ ، ولا القيم العليا الرفيعة · وانما تعرف المنفعة ، والمنفعة وحدها ، ولو كانت : الانتهازية ، والوصولية الى طريقها ·

ان الاصرار على الحق والصراحة فى الدعوة اليه : تعبير عن الأمانة فيه ، وان كشفه على ما هو عليه فى كل وقت : دليل على الوفاء بهذه الامانة ، وهو فى الوقت نفسه : السبيل الى قوة الداعى ، والى الاستمرار فى الايمان بدعوته ، وبقوة التحدى عندما تلقى معارضة ·

★ ★ ★

٦ ــ نقد الحق من خصومه : لا يستوجب قتالهم :

ومن أمارة الاخلاص فى الدعوة الى الحق ، ومن أمارة صدق الحق ذاته ، أن يتسع قلب الواعظ اليه ، للنقد الذى يوجه نحوه ، وأن يحتمل الحق نفسه نقد خصومه له ، كما يحتمل معارضتهم اياه ، حتى واستهزاءهم به · اذ صاحب الدعوة الى الحق الذى يضيق ذرعا بالخصوم ، وكذلك الحق الذى لا ينتظر النقد من أعدائه بل ومعارضته والكفر به ، كل منهما يفقد الصلاحية لكونه داعيا ، أو لكونه حقا ·

فالداعى الذى يضيق ذرعا بخصوم دعوته لا يمكنه أن يستمر فى تلك الدعوة ٠ اذ سيزعجه تكرار النقد والمعارضة لما يدعو اليه ٠ وعلى مر الايام لا يحتمل النقد والمعارضة ، ويرغب فى أن يسلك مسلك الاكراه والالـزام ٠ وذلك ليس شأن الداعية الى الحق ٠

وأما الحق الذى لا يحتمل معارضة المعارضين له ، فعدم احتماله لهذه المعارضة ينبىء عن أن بعض جوانبه لا يصور ذاتية الحق ٠ وعندئذ يكون مشوبا بشىء من عدم الصدق والحقيقة ٠وذلك أمر يختلف عن طبيعة الحق وجوهره ٠

واذا وجب على الداعى الى الحق أن يحتمل خصومه ، ووجب على الحق نفسه أيضا أن ينتظر معارضته ، فموقف الداعى عندئذ لا يكون اللجاج فى الخصومة ، فضلا عن الاشتباك فى المقاتلة ٠ وانما يتمثل فى الاعـراض عمن يناوئون الحق ويعارضون الدعوة اليه ، وفى تجنب الاختلاط بهم : فى مجلس . أو فى حديث : « **واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ٠ وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون** » (١) ٠

فالقرآن يطلب الى الرسـول صـلى الله عليه وسـلم أن يتجنب مجلس أولئكم الذين ينتقدون دعوته ، ويعارضون الحق الذى جاء به ٠ ولم يطلب اليه أن يقاطع مجالسهم دوما ، فضلا عن أن يبيح له قتالهم ٠ بل ربط تجنبه لمجلسهم بانتقالهم الى موضوع آخر ، غير موضوع دعوته ٠ ولذلك لم يعتبر : أنه يرتكب ذنبا أو جـريمة ، اذا لم يغادر مجلسهم فورا لنسيان ألم به ، وكلف فحسب بعدم القعود معهم وبمغادرة مجلسهم ، لحظـة أن يتـذكر : ما طلبـه القرآن منه هنا ٠ ولذلك أيضا لم يجعل على المؤمنين الذين يجالسونهم نصيبا من وزرهم عندما يخوضون فى عقد الدعوة ، او استهجان بعض جوانبها ، ولكن فحسب : يطلب اليهم أن يغادروا مجالسهم ، تعبيرا عن عدم موافقتهم ، وأملا فى أن هؤلاء الناقدين سـيكفون عن نقـدهم عندما يشعرهم المؤمنون الصادقون فى ايمانهم بعدم رضاهم عند مغادرتهم مجلسهم ٠

هذا الموقف ــ وهو عدم الاستمرار فى مجلس الناقدين للحق ، وللدعوة اليه ــ يطلبه القرآن ، لأنه يستحيل عليه أن يحدد موقفا آخر أعنف من هـذا

---

(١) الأنعام : ٦٨ ــ ٦٩ ٠

الموقف ، كموقف الاضطهاد ، والتتبـع ، أو موقف القتال والتربص للناقدين لدعوة الحق ، لأن مثل هذا الموقف ينم عن اكراه ضمنى على قبـول الدعوة ، ان دعا اليها الداعى ، وهو يحمل نية الاضطهاد أو التربص • وهذا الموقف أبعد ما تتضمنه دعـوة الحق ، وتحمل عليه ، كما جاء فى قوله تعـالى : **« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١) •**

فمبدأ التزام الحكمة والاحسان فى الموعظة لا يتفق اطلاقا معه : موقف من الداعى الى هذا الحق يحمل بين طياته القسوة فى اللفظ ، أو القتال فى المواجهة ، والقرآن عندما يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم : مغـادرة مجلس الناقدين لدعوته وقت نقـدهم اياها ، يريد منه فقط : أن يعبر بهـذا الموقف عن عدم رضاه • ثم يترك الباب مفتوحا ، لعل هؤلاء الناقدين يوما ما يعودون الى الايمان بالحق ، بعد أن تتكشف جوانبه • الا اذا كانوا من أولئكم الذين ظلموا أنفسهم برفضهم للدعوة ، وباصرارهم على هذا الرفض لمصلحة تتحقق لهم من وراء هذا الرفض ، كأن يكونوا من أصحاب السـيادة أو الزعامة فى المجتمع السابق على الدعوة • على أساس من تقاليده ، ومن العرف السائد فيه ، ومع ذلك لا يبـاح اطلاقا لصاحب الدعوة ، مع علمـه بظلمهم لأنفسهم باصرارهم على معارضتهم ـ أن يشتد معهم فى الخصـومة ، أو أن يقاتلهم بسبب الدعوة • اذ القتال لم يشرع اطلاقا من أجل الدعوة ، وانما كانت مشروعيته لرد الاعتداء على المسلمين فى حياتهم وفى جماعتهم : **« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلمـوا ، وان الله عـلى نصرهم لقـدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، الا أن يقولوا : ربنا الله ، ولولا دفـع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع ، وبيـع ، وصلوات ، ومساجد يذكر فيهـا اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز • الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » (٢) •**

★ ★ ★

٧ ـ الحسنى فى رد ما يسىء الى الدعوة :

والدعوة الى الحق ، ومقتضى كونها دعوة الى الحق : أنها تحمل عوامل التهذيب الانسانى ، والسـلوك الحسن للانسـان • ومن الواجب اذن : اذا قوبلت الدعوة بالرفض ، أو وجـه الى الداعى اليها من القـول ما يعد نابيا

---

(١) النحـل : ١٢٥ •   (٢) الحج : ٣٩ ـ ٤١ •

ومسيئا اليه ـ يجب أن يكون موقف الداعى عندئذ ، هو : أن يسلك مسلك الاحسان ·· أى مسلك الانسان المهذب ، ويدفع الاساءة فى المعارضة بأسلوب كريم · يقول الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام ، بوصف كونه داعية الى الحق : « **ادفع بالتى هى احسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون** » (١) · فقد أمره فى هذه الآية : ألا يواجه الاساءة بالاساءة فيما يخص الدعوة ومعارضتها ، بينما يطلب منه فى جانب آخر وهو جانب قيادته للأمة المؤمنة بالله ، أن يرد الاعتداء اذ يقول : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**» (٢)· فهذا الجانب الثانى : هو جانب يخص القيادة ، ويخص الأمة المؤمنة فى تماسكها وفى بقائها ، والمحافظة عليها · وذلك من شأنه : ألا يترك أمر الأمة مسرحا وموضوعا للاعتداء والايذاء ·

أما الدعوة فطالما كان هدفها الانسانية ، وطالما كان أسلوبها هو الأسلوب الذى يتجنب الاكراه والالزام ، ويدع الفرصة للتدبر والتفكر فى قبولها أو رفضها فليس من اللائق بعد ذلك : أن تقابل المعارضة المنطوية · على جفاف فى الأسلوب واساءة فى التعبير ، بما يعد فى العرف نابيا فى القول ·

وهكذا : كان رأى الاسلام · فيمن يقومون بشئون الدعوة الى الحق ، تجاه من شأنهم أن يكونوا أكثر من غيرهم لجاجة وجدلا فى الرأى والقول ، وهم أهل الكتاب السابقون على دعوة الرسول · عليه الصلاة والسلام · فالقرآن الكريم يذكر فى قوله مخاطبا الرسول والمؤمنين معه : « **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا منهم** » (٣) ·

فالقرآن هنا كذلك يلتزم فى شأن الدعوة ، ومعارضتها من جانب أهل الكتاب ، مثل ما نصح به رسوله صلى الله عليه وسلم فى الآية السابقة · وما نصحه به هناك ، هو : أن يكون الحوار والجدال وتبادل الرأى بين أهل الكتاب السابقين والداعين من أمة القرآن ، لا يتجاوز الدائرة التى تحدد الدعوة الى الحق ، وهى دائرة التهذيب والحسنى فى القول والتعبير · أما ما يذكره بعد ذلك فى قوله : « **الا الذين ظلموا منهم** » ·· فلا يريد القرآن بهذا الاستثناء : أن يخرج صاحب الدعوة عما يلتزم به من دفع السيئة بالتى هى أحسن ، بسبب أنهم ظلموا أنفسهم بالكفر ، وبالاصرار عليه · وانما يقصد فحسب : أن مثل هؤلاء لا يجادلون أصلا ، ولا يتبادل معهم الرأى فى شأن الحق · لأن اصرارهم على معارضة الحق والكفر به ، مع وضوحه ظاهرا فى تصورهم،

---

(١) المؤمنون : ٩٦ ·
(٢) البقرة : ١٩٤ ·
(٣) العنكبوت : ٤٦ ·

لا يجعلهم اصحــاب صلاحيــة للحوار والجــدل ، ولذا اعقب القران هــذا الاستثنــاء بقوله : « وقولوا : آمنا بالذى انزل الينا ، وانزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون » (١) . فما يعقب به هنا من تحديد موقف الداعين الى الحق : من الذين ظلموا انفسهم بالاصرار على الكفر والمعارضة ــ وهو اى هذا الموقف الذى يتلخص فى أن يعلن الداعون الى الحق ايمانهم بكل ما انزل ومــا أوحى من الله الى رسله جميعا (سواء فيمــا قبل الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أو اليه) وكذلك بموضوع قضية الايمان عامة ، وهو وحدة الألوهية والخضوع لهذا الايمان ، وما يترتب عليه فى تنفيذه فى حياة المؤمن ــ هو السلام ، والاسلام . هذا الموقف المطلوب يدل على المسالمة ، وعلى التزام المسلك المهذب . فليس أكثر تهذيبا من ان يعلن الداعى الى الحق ايمانه المشترك مع أعداء الدعوة ، وليس أكثر بعدا عن الاساءة فى الموقف من أن يعترف الداعى الى الحق بما أنزل على خصمه من ايمان بالله وحده .

وهنا لا يحق لأية داعية الى الحق ــ اذا كان يقصــد الحق لذاته وليس للاحتراف به ــ أن يغلظ فى القول ، فضــلا عن ان يسلك مسلك المعتدى ازاء خصمه ، وازاء معارضيه ، وحتى ازاء من يصر على المعارضة والخصومة فيما يدعو اليه . لأن دفع السيئة بالسيئة فى مقام الدعوة الى الحق ، ينقص من قيمة الحق الذى يدعو اليه ، وينقص ايضا من منزلة صاحب الدعوة الى الحق نفسه .

أما انه ينقص من قيمة الحق ذاته ، فلأن الحق يستحيل عليه أن يكون اساءة ، أو عدوانا ، أو غلظة فى القول والتعبير . وأما أنه ينقص من منزلة صاحب الدعوة الى الحق ، فلأن هذا الداعى اذا سلك مسلك مقابلة الاساءة بالاساءة ، ومقابلة الرفض بالغلظة أو بالعدوان ، فانه نفســه لا يكون قــدوة لما يدعو اليه واذا لم تكن لديه الصلاحية لأن يكون قدوة لمن يدعوه ، فبالأولى لا تلقى دعوته استجابة من غيره ، ويصبح الحق فى ذاته مهيض الجنــاح بأسلوب الدعوة ، وبالداعى على السواء .

★ ★ ★

٨ ــ معــاودة الدعوة لمن يعارضها :

ولا يكتفى صاحب الدعوة الى الحق عندما يعرضها على قوم يرفضونها أن يبتعد عنهم ابتعادا أبديا ، وانما عليه أن يعاودهم المرة بعد المرة ، وبالأخص عندما يحس القلق عندهم من عاقبة أمرهم ومصيرهم . عليه ألا يــدع اليأس

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .

يتسرب الى نفوسهم بسبب رفضهم للدعوة أول الأمر · وذلك بأن يضع الأمل أمامهم من جديد فى غفران الله لهم معارضتهم لدعوة الحق فيما مضى ، لأن طبيعة الحياة الانسانية لا تعرف اليأس وحده ، ولا الأمل وحده · وانما هى طبيعة تقوم على اليأس ، والأمل ، وعلى العسر ، واليسر · أى أنها طبيعة تقوم على الازدواج بين الشىء وضده · ومن اجل ذلك : يطلب القرآن الكريم الى الرسول صلى الله عليه وسلم ـ تمشيا مع هذه الطبيعة المزدوجة ـ أن يعيد على الذين كفروا من قبل بالاسلام : الايمان به من جديد مبشرا اياهم بغفران الله لذنوبهم ، ومنذرا لهم فى الوقت نفسه بسوء عاقبة أمرهم ، ان هم أصروا على الكفر والمعارضة ، بعد ذلك · يقول الله تعالى : « **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** (وهم الذين تمادوا فى الكفر والمعارضة) : **لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم · وأنيبوا الى ربكم ، وأسلموا له ، من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون · واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** » (١) ·

فقد أمر الرسول عليه السلام بتبديد ظلام اليأس · أمام أولئك الذين كفروا من قبل ، وباحياء الأمل : فى الخلاص مما اقترفوه ، واعدا اياهم برحمة الله ، مؤكدا ذلك بقوله تعالى : « **ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم** » · ومعاودة الدعوة للذين كفروا من قبل الى الاسلام مرة أخرى ، دليل على : أن الحق لا يضيق ذرعا بمعارضة دعوته ، والعناد فى هذه المعارضة ، ودليل آخر كذلك : على أن هدفه الانسانية ، وتحقيق مستواها فى أكبر عدد من الناس ، بغض النظر مما يعترض طريقه من عقبات · ولو لم تكن هذه المعاودة لدعوة الحق مع المعارضين اياه ، لكان معناها : أنها تؤثر فريقا من الناس ، وهم الذين آمنوا بها أول الأمر ، على فريق آخر وهم الذين عارضوها وقت أن دعوا اليها ·

والاهتمام بالناس كافة ، والحرص على سلامة المجتمع الانسانى ، وابعاد دوافع القلق والاضطراب فيه ، يستوجب من صاحب الدعوة الى الحق : ألا يقف موقف الخصومة الأبدية ممن عارضها ، أو أصر على معارضتها ، لأنه طالما : أنه ليس هناك يأس أبدى فى الطبيعة البشرية ، فالأمل باق لأن تعم الدعوة أكبر عدد ممكن من الناس ، ولو كان فيهم خصوم سابقون · واذن : فالدعوة الى الحق لا ينبغى لها أن تغلق نفسها ، ولا أن تقف من بعض الناس موقف الخصومة ، كما لا تقف منهم جميعا موقف : الالزام والاكراه ·

---

(١) الزمر : ٥٣ ـ ٥٥ ·

والخصومة التى وقعت فى الأمة الاسلامية بين المؤمنين وأعدائهم لم تكن بسبب رفض الدعوة أو قبـــولها ، بل كانت بسبب الاعتداء ومحــاولة تقويض المجتمع الاسلامى ، وابعــاد الدعوة الى الحق عن أن تبقى لها قــدم ثابتة فى مجتمع البشرية · وهنا اذن يجب أن نفرق بين أمرين : بين طبيعــة الدعوة وما تستلزمه هذه الطبيعة من : مسالمة وحسن فى الأسلوب واحتمال العقبات فى ســبيلها ، والتعــود على الصــبر ، وعدم العناد واللجاجة فى الخصومة ، وبين الدفاع عن الأمة الاسلامية والمجتمع الاسلامى ان وقع عليه اعتداء ، من : وجوب مقاومة الاعتداء وسلوك كل طريق ـ مهما اشتد فى عنفــه ـ الى رده ليؤمن المجتمع على رسالته ـ وهى رسالة السلام ·

★ ★ ★

الفصل الثاني

القائم بأمر الدعوة

١ ـ الداعي الى الحق : ليس فوق مستوى الانسان :

انتساب صاحب الدعوة الى الحق ··· الى الحق نفسه يميزه على غيره ، بأنه : توفرت له من الخصائص والصفاتِ ما يشير الى احتمال نجاحه فى الدعوة أكثر من انسان آخر سواه · وهى صفات تعود الى طاقة : الصبر ، والايمان ، والثبات وعدم التردد ، ولكنه على أية حال باكتسابه هذه الصفات ليس فوق مستوى الانسان ، ولا يطلب منه أو له : أن يكون فوق مستواه ·

لأن وضوح الحق فى ذاته : أن فى مبادئه أو فى أهدافه بالنسبة الى المجتمع الانسانى ، والى الفرد فيه ، هو دليل الاقناع به : « **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** » (١) · ويكفى فى قبوله ممن يتسع اليه : أن يثابر الداعى على دعوته وأن يلتزم نطاقها ·

فاذا طلب داع للمبادىء والقيم العليا اعتبارا لنفسه ، فوق اعتبار الانسان ، ومنزلة فى الاحترام ، والتقدير ، والتقديس ، تقربه من منزلة الله ·· اذا ادعى لنفسه أنه : يملك الكثير مما عند الله ·· يملك الأرزاق ، ويعلم ما يأتى به الغد القريب أو البعيد ، أو ادعى : أنه بانتسابه الى الحق انتقل الى طبيعة فوق طبيعة الانسان ليس فيها ازدواج البدن والروح ، ولا تجمع بين ظلمة المادة ونقاوة العقل وصفائه ، وانما لها نور القدس وحده ·· اذا ادعى ذلك بالقول ، أو بلسان الحال ، فانه لا يغرر فقط بأتباعه وبالدعوة الى القيم العليا والمبادىء ، وانما يغرر كذلك بنفسه ، ويعمل على سقوطه ، قبل أن تسقط دعوته ، وقبل أن تصيب منها المبادىء بأذى انحراف الانسان فى طغيانه وغروره ·

كذلك اذا طلب له ممن يريدون اتباعه وتصديقه : أن تكون له قدرة خارقة فيما يأتى به من تصرفات : لا يرد سائلاِ اذا سأل مالا ، أو علما بالغيب ، أو

---

(١) البقرة : ٢ ·

طلب منه له أيضا : أن يكون مقدسا لا يخطىء فى السلوك ، ولا يباشر فى حياته من زواج ، ونسل وأكل وشرب كما يباشر الانسان ٠٠ اذا طلبوا له ذلك كى يصدقوه ويتبعوا منهجه ، فانهم يطلبون تغيير النوع فى الوجود ، وخروجه على الطبيعة التى هو عليها ٠ وذلك طلب المتعنت الذى يرفض بادىء ذى بدء ــ لمصلحة له خاصة ــ أن يتبع الحق فى ذاته ٠ والأمر عندئذ ليس أمر الداعى ، وما له من طبيعة نوعية ٠ انما هو شأن الدعوة التى ستتأثر مصلحته الخاصة بالايمان بها ٠

والرسول صلى الله عليه وسلم ــ وهو صاحب دعوة الى الحق ــ طلب اليه القرآن الكريم ــ كى يكون واضحا من أول الأمر ــ أن يعلن وأن يؤكد فيما يعلن : أنه عليه السلام بانتسابه الى دعوة الحق التى جاء بها : لا يرتفع الى ما فوق مستوى الانسان ٠ اذ كل ما له هو : أن يتبع فى التبليغ ما يوحى اليه من عند الله ٠ فهو مبلغ فقط ، وأمين فيما يبلغه من الوحى لا يخرج عنه بحال : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم انى ملك ، ان أتبع الا ما يوحى الى » (١) ٠

واذا كانت رسالته ــ عليه السلام ــ هى اتباع ما يوحى اليه فى التبليغ والدعوة له ٠٠ فهو قد تجرد من أى هدف آخر يحمله على الخروج عن رسالته وكل ميزة له آنئذ ، هو : أن يلتزم هذا التجرد الموضوعى ، ولا يتحيز بالدعوة الى عواطفه وميوله ، وسواء أكانت العواطف هى عواطف نحو مجموعة خاصة من الأفراد ، أو كانت الميول هى ميولا الى ما فى الدنيا من زينة أو متع أو جاه ، واذا حرص على هذا التجرد يكون قد تفوق فى مستوى الانسان ، وأصبح ذا شأن عظيم فيه ٠ ولكنه لا يخرج بهذا التفوق عن طبيعة الانسان ٠

وانسياق الداعى الى القيم العليا اذن ، الى ادعاء بأنه يملك ما يشاء ، أو أنه يقبض على ناصية الغد والمستقبل ، أو أنه بتوليه الدعوة ، والانتساب اليها قد علا عن الناس فيما لهم من طبيعة انسانية ٠٠٠ هذا الانسياق ليس دليلا فقط على الغرور ، أو على الانحراف ، بل هو قبل هذا وذاك : دليل على الضعف الذى يتملكه الآن ، وهو ضعف الانسان أمام هواه فى أن يصبح ذا جاه فى الأتباع ، وذا حظوة بينهم ، وهو ضعف الانسان مرة أخرى ، فى أنه : لا يريد الوصول الى ذلك عن طريق تنمية الذات فى المستوى الانسانى ، والبلوغ بها فيه الى ذروته ، عن طريق التجرد الموضوعى ، والاحتمال فى سبيله ، والبقاء فى دائرة ما يؤمن به ،، مهما كانت عوامل الاغراء أو التهديد ،

---

(١) الأنعام : ٥٠ ٠٠

بل يؤثر فى الوصول الى هدفه : ذلك السبيل السهل ، وهو سبيل الوعود والادعاء ، فلعل الغد يأتى بما وعده فان خالف القدر وعده ، وكذب ادعاءه فى غده القريب ، فلتكن هناك نظرة الى غد بعده ··· وهكذا : ولكن نهاية المطاف ، هى خسران الدعوة الى القيم العليا ، وخسران الداعى ، وتبديد الزمن فيما يضر ، ولا ينفع الناس ·

فالانسان انسان يرتفع فى مستوى الانسانية ، وينخفض فى هذا المستوى ذاته · ولكنه لا ينتقل به الى طبيعة أى نوع آخر من أنواع الكائنات فى الوجود · وتطوره اذن : تطور ذاتى ــ أى داخل الذات البشرية ــ وتقديره هو بقدر ما يحصل عليه ، من درجة ، أو درجات فى هذا المستوى الانسانى ·

★ ★ ★

٢ ــ الداعى الى الحق : لا يتاثر بعلاقة أولى القربى فى دعوته :

والدعوة الى الحق ليست فقط : نداء لمبادئه ، ولا حملا على تطبيق هذه المبادىء · وليست هى : توضيحا للمثل والقيم العليا التى يقوم عليها الحق أو يتكون منها · وليست هى : مثابرة ولا صبرا على الاستمرار فى طريقها ، كما أنها ليست تجنبا للاساءات والايذاء الذى قد يمس صاحب الدعوة ، ليست هذا كله فقط · وانما هى : مجاهدة نفسية كذلك لصاحب الدعوة ، وترويض لسلوكه ومواقفه ، كى يستقيم هذا السلوك ، وتستقيم هذه المواقف على منهج الدعوة ومبادئها · على معنى : أن صاحب الدعوة الى الحق ، كما يلتزم جانب التوضيح للدعوة وجوانبها ، يلتزم أيضا بضبط النفس ويحملها على أن تكون قدوة حسنة ومثلا طيبا ، ترى فيه القيم العليا والمبادىء الرفيعة التى تشكل كيان الدعوة الى الحق ·

ومن أجل ذلك كان الوحى بالقرآن الكريم يتتبع سلوك الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويتتبع مواقفه · كما كان يتتبع ميوله وعواطفه الداخلية · ويعلن عما قد يكون مجافيا منها لأسلوب الحق ، أو ما قد يكون متضمنا ميلا انسانيا خاصا لا يصور الحق فى وضوحه وقوته · وفى الوقت الذى كان يتبع فيه الوحى سلوك الرسول عليه الصلاة والسلام ، كصاحب دعوة الى الحق ، ويتتبع مواقفه ، كان يطلب اليه : اعلان ما يؤاخذه الله عليه منها ، كى يطمئن النفوس التى آمنت بالدعوة بعد ذلك ، الى أن : الدعوة هى فى طريقها المرسوم ، وهو طريق الحق وحده· نقرأ فى القرآن الكريم قول الله

تعالى : « **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم** » (١) ٠

فهنا يعلن القرآن الكريم عن عتبه على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلى الذين آمنوا معه ، فى : أنهم بقيت لهم عواطف وميول ، أو بقى لهم أمل ، فى أولئكم الذين اتضح لهم : أنهم من المعارضين للدعوة الى الحق والكافرين بها ؛ كما اتضح لهم كذلك أن عقاب الله حال بهم لذلك لا محالة ٠ ولم يكن هناك من سبب يدفع الرسول عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا معه الى الميل لهم ، مع تبين موقفهم هذا ، سوى : أنهم كانوا أولى قربى ، وكان للرسول عليه السلام له بهم علاقة أسرية ٠ وهذا العتب يدعو من جانبه صاحب الدعوة الى الحق لأن يكون ميله الى الحق أشد وأقوى ، منه الى المعارضين له ، مهما بلغت درجة الصلة من القربى بين المعارضين وصاحب الدعوة الى الحق ٠

اذ أن التزام جانب الحق وحده هو الذى يدعو الى ترويج الدعوة والاقبال عليها ٠ اما الركون واما الميل الى المعارضين ، لأنهم أقوياء ٠٠ أى لأن لهم صلة خاصة بصاحب الدعوة الى الحق ، فهذا من شأنه أن يعوق الحق ودعوته ، ويجعل هذه الدعوة وسيلة وليست غاية ٠ بل قد يشكك فى الايمان بها ، وذلك أخطر ما يكون على الدعوة وأدعى لفشلها ٠ ولذلك يقول الله تعالى فى آية اخرى : « **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو ابناءهم ، أو اخوانهم ، أو عشيرتهم** » (٢) معلنا أنه ; لا يجتمع ايمان على سبيل الحقيقة بالدعوة الى الحق ، مع التودد الى المعارضين والمتحدين لهذه الدعوة ٠٠ مما يدل على أن الريب والشكوك ستأخذ طريقها الى قيمة الحق ، والى قيمة الدعوة ، ان نزل صاحب الدعوة الى مجال الميول والعواطف لذوى القربى وأصحاب الصلة الشخصية ٠ ومن أجل هذا الخطر على الدعوة الى الحق كانت مجاهدة صاحب الدعوة اليه لميوله وعواطفه الانسانية ذات مشقة كبيرة على النفس العادية ، لأن الوقوف بين الالتزام بالحق ــ وهو رسالة لصاحب الدعوة ــ والميل الى الخاصة والمقربين منه ، وهى أمر يكاد يكون طبيعيا فى النفس البشرية ٠٠ لأن الوقوف بين هذين الطرفين ليس بالأمر اليسير الا على من أعطاه الله الحكمة ، وتابع ارشاده اياه الى الخطأ والصواب ، وما ينبغى وما لا ينبغى ، حتى يستقيم أمر الدعوة ويكتب لها النجاح ٠

---

(١) التوبة : ١١٣ ٠ (٢) المجادلة : ٢٢ ٠

والذين يباشرون من بعد الرسل أية دعوة الى الحق والى المبادىء العليا سوف يجدون انفسهم فى حرج كذلك ، ان هم لم يأخذوا ذواتهم بالترويض على سلوك الطريق الى الحق ، والتزامه وحده

★ ★ ★

٣ ـ الوقوف بجانب المخلص للدعوة :

ومن النصائح التى يدعو اليها القرآن الكريم رسول الله ، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه أن يلتزم بها ويحققها فى دعوته كداعية الى الحق : أن يكون فى حياته جنبا الى جنب مع الذين يخلصون فى ايمانهم بدعوة الحق ، لا يفارقهم ، ولا تبعده عنهم رغبة من رغبات هذه الحياة الدنيا ، ولا زينة من زينتها : زينة الجاه ، وزينة السلطة ، وزينة الاعتزاز بعدد الأتباع ·· الى غير ذلك من جوانب هذه الزينة · لا يبتعد عنهم فى اخلاصه وفى محبته وفى مساندته اياهم ، ليخالط قوما آخرين ، يتبعون أهواءهم ، وقد أغلقوا قلوبهم دون الايمان بالله ، وأمرهم فى سلوكهم وتصرفاتهم دليل واضح على هواهم وعلى بعدهم عن رسالة الحق ومبادئه . يقول القرآن الكريم : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا · وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر** » (١) ·

فهذه الآيات ترسم حدود الوقوف بجانب المخلصين للدعوة ، فهى تذكر : أن الوقوف مع هؤلاء المخلصين ، ليس هو التودد اليهم فحسب ، وانما هو قبل كل شىء : احتمال معاشرتهم ، واحتمال ما عساه أن يكون جارحا للاحساس والشعور من جانبهم ، فالتعبير فى الآية بقوله : « **واصبر نفسك** » ·· يفيد : أن على الداعى أن يمارس الاحتمال · وهو لا يمارس الاحتمال الا اذا كان هناك ما قد يؤذى الشعور والاحساس · واذا كان مطلوبا من الداعى أن يتحمل مثل ذلك فى العلاقة بينه وبين من يخلصون لدعوته ، فانه بالأولى يكون متوادا معهم ، ومشاركا اياهم فى سرائهم وضرائهم · ولكن فى الوقت نفسه : حدد القرآن هؤلاء المخلصين فى ايمانهم ، الذين لهم حق على الداعى الى الحق ، فى : تحملهم فى معاشرتهم ·· حددهم : بأنهم أولئك الذين يشغلون حياتهم

---

(١) الكهف : ٢٨ ، ٢٩ ·

بذكر الله ، ويجعلون هدفهم فيها وجه الله وحده · على معنى : أنهم لا يرجون من الدنيا ومن الحياة فيها ، ولا يرجون من الأموال ، والأولاد التى تصور زينتها شيئا ، سوى : تحقيق رسالة الله ، وتحقيق طابع هداية الله فى كل أمر يأتونه ، وفى كل حركة يباشرونها ، وفى كل علاقة يقيمونها مع اخوانهم ·

وفى الوقت الذى تطالب به هذه الآيات الكريمة رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الدعوة بالتحمل مع المخلصين للدعوة ، تفصل ما من شأنه أن يحول دون التركيز على الاقامة فى هذه العلاقة ، أى فى علاقة صاحب الدعوة مع المخلصين فى ايمانهم بها · وقد ذكرت هذه الآيات أمرين : الأمر الأول : زينة الحياة الدنيا وجاهها · اذ شأن ذلك هو اغراء الانسان العادى ، وهو ذلك الذى ليست له رسالة فى الحياة الا ذاته يدور حولها ، ويفكر فى مصلحتها ، ويدافع عنها · أما صاحب الرسالة فهو برسالته ، وبما يجب أن يتحمل فى سبيلها من مشاق ومتاعب قد تصل الى درجة الأذى ، فهو لم يعد انسانا ذا مستوى عادى · وهنا اذ يقول القرآن الكريم فى مواجهة الرسول عليه الصلاة والسلام : « **ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا** » ·· يقول ذلك ، تأكيدا فقط بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى الوقت نفسه يجعله قاعدة ملزمة لكل من يتصدق على الحق ، بعد الرسول عليه الصلاة والسلام · والأمر الثانى : اغراء أصحاب الجاه وأصحاب القوة المادية ، وهم فى واقع أمرهم : قلوبهم غلف عن الايمان بالله ، وأسلوبهم فى الحياة هو أسلوب المتبع لهواه فى انطلاق ، حتى ظهر أمره وكان واضحا : « **ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** » · وهؤلاء كذلك بما لهم من جاه ، وقوة مادية ، من شأنهم : أن يحملوا غيرهم ، وخصوصا اذا كان هؤلاء ضعفاء فى عددهم وفى عدتهم ويميلون الى المساندة · والرسول عليه الصلاة والسلام وان كان شأنه فى صلته بدعوته شأن الذى يلتزم بها ، ويدفع عنه اغراء كل مصدر للاغراء ، ولكن القرآن الكريم يقنن للمجتمع الانسانى أينما كان ، وفى أى وقت وجد ·

ويكفى الداعى الى الحق ــ عندما يدفع عنه زينة الحياة الدنيا وفتنة من كان صاحب جاه وقوة ، وهو ليس على ايمان بالله ــ أن يعلن دائما دعوته الى هذا الحق ، ويقف مجردا دون أن يملأ قلبه بأمل فى فريق ، ودون أن يدع البغض ينفذ الى نفسه بالنسبة الى فريق آخر . بل عليه أن يكون مجردا ، وأن ينادى بما طلبه القرآن منه فى قوله تعالى : « **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » (١) ·

---

(١) الكهف : ٢٩ ·

وبتجرده هذا : يكتسب قوة من اتباعه الى الله ، كما تكتسب دعوته قوة فى انها : فوق الاكراه والالزام ٠

★★★

٤ ـ اولوية المودة من صاحب الدعوة : لمن يسعى الى الايمان :

وصاحب الدعوة الى الحق لم يكن يوما من الأيام الها ، ولا شبيها بالاله٠ انه كان انسانا ولازمته خصائص الانسان : فى عواطفه ، وتصرفاته ، وسلوكه ومن أجل ذلك : قد يخطىء كما يصيب ، وقد يلام تصرفه ، كما قد يثنى عليه ، ومظاهر الحياة الدنيوية ، من : الغنى ، والشرف ، والجاه ، والسلطة لهـا من غير ما شك تأثير على الانسان ـ أى انسان ـ ولو كان هو صاحب الدعوة الى الحق ٠ قد يؤثر عليه بعضها فيقع فى خطأ يتصل بأسلوب الدعوة اتصالا وثيقا ٠ والقرآن الكريم من أجل ذلك ، لا يسجل فقط موضوع الدعوة ومبادىء الرسالة الالهية ، وانما يسجل مع ذلك مواقف صاحب الدعوة عليه السلام مما شابه خطأ الانسان ، لا ليسجل العتب عليه بعد ذلك لذات العتب ، بل بالأحرى ليرشد الدعاة الى الحق بعده عليه الصلاة والسلام الى أن يتجنبوا تلك الهنات ، وهذه السمات من الأخطاء التى قد تلحق بتصرفاتهم يوما ما ٠

كان أشراف قريش عند الرسول عليه الصلاة والسلام ، يدعوهم فى مجلس له الى الحق ، والايمان به ٠ وكان بحكم طبيعته الانسانية يحرص على هدايتهم ، ظنا منه : أنهم اذا آمنوا بدعوته آمن بها كثيرون غيرهم من أتباعهم٠ وهذه سنة انسانية ٠ وأثناء حديثه معهم دخل عليه رجل أعمى ينشده العظة والارشاد والتبصير الى الحق والايمان به ، وكرر نداءه الى الرسول صلى الله عليه وسلم : فى أن يستمع اليه ويجيب طلبه ٠ فكان من جانب الرسول عليه الصلاة والسلام ما يشبه الاعراض عنـه ٠ لأنه كان مستغرقا فى الحديث مع أشراف قريش ، كما كان مستغرقا فى الرغبة النفسية لديه أن يسلم هؤلاء ٠ عندئذ نزلت هذه الآيات القرآنية : « **عبس وتولى ٠ أن جاء الأعمى ٠ وما يدريك لعله يزكى ٠ أو يذكر فتنفعه الذكرى ٠ أما من استغنى ٠ فانت له تصدى ٠ وما عليك الا يزكى ٠ وأما من جـاءك يسعى ٠ وهو يخشى ٠ فانت عنـه تلهى** » (١) ٠

---

(١) عبس : ١ ـ ١٠ ٠

وهذا الأعمى الذى عاتب القرآن فى شأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو (عبد الله بن أم مكتوم) · فالقرآن فى عتبه على الرسول عليه الصلاة والسلام ما يشبه اعراضه عن ابن أم مكتوم ، يعتب عليه : لأنه ظن أن رجلا أعمى ليس معروفا بين العرب ـ كما هو وضع أشراف قريش ـ شأنه فى الاسلام من حيث الأثر لا يرقى الى ذلك الأثر الذى يترتب على اسلام بعض عظماء قريش · فضلا عن أن ميل عظماء قريش الى الاسلام كان ضعيفا ، بسبب أنهم أصحاب زعامة ورياسة فى مجتمعهم ، ويحرصون على بقاء هذه الزعامة والرياسة لهم · على خلاف ذلك الميل الشديد الى الاسلام الذى يتجلى عند عبد الله بن أم مكتوم · فان الايمان بدعوة الحق لاينزل الناس منازل معينة بسبب ما لهم من شرف أو جاه ، وانما بفضل بعضهم على بعض فى قوة الايمان وضعفه ، وفى شدة الاقبال على تطبيق مبادئه ، والتلكؤ فى هذا التطبيق : « **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما · درجات منه ومغفرة ورحمة ، وكان الله غفورا رحيما** » (١) ·

فلم يكن مقياس التفضيل هو السبق الى الأشرفية ، أو فى الحصول على الجاه ، بل فى : المستوى الانسانى والسلوك الحسن ·

ان الايمان بالله لا يتخير الأشراف والوجهاء من الناس ، وانما يتخير أصحاب القلوب وأصحاب الميل الى أن يحقق فى أنفسهم مستوى الانسانية · والاسلام لا يتخير الأغنياء دون الفقراء ، وانما يتخير صاحب الاستعداد الذى يضحى بنفسه وبماله ان وجد له ، فى سبيل القيم العليا وسبيل الله ·

وهنا كان مناط العتب على الرسول عليه الصلاة والسلام فى أنه تأثر فى هذه اللحظة التى دخل فيها عبد الله بن أم مكتوم على أشراف قريش فى مجلسه عليه السلام ·· فى أنه تأثر بما يتأثر به الانسان العادى ، وبما تثيره مظاهر هذه الحياة الدنيا فى نفس الشخص الذى لم يتصد للدعوة الى الحق ·

ولكى ينسجم الحق مع نفسه وينسجم صاحب الدعوة مع موضوعه ، يجب على الداعى ـ بقدر الامكان ـ أن يتجنب المؤثرات والمغريات التى تدعو الى التفرقة فى الاقبال على بعض الناس والصد عن البعض الآخر · ومع

---

(١) النساء : ٩٥ ، ٩٦ ·

ذلك : فرسول الله صلى الله عليه وسلم مع سموه فى تجرده للحق ، هو انسان له العواطف والميول الانسانية ، التى تخرجه حتمـــا عن أن يكون مساويا لله سبحانه وتعالى ، وان كان اكثر الناس قربا اليه ٠

★★★

٥ ـ الداعى الى الحق ينادى بدعوته : عن صاحب الاتجاه المادى فى الحياة :

صاحب الاتجاه المادى ، هو الذى يقع كلية تحت تاثير هـــذه الحيـاة الدنيوية من مال ، وأولاد ، وجاه ٠٠ هو الذى لا يغريه ولا يجذبه فى هـــذه الحياة الا جانب محسوس من جوانبها المشاهدة ، ولا يحفل بقيم ولا بمبادىء انسانية ولا بعلاقات طيبة مع الآخرين معه فى مجتمعه وأمته : الا بقدر ما يدر عليه انتسابه لهذه القيم والمبادىء من مكاسب شخصية ٠

صاحب الاتجاه المادى ، ليس هو الذى يستمتع بمتع هذه الحياة : ياكل من طيباتها ، ويتزين بزينتها فى غير اسراف وفى غير تقتير ٠٠ ليس هو الذى يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا ٠٠ ليس هو ذلك الذى ينظر الى الحياة نظرة فيها اعتدال ، وفيها رغبة فى المشاركة فى العمل على صفاء النفوس والعيش بسلام ٠ انما هو ذلك الذى يمعن فى الاستجابة لفاتن هذه الحياة واغرائها ، دون نظر الى ما يترتب على هـــذه الاستجابة الجامحة من ضرر للآخرين معه ٠

ومثل صاحب هذا الاتجاه ، ليس لديه متسع فى نفسه ، ولا فى قلبه ، ولا فى تفكيره ومنطقه ، لأن يسمع حديثا عن القيم العليا أو يفكر فى دعـوة الى المستوى الانسانى الفاضـل ٠ مثل هـذا الذى يمعن فى الاستجابة للمتع المادية ، تلبية لشهوات نفسه وأنانيته ، مهما عرضت عليه دعوة الحق فى صورة متنوعة ـ فانه بموقفه فى الحياة يجمد عند حـد المحس منها والمرئى فيها ٠ واذن ، عرض الدعوة عليه لا يكون اهانة لمبادئها فقط ، وانما تضييع للزمن ، وللطاقة البشرية بشأنها ٠ ومن هنا يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « **فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيـاة الدنيـا ٠ ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هـو أعلم بمن ضـــل عن سبيله ، وهو اعلم بمن اهتدى** » (١) ٠

---

(١) النجم : ٢٩ ، ٣٠ ٠

فالقرآن الكريم يطلب من الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينأى بدعوته عن صاحب الاتجاه المادى ، بينما يطلب فى آيات أخرى أن يعاود عرضها على الذين قد رفضوها من قبل فى قوله : « **قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم : لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ٠ وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له ، من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون** » (١)٠ يقف القرآن هـذا الموقف من صاحب الاتجاه المـادى ، لأنه لا فائدة ترجى من تكرار عرض الدعوة عليه ، اذ هو لا يدع منفذا من منافذ الاحساس والادراك مفتوحا يمكن أن يصل عن طريقه صوت الحق ، وصوت الداعية اليه ٠ فهـو مثقل بماديات الحياة ، بحيث أصبحت هذه الماديات تحجب كل ما وراءهـا من : قيم ومثل عليا ، تصور المستوى الانسانى المهذب ٠ وهو ذلك المستوى الذى يشارك صاحبه غيره ممن معه الحياة الدنيا وما فيها من متع وأرزاق ٠

وفى آية أخرى يوجه القـرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيضا فى هذا الشأن بقوله : « **وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، وغرتهم الحياة الدنيا** » (٢) ٠ ففى هذا التوجيه الأخير يذكر القرآن الكريم السبب الذى من أجله يجب على صاحب الدعوة الى الحق : أن ينأى بدعوته عن صاحب الاتجاه المادى ٠ هذا السبب هو ما يذكره فى قوله « **الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا** » ٠ فأى انسان يتخذ دينه لعبا ولهوا ، تمكنت منه المادية فى توجيهها وتأثيرها ٠ وكان الاستهزاء بالدين ، أو اتخاذه لعبا ولهوا ، أمارة على تمكن المادية فى نفس من يستهزىء أو يلهو بالدين ٠

واذن فالرسول عليه الصلاة والسلام ـ وكذلك شأن كل داع الى الحق ـ مطالب بتوجيه الدعوة الى الحق لمن يؤمل فيه الاستجابة ولو بعد حين ٠ كما أنه مطالب بمنع عرض دعوته على من لا أمل فيه : فى أن يستجيب للدعوة لقبولها وتطبيق مبادئها ٠ والأمارة واضحة فى تعريف كل من النوعين ٠

ذلك الذى يعرض بادىء الأمر عن قبول الدعوة ، بسبب تمكن عرف منه أو عقيدة فى نفسه ، فهذا يرجى منه : أن يقبل الدعوة ولو بعد فترة ما ٠

وذلك الآخر الذى أعمته الدنيا بمفاتنها ، واغرائها ولا يرى فيها موجودا يقيمه الا ذلك المحسوس ٠٠٠ هذا من شأنه ألا يرجى منه قبول الدعوة يوما ٠

وقد وجه الرسول عليه السلام فى تحديد موقفه من المدعوين لدعوته على هذا النحو كى لا ييأس من دعوته بسبب التأبى من رافض اياها ، لموقفه المادى

---

(١) الزمر : ٥٣ ، ٥٤ ٠ (٢) الأنعام : ٧٠ ٠

الجامح فى الحياة · ولكى لا يعتقد بأن هناك طاقات بشرية قد بددت اذا ما عرض دعوته على قوم آخرين فيهم الأمل فى قبولها ·

★★★

٦ ـ الداعى الى الحق : يصارح المؤمنين بالاخطاء التى تقع :

هناك جانب من جوانب هداية الله فى كتابه ، هو تسجيل القرآن الكريم للأخطاء التى تقع فى أسلوب الدعوة ، والمطالبة باعلانها والكشف عنها ، ليكون الناس على بينة من الأمر · وفى الوقت نفسه ليتجنب الداعون ـ وهم فى طريقهم الى الدعوة ـ الأسباب التى حملت على هذه الأخطاء : سواء وقعت هذه الأخطاء من الرسول عليه السلام كانسان ، أو من المؤمنين معه ·

وهذا الجانب من هداية الله أساسى لتوفير الثقة بين المؤمنين ، وللحيلولة دون التصورات ، والظنون التى من شأنها أن تعوق نمو العلاقات بين بعضهم بعضا · والمجتمع الاسلامى لذلك يعتبر مجتمعا مفتوحا : يعلم جميع أفراده ، بجانب المبادىء ، والسلوك المنطوى عليها فى قوته ، وفى ضعفه على السواء ، نقرأ قول الله تعالى : « **عفا الله عنك : لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟** »·(١) · فنجد : أن هذه الآية فى الوقت الذى تعلن فيه عفو الله عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، تصور موقفه من بعض الذين أعلنوا ايمانهم بدعوته ، عندما استأذنوه فى التخلف والقعود وعدم الخروج للقتال مع المؤمنين الذين خرجوا معه فى بعض الغزوات ·

وينطوى هذا الاعلان عن العفو ، على عتب على موقف الرسول صلى الله عليه وسلم ازاء هؤلاء المستأذنين ـ كما تنطق الآية ـ وهو موقف الاذن لهم بالتخلف عن الذهاب الى ميدان القتال · والأولى كان فى عدم السماح لهم : كى يتبين مدى صدقهم فى ايمانهم ، ومدى نفاقهم فيما أعلنوا عنه من ايمان : « **حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** » · وقد أوضحت الآيات التالية لهذه الآية هذا الموقف السليم فيما يأتى :

« لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر : أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين · انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم ، فهم فى ريبهم يترددون » (٢) ·

---

(١) التوبة : ٤٣ ·
(٢) التوبة : ٤٤ ، ٤٥ ·

فالرسول عليه الصلاة والسلام اذ أذن للذين لا يريدون الخروج للقتال معه ، بالتخلف عن هذا الخروج : أعطاهم فرصة لعدم ظهور أمرهم وكشف نواياهم · وبذلك يمكن لهم : أن يبقوا على اعلان ايمانهم ، مع بقاءهم على انتهازيتهم ، ومحاولة انتفاعهم بالاعلان عن ايمانهم ، دون أن يقدموا أى جهد من أنفسهم ، أو مما يملكون من مال فى سبيل هذا الايمان ، فى وقت تدعو الحاجة الملحة للمشاركة الجدية فى سبيل النصر والاحتفاظ بشخصية مجتمع المؤمنين · وقد كان من شأن هذا الموقف السليم : أن ينقى مجتمع المؤمنين من العناصر الانتهازية ··· أى من أولئكم المنافقين الذين يحاولون بنفاقهم العبث بالمجتمع وبمبادئه · وكلما بكر المجتمع الاسلامى فى تنقية ذاته من هذه العناصر ، كلما كانت قوته أكثر تماسكا ، وكلما كان سيره الى الأمام فى مأمن من الهزات الداخلية ·

وفى موضع آخر نقرأ قول الله تعالى : « **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى ، من بعد ما تبين لهم : انهم أصحاب الجحيم** » (١) · فهنا نرى : هذه الآية تعلن فى صراحة عن عتب القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلى المؤمنين معه على توجههم بالدعاء الى الله فى أن يغفر لذوى قرباهم ، مع أنهم قد ماتوا على الشرك والكفر بالدعوة الى الحق · اذ أن من شأن طلب الغفران لمن تحدى الدعوة ، وكفر بها ، وفارق الحياة الدنيا على هذا الكفر والتحدى : أن يجعل جانب القرابة الأسرية أرجح من جانب الحق فى ذاته · كما أن من شأنه : أن يجعل العواطف الانسانية أكثر مراعاة من المبادىء والقيم العليا ذاتها ·

وهذا ، وذاك : من النماذج التى سجلها القرآن الكريم ورأى فيها مواقف قد تضعف جانب مجتمع المسلمين ، أو تضعف الدعوة نفسها ــ وطلب اعلانها كجزء لا يتجزأ من الوحى الالهى ــ ليكون المؤمنون جميعا فى أول عهدهم وفى أجيالهم المتعاقبة على بينة من الأخطاء التى قد تقع : ان فى شأن من شئون المجتمع الاسلامى ، أو فى أسلوب الدعوة الى الحق · وبهذا البيان يتجنب المؤمنون الاشاعات والأقاويل من وراء الستار ، كما يحرص بعضهم على الثقة بالبعض الآخر · وفى هذا وذاك : سلامة المجتمع ، وقوة بنائه ·

★ ★ ★

---

(١) التوبة : ١١٣ ·

٧ ـ صاحب الدعوة الى الحق : لا يتميز ببعده عن المؤاخذة ان جنح :

والداعى الى الحق لا يتعرض فى سبيل دعوته الى الاهــــانة ، أو الى التحدى أو المعارضة فحسب ، بل قد يتعرض كذلك للاغراء والفتنة بما فى هذه الدنيا ، من : متاع ، وزينة • اذ شأن الدعوة الى الحق ، حمل لمن توجه اليهم ، على : أن يسلكوا طريقا يغاير الطريق السائد فى المجتمع القديم ، ويلتزموا بأهداف قد تخالف تماما أهداف المجتمع السابق • وهذا ، وذاك : يؤثر على الزعامات والرياسات القائمة ، كما يؤثر على الأوضاع الاجتماعية للذين كانت لهم السيادة ، أو بيدهم الحكم والسلطة • وهؤلاء حتمــا سيسلكون طريق الاغراء ، ان لم يفلح مع صاحب الدعوة الى الحق : سبيل الانذار والتهديد ، أو يسلكون معه طريق التحذير والتخويف ، ان لم ينجح معه طريق التأثيــر عليه بالمال ، أو بجاه الرياسة والزعامة عندما يعرض دعوته •

ولهذا يجب أن تتمثل فى أخلاق الداعى الى الحق ، وفى مواقفه : صفة الصبر والتحمل •• أى صفة عدم الاستجابة لما يفتتن به الناس عادة من متاع هذه الحياة ، وعدم الخضوع لما يهدد به من وسائل الارهاب والتخويف •

وعندما يوجه القرآن الكريم الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كصاحب دعوة الى الحق ـ بقوله : « **فاصبر ان وعـد الله حق ولا يستخفنك الـذين لا يوقنون** » (١) •• يريد أن يوضح له العامل الذى يستند اليه فى صبره ، وفى بقائه ثابتا فى طريق الدعوة الى الحق ، وفى منهجها : لا يميل يمنة أو يسرة • وهذا العامل هو : ما يسجله فى قوله : « **ان وعد الله حق** » • فاذا كان وعد الله حقا ـ وهو كذلك ـ فليس هناك سبب يدعو الى القلق ولا الى الاستجابة لتحريك الذين لا يؤمنون بدعوة الحق ، ويترددون أو يرتابون فى أمرها • على أنه من جانب آخر : اذا مالت نفس صاحب الدعوة الى الحق ـ كشأن الطبيعة البشرية فى قوانينها العامة ـ الى الاستجابة الى الفتنة والاغراء ، فالله جل جلاله ، لا يترك صاحب الدعوة ، ويعفيه من المؤاخذة على هذا الميل الجامح لأنه يباشر الدعوة الى الحق ، وانما قانون الوجود والحياة ـ وهو ما يسجله تاريخ البشرية مع الرسالات السماوية وهو من خلق الله كذلك سيناله ، كما نال الآخرين من قبل •

وفى الآيات التالية من كتاب الله يفصل القرآن وضع صاحب الدعوة الى الحق ، عندما تهتز نفسه للفتن والمغريات ، مما يبين أن شأنه كشأن غيــره

---

(١) الروم : ٦٠ •

سواء بسواء : « **وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره ، واذن لاتخذوك خليلا · ولولا أن ثبتناك ، لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ، اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا · وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا · سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا** » (١) ·

فهذه الآيات تنتظم خمسة أمور فى شأن الدعوة ، وفى صلة الداعى الى الحق بالمعارضين له ، وفى صلته كذلك بالله سبحانه وتعالى :

الأمر الأول : أنه ستوجه الى صاحب الدعوة الى الحق من المغريات من: مال ، أو جاه ، ما يثير الانسان العادى ، ويحمله على الجنوح والتحول عن الطريق المستقيم ، بجانب الارهاب والتهديد : « **وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذن لاتخذوك خليلا** » ·

الأمر الثانى : أن صاحب الدعوة الى الحق بصبره وبتحمله ، يمكنه أن يتفادى الجنوح الى الاغراء والاستجابة الى الفتنة : « **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا** » ·

الأمر الثالث : أنه على فرض : أن صاحب الدعوة الى الحق استجاب الى الاغراء والفتنة ، فانه لا ينجو من العقاب فى دنياه وآخرته ، وهو عقاب مضاعف ، لأن منزلته منزلة خاصة ، ومسئوليته مسئولية مزدوجة فى رسالته وفى دعوته : « **اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا** » ·

الأمر الرابع : أن المعارضين للدعوة الى الحق لو حاولوا أن يسيئوا الى صاحب الدعوة وحاملها ، ويشتدوا فى الاساءة اليه باخراجه وبنفيه من بلده ، فان عقاب الله لابد أن ينزل بهم حيث لا تطول اقامتهم بعده الا قليلا من الزمن : « **وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا** » ·

الأمر الخامس : أن هذا الوضع : من عرض مظاهر الفتنة والاغراء ، على صاحب الدعوة الى الحق ، ومن ميل الانسان عادة الى الاستجابة الى الاغراء ، ومن خضوع الذى يجنح للفتنة والاغراء للعقاب والمؤاخذة ، ومن

---

(١) الاسراء : ٧٣ ـ ٧٧ ·

عدم نجاح التآمر على صاحب الدعوة الى الحق ان التزم سبيلها ·· ان هذا الوضع سنة بشرية للمجتمع البشرى لا تقبل التبديل والتحويل ، كسنن الكون سواء بسواء · « **سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا** »

وهنا يوضح القرآن : اذا كانت منزلة الرسول ، أو صاحب الدعوة الى الحق ، منزلة غير عادية لأنه يتميز بصفات التحمل وسعة الصدر ، وعدم الميل الى الخصومة فى شأن الدعوة ، كما يتميز بالتسامح لمن يؤذه أو ينقد دعوته أو يستهزىء بها ، فانه لا يخرج عن مستوى الانسان العادى فى الوقوع تحت طائلة العقاب أو التنديد والملامة ، ان لم يلتزم بمنهج الحق ، وتصرف كما يتصرف الانسان العادى صاحب الميول والرغبات ازاء ميوله ورغباته ·

★ ★ ★

٨ ـ المحن لا تحمل الداعى الى الحق : على أن يستسلم لعدو الله :

ان أقسى ما واجه الاسلام والمسلمين من المحن والشدائد هو ما اشترك فيه الأحزاب الكارهون للاسلام من « حصار » المدينة فى السنة الخامسة من الهجرة فى شوال وذى القعدة لمدة أسبوعين أو أكثر · فقد اتحد الكفار ـ « كفار قريش » ـ وقبيلة غطفان من عرب البادية فى شبه الجزيرة ، ويهود بنى النضير الذين أبعدوا من المدينة ونفوا منها ، بسبب تآمرهم ضد الاسلام من قبل ، ويهود بنى قريظة الذين لم يزالوا بالمدينة وقتذاك ، والمنافقون داخل المجتمع الاسلامى بزعامة عبد الله بن أبى ··· اتحد هؤلاء جميعا على محاولة اسقاط الحق ـ وهو الاسلام ـ عن طريقين

عن طريق الوحشية فى التخريب والقتال ، يقوم بها الأعداء من الخارج·

وعن طريق ترويج الاشاعات السيئة المغرضة التى من شأنها أن تحطم العلاقات الانسانية بين الرجال والنساء فى المجتمع المسلم بالمدينة ، يقوم بها المنافقون المحليون : « **هنالك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديدا** » (١) · اذ لم يعهد المؤمنون فى خصومهم مع أعدائهم ، وفى اشتباكهم فى الغزوات السابقة هذا الجمع الحاشد وهذا التقارب والتكتل فيما بينهم جميعا على اختلاف طوائفهم ونزعاتهم ·

---

(١) الأحزاب : ١١ ·

ولكن نزل التوجيه الالهى فى قول الله تعالى لرسوله الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم : « **يا أيها النبى اتق الله ! ولاتطع الكافرين والمنافقين ، ان الله كان عليما حكيما · واتبـع ما يوحى اليك من ربك ، ان الله كان بمـــا تعملون خبيرا · وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا** » (١) ·· وأمره القرآن هنا بثلاثة أمور :

أن يتقى الله ويخشاه وحده ، ولا يخشى غيـره من أعدائه ، وبالتــالى لا يطيعهم ، ولا يستسلم اليهم ، على صنوفهم المختلفة من كافرين ومنافقين · وأن يتبع فحسب ما يوحى اليه من ربه · وأن يتوكل على الله وحده ، فهــو جل جلاله كفيل بالمعاونة والمساعدة · وهذه الأمور الثلاثة ، هى التى يجب أن يفعلها الداعى الى الحق ـ وكذلك كل مؤمن ـ عندما يواجه شدة ومحنة ، فلا يدع الشدائد تزحزحه عن ايمانه بالله ، وعن رسالة الحق فى ذاته ، ولا يرهب عدوه ، مهما بلغت قوته وتكتلاته ، وأن يستعين بالله وحده ، أى لا يتطلع الى عون ومساعدة من جهة أخرى · فلينشد المساعدات من ذاته ، والله كفيل بأن يثبت تلك الذات بالايمان ، فى وجه الخصوم والأعداء · اذ هؤلاء الخصوم والأعداء اجتمعوا على باطل ، وليسوا على حق · والباطل هوى ، والهـوى مفرق حتما ، ولو بعد حين ·

وهكذا اشتد المؤمنون بايمانهم بالحق ، عندما رأوا الأحزاب تحــاصر المدينة :

« **ولما رأى المؤمنون الأحزاب ، قالوا : هــذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم الا ايمانا** (بالله) **وتسليما** (اليه وحده) » (٢) ولقد كان لهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثباته على الايمان ، وفى مواجهته تكتل الأحزاب ضد الاسلام ـ أسوة حسنة : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** » (٣) · وكانت نتيجة هذا الثبات على الايمان بالله ، وتحدى قوة الأعداء ، وعدم التسليم لهم ، والاستعانة بالله وحده ، والاعتماد على الذات دون الأجنبى عنها هو : ما ذكر الله تعالى بقوله : « **ورد الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيرا** (على حساب الاسلام والمسلمين) ، **وكفى الله المؤمنين القتــال . وكـان الله قويا عزيزا · وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم** (حصونهم) **وقذف فى قلوبهم الرعب : فريقــا تقتلون . وتأسرون فريقــا · وأورثكم :**

---

(١) الأحزاب : ١ ـ ٣ ·
(٢) الأحزاب : ٢٢ ·
(٣) الأحزاب : ٢١ ·

أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وأرضا لم تطاوها ، وكان الله على كل شيء قــديرا » (١) · وهو نصر مبين دون أن يقاتل المؤمنون وان تحملوا المآسى ، واضرار : الجوع ، والقلق النفسى ، من الحصار الذى ضرب حول مجتمعهم فى المدينة ·

وخرج الاسلام والمسلمون من هذه المحنة القاسية أشد ما يكونون ، وخرج مجتمعهم أقوى ما يصل اليه مجتمع فى شبابه وفتوته · وأصبح استعدادهم للمواجهة والتحديات الخارجية أوسع مدى ، وأكثر خبرة · فقد تعلموا من حفر الخنادق حول المدينة التى أشرف عليها سلمان الفارسى بأمر من الرسول عليه السلام : كيف يدبرون المقاومة ، ويتربصون بالعدو فى الوقت نفسه · ولو أنهم اعتمدوا على سند من حلفاء ، أو لو أنهم سمعوا قول بعض المنافقين الذين يصيحون بالتشكيك فى وعد الله : « **واذ يقول المنـــافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا** .» (٢) · أو سمعوا البعض الآخر الذى ينصح بالتراجع والتخلى ، عن المدينة : « **واذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون : ان بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، ان يريدون الا فرارا** » (٣) · لو أنهم أطاعوا غيرهم لكانت الهزيمة لهم ، ولم يتم ما وقع بالفعــل ، بسبب ثباتهم على الايمـان ، واعتمادهم على النفس من : نكوص الأعداء على أعقابهم ، والتخلى نهـائيا عن التحدى ، مع ما أصابهم من عار الهزيمة وفشل التدبير ، ورحيل بقـايا اليهود عن المدينــة ، وهم من بنى قريظــة ، وورث المؤمنين ديارهم وأموالهم وأراضى أخرى ، وهى أراضى خيبر ، لم يروها من قبل ، كانت لهؤلاء اليهود ·

وبذلك صفى المجتمع الاسلامى يوم ذاك عناصر الهزيمة فى الداخل ، وأبعد خطر الاعتداء من الخارج ، وتهيـأت للمؤمنين فرصة الانطــلاق فى حياتهم ، واتسعت الامكانيات لنشر دعوة الحق ·

وبذلك أيضا عاشت الدعوة ، وأصبح لها تاريخ ، ولها أمة ، ولن تموت بعد ذلك أبدا · ·

★ ★ ★

---

(١) الأحزاب : ٢٥ ـ ٢٧ · (٢) الأحزاب : ١٢ ·

(٣) الأحزاب : ١٣ ·

٩ ـ بقاء الدعوة بمبادئها : وليس بشخص الداعي :

ان قيمة الدعوة الى الحق ، هى فى المبادىء التى تمثل هذا الحق ، وان قيمة صاحب الدعوة الى الحق ، هى فى انتسابه الى تلك المبادىء التى تمثله ٠ أى ان قيمة المبادىء قيمة أصيلة وجوهرية ، بينما قيمة الداعى اليها بالتبع لها ، وليست بالأصالة ٠

ومبادىء الحق التى لها القيمة الذاتية باقية وخالدة ، أى انها لا تفنى ولا تزول ، بفناء الداعى اليها وزواله ٠ والداعى ـ وهو انسان ـ ليست لهمعجزة لخلود يتميز بها عن طبيعة الانسان فى مصيره الى الموت بعد الحياة ، وانما تميزه عن أى انسان آخر سواه فى أنه : تتوفر له صفات الداعى من : قوة الايمان ، وقوة الصبر والتحمل ، وحسن القدوة للمبادىء التى يدعو اليها ٠ وخلوده عندئذ : خلود ذكرى ، وحياته بعد موته هى : حياة نموذج ومثل ، وليست حياة بدن : يطلب الأكل والشرب فى استمراره ٠

والذى يؤمن بدعوة الحق يجب أن يؤمن بها لذاتها ، ولذات المبادىء التى تمثلها ٠ والشخص الذى يدعو اليها ، له احترام النفس وتقدير المؤمن بها، بحيث لو انتهى أجله فى هذه الحياة ، بقى ايمان المؤمن بالدعوة وبمبادئها ، دون أن يتأثر بموت الداعى وبمفارقته للحياة ٠ اذ عندئذ يكون الايمان بها خالصا ، غير مشوب بمصلحة ترتبط بشخص الداعى ، وبحركته فى الحياة : **« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ٠ وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين ٠ وكاين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين ٠ وما كان قولهم الا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين » (١)** ٠

فهذه الآيات توضح بعض المبادىء التى ينبغى على المؤمنين أن يلتزموا بها فى مجتمعهم ٠ توضح أن الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم يخضع لطبيعة الحياة البشرية بما يعرض لها من موت وفناء ، كأى رسول آخر سبقه ، وكأى انسان آخر جاء الى هذه الحياة الدنيا ، وأن الموت بيد الله وفى أجل معلوم : **« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل »** ٠ **« وما كان**

---

(١) آل عمران : ١٤٤ ـ ١٤٧ ٠

لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » • واذا كان شانه هـذا الشان فلا ينبغى اطلاقا ان يتغير مجرى الحياة للمؤمنين بعـد موته ، سـواء فى وقت كانوا هم معـه عليه السلام فى قتـال ضـد الأعداء ، أو فى أى وقت آخـر يباشرون فيه نشاطا لصالح الدعوة الى الحق ، أو لصالح الأمة : « **أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم** » •

وتوضح أيضا : أن تغيير مجرى الحياة ــ بعـد وفاة الرسول عليـــه السلام ــ مما من شأنه أن يؤثر ضد مصلحة الدعوة ، أو ضد حماية الأمة •• لا يضر الله شيئا ، ولا يؤثر بالتـالى عن تحقق الجزاء الأوفى لأولئـكم الـذين استمروا منهم فى العمل فى ميدان القتال ، أو فى ميـــدان السلم ، حفظـــا للمصلحة العامة ، التى هى مصلحة الرسالة ووقايتها من أن ينال منها عدو صريح ، أو مستتر • لأن هؤلاء باستمرارهم فى نشاطهم كانوا معبرين عن الشكر لله ، الذى ألهمهم الاستمرار فى العمل والبقاء فى حظيـرة الطـاعة لمبادئه ، وهى تلك المبادىء التى من بينها : أن الحيـــاة والموت من عوارض الانسان فى طبيعته ، فاذا تعرض الانسان للموت ــ ولو كان الرسول عليـه السلام ــ يجب أن لا تهتز دعوته ورسالته بموته ، بالانصراف عن الدفاع عنها ، وحمايتها : « **ومن ينقلب على عقبيـــه فلن يضر الله شيئا ، وســـيجزى الله الشاكرين** » •

كما تذكر : أن تحصيل الدنيا ومتعها ليس الهدف من الرسالة والمحافظة عليها ، وانما الرسالة نفسها هى الهدف من الحياة الدنيا كلها • ولذا : فليس هناك ارتباط بين متع الدنيا فى الحصول عليها من جانب ، والحـرص على المشاركة فى أداء هذه الرسالة من جانب آخر • أما ثواب الآخـرة فمرهون بهذه المشاركة : « **ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخـرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين** » • على أنها تشير كذلك ، الى : أن المتصلين بربهم فى ايمانهم لا تهن عزائمهم ، ولا تضعف نفوسهم ، ولا يستسلمون ابدا فى مواقف الشدة والبأس ، مهما تعـددت هذه المواقف فى حياتهم ، ومهمـا أصابهم من أذى فى سبيل الله : « **وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا • والله يحب الصابرين • وما كان قولهم الا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واسرافنا فى أمـــرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافـــرين** » • كان قولهم ودعاؤهم فى الشدائد : أن يثبت الله أقدامهم فى سبيل الايمان ، وأن ينصرهم على أعدائهم فى سبيل تحقيق الدعوة • ولم يكن دعاؤهم : أن يطيل الله فى حياة الرسول عليه السلام ، ويبقيه بين أيديهم • لأن دعوة الحق أسبق على حياة الرسول ، وأبقى لخير البشرية كلها ، وليس فقط لأولئكم الذين عاشروا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصاحبوه فى مباشرته هذه الدعوة • كما كان

دعاؤهم : أن يغفر الله ذنوبهم فيما مضى ، وانحرافهم عن جادة الطريق فيما سبق لدعوة الحق وقبولها منهم · ولم يكن هذا الدعاء ، هو : أن يعطيهم الله متع الدنيا وزخرفها · لأن عطاء الله فى الدنيا ليس بذى صلة بالايمان ، والكفر : « **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون · ولبيوتهم ابوابا وسررا عليها يتكئون · وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين** » (١) ·

ان فضل الداعى على دعوة الحق ، هو فى الايمان بها ، والعمل على نشرها ، وتحمل الأذى فى طريقها · ولكن فضل الدعوة على الداعى الى الحق ، هو : فى اهتدائه بها ، فى الأصل والأبقى ·

★ ★ ★

١٠ ـ الاستجابة لدعوة الحق : لا تحتاج الى الاذن فى تطبيقها :

وطالما لم تكن الدعوة الى الحق سلعة يتجر بها ، ولا حرفة يتعيش بسببها ، وطالما كان الايمان بها عن : حرية ، وفى غير اكراه وقسر ، فالمؤمن بها لا يحتاج فى مباشرة مبادئها وتنفيذ تعاليم الرسالة التى جاءت بها الى اذن من صاحب الدعوة · فتنفيذها عندئذ : ما هو الا التعبير العملى عن الايمان بها ، والفصل بين الايمان والاسلام فى تاريخ الفكر الاسلامى هو فصل مصطنع ، أو هو اقرب الى المفاهيم اللغوية منه الى طبيعة الايمان ومستلزماته · فاذا عرف الايمان مثلا فى تاريخ هذا الفكر بأنه : التصديق بما جاء به الرسول عليه السلام ، وعرف الاسلام ايضا بأنه : الممارسة العملية لمبادىء الايمان ـ فان تعريف هذا ، وذاك لا يخرجهما اطلاقا عن التلازم فى قبول ايمان المؤمن ، وصحته ، وصدق الاسلام وبعده عن النفاق والرياء · واذن : فان من الأمارات الموضحة لصحة الايمان ممن آمن ، هو أن يباشر المؤمن نتائج الايمان دون الحاجة الى الاذن فى مباشرتها من الداعى الى الحق · وفى هذا يقول القرآن الكريم : « **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر : أن يجاهدوا بأموالهم ، وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين · انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم ، فهم فى ريبهم يترددون** » (٢) · فهنا الجهاد فى سبيل الله بالأموال ، والأنفس احدى

---

(١) الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥ ·   (٢) التوبة : ٤٤ ـ ٤٥ ·

نتائج الايمان بالله ، وان كان اكثرها مشقة على النفس . وادعاها الى ابعاد التردد والريب ، والشكوك عن الايمان ·

فالمؤمن حقا : يقوم بالتضحية بالنفس والمال ، دون أن يستأذن فى مباشرتها ، لأن الاستئذان من جهة : إمارة النفاق ، ومن جهة اخرى : علامة التردد والشك ، وبعبارة أخرى هو : أمارة الاحتراف بالإيمان ، قبل الركون له والاطمئنان اليه : «**انما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم . فهم فى ريبهم يترددون** » · **والذين يستأذنون عادة فى مباشرة مستلزمات الايمان هم أشد خطرا على الدعوة الى الحق ، وعلى قضية** الايمان ذاته ، **من أولئك الذين يعارضون الدعوة صراحة ويقفون فى طريقها جهرا ·· هم أشد خطرا ؛ لأنهم فى الازمات والشدائد يتحايلون على النجاة : بأنفسهم ، وأموالهم ، ويتركون الايمان والدعوة اليه دون مساندة ، ان كانت** فى أمس الحاجة الى المساندة ، وهم فى الوقت نفسه فى أوقات رخاء الدعوة : أسبق الناس الى الحصول على مغانمها وارباحها المادية أو الأدبية · وفى كلتا الحالتين يعملون من أجل أنفسهم ، ويستخدمون الدعوة والايمان بها وسيلة ، وليست غاية · ولذا يجب على صاحب الدعوة الى الحق أن يحذر مثل هؤلاء ويتخذ منهم الحيطة ، اكثر مما يتخذها من أولئك الكافرين الصرحاء فى كفرهم ومعارضتهم ·

والدعوة الى الحق ليست دائما دعوة الرسول لرسالة الله التى كلف بتبليغها للناس ، ولكنها قد تكون دعوة لمبادئها من غير صاحب الرسالة ، وفى غير عهدها ، وزمنها · فكل ما يفيد البشرية ويرفع مستوى الانسانية ، ويحول دون الخصومة والتطاحن ، ويدعو الى الاستقرار والسلام ، هو دعوة لمبادىء هذه الرسالة والى الحق ذاته · ولا يختلف صدق الايمان بها فى تعرفه وتميزه ، عن النفاق فى شأنها ، عن ذلك القانون الذى قننته تلك الآيات السابقة ، وخلاصته : أن الاستئذان فى تطبيق المبادىء والنظم التى تدعو الى المستوى الانسانى الفاضل ، أمارة على ضعف الايمان والتردد فيه ، وقد يكون أمارة على النفاق والرياء ·

نعم ان الحق لا يسير على قدميه ، دون دفع له ، والعدل لا يتحقق بدون منفذ اياه · ولكن اذا كان الدافع للحق والمنفذ للعدل محترفا بأى منهما أو منافقا فى شأنهما ، فالذى يقع ليس هو الحق ، وليس هو العدل ، وانما هو شبيه الحق ، وشبيه العدل · والذى يدفع الحق ، أو ينفذ العدل يجب أن يكون مؤمنا بهما ، وأن يكون تطبيقه لأى منهما تعبيرا عن هذا الايمان ، وترجمة صحيحة لقوة تصديقه بهما · وقياسا على الاستئذان فى ممارسة الايمان وتطبيق ما يؤمن به المؤمن ، فى : أن الاستئذان أمارة التردد ،

والريب والشكوك أمارة النفاق ۰ وقياسا على ذلك : أن كل منتسب لمجموعة من القيم والمبادىء يستأذن فى تطبيقها وممارستها ، حتما يساور ما يدعيه : من ايمان ، شىء آخر ليس هو الايمان ۰ قد يكون الاحتراف ، وقد يكون النفاق ، وقد يكون الرياء ۰

★ ★ ★

١١ ــ الدعوة الى الحق حضارية فى طريقها : وانسانية فى مبادئها :

والآن فان التوجيهات التى وجه بها القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوته الى الحق ، تجعل من طريق الدعوة ظاهرة حضارية ، تنم عن التقدم فى مستوى الانسانية الفاضل الى ذروته ۰ فهذه التوجيهات عندما نستخلصها من آيات القرآن الكريم التى جاءت فى شأن الدعوة ۰۰ جاءت فيما يجب أن يتبع ازاءها ــ نجدها تبرز فى خطوط واضحة : تحدد هذا التقدم فى المستوى الانسانى الكريم ۰ نجد من بينها : أن سبيل الدعوة ، هو سبيل الحكمة والمنطق ، وسبيل الانسانية الخالصة فى عدم الاكراه والالزام ، وفى توفير الحرية الفردية لقبولها أو رفضها : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين** » (١) ۰ كما نجد من بينها : أن الدعوة الى الحق لا ينبغى أن تكون سلعة ولا حرفة : « **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، ان أجرى الا على الله ، وهو على كل شىء شهيد** » (٢) ۰ « **أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجرا ، ان هو الا ذكرى للعالمين** » (٣) ۰ ونجد أيضا : أن نقد الحق من خصومه لا يستوجب قتال هؤلاء الخصوم : « **وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل ۰ لكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون ۰ واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره** » (٤) ۰ ونجد كذلك : أن صاحب الدعوة الى الحق لا ينجو من العقاب ، ان هو جنح فى سبيلها : « **وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره ، واذن لاتخذوك خليلا ۰ ولولا أن ثبتناك ، لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ۰ اذن لأذقناك ضعف الحياة ، وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا ۰ وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا ۰ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا** » (٥) ۰ ثم نجد كذلك أيضا : وجوب ابعاد

---

(١) النحل : ١٢٥ ۰
(٢) سبأ : ٤٧ ۰
(٣) الانعام : ٩٠ ۰
(٤) الانعام : ٦٦ ــ ٦٨ ۰
(٥) الاسراء : ٧٣ ــ ٧٧ ۰

الدعوة من شبهة الاستغلال : « **يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام : لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم فتبينوا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا** » (١) ٠ ثم مع هذا كله : نجد أن الداعى الى الحق يجب أن يعلن خطأه فى أسلوب الدعوة ان أخطأ على رؤوس الاشهاد : « **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم** » (٢) ٠

فاذا توفرت ظروف الحرية الشخصية فى قبول الدعوة أو رفضها ، واذا لم تجعل الدعوة سلعة ولا حرفة ولا مهنة ، واذا أبعدت عنها : شبهة الاستغلال فى وقت يمنع فيه الداعى من قتال خصوم الدعوة بسبب رفضهم اياها ، وفى أنه لا يرتفع فوق العقاب ، ان هو أخطأ فى سبيلها ٠٠ وفى وقت آخر يلزم فيه بعرض الاخطاء التى ترتكب فى سبيلها علانية وصراحة ٠ اذا كان وضع الدعوة على هذا النحو ، فمن غير شك : يعتبر طريقها أوضح ظاهرة للحضارة الانسانية ، بجانب ما تتضمنه من مبادىء ، هى لتحقيق المستوى الفاضل للانسانية ٠

★ ★ ★

---

(١) النساء : ٩٤ ٠ (٢) التوبة : ١١٣ ٠

محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحــة

الباب الرابع ـ فى أخلاق الفرد وسياسة الحكم
(٢٣٣ ـ ٣٩١)

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحـة

الموضـــوع	الصفحـة

الموضـــوع	الصفحة

الباب الخامس ـ فى الدولة : فى طابعها ، واصول الحكم فيها
(٣٩٣ ـ ٤٤٩)

الباب السادس ـ الدعوة فى أسلوبها ـ والقائم عليها
(٤٥١ ـ ٤٧٣)

الموضــــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٦٤
الترقيم الدولى ٩ ـ ٩٩ ـ ٢٢٦ ـ ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هــذا الكتــاب

- **هل الاســلام** منهج فقط لســلوك الفــرد ٠٠ وطريق الى عبــادة الله ، فى عزلة عن المشاركين له فى المجتمع ٠٠ ؟

أم أن الاسلام بعبادته : تدريب للفرد ٠٠ وتهذيب له ٠٠ وتخفيف من أنانيته ، ليتعاطف مع غيره ، ويتماسك معه فى بناء واحد ، هو بناء المجتمع ٠٠ ؟

- **هل الاســلام** يبعــد المسلم عن الحياة الاقتصادية ٠٠ وينفره من الدنيا ، ليجعــله فى عزلة عن المال ، وتملكه ، وانمــائه ٠٠ ؟

أم يريد له فحسب : أن يجنبه الطغيان بالمال ٠٠ وأن يحتفظ له بسيادته ـ كانسان ـ عليــه ٠٠ ؟

- **هل الاســلام** يطالب المسلم : بأن يشرك « قيصرا » مع « الله » فى التدبير :

فيترك ما لقيصر : لقيصر ٠٠ وما لله : لله ٠٠ ؟

أم أن الاسلام يطلب من المسلم أن يهتدى بكتاب الله فى جميع ما يحيط به مــن شئون ٠٠ وما يواجهــه من مشاكل ٠٠ ؟

- **هل الاســلام** يعرف الحكومة الالهية ، وهى المعصــومة عن الخطأ فى حكمها ، ان أخذت بالقرآن ٠٠ ؟

أم أنه لا يعرف الا الحكومة البشرية التى تخطىء وتصيب ، عندما تطبق كتــاب الله ٠٠ ؟ ولها نصيب المجتهــد : عنــدما تخطىء لها أجر ٠٠ وعندما تصيب لهــا أجــران ٠٠ ؟

- **هل الدعــوة** الى الحق فى نظر الاسلام : تبعد الداعى اليه عن الحكم والسياسة ٠٠ ؟

أم أن الداعى الى الحق : **هو الحــاكم ـ بقدوته ـ قبل مقالته ٠٠ ؟** كما كان الرسول عليه السلام ٠٠

- **هل القــرآن** يعرف أنواعا من الحكم ٠٠ ؟

أم أنه لا يعرف الا الحكم بكتاب الله ٠٠ وما عداه يراه حكم الجاهلية ، أو الهوى ٠٠ ؟

★ ★ ★

- هــذا الكتــاب « **الدين والدولة ٠٠ من توجيــه القــرآن الكريم** » يوضح **كتاب الله : من كتاب الله :** ويجيب على مثل هذه الأســئلة وغيرها ٠٠ ويرشد الشباب المســلم اليوم ، الذى يقع تحت تأثير « **العلمانية** » وادعاء الفصل بين الدين والسياسة ٠٠ الى أن رسالة خاتم الأنبيــاء والمرسلين عليه صلوات الله ، تكفلت بتوجيــه المســلم الى حكم الله على هذه الأرض ٠ وهو حكم القيم والمبادىء الانسانية ٠٠ فى مواجهــة حكم الهوى والشيطان ٠٠

« **أفحكم الجاهلية يبغــون ٠٠ ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** » ٠

[صــدق الله العظيم]

مكتبة وهبة